

العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع

وقائع المؤتمر الدولي الحادي والعشرين
في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

٢٧ - ٢٨ نيسان (أبريل) ٢٠٢١ م

الأستاذ الدكتور

عبد الباقي بدر ناصر

رئيس المؤتمر

عميد كلية الآداب
الجامعة المستنصرية

٠٠١,٣٠٦٣

م ٤٩٨ العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع

(٢١ : ٢٠٢١ : كلية الآداب - الجامعة المستنصرية)

/ وقائع المؤتمر الدولي الحادي والعشرين) - بغداد :

مطبعة كلية الآداب ٢٠٢١

٧١٧ ص ؛ ٢٤ سم.

م.و. ١. العلوم الإنسانية - مؤتمرات. أ. العنوان.

٢٠٢١ / ١٥٣١

المكتبة الوطنية / الفهرسة في أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد:

(١٥٣١) لسنة ٢٠٢١ م

الترقيم الدولي ISBN:

٨-٩٦٧-٢٠-٩٩٢٢-٩٧٨

طبع: مطبعة كلية الآداب - الجامعة المستنصرية ٢٠٢١

الطبعة الأولى - حقوق الطبع محفوظة

إعداد وتنسيق

أ.م.د. وسام مجيد جابر البكري

تصميم الغلاف وطبع

م.م. أثير محمد مجيد

فهرست المؤتمر الدولي الحادي والعشرين العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع

ت	العنوان	ص
١	فهرست المؤتمر	١ م
٢	كلمة السيد رئيس المؤتمر الدولي الحادي والعشرين أ.د. عبد الباقي بدر ناصر عميد كلية الآداب - الجامعة المستنصرية	٥ م
٣	البيان الختامي والتوصيات ... إدارة المؤتمر	٧ م
٤	لجان المؤتمر الاستشارية والعلمية والإدارية	١٠ م
٥	التغطية الاخبارية لجائحة كورونا في الصحف العراقية؛ دراسة تحليلية لصحيفة الزمان؛ طبعة بغداد بنسختها الالكترونية. أ.م.د. سهاد عادل القيسي & رفل أكرم فرج عبد الحسين	١
٧	استخدامات الذكاء الاصطناعي في العدالة د. ابراهيم خليل خنجر الموسوي	١٦
٨	تاريخنا الحضاري؛ بين عقب الماضي والرؤية المستقبلية؛ أسبقيات علماء الحضارة العربية الإسلامية العلمية نموذجاً أ.د. عمار محمد النهار؛ جامعة دمشق - سوريا	٤٤
٩	خطاب الحداثة الناعمة حديث النهايات وميلاد البدايات آسيا عمرانى - جامعة العربي التبسي - الجزائر	٩٣
١٠	التعايش بين الأديان في الرواية العراقية الحديثة أ.د. إسراء حسين جابر	١١٤

١٣٩	الإعلامية في أشعار أبي تمام الخلافية أ.م.د. ندى سالم عيدان & أ.م.د. كريم علي عبد علي	١١
١٧٠	السبك النحوي والمعجمي في الخطبة الفدكية أ.م.د. قحطان رشك دخيل	١٢
١٩٣	مظاهر أسلوبية في مشاهد قرآنية - دراسة في نماذج مختارة م.م. عمر رعد أسعد	١٣
٢٢١	توظيف اللسانيات الروائية لخدمة المجتمع؛ كتاب: الرواية؛ مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته - لبرنار فاليت أنموذجا أ.د. حسن عبد الهادي الدجيلي & أ.م.د. إسماعيل عباس حسين	١٤
٢٤٥	التوليد اللغوي بين التداولية والنقد الثقافي؛ اللهجة العراقية أنموذجا أ.م.د. حسين علي جبار القاصد	١٥
٢٦٧	مدينة الكفل في مدونات الرحالة والأعلام؛ دراسة تاريخية تحقيقية د. أرشد حمزة حسن	١٦
٣٠٩	البنية الخارجية لقصيدة المديح في شعر ابن بقي الاندلسي (٥٤٠ هـ) أ.م.د. ندى عسكر محمود	١٧

٣٢٥	دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع الشائعات انموذجا أ.د. مهدي محمد القصاص & أ.د. عبد العزيز حسين محمد المعهد العالي للخدمة الاجتماعية - بورسعيد - مصر	١٨
٣٥٢	قراءة سوسيو - ثقافية في نشوء وتطور الدولة العراقية الحديثة ١٩٢١-٢٠٢١ أ.م.د. محمد حمود إبراهيم السهر	١٩
٣٥٨	إبحار في العلوم العصبية التربوية بحثا عن التوفيق بين الدماغ والقلب واليد من أجل تربية تتصف بالتكامل والانسجام والتوازن أ. يوسف المرواني - تونس	٢٠
٣٩٨	معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلاب في الجامعة بحري صابر & خرموش منى - جامعة محمد لمين دباغين سطيف = الجزائر	٢١
٤٢٧	دور المسرح المدرسي في معالجة قضية التحصيل العلمي والتربية الإعلامية والمهارية بمرحلة ما قبل التعليم الجامعي مسرحة المناهج المصرية نموذجا أ.م.د. صفاء علم الدين عبد الجواد النواردي - جامعة ٦ أكتوبر - مصر	٢٢
٤٩٤	السخرية السياسية وعلاقتها بالسلوك الانتخابي لدى طلبة الجامعة د. حوراء محمد علي المبرقع	٢٣

٥٣٥	دور الارشاد النفسي في معالجة المشكلات الاجتماعية والسلوكية التفكك الاسري وادمان المخدرات أنموذجاً م. د. عدي جبر كاظم	٢٤
٥٥٥	تأثير ثورة المعلومات على الاستقرار السياسي في دول مجلس التعاون الخليجي بعد عام ٢٠١١ أ.م.د. حسين قاسم محمد الياسري	٢٥

Contents

No	Title	P.
1	Measurement method by finding the global weight of item "A theoretical and practical model" Ph.D. Assistant Professor Sattar Jabbar Ghanem	1
2	Le mythe antique et la vision socio-humaine contemporaine; Jean Giraudoux comme modèle Prof. Assistant Lamia kathim MOUFTEN Prof. Assistant Majed Jamil NASIF	19
3	Le lieu anthropologique et le non-lieu entre société et littérature : comparaisons textuelles Dr. Ala Shatnan AL-TEMIMI	53

لجان المؤتمر الدولي الحادي والعشرين
في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
بعنوان:

“ مؤتمر العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع ”

٢٧ - ٢٨ نيسان (أبريل) ٢٠٢١

أولاً: رئيس الملتقى:

الأستاذ الدكتور عبد الباقي بدر ناصر - عميد الكلية

ثانياً: منسق المؤتمر:

م.د. هديل سعدي موسى

ثالثاً: اللجنة الاستشارية:

١. أ.د. عبد الجبار الرفاعي - العراق
٢. أ.د. علي أسعد وطفة - الكويت
٣. أ.د. عبد الله الغدامي - السعودية
٤. أ.د. عبد الله البشير - السودان
٥. أ.د. يوسف أحمد المرواني - تونس
٦. أ.د. أحمد زايد - مصر
٧. أ.د. آمنه بلعل - الجزائر

٨. أ.د. كنزة القاسمي - المغرب
٩. أ.د. أحمد الوشاح - أميركا
١٠. أ.د. محسن السيد جاسم - أميركا

رابعاً: اللجنة العلمية:

١. أ.د. سعد عبد الزهرة - رئيساً.
٢. أ.د. مهدي فالح الغزالي - عضواً
٣. أ.د. سمر رحيم - عضواً
٤. أ.د. بشير ناظر - عضواً
٥. أ.د. رائد جبار - عضواً
٦. أ.د. ابتسام العيبي - عضواً
٧. أ.م.د. لطيفة إسماعيل - عضواً
٨. أ.م.د. ستار جبار - عضواً
٩. أ.م.د. صباح كاظم - عضواً
١٠. م.د. دريد شدهان - عضواً

خامساً: اللجنة التحضيرية:

١. أ.م.د. عواطف علي خريسان - رئيساً
٢. أ.م.د. وسام مجيد جابر - عضواً
٣. أ.م.د. جنان وحيد جاسم - عضواً

٤. أ.م. ماجد جميل نصيف - عضواً

٥. أ.م.د. مها عبد الواحد عزت - عضواً

سادساً: اللجنة الإدارية والمالية:

١. أ.م.د. جلال كاظم - رئيساً

٢. م.م. أثير محمد - عضواً

٣. السيدة نسرين هاشم - عضواً

٤. السيد محمد كاظم - عضواً

سابعاً: لجنة الانترنت والإعلام:

١. أ.د. حسين علي قيس - رئيساً

٢. م.د. محمد محسن أبيش - عضواً

٣. م.د. لينا خزعل مظلوم - عضواً

٤. أ.م. ماجد جميل نصيف - عضواً

٥. م.د. وفاء محمد كريم - عضواً

كلمة السيد رئيس المؤتمر الدولي الحادي والعشرين : ”العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع“

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أبي القاسم محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين؛ وبعد:

السيد رئيس الجامعة المستنصرية المحترم
السادة الحضور الكرام مع حفظ الألقاب والمقامات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
قال تعالى ﴿ وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ .

أيها الكرام:

لا يخفى على حضراتكم أن الغاية مما أسست عليه العلوم الإنسانية هي دراسة السلوك الإنساني، ومحاولة تنظيم ذلك السلوك في حوايا المجتمعات تنظيمًا يخرجها من حالة الفوضى إلى أحوال الثبات والاستقرار.

ومن التلقائية والاعتباطية إلى أحوال النظام والغائية؛ فقد قطعت العلوم الإنسانية أشواطاً كبرى من أجل تحقيق أهدافها؛ ومنها انبثقت فكرة المؤتمر العلمي الدولي الحادي والعشرين لكلية الآداب؛ الموسوم بـ (العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع)؛ إذ جاء في أربعة محاور، تطرق الأول منها إلى أثر الدراسات اللغوية والأدبية في إنماء الوعي المجتمعي، و حظي الثاني بالدراسات

الفلسفية، والنفسية، والاجتماعية وانعكاساتها في خدمة المجتمع، وانبرى المحور الثالث للدراسات التاريخية والإعلامية؛ بين العبق والألق؛ الماضي في بؤجه، والمستقبل في فؤجه؛ في ما جرث ينبع المحور الرابع في اقتصاد المعرفة وإدارتها في خدمة المجتمع.

أيها الأحبة:

شارك في المؤتمر اثنان وأربعون باحثاً من دول عربية تنوعت كالفلسطين، منها مصر، والجزائر، وتونس، والأردن، وسوريا؛ فضلاً عن مشاركة الباحثين من الجامعات العراقية بما فيها الجامعة المستنصرية، وقد نُشر اثنا عشر بحثاً منها في المستوعبات العالمية؛ سكوباس (Q3).

وأخيراً وليس آخراً؛ أتوجه بالشكر والعرفان إلى ذي الرعاية الثقافية والمعرفية؛ السيد رئيس الجامعة المستنصرية الأستاذ الدكتور حميد فاضل التميمي؛ لأنه دعم وأسند بنحو متواصل كليتنا؛ والشكر موصول إلى كل من قدم خير مقدم، وأسهم في إنجاح المؤتمر؛ وكذا الشكر لكل اللجان العاملة في الوصول إلى هذا الرقي والتميز.

شكراً لكلية الجمال، والإبداع؛ ذرة المستنصرية؛ كلية الآداب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الأستاذ الدكتور

عبد الباقي بلدا الحزرجي

رئيس المؤتمرات

عميد كلية الآداب. الجامعة المستنصرية

٢٧/٤/٢٠٢١

البيان الاحتامي والتوصيات للمؤتمر الحادي والعشرين: العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

السادة الحضور مع حفظ المقامات والألقاب ...
السادة الباحثون من داخل العراق وخارجه ...
الأساتيد الأفاضل
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

لقد دأبت كليتنا في جامعتنا على إقامة مؤتمرها السنوي، وهو في هذا العام بعنوان: (العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع). لقد استند عنوان مؤتمرنا هذا إلى الأهمية الكبرى للعلوم الإنسانية التي تهتم بالإنسان وثقافته، وتهتم بكيفية تعامل الناس وتوثيقهم لتجاربهم الإنسانية، فلقد استخدم الإنسان أساليب مختلفة لفهم العالم كالأدب والفلسفة والاجتماع، والتاريخ واللغة.

وفي سعيها الجاد لصناعة خطاب عام أكثر مدنية، وقوى عاملة أكثر إبداعاً، وقدرة على التكيف، وأمة أكثر أمناً، تقع الإنسانيات والعلوم الاجتماعية في جوهر هذه القضية، حيث تحافظ هذه العلوم على الدولة من خلال كونها مصدراً للقوة المدنية والذاكرة الوطنية، والتفاهم الثقافي، والمثل التي نتشاركها جميعاً.

السادة الحضور .. لقد تم تسلّم أكثر من سبعين بحثاً، من بلدان عدة، منها: مصر والجزائر وتونس وسوريا والأردن فضلاً عن الباحثين داخل العراق. حظي اثنان وأربعون بحثاً منها بقبول اللجنة العلمية للمؤتمر. توزعت على محاوره، وهي: (أثر الدراسات اللغوية والأدبية في تنمية الوعي المجتمعي)، و (الدراسات الفلسفية والنفسية والاجتماعية وانعكاساتها في خدمة المجتمع)، و (الدراسات التاريخية والإعلامية بين عبق الماضي ولرؤية المستقبلية، واقتصاد المعرفة، وإدارتها في خدمة المجتمع) .

ولقد خلّص مؤتمرنّا هذا إلى جملة من التوصيات، منها:

- ١ . ضرورة إقامة المؤتمرات التي تُعنى بأهمية العلوم الإنسانية، بوصفها المدخل إلى خدمة المجتمع.
- ٢ . إنشاء المراكز البحثية التي تخصص للعلوم الإنسانية؛ لتفعيل التفكير النقدي والتحليلي؛ لمعالجة قضايا المجتمع وإشكالاته، على أساس الإيمان بالحرية، والإقرار بحق الاختلاف.
- ٣ . منح فرصة أكبر لدارسي العلوم الإنسانية في خدمة سوق العمل في مجالات التدريس، والإعلام، والخبراء اللغويين، وتقديم الاستشارات، وتنظيم الفعاليات الاجتماعية، وإدارة العلاقات العامة، وإيجاد الحلول للمشكلات الإنسانية، وتفسير السلوك.
- ٤ . توجيه العلوم الإنسانية نحو الاهتمام بالشباب لخلق جيل واعٍ، ومثقف، يشارك في بناء الدولة والمجتمع.
- ٥ . إن الاهتمام بالعلوم الإنسانية ضروري بقدر أهمية العلوم الطبية والتقنية؛ فالمجتمع يحتاج إلى بناء العقل الإنساني، ومحاربة الإرهاب والأفكار المتطرفة والهدامة.

٦. إعادة النظر في مستويات الأهمية، إذ من الضروري التوجه نحو العلوم الإنسانية والأوساط الأكاديمية والعلمية، وتشجيع الطلبة على الإيمان بأهمية العلوم الإنسانية في بناء المجتمع.

والسّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته

إدارة المؤتمر

٢٨-٤-٢٠٢١

**لجان المؤتمر الدولي الحادي والعشرين
في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
بعنوان:**

“ مؤتمر العلوم الإنسانية وآفاق خدمة المجتمع ”

٢٧ - ٢٨ نيسان (أبريل) ٢٠٢١

أولاً: رئيس الملتقى:

الأستاذ الدكتور عبد الباقي بدر ناصر - عميد الكلية

ثانياً: منسق المؤتمر:

م.د. هديل سعدي موسى

ثالثاً: اللجنة الاستشارية:

١. أ.د. عبد الجبار الرفاعي - العراق
٢. أ.د. علي أسعد وطفة - الكويت
٣. أ.د. عبد الله الغدامي - السعودية
٤. أ.د. عبد الله البشير - السودان
٥. أ.د. يوسف أحمد المرواني - تونس
٦. أ.د. أحمد زايد - مصر
٧. أ.د. آمنه بلعل - الجزائر

٨. أ.د. كنزة القاسمي - المغرب
٩. أ.د. أحمد الوشاح - أميركا
١٠. أ.د. محسن السيد جاسم - أميركا

رابعاً: اللجنة العلمية:

١. أ.د. سعد عبد الزهرة - رئيساً.
٢. أ.د. مهدي فالح الغزالي - عضواً
٣. أ.د. سمر رحيم - عضواً
٤. أ.د. بشير ناظر - عضواً
٥. أ.د. رائد جبار - عضواً
٦. أ.د. ابتسام العيبي - عضواً
٧. أ.م.د. لطيفة إسماعيل - عضواً
٨. أ.م.د. ستار جبار - عضواً
٩. أ.م.د. صباح كاظم - عضواً
١٠. م.د. دريد شدهان - عضواً

خامساً: اللجنة التحضيرية:

١. أ.م.د. عواطف علي خريسان - رئيساً
٢. أ.م.د. وسام مجيد جابر - عضواً
٣. أ.م.د. جنان وحيد جاسم - عضواً

٤. أ.م. ماجد جميل نصيف - عضواً

٥. أ.م.د. مها عبد الواحد عزت - عضواً

سادساً: اللجنة الإدارية والمالية:

١. أ.م.د. جلال كاظم - رئيساً

٢. م.م. أثير محمد - عضواً

٣. السيدة نسرين هاشم - عضواً

٤. السيد محمد كاظم - عضواً

سابعاً: لجنة الانترنت والإعلام:

١. أ.د. حسين علي قيس - رئيساً

٢. م.د. محمد محسن أبيش - عضواً

٣. م.د. لينا خزعل مظلوم - عضواً

٤. أ.م. ماجد جميل نصيف - عضواً

٥. م.د. وفاء محمد كريم - عضواً

التغطية الاخبارية لجائحة كورونا في الصحف العراقية

دراسة تحليلية لصحيفة الزمان

طبعة بغداد بنسختها الالكترونية

رغل أكرم فرج عبد الحسين

أ.م.د. سهاد عادل القيسي

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

مقدمة

طغت جائحة كورونا على معظم الموضوعات والقضايا التي تتناولها وسائل الاعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية والالكترونية بشكل لافت للنظر على الرغم من أهمية وخطورة القضايا الاخرى ومنها القضايا السياسية والاقتصادية ولاسيما الجمود الاقتصادي وانهيار الاسواق، وتقاعس العجز المالي في ميزانية العراق.

فقد ظهرت تداعيات ومضاعفات لهذا الوباء ليس فقط على الوضع الصحي فحسب وانما على الاصعدة الاخرى.

وكان للصحف العراقية بنسختها الالكترونية دورا مهما في هذه التغطية ولاسيما ما يتعلق بالتقارير الاخبارية التي ترصد حالات الاصابة يوميا وبيانات وزارة الصحة العراقية وخلية الازمة بهذا الصدد، والاجراءات الاحترازية المتخذة من الحكومة العراقية بوزارتها ومؤسساتها المختلفة.

ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على المدى الذي وصلت اليه التغطية الاخبارية في أحد الصحف العراقية بنسختها الالكترونية بعد ان توقفت الصحيفة بنسختها المطبوعة بسبب ظروف الحظر الصحفي الشامل الذي شهده العراق بعد تقاعس حالات الاصابة بفايروس كورونا.

ويتكون هذا البحث من ثلاثة أطر الاول يتمثل بالإطار المنهجي الذي

يتضمن أهمية البحث ومشكلته وأهدافه فضلاً عن إجراءاته المتمثلة بمنهج البحث ونوع الدراسة وأداة البحث ومجتمع البحث وعينته وإجراءات الصدق والثبات، والثاني يتمثل بالإطار النظري من حيث التعرف على مفهوم التغطية الاخبارية وأنواعها ومراحلها، والثالث الإطار التحليلي للتغطية الاخبارية لجائحة كورونا في الصحيفة موضوع الدراسة، وقد توصل البحث الى جملة من النتائج والاستنتاجات.

أهمية البحث

اتفقت معظم المصادر المنهجية على وصف أهمية البحث بالقيمة المعرفية الجديدة المضافة لمجال الدراسة، وصلة تلك المعرفة بالحالة الراهنة، إذ تتخذ هذه القيمة المعرفية للبحث أشكالاً مختلفة تتمثل بأوجه الإضافات الجديدة الخاصة بالتعديلات التي تستهدف معلومة ما، او بيان نسبة ثبات شيء ما، أو التحقق من أمر عند ظروف مشابهة أو مغايرة تختلف باختلاف العوامل والمؤثرات^(١).

ويأتي موضوع جائحة كورونا ليحقق شروط هذا الوصف المنهجي من حيث ارتباط المعرفة به بالحالة الراهنة، وقيمتها المعرفية الكبيرة عند البشرية اجمع لأنه أصبح يهدد حياتهم لاسيما بعد تزايد حالات الاصابة به في العالم وفي العراق.

وعليه تنبع أهمية البحث من أهمية الموضوع نفسه لخطورة هذه الجائحة وحاجة الناس الى وسائل الاعلام لمعرفة ما يدور حولهم والاستزادة المعرفية بتطورات هذا الوباء للوقاية من الاصابة به، فضلاً عن الأهمية الاعلامية المتمثلة بالتعرف على مستوى وحجم التغطية الاخبارية لهذا الموضوع، وبذلك تتمثل أهمية البحث بنوعين هما الأهمية العلمية النظرية، والأهمية المجتمعية التطبيقية، لان أهمية أي بحث تكمن فيما سيضيفه للمعرفة والمجتمع معاً.

(١) منال هلال المزاهرة، مناهج البحث الإعلامي، دار المسيرة، عمان، ٢٠١١، ص ٧٦.

مشكلة البحث

اعتمد هذا البحث على وضع تساؤل رئيس تنبثق منه عدة تساؤلات فرعية اذ يتمثل المبدأ الذي يوضح التركيز والاهتمام الموضوعي للبحث بإيجاد تساؤل رئيس حول ظاهرة تتفرع منه أسئلة فرعية تجتمع إجاباتها لتقود بالضرورة الى الإجابة عن التساؤل الرئيس الممثل للمشكلة البحثية^(١).

ولما كان جوهر البحث العلمي يقوم على دراسة مشكلات محددة يعرفها المختصون بأنها " عبارة عن موضوع يحيط به الغموض، ظاهرة تحتاج الى تفسير، قضية موضع خلاف "^(٢)، فان مشكلة هذا البحث وفقا للتوصيف المنهجي اعلاه تدور في تساؤل رئيسي مفاده: ما المدى الذي وصلت اليه التغطية الاخبارية لجائحة كورونا في الصحف العراقية وتحديدأ صحيفة الزمان موضوعة الدراسة ؟

وتنبثق عن هذا التساؤل الرئيسي تساؤلات فرعية وكالاتي:

١. ما الموضوعات التي ركزت عليها صحيفة الزمان في تغطيتها الاخبارية لجائحة كورونا ؟
٢. هل كانت التغطية الاخبارية لقضية وباء كورونا في الصحف الالكترونية العراقية مواكبة لتطورات هذه القضية ؟
٣. هل غطت صحيفة الزمان الحالات الاخرى المرافقة لجائحة كورونا كالإجراءات الحكومية وتعامل الناس معها ؟
٤. ما الفنون الصحفية التي غطت فيها صحيفة الزمان لجائحة كورونا ؟
٥. ما المصادر التي اعتمدتها صحيفة الزمان في تغطيتها لجائحة كورونا ؟

(١) سهيل رزوق ذياب، مناهج البحث العلمي، د.م، غزة، ٢٠٠٣، ص ٤٠.

(٢) مصطفى الطائي، خير أبو بكر، مناهج البحث العلمي وتطبيقاتها، الاسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٧، ص ٣١.

أهداف البحث

لكي يكون البحث العلمي ذو قيمة لا بد ان يكون له هدف، ذلك ان الهدف او الغرض هو توضيح: لماذا يقوم الباحث بهذا البحث، وما الذي يريد الوصول اليه،، ويفهم من ذلك ان الهدف هو السبب الذي من أجله قام الباحث بهذا البحث، فضلا عن ايضاح الاستخدامات الممكنة لنتائج البحث وشرح قيمته العلمية والتطبيقية^(١).

وعليه ترتبط أهداف البحث بأهمية الموضوع الذي يتناوله وأهمية البحث الذي يقوم بتحليله من جهة، وبالإجابة على تساؤلاته من جهة ثانية، اذ يرمي البحث الى تحقيق هدف رئيسي يتمثل في تحديد المدى الذ وصلت اليه التغطية الاخبارية لجائحة كورونا في صحيفة الزمان.

وتنبثق عن هذا الهدف الرئيس تحقيق اهداف فرعية اخرى تتمثل بالاتي:

١. تشخيص أبرز الموضوعات التي ركزت عليها صحيفة الزمان في تغطيتها الاخبارية لجائحة كورونا.
٢. التعرف فيما اذا كانت التغطية الاخبارية لجائحة كورونا في صحيفة الزمان مواكبة لتطورات هذه القضية.
٣. معرفة الحالات الاخرى المرافقة لجائحة كورونا التي غطتها صحيفة الزمان كالإجراءات الحكومية وتعامل الناس معها.
٤. بيان أهم الفنون الصحفية التي غطت فيها صحيفة الزمان جائحة كورونا.
٥. الوقوف على المصادر التي اعتمدتها صحيفة الزمان في تغطيتها لجائحة كورونا.

منهج البحث ونوع الدراسة

يصنف هذا البحث ضمن الدراسات الوصفية التي تدرس الظاهرة في

^١ منال هلال مزاهرة، بحوث الاعلام: الأسس والمبادئ، عمان، دار كنوز، ٢٠١١، ص ٥١.

وضعها الراهن اذ تعرف البحوث الوصفية بأنها " الطرق التي يتمكن الباحثون من خلالها وصف الظواهر العلمية والظروف المحيطة بها في بيئتها، والمجال العلمي الذي تنتمي اليه، وتصور العلاقة بينها وبين الظواهر الاخرى المؤثرة والمتأثرة فيها، كما تصور شكل العلاقة بين متغيراتها باستخدام أساليب وأدوات البحث العلمي التي تلائم الأهداف التي يسعى الباحثون الى تحقيقها من وراء استخدام هذه البحوث"^(١).

ويشير مختصون الى ان البحوث الوصفية تعد من أكثر دراسات البحث العلمي استخداما في المجال الاعلامي، وذلك للخصائص التي تتميز بها والمتمثلة في الآتي^(٢):

- أ - انها تبحث بين أشياء مختلفة في طبيعتها لم تسبق دراستها، فيتخير الباحث منها ما له صلة بدراسته لتحليل العلاقة بينها.
- ب - انها تتضمن مقترحات وحلولا مع اختبار صحتها.
- ت - انها كثيرا ما يتم فيها استخدام الطريقة المنطقية (الاستقرائية والاستنتاجية) للتوصل الى قاعدة عامة.
- ث - انها تصف النماذج المختلفة والاجراءات بصورة دقيقة كاملة بقدر المستطاع، بحيث تكون مفيدة للباحثين فيما بعد.

وعليه يصنف هذا البحث ضمن الدراسات الوصفية التي تصف ظاهرة معينة في وقتها الحالي وهي ظاهرة جائحة كورونا وتداعياتها على الحياة العامة في العراق بجوانبها كلها.

وأن انسب منهج يمكن ان يستخدمه هذا البحث للوصول الى اهدافه هو المنهج الوصفي التحليلي عن طريق وصف ورصد المعلومات والبيانات الصادرة من الجهات الرسمية في العراق الصحية والامنية التي ركزت عليها التغطية

^١ منال هلال مزاهرة، مصدر سابق، ص ١٠٥.

^٢ محمود حسن اسماعيل، مناهج البحث الاعلامي، القاهرة، دار الفكر العربي، (٢٠١١)، ص ٩٦ - ٩٧.

الاخبارية لصحيفة الزمان.

أداة البحث

ان أنسب اسلوب لتحليل التغطية الاخبارية هو اسلوب تحليل المضمون، لاسيما وان هذا الاسلوب أصبح أداة لها حضورها المهم في البحوث الوصفية، اذ لم تقتصر على الوصف الكمي فحسب، بل امتدت الى الوصف الكيفي في الكشف عن المعاني والدلالات الكامنة التي تتضمنها المواد الاعلامية^(١).

ويعرف برنارد بيرلسون هذا الاسلوب الذي يرقى الى ان يكون منهجا بأنه " اسلوب البحث الذي يهدف الى الوصف الكمي والموضوعي والمنهجي للمحتوى الظاهر للاتصال "^(٢).

وتوجد في تحليل المضمون فئات نمطية خاصة بمضمون المادة الاعلامية (ماذا قيل ؟)، واخرى لشكل المادة الاعلامية (كيف قيل ؟)، فعلى مستوى المضمون توجد الفئات الآتية^(٣):

أ. فئة الموضوع.

ب - فئة الاتجاه.

ج - فئة المستويات.

د - فئة القيم.

هـ - فئة الأساليب المتبعة.

و- فئة السمات.

ز - فئة الممثل.

ح - فئة المصدر.

ط - فئة منشأ المعلومة.

^١ عبد الكريم بن عيشة، تحليل المحتوى الاعلامي، عمان، دار اسامة، ٢٠١٨، ص ١٣

^٢ محمد عبد الحميد، تحليل المحتوى في بحوث الاعلام، بيروت، دار الهلال، جدة، دار الشروق، ٢٠٠٩، ص ٢١.

^٣ محمود حسن اسماعيل، مصدر سابق، ص ١٨٣ - ١٨٥.

ي - فئة الجمهور المستهدف.

واستنادا لأهداف البحث تم اختار من فئات (ماذا قيل ؟) و (كيف قيل ؟) الفئات الآتية:

أ - فئة الموضوع،

ب - فئة مصدر المعلومة

ت - فئة مكان المعلومة،

ث - فئة شكل او نمط المادة الاعلامية.

وعليه تم الاعتماد على اداتين للحصول على المعلومات في هذا البحث هما استمارة تحليل المضمون واداة الملاحظة العلمية لرصد وملاحظة ما تنشره صحيفة الزمان لحالات الاصابة بوباء كورونا وتأثير الحظر المتجدد في العراق على الحياة العامة.

مجتمع البحث وعينته

لمجتمع البحث معنيان، أحدهما فلسفي ويشير الى مجموعة من الأفراد المرتبطين بعلاقات وخصائص منتظمة وصفات وسمات متقاربة ومشاركات يخضعون لها بالإدراك او دونه^(١)، والثاني اصطلاحي ويعني مجموعة من الوحدات الاحصائية المحددة والواضحة التي تتوافر فيها الخصائص وترتبط بمشكلة البحث، ويراد منها الحصول على بيانات^(٢)، ويعرف مجتمع البحث من وجهة نظر الاحصائيين بأنه " عبارة عن جميع القيم او المفردات التي يمكن ان يأخذها المتغير "^(٣)، ومجتمع البحث يكون على مستويين هما^(٤):

أ. مجتمع محدود: أي بالمقدور حصر مفرداته.

^١ ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع، ١٩٨٣، ص ١٧١.

^٢ رحيم يونس كرو العزاوي، (٢٠٠٨)، مقدمة في منهج البحث العلمي، عمان، دار دجلة، ص ١٦١.

^٣ خاشع محمود الراوي، (١٩٨٩)، المدخل الى الاحصاء، الموصل، وزارة التعليم العالي، ص ١٣.

^٤ المصدر نفسه، ص ١٤.

ب - مجتمع غير محدود وهو المجتمع الذي يتعذر حصر عدد مفرداته.

ويمثل مجتمع هذا البحث بالصحف العراقية اليومية التي لها امتداد الكتروني على الشبكة الدولية (الانترنت) أي لها مواقع الكترونية وهي ما تصنف اكاديميا ضمن النوع الثاني من انواع الصحافة الالكترونية، اما عينة البحث فهي الصحف اليومية الرئيسية التي لها اصدار الكتروني وقد تم اختيار صحيفة الزمان - طبعة بغداد بنسختها الالكترونية عينة عمدية لتحليل التغطية الاخبارية لجائحة كورونا ولمدة شهر واحد هو شهر أيار ٢٠٢٠ وبعود سبب اختيار هذه المدة الزمنية لارتفاع حالات الاصابة بفايروس كورونا خلال هذا الشهر .

مدخل نظري الى التغطية الاخبارية

اولا: مفهوم التغطية الاخبارية

يمكن تعريف التغطية الاخبارية بأنها مجموعة من الخطوات المنتظمة التي يقوم بها الاعلامي عند اختيار حدث معين لإخبار الجمهور عن تفاصيل وحيثيات حدث او قضية معينة تهمه، وتتطلب هذه العملية من الاعلامي جمع أكبر قدر من المعلومات والحقائق بالاعتماد على مصادره ووسائله الخاصة والعامة بشكل يجعل من التغطية التي قام بها متكاملة.^١

فالتغطية الاخبارية عبارة عن نشاط ذات غاية لا يكتمل الا بتحققها، وهاجسها الاساس هو الوصول الى المتلقي والتأثير فيه^٢، ولكي تحقق التغطية هدفها لابد ان تكون مسكونة بهاجس ايجاد وتعميق مجرى تفاعلي بين المتلقي والحدث الضخم عن طريق توفير وتقديم حجم معرفي عبر تقديم الوقائع الجوهرية

^١ اسعد الموسوي، تغطية وكالات الأنباء الدولية للشؤون العراقية - دراسة تحليلية للنشرة الاخبارية في وكالتي رويتر وسبوتنيك الروسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجنان، كلية الاعلام، لبنان، ٢٠١٩، ص٣.

^٢ انمار وحيد فيضي، التغطية الاخبارية في الصحافة الالكترونية، ط١، دار اسامة للنشر والتوزيع، الاردن - عمان، ٢٠١٦، ص٤٢.

والمهمة والدالة التي تمكن المتلقي من معرفة الحدث في معطياته وجوانبه ومساراته المختلفة.^١

بينما يعرفها كرم شلبي بأنها عملية الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن حدث معين خلال اعتماد المندوب الصحفي المكلف بالتغطية على مصادره ووسائله في الحصول على الحقائق والمعلومات بشأن قضية معينة تهم شريحة معينة من الناس أو تهم اغلب الناس لأي سبب من الاسباب وعرضها بصورة واضحة وجلية.^٢

وهناك من يصف التغطية الخبرية بأنها تقرير عن شيء حدث لتوه، اذ تعد من اكثر انواع الكتابة الاخبارية شيوعا.^٣

ويكمن مفهوم التغطية الاخبارية فيما تعرفه اليوم من معلومات عن حدث ما، ولم تكن تعرفه بالأمس.^(٤)

فالتغطية الاخبارية تتركز في عملية تناول الحدث ووصفه ووضعه في سياق ايضاحي مبسط يفيد الخبر بتفاصيله كلها والالمام بأطرافه جميعها التي توصل الحقيقة بوضوح للقارئ أو المستمع أو المشاهد.^(٥)

فهي عملية الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن حدث معين اثناء اعتماد المندوب الصحفي المكلف بالتغطية على مصادره ووسائله في الحصول على الحقائق والمعلومات بشأن قضية معينة تهم شريحة معينة من الناس أو تهم

^١ اديب خضور، الحدث المتداول، مجلة الاذاعة العربية، العدد: ٢١، تونس، ٢٠٠١، ص ٢٦.

^٢ كرم شلبي، معجم المصطلحات الاعلامية، القاهرة، مطابع الشروق، ١٩٨٩، ص ٣٩٣.

^٣ فخري كريم، الصحفي دراسة في اشكال الكتابة الصحفية، منشورات الطريق الجديد، ١٩٧٧، ص ٩٦ - ٩٧.

^٤ هريبرت سترنز، المراسل الصحفي ومصادر الاخبار، ترجمة: سميرة ابو سيف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٢.

^٥ سهام حسن الشجيري، التغطية الاخبارية، رسالة ماجستير غير منشورة، اجيزت في جامعة بغداد - كلية الآداب، ١٩٩٤، ص ١٤.

أغلب الناس لأي سبب من الأسباب وعرضها بصورة واضحة وجلية.^(١)
فالتغطية الاخبارية تمثل العملية التي يقوم بها صحفي متخصص لتغطية حدث او واقعة ما والالمام بتفاصيلها والمعلومات المتعلقة بها كافة ودعمها بالأدلة، وتوثيقها بالمصادر والصور وكل ما يعطي هذه التغطية مصداقيتها.^(٢)
وتجيب التغطية الاخبارية على ستة تساؤلات تشكل تغطية متكاملة للحدث هي^(٣)

١. من:
٢. ماذا:
٣. متى:
٤. أين:
٥. كيف:
٦. لماذا:

وتؤدي التغطية الإخبارية للأحداث دورا مهما في تكوين الأفكار وصناعة الرؤى لدى أفراد المجتمع، ومن ثمة تكوين اتجاهاتهم ومواقفهم اتجاه القضايا المهمة والمصيرية في حياة المجتمعات، وحتى تغطية الأحداث البسيطة تكتسي أهمية بالغة في توجيه وعي الأفراد بالتطورات والتحوليات التي تشهدها البيئة التي يعيشون فيها، المبنية على الجهد والدراسة والربط بين الواقع والأحداث المشابهة، وعقد المقارنات.^(٤)

^١ كرم شلبي، معجم المصطلحات الاعلامية، القاهرة، مطابع الشروق، ١٩٨٩، ص ٣٩٣.
^٢ بتول عبد العزيز رشيد العاني، قواعد التغطية الاخبارية للصراعات السياسية والتهجير في الصحافة الحزبية دليل عملي، مركز اضواء الاستشاري للدراسات والبحوث، بغداد، ٢٠١٤، ص ١٧.

^٣ عبد الرزاق محمد الدليمي، الخبر في وسائل الاعلام، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠١٢، عمان، ص ٣٢.

^٤ مريم هاشم محمد، التغطية الاخبارية لمعارك تحرير الموصل في الصحافة العراقية - صحيفة الصباح انموذجا، بحث، جامعة أهل البيت عليهم السلام - كلية الآداب،

أنواع التغطية الاخبارية

هناك عدة أنواع للتغطية الإخبارية من حيث اتجاه المضمون هي: (٧)

١. التغطية المحايدة: وفيها يقدم الصحفي الحقائق فقط، أي قصصاً إخبارية موضوعية خالية من العنصر الذاتي الشخصي، والتحيز، أي يعرض الحقائق الأساسية، والمعلومات المتعلقة بالموضوع، من دون تعميق أبعاد جديدة، أو تقديم خلفيات، أو تدخل بالرأي، أو مزج الوقائع، بوجهات النظر.
٢. التغطية التفسيرية: وفيها يجمع الصحفي المعلومات المساعدة، أو التفسيرية، إلى جانب الحقائق الأساسية للقصص الإخبارية بهدف تفسير الخبر، أو شرحه، وخدمة القراء، الذين ليس لديهم وقت كاف للبحث بأنفسهم، بشرط أن تكون هذه التغطية منصفة تقدم كل التفاصيل. وتتضمن هذه التغطية وصف الجو العام، المحيط بالحدث، أو وصف المكان، أو وصف الأشخاص، وذكر بعض المعلومات الجغرافية، أو التاريخية، أو الاقتصادية، أو السياسية، عن البلد، التي وقع فيها الحدث، وتحليل الأسباب، والدوافع والنتائج، والآثار المتوقعة، المبنية على الجهد والدراسة والربط بين الواقع والأحداث المشابهة، وعقد المقارنات.
٣. التغطية المتحيزة أو الملونة: وفي هذه التغطية، يركز الصحفي على جانب معين، من الخبر، وقد يحذف بعض الوقائع، أو يببالغ في بعضها، أو يشوه بعض الوقائع، وقد يخلط وقائع الخبر برأيه الشخصي، وهدف هذه التغطية هو تلوين، أو تشويه الخبر.

الإطار التحليلي

باستخدام استمارة تحليل المضمون واداة الملاحظة العلمية ورصد انواع التغطية الاخبارية لجائحة كورونا في صحيفة الزمان طبعة بغداد بنسختها

الالكترونية خلال شهر أيار لعام ٢٠٢٠ تبين الاتي:

جدول (١) الموضوعات التي تضمنتها التغطية الاخبارية

لجائحة كورونا في صحيفة الزمان

ت	الموضوع	التكرار	النسبة %	المرتبة
١	الموقف الوبائي اليومي للإصابات بفيروس كورونا المستجد	٢٩	١٦.٤	الاولى
٢	النماذج المفحوصة في المختبرات كافة	٢٩	١٦.٤	الاولى مكرر
٣	التحري النشاط للإصابات الذين ليس لديهم اعراض	١٠	٥.٦	الخامسة
٤	توزيع الاصابات جغرافيا	٢٩	١٦.٤	الاولى مكرر
٥	حالات الشفاء	٢٨	١٥.٨	الثانية
٦	الوفيات	٢٧	١٥.٣	الثالثة
	مجموع الاصابات	٢٥	١٤.١	الرابعة
	المجموع	١٧٧	% ١٠٠	

يبين الجدول اعلاه ابرز موضوعات التغطية الاخبارية لجائحة كورونا في صحيفة الزمان فقد ركزت هذه الصحيفة في تغطيتها على البيانات اليومية الصادرة من وزارة الصحة العراقية التي تبين الموقف الوبائي اليومي للإصابات المسجلة بفيروس كورونا في العراق وعدد النماذج التي تم فحصها اذ بلغ مجموع النماذج التي تم فحصها اثناء فترة تحليل هذه التغطية الاخبارية (٢٢٧٧٥٦) والتي احتلت المرتبة الاولى لثلاث فئات من الموضوعات المبينة بالجدول اعلاه

وشغلت نسبة ١٦.٤ % لكل فئة.

كما ركزت التغطية الاخبارية في توزيع حالات الاصابة على وفق محافظات العراق مقسمة العاصمة الى بغداد الرصافة وبغداد الكرخ ومدينة الطب ومنها حالات التحري النشط التي جاءت بالمرتبة الخامسة كما مبينة بالجدول اعلاه.

كما ابرزت التغطية الاخبارية في هذه الصحف عدد حالات الشفاء كما اظهرت عدد الوفيات جراء الاصابة بهذا الفيروس، من بينها عدد الراقدين بالعناية المركزة. فقد بلغت مجموع الاصابات خلال مدة تحليل التغطية الاخبارية (٦٤٣٩) مصابا وعدد حالات الشفاء (٣١٥٦) وعدد الراقدين الكلي (٣٠٧٨) وعدد الراقدين بالعناية المركزة (٤٦) مصابا، ومجموع الوفيات (٢٠٥) وقد وردت هذه الاحصائيات في بيان وزارة الصحة والبيئة- دائرة الصحة العامة، الصادر يوم الاحد ٣١ أيار ٢٠٢٠.

جدول (٢) المصادر التي اعتمدتها صحيفة الزمان طبعة بغداد في تغطيتها لجائحة كورونا

ت	الموضوع	التكرار	النسبة %	المرتبة
١	مصادر رسمية (بيانات وزارة الصحة والبيئة) و (خلية الازمة)	٢٩	٦٩.١	الاولى
٢	تصريحات مدراء الصحة	٨	١٩	الثانية
٣	مصادر داخلية خاصة بالصحيفة	٥	١١.٩	الثالثة
	المجموع	٤٢	١٠٠ %	

يبين الجدول اعلاه التوزيع النسبي للمصادر التي اعتمدت عليها صحيفة الزمان بنسختها الالكترونية لشهر ايار في تغطيتها لجائحة كورونا في العراق اذ

أظهر المسح التحليلي اعتماد هذه الصحيفة على ثلاثة مصادر رئيسية هي المصادر الرسمية التي جاءت بالمرتبة الأولى بنسبة ٦٩.١ % ثم فئة تصريحات مدراء الصحة بالمرتبة الثانية بنسبة ١٩ % ثم المصادر الداخلية (محرر او مراسل) بالمرتبة الثالثة بنسبة ١١.٩ %.

الاشكال الصحفية

رصدت هذه الدراسة اهم الاشكال الصحفية التي اعتمدتها صحيفة الزمان في تغطيتها الاخبارية لجائحة كورونا ووجدت ان فئة الخبر الصحفي تصدرت فئة الاشكال اذا لا يخلو أي عدد خلال الشهر من اقل من ثلاثة اخبار تغطي هذا الفايروس فضلا عن تغطية الموضوعات المرافقة لهذا الوباء كالحضر والاجراءات الاحترازية المتبعة، فضلا عن عدد من التقارير الصحفية الا ان الطابع الاخباري كان هو الشكل المهيمن في هذه التغطية.

الاستنتاجات

في ضوء ما برز من نتائج في تحليل التغطية الاخبارية في صحيفة الزمان طبعة بغداد بنسختها الالكترونية لجائحة كورونا نجد ان هذه التغطية اتسمت بالحيادية واقتصرت على تقديم المعلومات من مصادرها الرسمية المحايدة والموثوقة، فضلا عن تصريحات المسؤولين في وزارة الصحة وخلة الازمة، كما اتسمت التغطية الاخبارية بطابعها الاخباري البحث من خلال الاعتماد على فن الخبر الصحفي بدرجة مكثفة.

مصادر البحث:

١. ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع، ١٩٨٣.
٢. اديب خضور، الحدث المتداول، مجلة الاذاعة العربية، العدد: ٢١، تونس، ٢٠٠١.
٣. اسعد الموسوي، تغطية وكالات الأنباء الدولية للشؤون العراقية - دراسة تحليلية للنشرة الاخبارية في وكالتي رويتر وسبوتنيك الروسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجنان، كلية الاعلام، لبنان، ٢٠١٩.
٤. انمار وحيد فيضي، التغطية الاخبارية في الصحافة الالكترونية، ط١، دار اسامة للنشر والنزيع، الاردن - عمان، ٢٠١٦.
٥. بتول عبد العزيز رشيد العاني، قواعد التغطية الاخبارية للصراعات السياسية والتهجير في

٦. خاشع محمود الراوي، المدخل الى الاحصاء، الموصل، وزارة التعليم العالي، ١٩٨٩.
٧. رحيم يونس كرو العزاوي، مقدمة في منهج البحث العلمي، عمان، دار دجلة، ٢٠٠٨.
٨. سهام حسن الشجيري، التغطية الاخبارية، رسالة ماجستير غير منشورة، اجيزت في جامعة بغداد - كلية الآداب، ١٩٩٤.
٩. سهيل رزوق نياي، مناهج البحث العلمي، دم، غزة، ٢٠٠٣.
١٠. عبد الرزاق محمد الدليمي، الخبر في وسائل الاعلام، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠١٢.
١١. عبد الكريم بن عيشة، تحليل المحتوى الاعلامي، عمان، دار اسامة، ٢٠١٨.
١٢. فكري كريم، الصحفي دراسة في اشكال الكتابة الصحفية، منشورات الطريق الجديد، ١٩٧٧.
١٣. كرم شلبي، معجم المصطلحات الاعلامية، القاهرة، مطابع الشروق، ١٩٨٩.
١٤. محمد عبد الحميد، تحليل المحتوى في بحوث الاعلام، بيروت، دار الهلال، جدة، دار الشروق، ٢٠٠٩.
١٥. محمود حسن اسماعيل، مناهج البحث الاعلامي، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠١١.
١٦. مريم هاشم محمد، التغطية الاخبارية لمعارك تحرير الموصل في الصحافة العراقية - صحيفة الصباح انموذجا، بحث، جامعة أهل البيت عليهم السلام - كلية الآداب، ٢٠١٧، منشور على الشبكة الدولية (الانترنت)، تاريخ الدخول للموقع: ٣١ - ٥ - ٢٠٢٠.
١٧. مصطفى الطائي، خير أبو بكر، مناهج البحث العلمي وتطبيقاتها، الاسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٧.
١٨. منال هلال مزاهرة، مناهج البحث الإعلامي، دار المسيرة، عمان، ٢٠١١.
- منال هلال مزاهرة، بحوث الاعلام: الأسس والمبادئ، عمان، دار كنوز، ٢٠١١.
١٩. هريبرت سترنز، المراسل الصحفي ومصادر الاخبار، ترجمة: سميرة ابو سيف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨.

استخدامات الذكاء الاصطناعي في العدالة

د. ابراهيم خليل خنجر الموسوي

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

مقدمة

أصبح الذكاء الاصطناعي باعتباره أحد أفرزات الثورة الصناعية الرابعة، بيت القصيد للدول الراغبة اللحاق بركاب التطور، فتتسابق دول العالم اليوم^(١) الى توظيف ما لديها من امكانيات مادية وبشرية من اجل الحصول على التكنولوجيا، او بالأحرى تطوير البنية التحتية للتكنولوجيا من اجل خلق بيئة مناسبة للانطلاق نحو عالم التكنولوجيا.

حل الذكاء الاصطناعي ضيفا مرحباً به علي الدول التي وفرت لها البنية التكنولوجية المناسبة، فقد اصبح شريكاً اساسياً لها في معظم الأنشطة والخدمات التي تقدمها الدول لشعوبها، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان وما زال للذكاء الاصطناعي دور فعال في ازمة فيروس كورونا COVID 19، فقد استخدمت تقنيات البيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي في العديد من البحوث التي تم إطلاق معظمها على وجه السرعة؛ بهدف المساعدة في فهم تطور جائحة فيروس كورونا المستجد من اجل التخفيف من تداعياتها، وتطوير التدابير الوقائية

(١) أنشأت الحكومة المصرية المجلس الوطني للذكاء الاصطناعي في نوفمبر ٢٠١٩ باعتباره شراكة بين المؤسسات الحكومية والأكاديميين والممارسين البارزين من الشركات الرائدة في مجال الذكاء الاصطناعي. ويرأس وزير الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات المجلس الوطني للذكاء الاصطناعي، الذي يعد مسؤولاً عن وضع استراتيجية الذكاء الاصطناعي وتنفيذها وإدارتها من خلال تعاون وثيق مع الخبراء والجهات المعنية. ويتمثل الهدف الرئيسي للمجلس في تنسيق الجهود الوطنية ووضع استراتيجية مصر للذكاء الاصطناعي وتطوير التطبيقات المختلفة ذات الصلة بالذكاء الاصطناعي والتوصية ببرامج بناء القدرات وتعزيز مهارات ومعارف الكوادر الوطنية.

والعلاجية اللازمة لمواجهتها مثل التنبؤ بالانتشار، وتتبع الإصابات، وتشخيص الحالات المصابة، واقتراح البدائل العلاجية، ودعم هيئات الصحة العامة، ورصد الحالة النفسية لعامة الشعوب^(١).

وقد استخدم الذكاء الاصطناعي للتنبؤ بالجريمة فقد استعانت الدول المتقدمة حول العالم، ومنها بعض الدول العربية بدأت استعداداتها للتعامل مع تأثيرات عصر الذكاء الاصطناعي الذي نعيشه اليوم، تزامنا مع الثورة الصناعية الرابعة، إذ تقع على عاتق قوات الشرطة مسؤولية الحفاظ على القانون والنظام، ويعتبر الحفاظ على التوازن بين اليقظة ومراقبة عدد كبير من السكان للتهديدات المحتملة هو أكبر التحديات داخل الدول، لذا يتم تطوير تقنيات المعلومات لمساعدة أجهزة انفاذ القانون في أداء واجباتها بشكل أفضل وضمان السلامة العامة، وتوجد العديد من التقنيات التي تساعد أجهزة الشرطة على منع وقوع الجريمة ومكافحتها، كتطبيقات الشرطة التنبؤية وأنظمة الذكاء الاصطناعي... الخ، محاولة وضع تعريف او تحديد مفهوم للذكاء الاصطناعي هي اشبه بالدوران في دائرة مفرغة، لا نه ببساطه كما اشرنا ان من صفات الثورة الصناعية الرابعة انها سريعة التطور كثيفة الانتاج فعند الانتهاء من وضع تعريف للذكاء الاصطناعي نجد نفسنا امام جيل جديد منه افضل من سابقه، وهنالك العديد من المحاولات لتعريف الذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence، فعرف علم الذكاء الاصطناعي بتصميم برامج كمبيوتر قادرة على حل المشكلات واتخاذ القرار المناسب بدون تدخل من الإنسان وتسمى البرامج القائمة على علم الذكاء الاصطناعي بالبرامج الذكية^(٢)، وعرف علم الذكاء الاصطناعي بأنه العلم الذي

(١) للمزيد حول دور الذكاء الاصطناعي في ازمة كورونا راجع: جبريل بن حسن العريشي، استخدام البيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي في مواجهة جائحة فيروس كورونا المستجد، المجلة العربية للدراسات الامنية، جامعة نايف العربية للعلوم الامنية، ٢٠٢٠م ج٣، ٣٦، ع ٢٤ ص: ٢٤٩ - ٢٦٤، جمال على خليل الدهشان، دور الذكاء الاصطناعي في مواجهة جائحة كورونا في مواجهة التعايش معها، المجلة التربوية، كلية التربية جامعة سوهاج، مجلد ٧٦، ٢٠٢٠ ص: ١٣٦١ - ١٣٨٧

(٢) Russell, Stuart, Peter Norvig, and A. Intelligence. "A modern

يحاول محاكاة السلوك وتفسيره في صيغ رياضية^(١)، ويمكننا تعريف الذكاء الاصطناعي بأنه مجموعة من البرمجيات تجعل الآلة قادرة على تحقيق أهداف محددة بطريقة تشبه الإنسان أو تتعدي قدراته الجسدية والفكرية.

أهمية وتساؤلات الدراسة

تكمن أهمية البحث في عنوانه وذلك بالسعي قدما نحو تعاضد الاستفادة من الثورة الصناعية الرابعة، وعلى وجد التحديد ادخال الذكاء الاصطناعي الى ساحات القضاء وفق اطر ومعايير تكفل تحقيق العدالة، ليس من منظور سرعة الفصل فحسب بل ايضا تطبيق القانون على الوجه الذي يتفق مع رغبات المشرع، لان القانون في جوهره ما هو الا انعكاس لرغبات المجتمع. وتثير الدراسة عدد من التساؤلات اهمها كيف استفادت الدول من الذكاء الاصطناعي داخل اروقة القضاء؟ وما هي الاستفادة من نظام تحليل بيانات السوابق القضائية الفرنسي نظام "DataJusths"؟ وهل من الممكن ان يكون الروبوت بديلا للقاضي؟ والى اي مدي وصل تطبيق التقاضي الالكتروني في مصر؟

منهج وخطة الدراسة:

من خلال هذا البحث سوف نعتمد المنهج التحليلي الوصفي المقارن لأحكام القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ و احكام القانون رقم ١٤٦ لسنة ٢٠١٩ تعديل بعض احكام قانون انشاء المحاكم الاقتصادية الصادر بالقانون رقم ١٢٠ لسنة ٢٠٠٨ فيما تناوله من احكام خاصة بالنقاضي الالكتروني والقوانين المنظمة لتكنولوجيا المعلومات.

المبحث الاول: استخدام الذكاء الاصطناعي في العدالة

المطلب الأول: نظام "DataJusths" الفرنسي لتحليل السوابق القضائية
المطلب الثاني القاضي الالي (الروبوت)

approach." Artificial Intelligence. Prentice-Hall, Englewood Cliffs 25.27 (1995): 79-80

(1) Schalkoff, Robert J. *Artificial intelligence: an engineering approach*. New York: McGraw-Hill, 1990.p.12

المبحث الثاني انعكاسات التكنولوجيا على النظام القضائي المصري
المطلب الأول: التنظيم التشريعي لتكنولوجيا المعلومات ودوره في التحول
للتقاضي الالكتروني
المطلب الثاني: تأثير تكنولوجيا المعلومات على النظام القضائي المصري
المبحث الأول: استخدام الذكاء الاصطناعي في العدالة

شهد العالم ثلاث ثورات صناعية جنت ثمارها فتغيرت مجريات الامور وتبدلت السياسات وغيّرت الخطط الصناعية والتجارية، وهو الان يعيش في خضم الثورة الصناعية الرابعة التي قدمت ومازلت تقدم العديد من ثمار التكنولوجيا فاقت كل التوقعات، فمن أهم ملامح الثورة الصناعية الرابعة، أنها سريعة وغير مسبقة مقارنة بالثورات الصناعية، فهي تشمل مجالات متنوعة مثل الروبوتات والذكاء الاصطناعي وإنترنت الأشياء وتكنولوجيا النانو والتكنولوجيا الخاصة بتخزين الطاقة والتكنولوجيا الحيوية وترتكز على غلبة التكنولوجيا والآلة في الصناعة والتقليل من عدد الأيدي العاملة وتضاؤل الدور البشري^(١)، من خلال هذا المبحث سوف نسلط الضوء على الدور المعاون للذكاء الاصطناعي للقضاء من خلال تحليل بيانات السوابق القضائية (مطلب اول)، استخدام الانسان الالي كبديل للقاضي (مطلب ثان) .

المطلب الأول: نظام "DataJusths" الفرنسي لتحليل السوابق القضائية

تم الإعلان عن مشروع Datajust في نهاية عام ٢٠١٨ من قبل الحكومة الفرنسية، بهدف تطوير معيار إرشادي للتعويض عن الإصابات الجسدية، يخدم المتقاضين والمحامين والقضاة، وتم الترويج لنظام Datajust على انه سوف يمكن المضرورين من إجراء مقارنة بين عروض التعويض من شركات التأمين والمبالغ التي يمكنهم الحصول عليها في المحكمة، فضلا عن توفير معلومات للمحامين تمكنهم من تقديم الاستشارات القانونية على وجه، كما يعد نموذج

(١) نواف المطيري، مستقبل العالم: عصر الآلة ما بعد الثورة الرابعة، مركز الخليج للأبحاث، ع ١٣١، ٢٠١٨ ص ٧٢ الي ٧٣

استرشادي للقضاة في تحديد مقدار الأضرار عن الأضرار من خلال تحليل بيانات السوابق القضائية بدقة^(١) و في نهاية شهر مارس عام ٢٠٢٠ صدر قانون معالجة آلية للبيانات الشخصية الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠^(٢)، بهدف انشاء نظام لتحليل السوابق القضائية يسمى "DataJust" الصادرة من محاكم الاستئناف من ١ يناير ٢٠١٧ حتى ٣١ ديسمبر ٢٠١٩.

١ - الهدف من انشاء "DataJust"

وقد ورد بديباجة القانون رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ انه اعطي لوزير العدل الصلاحية لمعالجة آلية للبيانات الشخصية، لمدة عامين، وفق نظام يسمى، "DataJust" والغرض منها تطوير خوارزمية تهدف إلى تقييم السياسات العامة في مسائل المسؤولية المدنية والإدارية، ووضع معيار إرشادي للتعويض عن الإصابات الجسدية، وتقديم المعلومات للأطراف والمساعدة في تقدير مبلغ التعويض المطلوب التي يمكن للضحايا المطالبة بها من أجل تعزيز تسوية ودية المنازعات، وكذلك تقديم المعلومات أو الوثائق للقضاة المدعويين للبت في دعاوى التعويض عن الضرر الجسدي، ويحدد المرسوم أغراض المعالجة وطبيعة ومدة الاحتفاظ بالبيانات المسجلة بالإضافة إلى فئات الأشخاص الذين يمكنهم الوصول إليها^(٣).

(1) Pierre Januel, Datajust: un algorithme pour évaluer les préjudices corporel, s Dalloz actualité le 1 avril 2020

(2) نشر في الجريدة الرسمية بتاريخ ٢٩ مارس ٢٠٢٠

Décret no 2020-356 du 27 mars 2020 portant création d'un traitement automatisé de données à caractère personnel dénommé « DataJust »

(3) النص الاصلي للديباجة

création d'un traitement de données à caractère personnel dénommé «DataJust». Entrée en vigueur: le texte entre en vigueur le lendemain de sa publication. Notice: ce décret autorise le ministre de la justice à mettre en oeuvre, pour une durée de deux ans, un traitement automatisé de données à caractère personnel, dénommé «DataJust», ayant pour

فقد منحت المادة الأول لوزير العدل صلاحية تنفيذ معالجة آلية للبيانات الشخصية لمدة عامين تسمى "DataJust"، والغرض منها تطوير خوارزمية لاستخدامها، وضع تقييم باثر رجعي ومستقبلي لنظام المسؤولية المدنية أو الإدارية (مادة ١/١ من القانون)؛ وضع معيار استرشادي للتعويض عن الإصابة الجسدية (مادة ٢/١ من القانون)؛ مساعدة الاطراف عن طريق ابلاغهم بتقييم استرشادي للأضرار ومبلغ التعويض المستحق للضحية من أجل تعزيز التسوية الودية للمنازعات؛(مادة ٣/١ من القانون)،تقديم كافة المعلومات والوثائق للقضاة المنظور امامهم دعاوى التعويض عن الإصابة الجسدية(مادة ٤/١ من القانون)، واختتمت المادة الاولى من القانون بأن الخوارزمية المستخدمة سوف تقدم مقترحات للمبالغ المستحقة على حسب نوع الضرر من اجل تعزيز اجراءات التسوية الودية^(١).

finalité le développement d'un algorithme destiné à permettre l'évaluation rétrospective et prospective des politiques publiques en matière de responsabilité civile et administrative, l'élaboration d'un référentiel indicatif d'indemnisation des préjudices corporels, l'information des parties et l'aide à l'évaluation du montant de l'indemnisation à laquelle les victimes peuvent prétendre afin de favoriser un règlement amiable des litiges, ainsi que l'information ou la documentation des juges appelés à statuer sur des demandes d'indemnisation des préjudices corporels. Le décret définit les finalités du traitement, la nature et la durée de conservation des données enregistrées ainsi que les catégories de personnes y ayant accès. Il précise enfin les modalités d'exercice des droits des personnes concernées.

Décret no 2020-356 du 27 mars 2020 portant création d'un traitement automatisé de données à caractère personnel dénommé « DataJust »

^(١) راجع المادة الاولى من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ والتي نصت علي "
Art. 1er. – Le garde des sceaux,

اما المادة الثانية من القانون فقد حددت البيانات التي سوف يستخدمها نظام "DataJust" من اجل تقديم التعويض المقترح للأطراف والقضاة حيث نصت على " يتم استخراج فئات البيانات والمعلومات الشخصية المسجلة في المعالجة المنصوص عليها في المادة الأولى من احكام محاكم الاستئناف المحاكم الإدارية والمحاكم المدنية المنازعات والمتعلقة بالتعويض عن الإصابة الجسدية ^(١).

ministre de la justice, est autorisé à mettre en oeuvre, pour une durée de deux ans, un traitement automatisé de données à caractère personnel, dénommé «DataJust», ayant pour finalité le développement d'un algorithme devant servir à:

- 1-La réalisation d'évaluations rétrospectives et prospectives des politiques publiques en matière de responsabilité civile ou administrative
- 2-L'élaboration d'un référentiel indicatif d'indemnisation des préjudices corporels-;
- 3- L'information des parties et l'aide à l'évaluation du montant de l'indemnisation à laquelle les victimes peuvent prétendre afin de favoriser un règlement amiable des litiges;
- 4-L'information ou la documentation des juges appelés à statuer sur des demandes d'indemnisation des préjudices corporels.

A ces fins, l'algorithme recense les montants demandés et offerts par les parties, les évaluations proposées dans le cadre de procédures de règlement amiable des litiges et les montants alloués aux victimes pour chaque type de préjudice dont la teneur est détaillée au 3o de l'article 2, ainsi que les données et informations mentionnées à cet article.

^(١) راجع المادة الثانية من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ والتي نصت علي

Art. 2. – Les catégories de données à caractère personnel et informations enregistrées dans le traitement prévu à l'article 1er sont extraites des décisions de justice rendues en appel entre le 1er janvier 2017 et le 31 décembre 2019 par les juridictions administratives et les

٢. المعايير المستخدمة في التحليل

ويتم تحليل البيانات وفق معايير حددتها المادة الثانية من القانون وهي، أسماء والقباب الأشخاص الطبيعيين في السوابق القضائية خلال الفترة المحددة (م ١/٢) ^(١)، تحدد هوية الأطراف من خلال، تاريخ الميلاد، الجنس، العلاقة الأسرية مع الضحايا ومكان الإقامة (م ٢/٢) ^(٢)؛ البيانات والمعلومات المتعلقة بالأضرار التي لحقت بالضحايا، (م ٣/٢) ^(٣) وعلي وجه التحديد طبيعة ومدى الاعتداءات على السلامة والكرامة والخصوصية التي تعرضت لها الضحية، ولا سيما وصف وموقع الاصابات، ومدة الاستشفاء، والأضرار التي لحقت بجسد الضحية، ومدى تأثيرها على جمال الجسد، والقدرة الجنسية، وحجم المعاناة الجسدية والمعنوية التي تحملها، والعجز الوظيفي، فضلاً عن الأضرار المباشرة التي لحقت بأقارب الضحية (م ٣/٢) ^(٤). واستطردت المادة الثانية الي تحديد

formations civiles des juridictions judiciaires dans les seuls contentieux portant sur l'indemnisation des préjudices corporels.

^(١) راجع المادة ١/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ والتي نصت علي "

1o Les noms et prénoms des personnes physiques mentionnées dans les décisions de justice, à l'exception de ceux des parties. Il est interdit de sélectionner dans le traitement une catégorie particulière de personnes à partir de ces seules données;

^(٢) راجع المادة ٢/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ والتي نصت علي "

2o Les éléments d'identification des personnes physiques suivants: la date de naissance, le genre, le lien de parenté avec les victimes et le lieu de résidence;

^(٣) راجع المادة ٣/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ والتي نصت علي "

3o Les données et informations relatives aux préjudices subis, notamment

^(٤) راجع المادة ٣/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ والتي نصت علي "

– la nature et l'ampleur des atteintes à l'intégrité, à la dignité et à l'intimité subies, en particulier la description et la localisation des

التكاليف الطبية التي انفقها الضحية وكافة النفقات التي انفقها من اجل العلاج، وتكلفة المرافق للمصاب، والاضرار التعليمية او الجامعية التي لحقت بالمصاب، والتاريخ الطبي للمصاب بيان حالة الضحية قبل الاصابة (م ٣/٢)^(١).

وقد القت المادة الثانية من القانون الضوء على المقدرة المالية للمصاب، فأوجببت الفقرة الرابعة ضرورة تحليل البيانات المتعلقة بالحياة المهنية والوضع المالي، ولا سيما التوقعات المهنية وحقوق التقاعد (م ٤/٢)^(٢)، وكذلك آراء الأطباء والخبراء

lésions, les durées d'hospitalisation, les préjudices d'agrément, esthétique, d'établissement, d'impréparation ou sexuel, les souffrances physiques et morales endurées, le déficit fonctionnel, ainsi que le préjudice d'accompagnement et d'affection des proches de la victime directe;

(^١) راجع المادة ٣/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ "

-les différents types de dépenses de santé (notamment frais médicaux, paramédicaux, pharmaceutiques et d'hospitalisation) et d'aménagement (notamment frais de logement, d'équipement et de véhicule adaptés);

-le coût et la durée d'intervention des personnes amenées à remplacer ou suppléer les victimes dans leurs activités professionnelles ou parentales durant leur période d'incapacité ;

-les types et l'ampleur des besoins de la victime en assistance par tierce personne;

- les préjudices scolaires, universitaires ou de formation subis par la victime directe;

l'état antérieur de la victime, ses prédispositions pathologiques et autres antécédents médicaux;

(^٢) راجع المادة ٤/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ "

4o Les données relatives à la vie professionnelle et à la situation financière, notamment la profession, le statut, les perspectives

الذين فحصوا الضحية ومقدار أتعابهم (م ٥/٢)^(١)، وأوجب المشرع ضرورة ادخال البيانات المتعلقة بالجرائم الجنائية والإدانات والقضايا المدنية وعددهم (م ٦،٧،٨/٢)^(٢).

٢. حماية سرية البيانات

من اجل الحفاظ على سرية البيانات حددت المادة الثالثة من القانون الاشخاص المسموح لهم بالاطلاع على هذه البيانات وهم وكلاء وزارة العدل المعنيين بتطوير تكنولوجيا المعلومات في الأمانة العامة لوزارة العدل، وموظفي مكتب قانون الالتزامات اللذين يعينون من قبل مدير الشؤون المدنية^(٣).

حددت المادة الرابعة مدة الاحتفاظ بالبيانات حيث يتم الاحتفاظ بالبيانات

d'évolution et droits à la retraite, le montant des gains et pertes de gains professionnels des victimes, ainsi que des responsables ou personnes tenues à réparation;

(^١) راجع المادة ٥/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ "

5o Les avis des médecins et experts ayant examiné la victime et le montant de leurs honoraires;

(^٢) راجع المادة ٦،٧،٨/٢ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ "

6o Les données relatives à des infractions et condamnations pénales;

7o Les données relatives à des fautes civiles;

8o Le numéro des décisions de justice

(^٣) راجع المادة ٣ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ "

Art. 3. – Seuls ont accès, à raison de leurs attributions et dans la limite du besoin d'en connaître, aux données à caractère personnel et informations enregistrées dans le présent traitement:

١ o Les agents du ministère de la justice affectés au service chargé des développements informatiques du secrétariat général du ministère de la justice, individuellement désignés par le secrétaire général ;

2o Les agents du bureau du droit des obligations individuellement désignés par le directeur des affaires civiles et du sceau.

المذكورة في المادة الثانية للوقت اللازم لتطوير الخوارزمية، وسوف يتم محو هذه البيانات بطريقة آمنة في نهاية هذا التطوير، ولا يجوز بأي حال أن تتجاوز فترة الاحتفاظ بالبيانات سنتين من تاريخ نشر القانون^(١)، ومن أجل تعزيز الحماية، أوجبت الخامسة ضرورة وجود سجل وظيفته تحديد اسم المستخدم القائم بعمليات التحديث والحذف، بتحديد شخصه وتاريخ ووقت وطبيعة التدخل في المعالجة و يتم الاحتفاظ بهذه المعلومات لمدة عامين^(٢).

بعد ان استعرضنا ما ورد القانون من احكام، نلاحظ انه يسعى الى تحقيق مبدأ التعويض الكامل عن الأضرار، من خلال وضع متوسطات لتقييم الأضرار على حسب طبيعة الضرر الواقع على الضحية، وتقدم النتيجة على انها التنبؤ بالتعويض او تعويض استرشادي للمضرور، وشركات التأمين، لتمكين الاطراف من تسوية الخلافات بشكل ودي بدلا من اللجوء للقضاء من وذلك في محاولة للحد من عرض القضايا على المحاكم، وحتى ان عرض النزاع على القضاء تقدم ذات البيانات للقاضي للاسترشاد بها للحكم بالتعويض.

على الرغم ما سوف يحققه القانون من مساعده الاطراف في الوصول للتسويات الودية ما يحد من تكس القضايا ولكن يؤخذ عليه:

(١) راجع المادة ٤ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ " "

Art. 4. – Les données mentionnées à l'article 2 sont conservées pour la durée nécessaire au développement de l'algorithme. Au terme de ce développement, elles seront effacées de manière sécurisée. La durée de conservation des données ne pourra en tout état de cause excéder deux ans à compter de la publication du présent décret

(٢) راجع المادة ٥ من القانون الفرنسي رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ " "

Art. 5. – Les opérations de mise à jour, de suppression et de consultation font l'objet d'un enregistrement comportant l'identification de l'utilisateur, la date, l'heure et la nature de l'intervention dans le traitement. Ces informations sont conservées pendant une durée de deux ans.

* عدم فاعلية النظام في تقدير التعويض عن الأضرار النفسية والجسدية لا نها تختلف بشكل كبير من ضحية لأخرى فمن غير المقبول حسابها وفقا لخوارزميات حسابية، فالتعويض عن الضرر يستلزم دراسة كل حالة على حده.

* الحد من السلطة التقديرية للقاضي مما ينعكس بالسلب على تطوير العمل القضائي خاصة في مجال المسؤولية، فمن المشهود للقضاء تطويره الدائم لقواعد المسؤولية المدنية والادارية سعيا منه لتحقيق العدالة.

المطلب الثاني: القاضي الآلي (الروبرت)

قد ظهر ١٩٩٦ مشروع " القاضي الافتراضي أعقاب الدراسة التي قد قام بها المركز في عام « Magistrat Virtuel » لقومي للأبحاث عن المعلومات (NCAIR) National Center for Automated Information Research ومعهد قانون الفضاء الإلكتروني (CLI) (Cyberespace Law Institut)، ولم يعد ذلك النظام موجود في الوقت الحالي ولكنه قد ظهر علي أنه المبادرة الأولى لحل المنازعات بشكل الكتروني^(١).

وقد كان الهدف الأساسي من هذا المشروع تقديم وسيلة سريعة ومحايدة وقليلة التكلفة لحل المنازعات الناشئة في المجال الإلكتروني وبصفة خاصة المنازعات بين مستخدمي الخدمات الإلكترونية والقائمين بأداء هذه الخدمات الإلكترونية أو بالأحرى مشغلي الأنظمة (systems operators)، إذا تم إيداع شكوى ضدهم، وذلك باستخدام إجراءات التحكيم الإلكتروني^(٢).

وتبدأ إجراءات التقاضي وفقا لنظام القاضي الافتراضي بقيام المدعى

(1) Mlle. Camille Ebert, La résolution extrajudiciaire des litiges en ligne, mémoire, université Aix Marseille, 2014 p.21

د/ هشام سعيد إسماعيل، دور التحكيم الإلكتروني الدولي في منازعات التجارة الدولية، مرجع سابق، ص ٣٤

(2) راجع د / هبة بدر أحمد، حكم التحكيم الإلكتروني بين الواقع والمأمول، مرجع سابق، ص ٩ د/ هشام سعيد إسماعيل، دور التحكيم الإلكتروني الدولي في منازعات التجارة الدولية، مرجع سابق، ص ٣٤

بملاء النموذج الإلكتروني لطلب التحكيم موضحاً فيه بيانات المدعى، والمدعى عليه، وموضع النزاع، والأدلة، ويقوم المركز بإخطار المدعى عليه بذلك، وبعد رد المدعى عليه بقبوله التحكيم، يتم نظر النزاع من خلال موقع شبكي مشفر برقم سري خاص بالنزاع يعطى لأطراف خصومة التحكيم ولهيئة التحكيم، و تتكون محكمة التحكيم وفقاً لهذا النظام من محكم واحد أو ثلاث محكمين، يقوم القاضي الافتراضي المعين بالتحاور مع أطراف النزاع الذين طلبوا الخضوع لهذا النظام عن طريق البريد الإلكتروني، ويفصل في النزاع خلال ٧٢ ساعة من عرضه ويكون قرار المحكم مجرداً من القيمة القانونية حتى يقبله الأطراف^(١)

ومن جدير بالذكر أن أول حكم صدر من القاضي الافتراضي - وهو أيضاً الحكم الوحيد - وهذا الحكم قد صدر في قضية (Tierney vs. Email America) والتي تتلخص وقائعها في أن المدعو (Tierney) كان قد أشترك في خدمات أمريكا أون لاين ووصلته رسالة إعلانية من نوع رسائل ال spam أي غير المرغوب فيها وقد أرسلت أيضاً لجميع المشتركين في خدمات أمريكا أون لاين عبر البريد الإلكتروني لأمريكا أون لاين.

تقدم المدعي المدعو (Tierney) بصحيفة دعواه إلى القاضي الافتراضي في ٨ مايو ١٩٩٦. وأودعت شركة (أمريكا أون لاين) ردها علي هذه الصحيفة في ١٥ مايو ١٩٩٦ متضمناً سياستها والتي من بينها حظر إرسال رسائل الكترونية جماعية (messages en masse) .

وبتاريخ ٢١ مايو ١٩٩٦ أصدر محكم القاضي الافتراضي حكمه بأن أوجب على أمريكا أون لاين سحب الرسالة موضوع الدعوي، وقد استند المحكم في حكمه إلى سياسة أمريكا أون لاين ذاتها والتي تحتفظ لنفسها فيها بالحق في سحب أي محتوى يُحكم بأنه غير لائق (مهين) أو بأنه ينتهك سياستها والتي من بينها أنه ليس لأعضائها إرسال إعلانات دعائية لم تطلب منهم^(٢).

(١) راجع د/ خيرى عبد الفتاح السيد، فض المنازعات بالتحكيم الإلكتروني عبر وسائل الاتصال

الإلكتروني، مرجع سابق ص ٧٥ و ٧٦

(٢) راجع د / هبة بدر أحمد، حكم التحكيم الإلكتروني بين الواقع والمأمول، مرجع سابق، ص

ان كان الامر فى بداية حالم او محاولة لم يكتب لها النجاح، وبعد مرور عشرين عاما تقريبا على اصدار حكم من القاضي الافتراضي، تحديدا فى عام ٢٠١٧ اعلنت الصين عن اول "محكمة إلكترونية" هي الأولى في الصين، تأسست في ٢٠١٧ في مدينة هانجتشو للتعامل مع النزاعات القانونية التي تحمل جانبا رقميا وقد استخدم فيها قاضي نكاء اصطناعي^(١).

المبحث الثاني: انعكاسات التكنولوجيا على النظام القضائي

باتت وسائل الاتصال الحديثة جزء من حياتنا اليومية في مختلف معاملاتنا وما تقدمه من تسهيل وسرعة الوصول إلى إشباع رغباتنا في مختلف المجالات، وكما هو معلوم خلال السنوات الأخيرة سعت المحاكم العربية عامة والمحاكم المصرية خاصة في مجال التطبيقات الالكترونية عبر تطويع كافة الوسائط والتقنيات المتوفرة لخدمة مرفق العدالة، الذي راهن كثيرون في وقت سابق على صعوبة دخول هذه التقنيات لمجال العدالة الذي يتطلب قيودا وإجراءات معينة تنظمها القوانين والأنظمة. حيث أن حجم التقنيات التي ستطوع لخدمة مرفق العدالة كبيرا لدرجة أن المحاكم بدأت إلى حد كبير تنافس دوائر تعتبر التقنيات الحديثة جزءا لا يتجزأ من عملها، ولما كان القضاء هو صاحب الاختصاص الاصيل بتطبيق احكام القانون، لذلك سوف نلقي الضوء على التشريعات التي تسعى الى توفير بنية تقنية للتحويل للقضاء الالكتروني (المطلب الأول)، ثم نسلط الضوء حول تأثير تكنولوجيا المعلومات على النظام القضائي (المطلب الثاني).

المطلب الأول: البنية التشريعية للتحويل الى القضاء الالكتروني

أصدر المشرع المصري عدد من التشريعات من اجل تعزيز استخدام التكنولوجيا في مختلف الخدمات التي تقدمها الحكومة للشعب وسوف نركز على استعراض التشريعات المتعلقة بالعمل القضائي:

(1) Cui, Yadong. *Artificial Intelligence and Judicial Modernization*. Springer, 2020.

١. قانون التوقيع الإلكتروني رقم ١٥ لسنة ٢٠٠٤^(١).

بمقتضى قانون التوقيع الإلكتروني يتم تأسيس هيئة تنمية صناعة تكنولوجيا المعلومات (ITIDA) ، التي تنظم أنشطة خدمات التوقيع الإلكتروني

(١) أصدر المشرع المصري قانون تنظيم التوقيع الإلكتروني وإنشاء هيئة تنمية صناعة تكنولوجيا المعلومات تحت رقم ١٥ لعام ٢٠٠٤ ونشر بالجريدة الرسمية بتاريخ ٢٢ أبريل ٢٠٠٤

وتم إصدار اللائحة التنفيذية لتنفيذ القانون رقم ١٥ لعام ٢٠٠٤ بشأن التوقيع الإلكتروني وإنشاء هيئة تنمية صناعة تكنولوجيا المعلومات (ITIDA) في ١٥ مايو ٢٠٠٥ بموجب المرسوم رقم ١٠٩ لسنة ٢٠٠٥ لوزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات. وهي تشتمل على ٢٤ مادة والمرفق التقني للمرسوم.

والغرض منها هو وضع نظم وقواعد للتوقيعات الإلكترونية والمعاملات الإلكترونية، وفقا للشروط المنصوص عليها في القانون، ويهدف إلى ضمان أمن إمدادات بيانات إنشاء التوقيع الإلكتروني، من بين أمور أخرى، عبر حماية لتوقيعات الإلكترونية ضد التزوير، والتقليد أو أي شكل آخر من أشكال التلاعب أو ضد احتمال وضع التوقيع من قبل شخص آخر غير الموقع (المادة ٢) ، ويحدد القواعد التقنية والتكنولوجية اللازمة لبيانات إنشاء التوقيع الإلكتروني (المادة ٣) ، و يوفر الإجراءات والقواعد والضمانات لإصدار الشهادات الرقمية من خلال هيئة تنمية صناعة تكنولوجيا المعلومات (ITIDA) (المواد ٥ و١٢ و١٤ و١٥ و٢١)

ونشر القرار واللائحة التنفيذية الخاصة بقانون التوقيع الإلكتروني في جريدة الوقائع المصرية العدد ١١٥ الصادر يوم ٢٥ مايو ٢٠٠٥. ويعتبر قانون تنظيم التوقيع الإلكتروني هو أول تشريع مصري لتنظيم المعاملات الإلكترونية في مصر، حيث يعتبر التوقيع الإلكتروني هو حجر الزاوية والقاسم المشترك الأعظم في المعاملات الإلكترونية، سواء المعاملات الحكومية أو التجارية أو الإدارية. ويمكن من خلال هذا التشريع استخدام الوسائل الإلكترونية في تحرير وتبادل وحفظ المستندات بما يحفظ حقوق المتعاملين، ويضمن مصداقية وقانونية المعاملات الإلكترونية في آن واحد. إذ أنه وحتى صدور القانون لم تكن هناك حجية للكتابة الإلكترونية وللتوقيع الإلكتروني في الإثبات أمام القضاء. كما أن بموجب القانون أنشئت هيئة تنمية صناعة تكنولوجيا المعلومات بغرض إحداث نقلة نوعية لصناعة تكنولوجيا المعلومات في مصر، ولكي تدعم بناء القدرة التنافسية اللازمة لوضع مصر على خريطة تصدير تكنولوجيا المعلومات وتطبيقاتها.

وغيرها من الأنشطة ذات الصلة بالتجارة الالكترونية وصناعة تكنولوجيا المعلومات. وتعد هيئة تنمية صناعة تكنولوجيا المعلومات هيئة عامة تابعة لوزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، وتتص المادة الرابعة على السلطات المخولة للهيئة لتحقيق أهدافها، أن الهيئة لها سلطة إيداع وتسجيل وحفظ برمجيات الحاسوب الأصلية وقواعد البيانات التي تقدمها الكيانات أو الأشخاص الذين يقومون بصياغتها وطباعتها وإنتاجها، وذلك لغرض حماية حق المؤلف وغيره من الحقوق، وتتص المادة ثلاثون من القانون على أنه سينشر في الجريدة الرسمية و يدخل حيز النفاذ في اليوم التالي لتاريخ نشره، وقد نشر القانون في الجريدة الرسمية بتاريخ ٢٢ أبريل ٢٠٠٤، وبالتالي، فقد دخل حيز النفاذ في ٢٣ أبريل ٢٠٠٤.

٢. قانون مكافحة جرائم تقنية المعلومات رقم ١٧٥ لسنة ٢٠١٨^(١)

تعتمد فلسفة القانون توفير علي الحماية القانونية للأنظمة المعلوماتية الحكومية والخاصة والشبكات والمعلومات، من الاختراقات أو الاعتراض أو الإتلاف بأى صورة من الصور، ووضع القواعد والأحكام الخاصة باستخراج وجمع الأدلة الرقمية وإسباغ الحجية القانونية على تلك الأدلة فيما يتعلق بالإثبات الجنائي، ووضع الأحكام والقواعد التي تسمح بمعاقبة أى أفعال غير قانونية تتم عبر شبكات التواصل الاجتماعي، وحماية خصوصية المستخدمين على شبكة الإنترنت، وتنظيم إجراءات دقيق لعمليات حجب المواقع والروابط التي تحض على العنف أو الإرهاب أو تدعو لأى أفعال إجرامية، وبناء على أحكام قضائية، وإلزام مقدمى الخدمات بتقديم كافة الإمكانيات الفنية لجهات الأمن القومى لممارسة عملها وفقاً للقانون.

٣- القانون رقم ١٤٦ لسنة ٢٠١٩ بشأن اجراءات التقاضي الالكتروني امام المحاكم الاقتصادية^(٢)

حيث عدل بعض احكام قانون انشاء المحاكم الاقتصادية الصادر بالقانون

(١) منشور بالجريدة الرسمية - العدد ٣٢ مكرر (ج) - في ١٤ أغسطس سنة ٢٠١٨

(٢) الجريدة الرسمية - العدد ٣١ مكرر (و) - في ٧ أغسطس سنة ٢٠١٩

رقم ١٢٠ لسنة ٢٠٠٨ وتضمن التعديل تنظيم قواعد التقاضي الإلكتروني أمام المحاكم الاقتصادية، حيث أتاح إقامة الدعوى والطعن في الحكم بالطريق الإلكتروني وأن يتم إعلان الخصوم إلكترونياً وتقديم المذكرات والمستندات وطلبات الدعوى إلكترونياً من خلال موقع مخصص لذلك.

٤- قانون حماية البيانات الشخصية رقم ١٥١ لسنة ٢٠٢٠^(١)

يعد التشريع من التشريعات المتعلقة بالاتصالات وتكنولوجيا المعلومات بعد إصدار قانون مكافحة جرائم تقنية المعلومات، وذلك في انطلاقة تشريعية نحو تأمين البيانات الشخصية للمواطنين، لاسيما مع خلو التشريعات القائمة من إطار قانوني ينظم حماية البيانات الشخصية المعالجة إلكترونياً أثناء جمعها أو تخزينها أو معالجتها، ونحو تأمين البيانات الشخصية، جاء القانون لينشئ هيئة عامة اقتصادية تسمى "مركز حماية البيانات الشخصية" سيكون له دور فاعل حيث يختص بوضع وتطوير السياسات والخطط الاستراتيجية والبرامج اللازمة لحماية البيانات الشخصية والقيام عن تنفيذها فضلاً عن توحيد سياسات وخطط حماية ومعالجة البيانات الشخصية داخل الجمهورية.

المطلب الثاني: تجربة التقاضي الإلكتروني

التقاضي هو نظام قضائي معلوماتي يستخدمه المتقاضي، والمحامي، والقاضي، وأعوانه من خلال وسائل الاتصالات الإلكترونية الحديثة في إجراءات التقاضي عبر موقع المحكمة الإلكتروني، وذلك للارتقاء بمستوي إجراءات التقاضي، ورفع كفاءة وفاعلية نظم التقاضي بكافة درجاته، وتحقيق شفافية الإجراءات بما يضمن التيسير في الأداء، والسرعة في الإنجاز، والتبسيط في الإجراءات، وسرعة الفصل في الدعاوي، وتوفير الوقت والنفقات بما يخدم المتقاضين. حيث يمكن للمحامين، والمتقاضين الدخول علي الموقع الإلكتروني للمحكمة بطريقة إلكترونية، وفق منظومة متكاملة، وتقديم الطلبات، والمذكرات، والمستندات، والتعرف علي سير الجلسات، وموعدها والأحكام والقرارات والحصول علي الشهادات والأحكام بعد سداد الرسوم بإحدى، وسائل الدفع الإلكتروني

(١) الجريدة الرسمية - العدد ٢٨ مكرر (هـ) - في ١٥ يولية سنة ٢٠٢٠

كبطاقات الائتمان، أو النقود الرقمية، أو المحفظة الإلكترونية، أو بالتحويل الإلكتروني للنقود^(١).

ويساعد استخدام وسائل الاتصالات الإلكترونية علي تنمية معلوماتية شاملة لمرفق القضاء، وزيادة فعالية، وشفافية عمل القضاء وتيسير ولُوج باب القضاء، وسرعة الفصل في النزاع، وعلاج ظاهرة بُطء التقاضي، لأنه يؤدي علي تبسيط الإجراءات، وتوفير الوقت والجهد علي المتقاضين، والمحامين والقضاة وأعوانهم، بالإضافة إلي التخفيف عن الخصوم، ومحاميهم في إعداد ملف القضية، ومتابعتها، والاطلاع علي أوراقها ومحتوياتها وتوفير المعلومات، والخدمات بسهولة ويُسر، والتقليل من التزاحم، وعدد مرات التردد علي المحاكم وتحقيق العدالة والنزاهة والشفافية الكاملة في حصول المتقاضين علي الخدمات بسهولة، وعلاج الرتابة في العمل، وتعقد الإجراءات، وتحسين الوضع المؤسسي والتنظيمي والمناخ الذي يعمل في ظلّه المتقاضون والمحامون والقضاة وأعوانهم، ومنع التلاعب في المستندات وسرقتها وإتلافها ومنع الأعمال الروتينية، وتكسب القضايا، وضمان لأمن وسلامة خصوصيات وأسرار المتقاضين التي تحويها الأوراق والمستندات المتداولة^(٢).

وبدأت العديد من الدول مثل: أمريكا، وهولندا، والبرازيل، وبلجيكا، والصين، وسنغافورة، وألمانيا، وفرنسا، وإسبانيا، وفنلندا، والنمسا، والسعودية، ودبي، والكويت، والمغرب، ومصر، والأردن... في وضع وتنفيذ سياسات متقدمة بشأن استخدام وسائل الاتصالات الإلكترونية الحديثة في مرفق القضاء (التقاضي بوسائل إلكترونية)، والاستعانة بتقنية تكنولوجيا المعلومات، والاتصالات، والاستفادة منها بما يساعد علي جودة الخدمات وسرعة إنجاز القضايا وتوحيد وتبسيط الإجراءات والمساهمة في أمن المعلومات بحفظها، وإتاحة الاطلاع عليها

(١) . د. خالد ممدوح إبراهيم، التقاضي الإلكتروني، دار الفكر الجامعي بالإسكندرية ٢٠٠٨م، ص ١٢

(٢) . د. أحمد هندي، التقاضي الإلكتروني، دار الجامعة الجديدة للنشر بالإسكندرية ٢٠١٤م، بند ٤ وما بعده، ص ١١ وما بعدها.

للمصرح لهم، إضافة إلي ضمان جودة العمل والشفافية والنزاهة ومواكبة التطور^(١).

وتفاعل مرفق القضاء مع المستجدات الإلكترونية باستخدام وسائل الاتصالات الإلكترونية، التي تمضي بوتيرة متسارعة تعكس القدرة علي التعامل مع هذه التطورات، وإيجاد الأطر التي تنظم عملها بالمجال القضائي، والإداري، والمالي للمحاكم، وذلك ليتماشى مع خطط الحكومة في ميكنة المؤسسات الحكومية (الحكومة الإلكترونية)، وتفعيل المحكمة الإلكترونية، واعتماد خدمة (الرد الآلي التفاعلي - Call Center) التي تخدم جهات رسمية كالبنوك، والسفارات، إلي جانب خدمة استعلام المواطنين عن سير المعاملات في وزارة العدل دون الذهاب لمراجعة المحاكم، وكذا بعض الخدمات في تفعيل نظم المحكمة الإلكترونية بمعرفة مواعيد الجلسات، والقرارات الصادرة عبر رسائل قصيرة SMS للتذكير بمواعيد الجلسات، وخدمات تسمح للمحامي بالقيام بجُل الإجراءات من مكتبه عبر شبكة الإنترنت، ولاسيما خدمة تتبع ملفات القضايا من جلسات، وأحكام، وتنفيذ...^(٢).

وعلي ذلك ففي نظام التقاضي بوسائل إلكترونية (إلكترونية القضاء) - استعمال الوسائل الإلكترونية في التقاضي - كوسيلة، أو أداة، أو طريقة مساعدة للعنصر البشري في ممارسة العمل الإجرائي، نكون أمام محكمة قضائية تُرفع أمامها الدعوي إلكترونياً، ويتم تخزينها آلياً، والاطلاع عليها عبر موقع المحكمة مع إعلان الأوراق بالبريد الإلكتروني، وسداد الرسوم بوسائل الدفع الإلكتروني، مع التبادل المعلوماتي، وتخزين كافة القوانين، وأحكام المحاكم، وأنواع الدعاوي، وما يخصها علي الإنترنت، وتظل الدعوي منظورة أمام المحكمة في جلسة علنية يحضرها الخصوم، ويترافعون فيها أمام المحكمة، ويتولى تحقيق الدعوي القضاة

(١) د. أحمد هندي، التقاضي الإلكتروني، المرجع السابق، ص ١٥ - ١٧.

(٢) محمد عصام الترساوي، تداول الدعوي القضائية أمام المحاكم الإلكترونية، دار النهضة العربية بالقاهرة ٢٠١٣م، ص ١٤١ - ١٤٥.

والخبراء في حضور الخصوم، فهذه " محكمة بوسائل إلكترونية " ^(١).

اقرار المشرع المصري لقانون المحاكم الاقتصادية تعد خطوه في غاية الاهمية نحو تبني نظام التقاضي الالكتروني في المحاكم المصرية، ولعل الدافع خلف تطبيق التقاضي الالكتروني امام المحاكم الاقتصادية يعود لما تتسم به طبيعة المنازعات التي تختص بنظرها هذه المحاكم يلزم ان يتم قفيها الفصل على وجه السرعة . لتعاضد الاستفادة من التقنيات الحديثة ^(٢).

في اطار كل من القضاء العادي ترفع الدعوى بطريقة تقليدية، فضلا عن أن جميع المستندات والمذكرات والطلبات والإعلانات تتم في شكل ورقى، إلا أنه في الآونة الأخيرة تم تطوير هذا النظام، وتم ادخال وسائل الاتصال الحديثة فيه، حيث انه بعض الدول أجازت إيداع عريضة الدعوى باستخدام تلك الوسائل ^(٣)

(١) د. سيد أحمد محمود، نحو إلكترونية القضاء المدني الإماراتي، مؤتمر القانون والتكنولوجيا، حقوق عين شمس، ديسمبر ٢٠١٧م، ج ١، ص ٣١٥.

(٢) د. علي بركات، مرجع سابق، ص ١٤٨

(٣) يتم رفع الدعوى بطريقة إلكترونية في الولايات المتحدة الأمريكية عبر موقع الكتروني، وقد بدأ تشغيل هذا الموقع في غضون شهر سبتمبر سنة ١٩٩٩، لمزيد من التفاصيل راجع د / خالد ممدوح إبراهيم، التحكيم الإلكتروني، مرجع سابق، هامش ص ٣١١

وأيضاً يمكن رفع الدعوى الكترونياً بدولة البحرين وهذه الخدمة المقدمة من وزارة العدل والشئون الإسلامية للمواطنين والقانونيين رفع الدعاوى القضائية عن طريق بوابة الحكومة الإلكترونية.

يرجى ملاحظة أنه يتطلب من مقدم الدعوى مراجعة مكتب الشكاوي بوزارة العدل والشئون الإسلامية لتوقيع لائحة الدعوى ودفع الرسوم، علماً بأنه لن يتم تحديد جلسة للدعوى والمحكمة قبل التوقيع على اللائحة وذلك عملاً بقانون إجراءات الدعاوي. وتبدأ إجراءات رفع الدعوى بالضغط على زر "ابدأ الخدمة"

لرفع دعوى جديدة يتم اختيار "تقديم طلب رفع دعوى"، لمراجعة حالة طلب رفع دعوى اختر "مراجعة حالة الدعوى"، ثم يتم ادخال بيانات الهوية ثم يتم الضغط على زر "إرسال" ويتم اتباع التعليمات وادخل بيانات وأطراف القضية. متاح على على الرابط التالي

<http://www.moj.gov.bh/>

ولكن كيف يتم رفع دعوى قضائية باستخدام الوسائل الإلكترونية أمام القضاء العادي ؟

لا شك أن رفع الدعوى باستخدام الوسائل الإلكترونية يمثل أهمية كبيرة للمتقاضين من حيث توفير الوقت والجهد، وقد عملت بعض الدول على هذه الآلية، ووضعت تنظيم إجرائي لها، فاستخدام الوسائل الإلكترونية في مجال التقاضي، يعد أحد الأعمدة الأساسية لسرعة الفصل في القضايا، فقد تركت التكنولوجيا بصمة في مجال المحاكم الوطنية بصدد تحريك الدعوى باستخدام وسائل إلكترونية.

لكي ترفع الدعوى باستخدام وسائل الاتصال الحديثة، لابد من المرور على بعض الاجراءات التي يتطلبها ضمان حسن سير العدالة، وهذه الاجراءات على تعددها الا انها تندرج ضمن وجوب احترام الشروط القانونية لرفع الدعوى، مع مراعاة الاجراءات الفنية المطلوبة لها.

عريضة الدعوى هي الاساس الذي تقوم عليه كل اجراءاتها ويترتب على عدم اعلانها عدم انعقاد الخصومة بين طرفيها وقد استلزم المشرع المصري^(١)

لمزيد من التفاصيل حول نماذج عن التقاضي الإلكتروني راجع

د/ احمد محمد عبد السلام التحكيم الإلكتروني . مرجع سابق ص ٢١٠

(١) نص المادة ٦٣ من قانون المرافعات المصري رقم ١٣ لسنة ١٩٨٦

رفع الدعوى إلي المحكمة بناء علي طلب المدعي بصحيفة تودع قلم كتاب المحكمة ما لم

ينص القانون علي غير ذلك. ويجب أن تشتمل صحيفة الدعوى علي البيانات الآتية:-

١. اسم المدعي ولقبه ومهنته أو وظيفته وموطنه واسم من يمثله ولقبه ومهنته أو وظيفته وصفته وموطنه.

٢. اسم المدعي عليه ولقبه ومهنته أو وظيفته وموطنه فإن لم يكن موطنه معلوما فأخر موطن كان له.

٣. تاريخ تقديم الصحيفة.

٤. المحكمة المرفوعة أمامها الدعوى.

٥. بيان موطن مختار للمدعي في البلدة التي بها مقر المحكمة ان لم يكن له موطن فيها.

٦. وقائع الدعوى وطلبات المدعي وأسانيدھا.

مجموعة من الشروط يجب توافرها في عريضة الدعوى، وتلك الشروط يجب ان تسطر بعريضة الدعوى سواء تم رفعها بطريقة تقليدية ام الكترونية، وفي حالة رفع الدعوى بطريقة الكترونية يتم ذلك من خلال موقع المحكمة، ويجب ان يقيد كاتب المحكمة الدعوى في السجل الإلكتروني المعد لذلك بعد التأكد من سداد الرسم.

وقد نصت المادة ١٣ علي في تطبيق أحكام هذا القانون، يُقصد بالكلمات والعبارات التالية المعنى المبين قرين كل منها:

السجل الإلكتروني: السجل المعد إلكترونياً بالمحاكم الاقتصادية لقيد بيانات الأشخاص والجهات المنصوص عليها في المادة (١٧) من هذا القانون، ووسيلة التواصل معهم التي تمكن راغب الإعلان من إخطار الخصوم بالدعوى أو بالطلبات العارضة أو بالأحكام التمهيدية الصادرة فيها.

العنوان الإلكتروني المختار: الموطن الذي يحدده الأشخاص والجهات المبينة بهذا القانون لإعلانهم بجميع إجراءات الدعاوى المقامة إلكترونياً، سواء تمثل في بريد إلكتروني خاص بهم أو رقم هاتف أو غيرها من الوسائل التكنولوجية.

الإيداع الإلكتروني: وسيلة إقامة صحيفة الدعوى وقيدها، وكذا الطلبات العارضة والإدخال والتدخل، والتوقيع على صحفها توقيعاً إلكترونياً معتمداً وإيداع المستندات والمذكرات والتي تتم عبر الموقع المخصص لذلك بالمحكمة الاقتصادية المختصة.

الموقع الإلكتروني: موقع خاص بالمحكمة الاقتصادية المختصة والمخصص لإقامة وقيد وإعلان الدعاوى إلكترونياً.

رفع المستندات إلكترونياً: تحميل المستندات والمذكرات المقدمة من أطراف الدعوى على الموقع الإلكتروني للمحكمة الاقتصادية المختصة مع إمكانية حفظها واسترجاعها والاطلاع عليها ونسخها تمهيداً لإرفاقها بملف الدعوى.

المستند أو المحرر الإلكتروني: رسالة بيانات تتضمن معلومات تنشأ أو

تدمج أو تخزين أو ترسل أو تستقبل، كلياً أو جزئياً، بوسيلة إلكترونية أو رقمية أو ضوئية أو بغيرها من الوسائل المشابهة.

السداد الإلكتروني: الوسيلة التي توفرها المؤسسات المالية المصرفية وغير المصرفية لسداد جميع رسوم استخدام خدمة التقاضي الإلكتروني بالمحاكم الاقتصادية والرسوم القضائية والدمغات المقررة لإقامة الدعاوى، ومنها البطاقات المدفوعة مسبقاً (بطاقات السحب والائتمان)، والحوالات المصرفية.

الصورة المنسوخة: الصورة المطبوعة من المحرر الإلكتروني التي تودع بملف الدعوى.

سير الدعوى إلكترونياً: مباشرة إجراءات التقاضى المقررة قانوناً عبر الموقع الإلكتروني المخصص لهذا الغرض.

الإعلان الإلكتروني: إعلان أطراف الدعوى بأى إجراء قانونى يُتخذ حال إقامتها وأثناء سيرها وذلك عبر الموقع الإلكتروني أو بالعنوان الإلكتروني المختار.

طرق حماية إقامة وسير الدعوى إلكترونياً: إجراءات حماية مستندات الدعوى المقامة إلكترونياً والتي تهدف إلى تقاضى تعديل أو تغيير أو تدمير ملفاتها، سواء تم ذلك عمداً أو بغير عمد.

وبذلك يكون المشرع المصري قد حدد الاليات والطرق والمصطلحات التي يجب على المتقاصين اتباعها لمباشرة دعواهم الكترونياً.

اما من حيث جواز رفع الدعوي وقيدها فقد نصت المادة ١٤ على " فيما عدا حالات الطعن بالنقض، يجوز إقامة الدعاوى التي تختص بها المحكمة الاقتصادية والطعن على الأحكام الصادر فيها من الأشخاص والجهات المقيدة بالسجل الإلكتروني وذلك بموجب صحيفة موقعة ومودعة إلكترونياً بالموقع المخصص لقلم كتاب المحكمة الاقتصادية المختصة. وتقيد الدعوى بعد سداد المدعى الرسوم والدمغات المقررة قانوناً إلكترونياً ورفع المستندات إلكترونياً. ويفرض رسم لا يقل عن مائة جنيه ولا يجاوز ألف جنيه نظير استخدام تلك

الخدمة الإلكترونية طبقاً للفئات التي يصدر بها قرار من وزير العدل، وتتول حصيله هذا الرسم إلى الإيرادات العامة لموازنة المحكمة الاقتصادية، وتتحمل الموازنة العامة للدولة تكاليف إنشاء وتشغيل الموقع الإلكتروني لهذه الخدمة^(١).

وقد حدد المشرع المصري طريقين للإعلان الأولي بطريقة الكترونية اما الثانية في حالة تعذر الاعلان الالكتروني يتم الاعلان بالطرق الموجودة في قانون المرافعات حيث نصت المادة ١٦ علي يُعلن أطراف الدعوى المقامة إلكترونياً الخصوم بصحيفتها وطلباتها العارضة والإدخال على العنوان الإلكتروني المختار، فإذا تعذر ذلك اتبع الطريق المعتاد للإعلان بقانون المرافعات المدنية والتجارية، وفي هذه الحالة يلتزم قلم الكتاب بتسليم الصورة المنسوخة من صحيفة الدعوى أو الطلبات العارضة أو الإدخال في اليوم التالي على الأكثر بعد تذييلها بخاتم شعار الجمهورية إلى قلم المحضرين التابع للمحكمة الاقتصادية المختصة لإعلانها وردها لإيداعها ملف الدعوى الورقي. وفي جميع الأحوال، على قلم الكتاب نسخ صورة المستند أو المحرر الإلكتروني وإيداعه ملف الدعوى الورقي^(٢).

(١) نصت المادة (١٥): يرسل قلم الكتاب ملف الدعوى إلكترونياً إلى هيئة التحضير، ويتولى قاضي التحضير مباشرة أعمال التحضير والوساطة المنصوص عليها في هذا القانون، وله في سبيل ذلك تكليف أطراف الدعوى بالمثل أمامه متى رأى حاجة لذلك.

(٢) مادة (١٧): مع عدم الإخلال بأحكام أى قانون آخر، يلتزم المخاطبون بأحكام هذا القانون بتحديد عنوان إلكتروني مختار يتم الإعلان من خلاله. ويُنشأ بالمحاكم الاقتصادية سجل إلكتروني موحد يخصص لقيد العنوان الإلكتروني المختار، ومنه البريد الإلكتروني الخاص بالجهات والأشخاص الآتية: ١. الدولة أو أحد الأشخاص الاعتبارية العامة. ٢. الشركات المحلية والأجنبية أو أحد الأشخاص الاعتبارية الخاصة. ٣. مكاتب المحامين. وتوفى الجهات والأشخاص المشار إليها بالفقرة الأولى من هذه المادة المحاكم الاقتصادية بعنوانها الإلكتروني المختار لقيده في ذلك السجل، كما يجوز للأشخاص الطبيعية القيد بهذا السجل، ويعد ذلك العنوان محلاً مختاراً لهم. ومع ذلك، يكون لذوى الشأن الاتفاق على أن يتم الإعلان على أى عنوان إلكتروني مختار آخر، على أن يكون ذلك العنوان قابلاً لحفظه واستخراجه. مادة (١٨): يتم الإعلان الإلكتروني بإعلان الدعوى على الموقع الإلكتروني

الخاتمة:

شهد العالم ثلاث ثورات صناعية جنت ثمارها فتغيرت مجريات الامور وتبدلت السياسات وغيّرت الخطط الصناعية والتجارية، وهو الان يعيش في خضم الثورة الصناعية الرابعة التي قدمت ومازالت تقدم العديد من ثمار التكنولوجيا فاقت كل التوقعات، فمن أهم ملامح الثورة الصناعية الرابعة، أنها سريعة وغير مسبوقة مقارنة بالثورات الصناعية، فهي تشمل مجالات متنوعة مثل الروبوتات والذكاء الاصطناعي وإنترنت الأشياء وتكنولوجيا النانو والتكنولوجيا الخاصة بتخزين الطاقة والتكنولوجيا الحيوية وتتركز على غلبة التكنولوجيا والآلة في الصناعة والتقليل من عدد الأيدي العاملة وتضائل الدور البشري.

فقد حاولت بعض الدول توظيف الذكاء الاصطناعي لخدمة العدالة منها الصين وفرنسا، فقد اصدرت فرنسا القانون رقم ٣٥٦ لسنة ٢٠٢٠ لإنشاء نظام يسمى، "DataJust" والغرض منه تطوير خوارزمية تهدف إلى تقييم السياسات العامة في مسائل المسؤولية المدنية والإدارية، ووضع معيار إرشادي للتعويض عن الإصابة الجسدية، وتقديم المعلومات للأطراف والمساعدة في تقدير مبلغ التعويض المطلوب التي يمكن للضحايا المطالبة بها من أجل تعزيز تسوية ودية للمنازعات، وكذلك تقديم المعلومات أو الوثائق للقضاة المدعين للبت في دعاوى التعويض عن الضرر الجسدي، ويحدد المرسوم أغراض المعالجة وطبيعة ومدة الاحتفاظ بالبيانات المسجلة بالإضافة إلى فئات الأشخاص الذين يمكنهم الوصول إليها.

اما المشرع المصري لم يستفيد من الثورة الصناعية الرابعة، سوا التطبيق الجزئي للتقاضي الإلكتروني من خلال المحاكم الاقتصادية، على الرغم من توفيره لبنية تشريعية تستوعب تطبيق الذكاء الاصطناعي وإدخاله ساحات المحاكم كدور

قبل تاريخ الجلسة المحددة بخمسة أيام عمل على الأقل، وإعلان الدولة على العنوان الإلكتروني المختار الخاص بفرع هيئة قضايا الدولة المختص محلياً، وبالإعلان بذات الوسيلة على مكاتب المحامين المقيدین بالسجل إذا اتخذ منه المعلن إليه محلاً مختاراً له، ويعتبر الإعلان الإلكتروني منتجاً لأثره في الإعلان متى ثبت إرساله.

معاون، من هذه التشريعات قانون التوقيع الإلكتروني رقم ١٥ لسنة ٢٠٠٤ و قانون مكافحة جرائم تقنية المعلومات رقم ١٧٥ لسنة ٢٠١٨ و القانون رقم ١٤٦ لسنة ٢٠١٩ بشأن اجراءات التقاضي الالكتروني امام المحاكم الاقتصادية و قانون حماية البيانات الشخصية قم ١٥١ لسنة ٢٠٢٠.

ونختتم الدراسة بالتوصيات الآتية:

نوصي بضرورة توظيف تقنيات الذكاء الاصطناعي في العمل القضائي كدور معاون للقاضي وليس كبديل، كما نوصي بإجراء المزيد من الدراسات القانونية حول الذكاء الاصطناعي.

لا بد من بذل المزيد من الجهود لإدخال تطبيقات التقاضي الإلكتروني وتعميمه بدل من قصر التجربة على المحاكم الاقتصادية، وفي هذا الإطار نأمل أن تقوم وزارة العدل ببناء قاعدة إلكترونية قضائية، وتبنى تقنية التقاضي الإلكتروني، وإصدار قوانين لتنظيم المعاملات الإلكترونية.

ضرورة تعديل قانون مرافعات ليتلاءم مع التطورات الحديثة اسوة بالمشروع الفرنسي من خلال الموازنة بين استخدام (الذكاء الاصطناعي - التقاضي الالكتروني) والحفاظ على الضمانات الأساسية للتقاضي، وذلك من خلال دراسة كافة التجارب الالكترونية واستخدام مميزات وكذا السعي الي عمل دراسات ومؤتمرات تعني بالموضوع.

ضرورة مكنة جميع المحاكم كخطوة أولية لتطبيق نظام التقاضي الإلكتروني، وكذلك تعديل قانون المرافعات المدنية والتجارية الحالي بالسماح بضرورة تطبيق الاعلان باستخدام البريد الإلكتروني و توثيق مكاتب المحاماة وضرورة وجود بريد إلكتروني خاص به معلوما لدي جميع المحاكم من خلال قاعدة بيانات متاحة بشكل مستمر وكذلك يجب ان يكون لدي كل محكمة بريد إلكتروني خاص بها معلوم لدي الجميع.

قائمة المراجع:

- د. أحمد فتحي محمد الخولي، التحكيم الإلكتروني كوسيلة لحل المنازعات الالكترونية، رسالة دكتوراه، جامعة المنوفية، ٢٠١٦

- د. أحمد هندي، التقاضي الإلكتروني، دار الجامعة الجديدة للنشر بالإسكندرية ٢٠١٤م،
 - د. بلال عبد المطلب بدوي، التحكيم الإلكتروني كوسيلة لتسوية منازعات التجارة الإلكترونية، دار النهضة العربية، ٢٠٠٦
 - د. خالد ممدوح إبراهيم، التقاضي الإلكتروني، دار الفكر الجامعي بالإسكندرية ٢٠٠٨م،
 - د. سيد أحمد محمود، نحو إلكترونية القضاء المدني الإماراتي، مؤتمر القانون والتكنولوجيا، حقوق عين شمس، ديسمبر ٢٠١٧م
 - د. علي بركات، استخدام التقنيات الحديثة أمام المحاكم الوطنية، ٢٠١٦
 - د. محمد حسام محمود لطفي، استخدام وسائل الاتصال الحديثة في التفاوض علي العقود وإبرامها، القاهرة ١٩٩٣م،
 - د. صفاء فتوح جمعه فتوح، آليات فض منازعات عقود التجارة الإلكترونية، رسالة دكتوراه، كلية الحقوق جامعة المنصورة، ٢٠١١
 - د/ سامي عبد الباقي أبو صالح، التحكيم الإلكتروني - دراسة مقارنة، دار النهضة العربية، ٢٠٠٤، ص ١٣٦.
 - د/ وجدي راغب، دراسات في مركز الخصم أمام القضاء المدني، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية، تصدرها حقوق عين شمس، س ١٨، عدد (١)، يناير ١٩٧٦م،
 - محمد عصام الترساوي، تداول الدعوي القضائية أمام المحاكم الإلكترونية، دار النهضة العربية بالقاهرة ٢٠١٣م،
 - جبريل بن حسن العريشي، استخدام البيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي في مواجهة جائحة فيروس كورونا المستجد، المجلة العربية للدراسات الامنية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٢٠م، ٣٦، ع ٢.
 - جمال على خليل الدهشان، دور الذكاء الاصطناعي في مواجهة جائحة كورونا في مواجهة التعايش معها، المجلة التربوية، كلية التربية جامعة سوهاج، مجلد ٧٦، ٢٠٢٠
 - نواف المطيري، مستقبل العالم: عصر الآلة ما بعد الثورة الرابعة، مركز الخليج للأبحاث، ع ١٣١، ٢٠١٨ ص ٧٢ الي ٧٣
- قائمة المراجع باللغة الاجنبية:
- C. Demunck, e-Curia: échange d'actes de procédure avec la Cour de justice de l'Union européenne par voie électronique, Dalloz actualité 25 novembre 2011
 - Conditions de recevabilité d'une note en délibéré adressée par courrier électronique ; Recueil Lebon - Recueil des décisions du conseil d'Etat 2012 ; Arrêt rendu par Conseil d'Etat, 8ème et 3ème

sous-sections réunies, 13-07-2012, n° 352116

- Cui, Yadong. Artificial Intelligence and Judicial Modernization. Springer, 2020.
- Décret no 2020-356 du 27 mars 2020 portant création d'un traitement automatisé de données à caractère personnel dénommé « DataJust
- Mariem Rekik, « Le juge du contrat électronique international», Université De Sfax, Thèse, 2013
- Messieurs Delabre et Bergheaud, Les procédures dématérialisées, C2i Métiers du droit / Université Jean Moulin – Lyon 3, 14 fév. 2012, Sophia BINET, L'utilisation des nouvelles technologies dans le procès civil: Vers une procédure civile intégralement informatisée ?, mémoire, Université LUMIERE LYON 2 – Master Droit Processuel, 2005
- Mlle. Camille Ebert, La résolution extrajudiciaire des litiges en ligne, mémoire, université Aix Marseille, 2014 p.21
- Pierre Januel, Datajust: un algorithme pour évaluer les préjudices corporel, s Dalloz actualité le 1 avril 2020
- Russell, Stuart, Peter Norvig, and A. Intelligence. "A modern approach." Artificial Intelligence. Prentice-Hall, Egnlewood Cliffs 25.27 (1995):
- Schalkoff, Robert J. Artificial intelligence: an engineering approach. New York: McGraw-Hill, 1990.
- Sophia BINET, L'utilisation des nouvelles technologies dans le procès civil: Vers une procédure civile intégralement informatisée ?, mémoire, Université LUMIERE LYON 2 – Master Droit Processuel, 2005 Conseil des barreaux, communication par voie électronique: l'identification réalisée lors de la transmission des actes de procédure vaut signature, INTRANET & NOUVELLES TECHNOLOGIES: ACTUALITES, 4 Mai 2010,

تاريخنا الحضاري

بين عبق الماضي والرؤية المستقبلية

أسبقيات علماء الحضارة العربية الإسلامية العلمية نموذجاً

أ.د. عمار محمد النهار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق - سوريا

مقدمة:

إنَّ حاجتنا ماسّة إلى المواضيع الحضارية للتاريخ العربي الإسلامي كي نتخلّص ونُخلّص أبنائنا من عقدة الصَّغار أمام التطور الغربي، الذي قام أصلاً على جهود الحضارة العربية الإسلامية في كل ميدان من ميادين الحياة والعلم، وإنَّ معرفة تاريخ العلوم في حضارتنا تُقيم ركائز من نوع خاصٍ في أعماق كياننا لتدعيم الانتماء الذي أوشك أن يصير مفقوداً لدى ناشئتنا.

فهذا البحث تأصيل لتراث العرب المسلمين الذي كان واحة غنّاء بإبداعات أولئك العلماء في شتّى ميادين العلوم من طب وهندسة وفلك وكيمياء ورياضيات ومعمار وتاريخ وعلوم أخرى كثيرة.

فلم يكن غرضنا فيه عرضاً لتلك الإبداعات الإنسانية التي تزخر بها الكتب شرقاً وغرباً، وإنّما تأصيل العلوم الحاضرة التي اقتبسها علماء الغرب وطوّروها وبنوا عليها وأنكروا أصولها أو حاولوا، بينما كانت تلك العلوم عربية المنبت إسلامية (الهوية)، وترتّب على هذا الأمر إنكار لإبداع العقل العربي المسلم الذي أريد له أن يبدو خاملاً لا رواء فيه ولا إثمار.

وخطورة هذه الإرادة لا تتسحب على المبدعين وحسب بل إنّها تمتد لتشمل كيان الأمة كلّها، في صراع يجردها من روحها، وروح أية أمة إنّما يكون بمنتجها الحضاري وإبداع عقول أبنائها.

وقد انسحب هذا الصراع إلى يوم النّاس هذا، بل غدا صراعات حضارات تسود

وتبديد في نهج مرسوم تتفاعل فيه عوامل السياسة والدين والقومية والعصبية. فلا بد من رد الأمور إلى نصابها، وكشف الحقائق المجهولة والمعلومة. ولا شك أن أجيالنا الحاضرة في أمس الحاجة إلى من يبسط أمامهم الحجب والبراهين، ويوجه أنظارهم إلى خفايا يسعى كثيرون إلى إبقائها خافية على العقول والعيون لهذا الغرض أو ذاك، فضلاً على سياسة التجهيل التي ترصف لها قنوات فضائية وإعلامية ومطبوعات زاهية برّاقة شعارها الخفي (ناموا ولا تستيقظوا). وبناء على كل ذلك؛ فإن هذا البحث سيتكلم عن نماذج فقط من أسبقيات إبداعية لعلماء حضارتنا ملفنة ومنسية ومعظمها منسوب إلى كبار علماء الغرب في الوقت نفسه: كأبحاث جابر بن حيان في الاستنساخ، وأبحاث الكندي في علم التعمية واستخراج المعنى (الشفرة والتشفير)، وأبحاث الجاحظ في علم الحيوان: كالتكافل والتهجين ومشاعر الحيوانات...، وكأبحاث اللوغاريتم عند سلسلة من علماء حضارتنا، وقوانين الحركة عند ابن سينا وابن ملكا البغدادي، وطب النساء عند علماء حضارتنا، وعلوم الأرض عند علماء حضارتنا، وقضية بناء مهندسي العمارة العربية الإسلامية لمدينتي بكيين ومديريد. وهدفنا في ذلك محاولة فتح عيون وأذهان الجيل الحاضر الذي تحاصره (بهرجة) إعلامية تعمل على حجبها عن ينابيع الحقائق وطمسها أمامه، من خلال تثبيت حقوق علماء حضارتنا العلمية كي لا تتعرض للانتهاك من أحد من الآن فصاعداً، ونكون قد عوّضنا شيئاً من تقصير الماضي في حقهم. لذلك فإن من أهم أهداف هذا البحث ربط الماضي بالحاضر واستشراف المستقبل من خلال ما يأتي:

١ - كشف الحقائق:

العلم الحقيقي هو العلم القائم على كشف حقائق الأشياء، وإجلاء وتوضيح حدث تاريخي بحد ذاته في علم من العلوم أو فن من الفنون لهُ جوهر الحقيقة، ومن هنا فإن أول مهمة في هذا البحث هو كشف الحقيقة، وتبيين الحقائق بالعودة إلى خبرة السنين الطويلة التي عاشها أجدادنا وأصلين الليل بالنهار، وذلك

لتكوين روح الانتماء إليهم، وحسن الاستفادة من تراثهم في حاضرنا ومستقبلنا.

٢ - فهم ذاتنا وقدراتنا:

وبما أن كثيراً من أبناء هذه الأمة على مختلف فئاتهم الاجتماعية والثقافية قد تأثروا بما يبث ويعرض، وبهرتهم الدعايات، فإن من أهم أهداف البحث التوصل إلى فهم ذاتنا وقدراتنا ومعرفة ماضينا للانتقال إلى مرحلة الترقى والتطور والتقدم، فواقعنا بشكل مؤكد لا يتناسب مع ماضينا، ولا مع ما نملك من قدرات وإمكانات، وهذا ما شجع المتربصين على قطع صلتنا بماضينا وبث روح الانهزامية في نفوس أبنائنا.

٣ - إحداث تغيير اجتماعي:

ومن أهداف البحث إحداث اهتمام وفير في مجتمعاتنا بإنجازات الأجداد من أجل تحقيق تغيير اجتماعي في تفكيرنا وتجاوز اليأس والقنوط والذل الذي نعيشه اليوم.

وذلك من خلال محاولة جدية وموضوعية ودلائلية لإثبات أن كثيراً من الإبداعات والاختراعات التي تتصف بالعالمية هي إبداعات لعلماء الحضارة العربية الإسلامية اقتبست منهم أو سُرقت عنهم.

ومن خلال الاعتراز بأمجاد العرب المسلمين الذين سطوروا تاريخاً مشرقاً ما زالت آثاره إلى اليوم، لندفن مشاعر الأسى والألم على تلك الصورة القاتمة التي صورت بها إبداعات علماء العرب المسلمين الأوائل، الذين عمروا الدنيا بمؤلفاتهم واكتشافاتهم ليقدموا للبشرية تراثاً مضيئاً، فإن لنا أن نستفيق لنذكر ما في هذا التراث العظيم، لا من أجل التفاخر، وإنما لتذكرة النفوس وشحذ الهمم، فالمعرفة بماضي الأمة العربية الإسلامية ركيزة مهمة لفهم الحاضر وعلاجه وإعادة الثقة إلى ناشئتنا وإلى من أصابهم القنوط، ثم الانطلاق إلى واقع ومستقبل أرحب.

٤ - إظهار فضل العرب المسلمين على البشرية:

ومن أكبر أهداف البحث إظهار فضل العرب المسلمين على البشرية، ودورهم في الترقى العلمي العالمي وأثرهم العميق في الحضارة الأوروبية، ومن ضمن هذا الهدف نؤكد على هدف آخر لا يقل أهمية، وهو تبيان الإبداعات التي

أنتجتها الحضارة العربية الإسلامية من خلال نوابغ علماءها، تلك الإبداعات التي لم يعرفها العالم إلا في العصور الحديثة، فحق أن ندعو هؤلاء العلماء بعمالقة العلم الحديث، بالرغم من ظهورهم منذ مئات السنين.

ومن الحقائق التي يجب إثباتها أن دور الحضارة العربية الإسلامية اشتمل على إنجازات علمية هائلة وذات قاعدة مركزية ثابتة وأساسية تكمن الآن في أساس معظم العلوم الحديثة التي لولاها لما استطاعت أوروبا قط أن تحقق عصر نهضتها، ولما استطاعت الحضارة الحديثة اليوم أن تصل إلى ما وصلت إليه.

ومن الحقائق أن المدة ما بين ١١٠٠ - ١٥٠٠ م / ٤٩٤ - ٩٠٦ هـ، تقريباً هي المدة التي تكونت فيها أسس النهضة الأوروبية، وهي المدة التي كان جل من ظهر فيها من علماء أوروبا تلامذة لعلماء الحضارة العربية الإسلامية، خاضعين لها خضوعاً تاماً، وهي المدة التي يجب أن نسميها مدة أستاذة العرب المسلمين لأوروبا.

أولاً - هل عرف علماء الحضارة العربية الإسلامية الاستنساخ؟:

هذا البحث يربط الماضي العربي الإسلامي بالحاضر الغربي وباستمرار أبحاث الاستنساخ مستقبلاً، ففي فبراير عام ١٩٩٧م أعلن فريق من الباحثين في معهد روزلين بأدنبرة في إسكوتلندا بقيادة إيان ويلموت عن نجاحهم في توليد نعجة سُمُوها (دولي)، ليس بطريقة التكاثر الجنسي المعروف، ولكن بطريقة تكوين النسائل فيما عرف بعملية الاستنساخ، إذ أخذ العلماء خلية من ضرع النعجة (دولي) وعالجوها بسحب المادة الوراثية منها، وحقنوا المادة الوراثية المسحوبة في بويضة نعجة أخرى أخذت منها المادة الوراثية، ووضعوا البويضة، بعد دمج المادة الوراثية فيها بالنبضات الكهربائية، في رحم نعجة ثالثة، والتي وضعت بعد مدة حمل عادية نعجة مطابقة تماماً لدولي، مما يعني أن هذه النعجة قد وُلدت من ثلاثة أمهات، ولكن دون أب.

وفي فبراير من عام ١٩٩٨م، أي بعد عام من استنساخ (دولي)، أعلنت الشركة نفسها التي تبنت هذه العملية، وهي شركة بي. بي. إل. ثيرابيوتركس، استنساخ عجل من سلالة هولستين سُمُوها جيفرسون. وقد تمت عملية الاستنساخ

هذه المرة من خلية جينية بدلاً من نقل المادة الوراثية من خلية بالغة.

لقد كان نجاح هاتين التجربتين نقطة تحوّل كبرى في تاريخ البحوث البيولوجية، لأنّهما هدمتا الاعتقاد بأنّ الثدييات لا تتكاثر إلا بالتلاقح الجنسي بين الذكر والأنثى.

وظلّت قضية الاستنساخ، واحتمال تطبيقه على الإنسان، مثار جدل بين الباحثين وغيرهم، إذ انقسم الناس بين رافض لإجراء مثل هذه التجارب، ومؤيّد منبهر بها، ومن وقف موقف التوسّط والاعتدال، داعياً إلى تسخير مثل هذه الاكتشافات لصالح البشرية، ومطالباً بضبط استخداماتها، لكي لا تؤدي إلى تقويض المؤسسات الاجتماعية والأسس الأخلاقية.

وفي مطلع عام ٢٠٠٠م، أعلن عن فكّ شفرة الخارطة الجينية؛ وهو إنجاز علمي جعله كثير من العلماء بنفس أهمية الإنجاز العلمي الذي حقّقه الإنسان عندما حطّ بقدمه على سطح القمر عام ١٩٦٩م. ويُنتظر أن يفتح فك هذه الشفرة المجال واسعاً أمام تطورات كبيرة في الهندسة الوراثية وتشخيص ومعالجة كثير من الأمراض، ولكن ربّما العبث بالأسس والمبادئ الأخلاقية أيضاً^(١).

وبعد هذا التمهيد أقول: لم تُعط قضية الاستنساخ في الحضارة العربية الإسلامية أي اهتمام في أوساطنا العربية والإسلامية، مع أنّها ذُكرت في عدد من كتب حضارتنا منذ قرون طويلة، وهذا أمر يثير الغرابة.

فمن الذين تحدّثوا عنها: جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي الأزدي الصوفي (أبو موسى) (اختُلِف في تاريخ وفاة جابر، ونستطيع القول أنّه عاش تقريباً في المدة ما بين ١٠١ - ٢٠٠ هـ / ٧٣٧ - ٨١٣ م).

هذا العالم الذي تنوّعت أعمال جابر بن حيان وتعدّدت، ويتجاوز المعروف منها الأربعة والخمسون مؤلفاً، بالإضافة إلى ما فقد ولم يصل إلينا، وكانت كتبه

(١) الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، موضوع: الاستنساخ، الهندسة الوراثية.

أهم مصادر الدراسة الكيميائية وأكثرها تأثيراً في أوروبة العصور الوسطى، وقد انتقلت عدّة مصطلحات علمية عربية من مؤلفاته إلى اللغات الأوروبية، وقال عنه الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون: «إنّ جابر بن حيان هو أول من علّم علم الكيمياء للعالم، فهو أبو الكيمياء».

ولذلك سمّي العرب الكيمياء عامّةً (صنعة جابر) إشارةً إلى أنّ جابر بن حيان هو أول من زاولها^(١).

وقد قرأت مرة في دائرة المعارف الإسلامية عن جابر بن حيان، فلفت انتباهي سطر مكتوب فيه أنّ جابراً كان يؤمن بالتوالد الذاتي^(٢)، فأثار هذا الحديث استغرابي وحفيظتي في الوقت نفسه، ثم وقع بين يدي عدد من مجلة علم وعالم، وعند تصفّحي لأوراق تلك المجلة وقع نظري على بحث للدكتور عكاشة الدالي^(٣)، وما أثار دهشتي ما ذكره الدكتور من أنّ جابر بن حيان: «كان أول من تحدّث عن الاستتساخ»، وعندما سُئل: كيف ذلك؟ قال: «تحدّث جابر عن كيفية إنشاء فأر من خلية توضع في التراب لمدة معيّنة، ثم يُولد من هذا الإنشاء فأراً كاملاً»^(٤).

وقبل طرح هذه القضية بشكل علمي ورسمي، جهدت في البحث عن مصدر هذه المعلومات، وإذا بكلام الدكتور عكاشة كلام سليم، فبالفعل لقد آمن جابر بن حيان بالتوالد الذاتي وبالاستتساخ، إذ ذكر ذلك في كتبه الآتية: (التجميع) و(إخراج ما في القوة إلى الفعل) و(السبعين) و(السر المكنون) و(كتاب

(١) انظر في ترجمة جابر: الفهرست: محمد بن النديم، سوسة، تونس، دار المعارف، ص ٤٩٨ -

٥٠٠. إخبار العلماء بأخبار الحكماء: علي بن يوسف القفطي، القاهرة، مكتبة المتنبّي، ص ١١١ -

١١٣. معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ج ١،

ص ٤٦٩. المسلمون والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٤٩ - ٥١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، ج ٦، ص ٢٣٠.

(٣) أكّد لي الدكتور عكاشة الدالي على ذلك لمّا التقيته في المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ العلوم عند العرب.

(٤) مجلة علم وعالم: العدد (١٨) تاريخ ١-١٢-٢٠٠٤م، ص ٢١.

التصريف) و(كتاب الميزان الصغير).

وقد اعتمدت في هذه القضية على مختارات لعالم غربي هو (باول كراوس) اختارها من كتب جابر المذكورة آنفاً، وهو مجموعة من رسائل حققها ونشرها للمرة الأولى سنة ١٩٣٥م.

وأنبه أن جابراً كان يسمى الاستنساخ بـ (التكوين) أو (التوليد) أو (التعفين). وقد ركّز ابن حيان على إمكانية خلق إنسان يتمتع بصفات وراثية معينة، وأشار إلى إمكانية خلق إنسان بصفات عقلية معينة وخلق إنسان بصفات شكلية معينة، بل إنه تجاوز ذلك إلى القول بإمكانية خلق إنسان بجناحين.

ومهد جابر الحديث عن عملية الاستنساخ البشري بقوله: «فأما قولنا في المثال في تكون الحيوان خاصة فأن ينظر إلى الإنسان الذي يراد تكوين مثله أو أي شيء أريد من الحيوان، فلتؤخذ قوة فهمه أولاً... ثم بعد ذلك الذي ينبغي أن يقوم هو الجسم الذي عليه العناصر».

ويشير جابر أنه يمكننا بوساطة هذه العملية أن ننقل بدن جارية، ووجه رجل، أو عقل وجسم صبي، وأن نغيّر ما نريد من جسم الإنسان بوساطتها.

أما كيفية القيام بالعمل وأدواته، فيقول جابر عنها: «ثم تتخذ آلة من زجاج أو بلور أو حجارة أو لون من الألوان والزجاج أجودها إذا عملت منه في ثخن الإصبع وإن أريد أن تجعل أنقص في الطول والعرض أو أكثر افعل».

ثم يشترط مراقبة أيام العملية لأيام محددة، إذ يقول: «وإياك أن تكون قليل المعرفة بتمام الأيام فتتقصها أو تزيدها فيتلف ذلك الشي المتكون».

ولعل الذي يجعلنا متأكدين بأن ابن حيان كان متأكداً من صحة هذه المعلومات وحقيقة استنساخ الإنسان المشابه هو قسمه بأنه إذا ما اتبعت الشروط في عملية التحضير «فإنه يخرج - وحق سيدي - أحسن من كل شخص في العالم وأتمه»^(١).

(١) مختار رسائل جابر بن حيان، تح: باول كراوس، مكتبة المثنى، بغداد، ص ٣٤٢ - ٣٤٩.

وهناك تفاصيل كثيرة واستفاضات مثيرة ذكرها جابر عن هذه القضية^(١).

وأرجو أن يكون بحثي هذا عن الاستنساخ في الحضارة العربية الإسلامية فاتحة أبحاث تأتي بعده، ونُقَصِّل في هذه القضية، وأن يتولَّى مهمّة ذلك المتخصِّصون بالاستنساخ، كي تُعطى هذه القضية صفة العلمية والأكاديمية والمنهجية والمصادقية.

ثانياً _ الكندي مؤسس علم الشيفرة والتشفير:

اشتهر الكندي في علوم كثيرة، وكُتِب عنه وعنّها كثيراً، لكن إبداعاً كبيراً ومؤثراً من إبداعاته لم يُنْتَبِه إليه؛ وهو أنّه عالم شيفرة ومؤسس علم الشيفرة والتشفير الذي كان العرب يسمّونه: علم التعمية واستخراج المعنى، وهو العلم الذي يُعتمد عليه في كل دولة اليوم.

فلقد كتب عدّة علماء من علماء الحضارة العربية الإسلامية عن الشيفرة والتشفير، لكنّ من حوّل هذه القضية إلى علم هو الكندي، فهو أول من وضع أسس علم التعمية ومبادئه، وهو يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن

(١) انظر تفاصيل ذلك في مخطوطات جابر الآتية: ١_ كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل: ١ - ٩٦، على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم (٣م) قسم الكيمياء والطبيعة. ٢_ كتاب السر المكنون: ٣٣٣ - ٣٤٠ على حسب مخطوط باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٣_ كتاب التجميع: ٣٤١ - ٣٩١ على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٤_ كتاب التصريف: ٣٩٢ - ٤٢٥ على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٥_ كتاب الميزان الصغير: ٤٢٥ - ٤٥٩ على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٦_ كتاب السبعين: حسب مخطوط أحمد تيمور باشا المحفوظ في دار الكتب المصرية، ومخطوط آخر محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٧٣١خ) علوم طبيعية، ومخطوط آخر محفوظ في وقف جار الله من مكتبة استانبول تحت رقم (١٥٥٤). وكل ذلك بالاعتماد على كتاب: مختار رسائل جابر بن حيان للمستشرق بول كراوس. وانظر كذلك جابر بن حيان: زكي نجيب محمود، مؤسسة البلاغ، بيروت، ٢، ١٩٨٧م، ص ١٥٧ - ٢٣٢. جابر بن حيان: رحاب عكاوي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٢٨ - ١٣٥.

إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، أبو يوسف، فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها، وُلد بالكوفة، وكان أبوه أميراً عليها في عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م)، ثم نشأ بالبصرة وانتقل منها إلى بغداد حيث تعلّم وحصّل العلوم، فبرع في الطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك، وحاز على مكتبة كبيرة سُمّيت بالكندية، حيث ألّف وترجم وشرح كتباً كثيرة زادت على الثلاثمائة، وهذا ما دفع النديم ليقول عنه: «فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها»^(١).

ونأتي إلى رسالة الكندي في علم التّعمية واستخراج المعنى؛ هذه الرسالة التي تعدّ من أقدم ما وصل إلينا من آثار في علم التّعمية واستخراج المعنى، إذ يعود تأليفها إلى أوائل القرن الثالث الهجري / السادس الميلادي، وقد استكملت أسباب التأليف العلمي المنهجي في هذا الفن عمقاً وشمولاً فأبرزته علماً قائماً بذاته له أصوله وطرائقه المختلفة، والمهم أنّه مع ظهور هذه الرسالة كانت ولادة علم جديد يدعى علم التّعمية واستخراج المعنى.

ولا شك أنّ سعة إطلاع الكندي وتنوع موارده وإدارته لبيت الحكمة أعظم صرح ثقافي عرفته الحضارة العربية الإسلامية، كل ذلك أتى أكله في هذه الرسالة العظيمة التي غدت المرجع الأول لمبدعي هذا العلم بعد الكندي كابن دنينير وابن الدريهم.

وقد كانت هذه الرسالة خبيئة مجهولة لا تطالها الأيدي ولا تذكرها المراجع، حتى كبير مؤرّخي علم التّعمية دافيد كهن لم يعلم عنها شيئاً ولم يشر إلى وجودها مطلقاً، إلى أن اكتشفها محققو كتاب (علم التّعمية) في المكتبة السليمانية

(١) انظر عنه الفهرست: النديم، ص ٣٥٧-٣٦٥. طبقات الأطباء والحكماء: سليمان بن جليل، تح: فؤاد سيد، ط ٢، ١٩٨٥ م، ص ٣٣٧. إخبار العلماء بأخبار الحكماء: القفطي، ص ٢٤٠-٢٤٦. عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ص ٢٨٥-٢٩٣. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قذري طوقان، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٤ م، ص ١٣٧-١٤٧. معجم المؤلفين: كحالة، ج ٤، ص ١٢٥، ١٢٦.

باستنبول عام ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م، ونهضوا بتحقيقها فكانت عاملاً مهماً وأساسياً في تحقيق تاريخ علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، وتصحيح ما شاب هذا التاريخ من أخطاء لدى الكتّاب الغربيين^(١).

استهلّ الكندي رسالته بمقدمة أظهر فيها أنّه قام بإنجاز هذا العمل تلبية لرغبة الخليفة العباسي^(٢)، ويبيّن فيها عمله بها بقوله: «فهمت — فسح الله فهمك ووفر علمك ـ ما أمرت برسمه في كتاب مما توجد به الحيلة إلى استخراج ما رُسم في الكتب المعمّاة، واختصار ذلك في وجيز القول»^(٣).

وقد أتى فيها على ذكر كل ما يتعلق بعلمي التعمية واستخراج المعنى على نحو يحيط بالموضوع من أطرافه وينفذ إلى خفاياه وأسواره، كل ذلك بتركيز واضح وترتيب حسن.

ويمكننا تقسيم هذه الرسالة إلى خمسة فصول: سبل استخراج المعنى. أنواع التعمية العظام. مناهج استخراج بعض أنواع التعمية. دوران الحروف ومراتبها في اللغة العربية. اقتران الحروف وامتناعه من اللغة العربية.

ودراسة هذه الرسالة دراسة موضوعية متعمّقة توصلنا إلى أنّ الكندي هو أبو التعمية واستخراج المعنى في العالم، إذ كتب أول مخطوطة عُرفت في التاريخ في هذا العلم وذلك في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أي قبل سبعة قرون من وضع أول مخطوطة في الغرب في علم التعمية من قبل (ألبرتي) الذي كتب رسالته المؤلفة من ٢٥ صفحة سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م باللغة اللاتينية، والذي يُعدّ أبا التعمية في الغرب، بينما ينسبها الألمان إلى (تريشمس) الذي وضع

(١) انظر علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب (دراسة وتحقيق: لرسائل مخطوطة في التعمية): محمد مراياتي، يحيى ميرعلم، محمد حسان الطيان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط١، ١٩٩٧م، ج ١ ص ١٠٦، ١٠٧. تطور المفتاح في منظومة التعمية عند العرب: نضال يعقوب، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، ١٩٩٧م، ص ٢١.

(٢) وهو أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس.

(٣) علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب: مراياتي وآخرون، تحقيق رسالة الكندي في المعنى، ج ١، ص ٢١٣.

كتابه (Polygraphia) سنة ١٥٠٨ م / ٩١٤ هـ.

ولم يكن الكندي واضع علم التعمية واستخراج المعنى فحسب، وإنما كان أول من وضع أسسه المهمة الآتية:

- التفريق الواضح بين طرق التعمية الأساسية: الإبدال، والقلب، وغيرها وإرجاع مختلف الطرق لواحدة منها.
- توضيح المراد بالتعمية المركبة.
- وضعه لطرائق تحليلية ومنهجية لاستخراج المعنى، وذلك باستعمال تواتر الحروف في اللغة ومراتبها.
- اعتماده تواتر الثنائيات عند استخدام اقتران الحروف مع بعضها، أو امتناعه بالتقديم والتأخير.
- استعمال فكرة الكلمة المحتملة.
- إجراء إحصائيات عملية على تواتر الحروف باللغة العربية، والإشارة إلى مبادئ ذلك في كل اللغات.
- الفهم الواضح لطبيعة الحروف.
- وضع جداول وإحصائيات دقيقة لتواتر الحروف وتواتر الثنائيات، وما يقترن وما لا يقترن من الحروف بعضها مع بعض، يمكن الأخذ بها حتى أيامنا المعاصرة^(١).

ولا بدّ هنا أن نذكر شهادة (دافيد كهن) عالم الغرب الأول في العلم الذي نتحدث عنه، يقول: «وُلد علم التعمية بشقّيه بين العرب، فقد كانوا أول من اكتشف طرق استخراج المعنى»^(٢).

(١) انظر علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب: مراياتي وآخرون، ج ١ ص ١٠-١٣٨، ص ٢١١-٢٥٥. تطور المفتاح في منظومة التعمية عند العرب: نضال يعقوب، ص ٢١-٥٦، وفيهما تفاصيل كل ما تحدثنا عنه.

(٢) The Code Breakers, David Kahn, New york, 1976, P 93

وحينما قال: «طَوَّر المسلمون المعرفة في استخراج المعنى، تنمُّ عن ممارستهم العملية لاعتراض المراسلات واستخراج تعميماتها، وذلك على الرغم من تشكيك بعض الباحثين في ذلك، وبما أن التراث الإسلامي المخطوط لا يزال غير مكتشف في معظمه فقد يُحَصِّل الباحث فيه اكتشافات جديدة بالتقدير».

وقوله: «اطَّلعت على مقال نشر في مجلة الدراسات السامية ... بيّن المقال أنَّ العرب مارسوا استخراج المعنى قبل الغرب بزمان طويل، ووَفَّر لي ما أعدّه أكبر فتح تاريخي في كتابي كله»^(١).

إذن حَقَّق الكندي لتاريخ البشرية فتحاً علمياً كبيراً وليس ثانوياً، مما يدفعنا إلى استغراب إهمال تناول هذا العلم عند هذا العالم الكبير.

ثالثاً - إبداعات الجاحظ في علم الحيوان التي نُسبت إلى علماء العصر الحديث:

اشُّهر الجاحظ كثيراً كعالم في الأدب والبلاغة وعلوم العربية، واشتهر بشكل أقل كمهتم بعلم الحيوان، وألَّف في ذلك، لكن تسليط الضوء على الجاحظ كرائد في قضايا جوهرية تتعلق بعلم الحيوان جاء ضعيفاً.

فهو عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، عاش تقريباً فيما بين ١٥٠ - ٢٥٠هـ / ٧٦٧ - ٨٦٩م، فعاصر بذلك هارون الرشيد وأولاده، وكانت ولادته في البصرة من العراق^(٢).

إنَّ الجاحظ وإن كان على رأس قائمة الأدباء والشعراء والفلاسفة، إلا أنه

^(١) Kahn On Codes; David Kahn, New york, 1983, P 284- 41.

^(٢) انظر في ترجمة الجاحظ تاريخ بغداد: أحمد بن علي البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ١٢، ص ٢٢٠. معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تح: عمر الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، ط ١، ١٩٩٩م، ج ٦، ص ٥٢-٨٢. وفيات الأعيان: أحمد بن محمد بن خلكان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط ٢، ١٩٦٦م، ج ٣، ص ٤٧٠-٤٧٥. الجاحظ: فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١١-١٩. مقدمة كتاب البخلاء: عمرو بن بحر الجاحظ، دار المدى، ط ٢، ١٩٦٣م، ص ٩-١٢.

كان رائداً من رواد المنهج العلمي، وإبداعات كثيرة تلك التي أبدعها عقله في علم الحيوان ونُسبت إلى غيره، وقد وردت جميعها في كتابه (الحيوان)، هذا الكتاب الذي يعد أشبه ما نسميه في العصر الحاضر بدائرة معارف، إذ سرد فيه الجاحظ كل ما ورد منشوراً في موضوعه بعينه، وزاد على هذا ما سمع من العلماء، وما وعته ذاكرته، مع العلم أنه لم يقرأ للعلماء العرب وحسب، وإنما كان يقرأ للعلماء الأجانب من أمثال أرسطوطاليس ومعلمه أفلاطون، وأبقراط، وبطليموس، وجالينوس، فقد ورد ذكر هؤلاء في كثير من مواضع هذا الكتاب.

تكلم الجاحظ في هذه الموسوعة على طبائع الحيوانات من الدواب والطيور والحشرات، ووصف سلوكها وعاداتها، وأورد كذلك فيها طائفة من المعارف والمسائل الفلسفية، وتحدث في سياسة الأقوام والأفراد، كما تضمن الكتاب كثيراً من المسائل الجغرافية في خصائص البلدان، وفي تأثير البيئة وعواملها في الإنسان والحيوان، وأشار إلى مسائل في الطب وأمراض الإنسان والحيوان وطريقة علاجها، هذا إلى جانب كثير من القصص والملح والنوادر.

واعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على مصادر مهمة كالقرآن الكريم والحديث الشريف وشعر العرب وأخبارهم الصحيحة، كما اعتمد على ما ألف قبله من كتب.

وأجمل ما في هذا الكتاب إبانة الجاحظ فيه حكمة الله عز وجل في خلق الحيوانات، إذ كان هدفه الواضح من تأليفه لهذا الكتاب هو تمجيد الخالق سبحانه وتعالى، من خلال عجائب مخلوقات الحيوانات، فلم يقف عند طبائعها، بل أوضح حكمة الله تبارك وتعالى في خلقها^(١).

ونأتي إلى ممارساته المنهجية التي أبدع من خلالها أسبقيات نُسبت إلى عدد من علماء الغرب، وهي كثيرة ورائدة ورائعة.

(١) ومما يستوقف النظر في قضية كتاب الحيوان للجاحظ، أن الكُتّاب الغربيين الذين أرخوا للعلم لم يشاروا إلى الجاحظ بوصفه عالماً، مع العلم أنَّ كتابه هذا مشحون بالملاحظات الصادقة، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على صفاء ذهن صاحبها ومقدرته الفائقة.

ومنها التهجين، إذ يدخل التهجين في علم الوراثة الذي هو انتقال الصفات من السلف إلى الخلف، ففي قولنا: إن الابن قد ورث أنف أبيه، وخلق خاله، وورزاة عمه، مما يفيد أنه يشبهه هذا أو ذاك النسب في بعض ملامحه أو سجاياه.

ويُخَيَّلُ لكثير من الناس أن الوراثة علم حديث لم يعرف الأوائل عنه شيئاً، وهذا الزعم باطل، فقد خلق الإنسان بحاثاً عن كل ما هو مجهول لديه، وقد رأى الأبوان ولدهما وهو أقرب الناس إليهما وأكثرهم صلة بهما، منهما تولد وهما كونه، ورُبي في أحضانهما وترعرع في بيتهما يشبههما في الصفات والطباع والأخلاق والميول، وعندما تعجّب الإنسان من هذا الشبه، شرع في التنقيب عن أسبابه وأسراره^(١).

أما صاحب السبق في البحث في علم التهجين والنتاج المركب، فهو الجاحظ الذي عُدَّ من خلال كتابه (الحيوان) أول من بحث في هذا العلم علمياً على وجه الإطلاق، إذ عالجه في هذا الكتاب معالجة علمية مفصلة.

ولقد نُسب هذا العلم إلى العالم النمساوي (غريغوري مندل) الذي توفي عام ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م، أي بما يقارب ألف عام بعد الجاحظ.

ففي كتابه (الحيوان) تحدّث الجاحظ عن موضوع التهجين، ومن أخباره المنقولة عن ذلك قوله: «قالوا: قد وجدنا غُرمول البغل أطول من غُرمول الحمار والفرس والبرذون، وهؤلاء أعمامه وأخواله، فقد وجدنا بعض النِّتاج المركّب، وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل، ووجدنا الحمام الراعي (الحمامة الراحية، ترعب في صوتها ترعباً، وذلك قوة صوتها) أعظم من الورشان الذي هو أبوه، ومن الحمامة التي هي أمه، ولم نجده أخذ من عمر الورشان شيئاً، وخرج صوته من تقدير أصواتهما، كما خرج شحيج البغل من نهيق الحمار وصهيل الفرس، وخرج الراعي مُسرولاً ولم يكن ذلك في أبويه، وخرج مثقلاً سيئ الهداية،

(١) مجموعة أبحاث عن العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية: أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤م، ص ٧٠، ٧١.

وللورشان هداية، وإن كان دون الحمام، وجاء أعظم جثة من أبويه، ومقدار النفس من ابتداء هديله إلى منقطعه، أضعاف مقدار هديل أبويه»^(١).

ويتحدث في موضع آخر عن خضوع النتاج المركب للطبيعة، فيقول: «ولو كان أمر النتاج وما يحدث بالتركيب ويخرج من التزاوج، إلى تقدير الرأي وما هو أقرب إلى الظن، لكانت الأظلاف تجري مجرى الحوافر والأخفاف، ألا ترى أن قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البُخت من العراب، والخيول من الحمير!!».

وسبيل نتائج الظلف على خلاف ذلك، لأن التيس - على شدة غلمته - لا يعرض النعجة إلا بالقليل الذي لا يذكر، وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك، إمّا ألا يتم خلقه، وإمّا ألا يعيش، وكذلك الكباش والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يُلقحه، ولا يكون اللقاح بعد ضراب.

وطلب التيس للنعجة قليل، وأقل من القليل، وكذلك الكباش للعنز، وأقل من ذلك أن تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البنة»^(٢).

ويتحدث الجاحظ عن النتاج المركب في الطيور، فيقول: «وأنا رأيت طائراً له صوت غير حسن، فقال لي صاحب الطيور: إنه من نتاج ما بين القمري والفاخنة»^(٣).

وكان للجاحظ سبق في قضية أخرى هي نظام التكافل بين الحيوانات، إذ عدّ العالم الفيلسوف الألماني الكبير (جوهان جيته: ت ١٨٣٢م / ١٢٤٨هـ) أباً لعلم المشاركة و التكافل بين الحيوانات (Symbiosis)، وذلك لمجرد عبارة عارضة وردت في مؤلفه «فاوست» ومضمونها «إن روحين يسكنان صدري».

(١) الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م، ج ١، ص ١٣٧. ١٣٩.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج ١، ص ١٤٢.

(٣) الحيوان: الجاحظ، ج ١، ص ١٤٤.

وبعد بحثي في كتاب الحيوان للجاحظ ثبت لي أنَّ الجاحظ هو المؤسس الحقيقي لعلم التكافل بين الحيوانات، إذ خطَّ في موسوعته هذه عبارات وتحاليل كثيرة تثبت ما نقول، وسأختار نماذج من ذلك تُثبت الحقيقة.

يقول الجاحظ: «وزعمت العرب أنَّ الضب يُعد العقرب في جحره، فإذا سمع صوت الحرش استشعرها فألصقها بأصل عجب الذنب من تحت وضم عليها، فإذا أدخل الحارث يده ليقبض على أصل ذنبه لسعته العقرب»^(١).

وفي مثال آخر يتحدث الجاحظ عن الوُود والعون الذي يقدمه الذئب للضباع، فيقول عن ذلك: «إنَّ الضبع إذا هلكت قام بشأن جرائها الذئب»، ويقول: «لكثرة ما بين الذئاب والضباع من التسافد قد يظن الذئب أن أولاد الضبع أولاده»^(٢).

ومن صور المودة بين الحيوان أيضاً، ما ذكره الجاحظ من أنَّ العصفور يلجأ في شدة الحر إلى جحر الضب، يقول: «وإذا وصفوا شدة الحر، وصفوا كيف يوفي الحرباء على العود والجدل (أصل الشجرة) وكيف تلجأ العصافير إلى جحر الضب من شدة الحر»^(٣).

وكان للجاحظ السبق في قضية أخرى هي مشاعر الحيوانات إذ تابع حياة الحيوان بالملاحظة والمحاكمة والمقارنة الجاحظ، وبين حياة الحيوانات وطريقة عيشها وغذائها وتكاثرها، فوصفها وراقبها وسجل كل ما يتعلق بها وما يأتي عنها.

وكان أكثر الحيوانات التي تحدث عنها: الضب، والخنفساء، والسماك، والأسد، والفيل، والحية، وكثيراً ما كان يحاول أن يجعل الحيوان يعبر عن أفكاره، فيجعله يتكلم ويبيدي رأيه، وأحياناً يغدر، أو يكذب، أو يقسو قلبه، بل توصل الجاحظ أيضاً إلى وصف الحيوان بصفات الكرم، إلى غير ذلك من الصفات

(١) الحيوان: الجاحظ، ج٦، ص ٥٩، ٥٨.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج٦، ص ٣٩٨.

(٣) الحيوان: الجاحظ، ج٥، ص ٢٣٢، ٢٣١.

النفسية.

والغريب أنَّ الأسلوب نفسه اتَّبَعه الشاعر الفرنسي الشهير (لافونتين) في القرن السابع عشر الميلادي / الحادي عشر الهجري، فكان لأسلوبه هذا قيمة أدبية كبيرة في عصر مادتي الأدب والتربية.

وعندما تحدَّث لافونتين الذي أتى بعد الجاحظ بأكثر من ثمانية قرون عن الحيوانات، وأن لها رأياً وأنها أحياناً تغدر أو تكذب أو تصدق، صار العالم يتقنن بهذه الأفكار الجديدة، والتي - للحقيقة - استقاه لافونتين من إنتاج الجاحظ الذي يوجد معظمه في بلاد الغرب إن لم يكن كل إنتاجه العلمي والأدبي، وتعتز مكتبات أوروبا بالاحتفاظ به^(١).

فيخبرنا الجاحظ عن نطق الدجاجة، ويقول في ذلك في معرض حديثه عن الدجاج: «ويوصف بالدعاء والمنطق، قال لبيد بن ربيعة:

وَصَدَّهْمَ مَنْطِقُ الدَّجَاجِ عَنِ الْقَصْدِ د وَضَرَبُ النَّاقُوسِ فَاجْتَنَبَا»^(٢).

ويقول عن التكبر عند الحيوانات: «ومما يوصف بالكبر الثور في حال تشرقه، وفي حال مشيته الخيلاء في الرياض... ومما يوصف بالكبر الجمل الفحل»^(٣).

ويتكلَّم عن صفة قساوة القلب عند الحمام الطائر، فيقول: «الحمام الطائر لئيم قاسي القلب، وإن برَّ بزعمكم ولدَ غيره، وصنع به كما صنع بفرخه، وذلك أنهما يحضنان كلَّ بيض ويزقان كل فرخ، وما ذاك منهما إلَّا في الفرط».

ثم ينبئنا عن لؤم الحمام، قائلاً: «فأمَّا لؤمه فمن طريق الغيرة، فإنَّه يرى بعينه الذَّكر الذي هو أضعف منه، وهو يطردُ أنثاه ويكسح بذنبه حولها، ويتطوس (يتزين) لها، ويستميلها، وهو يرى ذلك بعينه، ثم لم نر قط ذَكَراً واثَبَ ذَكَراً عند

(١) إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان: الدفاع، ص ٧٧-٨١.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج ٤، ص ٣٥٧.

(٣) الحيوان: الجاحظ، ج ٦، ص ٦٩.

مثل ذلك».

ويقول: «وباب آخر من لؤمه: القسوة، وهي الأم اللؤم، وذلك أن الذكر ربما كان في البيت طائر ذكر قد اشتدَّ ضعفه فينقر رأسه والآخر مستخذٍ له، قد أمكنه من رأسه خاضعاً له، شديد الاستسلام لأمره، فلا هو يرحمه لضعفه وعجزه عنه، ولا هو يرحمه لخضوعه، ولا هو يمل، وليس عنده وتر، ثم ينقر يافوخه حتى ينقب عنه، ثم لا يزال ينقر ذلك المكان بعد النقب حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه»^(١).

وللجاحظ سبق في الحديث عن هجرة الحيوانات، فهو أول من درس هجرة الحيوانات في مواسم معينة من السنة من مكان لآخر، وسبق بذلك العالم الروسي المعروف إيفان بافلوف (ت ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) بأكثر من ألف عام، وسبق كذلك العالم الفرنسي (جان لامارك ت ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م) بما يقارب ٩٠٠ سنة^(٢).

فقد تحدّث الجاحظ من ضمن ما تحدث عن هجرة السمك والطيور، ويقول في ذلك: «وهذا بحر البصرة والأبلة يأتيهم ثلاثة أشهر معلومة معروفة من السنة بسمك الأسبور، فيعرفون وقت مجيئه وينتظرونه، ويعرفون وقت انقطاعه ومجيء غيره، فلا يمكث بهم الحال إلا قليلاً حتى يُقبل السمك من ذلك البحر في ذلك الأوان، فلا يزالون في صيد ثلاثة أشهر معلومة من السنة، وذلك في كل سنة مرتين لكل جنس... فأما الأسبور فهو يقطع إليهم من بلاد الزنج، وذلك معروف عند البحريين، وأن الأسبور في الوقت الذي يقطع إلى دجلة البصرة لا يوجد في الزنج، وفي الوقت الذي يوجد في الزنج لا يوجد في دجلة»^(٣).

ثم يتحدّث عن هجرة الطيور فيقول: «ثم القواطع من الطير قد تأتينا إلى العراق منهم (من بلاد الزنج حسب سياق ما قبل هذا الحديث) في ذلك الإبان

(١) الحيوان: الجاحظ، ج ٣، ص ٢٥٣. ٢٥٥.

(٢) موسوعة الأوائل والمبدعين: شوقي أبو خليل ونزار أباطة، دار المنبر، ج ٣، ص ٤٩٢.

(٣) الحيوان: الجاحظ، ج ٤، ص ١٠١.

جماعات كثيرة، تقطع إلينا ثم تعود في وقتها»^(١).

ويتحدث في موضع آخر عن قصة في عصره تحكي هجرة الأطباء من الصحراء إلى أماكن عمران الناس^(٢).

كما تناول الجاحظ بالبحث قضية البيئة والحيوان؛ فعندما نشر العالم الفرنسي (جان لامارك) في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، الذي كان مسؤولاً عن المتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣م، نظرياته حول تأثير البيئة في الحيوانات من حيث تطورها بوجه عام، طبل علماء أوروبا له طرباً لهذا الإبداع والابتكار العظيم، ونسوا كالعادة علماء العرب الذين تكلموا على البيئة وأثرها في الحيوان قبل لامارك بمئات السنين.

وأثناء بحثي وتقييمي في ثنايا موسوعة الجاحظ عن الحيوان، اكتشفت أن الجاحظ قد سبق الجميع في الحديث عن هذه الظاهرة، إذ ضمّن موسوعته أحاديث مهمة عن أثر وتأثير البيئة في الحيوان والإنسان أيضاً.

ومما قال الجاحظ في ذلك عن الإنسان: «لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد مأوهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام، كما عمل ذلك في طباع الزنج، وطباع الصقالبة (جنس يسكن بين بلاد البلغار والقسطنطينية)، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج (جنس من الآسيويين) بُني من أجلهم سد الصين الذي بناه الاسكندر، وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حتى نزلوا خراسان كيف انسلخوا عن جميع تلك المعاني».

وفي حديثه عن أثر البيئة في الحيوان نذكر: «وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم، وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراً وتراها في رأس الأشمط شمطاء، وفي لون الجمل الأورق، فإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء، فإن نصل خضابه صار فيها شُكْلُهُ من بين بيضٍ وحمر».

(١) الحيوان: الجاحظ، ج ٤، ص ١٠٢.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج ٤، ص ٤٢٤.

ثم يضرب مثالا واقعيًا فيقول: «وقد نرى حرَّه بني سليم (في نجد) وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء»^(١).

ويعود فيذكر في موضع آخر حرَّه بني سليم قائلاً: «فإنَّ من طبائع تلك الحرَّة أن تُسودَّ كل شيء يكون فيها، من إنسان أو فرس أو حمار أو شاة أو بغير أو طائر أو حية، ولم نسمع ببلدة أقوى في هذا المعنى من بلاد الترك، فإنها تُصوِّر إبلهم وخيلهم وجميع ما يعيش فيها على صورة الترك»^(٢).

ووقفت على علماء من حضارتنا تناولوا هذه القضية بالبحث بعد الجاحظ، ومنهم: مسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) الذي يعد من أوائل من تكلم على تأثير البيئة على جميع المخلوقات من حيث التطور الإدراكي والعقلي، وأشار لحاجتنا عندما نريد أن ندرس ونفسر تصرف مخلوق إلى معرفة البيئة التي يعيش ويتربص فيها، وبهذا الشكل نستطيع أن نستخرج معظم الحثيات من البيئة التي يعيش فيها.

ولم يتأثر لامارك بهذه القضية بمسكويه فقط، بل إنَّه اتَّبَعَ في تقسيمه للحيوانات بوضع كل حيوان في وضعه الصحيح في الشجرة الحيوانية، اتَّبَعَ المسار نفسه الذي سار عليه مسكويه^(٣).

ومنهم القزويني زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) الذي تحدَّث عن الموضوع ذاته، فتطرَّق إلى تأثير البيئة في الحيوان في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد)، ومن قوله في هذا: «أمَّا الحيوان فإنَّ الفيل لا يتولد إلا في جزائر البحار الجنوبية، وعمرها بأرض الهند أطول من عمرها بغير أرض الهند، وأنبيائها لا تعظم مثل ما تعظم بأرضها، والزرافة لا تتولد إلا بأرض الحبشة، والجاموس لا يتولد إلا بالبلاد الحارة قرب المياه، ولا يعيش بالبلاد الحارة، والسنجاب والسمور

(١) الحيوان: الجاحظ، ج ٤، ص ٧١، ٧٠.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج ٥، ص ٣٧٠.

(٣) إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان: محمد عبد الله الدفاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٦ م، ص ١٤٩، ١٤٨.

وغزال المسك لا يتولدون إلا في البلاد الشرقية الشمالية، والصقر والبازي والعقاب لا تفرخان إلى في الفلوات، والبطوط وطيور الماء لا تفرخ إلا في شطوط الأنهار»^(١).

رابعاً _ إبداع اللوغاريتم بين الحضارة العربية الإسلامية وعلماء الغرب!:

الأسيس في الأصل حد في متوالية حسابية تبدأ بالصفر يقابل الحد المطلوب في متوالية هندسية تبدأ بالواحد.

وفي الاصطلاح: هو الأس الدال على المقدار الذي يجب أن نرفع إليه عدداً معيناً أكثر من واحد نسميه الأساس حتى نحصل على العدد المطلوب.

ونحن نُجدول الأساسيات (نضعها في جداول) لنستخدمها في تسهيل العمل في المسائل المتضمنة أعداداً كبيرة بأن نجعل الجمع والطرح في هذه المسائل يقومان مقام الضرب والقسمة، وهذا ما يسمى باللوغاريتمات^(٢).

والعالم إلى اليوم ينسب الفضل في صنع جداول اللوغاريتمات إلى العالم (جون نابيير ت ١٦١٧ م / ١٠٢٦)، ثم إلى معاصريه: (بريغز) و(بورغي) و(غونتر) الذين أدخلوا على جداول نابيير عدداً من التعديلات.

وتدل أقوال علماء الغرب على أن هذا الاختراع تم على يد نابيير ومعاصريه بين ليلة وضحاها^(٣).

ومن الغريب أن نجد بين العلماء من يسلم تسليماً كاملاً بهذا الإبداع لنابيير^(٤).

ومن العجيب أن نقرأ في أقوال علماء الغرب ما يشير إلى عدم وجود

(١) إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان: الدفاع، ص ١٨٥.

(٢) تاريخ العلوم عند العرب: عمر فروخ، بيروت، ١٩٧٧م، ١٣٩، ١٣٨.

(٣) تاريخ العلوم عند العرب: مرحبا، ١٣٩، ١٣٨.

(٤) مثل مؤلف موسوعة علماء الرياضيات: مورييس شريل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣٠٠.

بحوث أو مؤلفات مهدت السبل إلى اختراع اللوغاريتمات الذي شاع وبدأ - برأيهم - مباشرة على يد نابيير وبريغز وبورغي وغونتر .

فمثلاً يقول اللورد مولتون: «إن اختراع اللوغاريتمات لم يمهد له، وإن فكرة الرياضي نابيير في هذا البحث جديدة، لم تركز على بحوث سابقة لعلماء الرياضيات، وقد أتى هذا الرياضي بها دون الاستعانة بمجهودات غيره».

ويقول سميث في كتابه تاريخ الرياضيات: «وكانت غاية نابيير تسهيل عمليات الضرب التي تحتوي على الجيوب، ومن المحتمل أن المعادلة:

$$\text{جا س جا ص} = \text{واحد على اثنين جتا (س + ص)} \text{ _ واحد على اثنين جتا (س - ص)}$$

هي التي أوجت اختراع اللوغاريتمات»^(١).

وإذا علمنا مبدئياً أن ابن يونس هو أول من توصل إلى القانون التالي في المثلثات:

$$\text{جا س جا ص} = \text{واحد على اثنين جتا (س + ص)} \text{ _ واحد على اثنين جتا (س - ص)}$$

فسنجد تعليقاً من العلامة سوتر على هذا القانون يقول فيه: «وكان لهذا القانون أهمية كبرى قبل كشف اللوغاريتمات عند علماء الفلك في تحويل العمليات المعقدة (الضرب) العوامل المقدرة بالكسور الستينية في حساب المثلثات إلى عمليات (جمع)»^(٢).

ثم جاء غير ابن يونس من علماء المسلمين ليؤكدوا حقائق أخرى حاسمة عن اللوغاريتمات، وهذا ما سنفصل فيه بعد قليل.

والغريب المستهجن أنه ليس عالم واحد من علماء الحضارة العربية

(١) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص ٦٥.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج ١، ص ٣٠٥.

الإسلامية، بل فريق من علماء العرب المسلمين وضعوا أسس اللوغاريتم، ثم سار بعد ذلك عليها العلماء، وذلك قبل نابيير وأصحابه بقرون طويلة وطويلة جداً، وقد استطعت أن أرصد أربعة من هؤلاء العلماء، تكلموا بشكل واضح عن اللوغاريتمات، وهم الخوارزمي، وسنان، وابن يونس، وابن حمزة.

١. الخوارزمي (ت ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م):

يذكر الدكتور علي عبد الله دفاع: «في بداية الأمر ابتكر الخوارزمي علم حساب اللوغاريتمات وعمل لها جداول تعرف باسمه محولاً عند الغربيين إلى اللوغاريتمات»^(١).

٢. سنان بن ثابت (ت ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م):

أجمع المختصون والمؤرخون أن سناناً شرح في كتابه «كتاب الجمع والتفريق» الطريقة التي يمكن بواسطتها إجراء الأعمال الحسابية بالضرب والقسمة بواسطة الجمع والطرح، وهذا تمهيد لفكرة تسهيل عمليتي الضرب والقسمة، واستعمال عمليتي الجمع والطرح بدلاً منهما، وهي الفكرة التي قامت عليها بحوث اللوغاريتمات، وشرح سنان الأصول الموجودة في هذا الكتاب في كتاب آخر اسمه «كتاب شرح الجمع والتفريق»^(٢).

٣. ابن يونس (ت ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م):

وهو أول من استطاع أن يتوصل إلى إيجاد قانون له قيمة كبرى عند علماء الرياضيات والفلك، يمكن من خلاله وبواسطته تحويل عملية الضرب إلى جمع وبالقياس، وفي هذا تسهيل لحلول كثير من المسائل الطويلة المعقدة، وبالتالي أسس هذا القانون للوغاريتمات، والقانون هو:

(١) نوايع علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: علي عبد الله الدفاع، دار الاعتصام، ص ٦٢.
(٢) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص ٦٥، ٦٦، ١٥٠، ١٤٩. عبقرية العرب في العلم والفلسفة: عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٠ م، ص ٨٠، ٨١. تاريخ العلوم عند العرب: مرجبا، ص ١٣٨-١٤٠. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباطة، أبو خليل، ج ٣، ص ٥٤٨.

جتا س جتا ص = واحد على اثنين جتا (س + ص) + واحد على اثنين جتا (س - ص)^(١).

٤ - ابن حمزة المغربي (من علماء القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد):

يحتوي كتابه النفيس «تحفة الأعداد» على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة، تبحث المقدمة في تعريف الحساب وأصول الترقيم والتعداد، واستعمل فيها أرقاماً على أشكال مخالفة للأشكال التي كانت منتشرة في عصره، وقد سماها الأرقام الغبارية.

وتحتوي المقالة الأولى على الأعداد الصحيحة من جمع وطرح وضرب وقسمة، وتبحث المقالة الثانية في الكسور والجذور، وفي مخارج الكسور، وفي جمعها وطرحها وضربها وقسمتها، واستخراج الجذر التربيعي للأعداد الصحيحة، وكيفية إجراء الأعمال الأربعة للأعمال الصم، واستخراج جذور الأعداد المرفوعة إلى القوة الثالثة والرابعة.

أما المقالة الثالثة فتناول فيها البحث في الطرق المختلفة لاستخراج قيمة المجهول، وذلك باستعمال التناسب وطريقة الخطأين، وطريقة الجبر والمقابلة، وأما المقالة الرابعة فتبحث في مساحات الأشكال والأجسام، كالأشكال الرباعية والمنحنية وبعض أنواع الجسوم.

وفي الخاتمة: أتى المؤلف على عدد كبير من المسائل التي يمكن حلها بطرق مختلفة لم يسبق إليها.

وثبت لدى العلماء أن بحوث ابن حمزة في المتواليات العددية والهندسية كانت الأساس الذي بُني عليه اختراع اللوغاريتمات، يقول ابن حمزة: «إن أس أساس أي حد من حدود متوالية هندسة تبدأ بالواحد الصحيح، يساوي مجموع

(١) تاريخ العلوم عند العرب: مرحبا، ص ١٤٠، ١٣٩. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص ٢٤٨. دائرة المعارف الإسلامية: ج ١، ص ٣٠٤، ٣٠٥. عبقرية العرب: فروخ، ص ٨٠، ٨١.

أسس أساس الحدين الذين حاصل ضربهما يساوي الحد المذكور ناقصاً واحداً». وبالتالي عُد ابن حمزة عند المختصين واضعاً لأصول اللوغاريتمات والممهد الصحيح لاختراعها.

ويلخص عمر فروخ الحديث عن أحقية العرب المسلمين في اختراع اللوغاريتمات بقوله: «إن أول معادلة وضعت لتسهيل العمليات الحسابية - التي تسهل اليوم بواسطة اللوغاريتمات - وضعها أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري المشهور بابن يونس والمتوفى سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م، قبل جون نابيير الذي ينسب إليه الغربيون اختراع اللوغاريتمات بستة قرون وسبع سنوات، ويبدو بوضوح أن ابن حمزة المغربي في القرن العاشر الهجري كان ذا فضل كبير على نشوء اللوغاريتمات، على أن أول من خطرت له هذه الفكرة من العرب كان سنان الحاسب، قبل نابيير بثمانية قرون ونصف»^(١).

خامساً _ قوانين الحركة هل هي لنيوتن أم لعلماء حضارتنا؟:

قوانين نيوتن للحركة هي ثلاثة قوانين فيزيائية تشكل علم حركة الأجسام، وترتبط هذه القوانين القوى المؤثرة على الجسم بحركته، وقد استخدم هذه القوانين في تفسير العديد من الأنظمة والظواهر الفيزيائية.

ولنا أن نشك ونسأل: هل كان نيوتن بالفعل أول من تكلم عن هذه القوانين؟

بالرجوع إلى علماء الحضارة العربية الإسلامية في الفيزياء نجد أنفسنا أمام عدد من العلماء تكلموا عن هذه القوانين وقبل نيوتن بقرون طويلة، وسأكتفي هنا بالحديث عن اثنين منهما لضيق المساحة هنا.

وأولهم الطبيب الشهير ابن سينا (الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري، توفي عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م)^(٢).

(١) عبقرية العرب: فروخ، ص ٨٠، ٨١.

(٢) انظر في ترجمة ابن سينا: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٤٣٧. ٤٥٩. تاريخ مختصر الدول: غريغوريوس الملطبي، المعروف بابن العبري، ص ٢٤٠، ١٨٩، ١٨٧، ١٧٦، ٧٧، ٥٥. وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٢، ص ١٥٧. ١٦٢.

إذ تكلم ابن سينا في عدد من كتبه عن الحركة وعناصرها، فعرض في كتابه «الشفاء» في المقالة الثانية من الفصل الأول أمور ستة تتعلق بالحركة، ويوردها على أنها: المتحرك، والمحرك، وما فيه، وما منه، وما إليه، والزمان، فالمتحرك أي الجسم الذي يتخذ حال الحركة، ثم المحرك أي الدافع إلى الحركة، يلي ذلك ما فيه الجسم أي مكانه أو موضعه، أما العنصرين الرابع والخامس «ما منه» و «ما إليه» فيقصد بهما الابتداء والانتهاء، ويقصد بالعنصر الأخير الزمان، أي الفترة الزمنية التي تتم فيها الحركة بقطع مسافة الانتقال، وقسمة المسافة المقطوعة على الزمان يعطي متوسط سرعة الحركة.

وهذا التمهيد غايته أن نصل إلى إبداع ابن سينا لما يُسمى «القانون الأول للحركة»، ويقول هذا القانون بأن الجسم يبقى في حالة سكون، أو في حالة حركة منتظمة على خط مستقيم، ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة، أو بعبارة أخرى فإن للجسم خاصية «المدافعة» عن بقاءه على حالة من السكون، أو من حركة منتظمة على استقامة، وهذه المدافعة هي الخاصية التي نشير إليها في كتبنا المعاصرة بالقصور الذاتي أو بالعطالة.

ونسوق بعد هذا الشرح للقانون الأول للحركة قول ابن سينا فيه بلفظه في كتابه الإشارات والتنبيهات في الفصل السادس، يقول: «إنك لتعلم أن الجسم إذا خلى وطباعه، ولم يعرض له من الخارج تأثير غريب، لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين، فإذا في طباعه مبدأ استيجاب ذلك».

وفي هذا النص يبدو بوضوح أن ابن سينا يقول: إن الجسم إذا لم يتعرض لتأثير خارجي وتُرك لطبعه، فإن فيه خاصية تدعو للمحافظة على حالته الطبيعية، وتدافع عن بقاءه على ما هو عليه.

الوافي بالوفيات: الصفدي، ج١٢، ص ٣٩١ — ٤١٢. دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، دار سعاد الصباح، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ٧٤، ٧٣. أعلام العرب والمسلمين في الطب: علي عبد الله الدفاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ١٣٨ — ١٤٤. تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: محمد زهير البابا، جامعة دمشق، ١٩٨٦م، ص ١٥٣، ١٥٢.

ويقول ابن سينا في موضع آخر من المقالة الرابعة في كتابه الشفاء: «وليسَت المعاوقة للجسم بما هو جسم، بل بمعنى فيه يطلب البقاء على حاله من المكان أو الوضع، وهذا هو المبدأ الذي نحن في بيانه».

وتأكيداً على الشرح يذكر ابن سينا شرحاً لطبيعة مدافعة الجسم عن استمرار حاله، حيث يقول بعد استعراضه للآراء المطروحة في سبب حركة الجسم المقذوف (المتحرك): «ولكننا إذا حققنا القول وجدنا أصح المذاهب مذهب من يرى أن المتحرك يستفيد ميلاً من المحرك، والميل هو ما يحس بالحس إذا ما حوّل الطبيعي أن يسكن الطبيعي بالقسر، أو القسري بالقسر».

أي أن الجسم يكون له حال تحركه ميل للاستمرار في حركته، بحيث أنه إذا حوّل إيقافه أحس الموقف بمدافعة يديها الجسم للإبقاء على حاله من الحركة سواء كانت هذه الحركة طبيعية أو قسرية^(١).

والعالم الثاني هو هبة الله بن علي بن ملكا البغدادي (٥٦٠ هـ — / ١١٦٥ م)^(٢): إذ جاء في كتابه: «المعتبر في الحكمة» الموجود كمخطوط في تركيا في مكتبة أحمد الثالث (رقم ٣٢٢٢، مج ٢، ف ١٤، الورقتان: ٤٨، ٤٧) جاء

(١) انظر كتاب الشفاء (الطبيعات): الحسين بن سينا، تح: محمود قاسم، دار الكاتب العربي، القاهرة، ص ١ - ٥. مجلة الفيصل، العدد (١٥٠)، ص ٤٣، ٤٤. أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م، ص ١٩٥ — ١٩٧. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص ١٤٨، ١٤٧. ابن سينا: أرثور سعديف، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، ١٩٨٧م، ص ١٥٤ — ٢٠٠. وهذه النصوص وغيرها تؤكد سبق ابن سينا إلى القانون الأول للحركة قبل ليوناردو دافنشي بأكثر من أربعة قرون، وقبل جاليليو (ت ١٦٤٢ م / ١٠٥٢ هـ) بأكثر من خمسة قرون، وقبل إسحق نيوتن (ت ١٧٢٧ م / ١١٤٠ هـ) بأكثر من ستة قرون.

(٢) انظر في ترجمة ابن ملكا: عيون الأنباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٣٧٤ — ٣٧٦. إخبار العلماء: القفطي، ص ٢٢٤ — ٢٢٦. الوافي بالوفيات: الصفي، ج ٢٧، ص ٣٠٠ — ٣٠٢. أعلام الفيزياء في الإسلام: الدفاع وشوقي، ص ٢٥٤ — ٢٥٩. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج ٤، ص ٤٧١، ٤٧٠. تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم نجار وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ج ٥، ص ٧٢.

فيه نصوص هامة تختص بحركة الأجسام، ومنها ذكر القانون الأول في الحركة والسكون، ومن أقوال ابن ملكا التي وردت في هذا السياق: «فإن الحركة إما طبيعية وإما قسرية، والقسرية تتقدمها الطبيعة، لأن المقسور إنما هو مقسور عن طبعه، إلى طبع قاسره، فإذا لم يكن حركة بالطبع لم يكن حركة بالقسر، والطبيعة إنما تكون عن مباين بالطبع إلى مناسب بالطبع، أو إلى مناسب أنسب من مناسب».

ومما قاله أيضاً: «فيهذا يعلم أن لكل جسم طبيعي حيزاً طبيعياً، فيه يكون بالطبع، وإليه تتحرك إذا أزيل عنه، وهذا الحيز ليس هو للجسم بجسميته التي لا يخالف بها غيره من الأجسام، بل بصفة خاصة به هي طبيعية، فقوة أو صورة خاصة بذلك الجسم، خصته بذلك الحيز، وحركته إليه، فتلك الطبيعة الخاصة في ذلك الجسم مبدأ حركة بالطبع وسكون بالطبع، والتحرك النقلي المكاني إنما يكون عنها بعد سبب طارئ يخرج الجسم عن حيزه الطبيعي فتحركه هي إليه».

ويعد ما قاله ابن ملكا عن القانون الثاني للحركة أقرب ما توصل إليه علماء العرب والمسلمين من معاني، ومن أقواله عنه: «وكل حركة ففي زمان لا محالة، فالقوة الأشدية تحرك أسرع، وفي زمان أقصر، فكلما اشتدت القوة ازدادت السرعة، فقصر الزمان، فإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة، وفي ذلك أن تصير الحركة في غير زمان وأشد، لأن سلب الزمان في السرعة نهاية ما للشدة».

ويعني قول ابن ملكا هذا زيادة السرعة، حيث السرعة = المسافة مقسومة على الزمان، أو هي على الدقة معدل تغير السرعة بالنسبة للزمن، وكلامه قريب جداً من القول بتناسب القوة مع التسارع.

ويشير ابن ملكا إلى القانون الثالث للحركة في قوله: «إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر، وليس إذا غلب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت من قوة جذب الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب».

وهذا قول واضح في أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه، فالحلقة التي أشار إليها في المثال ما هي إلا جسم في حالة إتران

تحت تأثير قوتين متساويتين مقداراً متعاكستين اتجاهاً^(١).

ولنا أن نسأل، أين كان نيوتن وغيره (ممن يعدون عمالقة علماء الغرب) لما تحدث علماء العرب المسلمين عن الفيزياء... عن الجاذبية وعن قوانين الحركة... طبعاً لم يكونوا قد وُلدوا بعد، ولنا أن نسأل؟ أين كان علماء العرب المسلمين في الفيزياء لما تكلم نيوتن عن (اكتشافاته وإبداعاته)؟! طبعاً كانوا قد توفوا منذ مئات السنين... ولنا أن نسأل؟ أين كنا نحن لما سرق الغرب إبداعات علماء حضارتنا ونسبوها إلى علمائهم... طبعاً كنا أموات....

سادساً _ طب النساء عند علماء الحضارة العربية الإسلامية:

لم يترك أطباء الحضارة العربية الإسلامية مرضاً أو تخصصاً إلا تناولوه بالبحث والعلاج: من رأس الإنسان حتى أخمص قدميه، مروراً بأجزاء رأسه وبطنه.

ومن ذلك الأمراض المتعلقة بالنساء، وسنذكر هنا منها: علم الجنين، وولادة الحوض، وعسر الولادة، ومنع الحمل.

إذ أتم علمائنا الكثير من الاكتشافات في العلوم الطبية، ووصلوا فيها مرحلة لم تصل إليها أية أمة من الأمم، بل إن الأمم الأخرى نقلت مؤلفاتهم الطبية، فانتشرت في جميع أصقاع العالم وفي أوروبة خاصة التي ما فتأت تعتمد على تلك المؤلفات في جميع دراساتها الطبية، بل إن كثيراً من تلك المؤلفات قد دُرست في جامعاتها لأكثر من ستة قرون.

وهذه أبرز الفتوحات الطبية لعلماء الحضارة العربية الإسلامية في طب النساء:

١ _ علم الأجنة:

يذكر أحد الباحثين: «ظلت فترة النمو التي يقضيها الجنين في بطن أمه ابتداء من حدوث الحمل وحتى الولادة مجهولة لا يعرف أحد شيئاً عن أسرارها

(١) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج٤، ص ٤٧٠، ٤٧١.

لفترة طويلة من الزمن، فما الذي يحدث للجنين خلال تلك الفترة؟ وكيف ينمو ويكبر؟ ومتى يتكون قلبه ومخه وتظهر أطرافه؟ لم يستطع أحد الإجابة عن هذه الأسئلة، وفي سنة ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م كشف الطبيب الإيطالي (هيريونيموس فابريسيوس) جوانب هامة لنمو الجنين داخل الرحم من خلال دراساته وأبحاثه عن الحيوانات المختلفة، وأصدر أول كتاب في علم الأجنة، والذي عد بداية لظهور علم جديد على الوسط الطبي^(١).

إن المؤلف في هذا القول أن أطباء الحضارة العربية الإسلامية قد أشبعوا هذا الموضوع بحثاً، وكمثال عنهم: أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م)^(٢)، الذي بين في القانون في الطب وتحت عنوان «فصل في تولد الجنين» روائع تفصيلية في كيفية تشكل أعضاء الجنين في بطن أمه، وهذه أمثلة عن ذلك.

يقول: «إذا اشتملت الرحم على المني، فإن أول الأحوال أن تحدث هناك زبدية المني، وهو من فعل القوة المصورة، والحقيقة من حال تلك الزبدية، تحريك من القوة المصورة لما كان في المني من الروح النفساني، والطبيعي والحيواني إلى معدن كل واحد منها، ليستقر فيه، ويتخلق ذلك العضو منه على الوجه الذي أوضحناه وبيناه في كتب الأصول، ولذلك يوجد النفخ كله يندفع إلى وسط الرطوبة إعداداً لمكان القلب، ثم يكون على جانبه الأيمن وجانبه الأعلى نفخان كالمتسعين منه يماسانه إلى حين، ثم يتتحيان عنه ويتميزان، ويصير الأول علقة للقلب، والأيمن علقة للكبد، ويمتلئ الآخر من دم إلى بياض، وينفذ إلى ظاهر

(١) أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي: أيمن الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، ص ٤٣.

(٢) انظر في ترجمة ابن سينا: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٤٣٧. ٤٥٩. وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٢، ص ١٥٧ - ١٦٢. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ١٢، ص ٣٩١ - ٤١٢. تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: البابا، ص ١٥٣، ١٥٢. مسيرة الطب في الحضارات القديمة: جوزيف كلاس، دار طلاس، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٢٨٢ - ٢٨٦.

الرطوبة المبتوثة نفذ نفخ ريحي يثقبه، لينال منه المدد من الرحم من الروح والدم، وتتخلق السرة، وأول ما تتخلق السرة تتبين، إلا أن نفخات القلب، والكبد، والدماغ، تتقدم خلق السرة، وإن كان استتمام هذه الثلاثة يتأخر عن استتمام جوهر السرة، وهذا شيء قد حققناه وبيننا الخلاف فيه في كتب الأصول من العلم الطبيعي.

وكما يستقر المني ويزيد وينفذ الزبد على الغور نفخاً للقلب، يتولد غشاء من حركة مني الأنثى إلى مني الذكر، ويكون متبرئاً، ثم لا يتعلق من الرحم إلا بالنقر لجذب الغذاء، وإنما يغتذي الجنين بهذا الغشاء ما دام الغشاء رقيقاً فيها، فكانت الحاجة إلى قليل من الغذاء، وأما إذا صلب فيكون الاغتذاء بما تولد في مسامه من المنافذ الواضحة العرقية، ثم ينقسم بعد مدة أغشية.

والحق أن أول عضو يتكون هو القلب، وإن كان يحكى عن أبقراط أنه قال أول عضو يتكون هو الدماغ والعينان بسبب ما يشاهد عليه حال فراخ البيض، لكن القلب لا يكون في أول ما يتخلق في كل شيء ظاهراً جلياً، وقد نبغ فضولي من بعد يقول أن الصواب أن يكون أول ما يتخلق هو الكبد، لأن أول فعل البدن هو التغذي، كأن الأمر على شهوته واستصوابه.

وقوله هذا فاسد من طريق التجربة، فإن أصحاب العناية بهذا الشأن لم يشاهدوا الأمر على ما يزعم البتة، ومن القياس وهو أنه إن كان الأمر على ما يزعم من أنه يخلق أولاً ما يحتاج إلى سبق فعله أولاً، فليعلم أنه لا يغتذي عضو حيواني ليس فيه تمهيد الحياة بالحرارة الغريزية، وإذا كان كذلك كانت الحاجة على أن يخلق العضو الذي ينبعث منه الحار الغريزي والروح الحيواني قبل أن يخلق الغاذي، والقوة المصورة لا تحتاج في حال التصوير إلى تغذية ما، لم يقع تحلل محسوس يضر ضرراً محسوساً، فيحتاج إلى بدله، ويحتاج على الروح الحيواني، والحار الغريزي ليقوم به، فإن قال أنه حاصل للمصورة من الأب، فكذلك القوة الغاذية أيضاً مصاحبة للمصورة المولدة من جهة الأب، وكيف لا وتلك أسبق في الوجود.

هذا والحال الأخرى ظهور النقطة الدموية في الصفاق، وامتدادها في الصفاق امتداد ما، وفي هذه الحال تكون النفخات قد استحالت الرغوي منها إلى

دموية ما، واستحالت السرة إلى هيئة السرة استحالة محسوسة، وثالث الأحوال استحالة المني إلى العلقه وبعدها استحالة إلى المضغة، وهناك تكون الأعضاء الرئيسية قد ظهر لها انفصال محسوس، وقدر محسوس، وبعدها استحالتة إلى أن يتم تكون القلب، والأعضاء الأولى وبيئتي تحي الأعضاء بعضها عن بعض، وتليها الوشائج العلوية، وتكون الأطراف قد تخططت، ولم تنفصل تمام الانفصال وأوعيتها، ثم إلى أن تتكون الأطراف، ولكل استحالة أو استحالتين مدة موقوف عليها، وليس ذلك مما لا يختلف، ومع ذلك فإنها تختلف في الذكران والإناث من الأجنة، وهي في الإناث أبطأ...»^(١).

ويقول: «أما مدد التحرك والتخلق والولادة، فنعلم أن الشهر السابع أول شهر يولد فيه الجنين القوي الخلقة والمزاج، الذي أسرع تخلقه وتحركه، وأسرع طلبه للخروج، وأكثر ما يموت المولود لهذه المدة، لأنهم يقاسون حركات شديدة في ضعف من الخلقة، فإن مثل هذا المولود - وإن كان قوياً في الأصل - فهو قريب العهد بالتكون، لكن المولود بالثامن هو أكثر المولودين هلاكاً وقلماً يعيش، فإن عاش المولودين لثمانية أشهر واحد، فذلك هو النادر جداً، وقلماً يعيش مولود أنثى لهذه المدة.

وفي بعض البلاد لا يعيش مولود لثمانية أشهر البتة، لأنهم لا يخلو حالهم من أن يكونوا تأخروا في التخلق والتحرك والشوق إلى الولادة إلى هذا الوقت، فيدل على أن قوتهم لم تكن قوية في الأصل، فإن حاولوا بحركات التفصي (التقلت والتملص والمراد هنا الخروج من الرحم والتخلص من ارتباطه فيه) في أول عهد الاستتمام، ضعفوا أكثر من ضعف من يحاول التفصي في أول عهد الاستتمام، وكانت قوته الأصلية قوية كالمولودين في السابع، وإن لم يكونوا كذلك، بل كانت خلقتهم وحركتهم ونيتهم إلى الشوق إلى الولادة، وحركتهم إليه قد تمت قبل ذلك، فيكون مثل هذا الجنين قد رام التفصي عن مأواه، وانقلب، وأحدث انقلابه الذي لم يبلغ به غرضه وصباً، وبقي كذلك منقلباً على أن تثوب إليه

(١) القانون في الطب: الحسين بن عبد الله بن سينا، تح سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ج٣، ص ٢٤٣ - ٢٤٥.

القوة، فأعجزه ضعف قوته، وعرض له لا محالة ما يعرض للضعيف المحاول للحركات المخلصة إذا انبث دون متوجهة إعياء وعجز، فيمرض لا محالة، ويضعف، وتتحل قوته، فإذا ولد في مثل تلك الحال كان حكمه حكم المولود المريض الضعيف، ومن حكمه أن لا يرجى له الحياة.

وأما المولود في التاسع فإن كانت قد تمت خلقتة، واشتاق إلى الحركة في السابع، لم يمكنه أن يتقصى، بل بقي في الرحم، وعرض له في الثامن ما قلناه، انتعش في مدة شهر انتعاشاً يرد إليه القوة عن انقلابه، واستوى إلى أن لا يعود منقلباً، واستحكم وتحنك، فإذا ولد سلم، وإذا لم يكن كذلك، بل اشتاق إلى الحركة في ذلك الوقت، فحكمه حكم كل ضعيف البتة.

وأكثر ما يولد في العاشر يكون قد عرض له إن انتهى الولادة في التاسع، فلم يتيسر له، وعرض له ما يعرض للمولود في الثامن، وقليلاً ما يتفق أن يكون ورم الانفصال واقعاً في السابع، ثم يمتد الانتعاش على العاشر حتى يقع له انتعاش تام في العاشر، فهذا نادر، ومع ذلك فهو دليل على ضعف القوة إذا أخرت التدارك من السابع إلى العاشر»^(١).

ثم ينقلنا ابن سينا إلى مواضيع طبية ولادية حساسة، فتحت عنوان: «فصل في سبب التوأم والحبلى على الحبلى» يذكر: «سببه كثرة المنى، وانقسامه إلى اثنين فما بعده، ووقوعه في التجويفين، وسلامة ولدي المتئم غير كثيرة، وقلما يكون بين التوأمين أيام كثيرة، فإنهما في الكثير من جماع واحد، وفي القليل ما يعلق جماع على حبلى، وإن أعلق في نساء خصبات الأبدان، كثيرات الشعور والدم لقوة حرارتهن، وهن اللاتي ربما رأين الدم في الحبلى، فلم يبالين به لقوة منيهن، وقوة أرحامهن، ولم يسقطن مع الحيض، ومع انتفاخ ما من فم الرحم، وربما حضن على الحبلى عدة حيض اثنتين فما فوقهما، فإن وقع حبلى في غير القوية جداً، وفي التي إنما حبلى لانفتاح في رحمها، لا لقوة رحمها، خيف أن يكون المولود الأول قد ضعف فيفسد في الثاني.

(١) القانون في الطب: ابن سينا، ج ٣، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

وأيضاً في القويّات قد يخاف جانب وقوع التعلق والتزاحم بين الولدين، وأكثر ما يتأدّى ذلك إلى حمّى، وتهيج في الوجه، وحدوث أمراض إلى أن يسقط أحدهما، ومن علامات التوأم وما فوقه على ما قالوا وجرب، أن يراعى سرّة المولود الأول المتصلة بالجنين، فإن لم يكن فيها تعجر (نتوءات) ولا عقد فليس غير المولود الأول ولد، فإذا كان فيها تعجر فالحمل بعدد التعجر».

ثم يفيد الطب بعلامات اقتراب الولادة، يقول: «إذا دخلت الحامل في مدة قريبة من أجل الولادة، وأحست بثقل في أسفل البطن تحت السرة، وفي الصلب، ووجع في الأربية، وحرارة في البطن، وانتفاخ في فم الرحم شديد محسوس، وترطب منه، فقد أقربت، فإذا استرخت عجزتها وانتفخت أربيتها، واشتد انتفاخ الرية فما بينها وبين الطلق إلا قريب».

ومن ثم ينقلنا إلى علامات ضعف الجنين: ومما قاله عن ذلك: «يدل على ضعفه أمراض والدته، واستفراغات عرضت لها، وخصوصاً اتصال درور الحيض المجاوز لما يكون على سبيل الندرة والقلّة، وعلى سبيل فضل من الغذاء، وكذلك ظهور اللبن في أول شهر حملت فيه، وتحلبه إذا عصر الثدي، ويدل عليه أن لا يتحرك الجنين تحركاً يعتد به، أو يتحرك في غير وقته».

ومن علامات ضعف المولود كما يشّخص ذلك: «إن الجنين إذا ولد ولم تنتفخ سرته، ولم يعطس، ولم يتحرك، ولم يستهل إلى زمان، فإنه ضعيف ولا يعيش»^(١).

والمثال الآخر الذي ندلل به على علم الأجنة عند العرب المسلمين: علي بن العباس المعروف بالأهوازي (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م)^(٢)، إذ تكلم عن تطور الجنين في رحم أمه بطريقة علمية مخبرية متطورة، أدت إلى استغراب كبير بين

(١) القانون في الطب: ابن سينا، ج ٣، ص ٢٦٣.

(٢) انظر في ترجمة الأهوازي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٣١٩، ٣٢٠. إخبار العلماء بأخبار الحكماء: القفطي، القاهرة، ص ١٥٦، ١٥٥. معجم المؤلفين: كحالة، ج ٢، ص ٤٥٤. دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص ٥٨.

علماء العصر الحديث ومن ذلك نختار قوله في كتابه «الكامل في صناعة الطب»: «الجنين إنما يتم بامتزاج مني الذكر بمنى الأنثى، ومن شأن الرحم أن تتضمن من جميع نواحيها وتمسكه، ويمتزج المنيات ويصيران إلى تجويف الرحم، ويتكون منهما الغشاء الذي يحيط بالجنين إلى أن تتصل ما به من العروق والشرابين بأفواه العروق والشرابين التي تعبر إلى الرحم، ويقال لهذا الغشاء المشتبك فيه العروق والشرابين: المشيمة، أما تكوين الجنين نفسه، فيحدث نفاخات إذا خالط المنيان أحدهما الآخر من حرارة الدم، وتجتمع النفاخات إلى تجويف عظيم، وتجتمع في هذا التجويف مقدار من الروح، ثم يبدأ ظهور أعضاء الجنين، وأول شيء تبدأ به القوة المصورة الأعضاء التي هي الأصول لأكثر الأعضاء، وهي الدماغ والقلب والكبد وسائر الأعضاء اللحمية، وسائر الأعضاء الباقية التي في الجنين الكامل، وعند ذلك يبدأ الجنين يتحرك، ويتم خروج الجنين إما في الشهر السابع أو في الشهر التاسع»^(١).

٢ _ ولادة الحوض:

إن الطبيب أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي (ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م)^(٢)، هو أول من عالج ووصف ولادة الحوض التي تنسب إلى الطبيب (فالشر)، فقد سبقه الزهراوي إلى هذا العلاج بنحو تسعمائة سنة، وتشرح لنا زيفريد هونكه ذلك فنقول: «وأوجد لمسات جديدة للولادة في حالة سقوط يد أو ركبة الجنين أو وضعه المسمى بوضع الأرجل (تقدم الأرجل من باب الرحم على الرأس) أو الوضع المسمى (بالقرضي) أو الوضع الوجهي (تقدم الوجه من باب الرحم على غيره من الأعضاء)، وهو أول من عالج هذا الوضع الأخير، وأول من أوصى بولادة الحوض ... وهي الولادة المسماة حديثاً باسم الأستاذ الشوتوغرتي

(١) دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص ٥٩، ٦٠. العلوم العملية في الحضارة الإسلامية: عمر كحالة، مطبعة التلوقي، دمشق، ١٩٧٢م، ص ٢٨، ٢٩. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج ٢، ص ١١٨. مسيرة الطب في الحضارات القديمة: كلاس، ص ٢٥٩ - ٢٦١.

(٢) انظر في ترجمة الزهراوي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٥٠١. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ١٣، ص ٣٧٠. معجم المؤلفين: كحالة، ج ١، ص ٦٧٤.

(نسبة لمدينة ستوتغرت الألمانية) في أمراض النساء فالشر ١٢٧٣ - ١٣٥٤هـ / ١٨٥٦ - ١٩٣٥م»^(١).

والجدير ذكره أن الزهراوي هو أول من أسس علم الجراحة في العالم، وهو أول من مارسه من بين الأطباء، وأجرى عمليات جراحية أحجم غيره عن إجرائها، وهو أول من نقل الجراحة من مجال الصنعة المهنية إلى مجال العلم التخصصي، لذا فهو يستحق بكل ثقة لقب «مؤسس علم الجراحة»، وقد نُسب هذا السبق ظلماً إلى العالم الفرنسي (أمبرواز باريه) الذي ادعى ذلك بعد أربعة قرون من عصر الزهراوي^(٢).

٣ _ عصر الولادة (الجفت - Forceps):

الجفت عبارة عن أداة معدنية لها شريحتان تستخدمان في سند رأس الجنين وسحبه للخارج عندما يكون هناك صعوبة في خروج الرأس بطريقة طبيعية.

وذكر التاريخ الغربي أن هذا الابتكار اخترعته عائلة من المولدين الذكور (دايات) عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، واشتهرت هذه العائلة بعائلة (شامبرلين)، ومن غريب ما قرأت عن هذه العائلة، ومما أثار حفيظتي أنهم لم يودوا أن يعرف أحد ابتكارهم هذا ليبقوا محتفظين بشهرتهم ومهارتهم من دون منافس، وظلوا محتفظين بهذا السر لفترة طويلة، واستطاعوا جمع مبالغ طائلة من إجراء عمليات التوليد، ومع الوقت توفي أفراد عائلة شامبرلين واحداً بعد الآخر، وقبل وفاة آخرهم بعدة سنوات كشف طريقة التوليد التي كانوا يقومون بها، وعدّها ابتكاراً مميزاً لعائلته^(٣).

وبالعودة إلى كتب تراثا الطبية نقرأ عن تفاصيل كثيرة عن طرق للتوليد، وليس طريقة واحدة، فمثلاً يشير ابن سينا وتحت عنوان: «تدبير من تعسر ولادها

(١) شمس العرب تسطع على الغرب: زيجريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٢٧٨. موسوعة الأوائل والمبدعين: نزار أباطه وشوقي أبو خليل، ج ٤، ص ٦٣٥.

(٢) دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص ٦٧. موسوعة الأوائل والمبدعين، أباطه وأبو خليل، ج ٤، ص ٦٣٤.

(٣) أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي: الحسيني، ص ١٣٣، ١٣٤.

بسبب موت الجنين، أو سوء شكله الذي لا يرجى معه حياته: تستعمل الأدوية المخرجة للجنين الميت مما قيل ويقال، فإن لم ينجح ذلك علق بصنابير وقطع إرباً إرباً، وأخرج واستعجل في ذلك قبل أن ينتفخ، فإن كان رأسه عظيماً وأمكن شدجه أو قطعه ليسيل ما فيه فعل ذلك»^(١).

وفيدنا بطرائق للتوليد في الحالات الشاذة والصعبة، وذلك تحت عدة عناوين، أولها: «تدبير من خرج من جنينها الرجل قبل الرأس» يقول: «يجب أن تتلطف، وترد الرجل وتقلبه باللفظ حتى يستوى قاعداً، وتشيل ساقيه قليلاً قليلاً حتى ينزل رأسه، فإن لم يمكن شيء من ذلك، شد الجنين بعصابات وأخرج، فإن لم يكن إلا القطع فعل ذلك على قياس ما قيل في الجنين الميت».

ويذكر تحت عنوان: «تدبير من يخرج جنينها على جنبه»: «هو قريب من ذلك، ويسوى بالرفع إلى فوق، وبالإجلاس والنكس بالرفق».

وتحت عنوان: «تدبير من تلد وفي رحمها ورم» يذكر: «يستعمل عليها القيروطيات، والأدهان، وتعمل بها ما رسم أن يعمل بالسمان من هيئة الولادة وغيرها».

وتحت عنوان: «تدبير من تعسر ولادها بسبب عظم الصبي» يقول: «يجب أن تجيد القابلة التمكن من مثل هذا الجنين، فتتلف في جذبه قليلاً قليلاً، فإن أنجح في ذلك، وإلا ربطته بحاشية ثوب، وجذبه جذباً رقيقاً بعد جذب، فإن لم ينجح ذلك استعملت الكلايب واستخرج بها، فإن لم ينجح ذلك أخرج بالقطع على ما يسهل ويدبر تدبير الجنين الميت»^(٢).

ويذكر العالم سبرينجل أن الزهراوي كان الطبيب الأول الذي وصف العملية المسماة «فغر الجمجمة»، وهذا عندما يكون الجنين ميتاً أو يكون مصاباً باستسقاء في الرأس، وذلك بأن اخترع أداة لخرق جمجمة الجنين وإفراغها من محتوياتها لتسهيل عملية نزوله من الرحم، وإنقاذ حياة المرأة، وهذه الآلة على

(١) القانون في الطب: ابن سينا، ج ٣، ص ٢٨٦.

(٢) القانون في الطب: ابن سينا، ج ٣، ص ٢٨٥.

شكل ملقط، وتشبه آلة (الجفت) التي تستخدم اليوم في توليد الجنين عندما تتأخر ولادته.

والزهرابي هو أول من استعمل طريقة إخراج المشيمة المحبوسة بعد ولادة الجنين بالضغط على الرحم من خلال جدار البطن^(١).

٤ - منع الحمل:

ذكر أن قصة حبوب منع الحمل بدأت في المكسيك في بداية أربعينات القرن العشرين، إذ أدرك الطبيب (روسل ماركر) ومن خلال دراسته لخلصة نبات الياقوت (نوع من النباتات شبيه بالبطاطا) أن به مواد فعالة شبيهة بمفعول البروجسترون (وهو هرمون أنثوي يتحكم في عملية التبويض، أي خروج البويضة من المبيض شهرياً للتلقيح).

ثم ذكر أن ماركر استطاع من خلال الاستعانة بطبيب أمريكي هو (جريجوري بنكس) تجهيز الإستروجين من خلاصة الياقوت في صورة حبوب، ووجد أن تناول هذه الحبوب يوقف التبويض، أي يمنع الحمل، ثم قامت طبيبة أمريكية تدعى (مارجريت سانجر) بمواصلة البحث واستكمالته ودراسة تأثير هذه الحبوب على مجموعة كبيرة من السيدات، وأثبتت الدراسات والتجارب فعالية هذه الحبوب في منع الحمل، وكان ذلك سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م^(٢).

ونحن في بحثنا هذا لا نبخس أي عالم من العلماء حقه، ولا ندفع عنه الشهرة، ولكن الحق أحق أن يتبع، وصاحب السبق يجب أن يُعرف، وسأذكر لك أولاً ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة، إذ أشار إلى أن الطبيب الكيميائي: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١٣هـ / ٩٢٥م)^(٣) قد أفرد في أحد كتبه

(١) دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص ٦٥ - ٦٩. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباطة وأبو خليل، ج ٤، ص ٦٣٣ - ٦٣٧. أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية: أحمد الملا، دار الفكر، ص ١٣٧. الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: محمد حسين وآخرين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص ١٠٨ - ١٤٧.

(٢) أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي: الحسيني، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٣) انظر في ترجمة الرازي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٤١٤،

فصلاً لموانع الحمل، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية^(١).

وخصص ابن سينا فصلاً عن هذه القضية الطبية أسماه «فصل في منع الحمل»، ويبدأ بمبررات ذلك فيقول: «الطبيب قد يفتقر في منع الحمل في الصغيرة المخوف عليها من الولادة التي في رحمها علة، والتي في مثانتها ضعف»، ثم يذكر الطرق والأدوية التي تمنع الحمل^(٢).

سابعاً _ من بنى مدينتي بكين ومديريه؟:

اكتشف المستشرقون - لما درسوا العمارة العربية الإسلامية - عالماً فنياً غنياً ورائعاً، اعترفوا أنه أوسع الفنون العالمية انتشاراً، وأطولها عمراً، وأكثرها تنوعاً وغازرة مع احتفاظه بوحده المميزة^(٣).

وقد أقرّ غوستاف لوبون «أنّ الغرب اقتبس أصول فن عمارته من العرب»^(٤).

ونبدأ بمدينة بكين عاصمة الصين، فكل من يذهب إلى بكين عاصمة الصين في الوقت الحاضر من الصينيين والضيوف الأجانب، لابد أن يزوروا القصور الملكية القديمة بالمدينة المحرمة والحدائق الملكية القديمة «حديقة بيهاي حالياً» على مقربة من القصور، ويتعجبوا من عظمة القصور والحدائق وفخامتها وروعة بنائها.

ويرجع تاريخ بناء هذه القصور والحدائق إلى ثمانية قرون، أي في عهد

٤٢٧. الفهرست: محمد بن النديم، ص ٥٠٤. إخبار العلماء: القفطي، ص ١٧٨ - ١٨٢.

وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٥، ص ١٥٧ - ١٦١. طبقات الأطباء والحكماء: سليمان

بن جلجل، تح فؤاد سيد، ط ٢، ١٩٨٥م، ص ٧١ - ٨١.

(١) قصة الحضارة: ول ديورانت، تر علي أبو درة، بيروت، دار الجبل، ج ١٣، ص ١٤١.

(٢) القانون في الطب: ابن سينا، ج ٣، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٣) انظر الفن عند العرب والمسلمين: أنور الرفاعي، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٧م، ص ٣ - ٥.

(٤) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

٢٠٠٠م، ص ٥٧١ - ٥٧٤.

سلالة يوان عندما اتخذ قبلاي خان مدينة بكين عاصمة لمملكته سنة ١٢٧٩م، وكان «اختيار الدين» المهندس المعماري المسلم من بلاد العرب هو المصمم والمنفذ لهذه القصور والحدائق أيام حكم قبلاي خان ١٢١٥ - ١٢٩٤م ١٢٦٠ - ١٢٩٤م.

يقول الأستاذ الصيني الكبير تشين يوان (١٨٨٠ - ١٩٧١م) رئيس جامعة بكين الأسبق والمختص في تاريخ الصين الحديث في بحثه المعنون: «دراسات الصينيين من أصل بلاد الفرس والعرب»: إن أكبر إهمال نرتكبه هو عدم اهتمامنا وذكرنا من صمم ونفذ مشروع القصور والمدينة المحرمة حولها في العاصمة اليوم، وهو مهندس معماري مسلم من أصل بلاد العرب، والسبب في ذلك عدم اهتمامنا بعلوم الهندسة والتكنولوجيا عند تسجيل أحداث العصر في كتب التاريخ، ومصمم المشروع ومنفذه هو اختيار الدين المسلم من الأصل العربي.

ورد في كتاب «المختارات» للمؤلف (أو يانغ شوان، ١٢٧٤ - ١٣٥٨م) - الذي كان يتولى مهمة تأليف ومراجعة كتب التاريخ في البلاط الصيني - الكلام نفسه، وقال (أو يانغ شوان) أيضاً في أحد مقالاته عن وثيقة نصب مقبرة السيد محمد: إن السيد محمد هو ابن السيد اختيار الدين من الأصل العربي منذ عهد تانغ، فعندما جلس قبلاي خان على عرش الصين عيّن اختيار الدين مديراً للهندسة والمعمار (البيوت والمخيمات في اللغة المغولية) سنة ١٢٦٧م، وكان اختيار الدين يعمل ليلاً ونهاراً في التفكير والتصميم ثم في التنفيذ مع وزير المالية ووزير العمل، وبعد انتهاء المشروع نال الإعجاب والتقدير العظيمين من الإمبراطور الذي منحه مزيداً من الهدايا والشرف، ولكن اختيار الدين تعب كثيراً وجاءته الشيخوخة قبل أوانها.

وقبل بناء القصور والمدينة المحرمة كان اختيار الدين قد قدم اقتراحاً لبناء الحدائق سنة ١٢٦٣م، ونفذ هذا المشروع في سنة ١٢٦٤م، وما زالت بعض أجزاء الحدائق القديمة باقية حتى اليوم، خاصة الجزيرة وسط البحيرة والبرج الأبيض فوقها.

أخيراً، وتأكيداً على الأدلة المتقدمة، نشر العالم الباحث (ما مينغ داو،

١٩٠٨ - ١٩٩١م) مقالاً تحت عنوان: من بنى مدينة بكين، ضمن كتاب «تأثير الإسلام في الثقافة الصينية»، نشره قسم المطبوعات في جامعة الثقافة الصينية بتايوان سنة ١٩٨٢م، وقال فيه: إن مدينة بكين من تصميم المهندس العربي المسلم مقلداً لمدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية في القرون الوسطى. وقال: إن معبد السماء في بكين حالياً من تصميم المهندس العربي المسلم أيضاً.^(١)

ونأتي إلى من بنى مدينة مدريد الإسبانية، فلقد كانت كثير من النباتات الجديدة في إسبانية تحتاج إلى وفرة في الماء، فعمد العرب إلى تنظيم أساليب للتصرف بالمياه، ليس في المناطق المروية وحدها، بل كذلك في النُجود، ونجد في مدريد أول تطبيق لها معروف في إسبانيا؛ هذه المدينة، التي تكوّنت نواتها من حصن بسيط كان قد أمر بإنشائه محمد الأول (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م)، وكان يُمدُّ بالماء بوساطة مصارف جوفية تسمى: الفجّارة أو الخطّارة بحسب المناطق في العالم العربي، وكانت تُسمّى آنذاك: القناة أوالمجرى (باللاتينية *matrice*). وقد تولّدت عن إضافة اللاحقة اللفظية *etu* - التي تعني: الوفرة باللغة الرومانيّة - إلى هذه الكلمة الأخيرة، تسميتان متوازيتان للمدينة الجديدة: «مجرىط» بالعربية، «ومدرید» بالرومانيّة، وتصدر كلتاها عن الاشتقاق ذاته: المكان الذي تكثر فيه الأنفاق الجوفية لجلب المياه. وقد ظهرت، خلال حفر هذه الأنفاق، أولى بقايا الأحافير لـ الفاس أنتيكوس *elephas antiquus*، التي عُثر عليها في إسبانيا. أمّا التقنية المستعملة فنعرّفها على نحو ما ينبغي، بفضل مؤلف الكرخي: كتاب إنباط المياه الخفية، وفي توسّع شبكة المياه مع اتساع المدينة في آن واحد، وظلت قيد الاستعمال، تحت اسم *viajes* أي (المياه المجلوبة بالأنابيب) حتى أيّامنا هذه تقريباً. وأمّا المشهد، الذي كان يتسم به، ولا بد، مجال مدينة مدريد، بما ينتظم فيه من صفوف الأبار المتعلّقة بهذه المجاري، ففي وسع أي مسافر أن يتصوره بسهولة، إذا ما حلّق في زمننا هذا فوق أصفهان ومدن أخرى في الشرق الأدنى، حيث يستمر إنشاء هذه القنوات

(١) الإسلام والثقافة الصينية: لي تشين تشونغ، ص ٢٧٠، ٢٧١.

واستخدامها بمرود تام (١).

ونشير هنا أن نظام الري كان قائماً في إسبانيا منذ العهد الروماني، واستمر في زمن القوط، ولكن العرب قاموا بتوسيع نظام الري وتطويره على أساس الخبرة التي اكتسبوها في المشرق فيما يخص توزيع المياه وتوفيرها، وتشهد على ذلك وفرة المفردات العربية الأصل الشائعة في اللغة الإسبانية، والمتعلقة بهندسة الري، مثل:

Acequia, alberca, aljibe, noria, arcaduz, azuda, almat-
riche, alcantarilla, atarhea, atanor, alcorque.

وبالإضافة إلى هذا البرهان «اللغوي»، ثمة تشابه واضح بين شكل دواليب المياه التي ما زالت تستعمل حتى اليوم في إسبانيا، وبين الدواليب المستعملة في المغرب والمشرق العربي، ومن المحتمل جداً أن اختراع هذه الدواليب قد تم في الشرق الأوسط بالذات (٢).

ثامناً _ علم شكل الأرض (الجيومورفولوجيا) في الحضارة العربية الإسلامية:
مذهلة هي إبداعات الحضارة العربية الإسلامية، إذ لم يتركوا شيئاً إلا وأشبعوه بحثاً وتنقيباً، حتى أنهم غاصوا في أعماق البحار ومسحوا أرض عالما العجيب، فها هو البيروني (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) يصف بلاد النرويج و(بحر الثلج) وهو القطب الشمالي، وها هم غيره يكتشفون بحر الصين وبحيرة (آرال) شمالي شرق قزوين. والعرب هم أول من اكتشف منابع نهر النيل قبل أن تصل إليها حملات الاستكشاف البريطانية بعدة قرون.

هذا الإرث الجغرافي العظيم؛ تسلّمه الغربيون من إسبان وبرتغاليين خاصّة، وجعلوه مرجعهم الأول في كشفهم، التي - إن قصدنا الحقيقة - يجب أن نسّمّيها

(١) فضل الأندلس على ثقافة الغرب: خوان فيرنيت، ترجمة نهاد رضا، دمشق، دار إشبيلية، ط١، ١٩٩٧، ص ٤٣-٤٥.

(٢) انظر أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا: منتغمري واط، ترجمة عادل أبي جابر، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨١، ص ٦٧، ٦٨.

إعادة كشف.

وعلوم الأرض والبحار التي أود أن أتحدث عنها في هذا البحث تشكل سبقاً جغرافياً نادراً، لذلك أثارت أبحاث علماء الحضارة العربية الإسلامية فيها دهشة علماء الغرب، والأسطر القادمة تدل على ذلك.

يهتم هذا العلم في صورته المعاصرة بدراسة الأشكال (التضاريس) الأرضية المختلفة الظاهرة فوق سطح اليابسة والمغمورة تحت المياه، وتتبع أطوارها المتعددة، وتفهم الأسباب والعوامل المؤثرة في تكوينها، على ضوء ما يسمى (بالنظرية الجيومورفولوجية) الحديثة التي تقضي بأن تطور أشكال سطح الأرض يعتمد على عوامل التعرية والإرساب والحركات الأرضية.

وهي عوامل ناتجة عن تأثير نوعين من القوى هما: قوى الأرض الداخلية وما يصاحبها من تكون الألواح القارية وتزحزحها وتكون السلاسل الجبلية. وقوى الأرض الخارجية، وأغلبها ناشئ عن طاقة الشمس مباشرة.

والباحث المدقق في كتب التراث العربي يجد العديد من النصوص التراثية التي تؤكد سبق علماء العرب إلى وضع أصول النظرية الجيومورفولوجية الحديثة وصياغة المبادئ والمفاهيم العلمية التي تطوّر على أساسها مبحث شكل الأرض Geomorphology وأصبح واحداً من أهم العلوم الجيولوجية المعاصرة.

فمثلاً جاء في رسائل إخوان الصفا: «إن الجبال من شدة إشراق الشمس والقمر والكواكب عليها بطول الأزمان والدهور، تنشف رطوباتها وتزداد جفافاً ويبساً، وتتقطع وتنكسر، وخاصة عند انقضاء الصواعق، وتصير أحجاراً وصخوراً، أو حصىً ورمالاً، ثم إن الأمطار والسيول تحط تلك الصخور إلى بطون الأودية والأنهار، ويحمل ذلك شدة جريانها إلى البحار والغدران والآجام. وإن البحار، لشدة أمواجها، وشدة اضطرابها وفورانها، تبسط تلك الرمال والطين والحصى فوق قعرها سافاً^(١) على ساف بطول الزمان والدهور، ويتلبد وينعقد:

(١) أي: طبقة.

وينبت في قعور البحار جبلاً وتلاً»^(١).

وهنا نجد أن إخوان الصفا قد عدوا مياه المطر والمجاري المائية عوامل تعرية وإرساب، وعزوا ما يصيب الحواف الجبلية من تجوية إلى فعل أشعة الشمس والقمر والنجوم (التي كانت تُسمى الكواكب أيضاً)^(٢).

ويأتي أبو الريحان البيروني بعد ذلك ليحدد لنا مفهوماً أساسياً واضحاً في تفكيره، وهو أن الأرض تتعاقب عليها الأحداث منذ أزمنة وعصور طويلة، وأن ما ينشأ عن هذه الأحداث من تغيرات في سطح الأرض يحتاج إلى مُددٍ زمنية طويلة، فيسبق بذلك إلى القول بنظرية الانتظام أو التواتر (Uniformitarianism) التي نسبها المؤرخون إلى العالم الاسكتلندي (جيمس هاتون) في عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م، والتي تفسّر حدوث تغيرات سطح الأرض على أساس أن (الحاضر هو مفتاح الماضي).

ويطبق البيروني هذه النظرية بكل وضوح في صياغته لمبادئ النظرية الجيومورفولوجية العامة على أساس قوى البناء والهدم، ومفهوم توازن الكرة الأرضية، فيقول شارحاً ومشبهاً تطور تضاريس الأرض بمراحل النشوء والشباب والشيخوخة: «ولا نعلم من أحوالها»^(٣) إلا ما نشاهد من الآثار التي تحتاج في حصولها إلى مُددٍ طويلة، وإن تناهت في الطرفين كالجبال الشامخة المترتبة من الرضراض^(٤) الملص المختلفة الألوان المؤتلفة بالطين والرمل المتحجرين عليها، فإن من تأمل الأمر من وجهه وأتاه من بابه علم أن الرضراض والحصى هي حجارة تنكسر من الجبال بالانصداع والانصدام، ثم يكثر عليها جري الماء وهبوب

(١) انظر أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي: أحمد فؤاد باشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ م، ص ٧٨، ٧٩. الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين): ضياء الدين علوي، تعريب وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم، طه محمد جاد، جامعة الكويت، ١٩٨٠ م، ص ١١٦.

(٢) ومن كتب حضارتنا عن الجبال والمياه كتاب: الجبال والأمكنة والمياه: لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تح أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩ م.

(٣) أي: الأرض.

(٤) الحصى الصغار وفتات الحجر.

الرياح، ويدوم احتكاكها فتبلى، ويأخذ البلى فيها من جهة زواياها وحروفها حتى يذهب بها فتدملكها^(١)، وأن الفتات التي تتميز عنها هي الرمال ثم التراب، وإن ذلك الرضراض لما اجتمع في مسایل الأودية حتى انسكبت بها وتخللها الرمال والتراب فانعجنت بها، واندفنت فيها، وعلتها السيول فصارت في القرار والعمق بعد أن كانت من وجه الأرض فوق، تحجرت بالبرد، لأن تحجر أكثر الجبال في الأعمال بالبرد، ولذلك تذوب الأحجار بتسليط النار عليها، فإن ما انعقد بالبرد انحل بالحر، وما انعقد بالحر انحل بالبرد، وإذا وجدنا جبلاً متجبلاً من هذه الحجارات الملس، وما أكثره فيما بينها، علمنا أن تكونه على ما وصفناه، وأنه تردّد سافلاً مرة وعالياً أخرى، وكلّ تلك الأحوال بالضرورة ذوات أزمان مديدة غير مضبوطة الكمية، وتحت تغاير غير معلومة الكيفية، ولها تتناوب العمارة على بقاع الأرض، فإن أجزاءها إذا انتقلت من موضع إلى آخر انتقل معها ثقلها فاختلف على جوانبها، ولم تكن الأرض لتستقر إلا يكون مركز ثقلها مركز العالم، فلزمها أن تسوّي ذلك الاختلاف، ولزم منه أن يكون مركز ثقلها مختلفاً على اختلاف وضع الأجزاء المنقلة منها، فلم تكن لتثبت أبعاد البقاع عن المركز على مرور الزمان عليها على مقدار واحد، فإذا علت أو أفرط تكابس ما حولها نقصت المياه وغارَت العيون، وعمقت الأودية، وتعذرت العمارة، فانقل أهلها إلى غيرها، ونُسب ذلك الخراب إلى الهرم، وعمار الخراب إلى النشوء والشباب، ولأجله تصرد جروم، وتجرم صرود^(٢)»^(٣).

ولا يخفى على أهل الاختصاص ما في هذا النص التراثي للبيروني من أفكار غير مسبوقة عن تكون الصخور الرسوبية الفتاتية (الحطامية)، وتصنيفها بحسب حجومها إلى الحصى والرمل والتراب، وتفسير الطريقة التي تؤدي إلى استدارة الحبيبات الفتاتية والحصى، وبيان العلاقة بين حجمها وبُعد المصدر الذي

(١) أي: تملسها وتدورها.

(٢) أي تبرد المناطق التي كانت ساخنة، والعكس بالعكس، والصرود هي الأراضي الباردة، والجروم هي الأراضي الحارة.

(٣) تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، تحقيق محمد بن تاووت الطنجي، أنقرة، تركيا، ١٩٥٨م. من خلال أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي: باشا، ص ٨٠، ٨١.

نشأت منه، وهي موضوعات يعالجها علم الرسوبيات الحديث.

واستطاع أبو بكر الكرخي (حدث خلاف في تاريخ وفاته على عدة أقوال بين ٤١٠ هـ/١٠١٩م، و٤٠٧ هـ/١٠١٦م، و٤١٩ هـ/١٠٢٨م، و٤٢١ هـ/١٠٣٠م) أن يطور هذه المفاهيم، ويزيد عليها ما يعمق مفهوم توازن الأرض، وفكرة الدورة التضاريسية التي تقول بتطور معالم سطح الأرض، بحيث إذا أثرت قوى الرفع البانية على منطقة ما، ورفعتها فوق مستوى سطح البحر، فإنها تكتسب طاقة كامنة بفارق الارتفاع عما حولها، مما يسهل لقوة الجاذبية الأرضية أن تنقلها شيئاً فشيئاً إلى مواقع أقل ارتفاعاً منها، مثل قيعان المحيطات، في محاولة لكي يتساوى بُعد قممها عن مركز الأرض، وينتج عن ذلك تطوّر في تضاريس الأرض ينتهي معه السطح النهائي بالتعرية إلى سطح منخفض ومستوٍ هو السهب الذي عرّفه إخوان الصفا باسم (الصفص).

وقد نُسبت هذه الفكرة إلى (ديفز) في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي^(١). ولكننا نجد ما يصحح هذا الإسناد الخاطئ إلى ديفز في كتاب (إنباط المياه الخفية) للكرخي الذي عاش في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، حيث يقول ما نصه، بعد أن يفند آراء الآخرين: «وأقول بعد تقرير ذلك: إن في الأرض حركات دائمة، منها طلب الأبنية للوقوع والانهدام، والميل عن سمت الاستقامة، وكذلك الجبال والتلاع تتهار قليلاً قليلاً، وتتفتت طلباً للمركز، والأرض الرخوة في تربتها حركة دائمة، وهي طلب أجزائها الصلبة باعتماد بعضها على بعض، وأعظم هذه الحركات المذكورة انتقال المياه العظيمة، وجريان الأودية القوية من أرض إلى أرض في الأزمنة الطويلة، فإذا اجتمعت موادها في ناحية من نواحيها، وارتفعت حتى بعد سطحها من المركز، وسأوى ذلك بعد الموضع المحاذي له الذي يقابله، ثم بعد المساواة زاد عليه، تحرّكت الأرض طلباً للمعادلة المذكورة، فتتغير لذلك عروض البلاد ومطالعها وأنصاف نهارها، ويصير ذلك سبب انتقال البحار، وظهور عيون وغيض عيون، ولا يكون

(١) انظر أسس علم الرسوبيات: محمد بن عبد الغني مشرف، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٧م.
من خلال أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي: باشا، ص ٨٢.

ذلك دفعة واحدة، بل يكون على التدرج كانتقال العمارات من أرض إلى أرض... ومن تصوّر ما ذكرته وحققه، فقد عرف قطعة كبيرة من صناعة إنباط المياه، لأن تصوّر طبع الأرض والماء فيها، وكيفية وضعها وخلقها، وصفة حال الماء في خللها، يدل على معرفة قوية في هذه الصناعة»^(١).

ويحرص الكرخي هنا (في بيانه لأنواع الحركات الأرضية الدائمة وأثر الجاذبية الأرضية عليها) على أن يربط بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الإنسانية الحضارية بطريقة منطقية، فالتغيرات التي تحدث في شكل الأرض تتمّ في زمن مديد، وهي تشبه في ذلك حال انتقال المواقع الحضارية من مكان لم يعد ملائماً بيئياً إلى مكان أكثر ملاءمة.

كذلك لا يخفى على الباحث المدقق في هذا النص إشارة الكرخي إلى ظاهرة التغير النسبي في مواضع الماء واليابسة من خلال إشارته إلى تغير عروض البلاد ومطالعها وأنصاف نهارها تبعاً لتغير وضع اليابسة (القارات)، وما يرافق ذلك من تغير في موقع البحار ووضعية الخزانات الجوفية (فتظهر عيون وتغيض عيون).

أما حركة الأجزاء الترابية الدقيقة لتتربط فيما بينها، فهو إدراك مبكر جداً لعملية تُسمى حسب المصطلح العلمي الغربي المعاصر (Diagenesis) ويعني (النشأة المتأخرة) أو (عمليات ما بعد الترسيب) حيث تتحول الرسوبيات الرخوة غير المتماسكة إلى صخور قاسية، وذلك حين تقع تحت وطأة ثقل طبقات أحدث منها تكويناً، فتُضغَط وتصبح صخوراً كاملة التماسك نتيجة فقدانها أثناء الانضغاط كميات كبيرة من المياه المتواجدة بين مسامها، وترتبط بعد فترة طويلة من الزمن بواسطة محاليل وسط الترسيب والمياه الجوفية بملاط (مادة لاحمة)، فتتماسك وتقسو.

(١) كتاب إنباط المياه الخفية: أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي، تحقيق ودراسة بغداد عبد المنعم، حيدر أباد الدكن، ط١، ١٣٥٩هـ-، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٩٧م. من خلال أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي: باشا، ص ٨٢.

ولم يُفُتْ الكرخي أن يؤكد على أهمية المعرفة النظرية الأساسية لأي موضوع قبل الشروع في التعامل معه تجريبياً أو تقنياً، وذلك على غرار ما فعل هو عندما عرف كل ما يتعلق بصفات الأرض وطبيعة حركاتها قبل الشروع في استخدام تقنية استخراج مياهها الجوفية^(١).

الخاتمة:

«إنَّ العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا ممدِّنين لنا وأئمةً لنا ستة قرون»^(٢).

هذا القول للعالم والطبيب الفرنسي المستشرق الكبير غوستاف لوبون، وهو قول يجب أن يُشعرنا بالفخر والأمل، وأن يصنع فينا إرادة عظيمة، هذه الإرادة التي كانت من صفات علماء الحضارة العربية الإسلامية، فهذا ابن الهيثم البصري، كان يمتلك إرادة عظيمة، فعلى الرغم من ضيق عيشه كان يردّد دائماً «وإني ما مُدَّت لي الحياة باذل جهدي، ومستفرغ قوتي، متوخيّاً منه أموراً ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي، والآخر أنني جعلت ذلك ارتياضاً لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوّره ويتقنه فكري من تلك العلوم، والثالث أنني صيرته ذخيرة وعدّة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم»^(٣).

ولولا هذه الإرادة الجبّارة التي انّصف بها علماء حضارتنا، لما استطاعوا امتصاص ما خلفه الإغريق بسرعة فائقة، وكذلك ما خلفه الفرس وغيرهم، ولما استطاعوا تحرير علوم هذه الحضارات وتنقيتها من الشوائب، وصقلها وتطويرها وتميمتها، ولما استطاعوا الانطلاق بعد ذلك إلى نهضة خيالية مدة عشرة قرون

(١) أسس الجيولوجيا الهندسية: محمد علي شيخ مشاعل، جامعة حلب، كلية الهندسة المدنية، ١٩٨٨ م.

أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي: باشا، ص ٨٣.

(٢) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص ٥٧٧ - ٥٧٩.

(٣) أبو علي الحسن بن الهيثم الممهد للصعود إلى القمر: عمار النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب،

ط ١، ٢٠١٥ م، ص ٦، ٧.

وُصفت بالذهبية.

وكل ما ذكرناه هو دروس غاية بالأهمية، لكي نفهم من خلالها كيف استطاعت الحضارة العربية الإسلامية أن تتفوق وأن تصبح اللغة العربية من خلالها هي اللغة العالمية وهي لغة العلم، فما علينا إلا أن نستخرج من تفاصيل حضارتنا أسباب النهضة والتفوق والعزيمة والإرادة... لكي نستغل ذلك في حاضرنا وننطلق من خلالها انطلاقة قوية نحو مستقبل أرحب.

خطاب الحداثة الناعمة حديث النهايات وميلاد البدايات

آسيا عمراني

جامعة العربي التبسي - الجزائر

تمهيد:

إن المتأمل في المشهد الثقافي لحضارة هذا القرن، القرن الحادي والعشرين، يدرك مدى تداخل المفاهيم وتشعب النظريات بل وإلغاء الحدود بين حقول المعرفة المختلفة، مما يحمل على الإقرار بأن الوثوقية أو اليقينية أضحت بضاعة مزجاة، لا مكان لها في هذا العالم المعلوم / المرقمن، ومن ثم تصبح كل دعوة إلى الموضوعية محفوفة بالمزالق والعقبات، بل إن متبنيها حينذاك سيغلق على نفسه في سجن الدوغمائية؛ أي الوقوع فريسة وسط أنساق وأنظمة تزعم امتلاك الحقيقة القارة.

من أشد القضايا الأكثر إلحاحا التي ترفد هذا التحول في منظومة المفاهيم مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة " Post Modernité"، إن كلا منهما يعد ظاهرة تميز الثقافة الأنجلو أمريكية والأوروبية في القرن العشرين، فقد قدمت ثورة الحداثة إلى العالم المفاتيح الكبيرة لفك مغاليق كان الصدا قد علاها، وبات من غير الممكن التحجر عند تلك الأطر الفكرية البالية التي جعلت عقل الإنسان محظي تابع، ليس له سوى أن يطبق التعاليم الآتية من الأعلى، فتحرر بالتالي هذا العقل وأدرك أن حريته لا بد أن تكون مطلقة لا تقبل الانجماد والتحجر في التفكير، بل أن ما برهنت به العلوم الخالصة في أن الكون النسبي الذي بدى لنا أحيانا أنه يغلق العالم هو في حقيقته مستحيل.^(١)

مسارات الحداثة:

عصر الحداثة الذي برز كنتويج لمسار طويل من التغيرات الجذرية و الانقلابات العميقة في بنى المجتمع الأوروبي، التي طوحت بعرش الأفكار الغيبية الدوغمائية، فهو بذلك زمن كثيف و ضاغط ومتسارع الأحداث رأى فيه الليبراليون العصر الذهبي للإنسانية، حيث أصبح يعاش كمادة فريدة، تتمركز

حول حاضر مشرب إلى الآتي، متجه نحو المستقبل الذي يكتسب بالتدريج دلالات يوتوبية عبر تجربة تتنامى فيها بالتدريج المسافة بين الحاضر والمنتظر، ويطغى على قاموسها مصطلحات التطور والتقدم والتحرر والأزمنة.

لم يلبث النسق المعرفي المادي للحدث أن أفرز تساؤلات عميقة آلت به إلى ما بعد الحدث التي فككت الإنسان، وأنكرت مركزيته، وأسلمته إلى العدمية، فبعد تراجع الجوهر الإنساني لصالح الآلة والسوق والقوة على يد الحدث، تم اختزاله إلى شيء أحادي البعد (جسد وجنس) على يد ما بعد الحدث.

عرفت الأحداث الكبرى التي شهدتها القرن العشرين تغيرات فكرية لمقولات كادت أن تكون ثابتة ومطلقة، لا تقبل الشك في الفكر الإنساني تشكلت على إثرها رؤى جديدة تعبر عن حركة ثقافية ظهرت مؤشراتها في تيار فكري جديد يشير إلى سقوط النظريات الكبرى ويشكك في مسائل التقدم الإنساني، كما ساعدت الثورة المعرفية في مجال المعلومات والتكنولوجيا في نقل الفكر من الحدث إلى ما بعد الحدث، حيث الانتقال من الإشباع المادي إلى الإشباع المعنوي.

شكلت الانتقادات ذات المنهجية الموجهة لمفهوم الحدث، الأرضية العلمية التي تنامي في تربتها مفهوم ما بعد الحدث، ليأخذ صورته النقدية التي تغذيها روح فكرية نشطة ومتطورة.

الخلفية الفلسفية لما بعد الحدث

مثلت ما بعد الحدث جملة استراتيجيات متشابكة، تبني تصورا انفصاليا وفوضويا للزمن، ومنظورا برغماتيا للحقيقة، ميالا إلى إلغاء الذات، وإلغاء المراكز والمركزيات دفاعا بذلك عن التشتت والفوضى والتشعب، والمصالحة بين المتخيل والواقع، وإعادة إدماج الوهم في الصيرورة وإحلال الاختلاف محل الهوية، والسطوح مكان الأعماق، والأنوثة محل الذكورة، فهي بذلك تعميق لمسار الحدث وسرعة ثانية لها ونقد وتجاوز مستمر، فهي حدث سافرة، حدث بدون مساحيق وأوهام. (٢)

الواضح أن هناك تضاربا في استعمال مصطلح " ما بعد الحدث " المثير

للجدل، لدى الباحثين والمفكرين، فمنهم من يرجعه إلى أواسط سبعينيات القرن الماضي، خصوصاً بعد اكتشاف الناقد الفني (تشارلز ألكسندر جينكز) Charles Alexander Jenks صاحب كتاب معمار ما بعد الحداثة، ليدل على التوجه الجديد في الفن المعماري، وذلك بالابتعاد عن النمط الوظيفي النسقي التقليدي، لخلق نوع من التواصل بين العمارة والجمهور، في مقابل ذلك هناك من يعتقد أنه يعود إلى الستينات من نفس القرن، حينما انتقل إلى النقد الأدبي ثم إلى الفلسفة، فيما تأكد استعمال المصطلح قبل هذا التاريخ وذلك سنة ١٩٣٤م، للدلالة على ردود الأفعال السلبية تجاه الحداثة، وبعد هذا التاريخ بثلاث سنوات استعمله المؤرخ (أرنولد جوزيف توينبي) لوصف تعددية الثقافية التي يحتمها سير التاريخ العالمي.^(٣)

مفهوم ما بعد الحداثة:

يورد (تيري إيجلتون) أقرب تعريفات لمرحلة ما بعد الحداثة قوله: " إن فكر ما بعد التحديث، هو أسلوب فكري يتشكك في المفاهيم التقليدية للحقيقة والعقل، والهوية والموضوعية، وفي فكرة اتجاه العالم نحو التقدم والتحرر، وفي مجالات العمل التي لا خيار سواها، وفي القصص الشمولي، أو التفسيرات النهائية، وهو يرى العالم على عكس أنماط التنوير هذه كشيء بلا أساس ثابت ومتنوع وغير مستقر وغير حتمي، فهو عبارة عن مجموعة من الثقافات غير الموحدة، أو التفسيرات التي يتولد عنها درجات من التشكك في موضوعية الحقيقة والتاريخ والمفاهيم ومعطيات الطبيعة وبنيات الهوية".^(٤)

جاءت ما بعد الحداثة لتقويض الميتافيزيقا الغربية، وتحطيم المقولات المركزية التي هيمنت قديماً وحديثاً على الفكر الغربي، وتمتاز فلسفتها بفلسفة الخوض والعدمية واللامعنى والانظام والتفكيك، ونظرياتها بقوة التحرر من قيود التمرکز والانفكاك عن اللوغوس والتقليد، وممارسة الاختلاف والهدم والتشريح مع فضح المؤسسات الغربية المهيمنة وتعرية الأيديولوجية البيضاء والاهتمام بالمدنس والهامش والعناية بالعرق واللون والجنس والأنوثة وخطاب ما بعد الاستعمار.

يؤكد منظورا ما بعد الحداثة على أنها مجموع الظروف والشروط المختلفة والمتعددة، التي تختلط فيها المظاهر الاجتماعية بالمظاهر الثقافية، فيستحيل التمييز حيال ذلك بين ما هو اجتماعي وما هو ثقافي، وتتهار المسافة بين النظرية وموضوعها، ويرون أن جزءا كبيرا من مفهوم ما بعد الحداثة يعتمد على صعوبة الفصل بين البنية المعرفية وما تنتجه هذه البنية من معرفة، إذ أن هناك تداخل بين أشكال المعرفة نفسها. (٥)

لقد انتشرت نشاطات ما بعد الحداثة في كافة الفضاءات الثقافية الغربية، الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، الفلسفية، الأخلاقية والنفسية، المعرفية، التعليمية، الأنثروبولوجية... وغيرها وما يزيد من غموضها الذي يسجها، كونها مظلة عامة تتشظى داخل نفسها لتكوّن ذاتها فتتعدد وتنقسم إلى ما بعد حداثات متباينة، في مجملها شكل ما بعد الحداثة العامة.

انقسم رواد ومفكري هذه المرحلة - ما بعد الحداثة - إلى اتجاهين كبيرين ممثلين في: الاتجاه الفرنسي مع كل من فيلسوف الاختلاف والغيرية الفرنسي جاك دريدا Jaques Derrida ، وميشال فوكو "M.Foucou"، وجان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard ، يقابله الاتجاه الألماني بزعماء "يورغن هابرماس".

المهاد الفلسفي لما بعد الحداثة

1. الاتجاه الفرنسي:

1- جاك دريدا jaques derrida:

عدت استراتيجية التفكير لدى مؤسسها جاك دريدا فيلسوف الاختلاف والغيرية، من مسلمات ما بعد الحداثة، ذلك أنها تهدم مسلمات الفلسفة التقليدية من أساسها، فدريدا الذي يعزى إليه تقويض مركزية العقل الغربي "Logo centrisme"، وإشاعة فلسفة الشك والعدمية، ومعبرا بذلك عن إفلاس أوغانون "Organon" هذا العقل، وهشاشة فروضه، فكان نتيجة ذلك إهماله للآخر /المختلف/ المطموس/ الهامش/ اللا عقل، كوجود وكيونة أزاحه هذا العقل /المركز، وغيبه عن الظهور، ومن ثم أضحى من الأحكام الجارية مجرى

البدايات والمسلم بها، إخضاع كل معرفة تتقنع بالعلمية أو العقلية، حتى تلك التي تعرف بالعلوم الدقيقة أو الصحيحة، للمساءلة والعمل على تفكيك أنظمتها المركزية لتجلية المغيب فيها، فرميتها بعدئذ بالنسبية. (٦)

اقتضت ممارسة دريدا النقدية أن يتوسع في نقده، ليشمل ظاهرة التمرکز في أكثر من ميدان وإن كانت جميعها تترتب في ضوء سلطة الميتافيزيقا، إذا كان التمرکز حول العقل نتيجة التمرکز حول الصوت، فهذا جانب من جوانب التمرکز وجانبه الآخر المتصل بموضوع التمرکز هو الإغلاء من شأن الكلام على حساب الكتابة، وفي هذين الموضوعين نجد أن الصوت أو الكلام هو المرجع وحوله يتمركز الفكر، فإذا كان دريدا قد ركب مصطلح "Logocentrism" لمعالجة موضوع التمرکز حول العقل، فإنه يستخدم مصطلح "Grammatology" ليكتشف به أبعاد التمرکز حول فتح الأفق أمام مزيد من الاحتمالات، وهذا يعني توسيع فضاءات التفسير والوصول به إلى مناطق لم تستكشف بعد. (٧)

إن "دريدا" بحث في الحقول المعرفية التي رتبت أوضاعها في ضوء سلطة التمرکز وجعلها موضوعات للبحث، وفي الوقت الذي كشف به عن بؤر التمرکز في تلك الحقول، عمل على نقد مظاهر التمرکز فيها، وهز البؤر المتمركزة في حقول أبرزها الوجود والمعرفة والجنس والتاريخ.

وظف دريدا معرفته بنظم الفلسفة الغربية، مستعينا بمفهوم التمرکز حول العقل، لينتقد في نقده الشامل لتلك النظم، ولجأ أولاً إلى تجزئة موضوعاته بدأ من الألفاظ والفرضيات الأساسية، ثم انتقل إلى تعرية الأنساق وكشف الحجب التناقضية التي تنطوي عليها الألفاظ والفرضيات، ثم في مرحلة أخرى توغل إلى صلب الموضوع وهو تفكيك النظم الكبرى للفكر الفلسفي منطلقاً من: "أفلاطون وأرسطو، مارا بديكارت وروسو، وفرويد منتهياً بالفلاسفة المعاصرين مثل "هوسرل" و"هيدغير"، وقاده هذا الاستقراء إلى هدم الزعم القائل بوجود معنى موحد له هوية متطابقة مع ذاتها. (٨)

من خلال عمله في كشف التعارض في الأنساق الفلسفية، ظهر له وجود تضاد جوهري في صميم النظم التي تدعي التطابق الذاتي والهوية الموحدة،

ودفعه هذا الكشف إلى إجراء منهجي هو ما يعرف بالتفكيك، ويعد عمل "دريدا" نوعاً من الثورة على اليقينية المطلقة للفكر الغربي، وثورة على سكونيته المتمثلة في هيمنة القياس المنطقي المتمثل في التمرکز العقلي، الذي تحيزت له الميتافيزيقا الغربية منذ أفلاطون، قبل "دريدا" ذلك بتفكيك هذا التمرکز وتقويض الأصل الثابت. (٩)

فدريدا من هنا يجيب على الميتافيزيقا الغربية الممتدة منذ أيام ما قبل سقراط إلى غاية هايدغير، كونها بقيت جبيسة فكرة تجلي الوعي في الحضور وإعطاء معيار ثابت للحقيقة أساسه (اللوغوس)، "العقل"، الذي تجسد طيلة حياة الإنسانية في كل ما اعتبره الإنسان مقدساً، سواء كان إله أو إنسان أو تقاليد أو غيرها من الأفكار، وقد برزت هذه المركزية في شكل ثنائيات متقابلة تقصي فيها دائماً الطرف الثاني من الثنائية وتغيبه وتجعل الطرف الأول كامل الحضور لا يحتمل الغياب، وهو ما أطلق عليه "دريدا" اسم مركزية "اللوغوس" بالمتجسدة على الخصوص في أولوية الكلام (الصوت)، وهذا ما دفع دريدا إلى وضع أسلوب لتقويض هذه المركزية التي قامت عليها الحداثة، ليقدم بذلك استراتيجية ناقدة وثائرة على كل مكونات العقل الغربي ومركزيته وآليات تفكيره ليفتح الباب على مصراعيه لبداية مرحلة جديدة هي مرحلة ما بعد الحداثة. (١٠)

٢ - ميشال فوكو michal foko:

يأتي ميشال فوكو بأعماله الزاخرة متفقاً مع (دريدا) في نقضه للحداثة، ومركزية العقل في الميتافيزيقا الغربية والعمل على تعرية أنساقه قصد تحطيمها وإثبات قصورها في بلوغ الحقيقة أو المعنى، بحيث يعلن "فوكو" عن "نهاية اليقين" (La fin de la certitude) ويظهر ذلك بوضوح مع مبدأ "اللايقين" الذي صاغه "هايزنبرغ" (Heisenberg) في فيزياء الكوانتا كمدخل لنهاية الحتمية، بحيث يستحيل تحديد وضعية الجزيء وسرعته في آن واحد، بالمعنى الابستمولوجي للكلمة، وهو نهاية الانسجام المطلق بين الذات العارفة (الذات التي تلاحظ) وبين موضوع المعرفة أي (الموضوع الملاحظ). (١١)

تعكس خصوصية بلاغة "فوكو" في جانب منها تمرد جيله العام، ضد

وضوح "clarté"، أي تراثهم الديكارتى، وتظهر خصوصيته من خلال جمعه للمختلفات ومزجه للمصطلحات العلمية والأسطورية، ونجد أن موقفه الفلسفي قريب من عدمية "نتشه"، وقد أريد له ذلك لأنه رافض بشكل متعمد، وهذا يتفق مع هدفه الأكبر كمفكر يريد أن يزيل الفرق بين السطوح والأعماق، وبين أن هذا الفرق كلما نشأ إلا ودل على أثر القوة المنظمة، وأن هذا الفرق أيضا هو أقوى الأسلحة التي تملكه تلك القوة لإخفاء عملياتها.

تكون عمليات القوة المتعددة في أشدها صعوبة - حسب فوكو - لتحديد قيمها، هو أساس الفعل الثقافي بشكل عام، أي الخطاب، وهو المصطلح الشامل لكل أشكال الحياة الثقافية وتطبيقاتها، وجهوده تكمن في نقد هذا الخطاب بكل ما يتضمنه من ملبسات، ذلك أن سلطان خطاب "فوكو" مستمد من أسلوبه وصرامة منطقته، وأن هذا الأسلوب يصنع "المجاز" المسمى (Eatachresie)، أي استعمال الكلمة في غير موضعها، ويعتبر هذا النوع من المجاز نموذجا لنظرية "فوكو" حول العالم بدأ بنقد للفلسفة الإنسانية، والعلم والعقل، ومعظم مؤسسات الثقافة الغربية بشكلها الذي اتخذته منذ عصر النهضة، وعلى إثر ذلك يقول "فوكو" في كتابه "علم آثار المعرفة": "... إن هدفه هو تحرير تاريخ الفكر من خضوعه للتعالي... تنقيته من كل النرجسية المتعالية، وتحريره من دائرة الأصل المفقود". (١٢)

يرد هذا القول في معرض حوار بين "فوكو" ونقاده، حيث تعتمد إحدى القضايا التي يتناولها هذا الحوار على ما يعتبره "فوكو" أزمة الثقافة الغربية"، وهذه الأزمة تتعلق بذلك المتأمل المتعالي الذي ربطت الفلسفة نفسها به منذ كانط، وتتعلق بقيمة الأصل، وبالفكرة الأنثروبولوجية التي ترتب هذه المسائل كلها حول وجود الإنسان، وبكل الأيديولوجيات الإنسانية وأكد أن البنيوية سعت إلى نقادي هذه الأزمة تحت مضلة الانغماس في الألعاب المسلية الخاصة بالأصول والنظم، وقد حاول فوكو أن يلغي أي مركز، ويبعد كل البعد عن الأصل والحقيقة ويسعى إلى خلق الاختلافات بالمعنى الطبي بمنزلة التشخيص، ورفض سلطة كل من المنطق والسردي التقليدي، ذلك لأنه يرفض السلطان الذي تمتع به هذا التمييز بين التناسق والاضطراب في الفكر الغربي منذ أفلاطون، وهو لا يسعى بذلك إلى

التوصل إلى الأرضية التي قام عليها هذا التميز بل إلى الفضاء الذي نشأ فيه. (١٣)

معنى ذلك أن "فوكو" حاول أن يشيد مشروعا فلسفيا متكاملًا يشمل نظرية المعرفة، فهو من جهة ينظر لظهور ابستيمي للفكر الغربي عبر حقبة المتعددة، ومن جهة أخرى حاول أن يضع للعلوم الإنسانية دليلاً المنهجي الإستمولوجي الذي تفنّده، أي أنه اهتم بدراسة تجليات العقل في المستوى المعرفي، ووضع الأطر العامة لقيام نظرية مستقبلية في المعرفة، كما حاول تحليل الذات الغربية وسبر أغوارها خلال الحقب الزمنية المختلفة، وإظهار التغيرات الأركيولوجية التي تبين نشأة العلوم الإنسانية، وهذا الجهد الزاخر يفسر على أنه نقد لمفهوم الحداثة بأسره ومسلماته ومبادئه انطلاقاً من مرحلة ما بعد الثورة الفرنسية. (١٤)

لقد تأكلت موضوعات الميتافيزيقا التقليدية، واهترأت مضامينها وصار من العسير إنتاج معارف وفق هذا النموذج، لذا يأتي "فوكو" بمفهوم الإبستمي -أي مجموع العلاقات التي يمكنها أن تجمع في مرحلة معطاة الممارسات الخطابية التي تتضمن عدة أوجه إبستمولوجية بالعلوم المرتبطة بأنساق مكونة -ليقوض به أسس المقولات الكبرى التي ابتدعتها الميتافيزيقا، وكذا تطهير مكوناتها من الوعي المهيمن، الإرادي، ومن النزاعات السيكلوجية، فالمعرفة ليست من إنتاج الذات الواعية الماكرة الآتية من أعماق المطلق، بل هي نتاج لمجموعة من العلائق والنظم. (١٥)

إن محاولة "فوكو" تتلخص أساساً في هدم أوثان البنية الميتافيزيقية (العقلية) للغرب، وإظهار هشاشتها وتناقضاتها وتجاوزاتها، وفي نهاية المطاف هذه المجاوزة لا تتم من الداخل بل من الهامش بمستويات متعددة، بمعنى أن تقويض أسس الميتافيزيقا قد لا يتم أصلاً انطلاقاً من الفعالية الفلسفية، بل يتم انطلاقاً من ميادين ما فتئت تبعد عن الفلسفة، بل إن الفلسفة ذاتها صارت تبحث عن مدلولاتها ومفاهيمها خارج أطرها التقليدية، فالمناهج والإبستمولوجيات والأشكال والصيغ والكلمات، صارت تطرح بدائل معرفية قيمة.

لذا فإن مهمة "فوكو" عموماً تجسدت في الغوص في المناطق المظلمة من

قهر واضطهاد وجنون، ومرض وسجن وتابوهات لا يمكن الاقتراب منها جسدت حقيقة خفية تابعة لباطن النسق المعرفي، وغوص فوكو في المناطق المظلمة كان بواسطة المعاينة الواقعية والأرشفية، لأن المهم بالنسبة إليه هو السفر في الممنوع والغوص والإبحار في العوالم البعيدة، حيث حاول "فوكو" تسليط الضوء عن مواطن الإكراه والقهر والإقصاء في المجتمع الغربي.

لاشك ونحن نتحدث عن المدرسة الفرنسية، فيستحضرنا الفيلسوف الرائد "جان فرانسوا ليوتار"، الذي يعد أشهر فلاسفة ما بعد الحداثة، ومنه يستمد هذا التفكير الفلسفي أصوله، كما قد أسهم في صياغة مفاهيمه (أي ما بعد الحداثي)، وأطروحات الفكر ما بعد الحداثي لا سيما في مقولة "نهاية السرديات" أو "الحكايات الكبرى"، وأيضا المفهوم الميتافيزيقي للواقع، فما بعد الحداثة في نظر ليوتار هو: "التشكيك فيما وراء الروايات".^(١٦)

٣- جون فرانسوا ليوتار G.f leotar:

نهاية الحكايات الكبرى عند ليوتار تعني نهاية المشاريع الاجتماعية الطموحة للحداثة، وأيضا خطابات ونظريات الحداثة المتجسدة في الليبرالية والماركسية المستمدة من عصر التنوير عن العقل والتحرير الشامل للإنسان.

ويسمي "ليوتار" استحالة وجود سرديات شارحة في الحالة الفعلية للمجتمع "بنزع الشرعية" "Délegitimation"، ويرى ليوتار في عملية نزع الشرعية على العلم بأنه من اللحظات الأساسية لما بعد الحداثة، ففي الوضع ما بعد الحداثي ثمة انعدام ثقة في قدرة العلم على تنظيم التساؤلات التي تنثور في الميادين الأخرى عندئذ يفتح الطريق أمام تيار ما بعد الحداثي مهم.^(١٧)

تحدث "ليوتار" عن نوعين من القصص: نمط يخفي تحرر الإنسان المرتبط بالتنوير والتراث النقدي، ونمط خاص بالاتحاد المرتقب بين كل المعارف المتصلة بالزرعة الهيكلية، وكلاهما يسعى إلى اكتساب الشرعية والمصادقية، بل إن العلم (ما بعد الحديث) يتبع الأحداث التقنية والتجارية للأداء الأمثل، وهو تغيير أوجده التقدم التكنولوجي الجديد يجعل من المعلومات كماً أساسياً.^(١٨)

اعتبر "ليوتار" عصر ما بعد الحداثة "نهاية للحكايات الكبرى" أي الـ

"Meta-reritsé" لذلك نجده لحاول إثبات أنه لا وجود لسرديات شاملة تستطيع أن تعطينا قواعد عليا تسردي على سائر الميادين، ويعطي مثالا بعدم وجود اتفاق بين قواعد الفن وقواعد العلم، وقد يرى ذلك بحجة عدم تكافؤ ألعاب اللغة، بمعناه عدم وجود قواعد مشتركة بين الألعاب، ومن هنا يصبح تعريف الوضع ما بعد الحداثة مشروعاً لغوياً على ألعاب اللغة والسرديات الشارحة، وأعلن عن تكذيبه لها في ضوء قانون عام هو قانون التسلسل حيث يؤكد أن عملية ربط العبارات أمر ضروري لكن كيفية الربط ليست أمراً ضرورياً.^(١٩)

ويؤكد "ليوتار" أيضاً في هذا السياق أن الوضع ما بعد الحداثي، هو حالة مزدوجة لأنه يتضمن مناطق حماية واضحة أو صراعات بين ألعاب اللغة على أحداث العبارات، فليس ثمة يقين مطلق هنا ولكن فقط تهديد دائم لليقين النسبي، من خلال الأحداث والشعور الجليل.

فهناك تعارض أو عدم تكافؤ بين لعبة اللغة الخاصة بالمعرفة العلمية ولعبة اللغة الخاصة بالمعرفة السردية، أي القصص التي نحكيها عن أنفسنا وعن مجتمعنا، ففي الأولى هناك قواعد تتعلق بالدليل والبرهان وهي تتنافر مع القواعد التي تحكم المعرفة السردية، لأن هذه الأخيرة تقبل المبالغة والابتداع بدون برهان ولذلك ففي الوضع ما بعد الحداثي ثمة قانون يجب تطبيقه على جميع الأفعال اللغوية هو أن المشاعر باعتبارها أحداثاً، لا يمكن تبريرها أو تمثيلها، بشكل عام داخل لعبة لغة واحدة، أو نوع خطاب واحد، فما بعد الحداثة عنده إذن هي ظاهرة ما بعد الميتافيزيقا أو ما بعد الصناعية.^(٢٠)

نملس النزاع والشقاق الدائم والتاريخي بين الفلسفتان أو المدرستين: الألمانية والفرنسية، حيث تتهم الفلسفة الألمانية على أنها تتلمذت على يديها، وأنها تعتاش على ما كتبه روادها الأوائل من "هيجل" و"هيدغير" و"ماركس" و"نيتشه" وغيرهم، في حين نجد الفرنسية تنظر نظرة استحقاق إلى كل تلك الأقوال، مذكرة برواد عصر التنوير، بأبنائها الجديد مثل: "فوكو" و"دريدا" و"ليوتار" و"بورديار" وغيرهم.

2-الاتجاه الالمانى ورواده:

بالعودة إلى الاتجاه الألماني الذي تبلورت الأطر العامة له، في النصف

الأول من القرن العشرين، وضع أسسه مجموعة من المفكرين والفلاسفة أبرزهم "هوركهايمر" و"أدورنو" ثم طورها "ماركوز"، واستقامت منذ منتصف القرن بوصفها نظرية نقدية لها منظورها الخاص في الفلسفة والمجتمع، واتسع نشاطها على يد أحد أبرز أعلامها المعاصرين "هابرماس"، حيث ينتظم عمله النقدي في كشف تناقضات العقل الغربي ومعطياته على وجه الخصوص وتشكيل عقلانية تواصلية نقدية جديدة.

- يورغن هابرماس:

إن مشروع "هابرماس" الفلسفي، هو بمثابة بحث عن أسلوب لإعادة بناء نظرية في الحداثة العقلانية تمثل ذلك فعلا في "سيفريه": "نظرية الفاعلية التواصلية" و"الخطاب الفلسفي للحداثة" وهذين الأخيرين يشكلان على غرار ما سطرت أقلامه الكتب التأسيسية للنظرية الهابرماسية، وهذا ليس إدعاء بالقطعية بقدر ما هو تبيان للإشكالية المركزية، والتي تبلورت عنده في أن الحداثة والتواصل وجدت صياغتها بالاعتماد على إيقاع ثلاثي متداخل الأبعاد والأفكار؛ أوله: التفكير في النظرية الاجتماعية وإعادة بنائها، وثانيهما: التفكير في اللغة والتواصل وتعميقهما، وثالثهما: التفكير في الوضعية السياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمعات. (٢١)

إن المجهود النظري العام لـ "هابرماس" يتمثل في الكشف عن العقل المرتبط والملازم للممارسة التواصلية اليومية، لإعادة بناء مفهوم غير اختزالي للعقل باعتماده على قاعدة صلاحية الخطاب، كون العقلانية الغربية أعطت أولوية للعقل الغائي، معنى ذلك دمج أكثر من وساطة لضمان التوازن الاجتماعي وعلى رأسها المال والسلطة في سياق النشاط الأداتي الاستراتيجي. (٢٢)

إن ما يسميه "هابرماس" بـ "العقل التواصلية" أو "العقلانية التواصلية"، التي تتأسس على الخطاب البرهاني الذي يعمل على إجماع داخل بنية ديمقراطية أو مجال عمومي ينتزع فيه الفرد من ذاتيته الضيقة، ليندمج في المجهود الجماعي الذي يتأسس على التفاهم والتواصل العقلي، والواضح أن "هابرماس" أراد أن يؤكد على "العقل التواصلية" كصيغة تركيبية لقضية الحداثة الغربية العقلانية، لذلك أكد على أن فلسفة الوعي أو الذات استنفذت كل طاقاتها ويتعين

إدخال مسألة التفاهم والتواصل لتنشيط التفكير الفلسفي في اللغة والزمن والحادثة والعقل.

والجدير بالذكر أن نقد "هابرماس" للعقل الغربي لا يلتقي مع النقد الجذري الذي دشنه "نيتشه"، ويؤكد على ضرورة الخروج من فلسفة الذات من خلال البحث عن مخرج آخر، وهذا الأخير يتمثل في الانتقال من عقل متمركز حول الذات إلى عقل تواصلي، ولقد طور "هابرماس" مفهوم العقل إلى مفهوم آخر أكثر كفاءة وقوة وحادثة، هو عقل يرتبط بالحادثة، ويستفيد من كل معطيات العمق النقدي ويتجاوز العقل الأداتي.

إذا كان لا يمكن تأسيس حادثة بالنسبة لفوكو انطلاقاً من فلسفة الأنوار، إلا من خلال تفجير هذا النسق نفسه، فإن "هابرماس" لا يستسلم لانضباطية الشكل وقسريته - كما يحددها فوكو - فيحاول في آخر "الخطاب الفلسفي للحادثة" أن يعيد بناء العقلانية الحديثة وريثة الأنوار بعقلانية وظيفية أو عملياتية تستمد دعائمها مما يسميه "العقل التواصلي" وهو عقل يتداخل فيه البعد الاجتماعي الواقعي مع البعد العقلي "الترنسندنتالي" بحيث يصير نقداً لفلسفة الذات، فـ "هابرماس" من خلال منطلقاته نجده يقود مسيرة كشفية لتحليل الواقع الاجتماعي، وإظهار قوانينه وأطره العقلية، وذلك بتحليله وتحديد أبعاد العلائق المتشابهة والقائمة بين النظرية والواقع بين النظرية والتاريخ، بين العلم والعمل. (٢٣)

"هابرماس" الذي عد الحادثة مشروع لم يكتمل لأنها لم تحقق النتائج الموجودة بعد، بسبب الانكسارات والتراجعات التي وقفت في وجه تنقيتها من بؤر التمركز، فقد سعى إلى تقديم فهم جديد للحادثة، وممارسة جديدة على الفعل التواصلي لا تلغي الآخر أو تهمشه، ويكون الحوار التخابلي هو وسيلة التواصل مع الآخر، فقد انطلق من عمق الحادثة وخطابها، من أجل إنقاذ المشروع الحداثي، محاولة منه الحفاظ على جوهر الحادثة من خلال العقل التواصلي المرتبط بالحادثة وتفكيكه ونقده "للعقلانية الأدائية" والتقنية. (٢٤)

3- ميلاد الحادثة البعدية:

إن التحيز للعقل وهو في غمار المنظور التسلسلي ذي الطابع النرجسي، غدا أسيرا في سجن عقلانيته المتعالية، تتلقفه الموضوعية حيناً وتتصيده المشاريع الإيديولوجية والأفكار الطوباوية أحياناً أخرى، هذا التحيز لم يولد إلى تحيزاً مضاعفاً، يتبدى في شكل ما يعرف بالمشاريع العدمية، باعتبارها حادثة بعدية، تصح مسار الحادثة التي تبقى دائماً وأبداً صوت العقل الباطن وضميره القلق الذي يأبى الصمت ويرفض الظهور، فالحادثة "الفائقة أو البعدية" هي حادثة من درجة ثانية بالمعنى الجبري لا بالمعنى الحسابي؛ أي حادثة "أس اثنين" تحاول أن تستبدل العقل الآداتي المسيطر، بعقل مطاط ولزج، من مجتمع ميكانيكي إلى مجتمع عضوي.

إن قوة الحادثة في ارتحالها وعدم القدرة على تعييدها في طابعها الإبداعي / الهروبي الذي يسكنها، الذي به تتجاوز صفة الجمود / السكون التي تطاردها، ومعها تصير مشروعاً بعدياً، وجملة بدائل تتزاح بها عن المعهود، وتظهر بها ثوراتها المتلاحقة، تجريبياً وخلخلة كإعلان عن ميلاد البديل الفجائي، الذي يعد تلك اللحظة النقدية الملازمة للحادثة، أو بتعبير آخر، إنه سؤال الحادثة لنفسها ومراجعتها المستمرة لمقولاتها باعتبارها مشروعاً / فهماً / وجوداً / تأويلاً لم يكتمل، ورحلة لما تنطلق.

هذا التحول المستمر في منظومة العقل الغربي، أدخلت مشروعه المعرفي سجناً أدهى من سجن الموضوعية / العلمية وأمر، إنه سجن العدمية "Nihilisme" فإذا اتهم "نيتشه" بدعوته إلى موت إله العقل / الميتافيزيقا، و"هيدغر" و"فوكو" و"بارت" الذين نعتوا بالعدميين بـ "موت الإنسان" / المؤلف "موتا رمزياً، فما هي التقنية تجعله "شيئاً / معادلة"، بل إن ما يعرف اليوم بالعقل الرقمي Raison Numérique كتطور طبيعي لمسار "العقل المتعالي" / الآداتي، يعلن عن ميلاد مجتمع جديد هو "المجتمع الأثيري / الافتراضي" "Virtuel" السبراني "Cybernitique"، الوسائطي "Médiologique"، الكوكبي "Universel".

في ظل هذه التحولات المعرفية، التي لا مكان فيها إلا لإنسان جديد، أو ما يطلقون عليه مرحلة "ما بعد الإنسان" "Dosthumain" أو "الإنسان العابر" « L'homme Aléatoire » حسب "فرانك تينلاند"، هي بيان تأسسي على تغيير المشهد الثقافي السائد الحداثي / ما بعد الحداثي، وميلاد ثقافة العولمة أو الحداثة الارتدادية "Modernité Réflexive" أو الفائقة "Hypermodernité" أو السوبر حداثة "Supermodernité"، هي مفاهيم تعبر عن صراع التأويلات داخل مناطق العقل الغربي الذي يبدو أنه استسلم لسيطرة الشبح التقني البديل، معلنا بذلك عن إفلاس دوغمائيته وانهايار مشروعه الثقافي الذي لم يعد سوى إيديولوجيات متلاحقة ومتراكمة، بدءا من سلطان المؤسسة الدينية مرورا بالمرحلة التنويرية وصولا إلى هذه المرحلة الراهنة.

في ظل هذا العالم الجديد، عالم الصورة الرقمية، ونظام الوسائط الذي يشيع فيه حديث النهايات، نهاية التاريخ / ما بعد نهاية التاريخ، نهاية الحداثة / ما بعد الحداثة / الحداثة الفائقة أو الناعمة أو بعد ما بعد الحداثة، انتهى دور الإنسان المؤسس، بما هو إنسان الميتافيزيقا، ليفسح المجال لإنسان جديد، ليس إنسان الحداثة (موت الإنسان كما هو مع "فوكو")، ولا إنسان ما بعد الحداثة الذي يعمل على إسراف طاقاته وتدمير إنسانيته ليلبغ أقصى ممكن فيه فيستنفذه، بل إنه إنسان "الحداثة الفائقة"، الإنسان المرقمن / المعولم، الذي تنكر لذاتيته بحثا عن الكونية عبر نظام الوسائط، إنسان تتلقفه التقنية أحيانا والبيولوجيا أحيين أخرى.

بعبارة أخرى إعلان عن موت الإنسان ككائن تاريخي، وميلاد كائن بيولوجي لا ماضي له ولا أصل كائن اللحظة والآن، يسعى لكي يكون نجما "Une star" وكأنه إعلان عن موت المثقف النخبوي ونهاية الثقافة ليأتي دور النجم والنجومية، والنجم هنا لا يقصد به الفرد، وإنما هو: «المواصفات الفنية والثقافية لدور يمثله نجم أو نجمة، لا بقدرتهما الذاتية الحرة والمستقلة، ولكن حسب قدرة أي منهما في تمثيل الصفات وتمثلها،.. حتى إذا تراجعت قدرات النجم الصوتية أو الشكلية تمت إزاحته ليحل محله نجم آخر، كما هو شائع لدى الفنانين والمذيعات وعروض الأزياء وهو في عالم الرجال أيضا ليس في الفن

وحسب بل في السياسة أيضا وفي كافة صيغ الاتصال الجماهيري». (٢٥)

4- مُساءلة الحداثة الفائقة لدى بلاندييه:

إن ما يسميه "جورج بلاندييه" بـ "الحداثة الفائقة"، هي بالأساس ذلك التعبير عن القلق الإنساني أمام العوالم الجديدة التي أطلقها العلم التقني، وهي ما يميز العالم الراهن، وهي أيضا ما يصف الحركة الكثيفة والوازنة التي حملت التحول الذي تسارع بعد الحرب ومرحلة إعادة البناء، وتطال بتعبيرها الحداثات المنجزة في الماضي، وسلسلة الأحداث والتعبيرات التي غطت سنوات الستينات من القرن العشرين (حركات الاحتجاج الطلابية والشبانية، والاجتماعية المختلفة، والاحتجاجات المناهضة للعلم..)، وقبل كل شيء هي تلك القدرة على التعبئة العامة لما ينجز لحركة اتسمت بطابع علمي، واكتسبت من الاتساع والاستقلالية ما يجعل من العبث ملاحقتها ومحاولة تعريفها وتغنيها، ومثلما تتابع الصيغ المختلفة للتسمية: نهاية السياسة ما بعد المجتمع الصناعي، أو مجتمع التواصل والشبكات أو مجتمع الثقافة العابرة أو السوري. (٢٦)

١- توجيهي الحداثة الفائقة:

نجد "بلاندييه" يحتفظ بمظهرين أساسيين من الحداثة الفائقة هما:

١- ما يسميه "بالعوالم الجديدة"، والمفارقات التي تتولد عن تطورها، ويضرب لذلك بمثل الاقتصاد الذي أضحى يتجسد في ظل "العالم الجديد"، لفائدة مراكز القوة الجديدة والشركات العابرة للقارات، إلا أن أهم تجليات شرط "الحداثة الفائقة" يتمثل في العالم المشتق من العلم التقني، حيث تتيح تكنولوجيا الذكاء والإعلام إمكانية العمل عن بعد، وخلق منتجات جديدة، وتوصيل المعرفة والثقافة، وهو الجزء الظاهر من هذا العالم، أما الجزء المحجب بحسب "بلاندييه" فهو البحث في الذكاء الاصطناعي والبحث عن منابع الفكر الذي تتشكل من خلالهما معرفة يصعب التكهّن بشأن سلطتها المستقبلية على العقول.

٢- حقل العلوم وتقنيات البحث الحيوي، فاستكشاف هذا الحقل يقلق ويفتن بسبب استعصاء مسالكه على إدراك الحس المشترك.

ويمكن إضافة مظهر آخر متعلق بتكنولوجيا الصورة حسب "بلاندييه" فنحن ما زلنا نعيش كما يرى تحت التأثير الكاسح للصور التي تتدخل في علاقاتنا الاجتماعية والمعرفية، كما أن طغيان هذا الشبح يشكك في ممارسة الديمقراطية عندما تخلق عوالم افتراضية عن طريق "المونتاج". (٢٧)

٢- مفهوم الحادثة الفائقة:

الحادثة الفائقة كما يصوغها "علي حرب" هي عنوان عريض لزمان متعدد ومركب، تندرج تحته مختلف الموجات والطفرات، والتحولات التقنية والحضارية والاجتماعية، والثقافية التي تصوغ الحياة المعاصرة، وتشكل المشهد الكوني، الزمن المتسارع والمكان المفتوح الإنسان لرقمي، الفاعل المديائي، الاقتصاد الإلكتروني، العمل الافتراضي، والبداءة الجديدة والجنسية المتعددة، والهويات الهجينة، الثقافات العابرة، القيم المتحركة والمهمات المتعددة، والأجهزة المتحكمة والنصوص الفائقة، وانكسار النماذج وتشظي المراكز، وانهيار اليقينيّات، والمقدسات والمطلقات، ولغة التداول والتحول والشاركة. (٢٨)

في الوقت الذي وضع فيه "ليوتار" المجتمعات "المحوسبة" بمكانة الناقل الثقافي إلى عصر "ما بعد الحادثة"، فإن فكر "لييوفتسكي" يؤكد أن عصر "ما بعد الحادثة" قد مات، وما حدث بالضبط هو أن تلك المجتمعات "المحوسبة" ذاتها دخلت في عصر "الحادثة الفائقة"، فيكتب "لييوفتسكي" في معنى قوله أنه من الواضح أن عنوان ما بعد الحادثة قد غدا قديما، حين استنفذ طاقاته وإمكانياته في التغيير عن العالم الجديد الذي بدا في التكوين، وهنا بدأ خطاب الحادثة الفائقة.

إن الحادثة الفائقة - على حد رأيه - بإيجاز هي إعادة التأكيد على أفكار الحادثة الأساسية، باستثناء وحيد هو أنه لا يوجد بديل عن الحادثة اليوم، وهذا بالتحديد ما أدى إلى الوفرة في كل المحاولات ولهذا فإننا نعيش في عصر الحادثة الفائقة، ومعنى ذلك أن "الحادثة الفائقة" هي نمط أو نموذج أو مرحلة، في مجتمع يعكس عمقا و حدة في إدراك الحادثة، ميزتها الأساسية هي الإيمان العميق بالقدرة البشرية على فهم وضبط كل جانب من جوانب الخبرة الإنسانية.

ويورد " لبيوفتسكي " في موضع آخر عما يمكن عده ضبطا للحادثة الفائقة قوله: «... إن مجتمعا جديدا من الحداثية يبدأ في الظهور، وليس مهما إنه ينبثق من عالم التقاليد ليصل إلى العقلانية الحداثية، ولكن المهم أنه يحدث الحادثة ذاتها، وإنه يعقلن العقلانية، وبكلمات أخرى فإنه يحطم الناجون القدماء، والروتين البيوقراطي، ويضع حدا للتصلب المؤسساتي، مخصصا كل شيء حتى يحرره من الاعتماد على الظروف المحلية، ويعزز في الوقت ذاته التنافسية، أما الرغبة البطولية في خلق مستقبل يشع بالحب والوئام، فقد استبدلت بالنشاط الإداري - الحماسة الكبيرة للتغيير والإصلاح والتكيف - المحروم من آفاق الثقة أو الرؤية التاريخية الكبرى» (٢٩)

بالاعتماد على المفارقة كصفة ملازمة لهذا المجتمع الآخذ في التبلور، سيتحول الدين فيه والهوية إلى روحانيات اختيارية، كل ذلك بفضل السمة الأساسية للمجتمع وهي "المفارقة الفائقة" أي اجتماع الأضداد والمتعارضات بتوافق وسلام وسط تقف للكلبات وتساو للرؤوس، وفقدان القادة الكبار، وتسيد الخبير على الفيلسوف لتأتي التحولات الكبرى المباشرة بمجتمع ما بعد ما الصناعة، حيث تم تجاوز المنظومة المصطلحة التقليدية التي يتم تداول المعرفة بها، فبدل التعامل مع وسائل النقل كالمقاطرة والطائرة في نقل البضائع والمعدات، أصبح التعامل - في ظل الثورة الإعلامية والعديدية - مع الواقع من خلال المنتجات الإلكترونية الأثيرية من الصور والرموز والأرقام والعلامات، الأمر الذي يجعل الحدود تتآكل بين الدول والمجتمعات.

الخاتمة:

ما يمكن قوله هو أن "الحادثة الفائقة"، هي المنظور الفلسفي والاجتماعي والاقتصادي لمرحلة " ما بعد الحادثة "، وهي ليست قضية الإنجاز الذي تحركه الآلات، والذي يتميز بالكفاءة والفاعلية أكثر من أي وقت مضى، ولابد بالتالي أن قيما إنسانية أقل ستكتسب صفة القوة القسرية، ولكنها - الحادثة الفائقة - دوامة تكنوقراطية يحركها السوق، وبالتالي لابد أن تستند إلى الجذور المشتركة للقيم الإنسانية والديمقراطية، يعني ذلك أن المجتمع القادم هو مجتمع الاستهلاك الفائق والرأسمالية الفائقة، والفردية الفائقة وحب الظهور الفائق.

المشهد العالمي تغير، وتغيرت معه خارطة العلاقات بالأشياء والكائنات بالزمان والمكان، بالاقتصاد والإنتاج، بالمجتمع والسلطة، بالذاكرة وهوية، بالمعرفة والثقافة، وظهرت مفاهيم جديدة في نتاج هذا العالم المعولم / المرقمن، منها: عولمة الزمان، كونية المكان، رمزية العمل، عمال المعرفة، وحدة السوق، التجارة الإلكترونية، القيمة المضافة، الثورة العددية، المدنية العالمية، الميديا، اختراق الهويات، التداخل الكوني والمحلي، البداوة الجديدة، الهويات الهجينة، النصوص الفائقة، نظام المخاطر وحالة الطوارئ ولغة التداول والتحول والشاركة.

قائمة التهميش:

- (١) ينظر: سهيل نجم، الحادثة وما بعد الحادثة دراسات وتعريفات، أزمنة، عمان الأردن، ط١، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م، ص٧.
- (٢) ينظر: محمد سبيلا، الحادثة وما بعد الحادثة، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، ص٧٠.
- (٣) عبد المجيد السخيري، الحادثة والحادثة الفائقة وما بعدهما انشغالات راهنة، المنظمة العربية للترجمة، ع ١٨، بيروت لبنان، ١٤٣٦هـ ٢٠١٤م، ص١٨٤.
- (٤) تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحادثة، تر: منى سلام، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ص.
- (٥) ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، ص٢٢٤.
- (٦) ينظر: صالح أبو إصبع وهيثم سرحان وآخرون، ثقافة الصورة في الأدب والنقد، مجدلاوي، عمان الأردن، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٨م، ص ص ١٠٣ و ١٠٤.
- (٧) ينظر: عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف (بحث في نقد المركزية الثقافية)، المؤسسة العربية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ص ٦٤٩.
- (٨) ينظر: المرجع نفسه، ص ٦٤٠.
- (٩) ينظر: حلمي مرزوق، في النظرية الأدبية والحادثة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية مصر، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ص ٩٠.
- (١٠) ينظر: عمر كوش، أفلمة المفاهيم (تحولات المفهوم في ارتحاله)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، ص ١٠٢.
- (١١) ينظر: صالح أبو إصبع وهيثم سرحان وآخرون، ثقافة الصورة في الأدب والنقد، ص ١٠٤.

- (١٢) ينظر: جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليفي ستراوس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، دط، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، ص ص ١١٥ و ١١٦.
- (١٣) ينظر: جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليفي ستراوس إلى دريدا، ص ص: ١١٨ و ١١٩.
- (١٤) ينظر: عمر مهيب، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ص ٢٨٩.
- (١٥) عمر مهيب، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص ص ٢٤١ و ٢٤٢.
- (١٦) ينظر: ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة بحث في أصول التغير الثقافي، تر: محمد شيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ص ٦٧.
- (١٧) ينظر: وليامز جيمس، ليوتار نحو فلسفة ما بعد الحداثة، تر: إيمان عبد العزيز، مر: حسن طلب، المجلس الوطني للثقافة، القاهرة مصر، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، ص ص ٥٧ و ٥٨.
- (١٨) ينظر: بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، تر: عبد الوهاب غلوب، تح: جابر عصفور، المجمع الثقافي، أبو ظبي الإمارات، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، ص ٢٢٠.
- (١٩) ينظر: وليامز جيمس، ليونار نحو فلسفة ما بعد الحداثة، ص ٥٩.
- (٢٠) ينظر: ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة بحث في أصول التغير الثقافي، ص ٦٩.
- (٢١) ينظر: محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة (نموذج هابرماس)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط٢، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، ص ص ١٠٦ و ١٠٧.
- (٢٢) ينظر: محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة (نموذج هابرماس)، ص ص ٢٠٨ و ٢٠٩.
- (٢٣) ينظر: عمل مهيب، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص ص ٣٧٥ و ٣٧٦.
- (٢٤) ينظر: عمر كوش، أقلمة المفاهيم (تحولات المفهوم في ارتجاله)، ص ١٠٥.
- (٢٥) عبد الله الغدامي، الثقافة التلفزيونية (سقوط النخبة وبروز الشعبي)، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ص ١١.
- (٢٦) ينظر: عبد المجيد السخيري، الحداثة والحداثة الفائقة وما بعدهما انشغالات راهنة، ص ص ١٨٦ و ١٨٧.
- (٢٧) ينظر: عبد المجيد السخيري، الحداثة والحداثة الفائقة وما بعدهما انشغالات راهنة، ص ص ١٨٧.

(٢٧) ينظر: علي حرب، أزمنة الحداثة الفائقة (الإصلاح - الإرهاب - المشاركة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م، ص ٢٤٥.

(٢٨) أماني أبو رحمة، بعد ما بعد الحداثة، أزمنة الحداثة الفائقة، على الرابط:

<http://saraibda3.ahlamontada.net/>

(٢٩) ينظر: علي حرب، حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية)، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م، ص ٤٤.

قائمة المصادر والمراجع:

١. بيتر بروكر. الحداثة وما بعد الحداثة، تر: عبد الوهاب غلوب، تح: جابر عصفور، المجمع الثقافي، أبو ظبي الإمارات، ط١، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.
٢. تيري إيجلتون. أوهام ما بعد الحداثة، تر: منى سلام، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.
٣. جون ستروك. البنيوية وما بعدها من ليفي ستراوس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، ط١، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.
٤. حلمي مرزوق. في النظرية الأدبية والحداثة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية مصر، ط١، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.
٥. دفيد هارفي. حالة ما بعد الحداثة بحث في أصول التغير الثقافي، تر: محمد شيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.
٦. سهيل نجم. الحداثة وما بعد الحداثة دراسات وتعريفات، أزمنة، عمان الأردن، ط١، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.
٧. صالح أبو اصبع وهيثم سرحان وآخرون، ثقافة الصورة في الأدب والنقد، مجدلاوي، عمان الأردن، ط١، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٨ م.
٨. عبد الله إبراهيم. المطابقة والاختلاف (بحث في نقد المركزية الثقافية)، المؤسسة العربية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.
٩. عبد الله الغدامي. الثقافة التلفزيونية (سقوط النخبة وبروز الشعبي)، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.
١٠. عبد المجيد السخيري. الحداثة والحداثة الفائقة وما بعدهما انشغالات راهنة، المنظمة العربية للترجمة، ع ١٨، بيروت لبنان، ١٤٣٦ هـ ٢٠١٤ م.
١١. علي حرب. أزمنة الحداثة الفائقة (الإصلاح - الإرهاب - المشاركة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.
١٢. علي حرب. حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية)، المركز الثقافي العربي،

- بيروت لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
١٣. عمر مهيبيل. إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
١٤. عمر كوش. ألقمة المفاهيم (تحولات المفهوم في ارتحاله)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
١٥. محمد سبيللا. الحادثة وما بعد الحادثة، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
١٦. محمد نور الدين أفاية. الحادثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة (نموذج هابرماس)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط٢، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
١٧. ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
١٨. وليامز جيمس. ليوتار نحو فلسفة ما بعد الحادثة، تر: إيمان عبد العزيز، مر: حسن طلب، المجلس الوطني للثقافة، القاهرة مصر، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.
١٩. أماني أبو رحمة. بعد ما بعد الحادثة، أزمنة الحادثة الفائقة، على الرابط:

<http://saraibda3.ahlamontada.net/>

التعايش بين الأديان في الرواية العراقية الحديثة

أ.د. إسراء حسين جابر

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

مدخل الى مفهوم التعايش:

لابد قبل البدء في بحث ثيمة التعايش بين الأديان في الرواية العراقية الحديثة ان نحدد، مفهوم التعايش لغة واصطلاحاً، باعتبار أن التعايش هو المحور الرئيس لموضوع الدراسة كلها.

ففي لسان العرب نجد العيش يعني ((الحياة... وعاشه بمعنى: عاش معه ودلائتها، عاشره)) (ابن منظور، د.ت: ٤٩٨، ٤٩٧)

أما في المعجم الوسيط فقد عرف التعايش بأنه: ((العيش، فقال: وعاشوا على الألفة والمودة، وجميعها تؤكد معنى التعايش، وعاشه تعني: عاش معه، والعيش معناه الحياة، أو ما تكون به الحياة من المطعم والمشرب والدخل)) (انيس وآخرون، ١٩٧٢: ٢/٦٣٩-٦٤٠).

اما اصطلاحاً، فان التعايش هو العيش المتبادل مع الآخرين القائم على المسالمة والمهادنة وقبول الآخر بكل مكوناته ومعتقداته ومنحه حقوقه المستمدة من النظام الاساس او الدستور الذي يحددها او ينظمها ولا يكون التعايش إلا بوجود الألفة والمودة ولا يعيش الانسان مع غيره الا اذا وجد بينهما تقاهم ورغبة بعيشة مشتركة لحمتها الألفة وتسودها المودة والثقة (مبارك وابو خليل، ١٩٩٦: ١٢)

ويتضمن التعايش معانٍ اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية تهدف جميعها لإيجاد حاضن اخلاقي لإسعاد الانسان، ولعل ما طرحه ابن خلدون بان ((الاجتماع الإنساني ضرورة لازمة وشرط حتمي للمدنية والحضارة فهو ضروري لإشباع حاجات الإنسان الأساسية، ودونه يصبح وجودهم ناقصاً وتكون إرادة الله

الهادفة إلى إسكانهم لأرض غير تامة)) (ابن خلدون، ١٧: ١٩٨٤)، يعد تأكيداً على معنى التعايش الذي يعد أهم أسباب الاستقرار ومن ثم الابداع والنهوض الحضاري.

وقد شاع مصطلح التعايش (Coexistence) في هذا العصر والذي ابتدأ رواجه مع ظهور الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية اللتين كانتا تقسمان العالم على معسكرين متناحرين قبل سقوط برلين وانهيار الاتحاد السوفيتي السابق (النويجري، ٢: ١٩٨٠).

ويقودنا البحث في مدلول هذا المصطلح إلى جملة من المعاني والمفاهيم التي قد تتضارب فيما بينها لكن في النهاية تجعله يتصف بخصائص معينة، ويمكن تصنيفها إلى ما يلي:

فمن الناحية السياسية يعني: الحد من الصراع أو ترويض الخلاف العقائدي بين قوتين، أو العمل على احتواء ذلك الصراع مما يفتح مجالاً لقنوات الاتصال بين الطرفين المتصارعين (الغرباوي، ٣: ٢٠٠٣: ٤).

أما من الناحية الاقتصادية فهو، يرمز إلى علاقات التعاون بين الحكومات والشعوب فيما له صلة بالمسائل القانونية والاقتصادية والتجارية من قريب أو بعيد (النويجري، ٢: ١٩٨٠).

ومنها ما هو ديني، ثقافي، حضاري، وهو الأحدث، ويشمل تحديداً معنى التعايش الديني أو التعايش الحضاري، والمراد به أن تلقتي إرادة أهل الأديان السماوية والحضارات المختلفة في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام في العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم البشر جميعاً من دون استثناء (عطية الله، ٣١: ١٩٩٦).

فالتعايش من لفظها، فهي مفردة تشير إلى معنى التعاون والالفة بين الاقليات والفئات الكبرى في مجتمع معين لاسيما اذا اختلفت تلك الفئات من حيث اللغة والدين، اذ تعيش جنباً إلى جنب بعيداً عن التطرف أو الاعتداءات.

وتكمن أهمية التعايش السلمي داخل المجتمعات في انها ترتبط بالبناء

الانساني المتضامن، فهي لا تخص مجتمعا دون اخر بل هي تشمل المجتمعات كافة، لذا عرفت بأنها: اتفاق طرفين أو عدة أطراف على تنظيم وسائل العيش

فعبارة التعايش السلمي ما هي الا نداء لتوحيد المجتمع، مطالبة الابتعاد عن رفض الآخر داخل المجتمع، فالعراق مثلا، متنوع وتكمن جماليته في اطيافه المتنوعة من القدم والتي اسهمت في بنائه من جديد عن طريق اشاعة مفاهيم التعايش السلمي والمبادئ الانسانية والديمقراطية (الشمري، ٢٠١٧: ٤٧).

والاسلام في نظرته للتعايش ينطلق من قاعدة ايمانية عقائدية كما في الاية الكريمة ((قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)) (سورة آل عمران: آية ٦٤).

فالآية تفترض ان يعيش الانسان مع اخيه الانسان مسالمة ويحاول ان ينصف الآخرين من نفسه، فلا يلتقي ربه الا وقد أدى واجبه واعطى الآخرين حقوقهم، وسلم بدينه والعيش بسلام لا يتحقق الا بالتسامح، ووفق التعاليم الاسلامية لابد ان يكون لكل فرد في الامة حق في ان يعتقد ما يراه حقاً، وان تكون له الحرية في تأدية طقوسه الدينية، وان يكون الجميع بمختلف اديانهم سواء امام القانون.

ولعل المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة، وهذا يدل على عمق التعايش بينهم، فالإسلام منح في قلوب المسلمين متسعاً للتعايش مع بني البشر كافة.

فالمسالمة والأمان مبدآن حث عليهما الدين الاسلامي بين المسلمين وبين غيرهم من الديانات، كذلك حثت عليهما الديانات الاخرى، فلا يوجد دين يجيز قتل النفس لمجرد أنها تدين بغير الإسلام، ولا يبيح للمسلمين قتل مخالفينهم في الدين لمخالفتهم في عقيدتهم، بل ان الاسلام يأمر معتنقيه أن يعاملوا مخالفينهم بالحسنى ومبادلتهن المنافع و يأمر المؤمنين بالدخول في السلم كافة فقال ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)) (سورة البقرة: آية ٢٠٨)، هذه الآية تضع قاعدة ثابتة ورسالة حقيقية للتعايش السلمي بين الاديان في المجتمعات، التي لا يمكن ان تتجسد من غير السلم الاجتماعي، فالإسلام دين سلام ومحبة وليس

دين ارهاب كما تدعي بعض الكتب الغربية المعادية. اذ إن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم لا الحرب، والحوار لا الصراع، حتى لا يحصل اعتداء؛ فيضطر المسلمون حينئذٍ إلى خوض غمار الحرب للدفاع عن النفس وحق البقاء أو انتقاء لهجوم.

فلا ضير من ان تعرف الآخر بديننا، والدعوة إليه، فان لم يرضوا به ديناً لهم، فينبغي حينئذٍ وضع القواعد التي تكفل حقن الدماء والتمكين للناس من السعي في الأرض وإقامة العدل بين الناس، والتعاون فيما يكون التعاون فيه (الشريف، ٢٠٠٦: ٧).

وفي القرآن الكريم وردت الكثير من المصطلحات والمفاهيم تدل على معنى التعايش بين الاديان والتعامل الإيجابي مع الآخرين بشكل عام، ومع غير المسلمين بشكل خاص، ومنها البر والاحسان، والجدال بالتي هي أحسن، والجنوح للسلم، والرحمة والعدل، وعدم الإكراه، وغير ذلك.

فالإسلام لا يمنع المسلمين من العيش مع مخالفيهم في العقيدة والدين، فهم عباد الله وليس من لوازم الإيمان القطيعة مع غير المسلمين ورفض العيش المشترك في ظل دولة الإسلام، لهذا فالمجتمع الإسلامي في كل عصر لم يخلُ من غير المسلمين (زيدان، ١٩٦٣: ٥)، فهو الدين الكامل المشتمل على جميع ما ترتضيه الحياة الكريمة لجميع الشعوب في العصور كافة،

فالقرآن الكريم حث على التعارف والتسامح وهو اساس نادى به رسالات السماء، ونادى به الإسلام منذ اللحظة الأولى التي أشرقت بها شمس النبوة (الدرش، ١٩٧٩: ٢٤٦)، فالتعارف يجعل كل فريق ينتفع بما عند الفريق الآخر بحيث تكون خيرات الأرض كلها لابن الأرض، وبذلك لا تختص كل جماعة بخيراتها دون الأخرى.

وبصورة عامة فإن هنالك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة، التي تدل في مضمونها دلالة واضحة لمعنى التعايش السلمي مع غير المسلمين، والتي تدعو المسلمين من خلالها على اتباع الطريق الأمثل في التعامل معهم ما داموا في عهد المسلمين وأمانهم.

وللتعايش السلمي انواع عديدة اهمها:

١- التعايش الديني: وهو ما يكون بين مختلف الاديان السماوية وينطلق مفهوم التعايش الديني بين الديانات المختلفة على مبدأ التسامح الذي يعترف بحقوق وحرية الآخر في اعتقاد ما يعتقد بأنه حق (<https://Lalukah.net>) اي ان هناك اديان اخرى لابد من وجود علاقات تربطنا بهم مبنية على التسامح.

والتعايش الديني لا يشمل الديانات بل يشمل المذاهب المختلفة، ويتحقق بالاعتراف والاحترام المتبادل وحفظ الحقوق الانسانية والوطنية ونبذ الشاحنات المذهبية والطائفية.

٢- التعايش الثقافي: نظرا لما تؤديه الثقافة من دور في حياة الشعوب من حيث التفكير والتماسك، ويؤكد العالم الالمني (صموئيل هنتغتون) في كتابه (صدام الحضارات) ان العامل الاساس في تقييم العالم وتصنيفه هو الهوية الثقافية (راهي (د.ت): ٤٠-٤١) فالحوار البناء بين الانا والآخر يؤدي الى التكامل والافادة من فهم الافكار الاخرى.

٣- التعايش الانساني: ويتحقق بين مختلف افراد المجتمع الواحد او بين مختلف المجتمعات الانسانية، وهو لا يعني ضياع الهوية العرقية او الاثنية في مقابل الذوبان في معتقد الآخر، بل يجب ان يكون هناك احترام متبادل بين افراد المجتمع ومعرفة كل فئة ما لها وما عليها من واجبات وحقوق، وهذا ما يخلق الحوار والاندماج الاجتماعي ويقضي على التطرف والتعصب القبلي ومحي الحواجز النفسية وينمي الشعور بالأخوة الانسانية ومن ثم تشيع المحبة ويتعايش الجميع بسلام.

وهناك انواع اخرى تتعلق بين الدول والحكومات منها التعايش السياسي والاقتصادي وغيرها.

ولا يخفى فان التعايش يرتبط بمفهوم الهوية وذلك لما يوفره الانضواء، والتماهي داخل الجماعة، فأكثر أشكال الهوية قدماً، هي اشكال جماعية، اي تؤمن بوجود تجمعات تعد أنظمة محددة مسبقاً للأفراد، تعيد إنتاج التماثل عبر

الاجيال، ((وفق هذا التصور فإن الانتماء الرئيس للفرد هو العضوية في الجماعة، وفرداته يحددها موقعه في هذه الجماعة، والطابع الاساس لمثل هذا الانتماء يعد حيويًا للوجود الفردي، وتعتبر السلطات الفاعلة في هذه المجاميع، ثقافة، أمة، ديناً، إثنية، جغرافية، مصادر جوهرية للهوية)) (دوبار، ٢٠٠٨: ٢١).

فالمجتمعات البشرية منذ البدء كانت لها شعائر تمثل ثقافتها ووجودها زمن ثم تمثل هويتها التي تميزها عن غيرها من المجتمعات، فهناك دائماً رغبة في هوية تؤكد الاختلاف، والهوية من حيث الارتباط بين الفرد والجماعة إشكالية لا يمكن اغفالها في الوضع البشري منذ آلاف السنين، فالمفهوم معقد ومتشعب لاسيما من حيث الثبات والتحول والاساس والهامش فهو مفهوم لا يمتلك حداً حاوياً للمعاني كلها التي تتقصد الذات تعريفاً وتحديداً، اذ تتقاطع ((ضمنه مختلف الحقول المعرفية، الحقوقية، والانثربولوجية والسوسيولوجية والنفسية، كل ذلك جعل من المفهوم لا يمتلك ثابتة يعود لها كل تعريف)) (ريكور، ١٧: ٢٠٠٩).

فاذا كان الدين هو ((الإيمان بقوة علوية سامية تأمر الناس بقيم أخلاقية وأنماط سلوكية معينة، وتبشرهم أو تنذرهم بحياة أخرى)) (ليلة، ٢٠١٢: ٥١) او انه ((نسق ثقافي مؤسس على الرموز المقدسة)) (بعلي، ٢٣٧: ٢٠٠٧) فانه لا يخرج عن مجموعة من الممارسات السلوكية التي تجعل الفرد يتوجه روحياً إلى من يؤمن به، وعليه فلكل مجموعة هوية دينية تكتسب معالمها من تلك الرموز والطقوس، وذلك لان الهوية غالباً ما تكون قائمة أساساً أصرة فكرية وعقائدية تربط مجموعة أفراد ببعضهم وهذه الأصرة الفكرية تختزن داخلها كثيراً من المقننات التطبيقية العملية التي تضبط سلوك الجماعة في سياق التأسيس للجسد المتماسك بها)) (باحثين عراقيين، ١٤٢: ٢٠٠٨).

فالانتماء الحقيقي للدين عاملاً مهماً في تنمية المجتمعات وتقوية أواصرها، لاسيما إذا امتلك ذلك الدين مبدأ التسامح وقبول الآخر المختلف بعيد عن التعصب والكراهية.

التعايش بين الاديان في الرواية العراقية:

إذا كانت الرواية الجنس الأكثر ملاءمة للواقع لاسيما في التعبير عن

العلاقة بين كل من السياسة والتاريخ والحياة، الى جانب أنها الشكل التعبيري الامثل الذي يجمع بين الذاتية والموضوعية، فلا بد ان نعلم ان تعايش الهويات المختلفة كان له دور واضح في الرواية العربية والعراقية على حد سواء.

فالرواية اقرب للواقع منه للخيال وان كانت شخصياتها متخيلة، إذ إن مساحتها وقدرتها على استيعاب الاجناس والمضامين المختلفة قد أولت للتحويلات السياسية والاجتماعية عناية خاصة وواكبت التغيرات الحاصلة في الواقع العربي وما أحدثته من ازمات وصراعات.

فلم تكن الرواية بعيدة عن نقل اهم التغيرات التي تطرأ على الواقع الاجتماعي والسياسي بل وحتى الثقافي، فهي جنس قريب الى الحياة المعيشة، وان كان العرض بصيغ واشكال مختلفة تبعا لرغبة الكاتب في التجديد والتميز.

ولعل ما حصل من تغيير على الواقع السياسي في العالم العربي انعكس بشكل او بآخر على الواقع الاجتماعي والثقافي، فبدأنا نشهد مصطلحات لا عهد لنا بها، كالأطائفية والتهميش والتميز والأقليات والحروب الاعلامية والنفسية والحروب الاهلية.

والادب لاسيما الرواية والقصة القصيرة اخذت دورها لا على مستوى عرض الاحداث والوقائع بل على مستوى محاولة اتخاذ اتجاه توعوي يصلح من المسارات الخاطئة في المجتمع، محاولة لتغيير واصلاح بعض القنوات السلبية، وزرع اهم المضامين الانسانية التي تقرب وجهات النظر وتعلي من قيمة المواطنة في البلاد.

والرواية العربية منذ تأسيسها حملت على عاتقها عرض وتصوير الواقع ومن ثم معالجة بعض المشكلات القائمة في المجتمع جراء تغيير الانظمة الحاكمة في البلاد العربية، ومنها ما اتخذ أسلوباً توثيقياً لا غير.

ولعل موضوع التعايش بين الاديان في المجتمع من اهم الموضوعات التي طرحت العديد من القضايا سواء ما يتعلق بالهوية الكبرى والهوية الفرعية، المركز والهامش، العنف والتطرف وغيرها من القضايا التي تثير التساؤل.

وعلى الرغم من ان زعزعة الامن وخلق التطرف أحد أهم الأهداف الاستعمارية الا انه شكل خطرا على وحدة ولحمة الشعوب على نحو عام وعلى العراق على نحو خاص.

لذا بدأنا نشهد حملة روائية لإنقاذ البلد مما فيه وذلك من خلال طرح القضايا وبيان خطرها وبيان مدى اهمية تعايش الاديان للخلاص من الضياع والحفاظ على البلاد وشعوبها التي تحاول الروايات تفتيح الازدهان الخاملة لها

وقد وجدنا الروايات تختلف في طبيعة عرض التعايش فمنهم من عرضها على شكل ذكريات تذكر المواطن بكيفية التعايش السلمي بين الاديان اي علاقة المسلمين باليهود والنصارى

ومنهم من حاول تسليط الضوء على العلاقة الحميمة بين المسلمين والنصارى من خلال عرض العلاقات الاجتماعية

وتارة اخرى عرض بحث غير المسلمين عن هويتهم الوطنية في بلادهم التي نشأوا فيها ومنهم من سلط الضوء على ماتعرض له مجموعة من الاشخاص بغض النظر عن دياناتهم من قسوة الحكام

بعد عام ١٩٤٨ بدأت شخصية اليهودي تختفي من المضمون الروائي اما الشخصية المسيحية فكان ظهورها يرد كواقع حياة فهم الاكثر قربا من الاسلام.

بعد عام ٢٠٠٣ اصبحت الرواية تطرح قضايا مغيبة وأصبح الكاتب اكثر تحررا، حتى اننا بدأنا بفضلهم نقرأ عن تاريخنا ما لانعرفه كأجيال لم تعاصر الكثير من القضايا.

وانطلاقاً مما طرحته الروايات قسمت المحور على ثلاثة اقسام وهي كالآتي:

١ - علاقة المسلمين بالمسيح:

ان العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والمسيحيين لها جذور تاريخية قائمة على الانسانية البحتة والتي ربطت بينهما طوال الحقب التاريخية، فكانت هناك نقاط التقاء حضاري واجتماعي بينهما كثيرة، تمثلت في علاقات المصاهرة

وفي العادات والتقاليد والاحتفالات الدينية والأعياد، فضلاً عن التأثيرات الاجتماعية المتبادلة ومن ثم كان لهذا الأمر الأثر الواضح في التعايش بينهما.

لكن ما تعرض له العراق من ويلات الاحتلال المتكررة وتكرار سيناريو تفرقة الشعوب من خلال العزف على وتر المركز والهامش وعلى وتر الاولى بالسيادة ومن ثم خلق روح الصراع والنزاع بين الاديان والطوائف ليتسنى للمحتل الهيمنة على خيرات الارض.

والرواية العراقية انقسمت في عرضها للتعايش بين الاسلام والمسيح على قسمين منها ما هو ايجابي ومنها ما هو سلبي، ففيما يتعلق بالجانب الايجابي نجد البعض من الروائيين يفتقون عند اهم المظاهر التي تؤكد التسامح والتبادل الثقافي والقبول بالتعددية كما في رواية (عشاق وفونوغراف وازمنة) للطفية الدليمي التي تبحث فيها عن ازمة التعايش بين الاديان في ثنايا الذاكرة لتجعلنا امام مواقف انسانية جمعت بين المسلمين والمسيح.

ففي حوار يجمع شخصية ام نهى و شخصية راوية عن الشيخ قيدر واشتياقهم له تقول نهى: ((عمي لم يعود الى بغداد وجد ملاذه مع صديقه القس جبرائيل ولا يمكنه ان يفرط بصحبة عرفانية عثر عليها اخيرا. كلاهما مهتمان بجمع مخطوطات التراث العراقي وحفظها في اماكن سرية محمية)) (الدليمي، ٢٠١٦: ١٤٨).

هذا الاندماج بين الشخصية المسلمة والمسيحية هو نسق اعتاد عليه العراقيون، فالرواية على الرغم من السياق التاريخي الواقعي الا انها كتبت لغاية إبلاغه وتنبيهية، فاذا ما لاحظنا على المستوى اللفظي للنص (وجد ملاذه، صديقه، صحبة عرفانية..) سنجد انعكاس الارتباط والتسامح وروح المؤاخاة والتكامل الاجتماعي بين الاسلام والمسيح، حتى لنذكر طبيعة المواطنة، فكلاهما يحمل هما واحدا ووعيا ناضجا وهذا ما ازال اي حواجز نفسية وعرقية او موانع عصبية، إذ إن ما حصل من تفرقة واعتداء على المسيح لم يتأت من واقع عراقي انما من ايادي كان غرضها التفريق، لذا تستعين بالحوار لتعرب عن قضية التعايش والتلاحم بين الدينين وتجعل من التطرف وسيلة لعرض الجوانب

الاجابية وكأنها تعقد مقارنة بين الزمنين الانى والماضى لتحقيق الوظيفة التنبهية من خطورة الازمة المعاشة.

وتستثمر الكاتبة صوت الراوى المشارك لاستملاء المواقف الانسانية بين الدينين لاسيما فيما يتعلق بالطقوس والعبادات اذ تحاول ان تسلط الضوء على امكانية الانفتاح على ثقافة الاخر، وتعكس قضية التأثير والتأثر بين الثقافات: ((هبطنا من العربة داخت وفيقة فاتكأت على كنفى، ولدى باب الكنيسة شعرت وفيقة بالرهبة والارتباك؛ فهذه هي المرة الاولى التي تخرج من البيت بغير اهلها دون علم رأفت، والمرة الاولى التي تدخل فيها كنيسة أم الاحزان، ارتعش قلبها واحست بخفقان متسارع فيه، رفعنا الخمر السوداء ووقفنا حائرات لدى الباب فرأنا القس وكان برفقته شاب بهي الطلعة يحمل في يده آلة العود التي رأيتها في عرس شقيق رأفت عندما عزفت عليها المغنية اليهودية قال القس للشماس الشاب:

- ابني سعيد ناد الاخت رينة من الدير المجاور لتتحدث مع الخواتين ... اتينا نتبارك بالسيدة العذراء ونطلب مرادنا من ام سيدنا عيسى)) (الدليمي، ٢٠١٦: ٣٢٢).

حاول الراوى ان يقدم سردا ممزوجا بالوصف الى جانب الحوار ليجعلنا ام بعض الطقوس الدينية التي تمثل ثقافة الاخر في المجتمع وأعني بها ثقافة الدين المسيحي واليهودي في العراق، فالموسيقى ارتبط وجودها بهم، فضلا عما عكسته لغة الحوار عن واقع التعايش بين الاديان وهو واقع مجتمعي قائم على الانفتاح واحترام الاخر وعدم نبذ اي ثقافة او طقوس، وكأن الروائية ارادت تأكيد معرفة الذات من خلال معرفة الاخر.

اما احمد السعداوي في رواية (فرنكشتاين في بغداد) يسلط الضوء على العلاقة الحميمة بين المسيحية ام دانيال وجاراتها المسلمات ويحاول الروائي ايضا تسليط الضوء على اختلاف العلاقات بين الماضي والحاضر، وقيمة التعايش بين الاديان وما افرزه الاحتلال من تفكيك اللحمة الوطنية من خلال اشاعة ثقافة التمييز والتفكك والتركيز على الانا بعيد عن الجماعة

فمثلا نجد الراوى العليم يعرض لوجهات النظر المختلفة، حول ما خلفه

الاحتلال من صراع بين الاديان في مقابل معارضة البعض له: ((كان فرج الدلال يفكر احيانا بأن طرد عجوز مسيحية لا ظهر لها ولا سند يمكن ان يجري في ظرف نصف ساعة من دون اي مجهود كبير. ولكن صوتا مضادا في نفسه يخبره بأنه في الاصل، يتحرك على ارضية من خرق القوانين والاساءات غير المقصودة لأناس كثيرين، ومن الافضل ان لا يبالغ فيختبر مشاعر الاهالي اتجاه هذه العجوز)) (السعداوي، ٢٠١٤: ٢١)

من خلال تتبع شخصية فرج الدلال يتضح انه شخصية عدائية، همه الوحيد هو الاستيلاء على المنازل التي تحمل قيمة مادية بسبب قيمتها التاريخية، فالمكان كان له دور في اظهار المواقف العدائية من قبل فرج ورفضه للآخر، والمكان نفسه اظهر في المقابل مواقف الاهالي السلمية الراضية لموقف فرج وهي الفئة الاقوى، وكما هو واضح فان ما تطرحه الرواية اشبه بتأزر الاضداد في المواقف، فظهور المواقف الايجابية في مقابل المواقف السلبية تجعل الصورة اكثر وضوحا.

وينقل الرواي رفض المجتمع لهجرة الاثوريين ايضا ((ليس من الجيد أن يخرج الجميع من البلد. لم تمر احداث أفضل على الاثوريين في القرون السابقة. ولكنهم بقوا هنا واستمروا في الوجود. على احدا الا يفكر بنفسه فقط.)) (السعداوي، ٢٠١٤: ٧٥)

ان التنوع الثقافي كان ولا زال عاملا من عوامل ثراء المجتمعات المتطورة لكن الخطورة تكمن في تمحور الهويات حول ذاتها وتحاول فرض قناعاتها على الآخرين في محاولة لتهميش واقصاء الآخر قسرا، وهذا ما يؤدي الى تفكك المجتمع وعدم قدرة على التعايش بسلام ومحبة.

ومن مظاهر التعايش بين الاسلام والمسيح تأثر المسيح بالاسلام فنقرأ: ((لم تحضر الاسبوع الماضي للصلاة فضلت الذهاب الى كنيسة مارقرداغ في عكد الاثوريين بالشيخ عمر لتقي ببعض نذورها (الاسلامية) المتأخرة. وضعت قبضة من عجينة الحناء على المقبض المعدني التي تستعمل لطرق الباب الخشبي الكبير في كنيسة سانت جورج الانغليكانية في الباب الشرقي..... وضعت قبضة

الحناء الداكنة على حائط الكنيس اليهودي المهجور،.... اشعلت اعوادا من البخور الهندي امام مذبح العذراء في كنيسة مارعوديشو قبل ان يحضر الاب يوشيا... (((السعداوي، ٢٠١٤: ١٠٥)، فالذات الانسانية كما هو واضح لا يمكن ان تكون محصورة في ذاتها او منغلقة عليها بل تحاول غالبا التعرف على ذوات اخرى ومعارف وطقوس مختلفة، وهذا يعني الى جانب احترام خصوصية الديانات نجد حرية في تطبيق الطقوس التي يجدها الفرد قريبة الى ذاته.

وتشخص رواية الحفيدة الامريكية، التعايش بين الاسلام والمسيح من خلال علاقة الجدة الشيعية بالعوائل المسيحية

فالجدة لم تشأ مغادرة بلادها، ففضلت البقاء وحيدة في بيتها الكبير في بغداد، تستعيد ذكريات زوجها العقيد من خلال تصفح صورته، وتنظف أزياءه العسكرية بعد وفاته، وتصلّي أن يحمي القديسون بلادها. تقوم على خدمتها عجوز شيعية تدعى طاووس، عاصرت نصف قرن من حياة الأسرة المسيحية، وقبل قرابة ثلاثين عاما، حينما تعرّضت بتول لحالة حمّى، قامت طاووس بإرضاع زينة. ((انا غريبة حتى عن جدتي أم أمي، ان حيدر وطاووس ومهيمن أقرب اليها مني لأنهم ظلوا مثلها عراقيين خلصا)) (كجة جي، ٢٠٠٩: ١٣١).

أنجبت طاووس ستة أبناء، أصبحوا جميعا أخوة لزينة بالرضاعة، أكبرهم "مهيمن" عاشق للموسيقى، الذي سيق إلى الحرب مع إيران، وأخذ أسيرا، وخلال الأسر غدّي بالأيدلوجية الدينية المتشدّدة، وتشبّع بها، وحينما أطلق سراحه وعاد، في أول مقام به احراق صندوق الأشرطة الموسيقية التي احتفظت به له أمه ((ذهب شيوعيا بالوراثة، وعاد فقيها يجادل في أمور الجنة والجحيم)) (كجة جي، ٢٠٠٩: ١٣٨).

فالبطلة (زينة) آشورية، طرد جدها العقيد الركن المتقاعد يوسف ساعور من منصبه في الجيش بعد ثورة ١٩٥٨ وهو من أسرة مسيحية من الموصل. أما جدتها (رحمة فتوحي) فهي كردية من (بيخال) شمال العراق، ارتبط الجدان في وطنهما وماتا فيه. جاءت زينة إلى الحياة ثمرة زواج أمها (بتول) الكلدانية التي تركت ملتها وتزوجت آشوريا

فالرواية على الرغم مما تعكسه من اضطراب الهوية الا انها تؤكد على قضية التعايش بين الاديان لاسيما بين المسلمين والمسيح فضلا عن التعايش بين الطوائف لاسيما الكلدانية والاشورية والتي تمثل واقع العراق القائم على التعددية والاندماج في مقابل احترام حرية الدين والطائفة الاخرى، فالنص يحاول ان يبين ما للمصاهرة من دور في تعزيز التعايش والامتزاج بين الجماعات المختلفة.

وتحاول الكاتبة عالية طالب في روايتها (الاجنبية) ان تطرح مفهوم التعايش بين الاديان في العراق بوصفه مجتمعا اباح حرية التعدد الثقافي وذلك من خلال الخطاب المباشر: ((نستطيع التحرك باتجاه بعضنا البعض والجلوس معاً كما علّمنا آباء الكنيسة أو العقيدة الإسلامية أو الدروس التوراتية... فالمختلف يثير الفضول وحبّ الاطلاع وفهم حقيقة اختلافه عن المثلث ويغري في كثير من الأحيان بالاعتباس والأخذ عنه ومحاكاته والاعتناء بتجاربه)) (مدوح، ١٧٨: ٢٠١٣).

فالنص يعكس أيديولوجيا الكاتبة لاسيما مناهضتها لإقصاء الآخر فهي تحاول ان تبني افقا مشتركا تضع فيه الجميع في سياق يؤمن بشرعية الاختلاف والتعدد دون المساس بفردانية الآخر وتميزه، فالأنسنة هي الثقافة التي يجب ان تسود بين الاديان؛ اي إن انتماء الفرد إلى هوية دينية لا يمنعه من تقبل الهويات الفرعية الأخرى مما تجعل الانسان اكثر حيوية مع الاخرين خارج انتمائه الديني، وهذا بحد ذاته يشكل منجزا على المستويات كافة.

وتطرح الروائية اسماء حسن في روايتها (لعينيك حكاية - رواية حب في زمن الغياب) قضية الزواج والمصاهرة بين الديانات المختلفة بوصفه مظهرا من مظاهر التعايش، فشخصية طارق المسلم يطلب (ريتا) المسيحية للزواج:

- طارق: هل تفكرين في الهجرة؟.
- ريتا: أنا أكره الهجرة لكنني ان أجبرت سأهاجر طبعاً.
- طارق: وكيف سيكون العراق بدونك؟.
- ريتا بدهشة؛ لكنك مسلم.
- طارق: وماذا في ذلك؟.
- ريتا غير مصدقة: أنا مسيحية... كيف تفكر أنت؟.

- طارق: أتزوجك.
- ريتا: يا رب... ديني لا يسمح بذلك.
- طارق: لكن ديني يسمح.
- ريتا: لا يمكن، أنا مسيحية، ولن أصبح مسلمة.
- طارق: ومن ينتظر إسلامك... أبقى مسيحية، عزيزتي الحب أكبر من الأديان والطوائف والأعراق)) (حسن، ١٥٨: ٢٠١٧-١٥٩).

الحوار يعكس طبيعة الحساسية بين الأديان لاسيما من حيث المصاهرة، ومن ناحية أخرى يجسد التعايش بينهم، فالزواج يزيد الصلات وثوقاً وتماسكاً الأمر الذي يعكس الاندماج بين الدينين.

فالحوار بين الشخصيتين يعكس واقعها الثقافي وبناءها الفكرية، ووجهات نظرها حول دينها الذي لم يشكل عائناً امام مشاعرهما.

فالروائية اعطت للشخصيات المجال لتعرب عن وجهات النظر التعبيرية والنفسية لتجعل من لغة الحب هي السائدة لاسيما بين شخصيتين مثالييتين في الاعتدال ليجسدا التعايش والتقارب الفطري بين الأديان.

فعلى الرغم من قلق الذي ينتاب شخصية (ريتا) المسيحية لما قد يسببه هذا الارتباط من مقاطعة من اهلها واقاربها وما سيحصل من عواقب أخرى تتعلق بأخواتها لاسيما وان رغبة الارتباط جاءت في ظل ما تعرضت له الطائفة المسيحية من تهجير وقتل وحرق للكنائس على يد بعض المتطرفين الا ان ذلك لم يؤثر على رغبة الزواج من طارق، فالوعي الثقافي للشخصيتين يجعل منهما شخصيتين متوافقتين في مقابل الاختلاف السائد، وهذا بحد ذاته حقيقة الصراع الذي يعيشه الواقع المتأزم.

هذا الصراع بين سماحة الأديان وواقع تطبيقها المتزمت جعلت الافراد يعيشون ازمات نفسية لا طائل منها سوى النزاعات والعيش بتوتر وقلق.

اما فيما يتعلق بعرض الجوانب السلبية القائمة على التطرف والعنف بين الدينين يحاول الروائي سنان انطوان في روايته (مريم) إذ يعرض لقضية التعايش من ناحية أخرى وذلك من خلال الاحداث التي تمثل التشدد الديني لاسيما حين

يتحول إلى أعمال إرهابية، فالرواية ترسم صورة مأسوية للأعمال التي راح ضحيتها آلاف البشر ذنبهم الوحيد انهم من طائفة مسيحية.

هذا الطرح حمل هدفا مهما يتضمن التحذير من عواقب هذا العنف والدعوة الى عودة التعايش والتسامح بين الاديان والطوائف. لاسيما بين الاسلام والمسيح، فبطلا الرواية ينتميان الى هذه الطائفة. ففي حوار بين شخصية يوسف وشخصية مها في لحظة تأزم نفسية تقول: ((عيني قيعدمونا بكل مكان بلا محكمة ومحد يحكي، الكنايس قتتحرق والناس قتتهجر، وقيدبحون بينا يمنة يسرة)) . فيجيبها يوسف: ((لا مو بس كنايس قتتحرق بنيتي، الجوامع اللي انحرقت أكثر بكثير، والإسلام اللي انقتلوا عشرات الآلاف)) (انطوان، ٢٠١٢: ٢٤)، كما هو واضح فان لغة الشخصية/ يوسف تعكس الاعتدال والوعي الثقافي بان كل من المسلمين والمسيح كمواطنين لا يد لهم بأحداث التطرف والتعصب الديني، على عكس شخصية مها التي تحملها قسوة الاحداث على تبني لغة انفعالية غاضبة اتجاه الآخر؛ اي ان المستوى التعبيري للشخصية يعكس وجهات نظر نفسية تتوافق مع قوة الحدث المتمثل بتعرضها على يد المتطرفين دينيا لانفجار امام بيتها مما تسبب بموت جنينها: ((عندما وصلنا إلى المستشفى كان قلب واحد فقط ينبض في داخلي بدلا من اثنين)) (انطوان، ٢٠١٢: ١٢٨)، هذا إلى جانب فقدانها لخالها الذي اختطف ولم يعثر عليه أثر و تهجير عائلتها إلى (عينكاوة) واضطرارها وزوجها الى اللجوء الى بيت قريبها المسن يوسف ليشركاه العيش فيه: ((حاتم الرزاق، شيخ جامع النور الذي كان قريبا من بيتنا، والذي يلقب نفسه بـ (أمير المنطقة) عام ٢٠٠٧، بدأ يصرخ عبر مكبرات الصوت، قائلا: إن على أهل الذمة أن يدفعوا جزية قدرها ٢٥ ألف دولار شهريا.. أو أن يشهروا إسلامهم علنا في الجامع)) (انطوان، ٢٠١٢: ١٢٠).

كما ذكرنا سابقا فان الهوية تولد من إدراك الاختلاف وبعض الجماعات تشتق هويتها الخاصة بطريقة إيجابية من وعيها بما يميزها وما يمثل الخصوصية لها، في حين أن جماعات أخرى تشتق الشعور بهويتها بطريقة سلبية، وهو ما يخلق التطرف وتكفير الآخرين.

والرواية تحاول ان تبين خطورة هذا التطرف الذي يتنافى مع مبدأ التعايش بين الاديان الذي لابد ان يتحقق لاسيما في بلد متعدد الطوائف، لكن انعدام الثقة بين فئات المجتمع المختلفة في العراق سببه ضعف المواطنة، وازمة الهوية، لذلك فالدولة الحديثة لم تتمكن من تخطي العقبات المتولدة عن الانتماءات التقليدية والتي تعرقل قيام دولة المؤسسات، إذ كان القاسم المشترك للكثير من الساسة الذين حكموا العراق هو محاولتهم المحمومة في فرض هوية اجتماعية أو ثقافية أو دينية محددة على المجتمع العراقي الذي يمتاز بتعدد الهويات فيه، مما أدى إلى غياب مبدأ المواطنة (النورس، ٧١:٢٠١٤-٧٢).

٢ - التعايش بين المسلمين واليهود

تؤكد الدراسات الاجتماعية والتاريخية الشراكة الحقيقية بين مختلف الاديان في بناء حضارة العراق، فمنذ العهد البابلي والوجود اليهودي مستمر، وتكاد تجتمع اغلب المصادر على ان يهود العراق بالذات تمتعوا بجميع حقوقهم وحياتهم وان علاقاتهم بالمسلمين كانت طيبة، فلم تكن هناك احداث تاريخية تعكر صفو علاقاتهم، فقد تعايش كل من المسلمين واليهود على ارض العراق بعيدا عن التطرف، كان الجامع بينهم الانسانية وحب الوطن، فلم يفكروا بترك العراق لولا المخطط الاسرائيلي وتسرب الفكرة الصهيونية الى يهود العراق. (M Gat - 2013:2)

اي أن ((ما حصل كان سببا صهيونيا واقتلاعا من الجذور تحقق بفعل قوانين وممارسات لم تكن دولة اسرائيل بعيدة عنها، تكلفت بما عرف بالفرهود واسقاط الجنسية وبهجرتهم نضرر العراق وتضرروا روحيا واجتماعية، فتحولوا الى كتل من الحنين المؤذي، يعيشون على الماضي وذكرياته)) (الخيون د.ت): (١٠٤)

ويهود العراق بالذات كانوا فئة منتجة في مجال الصناعة والتجارة والفن، ووجودهم يحقق التوازن الاجتماعي (الخيون: ١٠٤)

والرواية لم تغفل عن تجسيد تلك العلاقة القائمة على التعايش فمنذ رواية (جلال خالد) لمحمود احمد السيد الذي نقل لنا صورة من صور التعايش

المشترك بين الاسلام واليهود العراقيين، فقد عرض لنا حال الاسرة اليهودية التي تعزم السفر الى الهند (حزقيال وابنته سارة) الشابة التي كان من المؤمل تزويجها من داود، الا ان هذا الزواج لم يتم وقد اصيب داود على اثرها بأزمة نفسية وصحية، فوفقت شخصية خالد معه في ازمته غير آبه للاختلاف العقائدي والديني فما يجمعهم هو انسانيتهم وعراقيتهم، وهي جزء من واقع العراق آنذاك.

كذلك رواية (حوراء) لذو النون ايوب التي ترصد من خلال الحياة الاجتماعية في ثلاثينيات القرن الماضي، فعلى الرغم من ان الرواية تدور حول المرأة ومحاولة الشد على يدها وتكريمها لتتساوى مع الرجل الا ان الرواية لم تغفل عن ثيمة هجرة اليهود ورفض الكثيرين لها، كونهم جزء من بنية مجتمعية لها دور في بناء العراق.

وبعد عام ١٩٥١م تكاد تختفي الشخصيات اليهودية بفعل هيمنة السلطة وحساسية التعامل مع اليهود بسبب احتلال اسرائيل لفلسطين وهجرة اليهود الى الارض المحتلة، ليس على ارض الواقع بل شمل النص الابداعي ايضا، اذ لم نشهد في العراق نصوص تسلط الضوء على تلك الشخصية وحقيقة علاقتها بالاسلام واسباب تهجيرها وما هو واقعهم الجديد، وهذا كان على حساب تجهيل الاجيال بمكوناتهم التاريخية والثقافية.

والمثير ان يستمر هذا التغييب الى عام ٢٠٠٣ فلم نجد ذكر للشخصية اليهودية قبل هذا العام في روايات فرمان أو التكرلي أو الربيعي أو الركابي أو لطفية الدليمي أو ميسلون أو عبد الستار ناصر وغيرهم.

لكن بعد عام ٢٠٠٣ بدأت الرواية العراقية تعد وعي المتلقي لاستقبال الشخصية اليهودية، في محاولة لإقناع القارئ بأنها شخصية عراقية تعايشت مع الاسلام والمسيح وغيرها من الديانات، وان حياة الشخصية اليهودية العراقية تختلف عن الشخصيات اليهودية في البلدان العربية وحتى الغربية من حيث التواشج والحياة بأمان ورفاهية واعتلاء المواقع المؤثرة في البلد.

فلطفية في روايتها (عشاق وفونغراف وازمنة) استعانت بتقنية المخطوطات لتسترجع دور الشخصية اليهودية في المجتمع العراقي، اذ تصور موقف القابلة

المأذونة في مساعدة المسلمة في ولادتها المتعسرة: ((مرت الشهور حتى بدأت أوجاع المخاض، وأتى لي التاجر بقبالة يهودية اسمها راحيل رحوما طيبة صبرت على عسر ولادتي وهدأتني وسقنتني الاعشاب والمغليات لتسهيل الولادة، وكدت اموت لولا رحمة الله وعناية راحيل وولدت صبيا)) (الدليمي، ٢٧٧:٢٠١٦).

وهو حدث بسيط لكن له دلالات عميقة تتمثل في تجسيد التعايش بين الدينين وتؤكد التعامل الانساني بين فئات المجتمع، فالدين المعاملة، ولعل ابسط مظاهر التعايش تكمن في التعاون والتراحم والتسامح والشعور بالأمان ضمن الجماعة، فاليهود العراقيين لهم مثل ما للديانات الاخرى، فالعراق بلد التعددية، لذا جاءت بعض الروايات لتعرض للشخصيات اليهودية الايجابية للوصول الى تقبل الاخر رغم الاختلاف.

ويحاول السعداوي تسليط الضوء على العمارة اليهودية، وهي الاخرى اشارة للاستقرار والتعايش السلمي فلولا الاطمئنان لا يمكن ان نجد الابداع، فاليهود شئنا ام ابينا كان لهم دور في تراث العراق المعماري والفني والثقافي، ولهم في البلاد ما لكل الاديان الاخرى لذا نجد الروائي يستعين بالتاريخ ليحقق الوظيفة النفعية لاسيما في وصف الاماكن التي تشكل تراثا كوصف بيت العجوز ايليشيو وسبب طمع فرج الدلال به ((بيت بناه اليهود على الأرجح، أو على وفق العمارة التي كان يفضلها اليهود العراقيون؛ حوش أو باحة داخلية محاطة بعدد من الغرف على طابقين، مع سرداب تحت الغرفة اليمنى المطللة على الزقاق. هناك أعمدة من الخشب المضلّع تسند سقف الممر أمام الغرف في الطابق الثاني، وتصنع مع السياج الحديدي المطعم بمساند خشبية مزخرفة ذات الفردتين بمزاليجها الحديد والاقفال والشبابيك الخشبية المدعمة بقضبان اسطوانية داكنة وزجاج ملون، والأرضية المكسية بطابوق القرشي البديع)) (السعداوي، ٢٠١٤: ٢٠).

يستعين الروائي باللغة الوثائقية والوقائع التاريخية ليشكل بناء نصه الذي تتحول فيه الوثائق والوقائع إلى جزء مهم من الخيال الروائي، حتى إننا نجد التوثيق لا يشكل فقط أحداثاً وأماكن مؤرخة بل إنها شكلت أسلوباً يحمل دلالات

تضاف إلى واقع اللغة السردية، فهي تاريخ واقعي ضمن تاريخ متخيل، فوصفه للمكان لم يكن وصفاً عابراً لمليء مساحة السرد بقدر ما كان يحمل دلالة واضحة زمن تاريخي مثل التعايش الحقيقي بين الاسلام واليهود فهذا الوصف يؤكد الوعي والانتماء للشخصيات اليهودية ولعل الحفاظ عليها شاخصة هو تأكيد على عودتهم او التخطيط لعودتهم

ويتبنى علي بدر في روايته (حارس التبغ) فكرة البحث عن التعايش على نحو مختلف، فقد اصبحت ملاذاً للعديد من الاشخاص الذين هجروا وطردوا قسراً من اوطانهم، إذ يضطر عازف الكمان يوسف صالح اليهودي الى التكر بعد ان هُجّر في الخمسينيات الى اسرائيل ولم يستطع العيش فيها لارتباطه الروحي بالعراق لتبدأ رحلته بالتنكر والهروب الى ايران منتحلاً شخصية شيعية ومن ثم تكوين عائلة، بقي في طهران لاجئاً مدة سنة، و بعد الثورة الايرانية وصعود الاسلام السياسي، وظهور والتوجهات الدينية المتشددة. هرب إلى دمشق بجواز سفر مزور باسم "كمال مدحت" وتقمّص شخصية عراقية سنّية في بلاد الشام، وتزوج من عراقية ثرية اسمها نادية العمري من مدينة الموصل، وأنجب منها ابنه الثالث "عمر فيعود للعراق ويتقرب من السلطة التي وفرت له الحماية فأصبح احد اهم الموسيقيين، الى ان قتل عام ٢٠٠٦.

فشخصية يوسف اليهودي الذي كان ((غريباً عن كل ما يحيط به.. كان الكل يصرخ به أن عليه ان يتطابق مع دوره، وكان هو يريد ان يتطابق مع الموسيقي، الموسيقي لا دين له، الجمال يدعو للتطابق مع شيء اثري، مع اله لا مع الزي العسكري)) (بدر، ٢٠٠٨: ١٥٣)، لكنه يقبل التخفي برضاه من اجل العودة الى ارضه والتعايش انسانياً بعيداً عن الدين، وهذا ما خلق صراعاً بين رغبة الوجود الانساني وبين هيمنة الافكار المتطرفة التي تتسلط على الواقع

فيوسف يرفض لعبة الاقنعة التي تفرضها السياسية في حين الموسيقية والجمال ((ترفض ذوبان كل شخص في الدور، انت يهودي عليك ان تلعب دور اليهودي وتأخذ قناع اليهودي، انت مسلم عليك ان تلعب دور المسلم وترتدي قناع المسلم، انت مسيحي، عليك ان تلعب دور المسيحي وترتدي قناع المسيحي وهذه

الاقنعة تيسر للمرء ان يعيش في المجتمع، غير ان رفض القناع يبقي الفنان غريباً على الدوام (((بدر، ١٥٣:٢٠٠٨)

فقد استطاعت الشخصية اليهودية ان تتعايش في المجتمع الاسلامي وهي متكررة، وهذا يدل على تقبل الآخر انسانياً ورفضه دينياً، وهذا يناقض فرضية التسامح والاقرار بحقوق الآخرين في العيش بسلام.

ويجسد الروائي زيد الشهيد في روايته (افراس الاعوام) التعايش بين الاديان من خلال عرض للصدقة الانسانية القائمة بين شخصية جعفر وساسون اليهودي وصديقه الياس من مدينة الموصل، اذ تبين الرواية الحب والانسجام بين مكونات المجتمع وتآلف الاديان.

فشخصية جعفر هي محور الحكى في الرواية، اذ يروي تاريخ مدينة السماوة وما مرت به من احداث ووقائع بعد عام ١٩٥٨ وما طرأ عليها من تغييرات في المجتمع الحاضن من حيث الصراعات الفكرية والنفسية، فكانت سجلاً حافلاً لفترة زمنية مثقلة بالأحداث والتحويلات المصيرية، لذا نجد الروائي يسلك الضوء على شخصياته ووصفهم ووصف اماكنهم ليجعلك تتدمج في ازماته المتتالية ليجعلك تشهد جمالية العلاقات الانسانية بين الاديان المختلفة حيث كانت الرسائل تتداول بين شخصية جعفر وصديقه اليهودي (ساسون) (الشهيد، ٢٠١١: ١٥٣) التي تعكس روح الاخاء وما كان يتمتع به جعفر من وعي ثقافي وما كانت تمتاز به مدينته السماوة من وعي حضاري وراقي في مواجهة التقاليد البالية.

أما الكاتبة ميسلون هادي في روايتها (حفيدة البى بي سى) تستعين بالذاكرة لتسرد احداث تهجير (اليهود) من العراق: ((في الأربعينيات كان الوضع متوتراً في بغداد وقد انفجرت قنبلة صغيرة في ركن اليهود الذين كانوا يجلسون فيه بمقهى الشط الواقع نهاية شارع النهر، فقال ممتاز إن ذلك إنما هو لدفع اليهود إلى الهجرة إلى اسرائيل، حيث كان أغلب عازفيه من اليهود، فهرب الكثير منهم إلى اسرائيل وخاصة (خضوري) بائع متجر الذهب، ويوسف حورش، وصالح الكويتي وغيرهم)) (هادي، ٢٧: ٢٠١١-٢٨).

يحاول الراوي ان يعرض لحقائق تاريخية تتمثل بالمخطط الصهيوني الذي اجبر يهود العرب على الهجرة من بلدانهم الى فلسطين، وفي العراق ايضا تعرضت الاقلية اليهودية للتهجير ذاته، ولم يكن النص ليوضح ذلك فحسب بل جعلنا الراوي امام ثقافة تلك الطائفة التي تعد اقدم الطوائف اذا كانت تمارس اشكال الفنون المختلفة من عزف وغناء وتمثيل، فقد مثلوا العراق في محافل متعددة في الحقبة التاريخية التي سبقت مرحلة التهجير، فقد كان الاستقرار والتعايش بين المسلمين واليهود سمة من سمات المجتمع العراقي.

٣- التعايش بين الاسلام والصابئة واليزيدية

تمثل الصابئة المندائية جماعة عرقية ودينية لهم رموزهم وطقوسهم التي تمثل هويتهم، وفي العراق كان لتلك الديانات مطلق الحرية في ممارسة طقوسهم والتعايش بسلام مع الديانات الرئيسة في العراق والتي يمثلها الاسلام والمسيح، والمندائيون اثر من آثار التاريخ الحية فوجودهم يذكر بأنبياء ورسول نسخت الاديان المتعاقبة شرائعهم، ولم يبق منهم غير صف نوح وابراهيم.

وينسب للمندائيين قولهم: انهم اقدم ديانة سماوية على وجه الارض، وان كتبهم هي صحف سادة البشر الاولين: آدم وادريس ونوح، يرفعهم الى مصاف بدايات الاديان والشرائع الموحدة في التاريخ، لذا يصعب معرفة مؤسس لها (الخيون، د.ت: ٢١).

والرواية العراقية لم تغفل خصوصية تلك الديانات وعلاقة الاسلام بهم انسانيا بعيدا عن تحكمات السلطات، ففي رواية (اوراق سيدة الشجر) لعبد الزهرة علي نجد الراوي يعرض علاقة الصداقة بين شخصية سلمى المسلمة وشخصية سميرة الصابئية، فبعد خروجهما من السجن حاولت سلمى البحث عنها وزيارتها في البياح وذلك في يوم (الكرصة) وهو العيد الكبير للصابئة وقد ذهبت معها لنهر دجلة لتشهد طقوس اعيادهم: ((كان اريج يطفح في المكان.. نزلنا منحدرًا الى الشريعة دخلت سميرة الى غرفة تبديل الملابس، خرجت بعدها بحرر ابيض ويضع عمامة بيضاء على رأسه، غطسها في الماء ثم غرفات من الماء الجاري وسكبها على رأسها وهو يتمتم بكلمات لم اسمعها بعدها.. بارك وتمنى لها امنيات

متعددة)) (علي، ٢٠١٤: ٩٦)

((جلسنا مع العوائل تحت ظلال الأشجار .. تناولنا غداءنا المكون من السمك والبط والتمر والخضروات.. كان يضج بالفرح والسعادة))(علي، ٢٠١٤: ٩٧)

نجد الروائي يوضح قضية العلاقات المختلطة بين شخصيات تنتمي إلى ثقافات وعقائد مختلفة في المجتمع، فالنص يعكس حمولات ثقافية تحقق الانتصار للهوية الكبرى من خلال تقارب الأديان وتحقيق شعور الانتماء والمواطنة.

اما من الجانب السلبي نجد الروائية لطيفة الدليمي تقدم صورة من التراث تقارب بها صورة سبي النساء

الايديديات في سنجار: ((كم تغيرت أحوال العالم على مر العصور، لكن بقي سبي النساء قائماً في الحروب الدينية والطائفية والعرقية لإذلال العدو باغتصاب نساءه: تخيلت نفسها سبية لدى جماعة متشددة كما حصل للنساء الايزيديات عند احتلال العصابات المجرمة للقرى في سهل نينوى وسنجار، لا لا، الموت هو الحل الوحيد لذل العبودية، كنت سأنتحر، ولكن لماذا لم تنتحر الجواري والعبداً؟؟ لا تذكر القصص ولا مدونات التأريخ شيئاً عن ذلك؛ فمدونوها هم الرجال ولا تعنيهم قصص جارية أو عبدة رافضة للذل)) (الدليمي، ٢٠١٦: ٢٧٠).

فالروائية تستعين بالأحداث التاريخية وتسלט الضوء على المسكوت عنه من حيث التطرف والتعصب والتعنصر الديني بحق الاقليات، ومن ثم عرضت بلغة انفعالية لأحداث سبي النساء من قبل العصابات المتطرفة، وهو حدث لا يمت للتعاشيش بين الأديان بصلة، وهو سلوك مخطوء أرادت من خلاله الكاتبة ان توضح الاهداف الاستعمارية في زرع ثمار التخلف والاذلال في المجتمعات

ومن هنا نود القول ان حقيقة الأديان السماوية هي اديان مسالمة تدعو للتسامح والتقارب، والحفاظ على حقوق الآخرين وتطبيق الواجبات المناطة بكل

إنسان، فضلا عن دعوتها للألفة والمودة والتفاهم من العيش المشترك لكن من يشوه هذه الحقيقة هي السلطات المهيمنة التي تحاول ان تغذي العقول بما هو مخطوء من أجل الهيمنة المستمرة وسوق الازدهان الى مصاف التخلف والصراع الذي لا طائل منه، والخاسر الوحيد هم افراد المجتمع نفسه.

لذا فان الروايات المنتخبة وغيرها من الروايات التي لم يسعفني الوقت لإدراجها حملت على عاتقها توعية القارئ لحقيقة التعايش بين الاديان في العراق الذي يتميز عن غير بأنه كان الحاضن لكل الاديان وكان مثالا للحاضن الثقافي الذي منح لكل دين حريته في ممارسة طقوسه.

ومن خلال عرض المواقع التي تضمنت فكرة التعايش وجدنا انها استمدت من الذاكرة الثقافية والتاريخية لواقع الشخصيات العراقية في حقبة زمنية سبقت زمن السرد، اعتمد فيها الراوي على تقنية الاسترجاع وتقنية المخطوطات والحوار عن ازمة مضت، وهي محاولة لمقارنة الواقع الذي رسمته القوة الاستعمارية والسلطات المتنفة المتمثلة بالعنف والتطرف الديني الذي خلق بدوره روح النزاع وضياح الهوية الوطنية وقضى على روح الاخاء بين الاديان التي نادى بها الدين الاسلامي والديانات الاخرى.

ولعل من المثير ان نجد حقبة زمنية امتدت من ١٩٤٨ الى ٢٠٠٣ كان فيها ضمور حقيقي لفكرة التعايش بين الاديان لاسيما في العراق وهو وقت ليس بالقليل علما ان الاحداث التي وردت في الروايات هي احداث مثلت واقع تاريخي سابق وهذا ما جعلني ابحت في تلك القضية، واذا افاجأ بوجود قرار دستوري في اذار عام ١٩٥٤ يقيد حرية التعبير ويضع شروط على حركة الاقلام في العراق.

وعليه فان أصل العلاقات بين الاديان تقوم على احترام الآخر وليس نبذه فالأديان لا تحرض على القتال الا للدفاع عن النفس فهي تدعو للابتعاد عن الفرقة والتعصب في التعايش مع الشعوب والثقافات والديانات المختلفة.

لعلنا لا نغفل عما لأهل الكتاب من الديانات السماوية (اليهود والنصارى) من منزلة خاصة لاسيما من حيث تعامل المسلمين معهم وحمايتهم وحفظ حقوقهم وحريتهم بالتدين جعل التعايش الانساني هو أصل للتعايش الديني منطلقين من

مبدأ (الدين المعاملة) فالعمل القائم على احترام الآخر وتقبله سيحقق في المقابل تقبلنا من الآخر وكسب وده واحترامه

ولتحقيق فكرة التعايش لآبد من مقومات اهمها الحوار وتجنب الخلافات وتقبل الآخر وتعزيز السلم الاجتماعي والاخلاقي من خلال تعميق الفضائل للوصول الى الرقي الحضاري، فضلا عن التكامل الاجتماعي ولآبد من الابتعاد عن معوقات التعايش لاسيما الارهاب والعنف وخطابات الكراهية والتحريض والتعصب والعنصرية والطائفية والقبلية.

المصادر:

• القرآن الكريم

الروايات:

- انطوان، سنان (٢٠١٢) يامريم، بيروت -بغداد - منشورات الجمل.
- بدر، علي (٢٠٠٨) حارس التبغ، بيروت - المؤسسة العربية للدراسة والنشر.
- حسن، اسماء (٢٠١٧) لعينيك.. حكاية -رواية حب في زمن الغياب، بغداد -دار الزاوية للطباعة.
- الدليمي، لطفية (٢٠١٦) عشاق وفونوغراف وأزمنة، بغداد - دار المدى.
- السعداوي، احمد (٢٠١٤) فرنكشتاين في بغداد، دار الجمل - بيروت.
- الشهيد، زيد (٢٠١١) افراس الاعوام، سوريا - دار تموز.
- علي، عبد الزهرة (٢٠١٤) رواية اوراق سيدة الشجر، بغداد - دار الشؤون الثقافية العامة.
- كجة جي، انعام (٢٠٠٩) الحفيدة الامريكية، بيروت، لبنان -دار الجديد، ط٢.
- ممدوح، عالية (٢٠١٣) الأجنبية، بيروت - دار الآداب.
- هادي، ميسلون (٢٠١١) حفيدة ال(بي بي سي)،الاردن - المؤسسة العربية للدراسات والنشر دار الفارس.

الكتب:

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ)، (١٩٨٤)، المقدمة، ط٥، بيروت - دار القلم.
- ابن منظور (٧١١هـ)، (د.ت)، لسان العرب بيروت - دار صادر التراث العربي.
- انيس، ابراهيم وآخرون (١٩٧٢) المعجم الوسيط، ابراهيم، ط٢، القاهرة.
- باحثين عراقيين (٢٠٠٨) المواطنة والهوية الوطنية، بغداد - معهد الأبحاث والتنمية

الحضارية.

- بعلي، حنفاوي (٢٠٠٧) مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن، حنفاوي بعلي، الجزائر - منشورات الاختلاف.
- بن سيف، ناصر، التعايش، انواع نماذج تطبيقية، التعايش الوطني والحضاري، بحث منشور على الموقع، <https://Lalukah.net>
- الحنون، رشيد (د.ت)، الاديان والمذاهب، بغداد - منشورات روح الامين.
- دوبار، كلود (٢٠٠٨)، أزمة الهويات، تفسير تحول، ترجمة:- رندة بعث، لبنان - المكتبة الشرقية.
- راهي، قيس ناصر (د.ت) صدام الحضارات، دراسة نقدية جينالوجيا المفهوم، سلسلة مصطلحات معاصرة، ع٣، العتبة العباسية المقدسة - المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية.
- زيدان، عبد الكريم (١٩٦٣)، أحكام الذميين والمستأمنين،، بغداد - دار الإسلام.
- الشريف، محمد موسى (٢٠٠٦) التقارب والتعايش مع غير المسلمين، دمشق - دار ابن كثير.
- الغرباوي، (٢٠٠٣)، التعايش السلمي في عصور الدول الإسلامية، سريلانكا- كولومبو.
- مبارك، هاني وابو خليل، شوقي (١٩٩٦)، الاسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب، دمشق - دار الفكر.
- النويجري (١٩٨٠)، الاسلام والتعايش بين الاديان في افق القرن الحادي والعشرين، ايسيسكو - منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

الدوريات:

- الدرّش، السيد متولي، (١٩٧٩)، الحوار الإسلامي المسيحي ووجهة نظر إسلامية، مجلة البحوث الإسلامية، الرياض - الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والاقتاء والدعوة والإرشاد، العدد الخامس، السنة الثانية.
- الشمري، رشيد حسين، (٢٠١٧)، الخطاب الديني والتعايش السلمي، مجلة الباحث الاعلامي، جامعة بغداد - كلية الآداب.
- ليلة، علي، (٢٠١٢)، الدين والحاجة إلى التمسك الاجتماعي - دور الرمز في الأديان عموماً، الكويت - مجلة عالم الفكر.

الإعلامية في أشعار أبي تمام الخلافية

أ.م.د. كريم علي عبد علي

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

أ.م.د. ندى سالم عيدان

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

مقدمة:

تعد الإعلامية أحد المعايير السبعة التي وضعها روبرت دي بوجراند للنص، إذ أنصب اهتمامه على إنتاج النص، وتلقيه، والنص لا بد أن يحمل في طياته دلالات تحمل بمضمونها أخباراً تختلف باختلاف النصوص الشعرية، والشعر شكل من أشكال العملية الاجتماعية، مما يجعله يمتاز بالتعبير عن الغرضية، والتفاعل معاً، أي أن له شكل تواصل يندمج على القصد أو التدبير كما يندمج على التفاعل، والمساهمة في توليد خلق جديد.

والشاعر أشبه بالمصور الفوتغرافي، يلتقط لنا صوراً يمزج فيها ألواناً من حياته، ومن مذهب الفكرية، والدينية بأسلوب قائم على الحجة والبرهان، وهذا الشعر يعد صورة جمالية، يكون وثيقة تاريخية، وإعلامية مهمة، فهو يحمل قيمة دلالية مهمة في نواحي الحياة.

إن انتقاء الألفاظ، والعبارات، وكيفية نسجها داخل النص ترتبط بشكل كبير بالمحيط الثقافي الذي يحيط بإنتاج الكلام، والذي يكشف عن علاقة اللغة بمستعملها، فكل مبدع له طريقة خاصة في إدراك العالم عن طريق تجربة فردية، لكن عند التعبير عنها يكون مشتركاً مع المتلقي؛ كونه عنصر فعال، وأساسي في العملية الإبداعية، وعليه فإن معيار الإعلامية للغة يتحقق من خلاله مدى التواصل بين منتج النص، ومتلقيه؛ لأنها تشير إلى ما يحمله النص من معلومات تفيد السامع أو القارئ، وهي بذلك تفصح عن درجة جمالية النص وإبداعيته.

يحمل النص مجموعة من الدلالات ينبغي على المتلقي إجلائها، والكشف عنها؛ كونه طرفاً هاماً من أطراف العملية الإبداعية إذ يشكل سلطة عليا إلى جانب سلطة النص، فالمبدع يحاور متلقيه من خلال نصه، ويسعى إلى التأثير

فيه عبر كيفيات، وسبل يصل من خلالها إلى تحريك نفسه، والتفاعل بينه، وبين نصح؛ لأن كل نص جيد يمتلك وظيفة إخبارية تأثيرية.

ارتأيت ان أجعل مدار بحثي حول تطبيق معيار الإعلامية بوصفها معيارا يبحث عن مقدار المعلومات الجديدة الخارجة عن احتمالات التوقع من حيث المعاني، والدلالات في أشعار أبي تمام التي أختلف النقاد حولها من حيث الجودة أو الرداءة، والغوص بين خبايا تلك النصوص بالتحليل، والتنقيب، واستخراج ما حافظ على ديمومة جمالها، وبقاءها. لذا سوف تقتصر الدراسة على سمتين ضمت تحت طياتها أغلب سمات الإبداع الأدبي، فكانتا موضع خلاف في أشعار أبي تمام يسبقها تعريف لدلالة الإعلامية ضمن نطاقها اللغوي، والاصطلاحي، وهما:

١- الغرابة والغموض في المعاني.

٢- الاستعارة البعيدة.

الإعلامية بوصفها معيارا نصيا:

يحتوي كل نص أدبي على أخبار حول موضوع محدد يسعى المتلقي الى الكشف عنه، وهو فيه لا ينطلق من فراغ؛ لأنه يستدعي من ذاكرة التخزين الفعال ما يساعده على مد جسور التواصل بينه وبين النص، فهو يسهم في إنتاج نص جديد بما يولده من دلالات جديدة عن طريق تفاعله بين العناصر المتوقعة، وغير المتوقعة التي ترفع من درجة إعلامية النص.

الإعلامية لغة: أعلم إعلاما علم الخبر أو به. وأعلم الفرس: علق عليها صفوها ملونا علامة لها في الحرب. ولأعلم مفرد علم جمع علماء أكثر علما ومعرفة. (ابن منظور، ٢٠٠٣م، صفحة ١٢ / ١٤٠)

الإعلامية اصطلاحا:

الإعلامية أو الإخبارية أو المعلوماتية، وهي إحدى المعايير التي وضعها روبرت دي بوجراند للنص وهي "مدى ما يقف عليه المتلقي من عناصر جديدة أو غير متوقعة عند اتصاله" (أبو غزالة و حمد، ١٩٩٩م، الصفحات ٣٢-٣٣)، لذلك يشترط هذا المعيار وجود (المتلقي)؛ كونه العنصر الفعال في:

أولاً: إنتاج النص.

ثانياً: بيان نسبة الوضوح، والغموض فيه.

ثالثاً: الربط بين درجة الغموض، واحتمالية النص، واحتمالية وجود البدائل الافتراضية للألفاظ.

والإعلامية بوصفها معياراً نصياً يعتمد على الجودة، والتنوع التي توصف بها المعلومات، وعلى مدى إثارتها لنباهة المتلقي، وكسب انتباهه.

وتتشترك كل النصوص بأنها تحمل قدراً من المعلومات، والدلالات تسعى في تبليغها إلى المتلقي؛ لتحقيق له الإحاطة الكاملة حول الموضوع، والتي تهدف من خلالها إلى التواصل بين منتج النص (الأديب)، و متلقي النص (المخاطب)، وهذا القدر من المعلومات يسمى بـ (الإعلامية) ويكون على درجات مختلفة، إذ يشحن كل نص درجة من الإعلامية يحددها منتج النص، و متلقيه معا" وهي العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصية، فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند لاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكل نص إعلامية صغرى على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع" (دي بوجراند، ١٩٩٨م، صفحة ١٠٥) نعني بذلك الدلالات الجديدة التي يتوخى الأديب إيصالها للمتلقي، فإن كان المتلقي يتوقع هذه الدلالات، فالنص يوصف بالحد الأدنى من الإعلامية. أما إذا كان المتلقي لا يتوقع هذه الدلالات الجديدة إلا بعد استخدام حدسه في الكشف عن ما أضمّر تحت عباءة النص من الخروج عن المؤلف، ومخالفة الواقع في التعبير، فإنه يوصف بأنه أكثر إعلامية بما يحويه النص من (جودة وإبداع وعدم التوقع)، وبذلك نستطيع أن نفرق بين النص الاعتيادي، والنص الإبداعي من خلال مقدار إعلامية؛ لأن مقدار الإعلامية هو الذي يوجه اهتمام السامع إذ يمكن أن تقود الإعلامية إلى رفض النص، إذا كان هذا الأخير يحمل حداً منخفضاً من المعلومات، وحرى بالإعلامية أن تدلّ على (الجدة والتنوع) الذي توصف به المعلومات التي تشكل محتوى الاتصال في نص ما (دي بوجراند، ١٩٩٨م، صفحة ٢٤٩).

مفهوم الإعلامية في الموروث النقدي، والبلاغي عند العرب:

مهما دار المشهد النقدي الحديث في دوامة التغيرات، فهو أولاً يأتي من

النظرية العربية القديمة للأدب، ومن الإطروحات الكبرى التي طرحها النقاد العرب عندما مارسوا نصوصهم، وأصدروا نتائجهم النقدية، والنقد العربي اليوم مهما كان إعتماده أو إطلاعاه على المعرفة الحديثة في النقد والاتجاهات، والتطورات الحديثة، فلا بد أنه يستحضر هذا الموروث، وما فيه من مواقف مهمة، والملح الأساسي أنه لا قطع بين الموروث النقدي القديم، والموروث اليوم، بل هو إمتداد، ومحاولة لجعل النقد العربي القديم بما يكتسب طرقاً في القراءة الجديدة، جعله النقد قادراً على أن يقرأ النصوص الحديثة.

ترتبط الإعلامية بالمبدع، وما يُريد تبليغُه، وغايته من كلامه، وقد ناقش العرب الإعلامية تحت مصطلحات أكثر عمقا ودقة، فقد أكد الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) أن الوظيفة الإفهامية قائمة على الفهم والإفهام كشرط أساسي لكل خطاب لغوي، وهو ما نلمسه في قوله: " على قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح، وأفسح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع (...). والبيان أسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى (...). لأن مدار الأمر، والغاية التي إليها يجري القائل، والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع" (الجاحظ، ٢٠٠٩م، صفحة ١ / ٥٦).

لم يقصد الجاحظ جعل لفظ (البيان) مصطلحا علميا مستقلا بذاته، وإنما جعلها لفظ تتوسط معنى أي حمل البيان معنيين:
الأول / التبيين _____ (معنى عام) ظاهري.
الثاني / التبيين _____ (معنى خاص) مضمّر يُستحصل نتيجة جهد شخصي.

وبذ لك تكون العملية الإبداعية متكونة من:

(المبدع/ المُفهم) _____ (العمل الإبداعي/ النص الأدبي) _____ (المتلقي/
المُفهم)

أما ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ)، فقد طوق شاعرية الأديب بمدى ما يحققه من

تأثير في المتلقي، وتحريك لكوامن نفسه الداخلية حتى يظهر التفاعل الفني بينه وبين النص، إذ سلبت أضوائه على العلاقة التواصلية بين المبدع والمتلقي، فأى عمل أدبي غايته إحداث تواصل بينهما وهي تنتج عن:

متلقي (مبدع) _____ رسالة (تحتوي على قيم جمالية نفعية) _____ المتلقي (قوة الإثارة)

يبدأ العلوي بتوجيه المبدع في تدقيق صناعته والاهتمام بثقافته كي يكون على تواصل مع متلقيه من خلال ما يحققه من تأثير كبير في نفسه (ابن طباطبا، ١٩٥٤م، صفحة ١٤)، ويحدد درجات تأثير الشعر في المتلقي بقوله " والشعر على تحصيل جنسه، ومعرفة أسمه متشابه الجملة متفاوت التفاصيل مختلف كاختلاف الناس في صورهم، وأصواتهم، وعقولهم، وحظوظهم، وشمائلهم، وأخلاقهم فهم متفاضلون في هذه المعاني، وكذلك الأشعار هي متفاضلة في الحسن...، ومواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم، واختيارهم لما يستحسنونه منها، ولكل اختيار يؤثره، وهوى يتبعه، وبغية لا يستبدل بها، ولا يؤثر عليها " (ابن طباطبا، ١٩٥٤م، صفحة ١٠)، ويعزوها الى أسباب تعود إلى:

أولاً: تفاضل الأشعار في نسبة جمالها (إبداعيتها).

ثانياً: اختلاف القدرات العقلية بين المتلقين، وكذلك اختلاف أذواقهم، وميولهم النفسية.

ويشير ابن طباطبا الى دور (الإعلامية) في التأثير على سلوكية المتلقي في حالة إدراكه للشعر، فعيار الشعر عنده هو " أن يورد على الفهم الثاقب، فما قبله، واصطفاه فهو واف، وما مجه ونفاه، فهو ناقص " (ابن طباطبا، ١٩٥٤م، صفحة ١٩)، وهو بذلك يثمن ما للنص من درجة إعلامية تجعله بين القبول، والرفض عند المتلقي.

وقد تجاوز أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) مسألة الإفهام السطحي (الإعلامية الظاهرية) للنص بقوله: " أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما غملت لإفهام المعنى فقط؛ لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل

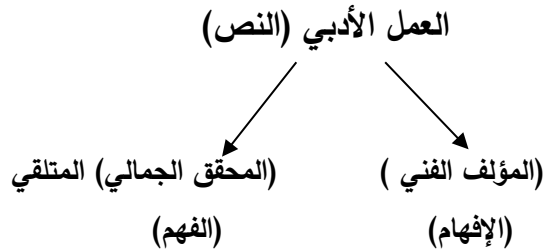
حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه " (العسكري، ١٩٧١م، صفحة ٥٦) إذ سلط العسكري أضواءه النقدية على قضيتين:

١- الأولى: قضية (الفهم والإفهام) إذ خص مسؤولية الإفهام على المتكلم (المبدع) الذي يعمل على نقل تجربته أو معاشيتها عبر وسيط اللغة، أما (الفهم)، فهي الغاية التي يشهدها القارئ عن كل قراءة أدبية إذ يقع عليه عبء فك شفرات النص، وثيماته الفنية.

٢- الثانية: رصد العسكري مواطن إبداع النص، وسلط الأضواء عليها، وخصها في:

- أ- حسن الكلام.
- ب- إحكام الصنعة.
- ت- رونق اللفظ.
- ث- جودة المطلع.
- ج- حسن المقطع.
- ح- بديع المبادي.
- خ- غريب مبانيه.

هذه الأوصاف السبع حددها العسكري، وجعلها شروطاً لنجاح إعلامية النص الشعري، وأكثرها ترجع الى اللفظ دون المعنى؛ لأن هدف المبدع من إنتاج نصه هو تحقيق ديمومته، ويظهر ذلك في مقدار إبداعه الفني الذي يقيمه المتلقي على مر الأزمنة، والعصور أي:



ويشترك ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) مع أبي هلال فيما ذكره أنفا بقوله:

" لا يخلو أن يكون المعبر عن غرضه بالكلام يريد إفهام ذلك المعنى أو لا يريد إفهامه، فإن كان يريد إفهامه، فيجب أن يجتهد في بلوغ هذا الغرض بإيضاح اللفظ ما أمكنه، وإن كان لا يريد إفهامه، فليدع العبارة عنه، فهو أبلغ في غرضه" (الخفاجي، ١٩٧٦م، صفحة ٣٣٠).

إن بلوغ الغاية الإفهامية الإخبارية (الإعلامية) عند ابن سنان قائمة على اجتهاد المتكلم (المبدع) في إيضاح لفظه.

اجتهاد المبدع _____ (إعلامية عالية)

ويفرق أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) بين الخطاب الأدبي، والخطاب الاعتيادي، وذلك بجعل البلاغة مستوى تحسيني للإفهام، إذ يقول: "الإفهام إفهامان: رديء، و جيد، فالأول لسفلة الناس؛ لأن ذلك غايتهم، وشبيه برتبتهم في نقصهم، والثاني لسائر الناس؛ لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع، فأما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد بالوزن، والبناء، والسجع، والتقفية، والحلية الرائعة، وتخير اللفظ، وإحضار الزينة بالرقّة، والجزالة، والحلاوة، والمتانة، وهذا الفن لخاصة الناس؛ لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام، والتوصل إلى غاية ما في قلوب ذوي الفضل بتقويم البيان)) (التوحيدي، ١٩٩٢م، صفحة ١٢٢).

وهذا الكلام يفرق فيه التوحيدي بين صيغتين إعلاميتين:

الأولى: (الإعلامية الصريحة) المتحققة في (الخطاب الاعتيادي) التي تحمل الحد الأدنى من الإعلامية، ويتحقق هذا المستوى فيما سماه النقاد القدامى بالبيان أو الإفهام؛ والغاية منها إيصال الفكرة أو المعلومة المقصودة .

الثانية: (الإعلامية المضمرة) المتحققة في (الخطاب الفني)، وسميت حسن الإفهام، أو حسن الإفادة الجيدة من خلال الخصال: (الجيد بالوزن، والبناء، والسجع، والتقفية، والحلية الرائعة، وتخير اللفظ، وإحضار الزينة بالرقّة والجزالة والحلاوة والمتانة) هذه الخصال جعلها التوحيدي أساس التحقق الجمالي في الآخر (المتلقي)؛ والعلة وراء اصطلياد الغاية الكامنة.

وبذلك يتفق النقاد القدامى الذين صرحوا في خطاباتهم بأن كل نص يجب أن

يحتوي على فائدة أو إخبارا تقدم إلى المتلقي؛ لينتفع به على نحوٍ ما. أما إذا قدمت تلك الفائدة أو ذلك الإخبار بطريقة إبداعية غير مألوفة عند ذلك يتصف النص بالجدة، والإبداع يهدف إلى إمتاع المتلقي وإفادته، وهذا ما نجده عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) عندما قسم المعاني إلى مقاصد منها:

الأولى: (الظاهرة) _____ (المعنى).

الثانية: (الخفية) _____ (معنى المعنى).

ويقصد بالمعنى "المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و(بمعنى المعنى) أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر (الجرجاني، ١٩٩٢م، صفحة ٢٦٣)، وبذلك يتضح فضل النقد، والبلاغيون العرب القدامى في وضع اللبنة الأساس لآلية بناء هيكلية النص بدءاً من المبدع، وإنهاء بالمتلقي، ومع ما أطلق عليه فيما بعد بـ (الإعلامية أو إعلامية النص الأدبي)، والتي عدت معياراً أساسياً من معايير علم النص الحديث.

آلية إعلامية النص الأدبي عند أبي تمام:

تتسم اللغة الأدبية بميزات تسمو بها على الاستعمال اللغوي المألوف، والتوصيل هي غاية الاستعمال اللغوي الشائع، بينما تتضمن اللغة الأدبية وظيفة التوصيل ثم تتعداه إلى تحقيق وظيفة فنية ذات بعد جمالي يعبر عنه بمصطلحات الحسن، والإمتاع، والطرب. ينظر (البحيري، ٢٠٠٠م، صفحة ٣٣).

تمكن النقاد، والبلاغيون العرب القدامى من تحديد السمات التي يتسم بها الخطاب الأدبي الإبداعي إذ أوجب أن تتصف اللغة الشعرية والأدبية بخصائص تباينها عن اللغة في الاستعمال العادي، فالجميع مقر بأن لغة الشعر تختلف عن لغة الحديث اليومي، والمخاطبات التي تجري بين الناس، إذ تتسم هذه اللغة بصفات فارقة يعدل فيها الشاعر عن اللغة المألوفة إلى لغة من نوع خاص لها من الشموخ الفني الأدبي، والموهبة الفذة التي تأسست منها، وامتاز بها عن الآخرين، وهذا يعني أن للنص الأدبي طبيعة خاصة تجعله متميزاً عن بقية النصوص سواء فيما يتعلق بنوع اللغة أو بنوع العلاقات التي تجعل كل كلمة مؤتلفة مع الأخرى.

أولاً: إعلامية الغرابة والغموض في أشعار أبي تمام:

يعد المؤلف صاحب سلطة على النص لحظة الإبداع، وبعد الإنتاج تنتقل السلطة الفعلية إلى النص؛ ليبوح عما فيه من إشارات مفتوحة على عدد غير متناه من المشيرات، والمضامين، فيكتسب قيمته، وخصوصيته، وبعدها ينتقل إلى المخاطب الذي يرتبط بمعيار الإعلامية؛ ليكشف عن نسبة الغموض، والوضوح في داخل النص، ثم يربط بين درجة الغموض، واحتمالية النص، وإمكانية وجود البدائل الاقترانية للألفاظ (دي بوجراند، ١٩٩٨م، صفحة ١٠٤).

إن الكشف عن سمة الغرابة، والغموض في أشعار أبي تمام الخلافية من شأنه أن يكون سبباً في إعادة النظر فيها، إذ سيء الظن في تقدير قيمتها الإبداعية بحجة غرابة معانيها، وغموضها، وخلافها لمفاهيم القدامى، فالغموض مقوم من مقومات شعره لا حدثاً عارضاً فيه؛ لما يحويه من صورة إيحائية، وتأثيرية في المتلقي، وهذا بدوره يفضي بنا إلى مزيد من التفاعل المثمر مع تجاربه الشعرية الراقية، وزيادة الاستفادة مما تضمنتها من عناصر إعلامية نتجت عن فن، وفكر، وإبداع، وبدوره أبقى لشعره مكانة تميزه عن الآخرين.

وقبل اللجوء إلى دراسة ظاهرة الغرابة، والغموض في أشعار أبي تمام الخلافية ينبغي أن نعرف بهما لغة، واصطلاحاً.

الغرابة لغة: هي البعد و "الغرابة والغرب النوى والبعد...، والخبر المغرب الذي جاء غريباً حادثاً طريفاً...، وغرب أي بعد" (ابن منظور، لسان العرب، ٢٠٠٣، الصفحات مادة غرب ١ / ٦٣٨-٦٣٩)، والغامض جمعه غموض، وأغماض، وهو خلاف الواضح من الكلام (الفيروز ابادي، ١٩٨٧م، صفحة مادة غمض ١ / ٨٣٧).

الغرابة اصطلاحاً: يقول الخطابي (ت٣٣٨هـ) "إن الغريب من الكلام، إنما هو الغامض البعيد من الفهم، كالغريب من الناس يستعمل على وجهين: أحدهما أن يراد به بعيد المعنى، غامضه، ولا يتناول به الفهم إلا عن بعد، ومعاناة، وفكر، والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت الكلمة من لغاتهم استعزناها" (الهروي، ١٩٦٤م، صفحة ١ / ١).

المقدمة)، وأشار النقاد الى شكلين من الغرابة:

أولاً: الغرابة في الألفاظ: هذا النوع من الغرابة يتعلق باللفظة ذاتها، وهو أمر مرفوض من النقاد بالإجماع؛ لأنه يؤدي الى تعمية المعنى، وعدم الإفهام، فقد " غلب الجهل على قوم، فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بك، ويستفصحونه، وإذا وجدوا ألفاظه كزرة غليظة، وجاسية غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا، وسهلا حلوا " (العسكري، ١٩٧١م، صفحة ٥٨)، فالألفاظ الغريبة هجرها المتكلمون، وماتت مع انقضاء الزمن تبعا لتطور اللغة، ونموها، وإزدهارها فاستخدامها عي، وتكلف، فقد قيل للسيد: ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال: ذاك عي في زماني، وتكلف مني لو قلت " (العسكري، ١٩٧١م، صفحة ٥٨).

ثانياً: الغرابة في المعاني: وهو ما يخالف الجدة، والمألوف، وهي من الأمور التي اعتادت النفوس على محبتها، والرغبة اليها باعتبارها شيئا جديدا، فالألف، وكثرة التداول تؤدي الى الانصراف، وعدم الإحساس بالجمال؛ ولأن الغرابة تضفي على العمل الأدبي بعدا جماليا لذلك أصبحت الغرابة مطلبا من مطالب الفن الراقي.

لجأ الشعراء في رسم نتائجهم الإبداعية الى هذه الخصيصة؛ لما تحققه من إعلامية عالية للنص إذ من شأنها استثارة القوى الفكرية، والذهنية للمتلقي، والغريب في النص يحتاج الى تأمل، وتفحص دقيق يفضي الى لذة وإمتاع لا تتحقق إلا من خلاله، وقد أشار الجرجاني لقيمة هذا النوع بقوله: " لا يذم الشعر أو الكلم معه، لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يعثر فكرك في متصرفه، ويشيك طريقك إلى المعنى، ويوعر مذهبك نحوه، بل ربما قسم فكرك، وشعب ظنك حتى لا تدري من أين تتوصل، وكيف تطلب " (الجرجاني، اسرار البلاغة، ١٩٨١م، صفحة ١٤٧).

والغموض الذي نتحدث عليه هو الغموض الفني الذي يكون غموضا بناءً يكشف عن رؤية خلاقية، ونظرة دقيقة، وفكر ثاقب، والفن الغامض يقوم على رؤية خارقة تتجاوز سطوح الأشياء الى جواهرها، فلا ريب أن ما أتى به أبي تمام

مما خالف النمط المألوف أمرا غريبا حار النقاد في تفسيره، فذهبت طائفة إلى إنكاره تبعا لإنكاره ما خالف عمود الشعر المألوف، وذهبت أخرى إلى قبوله؛ لما فيه من روح جديد.... قد يكون مسلما به أن ما رمى به من تعقيد يرجع إلى أنه كان يحاول أن يعبر عن أفكاره الجديدة على نحو غير مألوف....، فكان إذا أراد تصوير شيء وضعه ضمن هالة من الغموض، (قصبجي، ١٩٨٠م، صفحة ٢٣).

إذ يقول (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام ، ١٩٩٤م، صفحة ١ / ٢٦١):

فلوئيت بالمعروف أعناق المني وحطمت بالإنجاز ظهر الموعِد

يقف المتلقي أمام نص احتال فيه مبدعه على تقديم معناه بطريقة حاول فيها إشراكه من خلال التأمل، والتفكير، وتخريج المعنى الملتوي إذ يقف عند العبارتين متحيرا (فلوئيت بالمعروف أعناق المني) و (حطمت بالإنجاز ظهر الموعِد) إذ جمع فيها بين صورتين مختلفتين متقابلتين كل منها ولدت عنها صورة قائمة بذاتها هما:

الأولى: لويت أعناق × بالمعروف المني

الثانية: حطمت ظهر × إنجاز الموعِد

ف (لويت أعناق) و(حطمت ظهر) صورة حسية ولدت عنها صورة ذات تأثير أقوى وأقرب لذهن المتلقي من الصورة العادية، وهي صورة الموت، والتحطيم، وكذلك في عبارة: (بالمعروف المني) و(إنجاز الموعِد) صورة معنوية مترابطة ببعضها البعض، فعمل المعروف يلغي كل الأمان في النفس، وكل أمنية لها عنق يلويها عمل المعروف، ويمحوها بكل أشكالها، وكذلك بإنجاز العمل تنتهي كل المواعيد، وتتحطم. في هذه الصورة طاقة إخبارية هائلة لم يصرح بها الشاعر، وإنما جعلها مضمرة ضمن نسق النص، وهي تحفيز الإنسان للسعي في عمل المعروف، وسرعة الإيفاء بإنجاز الوعد، وهذا النص حمل صورة تربوية لكل مفاهيم الأخلاق على مر الأزمنة؛ إذ حقق لنصه درجة عالية من الإعلامية، وهذه الدرجة خالفت ما ذكره النقاد: " فحطم ظهر الموعِد، بالإنجاز،

استعارة قبيحة، والمعنى في غاية الرداءة؛ لأن إنجاز الموعد هو تحقيقه، وبذلك جرت العادة أن يقال: قد صح وعد فلان إذا أنجزه، فجعل في موضع صحة الموعد حطم ظهره، وهذا إنما يكون إذا أخلف الموعد وكذب" (الأمدي، ١٩٩٢م، صفحة ٢٣١ / ١) إلا أن هذا الإسناد (الاستعارة) عمل على تقوية المعنى، وترسيخه في ذهن المتلقي، من خلال الغوص في طلبه، وطول التأمل، فالتفكير يخلق لذة في فهم عمق المعنى، وبالتالي حقق النص درجة إعلامية عالية في الوقائع التي تبدو لأول وهلة خارجة بعض الشيء عن قائمة الاختيارات المحتملة؛ لذلك تطلبت اهتمام المتلقي، وحققت فيه المتعة، والإثارة.

وقد تختلف درجة الإعلامية من نص لآخر وفقاً لنوعه، وغايته، إلا أن نسبة الإعلامية تكون مرتفعة عندما يتلقى مستقبلي النص نصاً يحوي على احتمالات خارج التوقع من حيث المعاني، والدلالات أو من حيث التراكيب، وهو ما نجده في نص أبي تمام (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ١٩٩٤م، صفحة ٢٧٨ / ١):

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد

يجد المتلقي في قراءته الأولى خرقاً لسنن المألوف، والوصف المعروف في السياق الثقافي العربي (الجاهلي، والاسلامي) في وصفه للحلم، فيظهر الاختلاف بين أفق المبدع، وأفق المتلقي لكنها إرادة الابتداع التي أتخذها أبو تمام مذهباً في نتاجه الشعري.

وبعد تأمل المتلقي وبحثه عن الأخبار المتضمنة في تضاعيف النص يغوص مفتشاً عن مواطن الجمال، وجوانب الإبداع بدءاً بالألفاظ إذ يلتقط المفردات التي مثلت العتبات التي نفدت من خلالها المعاني إلى داخل النص، فالألفاظ هي: (حواشي)، (البرد)، (رقيق)، (كفيك)، فالحواشي مثلت أطراف الثوب الخفيف، البرد هو الثوب أو الكسوة التي يتغطى بها الإنسان.

إن هاتين اللفظتان (الحواشي، والبرد) كانتا بمثابة وعاء حملت معاني النص المضمر الذي أعجز المتلقي، وأجهد فكره؛ لاستخراج المعنى إذ عمد إلى اختيار ألفاظ دلت على صفاتها، والتي مثلت البؤرة التي اختلف حولها النقاد، وهي صفة (الرقيق) التي قابلت (الثمين) من الملبس وعادة ما يدل على (الحرير) من اللباس

إذ نسجها ضمن نسق ابداعي خاص بها، وربطها بصفة تعارف عليها العرب، وهو (الحلم)، والذي كان يُعرف بالرزانة، والوقار، والنقل، والرجحان الأمر الذي جعل الآمدي (ت٢٧٦هـ) يختلف معه في قوله: " ولم يرَضْ أبو تمام أن يجعل الحلم رزينا ثقيلا على مذاهب الناس كلهم عربهم، وعجمهم، ولكنه جعله رقيقا وقال [البيت]، فجعله كالبرد، والبرد لا يوصف بالرقعة، وكان ينبغي أن يجعله كالهواء " (الآمدي، ١٩٩٢م، صفحة ٢/١٤٣).

احتال أبو تمام على متلقيه من خلال خلقه الجديد لصورة تطابقت مع ثقافته وبيئة عصره، بجعل هذا الملبس الرقيق ثوب يكتسي ممدوحه، فيزداد به جمالا - الحلم -، ووقارا، وهذه الصورة الغربية جعلت نصه " كامرأة حسناء تغوي صاحبها، ولكنها لا تسلم نفسها أول مرة له، فهي تقترب منه؛ لتغريه، وتبتعد عنه لتغويه هي تظهر شيئا، وتخفي نقيضه " (خليل، ٢٠٠٣م، صفحة ٧).

إن كل قراءة تنظر الى النص من زوايا مختلفة، وتستنبط مسوغات تأويلها لذلك نجد أن أبا تمام لم يخرج عن عادة العرب المعروفة كما ذكر الآمدي، وما ظهر من إعلام النص الخارجي إلا أنه أراد أن يظهر جمال حلم ممدوحه، ومدى فاعلية تأثيره على الآخر، لذا شبه حلمه بالثوب الناعم الذي غطى جسده، أي: أن حلم ممدوحه، ورزانته، ووقاره قد تلبسه فاصبح كساء يرتديه، يظهر صداه من خلال معاملته مع الآخرين أي ان الحلم عنده تصرف وسلوك؛ لذلك لجأ الى اختيار لفظة (الحواشي)؛ لتقريب الصورة الى ذهن المتلقي، وهذا الفهم الجديد لإشعاعات لفظة (الحلم) و(البرد)، وقدرتها على التعبير الواسع في حدود المعنى، خلق لغة جديدة لكنه لم يكتف بهذا، بل عمد الى اختيار صورة ثانية (لو أن حلمه بكفيك ما ماريت أنه برد) يؤكد فيها الصورة الاولى (رقيق حواشي الحلم)، وهي صورة تفسيرية تقريبية لجمال الحلم كسلوك، وتصرف، ودل على ذلك باستخدامه أداة الشرط (لو) وهي حرف امتناع (الصورة) لامتناع (حدثها)، فقله: (لو أن حلمه بكفيك) صورة متخيلة لا يمكن تحققها، جيء بها؛ لتوكيد المعنى، وزيادة في مبالغته، وهذا ما أغفله الآمدي.

وبذلك نسج أبو تمام شاعريته بخيوط العقل، وحاكه للحكمة نسيجا أدبيا لذلك

جاء:

اللفظ ===== الدلالة

(الرقعة والنعمومة) (الجمال)

(الحلم) (السلوك والتصرف)

بهذه المعاني يكتمل ويستقيم نص أبي تمام؛ كونه جار سنن العرب في استخدامهم لصفة (الحلم)، ولكنه زاد عليه قوة، ورزانة باستخدامه صور جديدة حملت معان كشفت عن مخيلة صاحبه الواسعة، وقدرته الإبداعية، وهذا ما يراه دي بوجراند أنه "ينبغي للنص أن يتصل بموقف تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات، والتوقعات والمعارف، وهذه البنية الشاسعة تسمى سياق الموقف" (دي بوجراند، ١٩٩٨م، صفحة ٤٥٦)، وباعتماد النص على سلطة التأويل؛ في التخمين لخبايا النص، واصطياذ مقاصده وبإقرار من المتلقي بأن النص متاهة دلالية مفتوحة تأبى الانغلاق على معنى واحد يشترك المتلقي مع المبدع في إنتاج معنى جديدا للنص بملئه لثغرات النص والتي تعد المفصلات الحقيقية له والتي نتجت عنه.

إن دقة الفكرة، وغرابة الصورة هي التي ولدت غموض المعنى في نص أبي تمام، وهي تعود إلى عاملين:

الأول/ ثقافة عصره التي نهل منها، ووظفها في شعره توظيفا دقيقا، فهو لا يأنس للمعنى القريب، ولا يقبل بالفكرة السطحية، وكل عبارة عنده إنما هي بحث وتجربة يحرص من خلالها على النفاذ إلى داخل الفكرة، والتغلغل في أعماقها.

الآخر: إيمانه بأن الشعر يكتب للخاصة لا للعامة.

لذلك يقول (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ١٩٩٤م، صفحة: ١/١١٨):

إليك أرحنا عازب الشعر بعدما تمهل في روض المعاني العجائب

غرائب لاقت في فنائك أنسها من المجد فهي الآن غير غرائب

إن قوة التأثير والتأثير الدائرة بين المبدع والمتلقي، وبين كيفية نسج النص، و إجراء الوعي الاستنباطي عوامل مؤثرة في وعي المتلقي مما يؤدي إلى وجود نواة

داخل ذهن المتلقي تتجمع حولها الدلالة الكلية للنص، و تختزن في الذاكرة، و تتدفق منها الإعلامية (حسام، ٢٠٠٩م، صفحة ٧٧)، والشاعر يدعو متلقيه إلى قراءة الشعر قراءة انفعالية خيالية، وأن يتذوقه بإحساسه، وأن يتخلص من القراءة السطحية البسيطة التي لا تتعدى بؤبؤ العين.

وفي قوله (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ١٩٩٤م، صفحة ١ / ١١٢):

**وَرَكِبَ يُسَاقُونَ الرِّكَابَ زُجَاجَةً من السَّيْرِ لَمْ تَقْصِدْ لَهَا كَفَّ قَاطِبِ
فقد أكلوا منها الغوارب بالسُّرى وصارت لها أشباحهم كالغوارب**

يسير المتلقي مع النص؛ لفهم معناه متوقفاً أمام عبارة يسكنها الغموض وهي (زجاجة من السير) لذا يعتمد إلى إشغال ذهنه، والغوص للكشف عن طلاسـم المعنى، فيسلط أضوائه على لفظتي (الزجاجة، وكف قاطب)، ومعنى الثانية هي التي دلت على نوع وجنس الزجاجة، وهي اليد التي تمازج الشراب (الخمرة)، والمعروف أن للخمرة آثار بينة على شاربها بضعف الإرادة وشرود الذهن. أنقى أبو تمام هذه الصورة؛ ليربط بينها بين حال (الرَّكَاب الذي يساق من قبل الراكبون)، والذي أنهك التعب، وطول الطريق، وثقل الأسفار، فشبّه حال سيرهم - المطايا - بالسكاري، فكأن الركب يُسكرون المطايا بالتعب الشديد، فأراد أن يظهر حالها، و هيئة سيرها، إذ لم يكتف بهذا الرسم في الكشف عن حال الركاب، وإنما تعمق في إجلاء المعنى، وتوكيده بقوله: (أكلوا منها الغوارب)، والغارب أعلى السَّنام، فطول مكوث الراكبون فوق أسنمة المطايا أتعبها حتى أذابتها، وصاروا لها كالأسنمة، فالرائي لهم من بعيد يرى أشباحهم كأنها غوارب تعطي الركب.

يتضح جهد المتلقي في رحلة التأويلية للنص السابق، وبعد اطلاعه على مدلول معناه في الجاهلية يجدهم يصفون ما تفعله كثرة السُّرى بإبـلهم من هزل، ونحول حتى ليقولون أن سنامها تأكل.

إن تشكيل الصورة بهذا الرسم الخيالي يعد إخراجاً جديداً يحسب لأبي تمام مضيفاً إليه دقائق ذهنه، وبدائع ملكته؛ لأن الإبداع الشعري يحتاج "إلى حفر في طبقاته، كل هذا مؤداه أن النص رمز، وتلويح لا ظاهر، وتصريح" (ناصيف،

٢٠٠٠م، صفحة ١٧٩)، فالنص إذا كان سهل الصياغة يكون غير إعلامي؛ لأن ألفاظه، وتراكيبه المستعملة متوقعة بدرجة عالية، أي أنه لا يحتوي على لفظ أو تعبير خارج نطاق أفق توقع متلقي النص.

حققت الصورة الإبداعية المؤسسة على (الغرابة والغموض) لنص أبي تمام كفاءة إعلامية كبيرة، فالعناصر الدلالية التي استخدمت في بناء النص قامت على إبرازه على أفضل صورة أصبح بفضلها نصا تتدفق منه الإعلامية تتضح في المبادئ الدلالية المحركة لتتابع بناء النص بشكل متلاحم، و منسجم، ومميز، أول هذه المبادئ هو السعي لا إبراز المعنى الأساسي (حسام، ٢٠٠٩م، صفحة ٧٢) ويمكن تمثيل الصورة الدلالية بـ:

أولاً: (الخمر) _____ (زجاجة لم تقصد لها كف قاطب)

ثانياً: (طول البقاء) _____ (أكلوا منها الغوارب بالسرى)

ثالثاً: (الإفناء) _____ (صارت لهم أشباخهم كالغوارب)

أظهرت هذه الصور تماسكا دلاليا داخل النص بطريقة غير الطريقة الدلالية المعروفة؛ لذلك تبدو لأول وهلة خارجة بعض الشيء على قائمة الخيارات المحتملة، فهي قليلة الحدوث نسبيا تتطلب قدرا كبيرا من الاهتمام، فتثير الجدل الحاد.

وعد الأمدى قول أبي تمام (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ١٩٩٤م، صفحة ٥٥/٢):

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشا جالت عليها الخلاخل

من أخطائه؛ "لأن هذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب" (الأمدى، ١٩٩٢م، صفحة ١٤٧/١) إلا أن إعلامية النص تجتاح هذا الرأي فتخرقه؛ كونها تتعلق باستقبال الكلام على إنه نص ذو محتوى يتصل بحكم المتلقي على طريقة عرض المحتوى بالجدة، وبمدى توقعه لطريقة العرض، وما نعنيه بالجدة مدى مخالفة النص للواقع المألوف، ونص أبي تمام خالف ما آلفته العرب " لأن من شأن الخلاخل، والبرين أن توصف بأنها تعض في الأعضاء، والسواعد،

وتضييق في الأسواق" (الأمدي، ١٩٩٢م، صفحة ١٤٧/١) لكن إعلامية نص أبي تمام تكمن في طريقة نظمه للنص إذ حاك كلماته بنسج محبك ورصين، فبدأ بأسلوب التخصيص أولاً بدلالة لفظة (من) إذ خص بعض الخصور، وليس كلها بقوله: (من الهيف)، ومن ثم أخذ يصف دقة هذا الخصر بصورة تقصح عن جماله، بقوله: (لو أن الخلاخل صُيرت لها وشحا) وهو الموضع الذي عيب فيه على أبي تمام على الرغم من إقراره الصريح بخيالية الصورة وامتناع حدوثها في الحقيقة، وذلك باستخدامه حرف الشرط (لو)، وهو حرف امتناع حصول الفعل (الخلاخل صيرت وشحا)، وبالتالي امتناع جوابه (جالت عليها الخلاخل)، لكنه عمد في اختيارها؛ لشدة التقارب بين الصورتين (الحقيقية والمجازية) في بيان دقة جمال هذا الموضع من الجسد، على الرغم من اتساع معنى النص "الذي قصده أبو تمام بكلامه معنيان أحدهما غلظ الساقين فتكون الخلاخل من الاتساع بمقدار غلظهما، والثاني دقة الخصر حتى لو جعل الخلاخل في موضع الوشاح لجال عليه" (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ١٩٩٤م، صفحة ٥٥/٢) مهما حاك المتلقي من تأويلات لإضاءة حجرات النص المظلمة، ونفض الغبار عن مخابئه المتوارية التي حيرته في الكشف عن هوية النص يبقى النص مفتوحاً؛ ليكون بمثابة طبقات دلالية ينبغي على المؤول الحفر فيها، وفهم أسرارها، فالمتلقي فاعل إبداعي يلتقط الصور، والمفاهيم من حقيقة النص، ويعطيه قدرة الخلق، والإبداع (فيدوح، ٢٠٠٩م، صفحة ٥٨)، وهذا يمثل إعلاناً لعصيان النص الإبداعي عن الكشف، وامتناعه عن التوقع، والانغلاق على معنى محدد مما يكسر أفق التوقع لدى المتلقي، فيحقق كفاءة إعلامية عالية، وهو ما فعله أبي تمام بطلبه الأغراب في فنه، حتى يسبغ على شعره كل ما يمكن من آيات الجمال، والروعة، وبذلك عد الغموض صفة خيالية في أشعاره بلورها في نصوصه بشكل أكسبه طابع إيجابي من خلال تجبيره لمكان الدلالات الهامشية في اللغة؛ لبناء نص يحتوي على كثير من الإيحاء، والإضمار، والطي، فيجعل المعنى المتضمن ممتنع الفهم؛ ليكسيه سحر الجدة والحدثة، ويصبح أدب أبي تمام أدباً جديداً يتسم بالخفاء الدلالي.

ثانياً: إعلامية الاستعارة في أشعار أبي تمام:

تنبّهت الدراسات الحديثة للاستعارة إلى بلاغة التعبير الاستعاري، ولفنت إلى قوة تأثيرها، وقدرتها على إيصال المعنى بطريقة أعمق، وأبلغ أثراً في نفس المتلقي؛ لما تتمتاز به من سمة جوهرية هي العُدول الدلالي، فهي لا تستمد قيمتها الفنية، و الإعلامية الا بمقدار ما فيها من تجاوز ومفارقة، وهذه الخاصة الأسلوبية تعد نمطاً خاصاً من الكلام لا تصل منه إلى الغرض "بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض" (الرجاني، دلائل الإعجاز ، ١٩٩٢م، صفحة ٢٦٢).

اعتمد أبو تمام على الاستعارة في أشعاره بشكل كبير؛ لما لها من فاعلية في التصوير، والتأثير، فضلاً عن عكسها لأقوى طاقات اللغة، وإمكاناتها؛ لأنها تدعم نفسها بظلال الإيحاء، وبما تشيعه من أشكال الحركة، والحيوية التي تنوب عن الإيحاءات، واللفّات، والحركات المصاحبة للكلام المباشر، وتكشف عن الأبعاد النفسية، والظروف الداخلية، والخارجية المؤثرة في إثراء التجربة الشعرية مما يحقق للعمل الأدبي غايته، وفنيته، وجماليته، لذا تعد عاملاً رئيسياً في تحفيز المبدع، وحثه، ومنتفساً للعواطف والمشاعر الانفعالية، ووسيلة لملئ الفراغات في المصطلحات إذ تفسح له مجالاً كبيراً لتكوين (لغة خاصة) يمتاز بها عن غيره، وبذلك الفنية يخلق لنفسه سمة التفرد والإبداع، وبما يولده من تأثير كبير في الآخر، "فهي أمد ميداننا، وأشد افتناننا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة، وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة، وغورا من أن تجمع شعئها، وشعوبها، وتحصر فنونها، وضروبها، نعم وأسحر سحرا، وأملأ بكل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا" (الرجاني، اسرار البلاغة ، ١٩٨١م، صفحة ٣٢) بما تمنحه من قدرة على خلق تصورات غير مألوفة في سياق النص الأدبي، بحيث يُمكن المتلقي من رؤية الحياة، والناس، والأفعال بشكل متجدد أو على هيئة غير مألوفة متجاوزاً العلاقات، والحدود المنطقية إلى رسمت للأشياء.

خالف أبو تمام النظرة القديمة بخلق استعارات بعيدة خارجة على المؤلف. يقول الأُمدي أن: "أبا تمام شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ أو الإحالة" (الأُمدي، ١٩٩٢م،

صفحة ٢٧٢/١).

إن استعارات أبو تمام الخلافية زخرت بالتأويلات، والتحويلات، وفي كشفنا عن مدى إعلاميتها أوجب الغوص في أخيلته، وثقافته، وعالمه الوجودي؛ لصيد المعاني الهاربة في أرجاء خياله باحثين في سبر أغوارها، وسر وجودها، وجمالها، وقد اختلف في مدى قبولها، واستحسانها إذ عدها الآمدي: "في غاية القباحة، والهجانة، والبعد من الصواب" (الآمدي، ١٩٩٢م، صفحة ٢٦٥/١)

كما في قوله (الآمدي، ١٩٩٢م، صفحة ٢٦٦، ٢٦١/١):

يا دهر قوم من اخدعك فقد أضجبت هذا الأنام من خرقك

وقوله:

ألا لا يمد الدهر كفا بسيئ الى مجتدى نصر فيقطع من الزند

يكثر أبو تمام من هذه الاستعارات في شعره؛ ويؤسس بنائه الاستعاري على (الدهر) من خلال الاستعارة (الفعلية)؛ لأنه يجدها أكثر السبل تأثيراً في نفس متلقيه، ففي إضفائه على الدهر صفات إنسانية في (قوم من أخدعك، يمد يده) فائدة فنية تعمل على لفت انتباه المتلقي، وإعلامه من خلال إضفاء صفة الحياة، والحركة على الأشياء غير المعقولة، وإكسابها حياة إنسانية بإسقاط الصفات الخاصة بالإنسان على المعنويات، وكذلك قدرتها على بث الانفعال في نفس السامع والقارئ، وهذه الإعلامية تتمثل في المسافة التي تخلق بين المستعار، والمستعار منه.

عمد أبو تمام إلى هذا البناء الاستعارة على صيغة الفعل (قوم، أضجبت، يمد، فيقطع)؛ لأن الدهر أصبح أقرب إلى رؤاه، وموقفه، فهو لا يرى الدهر، ولا يمسه، ولا يحسه، وإنما يرى ظلم أهل زمانه، وانعكاسات أفعالهم على نفسه.

تدل العلاقات اللغوية في شعر أبي تمام، وصوره الفنية على أنه فنان ماهر في خلق صورته عن طريق تشخيص، وتجسيم المعنويات، فتحميل الدهر، ومخاطبته بصفات بشرية مثل (الضجيج والخروقات والإساءات) أضفت عليه صفة العمومية؛ لأن لفظة دهر دلت على "الزمن الممتد من بدأ وجود العالم الى

فنائه، ثم صار يعبر عن كل مدة طويلة " (الراغب الأصفهاني، ١٩٧٢م، الصفحات مادة دهر: ١٧٤-١٧٥)، وهذه الصفات لم تقتصر على جيل دون جيل، ولا على زمن دون آخر، بل شملت كل الأجيال، وعلى مر الأزمنة دل عليها باستخدامه أداة المخاطب (يا) في قوله: يا دهر، والتي تستخدم للقريب، والبعيد، وكذلك في إلباس دهره ثوب الإنسان الطاغي المتكبر الظالم الذي لا ينفك يسطو بظلمه على الناس في كل زمان بأساليب مختلفة ما هي إلا صورة لأبناء زمانه الذي أعرض عن ذكرهم، وسترهم خلف ظلال لفظة (الدهر)، وبهذا التشكيل الفني تمكن من تأسيس صورة للمعنى؛ ليأخذ خبره طابع الخلود، والرسوخ في ذهن متلقيه، فكان شعور الأديب بمرارة الأحداث تتضح في الجانب النصحي (للدهر) بقوله: (قَوْم، يقطع)، فهو يقدم النصح، والإرشاد بأسلوب (الأمر)، والمعلوم أن أسلوب الأمر أتي من الأعلى إلى الأدنى؛ لذا يقدم الشاعر رسالة تقائلية للمتلقي، وهي انتصار الحق على الباطل مهما طال الظلم مما يجعله متنفسا لهمومهم، والأهم المكبوتة، ويؤكد المعنى ذاته بأسلوب الشرط (مهما مد الظالم - الدهر - يده قطعت)، فمن الذي يقطع هذه اليد؟ المظلوم هو من ينتصر في كل زمان، ومكان على ظلم زمانه، واستبداده بهذا اللقطات الفوتغرافية للمعنى رفع من كفاءة إعلامية النص؛ لما قدمه من معلومات جديدة للمتلقي غير متوقعة تلك المعلومات ثركت لحدس المتلقي جعلها ماثلة أمامه بأسلوب ممتع زرعت في نفسه الدهشة، والإثارة، والرغبة في التفاعل معها؛ لكون النصوص صعبة الصياغة، والخيال فيها أدى دورا إيجابيا في تقريب الصورة مما جعلها مثيرة للجدل إذ برزت عناصرها الجمالية في:

أولاً: التوحد بين الدلالة، والشكل.

ثانياً: قدرتها على الإمتاع، والتأثير الفكري، والنفسي.

تختلف إعلامية النصوص الأدبية فيما بينها وفقاً لنوعها، وغايتها " لكن ما يؤكد علماء النص، هو أن كل نص يجب أن يشتمل على قدر من المعلومات الإعلامية " (عوض، ١٩٩٤م، صفحة ١٠٢)، ففي تحويل الرؤية بلغة النص من الخداع يترك أثراً إعلامياً كبيراً في نفوس المتلقين من خلال الوجه الجمالي

الذي ارتسمته الأسلوبية الفردية في تلك النصوص، ففي قوله (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام ، ١٩٩٤م، صفحة ٤٠٠/١):

تروح علينا كل يوم وتغتدي خطوب كأن الدهر منهن يصرع

يوجه الشاعر من خلال نصه خطاباً إعلامياً يشترك في مضامينه مع الناس يذكر فيه حجم (الخطوب والمصائب) التي تواجههم على الروح، والغدي باستمرار، والتي مصدرها الناس أنفسهم، والنص بهذا الحجم من الأخبار تكون درجة إعلاميته بسيطة؛ لأن المتلقي عارف، ومطلع على هذه الأخبار إذ لا يفاجئ، ولا يندهش بسماعها، لكن الشاعر يستوقفه في نهاية البيت؛ مصورا شدة، وقوة أثر وقع تلك المصائب، والخطوب على الناس، وعدم قدرتهم - وهو واحد منهم - على تحملها، فيختار الدهر؛ ليلبسه صورة الإنسان القوي الذي يستطيع الوقف بقوة، وبأس شديد أمام تلك الخطوب، ليجده ضعيفا مريضاً بحالة (الصرع) عاجزاً على سبيل الاستعارة أمام تلك المصائب؛ لشدتها، وقوتها.

يقف المتلقي أمام تلك الصورة مندهشاً، ومفكراً، فالدهر أمر معنوي لا تصيبه تلك الانفعالات النفسية التي تصيب البشر، فلا يتوقع وجود صلة بين الدهر، والإنسان. إذن ما الجامع بينهما؟.

هذه الصورة الجديدة التي خلقها الشاعر تركها لحدس المتلقي؛ ليواجهها في الكشف عن عناصر جديدة تدفعه لحل عقدها أو ما خفي منها، والوقوف على ما يكتنفها من جدة، وبعد دلالي، وهذا البعد يساعد المتلقي على خلق إحساس بالتوحد مع النص كما يكشف عن ثقافة الشاعر المستلة من، ثقافة عصره؛ وبذلك حمل النص درجة إعلامية عالية.

وفي قوله (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام ، ١٩٩٤م، صفحة ٢٤/٢):

لا تسقني ماء الملام فأنني صب قد استعذبت ماء بكائي

لم يجعله الأمدي تحت حكم معين، فلم يسمه بالقبح أو الرداءة، ومن جانب آخر لم يذكر أنه من الاستعارات الحسنة، لكنه في الوقت نفسه صرح بقول ظاهره التأييد، والدفاع عنه، فقال: "فقد عيب وليس بعيب عندي؛ لأنه لما أراد أن يقول:

قد استعذبت ماء بكائي جعل للملام ماء؛ ليقابل ماء بماء، وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة " (الأمدي، ١٩٩٢م، الصفحات ٢٧٧/١-٢٧٨)، فالملام ماء مستعار، وحجتهم فيها التناظر في الجمع بين (الماء واللوم)، وإن إطلاق الماء، وإضافته إلى البكاء يذهب بالذهن أولاً إلى الصورة المباشرة المعروفة للماء، ومجرد أن تنطلق كلمة بكاء يتضاءل المعنى الأول فجأة، وينكمش إلى صورة جزئية هي بضع قطرات من الدمع، ولكن على أية حال هناك صلة تجعل الصورة محتملة " إن أبا تمام أبكاه الملام، والملام قد يبكي على الحقيقة، فتلك الدموع هي ماء الملام على الحقيقة " (الأمدي، ١٩٩٢م، صفحة ١ / ٢٧٨)، وليس هناك صلة بين ماء الملام، وماء الدموع وإذا انطلقت كلمة ماء بمعانيها الأصلية، والربطية، ومعها كلمة الملام، ومعانيها الربطية، فلا يجمع بينهما صلة " فلو أراد أبو تمام أن يجمع بينهما - ماء الملام و ماء البكاء - لما قال (قد استعذبت ماء بكائي)؛ لأنه لو بكى من الملام؛ لكان ماء الملام هو ماء بكائه، ولم يكن يستغنى منه " (الأمدي، ١٩٩٢م، صفحة ١ / ٢٧٨)، أو رابط مشترك من الصور الجزئية؛ لذلك كان التعبير بارداً مختلاً لا يدل في الذهن على شيء؛ لأنه لا صلة بين الملام، والماء أما ما أحتج به الصولي من القرآن فلا يبرر ما أعتمدته؛ لأن كلمة السيئة اقترنت بكلمة الجزء، فأثارت معنى آخر مقابلاً هو القصاص، وقد سماه القرآن سيئة، ولكن أصحاب البديع يحاولون الاستشهاد بالشاهد القرآني؛ ليبرروا صناعة أبي تمام (الصولي، ١٩٨٠م، الصفحات ٣٣-٣٧)، وقد أستحسن بعض النقاد هذا النوع من الاستعارات (الصولي، ١٩٨٠م، الصفحة ١ / ١٧٨).

نجد في استعارة أبي تمام أنه أخرج المعنى من نطاقه الضيق إلى نطاق أوسع أستدعى مخيلته في محاولة منه؛ لتفجير الطاقات الكامنة بين علاقات اللغة، فتشرق صورة نابضة بالحياة تتميز بمحاولة الجمع بين الأشياء المتباعدة، والتوحيد بينها؛ ليخرج للمتلقي في النهاية مركب جديد ذو صفات خاصة، ومتميزة.

إن في إسناد أبي تمام الفعل (السقيا) بـ (ياء) المتكلم، وباستخدامه لأداة النهي (لا) دليل كبير في التعبير عن حالاته النفسية، وضروب انفعالاته، فتدافقت قطرات اللوعة، والشوق، والحنين، والمعروف أن السقيا تكون للماء لكن أبي تمام

عدل عن ذلك في استعارته الماء للملام، فقد حدد من خلال ذلك العدول حجم هذا اللوم، وشدته على نفسه، فهو يقول لمنتقده في الحب لا تعاتبين، ولا تلومني في العشق من جهة، ومن جهة أخرى أرد أن يشرك الآخر (المتلقي) بما أحدثه هذا اللوم في نفسه عندما سقي به، إذ تجرعه بحرارة، وقساوة دل عليه هذا المعنى استخداماً لعبارة (استعذبت ماء بكائي)، فعذوبة ماء البكاء، وما يحمله من حزن شديد قد استعذبه أبو تمام.

إنّ هي الخطة التي وضعها أبو تمام لنصه في تحقيق هدف (الاستعارة)، وليس من هدف أسمى للشاعر من تفاعل المتلقي مع قصيدته؛ للكشف عن غاياته، والتفاعل مع مضمونها، فالاستعارة (الماء للملامة) أكسبت السياق خصوصية دلالية لا يتسنى لغيرها أن تؤديها.

بهذه المخاتلة البلاغية، وما أضفته على النص من إشعاعات فنية تخطى أبو تمام حواجز الدلالات التقليدية إلى أفق المعاني إذ قلب العلاقة بين طرفي الصورة طالبا علاقات بعيدة لا تدرك إلا بالتفكير الطويل، وبلغت انتباه المتلقي بما حشده من ملكات ذهنية لاستحضار الدلالة المنشودة (الحزن والآسى)، وبيان مدى شدتها، يرتفع بنصه إلى قمة الإبداع بما يحققه من إعلامية عالية.

إن الحديث عن أي نص أدبي يحيلنا إلى فضاءات يختص به دون غيره تتجلى عنها مجموعة من الدلالات يسمح بها ذلك النص يتعين على المتلقي تحديد مكوناتها، وكشفها وتفسيرها، من خلال حل شفراتها، وبقوة ذلك النص، وكمية الدلالات التي يخبئها تتحدد درجة إعلاميته. وعلى الرغم من ذلك نجد الأمدي يعيب استعارة أبي تمام في قوله (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ١٩٩٤م، صفحة ٢٠٥):

أنزلته الأيام عن ظهرها من بعد إثبات رجله في الركاب

استفتح الشاعر نصه بالفعل (أنزل) الذي حمل دلالة القدرة الفعلية، وربطها بـ (الأيام) التي أكساها صفات المطي، لكنه أراد أن يلون هذه الأيام بصورة المطي العصي على صاحبه، فيثور لينزله من على ظهره قسر أعلى الرغم من قوته وشدة بأسه، هذه الألوان مثلت ظاهر الصورة، وبطبيعة الحال لجأ الشاعر إلى

صورة تقترب ألوانها من بيئته كي يستطيع أن يحملها معانيه؛ لذا أختار (الأيام) التي دلت على الزمن في (الماضي والحاضر والمستقبل) بوجهيها المشرق (وجه النهار) الذي يوحي بالأمل، والحياة، والمظلم (وجه الليل) بما يحيطه من غموض، وخوف لتمثل حال الدنيا التي يفارقها الإنسان قسرا عند (الموت).

استطاعت هذه الصورة بكل ألوانها، ومفرداتها، وطريقة نسجها أن تثبت صورة خالدة في ذهن المتلقي، وهي صورة ممزوجة بالمعاني الفلسفية، والعقلية لا يستطيع القارئ أن يفك شفرة النص إلا بعد أن يغوص في أعماقها حتى يجد نفسه يمر على بروج مشيدة من المعارف التي تزيد النص اتساعا وامتدادا، فالفهم الأولي غالبا ما يعتمد على البنية السطحية للنص، وهو (المطي المتمرد الذي يُنزل الفارس من على ظهره) الذي يعد الطريق المؤدي للمعنى الباطني، أما المعنى الآخر الذي لا يصل إليه أحد إلا إذا مر على مراحل يحاول من خلالها تعرية النص من الكثافة الدلالية التي يحملها؛ ليصل الى المعنى الذي شيد بهذا الشكل، وهو (الموت) " فلا شك في أن كل نص إنما هو وجهان متلازمان الظاهر منهما أحادي، والخفي (الباطن) (فوزية، ٢٠٠٩م، صفحة ١٢٣)، بذلك أستمد النص إشعاعه من المعادلة النسجية الآتية:

انزلته (أبعده) + الايام(الدنيا) + عن ظهرها (الأرض) = (الموت)

تمكن الشاعر من تخريج المعنى بالشكل الذي يلاءم الصورة المألوفة عند القدامى، فظاهر النص صورة مألوفة عند العرب تتناسب مع باطنه الخفي بالشكل الذي يجعله بما يكتنزه من فلسفة للموت يُذكر في كل رثاء ميت، وهذا ما حقق للنص إعلامية عالية.

وكذلك عيب قول أبي تمام (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام ، ١٩٩٤م، صفحة ٩٦/١):

فضربت الشتاء في أذعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

في الماضي كان يعتقد السفسطائيون بأن قوة الكلمة لها أثر سحري في النفوذ إلى النفوس؛ لأنها تملك من القوة ما يجعلها تقوم بأدوار عديدة إذا أحسن

اختيارها؛ كي ترسخ ما تحمله من أفكار في نفوس المتلقين " لأن سلطان الكلام ليس فوقه سلطان " (خضر، ١٩٩٧م، صفحة ٢٦)، وهذا ما آل إليه أبي تمام في رسم صورة انتصار ممدوحه أختلف في رسمها عن الصور التي ألفها المتلقي في السابق، فقد شبه الشتاء القارص برجل شديد ألbas، والقوة، ورمز له بشيء من لوازمه كصفة تدل عليه، وهي (الأخادع)، و" الأخدعان عرقان في العنق يقال للرجل اذا كان أبيا صلبا " (التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ١٩٩٤م، صفحة ١/ ١٦٦)، فهي لازمة من لوازم الرجل القوي وهو (الممدوح)، فكأنه بما يتحلى به من قوة، وشجاعة، وبأس قد تغلب حتى على الشتاء الذي مثل (قوى الطبيعة) التي لا تقهر، إلا بضربة واحدة من سيفه، ففاقت قوته قوى الطبيعة، وأصبح بإقصاء كل أعداءه حتى الطبيعة مطية ذلول سهلة الانقياد يسيرها كيفما شاء.

هذه الصورة مبتكرة من خيال خصب جديد يجد المتلقي صعوبة كبيرة في فهمها، لكنها عدت رائعة من روائع أبي تمام أصابت القارئ بخيبة كبيرة؛ لأنها كسرت ما توقعه، وتعارف عليه، وهو ما رفع قيمة نص أبي تمام الإعلامي بشكل كبير.

إن خروج أبو تمام في استخدامه لهذا النوع من الاستعارات على تقاليد العرب هو ما سبب على رأي الأمدي قبح البيت لا قبح الصورة (ضيف، ١٩٦٠م، صفحة ٢٣٥) إلا أن العديد من النقاد المحدثين اختلفوا مع رؤية الأمدي، إذ نجد مصطفى ناصف يتهم النقد العربي بالتقصير، والتقاعس في تذوق صور المحدثين، وبالركون إلى ما اعتادت الأنواق عليه من حدود ثابتة. فيقول: " إن النقد العربي كالناعس لا ينتبه، من غفوته، وتلك الصفة حرمت النقد من أن يصوروا ما في استعارات المحدثين من عمق، ونفاذ، وأن يشخصوها في كل مجالاتها" (ناصر، الصورة الأدبية، ١٩٥٨م، صفحة ٩٦)، فهو يرى أن أبا تمام كان " يشعر شعوراً جدياً بأن الخيال البياني يؤتى من طريق الاستعارة والاتكاء عليها " (ناصر، الصورة الأدبية، ١٩٥٨م، صفحة ٩٦) أما عمر فروخ يدعو إلى عدم إقرار النقد على كل ما أخذه عن أبي تمام، وغيره، "فقد لا يكون المعنى من السوء، بحيث يظنون، ولا الاستعارة من البعد، بحيث يحسبون "

(ناصيف، الصورة الأدبية ، ١٩٥٨م، الصفحات ١٠٥-١٠٦).

خلص هذا البحث إلى نتائج يمكن أجمالها بما يلي:

- ❖ لم تكن دلالة مصطلح (الإعلامية) من بنات أفكار الدراسات الغربية الحديثة، بل نجد صدها في النظرية العربية القديمة للأدب، ومن الأطروحات الكبرى التي طرحها النقاد العرب عندما مارسوا نصوصهم، وأصدروا نتائجهم النقدية، فقد كانوا على درجة من الوعي بهذه المسألة، إذ لا قطع بين الموروث النقدي القديم، والموروث اليوم، بل هو امتداد، ومحاولة لجعل النقد العربي القديم بما يكتسب طرقا في القراءة الجديدة، جعله النقد قادرا على أن يقرأ النصوص الحديثة.
- ❖ وضع النقاد، والبلاغيون العرب القدامى اللبنة الأساس لآلية بناء هيكلية النص بدءا من المبدع، وانتهاء بالمتلقي، ومع ما أطلق عليه فيما بعد بـ (الإعلامية أو إعلامية النص الأدبي)، والتي عدت معيارا أساسيا من معايير علم النص الحديث، إذ ناقش العرب الإعلامية تحت مصطلحات أكثر عمقا ودقة.
- ❖ حققت سمة (الغموض) في أشعار أبي تمام الخلافة إعلامية كبيرة؛ لما أثارته من دغدغة نفسانية في لذة البحث عن خفايا، وأسرار هذه الصور، وآفاقها المضمرة، وازدادت هذه الدرجة بزيادة خفايا النص، والجهود المبذولة في الكشف عنها.
- ❖ ألبس أبو تمام معانيه عن طريق (الاستعارات) ألبسة محسوسة، ففي استعاراته صور متحركة، ومعاني عقلية تتجسد في الذهن؛ كونها مبعث للتخييل لها القدرة على تحقيق تفاعل كبير بين النص، ومتلقيه، وتحقيق درجة عالية من الإعلامية.
- ❖ أدرك أبو تمام العلاقات البعيدة بين الأشياء في بنائه الشعري بحيث تصبح بنية ثرية بالدلالات في إطار خارج عن المألوف، وهذا الإدراك العميق سجل درجة إعلامية عالية لنصه؛ لما حققه من إثارة، وامتناع في المتلقي.
- ❖ تصدر أشعار أبي تمام الخلافة عن موهبة ذاتية متميزة، أساسها العاطفة

المرهفة، والذوق الجمالي البارع، والفكر الثاقب، والخيال الخصب، واللغة الموحية تجتمع مع بعضها؛ لتصهر في بوتقة التجربة والمعرفة، فتتحول إلى طاقة عالية من الفن، والخلق، والإبداع، فيصبح لها القدرة الخارقة على الإخبار (الإعلام) من خلال النفاذ، والتنبؤ، والحدس، والاستلهام، والتأثير، والتغيير في (المتلقي).

- ❖ هناك فرق بين نص إعلامي عادي، ونص أدبي مكثف، فالمتلقي حين يتعامل مع الشكل الأول فإن الفهم فيه يكون بسيطاً، ولا يحتاج إلى واسطة. أما الثاني لن يتحقق الفهم فيه إلا بعد مراحل عدة يحاول من خلالها تعرية الكثافة التي تعتريه، وانتقاء خياراً من بين خيارات متعددة تخلفها الكثافة في كل لفظ بحيث يمكن أن تحمل كل لفظة أكثر من معنى محتمل.
- ❖ تكتسب نصوص أبي تمام الخلافية فنيته، وجماليته من غرابته، وغموضها لذا، فهي عصية على المتلقي؛ لأنها حملت صبغة ثقافته الفردية التي أفرزتها بيئته، وظروف زمانه.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن سنان الخفاجي أبو محمد عبد بن محمد (ت ٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، دراسة وتحليل: د. عبد الرزاق أبو زيد، مكتبة الشباب، ١٩٧٦م.
- ابن طباطبا العلوي محمد بن أحمد (٣٢٢هـ)، عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، ١٩٥٤م.
- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، ط ١، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.
- أبو عثمان الجاحظ عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٩م.
- أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ)، كتاب الصنائع، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمود أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧١م.
- أبي حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس (٤١٤هـ)، المقابسات، تحقيق: حسن السندوبي، ط ٢، دار الكتب، الكويت، ١٩٩٢م.
- الأمدى أبي القاسم الحسن بن بشر (٣٧٠هـ) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، ط ٤، دار المعارف، ١٩٩٢م.

- البحيري أسامة، تحولات البنية في البلاغة العربية، ط١، مصر، دار الحضارة، ٢٠٠٠م.
- الجرجاني عبد القاهر (٤٧١هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م.
- الجرجاني عبد القاهر؛ دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر، ط٢، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- حسام أحمد فرج، نظرية علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ٢٠٠٩م.
- الخطيب التبريزي شرح ديوان أبي تمام، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
- دندوقة فوزية، التأويل وتعدد المعنى، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع٤، جانفي، ٢٠٠٩م.
- الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)، تحقيق: نديم مرعشلي، مطبعة التقدم العربي بيروت، ١٩٧٢م.
- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط٧، مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.
- الصولي أبي بكر محمد بن يحيى (٣٣٥هـ)، أخبار أبي تمام، تحقيق: خليل محمود عساكر و محمد عبده غرام ونظير الاسلام الهندي، ط٣، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
- عبد القادر فيدوح: آراء التأويل ومدارج معنى الشعر صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا الاصدار الاول: ٢٠٠٩.
- الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، القاموس المحيط، ط٢، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ١٩٨٧م.
- قصبجي عصام، نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم، دراسة تطبيقية في شعر أبي تمام وابن الرومي والمنتبي، ط١، دار القلم العربي للطباعة، والنشر، ١٩٨٠م.
- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- مصطفى ناصيف، الصورة الأدبية، ط١، دار مصر، القاهرة، ١٩٥٨.
- مصطفى ناصيف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٠م.
- الموسى، خليل، الإشكالات النقدية حول شعر أبي تمام، مج. الموقف الأدبي، ع٣٨١، دمشق، كانون الثاني ٢٠٠٣.
- ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

- إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية روبرت دي بو جراند وولفانج دريسلر)، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- الهروي أبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ)، غريب الحديث، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ط١، دائرة المعارف، ١٩٦٤م.
- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، ط١، الناشر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، ط١، دار الأمين، ١٩٩٤.

الهوامش:

- (لسان العرب ابن منظور: مج / ١٢، ص: ١٤٠).
- مدخل الى علم لغة النص: الهام ابو غزالة، وعلي خليل حمد: ٣٢-٣٣.
- النص والخطاب والإجراء: روبرت دي بوجراند، ترجمة: تمام حسان، ط١، الناشر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م: ١٠٥).
- (النص والخطاب والإجراء: ٢٤٩).
- (البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق: درويش جويدي المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٩م: ١/٥٦)
- (ينظر: عيار الشعر ابن طباطبا: ١٤)
- (ابن طباطبا: ١٠)
- (ابن طباطبا: ١٩)
- (الصناعتين: ٥٦)
- (سر الفصاحة، ابن سنان: ٣٣٠).
- المقابسات: ١٢٢.
- الجرجاني عبد القاهر؛ دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص٢٦٣.
- (تحولات البنية في البلاغة العربية، أسامة البحيري، ط١، مصر، دار الحضارة، ٢٠٠٠م: ٣٣)
- (العدول والاداء الشعري: عبد الله بن عبد الرحمن النقيب: ١٣٢).
- ينظر: النص والخطاب والالجزاء: ١٠٤.
- لسان العرب: مادة (عَرَب) / ١/ ٦٣٨-٦٣٩).
- لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ): مادة غمض / الفيروز ابادي (٨١٧هـ)، مجد الدين محمد بن يعقوب القاموس المحيط، ط٢، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة،

- بيروت- لبنان، ١٩٨٧م: مادة (غمض) ١/ ٨٣٧)،
- غريب الحديث: لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (١/١): المقدمة.
- الصناعتين: ٥٨
- عبد القاهر الجرجاني: اسرار البلاغة: (١٤٧)
- ينظر: قصبي عصام. نظرية المحاكاة في النقد العرب القدي. ط ١. دار القلم العرب للطباعة والنشر. لبنان ص ٢٣)
- (شرح ديوان أبي تمام: ١/ ٢٦١)
- (الموازنة: ١/ ٢٣١).
- شرح ديوان ابي تمام: ١/ ٢٧٨)
- (كتاب الموازنة: ٣/ ٥٠، ٦٥٢).
- خليل الموسى، الإشكالات النقدية حول شعر أبي تمام، مجلة الموقف الأدبي، ص " :
- ((النص والخطاب والاجراء روبرت دي بو جراند، ترجمة تمام حسان، ط ١، الناشر، عالم الكتب، مصر، ١٩٩٨م القاهرة: ٤٥٦)
- (شرح أبي تمام: ١/ ١١٨)
- (حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، ص: ٧٧)
- (شرح ديوان ابي تمام: ١/ ١١٢)
- ((مصطفى ناصيف، ٢٠٠٠م، النقد العربي نحو نظرية ثانية. الكويت. سلسلة عالم المعرفة. ص ١٧٩)
- ينظر: (حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص: ٧٢)
- (شرح ديوان ابي تمام: ٢/ ٥٢)
- (ينظر: عبد القادر فيدوح: اراء التأويل ومدارج معنى الشعر صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا الاصدار الاول: ٢٠٠٩م: ٥٨
- (الموازنة: ١/ ١٤٧)
- (دلائل الاعجاز عبد القاهر: ٢٦٢).
- (اسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني: ٣٢)
- ((معجم مفردات الفاظ القرآن الكريم، ابو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (ت ٥٠٢)، تحقيق: نديم مرعشلي، مطبعة التقدم العربي بيروت، ١٩٧٢م: مادة (دهر): (١٧٥-١٧٤)
- (نظرية النقد الادبي الحديث؛ يوسف نور عوض، ط ١، دار الامين، ١٩٩٤م: ح: ١٠٢)،
- ينظر: أخبار ابي تمام للصولي ٣٣-٣٧، وكذلك سر الفصاحة للخفاجي: (١٣٢) يراجع كتابي محاضرات النقد

- ينظر: شرح الصولي لديوان ابي تمام: ١/١٧٨ ينظر النقد المنهج عند العرب: محمد مندور: ٩١.
- التأويل وتعدد المعنى، دندوقة فوزية، مجلة كلية الآداب، والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع ٤٤، جانفي، ٢٠٠٩م: ١٢٣).
- (الاصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر: ٢٦).
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، ط ٧، مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف بمصر، ١٩٦٠م: ٢٣٥)
- الصورة الأدبية، مصطفى ناصيف، ط ١، دار مصر، القاهرة، ١٩٥٨: ٩٦)
- الصورة الأدبية، مصطفى ناصيف، ط ١، دار مصر، القاهرة، ١٩٥٨: ٩٦)

السبك النحوي والمعجمي في الخطبة الفدكية

أ.م.د. قحطان رشك دخيل

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

مهاده البحث: في السبك النصي وتوثيق الخطبة الفدكية.

أولاً: في السبك النصي:

السبك النصي هو أحد معايير عالم اللغة (بوجراند و دريسلر Dressler) السبعة لمعرفة نصية النص من لا نصيته (د. ألهم أبو غزالة وعلي خليل حمد، ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م: ١٠٣ - ١٠٥)؛ (أحمد حسين حيال، ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١١ م: ٣٠)؛ ويمثل السبك (COHESION) المعيار الأول من المعايير النصية التي وضعها (بوجراند و دريسلر)، وقد نال هذا المصطلح عناية كبيرة من قبل اللسانيين النصيين، بتوضيح مفهومه، وأدواته، وإبراز عوامله وشروطه (روبرت دي بوجراند، ٢٠٠٧ م: ١٠٣ - ١٠٥)؛ ومن هنا أردنا أن نرؤى خطبة الزهراء عليها السلام؛ لنرى: أ تحققت معايير النظرية النصية في الخطبة أم لا؟

فالسبك النصي: مجموعة إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، فيتحقق لها الترابط الرصفي، ومن وسائل السبك بنوعيه المعجمي والنحوي، كالتكرار، والألفاظ الكنائية، والإحالة المشتركة، والحذف والروابط كأدوات العطف (د. صلاح فضل، أغسطس . آب ١٩٩٢ م: ٤٤).

والسبك هو العنصر الجوهري في تشكيل النص وتفسيره، فيعمل السبك على جعل الكلام مفيداً، ويعمل على استقرار النص وثباته، بعدم تشتت الدلالة الواردة في النص، وتنظيم بنية المعلومات داخل النص؛ هذا كله يساعد القارئ على فهم النص عن طريق متابعة خيوط الترابط المتحركة عبر النص التي تمكنه من ملء الفجوات، أو معلومات ما بين السطور التي لا تظهر في النص ولكنها ضرورية (د. عزة شبل محمد، ٢٠٠٧ م: ٧٤/١)؛ (د. حسام أحمد فرج

٢٠٠٧م: ٨٠)، ويرى (فان دايك) أنَّ السِّمات الشَّكليَّة في النَّصِّ تحدد بنيته الدَّلاليَّة (فان دايك، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، ٢٠٠١م: ٢٧٥).

ثانياً: في توثيق الخطبة الفدكيَّة:

سمَّيت خطبة الزهراء عليها السلام بـ(الخطبة الفدكيَّة) نسبةً إلى (فدك)؛ وهي بستان أعطاه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام) لما نزلت عليه: ((وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا حَقَّهُ)) [الإسراء: ٢٦] بأمر الله تعالى، وكانت بيدها، وفيها عمَّالها؛ ولكن أبا بكر بعد أن أخذ الخلافة استولى عليها وأخرج عمَّالها من فدك (ابن أبي الحديد المعتزلي، ١٩٩٨م: ١٦/٢٧٤).

وهذه الخطبة من محاسن الخطب و بدائعها، عليها مسحة من نور النبوة، وفيها عبق من أريج الرسالة؛ وقد أوردها المؤلف والمخالف، وقد نُقلت من مصادر عدَّة؛ منها كتاب السقيفة عن عمر بن شبة تأليف أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري من نسخة قديمة مقروءة على مؤلفها المذكور؛ قرئت عليه في ربيع الآخر سنة اثنتين و عشرين و ثلاث مئة روى عن رجاله من عدة طرق؛ ولنا أن نبين رواة الخطبة ومصادرهما من كتب الفريقين الشيعة والسنة لنعلم مدى أهمية هذه الخطبة لدى أهل البيت عليهم السلام؛ بلحاظ أنها وثيقة تاريخية تثبت مظلومية أهل البيت، ولا ندَّعي أننا استوعبنا جميع المصادر، بل ذكرنا ما عثرنا عليه من الوثائق التاريخية؛ التي منها (السيد محمد كاظم القزويني، ١٤١٤هـ: 294-295):

السيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ) في كتاب (الشافعي) بإسناده عن عروة عن عائشة؛ والسيد ابن طاووس في كتاب (الطرائف) بإسناده عن الزهري عن عائشة؛ والشيخ الصدوق بإسناده عن زينب بنت علي (عليهما السلام)؛ ويروي بطريق آخر بإسناده عن زيد بن علي الشهيد عن عمته زينب بنت علي عن أمها فاطمة الزهراء (عليها السلام)؛ وهكذا يروي بإسناده عن أحمد بن محمد بن جابر عن زينب بنت علي (عليها السلام)؛ ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة يروي عن كتاب (السقيفة) تأليف أحمد بن عبد العزيز الجوهري

بأربعة طرق؛ بإسناده عن رجال من أهل البيت عن زينب بنت عليّ (عليها السلام)؛ بإسناده عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام)؛ بإسناده عن الإمام الباقر بن عليّ (عليهما السلام)؛ بإسناده عن عبد الله بن الحسن (عليهما السلام).

ومنها عن عليّ بن عيسى الأربلي في كتابه (كشف الغمة) يروي عن كتاب (السقيفة) للجوهري؛ والمسعودي في (مروج الذهب) يشير إلى هذه الخطبة؛ والطبرسي في كتاب (الاحتجاج)؛ وأحمد بن أبي طاهر في كتاب (بلاغات النساء). إلى غير هؤلاء ممن يطول الكلام بذكرهم، وإسناد هذه الخطبة إلى السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من الأمور المسلّمة عند أهل العلم من المؤرخين وغيرهم. ولنا بحث السبك النصّي في الخطبة الفدكيّة - التي سننتقي من عباراتها ما يتوافق ومطالب البحث - تبعاً لقسمي السبك النصّي؛ ذلك أن السبك النصّي يُدرس من جهة التطبيق على وفق تقسيمات (هاليداي ورقية حسن)؛ إذ قسّم السبك على: السبك النحويّ، والسبك المعجميّ (شريفة بلحوت، ٢٠٠٥-٢٠٠٦ م: ٧٧). فيكون المبحث الأول عن السبك النحويّ وآلياته النصيّة؛ والمبحث الثاني عن السبك المعجميّ وآلياته النصيّة على النحو الآتي:

المبحث الأول: السبك النحويّ في الخطبة الفدكيّة

وقد ضم السبك النحوي في النظرية النصيّة مجموعة آليات لتحقيق نصيّة النصّ من عدمها؛ هي:

- الإحالة () (Reference شريفة بلحوت، ٢٠٠٥-٢٠٠٦ م: ٢٣).
- الاستبدال () (Substitution). محمد خطابي، ٢٠٠٦ م: ٢٠.
- الحذف (Ellipsis).
- الوصل (Conjunction) شريفة بلحوت، ٢٠٠٥-٢٠٠٦ م: ٦٦-٦٧.

وبعد إحصاء النص المختار (الخطبة الفدكيّة)، وجدنا أن أكثر معايير السبك النحويّ وروداً هي السبك بالإحالة، والسبك بالعطف؛ نبيتهما بمطلبين على النحو الآتي: أثر الإحالة في سبك النص، وأثر العطف في سبك النص. المطلوب الأول: أثر الإحالة في سبك نصّ الخطبة الفدكيّة.

الإحالة (Reference): وهي على قسمين رئيسيين؛ هما: الإحالة الداخلية (النصية) (Endophora) ؛ وهي تنقسم بدورها على قسمين هما؛ الإحالة على السابق (قبلية) (Anaphora) ، وتعني أَنَّ المفردة تحيل على كلام قد مرَّ ذكره من قبل، قد يكون في الجملة السابقة، أو قد يكون في جملة أُسبق منها. والقسم الآخر هو الإحالة على اللاحق (بعديّة) (Cataphora) ويُقصد به أَنَّ المُحيل يشير هنا إلى شيء لاحق له، أي: إنَّه يستمد تأويله من كلام يأتي بعده (أحمد حسين حيال، ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١١م: ٧١).

أما القسم الرئيس الآخر فهو الإحالة الخارجية (المقامية) (Exophora) (ويعني أَنَّ المقام الذي يقال فيه النصُّ يُسهِّم في سبكِ النصِّ، عن طريق فهم ما يحيط بالنصِّ من أمور تساعد في فهمه، وتُمكن (المستمع/ القارئ) من فكِّ رموز النصِّ المغلقة بالاستعانة بما يعطيه المقام من عون) (شريعة بلحوت، ٢٠٠٥-٢٠٠٦ م: ١٢٠).

وللإحالة ببعدها الاصطلاحيّ النصّي مفهومان مختلفان عن بعضهما:

الأول: مفهوم (المرجعية) في الدراسات اللسانية التقليدية ولاسيما البنيوية، فعُدَّت الإحالة مجالاً ينبغي إبعاده من اللسانيات على الرغم من ضرورتها في فهم الخطاب البشري (ميلود نزار، ٢٠٠٩: ٢).

الثاني: مفهومها عند اللسانيين النصيين، التي تعني ((العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات)). (روبرت دي بوجراند، ٢٠٠٧م: ١٧٢)، وهي إحالة عنصر على عنصر متقدِّم أو متأخر، وعن طريق هذا التعلق بين أجزاء النصِّ يحصل سبك النصِّ؛ إذ يُدرك ((تحت التضايف الاسمي مجموع الإحالات بين الأسماء في نصِّ ما. والإحالات بين الأسماء بكُلِّ ما في الكلمة من معنى هي ظواهر نصّية داخلية، ومن ثم هي انعكاسات نصّية لأفعال الإحالة النصّية الخارجية، أي لأفعال التعلق الداخلي بما هو خارجي)) (زتسيسلاف واورزنيك، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، ٢٠١٠م: ١٣٦-١٣٧).

وقد ذكر (جون ليونز John Lyons) المفهوم الدلالي للإحالة، فهو يرى أنَّ

العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالية؛ فالأسماء تحيل على مسميات، وتخضع هذه العلاقة لقيدٍ أساسيٍّ هو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المُحيل والعنصر المحال عليه (د. أحمد عفيفي، ٢٠٠١م: ١١٦)؛ (د. محمد خطابي، ٢٠٠٦م: ١٧).

ووظيفة الإحالة في النصِّ إنّها تُشير إلى ما سبق، أو إلى ما سيأتي، والتعويض عنه بالضمير؛ تجنباً للتكرار فتُحقق بهذا الاقتصاد في اللغة (د. صبحي إبراهيم الفقي، ٢٠٠٠م: ١٢٠). فتختصر هذه الوحدات الإحالية العناصر الإشارية، وتجنبُ مستعملها إعادتها عن طريق الذاكرة البشرية التي يمكنها أن تخترق آثار الألفاظ السابقة، وتقرن بينها وبين العناصر الإحالية الواردة بعدها أو قبلها. وعلى هذا تقوم شبكة من العلاقات الإحالية من العناصر المتباعدة في فضاء النصِّ (د. إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ١٩٩٢م: ٧١-٧٢).

وتقسم العناصر اللغوية من حيث وظيفتها الإحالية على قسمين:

- ١- العنصر الإحالي: وهو كلُّ مكون يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره.
 - ٢- العنصر الإشاري: وهو كلُّ مكون لا يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره.
- وقد اختار (بوجراند) الألفاظ الكنائية (الضمائر الشخصية، وضمائر الإشارة، والضمائر الموصولة)؛ من بين أنواع كثيرة تؤدي الإحالة المشتركة ويعمل ذلك بقوله: ((الألفاظ الكنائية من حيث المحتوى في الاستعمال مأخوذة من العبارات التي تشترك معها في الإحالة، وبهذا تختلف الألفاظ الكنائية عن هذه العبارات بطرق نظامية)) (روبرت دي بوجراند ٢، ٢٠٠٧م: ٣٢٠).

وإذا ما بدأنا بتتبع الإحالة الداخلية (النصية) القبلية في الخطبة؛ بعناصرها الثلاثة؛ نجد أن الخطبة قد اكتنزت بأنواع الإحالات الثلاثة (الضمائر الشخصية، وضمائر الإشارة، والضمائر الموصولة)؛ نختار منها في الضمائر الشخصية ما جاء في قولها عليها السلام: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أُنْعِمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أُلْهِمَ، وَالتَّوَكُّلُ بِمَا قَدَّمَ، مِنْ عُمُومٍ نَعَمَ ابْتَدَأَهَا، وَسُبُوحٍ آلاءٍ أَسْدَاهَا، وَتَمَامٍ مِّنْ أَوْلَاهَا؛ جَمَّ عَنِ الْإِحْصَاءِ عَدْدُهَا؛ وَتَأَى عَنِ الْجَزَاءِ أَمْدُهَا؛ وَتَفَاوَتْ عَنِ الْإِدْرَاكِ أَبْدُهَا،

وَاسْتَدْعَى الشُّكْرَ بِإِفْضَالِهَا، وَاسْتَحَمَدَ إِلَى الْخَلَائِقِ بِإِجْزَالِهَا، وَثَنَى بِالنَّدْبِ إِلَى أَمْثَالِهَا)) العلامة المجلسي (١٠٣٧ - ١١١١ هـ)، ١٩٨٣. (29/221):

ففي هذا النص كثير من الضمائر الشخصية التي أحالت إحالات قبلية ساهمت مساهمة فعالة في سبك النص؛ والضمير في عَرَفَ النُّحَاةُ هو: ((ما وَضِعَ لمتكلم، أو مخاطبٍ، أو غائبٍ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ لفظاً أو معنى أو حكماً)) (الرضي الاسترآبادي (ت ٦٨٨ هـ): ٤/٤٠١)؛ والضمير أعرف المعارف في العربية وقد علل ذلك سيبويه بقوله: ((وإنما صار الإضمار معرفة لأنك تُضمِر اسماً بعد ما تعلم أنَّ من يُحدِّث قد عرف من تعني وما تعني، وأنك تريد شيئاً يعلمه)) (سبويه (١٨٠ هـ): ٦/٢).

وتقسم الضمائر في العربية على ثلاثة أقسام (تمام حسان، ١٠٨: ٢٠٠٦): الضمائر المنفصلة مثل: أنا، أنت، هو، هي، هم...؛ الضمائر المتصلة مثل: الكاف في (كتابك) والهاء في (بيته) والواو في (يلعبون)...؛ الضمائر المستترة مثل: أنت، المستتر في (قل)، وهو، المستتر في (نام)، ونحن، المستتر في (نفرح)؛ وتنقسم بحسب الحضور على: متكلم، ومخاطب، وغائب.

ولعل أكثرها وروداً في نص الخطبة هو الضمير البارز المتصل؛ مثل قولها عليها السلام: (مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ ابْتَدَأَهَا... أَسَدَّاهَا... أَوْلَاهَا، جَمَّ عَنِ الْإِحْصَاءِ عَدَّهَا... أَمَدَّهَا... أَبَدَّهَا... بِإِفْضَالِهَا... بِإِجْزَالِهَا... أَمْثَالِهَا... ولا نبالغ إن قلنا: إن مجمل نص الخطبة يحيل إحالة قبلية؛ ومركز الإحالة هو الإفاضات الإلهية من النعم التي لا تُعد ولا تُحصى؛ يأتي بعدها في النص الإحالة بالضمير المستتر الذي يحيل إحالة قبلية أيضاً إلى مركز الإحالة؛ وهو خالق الوجود تعالى؛ وذلك قولها: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أُنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أُلْهِمَ، وَالشُّنَاءُ بِمَا قَدَّمَ)؛ ففي الأفعال (أُنْعَمَ، وَ أُلْهِمَ، وَ قَدَّمَ) ضمير مستتر أحال إحالة قبلية على أول الجملة وهو منعم الوجود (الله) تعالى؛ وساهم الاستتار للضمير في سبك النص؛ ذلك أن التحليل النصي للعناصر الإحالية في الخطبة يظهر أنَّ الضمير (هو) قد ورد في فضاء النص وروداً واسعاً؛ ليحكم بنية النص ويجعلها نسيجاً واحداً عن طريق إحالته على الجملة الأولى في النص وهي قولها

عليها السلام: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ)، وهي في جميعها إحالة قبلية على الجملة الأولى التي تُمثل المَعْلَمَ الأوَّلَ المؤسسي لكلِّ معالم النَّصِّ (د. سعيد حسن بحيري، ٢٠٠٥م: ٩٧)، وهذا الرِّبْط يعود إلى الموضوع الذي تعالجه هذه الفقرة في النص، وهو قضية الإلهوية والعبودية. وقد عالجتها بتعريف الناس بربهم، ومصدر الوجود، ومن أنشأهم من العدم؟ ومن يطعمهم؟ ومن يدبر أمرهم؟

والضمير عند الرّضي من روابط أجزاء الكلام بعضه ببعض؛ فقال: ((وإنما احتاجت إلى الضمير؛ لأنَّ الجملة في الأصل كلام مستقل، فإذا قصدت جعلها جزء الكلام فلا بُدَّ من رابطة تربطها بالجزء الآخر، وتلك الرابطة هي الضمير)) (ابن هشام الأنصاري، - ٢٠٠٥م: ٤٦٥)؛ فالإحالة إلى السابق بالضمير البارز المتصل (ها) العائد على نعم الله ساهمت في تحقّق نصية النص؛ ذلك أن الضمائر من أبرز أدوات السبكِ النَّصِّيِّ؛ لأنّها نائبة عن الكلمات والعبارات والجمل المتتالية، وتتعدى وظيفتها أيضاً إلى كونها تربط بين أجزاء النَّصِّ المقاميّة أو المقاليّة القبليّة أو البعديّة (د. صبحي إبراهيم الفقي، ٢٠٠٠م: ١٣٧/١)، ودلالة الكلام تكون غامضة أحياناً والضمير هو الذي يوضحها ويجمع شتات ما تنثر من عبارات وجمل ليربط بينها، فهي مع غيرها من أدوات السبكِ تكون نسيجاً نصياً عالياً (د. صبحي إبراهيم الفقي، ٢٠٠٠م: ١٦٢/١).

ومنها الإحالة النصية البعدية الواردة في الخطبة؛ والتي ساهمت في سبك النص قولها عليها السلام: (وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتَارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنْ اجْتَبَاهُ، وَاصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنْ ابْتَعَثَهُ إِذِ الْخَلِيقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبَسِثَ الْأَهْوِيلَ مَصُونَةٌ، وَبِنَهَايَةِ الْقَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عَلِمًا مِنَ اللَّهِ بِمَا يَلِ الْأُمُورَ، وَإِحَاطَةً بِحَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ الْمَقْدُورِ) (السيد محمد كاظم القزويني، ١٤١٤هـ: ٢٩٤-٢٩٥).

فياء المتكلم في قولها عليها السلام: (وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)؛ أحوال إحالة نصية بعدية؛ وهي الأقل وروداً في الخطبة؛ فياء المتكلم ضمير متصل أحوال إلى عنصر بعده في النص وهو اسم النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فأفاد الضمير الشخصي -فضلاً عن سبك النص

بالإحالة النصية البعدية - تذكير المتلقين (ابو بكر، والأنصار) بقرب المتكلم الرسالي من الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

أما الإحالة المقامية - وهي القسم الآخر من الإحالة - فكانت أقل وروداً من الإحالات النصية؛ منها في قولها عليها السلام متحدثة عن أبيها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): (تَمَّ قَبْضُهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَبْضَةً رَاقَةً وَاخْتِيَارًا، وَرَغْبَةً وَابْتِئَارًا، فَمَحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ تَعَبِ هَذِهِ الدُّنْيَا فِي رَاحَةٍ، قَدْ خُفَّ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ وَرِضْوَانِ الرَّبِّ الْغَفَّارِ وَمُجَاوَرَةِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى أَبِي: نَبِيِّهِ وَأَمِينِهِ عَلَى وَحْيِهِ، وَخَيْرَتِهِ مِنَ الْخَلْقِ وَرِضْيَتِهِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ) (الطبرسي (من علماء القرن السادس الهجري)، (د.ت): ٢٥٥/١).

فموضع الشاهد في قولها عليها السلام: (صلى الله على أبي: نبيه)؛ ذلك أن الياء في أبي أحالت إحالة مقامية وهي شخص الزهراء عليها السلام؛ ومثله قولها عليها السلام: (وَأَنْتُمْ الْآنَ تَزْعُمُونَ: أَنْ لَا إِرْثَ لِي مِنْ أَبِي: " أَفْحُكَمُ الْجَاهِلِيَّةِ تَبْعُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ "[المائدة: ٥٠]. أَفَلَا تَعْلَمُونَ... بَلَى قَدْ تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ -: أَتَيْ ابْنَتُهُ. وَبِهَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، أُلْغِبَ عَلَى ثُرَابِ أَبِي؟ يَا ابْنَ أَبِي فُحَافَةً؟! أَفِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ تَرِثَ أَبَاكَ، وَلَا أَرِثَ أَبِي (؟؟) (الطبرسي: ٢٥٥/١)؛ فتكرار الإحالة المقامية إلى شخص الزهراء عليها السلام (أبي) في النص في ثلاثة عشر موضعاً ساهم في سبك النص؛ ذلك أن أهمية عود الضمير على المقام وتكراره أن دار أحد تعاريف (علم النص) الحديث مداره؛ وذلك قولهم: (إنه تتابعٌ مُشْكَلٌ من خلال تسلسل ضميري متصل لوحداته اللغوية) (زتسيسلاف واورزنيك، ٢٠١٠م: ٥٥).

نستنتج من تحليل نص الخطبة بتبيان أثر معيار الإحالة بالضمير الشخصي في سبك النص أن:

١. كثرة الاستعمال للضمير المتصل تؤكد ما ذهب إليه النحاة من أن أكثر الضمائر استعمالاً في اللغة هو الضمير المتصل (ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، ١٩٩٠: ١٩٢/٢).
٢. توزعت الإحالات حسب كثرة ورودها بالنص، فكانت الإحالة المقالية القبلية،

- ثم الإحالة المقاميّة، ثم الإحالة المقالية البعديّة.
٣. لم تكن الضمائر كلها تحيل على خارج الجملة فبعضها تعدى في إحالته الجملة وبعضها الآخر اقتصرت وظيفته في ربط عناصر الجملة فيما بينها، مثل ربط المبتدأ بالخبر إذا كان الخبر جملة.
٤. مثّلت الجملة الأولى نواة الإحالة المقالية القبليّة إذ إنّ أكثر الضمائر المتصلة تحيل على عنصر واحد هي تلك التي أحييت على لفظ الجلالة (الله) الذي جاء في الجملة الأولى من النّص، وهذه ظاهرة بارزة في الإحالة النصيّة؛ إذ إنّ أهم عنصر إشاري في النص يرتبط به أكبر عدد من العناصر الإحاليّة، وقد سماها د. الزّناد بـ (السّلميّة الإحاليّة) (د. الأزهر الزّناد، ١٩٩٣ م: ١٣٤).
٥. معظم الضمائر ذات الإحالة المقاميّة كانت تحيل على المنشئ الأوّل للنّص وهي الزهراء عليها السلام.
٦. وظّفت الزهراء (عليها السلام) ضمير المتكلّم المستتر (أنا) في (أقول، أرث، أغلب)، والضمير المتصل (بإاء المتكلّم) في (أبي، إرثي، ابن عمّي، إنّي، ولي، ومني، وحقي، وظلامتي)، والضمير المنفصل الظاهر (أنا) للمتكلّم المفرد؛ في عرض أدلتها بنصّ منسبك بهذه الإحالات بالضمائر، وأكّدت ما لا يُعقل أن يُتجاهل؛ فأكّدت أنها ابنة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وكأنهم صاروا لا يعرفون من هي؟! وقد ابتعدوا عن مسار ما أسّسه والدها نبيّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم).
٧. وأرادت أيضاً بهذا التوظيف للإحالات بالضمائر الشخصية للمتكلّم أن يُستثار المخاطب وأن تجعله موضع العناية التامة في الخطبة لأنّه مخاطب من جهة لإثارة الحقائق فيه، وحكّم على النّص من جهة أخرى؛ ذلك أن المتلقّي هو أحد عناصر الحاكمة على سبك النص بتفاعله؛ وهو ما حصل ببقاء الحاضرين مرّة بعد أخرى كما تذكر المصادر التي نقلت الخطبة المباركة (الطبرسي: ٢٥٥/١).

المطلب الثاني: أثر العطف في سبكِ نصّ الخطبة الفدكيّة.

قال ابن فارس: ((العين والطاء والفاء أصلٌ واحدٌ صحيح يدلُّ على انتشاء

وعِياج ((ابن فارس(ت٣٩٥هـ)، ١٩٧٩م: ٤/٣٥١)؛ ومما تقدّم يظهر أنّ المجال الدلالي الذي يدور فيه (العطف) هو: التثني والميل والرجوع(د. عفت الشرقاوي، ١٩٨١: ٤٨)؛ (د. مصطفى حميدة، ١٩٩٩: ١٨).

أمّا العطف اصطلاحاً؛ فهو يستبطن قسمين من العطف؛ هما:

الأول: عطف البيان: قال ابن السّراج: ((اعلم أنّ عطف البيان كالنعت والتأكيد في إعرابهما وتقديرهما، وهو مُبَيَّن لما تجريه عليه كما يُبَيَّنَان، وإنّما سُمِّيَ عطفُ البيان ولم يُقُلْ أنه نعت، لأنّه اسم غير مشتق من فعل، ولا هو تحليّة، ولا ضرب من ضروب الصفات فعدّل النحويون عن تسميته نعتاً))(ابن السراج، ١٩٩٦: ٢/٤٥)، الثاني: عطف النّسق: النّسق لغة هو: ((ما كان على نظامٍ واحدٍ عامٍّ في الأشياء))(الخليل(١٧٥هـ)، ١٩٨٤: ٥/٨١)، وورد في لسان العرب ((والعربُ تقولُ لطوّارِ الحبلِ إذا امتد مستويّاً: خُذْ على هذا النّسق أي على هذا الطّوّارِ)) (ابن منظور(٧١١هـ)، ١٤١٤هـ: ١٠/٤٢٤).

أمّا في الاصطلاح النحويّ فهو ((حَمَل الاسم على الاسم، أو الفعل على الفعل، أو الجملة على الجملة، بشرط تَوْسُطِ حرفٍ بينهما من الحروف الموضوعة لذلك))(ابن عصفور (ت٦٦٩هـ—)، ١٩٧٢: ١/٢٢٩)، وهو تابع يتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروف العطف(الرضي الاستربادي، (د.ت): ٢/٣٣١)، وقد سُمِّيَ بالنّسق لأنّ فيه عطفُ الثاني على نسق الأوّل وطريقته(د. محمد سمير اللبدي، ١٩٨٥م: ٢٢٤)؛ وبالنّظر إلى قسميّ العطف يلاحظ الباحث أنّ عطف النّسق هو الذي يؤدي وظيفة السبك النّصّي باستعمال الحرف الرّابط، فهو ربطُ الأوّل بالثاني بوساطة الأداة؛ لذا سيكتفي الباحث بالتعرف على بعض مسائله التي تعني المطلب وتنفع الدراسة.

أمّا العطف في ضوء علم لغة النص فقد اتّخذ الصورة الأبرز في ربط هذا التسلسل الجملي، ويرتكز العطف النّصّي على ركيّتين أساسيتين؛ هما: الأولى: أنّ النّصّ يُمثّل في أغلب تحديداته بأنّه مركّب بسيط من جمل تقوم بينها علاقات تناسق(د. إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ١٩٩٢م: ٢٥)؛ والأخرى: يعمل العطف على جمع هذه الجمل في سطح النّصّ، ممّا يؤدي إلى توليد دلالات

أخرى تنتج عن هذا الجمع.

وعرفه (دي بوجراند) بأنه يُشير إلى العلاقات التي بين المساحات السطحية للنص، أو بين الأشياء التي في هذه المساحات، والصور التي ترتبط بأنواع الربط المختلفة يُحسن أن تُعدّ ذات نظامٍ سطحيّ متشابه؛ ويُعد العطف علاقة اتساع واقتصاد، فهو علاقة اتساع من جهة تكوينه علاقات نصية جديدة، إذ يرتبط العنصر اللغويّ بغيره فيكون علاقة اتساع، كذلك ترتبط الجملة بغيرها فتكون علاقة اتساع، وكذلك يُعدّ علاقة اقتصاد؛ إذ إنّ بنيته تتكون من اشتراك التركيب الثاني مع سابقه في الحكم فيعوض حرف العطف عن تكرار الحكم المُسند للعنصر اللغوي (د. عمر أبو خرمة، ٢٠٠٤م: ١٨٤).

وهو مشاركة بين عنصرين يحيل الثاني على الأول ويرتبط به؛ ويتجاوز العطف المظهر الشكليّ إلى مستوى جماليّ يتكثف به النصّ؛ إذ يكسب به النصّ حركيةً دلاليةً تلتقي بها مكونات النصّ وتعود إلى مركز النصّ، ممّا ينتج عنه تناغم هذه المكونات وترباطها على الرغم من تباعدها (د. محمد عبد الباسط عيد، ٢٠٠٩م: ١٩٧)؛ فحروف العطف ذات علاقات دلاليةً مختلفة، قد تكون هذه العلاقات صريحة أو ضمنية (د. صبحي إبراهيم الفقي، ٢٠٠٠م: ٦١)، ووظيفة هذه الحروف داخل النصّ هي تكوين جمل مركبة من جمل بسيطة (فان دايك، ٢٠٠٠م: ٨٣)؛ فالمبدأ الذي يحكم العطف هو تناظر الوظائف التركيبية والدلالية والتداولية (د. محمد خطابي، ٢٠٠٦م: ٢٦٣)، وهي وسيلة لتفسير كيف توجد العلاقة الدلالية في سطح النصّ (د. صبحي إبراهيم الفقي، ٢٠٠٠م: ١١٠)؛ وتتكشف وظيفة العطف في سبك النصوص عن طريق:

١- كثرة ورود العطف في النصّ.

٢- الأثر الدلاليّ الذي يجلبه العطف للنصّ.

وجاء توظيف العطف بالحروف في سبك نص الخطبة بحسب الجدول الآتي:

ت	حرف العطف	مرات ورود الحرف
1	الواو	232
2	الفاء	37
3	ثُمَّ	5
4	حَتَّى	4
5	أَوْ	3
6	أَمْ	3

ومن النظر في الجدول تتبين أن حرف (الواو) أكثر حروف العطف وروداً في الخطبة، ومن بعده (الفاء)، و(ثُمَّ)، و(حَتَّى)، و(أَوْ)، و(أَمْ)، ولم ترد حروف (لا، لكن، إمّا، بل) عاطفة في الخطبة.

وللباحث أن يختار أكثر حروف العطف وروداً في الخطبة؛ وهما (الواو، والفاء)؛ لأن البحث موضع إيجاز؛ فمن فقرات الخطبة التي ورد فيها العطف بالواو قولها عليها السلام: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أُنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أُلْهِمَ، وَالتَّائِبُ بِمَا قَدَّمَ، مِنْ عُمُومِ نِعَمِ ابْتَدَأَهَا، وَسُبُوحِ آلَاءِ أَسَدَاهَا، وَتَمَامِ مَنِّ أَوْلَاهَا؛ جَمَّ عَنِ الْإِحْصَاءِ عَدَدُهَا؛ وَتَأَيَّ عَنِ الْجَزَاءِ أَمَدُهَا؛ وَتَقَاوَتْ عَنِ الْإِدْرَاكِ أَبْدُهَا، وَاسْتَدْعَى الشُّكْرَ بِإِفْضَالِهَا، وَاسْتَحَمَدَ إِلَى الْخَلَائِقِ بِإِجْزَالِهَا، وَتَنَّى بِالنَّدْبِ إِلَى أَمْثَالِهَا)، (الطبرسي: ٢٥٥/١).

فالمتمل في النص ببُعده اللغوي يجد أن العطف بالواو جاء للربط بين الجملة الأولى في هذه الفقرة في قولها (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أُنْعَمَ) وبين قولها عليها السلام: (وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أُلْهِمَ، وَالتَّائِبُ بِمَا قَدَّمَ)، وربطت بين ثلاث جمل داخل بنية النص، و(الواو) هي قرينة لفظية تؤدي وظيفة الربط بين المعطوف والمعطوف عليه، وذهب سيبويه إلى أنها تدل على مطلق الجمع ولا دليل فيها على تقدّم أحدهما على الآخر (سيبويه، ١٩٨٨: ٤/٢١٦)، أي إنها تفتقد للدلالة

على الزّمن النّحويّ (د. مصطفى حميدة، ١٩٩٩م: ٥٢).

وذهب المالقي (ت ٧٠٢هـ) إلى أنّ (الواو) حينما تعطفُ جملة على جملة، لا يلزم التّشريك في اللفظ ولا في المعنى، ولكن في الكلام خاصّة؛ ليعلم أنّ الكلامين فأكثر في زمانٍ واحد أو في قصد واحد (أحمد المالقي (٧٠٢هـ—)، ١٩٧٥م: ٤١٥)؛ في حين يرى (فان دايك) أنّ (الواو) هي الرّابط الوحيد الذي يجوز أن يُعبّر عن مختلف أنواع الرّبط (فان دايك، ٢٠٠٠م: ٩٠).

ومن النّظر إلى الجمل الثلاث يظهر أنّ العطف تمّ بين جملة خبريّة (الحمد لله على أنعم) وجملة خبريّة أخرى (وله الشكر على ما ألهم)، كذلك يُلاحظ أنّه من عطف الاسميّة على الفعلية وهذا ممّا تختص به (الواو) عن حروف العطف الأخرى. وهذان النوعان من العطف ممّا لم يتفق عليه النّحاة (الزركشي (ت ٧٩٤هـ—)، (د.ت: ١٠٣-١٠٢/٤). والظاهر جوازه بدليل وروده في الخطبة المباركة من عصر الاستشهاد النحويّ.

عملت (الواو) إذاً على سبك النّصّ عن طريق ربط جملة بعضها ببعضها الآخر، وقد أدّت كذلك وظيفة دلاليّة هي دلالاتها على تسلسل القضايا الواردة في فقرات النصّ وجمله.

ومن العطف بالفاء قولها عليها السلام: (إِيهَا بَنِي قَيْلَةَ؛ أَهْظُمُ ثَرَاثَ أَبِي، وَأَنْتُمْ بَمَرَأَى وَمَسْمَعٍ وَمُنْتَدَى وَمَجْمَعٍ، تَلْبِسُكُمُ الدَّعْوَةَ، وَتَشْمَلُكُمُ الْخَبْرَةَ؛ وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعِدَّةِ وَالْأَدَاةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمْ السِّلَاحُ وَالْجَنَّةُ، تُؤَافِكُكُمْ الدَّعْوَةُ فَلَا تُجِيبُونَ، وَتَأْتِيكُمْ الصَّرْحَةُ فَلَا تُغِيثُونَ)، (...)(الطبرسي: ٢٥٥/١).

فالفاء قد حفظت التّرتيب البين هنا، ودلالة التعقيب واضحة تماماً؛ فالمدة الزّمنيّة بين موافاة الدعوة وعدم الإجابة متوافقة زمنياً، فتحديد دلالة الفاء لابدّ أن يعود إلى السياق الذي ترد فيه؛ ذلك أن مجال النّظر في الزّمن النّحوي هو السياق، وتؤدي القرائن المقاميّة والمقالية دورها في تحديد هذا الزّمن (تمام حسان، ٢٠٠٦: ٢٤٢). ممّا تقدّم يتبين للباحث ما يأتي:

١- إنّ ما ذهب إليه كثير من النّحاة في معاني الواو والفاء ودلالاتها ورد

متوافقاً مع بعض الاستعمالات في الخطبة لهذين الحرفين.

٢- مثل السياق النصّي للخطبة الفیصل في تحديد دلالات حروف العطف؛ فلا بُدّ من الاحتكام إليه؛ لمعرفة دلالة حرف العطف.

المبحث الثاني: السبك المعجمي في الخطبة الفدكية

القسم الآخر من وسائل السبك هو السبك المعجمي، والسبك - هنا - يحدث حينما تؤدي المفردات المعجمية أثرها في سبك النصّ؛ ويقسم السبك المعجمي على قسمين هما: التكرار، والمصاحبات المعجمية (د. عزة شبل محمد، ٢٠٠٧م: ١٠٩-١١٠):

المطلب الأول: التكرار ((Reiteration)). وهو شكل من أشكال السبك المعجمي يتطلب إعادة عنصر في النصّ، ويقسم التكرار على: أ- التكرار التام، ب- تكرار شبه مرادف، ت- تكرار بعنصر مطلق، ث- تكرار باسم عام. والمثال الآتي يوضح هذه الأنواع (د. محمد خطابي، ٢٠٠٦م: ٢٤-٢٥):

شرعت في الصعود إلى القمة	}	الصعود
		التسلق
		العمل
		الشيء
هو		

سهل للغاية.

ويرى (واورزنيك) أن التكرار يقع ضمن الإحالة الاسميّة؛ إذ يشير إلى أنّ الإحالة الاسميّة تشتمل ((على تكرير الاسم المحتمل. ويحدث التكرير إمّا في صياغة متساوية في الشكل أو متنوعة صرفياً في مقابل الاسم المنطلق النصّي. ونعُدّ من الأسماء المتساوية في الشكل أيضاً تلك الأسماء التي تقدّم تبعاً لتكرير التعيين الاسمي الانتقال من المستوى النصّي إلى الجدة النصّية إلى المعلومة النصّية)) (زتسيسلاف واورزنيك، ٢٠١٠م: ١٣٧).

ويرى د. الزنّاد أنّ التكرار هو نوع من أنواع الإحالة القبليّة وسمّاه بـ(الإحالة التكراريّة) وهي: ((تكرار لفظٍ أو عدد من الألفاظ في بداية كلّ جملة من جمل النصّ قصد التأكيد)) (د.الأزهر الزنّاد، ١٩٩٣م: ١١٩).

ويمثل التكرار الوسيلة الأكثر تحقيقاً لفائدة الربط؛ إذ إنّهُ ((خير وسيلة للتذكير بما سبق، وإنّه حين يعدل عنه إنّما يكون ذلك توخياً لمبدأ الاختصار)) (د. تمام حسّان، ٢٠٠٦م: ١/١٩٥)؛ ويكون القصد الأساسي فيه التذكير والترسيخ فيشُدُّ التفاتُ السامع بالإلحاح والتأكيد على جانبٍ مهم من اللفظ أو المعنى، وهو بهذا ذو وظيفة تداوليّة إعلامية تعمل على إثارة التوقع لدى السّامع للموقف الجديد (ميلود نزار، ٢٠١٠م: ١٢)؛ وهناك تأثير نفسي لإعادة اللفظ، وهو ثبات العناصر المكررة في الذاكرة، ممّا يؤدي إلى جعل نقطة الاتصال أكثر وضوحاً عند ذلك (روبرت دي بوجراند، ٢٠٠٧م: ٣٠٤).

ويتمثّل السبك المعجمي بتكرار كلمات بعينها في الخطبة المباركة؛ أي التكرار التام؛ منها:

أولاً: لفظ الجلالة (الله).

تكرر لفظ الجلالة في خمسين موضعاً؛ وكان حاضراً بكثافة واضحة؛ لأنّه يُمثّل الحكم الذي تحتكم إليه الزهراء عليها السلام، وتبيان مظلوميّة الزهراء عليها السلام واحتكامها إليه تعالى جعل الخطبة مرتبطة ارتباطاً شديداً به تعالى، فقد ورد في الجملة الأولى في أول الخطبة؛ وذلك قولها: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أُنْعِمَ... وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ) (الطبرسي (د.ت): ١/٢٥٥)؛ وختمت خطبتها بلفظ الجلالة في الفقرة الأخيرة في قولها عليها السلام: (فَدُونَكُمْوهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبْرَةَ الظَّهْرِ، نَقَبَةَ الْحَفِّ، بَاقِيَةَ الْعَارِ؛ مَوْسُومَةً بَعْضَبِ اللَّهِ وَشَنَارِ الْأَبَدِ؛ مَوْسُومَةً بِ ((نَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ (*) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ (*) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ)) [الهمزة: ٦-٨] فَبِعَيْنِ اللَّهِ مَا تَفْعَلُونَ) وقد يعود سبب هذا التكرار إلى تأكيد الامتداد الرسالي للزهراء عليها السلام؛ لذا احتاج للتكرار حتى ترسخ المفاهيم والمصطلحات والتعاليم الإسلامية في ذهن المسلمين، فالتكرار يزيد الشيء المكرّر تمييزاً من غيره، فالأشخاص الذين يقع عليهم النّظر كثيراً يصيرون

أكثر وضوحاً في الإدراك، وكذلك الأقوال أو الأحكام التي تتكرر على السمع وتكون أكثر وروداً على اللسان؛ لذا كان التكرار والإلحاح فيه هو الركن الأساسي الذي تقوم عليه عمليات الدعاية والإعلام (د. عز الدين علي السيد، ١٩٨٦م: ١٣٦).

وقد أدى هذا النوع من التكرار وظيفة دلالية فضلاً عن وظيفته في سبك النص، فإن امتداده من بداية النص إلى آخره، هو تجسيداً لمعنى الإلهية والقيومية وسيطرة الله تعالى على كل شيء وهذا ما كانت الزهراء عليها السلام تريد إيصاله إلى المتلقين وتذكيرهم به تعالى، تثبيته في عقول الناس، فإن (من أصول الكلام تجدد المعنى بتجدد اللفظ أو قلّ التقدّم في المعنى بالتقدّم في اللفظ، فإذا تحقق لفظ ما تمّ به معنى مناسب له، فإذا زدت إلى ذلك اللفظ لفظاً آخر زدت إلى المعنى معنى جديداً)) (د. محمد الشاوش، ٢٠٠١م: ٧٥٣/٢).

ولم تكنف أم أبيها عليها السلام بإيراد لفظ الجلالة (الله) بل زادت عليه تكرار ما يدل على الذات الإلهية من صفات أو أسماء حسنى لله - سبحانه وتعالى - فكررتها في موضعين في الخطبة؛ كما في قولها عليها السلام: (فإن الله لَعَنِي حَمِيدٌ)، وفي هذا بيان لمعاني إلهية جديدة؛ فآلهتهم لم تكن قادرة، بل هي فقيرة، قاصرة، غير حكيمة، عاجزة عن تدبير أمرها فضلاً عن تدبير أمور الناس؛ فهذه الشبكة من الكلمات المتكررة في النص تسهم في الربط بين المحتوى القضوي للجمل، وتسهم أيضاً في التأكيد على القضية الأساسية في النص؛ فالتكرار لا يكون تأكيداً إلا إذا توفر أصل التوكيد وهو جعل الشيء ثابتاً في ذهن المخاطب (د. محمد الشاوش، ٢٠٠١م: ٧٥٧/٢).

ثانياً: الإخلاص.

تكررت كلمة الإخلاص في أربع مواضع؛ وهي في قولها عليها السلام: (وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَلِمَةً جَعَلَ الْإِخْلَاصَ تَأْوِيلَهَا... وَفُهِمَتْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيْضِ الْخِمَاصِ... وَالصِّيَامُ تَثْبِيثاً لِلْإِخْلَاصِ... وَحَرَّمَ اللَّهُ الشَّرْكَ إِخْلَاصاً لَهُ بِالرَّبُوبِيَّةِ) (الطبرسي (د.ت): ٢٥٥/١-٢٥٨)؛ فالإخلاص في الصيام عمل جوانحي وجوارحي؛ إذ قد يمكن أن يصلي الإنسان

قصد الرياء، ولا يمكن أن يصوم ويطوي نهاره جائعاً عطشاناً، ويتحمل المشقة لسبب الإمساك والامتناع عما يشتهي بقصد الرياء، فالصوم من أظهر العبادات الخالصة لوجه الله الكريم (السيد محمد كاظم القزويني، ١٤١٤هـ: ٣٠٦)؛ وممّا تقدم يتبين للباحث ما يأتي:

١- يُعد التكرار وسيلة من وسائل السبك لما يؤديه من ربط أجزاء النص عن طريق امتداد بعض الكلمات بمعناها ولفظها أو بلفظها فقط في فضاء النصّ.

٢- أدى التكرار بأنواعه كافة إلى وحدة الموضوع الأساسي للخطبة، فقد وظّف التكرار لترسيخ مظلومية الزهراء عليها السلام، ولبيان أحقيتها وامتدادها الرسالي قبل النسبي إلى خير خلق الله النبيّ محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم).

المطلب الثاني: المصاحبات المعجميّة Collocation

هناك علاقة بين أيّ زوج أو مجموعة أزواج من المفردات المعجميّة التي تتحد بطريقة ما فيما بينها، فبعض الأزواج من الكلمات يمكن أن تسهم في سبك النصّ عن طريق توارد هذه الأزواج بالفعل أو بالقوة لارتباطها في الحكم الخاص بهذه العلاقة أو تلك، وتنقسم المصاحبات على (د. عزّة شبل محمد، ٢٠٠٧م: ١٠٩-١١٠):

١. الارتباط بموضوع معين: وسماه د. محمد خطابي — (التلازم الذكري) (د. محمد خطابي، ٢٠٠٦م: ٢٥)، ويتمّ الرّبط بوساطته بين العناصر المعجميّة لظهورها في سياقات متشابهة مثل: ماركس، التغير الاجتماعي.
٢. التضاد: تتربط الكلمات بعضها مع بعضها الآخر عن طريق أشكال التقابل بأنواعها المختلفة مثل المكملات: (ولد . بنت)، (يقف . يجلس)؛ والمتعارضات: (يحب . يكره)، (يبرد . يسخن)، والمقلوبات: (يأمر . يطيع).
٣. علاقة الجزء بالكل: مثل: (صندوق - غطاء الصندوق).
٤. علاقة الجزء بالجزء: مثل: (فم - أنف).
٥. الاشتمال المشترك: مثل: (كرسي - منضدة) فهما كلمتان تشتمل عليهما كلمة

أثاث.

٦. الانتماء إلى مجموعة منتظمة: مثل: (السبت، الأحد، الاثنين،... إلخ) مجموعة أيام الأسبوع.

٧. الانتماء إلى مجموعة غير منتظمة: مثل: (أحمر، أزرق، أخضر... إلخ) مجموعة الألوان.

وقد صرّح (فيرث) بأنّ المعنى لا ينكشف إلا عن طريق تسييق العنصر اللغوي، أي: وضعه في سياقات مختلفة، فمعنى الكلمة عنده هو: استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تُستعمل بها (أحمد مختار عمر، ١٩٩٨م: ٦٨ - ٦٩)، علاقات النصّ الداخليّة تتداخل أشدّ تداخلاً، وأوثق اتصالاً؛ ذلك أنّ ألفاظ اللغة ((لم توضع لتُعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد)) (عبد القاهر الجرجاني، ١٩٩٢م: ٥٣٩)؛ من هنا اشتق النصّيون تعريفهم للمصاحبة المعجميّة بأنّها: ((الورد المتوقّع أو المعتاد لكلمة ما مع ما يناسبها أو يتلاءم معها من الكلمات الأخرى في سياقٍ لغوي ما، مثل: البقرة مع اللبن، والليل مع الظلمة)) (عثمان أبو زيد، ٢٠١٠م: ٢٨٩)؛ وقد قسّم د. تَمَام حَسَّان علاقات المصاحبات المعجميّة على النحو الآتي (تمام حسان، ٢٠٠٠: ٢٤٩/١ - ٢٥٠):

- ١- علاقة التلازم: وهو أن يكون لفظٌ ملازم للفظ.
- ٢- علاقة التوارد: وهو مناسبة لفظٍ لفظٍ آخر؛ إذ لا يمتنع أن يصاحبه.
- ٣- علاقة التنافي: وهو تنافر لفظ مع لفظ آخر، ولا يردان معاً متواليين في تركيب واحد.

فمن علاقة التلازم الواردة في الخطبة قولها عليها السلام: ((الْمُتَنَعُ عَنِ الْأَبْصَارِ رُؤْيَاهُ، وَمِنَ الْأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهُ،...)). (الطبرسي (د.ت): ٢٥٦/١)؛ فالتلازم في المصاحبات اللغويّة بين: (الرؤية - والإبصار)، (الصفة - واللسان)، (الكيفيّة - والوهم)؛ فعلاقة التلازم بين المصاحبات اللغويّة أسهمت في سبك النص؛ ومثله قولها عليها السلام: ((وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ)) (الطبرسي (د.ت): ٢٥٨/١)؛ فقد لازمت لفظة

(القويم) لفظة (الدين)، و(المستقيم) لفظة (الصراط) في عموم الاستعمال اللغويّ والقرآنيّ (ينظر على سبيل المثال: الفاتحة ٦، البقرة ١٤٢، وآل عمران ٥١، والمائدة ١٦، ويونس ٢٥...)، فالمعنى اللغوي للصراط: السبيل أو الطريق (ابن منظور، ١٤١٤هـ: ٣٨٤/٧)؛ وعلى هذا فقد تدلّ اللفظة - دون تلازم - على طريق الكافرين وطريق الضلال، وعلى طريق المؤمنين طريق الهداية؛ لذا لزم مجيء (مستقيم) لتحديد الدلالة بنوع واحد من السبل وهو سبيل الهداية. إنّ تحديد الدلالة، وجعل الصراط يدلّ على الإسلام أو القرآن (الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، ١٩٨٤م: ٦٢/٨)، أدى إلى سبك النصّ عن طريق ربط اللفظة بمدلولها السياقي، فهذا الصراط واحد ((لا اختلاف فيه أصلاً فلا يختلف بحسب الأحوال، ولا بحسب الأزمان، ولا بحسب الأجزاء، ولا بحسب الأشخاص السائرين فيه، ولا بحسب المقصد)) (السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٩٨٣م): ٢٤٧/٧).

مما تقدّم يتبين للباحث ما يأتي:

١- يختلف السبك بالمصاحبات المعجميّة عن السبك بالإحالة أو التكرار؛ ذلك أنّ السبك بالمصاحبات يكون حينما تكون الألفاظ قريبة عن بعضها، في حين يتكوّن السبك بالإحالة، أو التكرار بطول المسافة بين العنصرين الإحالي والإشاري.

٢- أن تلازم المصاحبات اللغويّة أسهم إسهاماً فاعلاً بسبك النص في بعده المعجمي؛ ذلك أن المعجم الذهني للمتلقّي، والخبرة اللغويّة عند المتلقين (المسلمين) تجعل منشئ النص (الزهراء عليها السلام) يختار من المصاحبات ما يتلاءم والغرض من الخطبة (التذكير بميثاق المسلمين).

الخاتمة

بعد هذه الجولة المفيدة مع سيدة نساء العالمين بحثاً عن معايير السبك النصّي في خطبتها الغراء المباركة؛ نستخلص الآتي:

١. أثبت البحث نصيّة الخطبة واتساقها؛ ذلك أن معايير نظريّة النص جاءت متطابقة مع ما ورد من توظيف لأدوات السبك النحوي؛ كالإحالة بالضمائر الشخصية، والسبك بعطف النسق؛ أو بتوظيف معايير السبك المعجمي

- بالتكرار التام، أم بالمصاحبات اللغويّ؛ كلّ ذلك أسهم مساهمة فاعلة بسبك النص وتأثيره في المتلقّين.
٢. كثرة الاستعمال للضمير المتصل تؤكد ما ذهب إليه النحاة من أن أكثر الضمائر استعمالاً في اللغة هو الضمير المتصل.
٣. توزعت الإحالات حسب كثرة ورودها بالنّصّ، فكانت الإحالة المقاليّة القبليّة، ثم الإحالة المقاميّة، ثم الإحالة المقاليّة البعديّة.
٤. مثّلت الجملة الأولى نواة الإحالة المقاليّة القبليّة إذ إنّ أكثر الضمائر المتصلة تحيل على عنصر واحد هي تلك التي أحييت على لفظ الجلالة (الله) الذي جاء في الجملة الأولى من النّصّ، وهذه ظاهرة بارزة في الإحالة النصيّة؛ إذ إنّ أهم عنصر إشاري في النص يرتبط به أكبر عدد من العناصر الإحاليّة، وقد سماها د. الرّزّاد بـ(السّلميّة الإحاليّة).
٥. إنّ ما ذهب إليه كثير من النّحاة في معاني الواو والفاء ودلالاتها ورد متوافقاً مع بعض الاستعمالات في الخطبة لهذين الحرفين.
٦. يُعد التكرار وسيلة من وسائل السبك لما يؤديه من ربط أجزاء النص عن طريق امتداد بعض الكلمات بمعناها ولفظها أو بلفظها فقط في فضاء النّصّ.
٧. أدى التكرار بأنواعه كافة إلى وحدة الموضوع الأساسي للخطبة، فقد وظّف التكرار لترسيخ مظلوميّة الزهراء عليها السلام، ولبيان أحقيّتها وامتدادها الرسالي قبل النسبيّ إلى خير خلق الله النبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم).
٨. يختلف السبك بالمصاحبات المعجميّة عن السبك بالإحالة أو التكرار؛ ذلك أنّ السبك بالمصاحبات يكون حينما تكون الألفاظ قريبة عن بعضها، في حين يتكوّن السبك بالإحالة، أو التكرار بطول المسافة بين العنصرين الإحالي والإشاري.

موارد البحث:

- أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق القاهرة ٢٠٠١م.

- ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة؛ تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ابن عصفور علي بن مؤمن (ت ٦٦٩هـ): المقرب، تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري، ط١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ): لسان العرب؛ دار صادر - بيروت، ط٣، - ١٤١٤.
- ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك و محمد علي حمد الله، مراجعة د. سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- أبو الفتح عثمان ابن جني، (ت ٣٩٢هـ): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العام، بغداد، ط ٤، ١٩٩٠م.
- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت ١٨٠هـ): الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، القاهرة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ): دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط ٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م.
- أبو بكر محمد بن سهل بن السراج (ت ٣١٦هـ): الأصول في النحو، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- أحمد بن عبد النور المالقي (ت ٧٠٢هـ): رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، (د.ط.).
- أحمد حُسين حيال: السُّبُكُ النَّصِّي في القرآن الكريم دراسةً تطبيقيةً في سورة الأنعام، رسالة ماجستير، كلية الآداب في الجامعة المستنصرية، ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١١م.
- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب القاهرة، ط ٥، ١٩٩٨م.
- الأزهر الزُّبَّاد: نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٣م.
- إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد: مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند و ولفجانج درسلر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- تمام حسان:
- البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م.
- اللغة العربية معناها ومبناها د. عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النصّ النثري، مكتبة الآداب

- القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ): العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٤م.
- روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٧م.
- الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، بتحقيق مجموعة من الأساتذة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ٢، ١٩٦٨ - ٢٠٠١م.
- زتسيسلاف واورزنيك: مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار - القاهرة، ط ٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- سعيد حسن بحيري: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٩٨٣م): الميزان في تفسير القرآن، منشورات المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، (د.ت).
- السيد محمد كاظم القزويني: فاطمة الزهراء (عليها السلام) من المهد إلى اللحد، المطبعة العلمية، قم، ١٤١٤هـ.
- الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ): نهج البلاغة، مجموعة خطب للإمام علي عليه السلام، جمعها شرح الشيخ محمد عبده، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠١٢م.
- شريفة بلحوت: الإحالة دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب (COHEION IN ENGLISH) لـ (م. أ. ك. هاليداى ورقية حسن)، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات جامعة الجزائر، العام الدراسي ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦م.
- صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، صفر ١٤١٣هـ - أغسطس ١٩٩٢م.
- الطبرسي (من علماء القرن السادس الهجري): الاحتجاج، تح: الشيخ إبراهيم البهادري، دار الأسوة، إيران.
- عثمان أبو زنيد: نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عالم الكتب الجديد الأردن، ط ١، ٢٠١٠م.
- عز الدين علي سليم: التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- عزّة شبل محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم دراسة أسلوبية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ١٩٨١م.

- عمر أبو خرمة: نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى، د. عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- فان دايك:
- ١. علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ٢. النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت لبنان، ٢٠٠٠م.
- محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس نحو النص، جامعة منوبة، تونس، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- محمد الطاهر بن عاشور، (ت ١٢٨٤هـ): التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- محمد بن الحسن الرضيّ الإسترابادي (ت ٦٨٨هـ): شرح الرضي على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ط٢، (د.ت).
- محمد بن عبد الله الزركشي، (ت ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث القاهرة، (د.ت).
- محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- محمد سمير اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- محمد عبد الباسط عيد: النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
- مصطفى حميدة: أساليب العطف في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ط١، ١٩٩٩م.
- ميلود نزار:
- ١. الإحالة التكرارية وأثرها في التماسك النصي بين القدامى والمحدثين، مجلة علوم إنسانية، السنة السابعة، ع ٤٤، شتاء ٢٠١٠م.
- ٢. نحو نظرية عربية للإحالة الضميرية دراسة تأصيلية تداولية، مجلة علوم إنسانية، السنة السابعة، ع ٤٢، صيف ٢٠٠٩م.

مظاهر أسلوبية في مشاهد قرآنية

دراسة في نماذج مختارة

م.م. عمر رعد أسعد

المديرية العامة لتربية ديالى

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد...

إنّ دراسة النصّ القرآني تستند إلى الوقوف عند أسلوبه البياني الذي اقتضته سياقاته التركيبية؛ إذا أنها توظف تنوعاً في الأساليب التي تشتمل عليها أنظمة اللغة بمستويات التكامل الدلالي والتشكيل الأسلوبي، وتعد المشاهد القرآنية نصوصاً تصويرية بنمط توالي اللقاط وتتابع الصور في سياق لغوي ينطوي على مظاهر أسلوبية تتشكل بأبعاد جمالية وأنظمة لسانية متنوعة توافقت فيما بينها لتقديم دلالات مقصودة وأخرى تُظهرها من خلال بنى الاستدعاء والتجاور والمصاحبة والتوليد من خلال توظيف البعد الحسيّ وقضايا التخيل الذهني ومجالات الانفعال النفسي.

تنتقل الدراسة من حضور يتجه نحو السياق القرآني للتناول أهم المظاهر الأسلوبية التي تطغى على لغة مشاهدته والتي تشكل أسلوباً بيانياً يستدعي حضور مكان الجمال في نظمه البنائي، من هنا فإنّ التوجّه الإجرائي في الدراسة تستعين بوسائل القراءة الحديثة التي تضفي على النصوص ثراءً يمسّ قضايا الأدبية في أبعاد التواصل والتخاطب، فهي من جانب آخر تتّصل بوسائل الإجراء النقدي في مفاهيم الأسلوبية وقضايا التنازع بين القديم والحديث وأبعاد الرؤى والنظر إلى حدود المصطلحات التي تسهم في تشكيل النصّ وتبرز معانيه والتي تستدعي طبيعة المنهج في طرائق التناول السياقي؛ لذا فإنّ الدراسة تكتفي بنماذج مختارة تطرح عليها رؤية إجرائية لثلاثة أنماط أسلوبية تتمظهر في سياقات المشاهد القرآنية تبعاً لما تقتضيه مناسبة الكتابة، فتوقفت عند ثلاثة

مباحث لمظاهر (الحركة، والتكثيف، والتوازي) بوصفها أنماطاً أسلوبية في سياقاتها ثم مدخل تنطلق منه رؤية البحث فيجسد تنظيراً للإجراء التحليلي في أبعاد المشهد القرآني ومركزاته الأسلوبية، كذلك اشتملت الدراسة على مقدّمة وخاتمة تقترح النتائج التي خلصت إليها، ثم إشارة إلى المصادر والمراجع المعتمدة.

ظواهر أسلوبية في مشاهد قرآنية:

دراسة في نماذج مختارة

مدخل:

شهد الدرس اللساني تحصيلاً هائلاً في مباحث الاتصال الخطابي، وقد قاد الاهتمام بتشكلات اللغة في طرائق استعمالها المشهدي إلى فتح آفاق جديدة تجاوزت النظر للغة بأنها فعل أحادي الجهة وأنّ النص هو المنتج للدلالة إلى المتلقي الذي أصبح شريكاً فاعلاً في تأسيس بعد حسي ومفهوم خطابي^(١)، فيسعى إلى ربط دلالة المشهد بسياقات تشكّله وطرائق استعمال اللغة للوقوف على ما يكتنف دلالاته من أبعاد وما يتّصل بالمواضع اللغوية وحمولتها المرتبطة بخصوصية ذلك التشكّل، ويمثّل الجانب الأسلوبي في تشكلات المشهد البعد الأهم في التحليل اللغوي؛ إذ أنّها تتشكّل بتضافر أنساق التوليد النصّي التي تؤدّي إلى انبثاق مظاهر لغوية بوظائف المخاطبة والاتصال، فاللغة تستند إلى مرتكزات تركيبية وأنساق أسلوبية تتّصل بوسائل بيانية بوصفها مستكمالات الأداء اللغوي فتبرز قيم الدلالة، ولما كان المشهد تعبير يختزن دلالات ترتبط بمظاهر التشكيل الأدبي ومرهونات التصوير، فإنّ بناءه النصّي يشكل منظوراً لسانياً بمهيمينات تتمظهر أسلوبياً ووظائفياً تزود المتلقي بأبعاد ذلك التّمظهر وفاعليّة حضوره، فإنّ دراسة المظهر اللغوي تعبير عن إدراك بؤرة التشكّل النصّي وموضوعيّةه بأسس بنيويّة تستند إلى أسلوب خاصّ يقتضي تشكّل الدلالة بتأثيره، وإذا كان الأسلوب نظاماً، ((فإنّه نظام متضمّن في النظام اللغوي، بمعنى أنّ قواعده المتناهية قادرة على إنتاج أشكاله غير المتناهية))^(٢)، وأنّ حضور آلياته حضورٌ نسقي يصبّ في عمليّة التّواصل اللغوي ويستند إلى معايير تشكّل الدلالة، ما دامت اللغة ((عبارة عن الألفاظ الموضوعية للمعاني))^(٣)، فتحقّق اتصال

التشكيل اللساني بإجراء التحليل الأسلوبي ((فما تلاحظه الأسلوبية يتجلى في البحث عن معنى العبارة وعن سماتها الوجدانية، وعن مكانها ضمن النسق التعبيري وفي الطرق التي تعطي لهذه العبارة صورتها))^(٤)، والإجراء الأسلوبي هو عملية ((وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات))^(٥) فتبرز تكاملاً في عملية التواصل اللغوي والخطاب النصي في المشهد.

توظف الأسلوبية المشهدية دينامية البنى التي تُظهر جماليات التعبير، فتبرز العناصر المسؤولة عن بيان المقاصد وتكشف عن وجوه التمايز في خصوصية التشكيل الأسلوبي، فهي تبحث في أسس يحتكم إليها المعنى الناتج عن دقة وضع الألفاظ توحياً للمعنى الذي تقتضيه المشاهد في عملية اختيار مظاهر تستدعيها سلطة الدلالة في ضوء البنية السياقية فتحقق تنوعاً في التشكل اللغوي، فالرؤيا التي يسند إليها البحث كامنة في النسق اللغوي ومستويات الهيمنة النصية التي تجعل المشهد يحيل إلى اتساع دلالي يفسح للمتلقي زاوية استكشاف أبعاد صورية تستدعي التحليل، فاللغة تعبر والأسلوبية تضمن قيم المستوى الوصفي والدلالي بمعايير تستند إلى ظواهر ميتا لسانية يمكن من خلالها بناء نموذج أسلوبي بعلاقات تحدث تأثيراً في التركيب والدلالة، ولما كانت الأسلوبية منهجاً لسانياً مصحوباً بوظيفة يعتمد على القواعد البنيوية في دراسة اللغة^(٦)، فهي ((علم خاص مواز لعلم اللغة يبحث في الظواهر نفسها))^(٧) ضمن كينونة الخطاب النصي فيتحدد اللفظ والمعنى في نظمه، وهذا النظم يستدعي تحليلاً موضوعياً، ترتبط فيه الظاهرة اللسانية بالبعد الدلالي؛ إذ لا يمكن تدنق النص اللغوي أو إدراكه جمالياً وفنياً دون الوقوف على مظاهر تشكله الأسلوبي وتحليل العلاقات اللغوية داخله، فهذه المظاهر تبرز الشحنة الدلالية والعاطفية الكامنة في المشهد والتي تؤثر في المتلقي^(٨)، فمظاهر البنى الأسلوبية تسهم في معرفة الوظائف المناطة بها، ومعرفة القيم الفنية والجمالية التي تستتر وراءها داخل السياق، وهكذا فإن دراسة مظاهر الأسلوبية تكشف عن البنى المتميزة وطرائق تشكيل خصائصها السياقية وبيان سمات الجمال والأبداع الأدبي المتشكل بفاعلية حضورها، ومن هنا يُعرف المظهر الأسلوبي بأنه التشكل والبروز في السياقات التركيبية بشكل لا يمكن الاستغناء عنه دون تشويه دالة البناء النصي وفك

شفرتة، وهذا التشكل يستند إلى اختيار مداره اشتغال لفظي وسياقي باقتضاء القصد الدلالي والاستدعاء النصي.

المبحث الأول: مظهر الحركة في المشهد القرآني

توظف الحركة في المشاهد القرآنية بوصفها مظهر من مظاهر الحياة والكون وسمة من سمات التشكل اللغوي للكشف عن معاني متنوعة، وأن حضورها يتجلى في أنها وسيلة لإدراك الجمال التعبيري فتنتقل إلى تصوير الانفعالات النفسية وتجسيد المعاني الغائبة لتكسب بعداً يربط أثرها بفنية تشكّلها المشهدي^(٨)، ففي الحركة ((يتجلى الجمال الصوتي والجمال البصري معاً، وقد تميزت الصورة القرآنية بذلك، فهي تحيل المعاني الذهنية والمشاهد والانفعالات النفسية إلى مشاهد حية متحركة متجددة، وكأنها أشخاص يتحركون ويتكلمون، وليست صوراً فنية مرسومة بألفاظ وكلمات))^(٩)، وقد ذكر أن ((الجمال الأسمى في الحركات))^(١٠)، وهي من هنا تعبير عن الانفعال الوجداني مع المشاهد الحسية المصورة، فتعدّ ((من مقومات الصورة وسمة من سماتها، وهي ملحوظة في تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية وفي التصوير القصصي والأمثال والحوادث))^(١١)، كما أن حضورها المشهدي هو تشكيل جمالي يحقق اتساعاً في الأداء الوصفي، فتبرز ((جمالية صورية تظهر في عرض المعاني المجردة والحقائق الدينية في تركيبة لغوية قائمة على توظيف طاقات اللغة وإمكاناتها في تقديم مشهدي حسي، أو استحضار منظر خيالي بطريقة خاصة لتكشف عن إيحائية جديدة في التعبير، وتحدث تأثيراً خاصاً لا يحس به السامع في اللغة التجريدية))^(١٢)؛ لأن المشاهد تنير الإحساس الجمالي في المتلقي كلما ترابطت دلالتها الحركية بحركية الانبعاث النفسي، ما يعني أن العلاقة بين الحركة والمشهد علاقة تكاملية.

تستدعي المشاهد القرآنية الحركة في سياق التمثيل بوصفه أسلوبية فنية أدائية للإشارة إلى معنى مقصود بقصدية توظيف خصوصية الألفاظ الدالة، كما في قوله تعالى: ((لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي

ضلالاً)) [الرعد: ١٤]، إذ تجسّم الصورة الحركية في المشهد الأحوال النفسية بالإفادة من فاعلية البعد التمثيلي، فيقرب المعنى إلى الدّهن وينقل دلالة التعبير متضمناً بيان حقيقة العبادة، والدّعوة هي ((طلب الإقبال، والمراد به العبادة للاشتغال))^(١٣)، بما يوجب إجابة الدّعاء وما يكون به سبيل الحق، فالتشبيه يرغب في دعوة الله والتّوجّه إليه، ويذكر أنّ حركة بسط اليد ملمحٌ إشاري دالٌّ على الطلب، والماء لا يشعر ببسط كفّ الظّمآن فيجيبه، فدلّ بأنّ الذي يدعو من دون الله لا يسمّع دعاءه، فجبّد هذا المعنى صورة الظّمآن يبسط كفّيه إلى الماء بيتغي وصول الماء إليه فيرتوي، ((شَبَّهُوا فِي قَلَّةِ جَدْوَى دَعَائِهِمْ لِأَلْهَتِهِمْ بِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَغْرِفَ الْمَاءَ لِيَشْرِبَهُ، فَيَبْسُطُهَا نَاشِراً أَصَابِعَهُ فَلَمْ تَلَقْ كَفَّهُ مِنْهُ شَيْئاً وَلَمْ يَبْلُغْ طَلْبَتَهُ مِنْ شَرِبِهِ))^(١٤)، فالحركة لبيان حقيقة الوهم والاعتقاد الضّال في نفس الدّاعي تهكماً؛ لأنّ دعوة ما لا يعقل فإنّه لم يدعُ أصلاً، فالتعبير القرآني يسلك منهجاً استدلالياً لإقامة الدّليل على وحدانيّة الله تعالى فتثبت الصّورة في النّفس مثيرة فيها دلالة التّعبير الجّامع لطرفي التّشبيه بتأثير الحركة القائمة على مقصدية تمثيلها، فتضفي على السياق طابع الجمال الحركي.

ويلاحظ أنّ المشهد التمثيلي اقتضى عدولاً بـ (بَاسِطٌ) عن (يَبْسُطُ)، تبعاً لخصوصية السياق المشهدي وخصوصية التّوظيف في دلالة بنى الألفاظ، كما جاء في قوله تعالى: ((لَنْ يَبْسُطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)) [المائدة: ٢٨]، فالتصوير يأتي مناسباً لمدلوله الخاص، فاقتضى الفعل (بَسَطْتُ) لدلالة التجدد والاستمرار في الحركة، أمّا (بَاسِطٌ) فهو دالٌّ على الفعل الذي انتهى إلى ثبات، فلو قال: (يَبْسُطُ أو يَبْسُطُ) لم تؤد المقصد الدلالي، فعُدل باسم الفاعل؛ ((لأنّ الفعل يقتضي مزاولاً وتحدّر الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصّفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولاً وترجية فعل، ومعنى شيئاً فشيئاً))^(١٥)، وهذا يعني أنّ الدّلالة الحركية لاسم الفاعل تحرّكٌ يكتسب خصائص كل من الفعل والصفة من حيث التجدد والانقطاع في الأزمنة الثلاثة^(١٦)، فأجري بدلالة الثّبوت والملازمة في صفة (البسط) مطلقاً، متضمناً حركة مستمرة لوصف الاعتقاد الضال.

تسنقطب المشاهد القرآنية بنى الحركة التي تُبرزها الاستعارة في التّصوير؛

لربط فكرتين بسياق واحد، فللاستعارة وظائف جمالية ((تزيد على الإحياءات التي تبرزها إحياءات الحقيقة بزيادة بيان، وهذا فضلها وإلا كان التعبير بالحقيقة أجدى))^(١٧)، وهي من هنا تسهم في تطوير الأداء المشهدي باستحداث دلالات لا تدرك في أصل الوضع اللغوي، فتنتقل ((بذهن السامع إلى آفاق جديدة وصور رائعة ومشاهد متناسقة لا تتأتى بالاستعمال الحقيقي))^(١٨)، ففي قوله تعالى: ((وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا)) [الكهف: ١٠٠] يبرز المشهد طبيعة الحركة الجمعية فتكشف عن أحوال الناس بالصورة المحسنة بهيئة تدافعهم لجعل المتلقي يتحسس المعنى بأكمل إحساس وأوفاه، ((وأصل الموج حركة الماء، فاستعمل في حركتهم على سبيل الاستعارة، والجامع سرعة الاضطراب وتتابعه في الكثرة))^(١٩)، كما أن الحركة تعبر عن معاني القلق والاضطراب فترسم هيئة تدافع الناس يوم البعث في مشهد كوني مخيف، ثم تجسم هذا الاضطراب النفسي بحركة الأمواج بحسية إحياء المد والجزر وتداخل الماء مع بعضه فتجعل المشهد مائل للعين، وكلمة (يَمُوجُ) لا تقف عند حد استعارتها لمجرد معنى الاضطراب بل إنها تصور للخيال الاحتشاد البشري حتى كبحر متلاطم في تموجه واضطرابه، فلا تأتي إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه^(٢٠)؛ ((لأن أصل الموجان من صفات الماء الكثير، وإنما عبر سبحانه بذلك عن شدة اختلافهم ودخول بعضهم في بعض لكثرة أضدادهم، تشبيهاً بموج البحر المتلاطم والتفاف الدبا))^(٢١)، فالمشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض وزمان مبعوثين منشدين، يختلطون ويضطربون على غير نظام وانتباه، تتدافع جموعهم وتختلط كالموج، والتعبير يقابل في طبيعة الحركة على طريقة التناسق الفني، ويعقب على هذا التقابل بالنهك اللاذع والسخرية المريرة^(٢٢).

يستند التصوير الحركي إلى فاعلية التشخيص لبيان المعاني في المشهد، فالتشخيص يمثل الصورة للمعنى في الذهن ((فتعيد تشكيل المدركات وتبني منها عالماً متميزاً في جذته وتركيبه))^(٢٣)، فالتشخيص يتمثل في ((خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية، فهذه الحياة قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية تشمل المواد والظواهر والانفعالات، وتهب هذه الأشياء كلها

عواطف آدمية وخلجات إنسانية تشترك بها الأدميين))^(٢٤)، فيحدث تحولاً في الوعي والحس عبر مشاهد مصورة بالحركة المتجددة، فتدعى الأحداث لتصوير الموجودات بتنوعات تشخيصية فاعلة، كما في مشاهد الأرض والجبال في قوله تعالى: ((يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً)) [المزم: ١٤]، إنَّ المشهد يرسم حركة الأرض والجبال في هول يتجاوز الإنسان إلى موجودات الطبيعة كلها، فالأرض ترتجف بحركة تلقائية ذاتية يوم القيامة، فهي مرجوفة راجفة وحركتها مباغته بحيث لا يُعلم مكان الرَّجْف ولا مدّة زمنه، والرَّجْفَة ((سمة من سمات الأدمي حين يصيبه الهلع ويستبدّ به الخوف من هول ما يرى وليست من صفات الجماد، ولكنّ التعبير القرآني بعث الحياة في الجماد ونفخ الروح في الكون فاستحال أدمياً يجري عليه ما يجري على الأحياء))^(٢٥) ومن آثار هذه الحركة جعل الأرض متفتّنة والجبال ككتبان الرَّمْل المُهَيْل، فقوله: ((يَوْمَ تَرْجُفُ)) متعلّق بما يتضمّنه سياق السورة من الوعيد بالكافرين، والرَّجْف: هو الزلزلة والاضطراب، والمراد هنا: الرَّجْف المتكرّر باستمرار، وهو الذي يكون به انفرط أجزاء الأرض وانحلالها، والكثيب: الرمل المجتمع كالرّبوّة، أي: تصير حجارة الجبال دُفاقاً منثوراً، وجيء بـ ((وَكَانَتِ))، للإشارة إلى تحقيق وقوعه، والعدول به عن أسلوب ((تَرْجُفُ)) لصيرورة الجبال رملاً، وسمّي كثيباً؛ لأنّ ترابه كأثّة منثور بعضه على بعض لرخاوته، ووصفه بـ((مَهِيلاً))، لإرادة كونه سائل أو قد أُسِيل^(٢٦).

ومما يلاحظ وينبغي الإشارة إليه أنّ هذه الحركة مرتبطة مع سياقات مشهدية أخرى تبثّ فاعليتها في إيضاح الحقائق الدينية وبيان التّكامل الدّلالي في حركة هذه الموجودات الكونية، فرجفة الأرض تردّ في قوله تعالى: ((إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)) [الزلزلة: ١-٤]، حيث ترتجف الأرض وتترزّل وتتفض ما في جوفها وتخرج ما يتقلّها من أجساد ومعادن وغيرها، وكأنّها تتخفّف من هذه الأثقال التي حملتها طويلاً، فهذا مشهد يودع في الأرض حركة صوتية تنتقل إلى المتلقّي بمجرد سماع العبارة القرآنية، ويزيد هذا الأثر وضوحاً تصوير انفعالات الإنسان وتجسيم حالته النفسية الخائفة وهو يشاهد حركة تهز كل شيء ثابت على الأرض، فيوحي بصورة تأرجح موجودات الأرض من تحتهم وهي تهتزّ وتمور^(٢٧).

ومعنى (زُلْزِلَتْ): ((حُرِّكَتْ تحريكاً شديداً حتّى يخيّل للنّاس أنّها خرجت من حَيِّزها؛ لأنّ فعل زلزل مأخوذاً من الزَّلل وهو زَلَقَ الرَّجُلَيْنِ، فلما عَنَوْا شِدَّةَ الزَّلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتّضعيف على شِدَّةِ الفعل))^(٢٨).

ثم يمضي التصوير المشهدي لبيان حركة الجبال التي تلي حركة الرّجف حيث قوله تعالى: ((يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)) [القارعة: ٤-٥]، فترسم الصّورة لبيان الأهوال المرسومة بمشهد الجبال وحركة نفشها، فتشبيه الجبال بالعن وهو الصّوف المصبّغ ألواناً؛ لأنّ الجبال أشكال وألوان، وخص المنفوش منها؛ لدلالة تفرّق أجزائها، والمنفوش: المفرق بعض أجزائه عن بعض ليُغزَل أو لُتْحَشى به الحشايا، ووجه الشّبه فيه هو تفرّق الأجزاء؛ لأنّ الجبال تتدكّ بالزلازل فتتفرّق أجزاء كثيرة^(٢٩)، كما أنّ صورة (العِهنِ الْمَنْفُوشِ) تعقد مفارقة دلالية في صورة الجبال الرّاسية الثّقيلة، وصورة الصوف المنتشر بخفته فلا تجعل لها وزن أمام تلك القدرة ونفاذها في المخلوقات العظيمة.

ولعل أهم ما يمكن ذكره في هذا النّسق التتابعي أنّه ليس من جنس تكرار المشاهد والحركات، إنّما هو عرض تكاملي متسلسل يتضمّن فروقاً دقيقة في المعاني، تؤدّيها الصّور الحركيّة بنظام تعالقي، فرجة الأرض والجبال تشكّل إحياءاً بالثقل والتأني، والوصف بالكثيب المهيل إحياء بقوة رجفة الأرض بالجبال فتضعف من تماسكها ثم تُصبح رمالاً متحرّكة تمهيدا لزوالها، وهذه هي الحركة الأولى في الجبال، فتثبت أنّ لها وجوداً ضعيفاً، ثم تتبعها صورة العهن الملونة، ثم صورة تناثرها في الهواء فتصبح في النهاية سراباً لا وجود لها^(٣٠).

كما يستند التعبير المشهدي في بيان المعاني إلى الحركة في سياق التصوير الإفرادي (الحقيقي) في مشاهد الجنة في قوله تعالى: ((وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكَبِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)) [الواقعة: ١٠-١٨]، إذ تبرز دلالة الاهتمام والعناية بالمقربين في مشهد الطوف عليهم

بألوان النّعيم ابتداءً من هيئة جلوسهم متكئين تسودهم أجواء الطمأنينة والراحة، ثم مشهد طواف الولدان عليهم بأكواب الجنّة بما تشتهيه الأنفس وتلذّ بمذاقه، والطّواف: المشي حول الشيء، ومنه: الطّائِفُ لمن يدور حول البيوت^(٣١)، وهو هنا ينطوي على حركة تبرز معاني التّكريم بأشكال متعدّدة وأصناف متنوّعة لِمَا ليس معلوماً من قبل أو معهوداً من دون حصر، فما يُطاف به من طعام أو شراب لبيان مظاهر التّعمّ ونيل الأجر العظيم، وطبيعة هذه الحركة توحى باستمرار هذا التّعمّ وإحضاره على وجه السرعة تبعاً لخصوصيّة المعطي سبحانه والمعطى له في خصوصية الزمان والمكان، فالطّواف: يعبر عن المشي المكرّر حولهم بما تقتضيه دلالة الملازمة، ووصف الولدان بالمخلّدين، يعني: دائمين على الطّواف عليهم ومناولتهم لا ينقطعون أبداً^(٣٢).

يكشف التّعبير المشهدي عن نمطٍ حركيّ يشكّل وجوداً حسيّاً في صورٍ ذهنيّة تضيف عليه اتّساعاً دلاليّاً عبر فعل حركة الجسد ((الذي يؤدّيه الإنسان بواسطة أعضائه الجسميّة للتعبير عمّا بداخله من المشاعر الإنسانيّة والوجدانات النفسيّة تجاه الأحداث المتباينة التي تثير شعوره))^(٣٣)، فهذه الحركات تضرمر دلالات شعورية زيادة على بعدها الخارجي المعاين فهي مظهر تواصلٍ يؤدي وظائف خطابيّة توازي اللّغة اللّسانيّة في تداعي المعاني؛ ((إذ أنّ لها دالاً ومدلولاً، أمّا الدال فهو الصّورة التّشكيليّة، التي تتجلّى عليها الحركة، حركة الكفّ أو اليد أو العين أو الحجاب أو الوقفة، أمّا المدلول فهو الصّورة الدّهنيّة المعنويّة التي تُستر فداليتها من الدال الحركي))^(٣٤)، فإشارات الجسد لها دور مهم في إنتاج الدلالة وإبلاغها، فقولته تعالى: ((أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)) [هود: ٥]، يشكل متواليّة حركيّة (لقطات) بأعضاء الجسد في سلوكٍ ثني الصّدر والتّخفي باستعشاء الثّياب، وهذه الحركات في تشكيلها النّصي علامات متعلّقة بسلوك إنسانيّ في مظهر الحسيّة التي تحدّث بضمّ بعض الشّيء إلى بعضه بتأثير العامل النفسي فتشترك مجموعة من أعضاء الجسم فيها فتدلّ على الإعراض والنّفي بالجانب تكبيرا^(٣٥)، والثّني: هو الطّي، وثّني الصّدر عطفه وطويه، والمراد إمالة تشبيهاً بالطّي وإمالة الجنب من أعلى الرّأس حتّى الورك مع

عبس الوجه، ومعنى ذلك الطأطأة^(٣٦)، فالسياق يجسد هيئة نفسية بهيئة حسية تعبر عن البغض والاستخفاف، لأنّ ثني الصدر ((مرتبط بالعنق والرأس من جانب، وبالجزع من جانب آخر، ممّا يعرض هيئة جسدية أو وضعاً بدنياً كاملاً، تخفي فيه ملامح الشخص الظاهرة والدالة عليه، ولعلّ هذه الهيئة علامة مرتبة على سرائر مخفية ((^(٣٧).

المبحث الثاني: بنى التكثيف في المشهد القرآني

يعمد المشهد القرآني إلى توظيف بنى التكثيف بوصفه أسلوبية تختزن كمّاً دلاليّاً في تركيب لفظي موجز، فهو وجه من وجوه الاقتصاد في الاستعمال اللغوي وسمة أسلوبية تقدّم مظاهره اتساعاً في سياق المشاهد؛ ((لتصبح رموزاً مكثفة والماحات موحية ينفصل ظاهرها وباطنها بعضها عن بعض بمسافات متعاضمة ((^(٣٨)، وهو في المشهد تقنية أسلوبية تتمثل في احتواء السياق الصوري مولدات تختزن دلالات اضافية تحيل إلى التركيز اللغوي والرحم في المعاني المتعددة، فتوظيفاته

الأسلوبية تعبر عن نمط نقل دلالات موجّهة صوب المتلقي بتراكيب موجزة تسهم في رسم أبعاد المعاني والكشف عن خطوات استدعاء مجاوراتها واستنباط مقاصد خطاب هذه الدلالات عبر دقة اختيار العبارات فتستثمر قليل اللفظ لتوليد أكثر ما يمكن توليده من المعاني، فهي توقيفية عند حدود القصود، فتجنح إلى اختيار محكم وإيجاز بياني في العبارة يكتنف تراكماً من المعاني فيقوم على نقل الأحداث بكل تفاصيلها لتحقيق الأثر المناط بها حسياً وذهنياً ونفسياً، ويمكن أن نقف عند جماليات بنى التكثيف في مظاهره المتنوعة في توظيف خصوصية الألفاظ الدالة في سياق المشهد كما في قوله تعالى: ((وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (([الهمزة: ١-٩].

إذ يعقد هذا المشهد صوراً متلازمة وتحولات لحال المتكبرين بالأموال على الناس والساخرين همزاً ولمزاً، فيبرز ((صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار

حسيّة ومعنويّة، وقد لُوْحِظَ فيها التّقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب^(٣٩)، فتنائيّة التّكبر والسّخرية تواجه مشهد التّقبيح والوعيد في نبذهم في جهنم موثوقين وقد حطّمت كبريائهم وتعاليمهم، وفي وصف النّار بـ (مُؤَصَّدَة) بيان خلودهم فيها ممتّنين، فهي نار تُوقَد فتتفدّ إلى قلوبهم فتدكّ كبريائكم ثمّ توصد وتُحكّم عليهم فلا ينفذون منها، ثمّ تنتقل إلى مشهد الازدراء في جعلهم كاليهائم حين توثق بعمود يقيّد حركتها، لأنّ الوصف بالإيصاد يشتمل على أنواع العذاب الذي يقرن حالة تعكاس أحول التّعالّي في الدّنيا بحيث تنفذ مشاعر العذاب إلى القلوب وهو موطن الشّعور والتّفكير كناية عن بلوغ الأذى منشأ العقائد الفاسدة ومسالك حبّ المال الذي هو منشأ الفساد والضّلال وعنه تصدر الأفعال القبيحة، واللفظة تصوّر النّار حجرة كبيرة لها باب محكم وهي مطبقة عليهم بدقّة متناهية وغاية في الضّيق وهم موثّقون فيها، دلالة على المنع من التّصرف والمكّنة منهم فلا يستطيعون حيلة في أمرها، تأكيداً على بأسهم من الخروج بالإيثاق بعد الإيصاد، وهذا أعظم الويل وأشدّ النّكال، فقد رجع آخرها إلى أولها، وكان لمفصلها أشدّ التّحام بموصله^(٤٠)، فالمشهد يعرض أجزاءه الصّورية بتناسق دقيق ثمّ ينقلها إلى ترابطات خارجية تحقّق مقصديّة العرض، غير أنّه يعطي للفظّة (مُؤَصَّدَة) فاعليّة تكثيفيّة تثبت في النّفس معاني التّرويع والامتهان، فنقدّم للمشهد تكثيفاً دلاليّاً استدعائياً يحقّق غايات تصويريّة من وجهتين ((الأول: تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصّورة الهابطة من النّفوس، والثاني: المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأنّ الله يرى ما يقع لهم ويكرهه، ويعاقب عليه وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلانها على الكيد اللئيم^(٤١).

يستند العرض المشهدي إلى تشكلات بنى التّكثيف الصّوتي في الألفاظ، فيجعل الصّوت يحاكي المعنى ويوحى بمقاصده، فالتعبير القرآني يُعنى ((باختيار ألفاظ يوحى صوتها بمعناها^(٤٢)، كما في قوله تعالى: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)) [آل عمران: ١٨٥]، فالمشهد ومن خلال الفعل (زُحْزِحَ) يبرز فاعليّة التّكثيف عبر مصوتات مقاطع الحروف ويجعله

تتميطاً دلاليّاً في السياق المشهدي، فبتكرار المقطع (زح) بعد تكتيفي يعرف ((أنّ الإنسان حينما كان في الدنيا كأنه كان في النار، وما ذلك إلا لكثرة آفاتنا وشدة بليتها))^(٤٣)، فدلّت بالزحزحة على التثنية مرات، فالأصل (زح) لكن السياق يجمع بين وظيفتين بياينتين فيجعل من بنية التضعيف وسيلة للدلالة عنهما، فالنجاة من النار تشتمل على زحزحة تمنع دخولها ثم أخرى تدخل الجنة، ولم يقتضي السياق تكرار الزحزحة لدخول الجنة فجعل التضعيف دليلاً لتحقيقها، فالمتزحزح ((نال مبتغاه من الخير، لأنّ ترتّب الفوز على دخول الجنة والزحزحة عن النار معلوم فلا فائدة في ذكر الشرط إلا لهذا، والعرب تعتمد في هذا على القرائن، فقد يكون الجواب عين الشرط لبيان التحقّق))^(٤٤)، وقد ذكر سيد قطب أنّ ((لفظ زُحِزِحَ بذاته يصوّر معناه بجرسه ويرسم هيئته، ويلقي ظله، وكأنّما للنار جاذبية تشدّ إليها من يقترب منها ويدخل في مجالها، فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة))^(٤٥)، فتوظيف نوعية الحرف وتكراره يرتبط بتكثيف دلالة الحدث وتمكينه في النفس فيفسح للفظه ظلالاً تبرز طبيعة حركة الزحزحة من خلال ثقل النطق في صوت (الحاء) الساكن، فتصور بطيء الحركة وكأنّ المتزحزح لصيق بالأرض، فتوظيف الكلمة في المشهد يخرجها من دلالتها المعيارية وقيودها المعجمية لتوحي بكمّ دلالي يجعلنا أمام مصاحبات الموقف وما يقع في مشهد الدّعر وأصوات الخوف على مقربة من حسيّس النار ولظاها في موقف الحساب، وهذا البعد يؤصل لنقد كلمي موجّه، وقد ذكر النقاد إشارات لهذا التوجّه في رصد جماليات توظيف الكلمات فقد ذكروا: ((أنّ الكلمة تعيد أداء الحركة التي هي دافع كل كائن، بل هي الكائن نفسه، وقد صوّره من ناحيته الصوتية الفموية، هي الشيء بعد أن أصبح نغماً))^(٤٦).

كما تستند مظاهر التكتيف إلى بنى التصوير المجازي وتوظيف أبعاده الدلالية في المشاهد القرآنية، فهي تحدّث في النفس تأثيراً بالغاً يبرز حسية التصوير إلى المتلقي ويضفي على السياق جمالية اختزان المعاني التصويرية، لتجعل الدّهن ينتقل من حدث إلى حدث ومن صورة إلى صورة وقد مزجت بطابع تكتيفي يشرك المتلقي لاستجلاء إيحائية هذه الصّور والكشف عن أبعادها الإشارية في إطار المشهد؛ ((لأنّ إحياء الصورة يغمر المتلقي بفيض من الدلالة

إذا أحسن المبدع تشكيل الصورة بناءً ووظيفة، وذلك لما يمكن أن توحى به في سياقها الخاص وارتباطها بالنص ككل^(٤٧)، كما في هذا المشهد: ((حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا...)) [يونس: ٢٤].

يعرض سياق التصوير المشهدي صورة نضارة الأرض وإزهارها وصورة حصاد الزرع ويربطها بهيئة الإقبال والإدبار على متاع الدنيا القصير، والمشهد يفيد من الاداء التشخيصي في الاستعارة لتحقيق سعة من معاني المكتفة في انتقال المعنى التصويري إلى المعنى المحسوس والمُشاهد أمام العين وذلك في قوله: ((أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ))، وهو وصف يسجل حضوراً تمثلياً منقولاً من فعل التجميل وأخذ الزينة، وهو فعل مرتبط بالوعي الإنساني، والزخرف وصف لأنواع الزينة، ويطلق على ما يُتزيّن به كالذهب وألوان الحلي والثياب، وإطلاقه على الأرض تشبيهاً بالمرأة أو العروس حين تريد التزيّن وما يصاحبه من إعداد الثياب والحلي، لذلك ناسب الوصف لفظ الادغام وجمع الحروف إلى بعضها فـ((ازَّيَّنَتْ))؛ لأنّ المرأة تأخذ أنواع زخرفها للتزيّن، وأصله ((تَزَيَّنَتْ)) فقلبت التاء زايّاً وتُدغم فيه، وجيء بهمزة الوصل للنطق بالسّاكن^(٤٨)، قال الزمخشري: ((جعلت الأرض أخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزينة))^(٤٩)، دلالة على كمال الحُسن فيها فيستغرق الطالب في طلبها ويبدل كل جهد في تحصيلها ثم لا ثبات فيه ولا أمن من الفناء، فالمعنى ((لبست زينتها بألوان الأزهار وأصابغ الريّاض، كما يقال: أخذت المرأة قناعها إذا لبسته))^(٥٠)، فشخصت الأرض في كونها أخذت زخرفها بنفسها طلباً للزينة، ثم يأتي قوله تعالى: (أَتَاهَا أَمْرُنَا) بياناً تكتيفياً لطبيعة هلاكها، وفيه قطع الآمال وتسفيه معتقدات التّمكّن من نفعها، فالمشهد ينطوي على حقيقة تأكيد المعنى المقصود في السياق ((وهو سرعة الانقضاء، ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا لأن حالهم في الانكباب على نعيم الدنيا كحال من يحسب دوامه وينكر أن يكون له انقضاء سريع ومفاجئ، والمعنى: قصرُ حالة الحياة الدنيا على مشابهة حالة النبات الموصوف، فالقصر قصر قلب بُني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة))^(٥١).

ومن هنا ندرك توظيف جمالية الاستعارة في الوصف التصويري في أنها بنية تناسب سياق التكتيف لأنها ((خالصة للمستوى العميق))^(٥٢)، أي: أنها تقدم إجازاً تعبيرياً لكثير من المعاني وبياناً لأبعاده التخيلية.

كذلك فإن بنى التكتيف المشهدي تتحقق في مضامين السرد التصويري دون أن يتقيد بالصّور المجازية باعتبار توظيف الالفاظ في سياق يستدعي تنوع الدلالة، كما في قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)) [[الاعراف: ٤٠]، فالمشهد يبرز معاني الاستحالة بتوظيف دقة الالفاظ لتناسب الدلالة على طريقة الاستدعاء الذهني للمعاني الحسية المجردة، فيعني: أن الكافرين لا تُرفع أعمالهم إلى الله ولا يقبل منهم شيئاً ولن يدخلوا الجنة، ذكر ابن عاشور: ((أخبر الله بأنه حرّمهم أسباب النجاة، فسَدَّ عليهم أبواب الخير والصّلاح، وبأنه حرّمهم من دخول الجنة، وأكّد الخبر بـ (إنّ) لتئيسهم من دخول الجنة))^(٥٣)، ثم ينتقل إلى تصوير هذا المعنى بفاعلية البعد التخيلي في قوله: ((وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ))، والولوج الدخول، والجمال الذّكر من الإبل وسَمّ الخياط ثقب الإبرة أو ما يُخَاط به، وخَصَّ الجمَل بالذّكر من بين سائر الحيوانات لضخامة جسمه، فاستدلّ به على استحالة دخولهم الجنة كاستحالة ولوجه في سَمّ الخياط، والعرب إذا علّقت بما لا يجوز فقد استحالت^(٥٤)، والمشهد يجعل المتلقي أمام صورة الجمَل ومنفذ سمّ الخياط، فيجعل دخول دخول توقيفي على حُصول دخوله فيه وهو محال.

ويذكر، أن الجمَل مشترك لفظي بين الحيوان والحبَل، فمن أسماء الحبَل (الجمَل) وقد فُسّر بالحبَل الغليظ وهو حبَل السفينة^(٥٥)، وتوظيفه في المشهد يرسم صورة ولوج الحبَل الغليظ في سَمّ الخياط من طريق العين والحسّ تخيلاً؛ ليستقرّ في النّفس استحالة القبول، والمشهد لا يعرض هذا المعنى عرضاً مباشراً، إنّما ينقله التّركيب المكثّف في السّياق التّصويري بما يثير الغرابة من دخول الجمَل بضخامته في ثقب الإبرة بمحاولات متكرّرة، وهذه الغرابة تناسب دلالة استحالة دخول الكافرين الجنة بكل محاولاتهم؛ لأنّ أعمالهم لا تُفْتَحُ لها أبواب السّماء، وهي صورة تخيلية وفيها معاني الرّفْض والاستحالة أيضاً، فالمشهد يعقد تكتيفاً

دلاليًا لحسية المعنى واستدعاءاته الذهنية في بنية الصورتين، فيثبت معنى التكثيف أنهم ((لا يصلون إلى الجنة ولا يتسهل لهم السبيل إليها، ولا يستحقون بأعمالهم للدخول إليها))^(٥٦).

المبحث الثالث: أساليب التوازي في سياق المشاهد القرآنية

تنظم سياقات المشهد القرآني بهندسة إيقاعية تجعلها في إطار علائقي في أجزاء داخلية وخارجية تكشف عن نص مفتوح بأنساق دلالية وتركيبية وصوتية خاصة، وهو في هذا المجال يعول على ظاهرة التوازي بوصفها أسلوبية بنيوية تحيل على توازن المنطلقات بنحو من التطابق والتعارض في سلسلة لغوية كأسس المشابهة أو التضاد^(٥٧)؛ لأنّ التوازي يعبر عن تزامن البنى وتجاورها فيؤدي وجوده إلى تماثل بين طرفين تشدهما علاقة متينة، إذ أنه ((نسق التقريب والمقابلة بين محتويين أو سردين بهدف البرهنة على تشابههما أو اختلافهما، ويتم التشديد على تطابق أو تعارض الطرفين بواسطة معاودات إيقاعية أو تركيبية))^(٥٨)، ومن هنا يتداخل مفهومه الاجرائي مع مفهومه اللغوي الدال على المحاذاة أو المجاورة، فهو عنصر بنائي يقوم على تكرار أجزاء متساوية^(٥٩)، فصار في المشهد القرآني نتاج يحقق الانسجام والتماسك الذي يحكم أجزاءه بتناسب جمالي يشمل على مستويات الدلالة والصوت والنحو والبلاغة والمعجم.

ترتبط مظاهر التوازي بخصوصية التماثل والتغاير في سياق التركيب تبعاً لاقتضاء دلالات مركزية وأخرى فرعية متداخلة تبرز ملامح المعنى، إذ ((التوازي التركيبي شكل من أشكال التنظيم النحوي في تقسيم الحيز النحوي على عناصر متشابهة في الطول والبناء النحوي، فالكل يتوزع في عناصر أو أجزاء ترتبط نحويًا ودلاليًا فيما بينها))^(٦١)، ووجودها في السياق المشهدي وجود بنائي وأسلوب وظيفي دال، كما في قوله تعالى: ((فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)) [العنكبوت: ٤٠]، فيلاحظ أنّ بنية التوازي تبرز من خلال أسلوبية التكرار التفرعي في قوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ)، إذ تنفرع من هذه البنية متواليات لقطية في المشهد الإخباري في أخذ المتجبرين على

وفق من التماثل السردى في بنى متوازنة تشيع دلالة ثابتة هي دلالة الهلاك، فالمشهد ينتظم بمتواليات صورية تتشكل إجمالاً من خلال بؤرة التركيب (فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ) وتفصيلاً في (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) و(أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ) و(خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) و(أَغْرَقْنَا) ثم بتكرار شبه الجملة (منهم) التي تتطوي بيان يتفرع من (فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ)، إشارة لتنوع الهلاك، ((فثمة علاقة بين الإجمال والتفصيل من جهة، وبين عناصر التفصيل بعضها ببعض من جهة أخرى، وذلك من خلال ملاحظة المفردات والتركيب التي ترافق هذه العناصر))^(٦٢).

ومما يلاحظ أن فدلالة الهلاك تتشكل بتماثل صوري من خلال شبه الجملة والتفريع بالفعل الماضي، ومع أن السياق اقتضى تغييراً في توظيف الحرف الجر في قوله: (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) و(خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) فإنه مناسب لطبيعة الهلاك بإرسال الحاصب من أعلى والخسف من تحت فاستعمل (على) في الأولى واستعمل (الباء) في الثانية، كما وظف تماثل الأفعال في: (وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ) وفي: (وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا)، ثم ذكر المفعول في (أَخَذَتْهُ) ولم يذكره مع (أَغْرَقْنَا) لدلالة الأول عليه، كما أن المشهد يعرّز بنية التوازي بإسناد الضمير (نا) في الأفعال (أَرْسَلْنَا، خَسَفْنَا، أَغْرَقْنَا) ثم يغير البناء في (أَخَذَتْهُ) بإسناد الفعل للصيحة، إشارة إلى طبيعة تلك الصيحة وعظم أثرها، وفي ذلك ((إثبات المعنى للفاعل من غير نظر إلى تعلقه بمفعول، ويكون المتعدّي حينئذ كاللزام، فلا يذكر المفعول، لئلا يتوهم أن الغرض إثبات الفعل للفاعل من حيث تعلقه بمفعول))^(٦٣)، وهكذا فإن التوازي في مشهد الإخبار قائم على اختزال الأحداث بوحدة التعالق بين اللقطات ثم يعرضها بأسلوبية الإجمال والتفصيل والتكرار فتجتمع تشكلات اللقطات في نظام تركيبى متعادل للدلالة على مفهوم واحد وهو الهلاك.

ينتظم تشكّل المشهد القرآني بعلاقات التوازي الدلالي لبيان أبعاده التصويرية على نحو يقتضى تماسكاً نسقياً يرتبط بمقام عرض الأحداث؛ إذ أن التوازي يعكس مظاهر الاشتغال العلائقي بين عناصر المصاحبة والتقابل فيشكل نمطاً ترادفياً بمستويات تبرز ثوابت تتقارب أو تتعارض لكنها ترتبط بالفكرة الرئيسية، وهذا النمط قائم على متواليات تأليفية متوازنة تنتظم الدلالة من خلالها^(٦٤)، كما في قوله تعالى: ((وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي

وغيض الماء وقُضِيَ الأمرُ واستوتت على الجودي وقيل بُعداً للقوم (الظالمين)) [هود: ٤٤]، إذ تسند المتواليات التصويرية إلى بنى التوازي الدلالي في أسلوبَي النداء والجملة الفعلية، فهما يرتبطان بعلائقية تتبعية تسهم في تكوين الدلالة الجزئية (دلالة اللقطة) إلى جانب تكوين الدلالة العامة المتمثلة بنهاية الطوفان ورسو السفينة وهلاك الظالمين، ضمن نسق بنيوي يعرض خصوصية الحدث ودلالة المقام، فما يحققه التوازي الدلالي لا يتوقف على التشابه إنما قد يكون على التضاد ((شريطة أن تتماثل في إحالتها إلى موضوع واحد))^(٦٥).

يشتمل سياق المشهد على وصف حدث الطوفان وما تضمنه من أحداث أخرى تبرز في خطاب الأرض والسماء في قوله: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي)، وتركيب التوازي في صيغة النداء والبناء للمفعول يعني ((تعلق أمر التكوين بكيفيات أفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك كما يخاطب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالاً وخشية، فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعية))^(٦٦)، كما أن بنى (الأرض - السماء) و (ابلعي - أقلعي) تشكل بؤرة الدلالة في تقابلها، والبلع إدخال الشيء في باطن شيء، وبلع الأرض ماءها أي: دخوله في باطنها على وجه السرعة، فلم يكن بحرارة الشمس أو رياح بل بعمل أرضي عاجل، وإقلاع السماء مستعار لكفّ نزول المطر منها، فإذا كفّ لم يخلف الماء الذي غار في الأرض، ولذا تقدّم البلع لأنه سبب غيض الماء^(٦٧).

ويلاحظ أنّ السياق يشتمل على دقة اختيار الألفاظ للإحالة على دقة المعاني فاقتضى (ابلعي) دون (ابتلعي) تماشياً مع سرعة الحدث ومجانسة (أقلعي)، وقوله: (ماءك) لبيان خصوصيته وارتباطه بالحدث المعجز، فليس المقصود ماءً آخر، كذلك فإنّ هذا التوازي يرشّح توازياً آخر في قوله: (وغيض الماء وقُضِيَ الأمرُ واستوتت على الجودي)، في بنية الفعل المضارع والتتابع المعطوف فيجسّد لقطات متوالية يعرضها المشهد بسرعة خاطفة في لقطة غور الماء واستقرار السفينة، كما أنّ سياق التراكيب يبرز توازياً إيقاعياً في وظيف نوعية الفواصل التي تتناسب وأبعاد الدلالة في توالي اللقطات، ((فالإيقاع يعلو ويهبط متناسقاً مع حركة المشهد في علو المياه وهبوطها ونزول الأمطار وهطولها وارتفاع الأمواج وانخفاضه وارتفاع السفينة وانخفاضها أيضاً، ولكن الإيقاع

المتموّج يتدفّق نحو الفاصلة فيرطمها وبعد حركة الارتطام بها يتوقف عندها في سكون وهدوء في حركة متسقة مع حركة المياه الهائجة في الطوفان المدمّر، وهذا ما نلاحظه في الفاصلة الأولى حيث طمّهم الطوفان وغيّبهم وحول حركتهم إلى سكون دائم، وكذلك في فاصلة الظالمين والمغرقين^(٦٨)، فهي توحى بسرعة استجابة الطبيعة لأمر ربها؛ لذا اقتضى النداء بـ(يا) دون (أيا) واقتضى تنكير (أرض) دون التعريف، ومؤدى ذلك ثقل في اللسان في مقام يستدعى الإسراع بتلبية الأمر، وذلك لا يكون مع الهمزة في (أيا) ولا مع تعريف (أرض) المقتضى للإطالة، وذات الأمر في كلمة (ابْلُغِي) فقد جاءت مصوّرة لفعل الأرض بمائها، فهي أفضل من (امتصّي) مثلاً؛ لأنها لا تدل على الإسراع في التشرّب، وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بذلك، كذلك اختيار (اسْتَوَتْ) دون (رست) مثلاً؛ لما في الاستواء من دلالة الثبات والاستقرار، كذلك الوصف فد اقتضى المصدر (بُعْداً) دون (هلاكاً) مثلاً؛ ففيه إشارة إلى أنّ الهلاك يراد به إبعاد مصدر الإفساد عن الأرض، فيشيع من خلال دلالة إطلاقه شعور الرّاحة في النفس بعد الخلاص من الظالمين، وفي بناء (قِيلَ) للمفعول إشارة إلى أنّ هذا الأمر تم بقدرة معجزة^(٦٩).

تهيئ بنى التوازي في المشهد القرآني نسقاً يناسب المعنى الذي تُريد رسمه بفاعلية الإيحاء الصوتي من خلال توظيف موسيقى المفردات وجرسها النغمي، فما يصدره الصّوت من خلال توظيف خصوصية النبر يؤدي إلى حدوث توازن نبري على مستوى اللفظة فتتضح أبعاد الصّور أكثر، فالتوازي الصّوتي ((عبارة عن صيغة يتحقق من خلالها نظام من التوازن الصوتي، والدلالات الصوتية تنتظم تحت مصطلح التوازي وتخضع لما يسمى توازي التناسب^(٧٠)، كما في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)) [التوبة: ٣٨]، إذ يعرض المشهد أحوال المتقاعسين في الخروج للجهاد في سبيل الله، فوحدات البناء الصوتي تسهم بتقديم انطباع حسّي بين مقتضى الحال ومقتضى التّصوير، ففي لفظة (اثَّاقَلْتُمْ) إيحاء بصورة المتثاقل وحركته البطيئة التي يبديها، فنقل البنية وصعوبتها في اللسان يعطي لحركتها هيئة ((الجسم

المسترخي، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل))^(٧١)، وكأنّ والأرض تجرّ المتثاقل من أسفله كلما أراد النهوض تمسّكت به فارتدّ إلى مكانه، فالتصوير مرتبط بخصوصية المحاكاة الصوتية في موحيات التضعيف التي تجعل الحرف يخرج بمراحل زمنية متقطعة، فالأصل في التعبير إرادة ((قعدتم ولم تخرجوا، وركنتم إلى المقام))^(٧٢)، لكنّه عدّي — (إلى) ليضمّن معاني الميل والإخلاق إلى شهوات الدنيا، وكراهية مشاق الخروج فتسافلوا^(٧٣).

إنّ هذا التشكيل الصّوتي يوظفه سياق آخر فيحقق توازياً خارجياً يجسّد أداءً صوتياً متماثلاً في بنى المشاهد القرآنية، إذ تواجه كلمة (اثأقلنم) كلمة (يُبطئن) في قوله تعالى: ((وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)) [النساء: ٧٢]، فتتشكل اتحاد خارجي بموازاة البنى الصوتية، لأن الموازة ((هي الاتحاد في الوضع وتسمى المحاذاة))^(٧٤)، حيث تسهم تشكيلات النبر الحرفي بإحداث تناسب بين إيقاع التصوير ومغزى الدلالة المشهدية، فالتضعيف يوحى بما في نفوس المتباطئين عن الجهاد ووضع مسوغات التقاعس، والكلمة بما فيها من تحشيد صوتي وتعقيد لفظي ((مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر، وإنّ اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدها شداً وإنّها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها، وذلك من بدائع التصوير القرآني الذي يرسم حالة كاملةً بلفظة واحدة))^(٧٥)، فالقارئ يجد ثقلاً في نطق (الطاء) زيادةً على مجيئه مشدداً فيشكل بعداً إيحائياً بأحوال النفس والصّراعات الداخلية التي كان عليها المتثاقلون المتباطئون، ومن هنا ترتبط الظاهرة اللسانية بالموقف النفسي للتعبير عن دلالة المقام بما تمنحه تأثيراتها الصّوتية المتنوعة فتدرك الدلالة من خلال نغمية اللفظة ونبرتها الصّوتية فأصبحت عنصراً بنائياً يوجّه دلالة المشاهد القرآنية تبعاً لاقتضائها السياقي.

توظف السياقات المشهدية بنى التوازي الاشتقاقي في تراكيب ألفاظ من أصل لغوي واحد ليربز تشكلاً جزئياً في دلالة الاشتقاق، فقد تتنوع صياغة التركيب تبعاً لمقام العرض الذي يقتضيه الحدث، فتجسد الكلمة جمالية التوازي عبر إيرادها ((المترادفات والمتجانسات، فالكلمات لا تكتفي بأن يكون لها معنى

فقط، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت أو بالمعنى أو بالاشتقاق))^(٧٦)؛ ففي قوله تعالى: ((وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمَلَكَيْنِ (٩٠) وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)) [الشعراء: ٩٠-٩٥]، فالسياق يصور من خلال الفعل (فَكَبَّوْا) سقوط إبليس وجنوده من الجن والإنس في جهنم، وتكرار الحروف في بنية تركيبه الصرفي يجعلنا أمام حركة زَجْهم على رؤوسهم من غير انتظام، مأخوذة من كبكب الشيء إذا ((أُلْقِيَتْ بعضُهُ على بعضٍ))^(٧٧)، فينبئ عن تكرار الكبّ تهويلاً وتحقيراً فتصوّر أحدهم إذا ((أُلْقِيَ في جهنم ينكبّ مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها))^(٧٨)، وكأنّ المكبوب يحاول الاعتدال فلا يستطيع، وكلّما قام كبّ على وجهه، فالكبكية ((تكرير الكبّ، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى))^(٧٩)، فالتركيب يصور بجزسه معناه، فشدة صوت الباء والضمّ المتكرّر في الكاف على نحو تجمع فيه الشّفتين في نطق اللفظة، يدل على تدرجهم مرّات كهيئة الكرة فيجتمعون في قعرها.

إنّ البنية الصّرفية في (كبكب) تقتضي تنغيماً صوتياً يكسبه فاعليّة تصويريّة بتميّز توظيفه اللغوي للتّفريق بين دقّة المعاني وإفهام المقاصد، فنجد هذه البنية تشكّل توازيّاً (جزئياً) مع مشهد آخر يستثمر فاعليّة المغايرة في إنتاج الدّلالة، فيقول تعالى: ((مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)) [النمل: ٨٩-٩٠]، فبنية: (كُبَّتْ) تستحضر الإخبار بهيئة زجهم، وما تحمل من صورة ذهنية وحسية انطلافاً من طبيعة الجرس الصوتي، ((فكان التّضعيف في مرادفه لأجل الدّلالة على الزّيادة في معنى الفعل))^(٨٠)؛ لأنّ الفعل إذا كان على وزن ثمّ زيد من أصل بنيته، فإنّ الزيادة ثابتة في معناه، وبني التوازي تراعي دقّة التركيب اللفظي لخصوصيّة الدّلالة تبعاً لخصوصيّة توظيف الوحدات الصوتيّة ومصاحباتها في عرض الحدث.

تتشكّل المشاهد القرآنية بعناصر توطّر حدثها السّردي، وقد رصد البحث أنّ التوازي يشكّل الدّلالة في سياق التّصوير من خلال توازي بني العرض السّردي

في أواصر التجاور والتماثل في بنية الزمان والمكان فهو ((عنصر هام، وعنصر قد يحتل المنزلة الأولى بالنسبة للفن الأدبي))^(٨١)؛ لأن التوازي يعكس تماثلاً في البنى السياقية للإحالة على مضامين الدلالة وأبعاد التصوير؛ لأن ((ارتباط التوازي بالجانب الصوري ضمن مصطلح (التوازي الصوري) يحتم أن يتحقق التماثل بين أكثر من صورة مثلية مستقلة))^(٨٢)؛ ومن هنا ترتبط عناصر البناء بمتماثلة لها في سياق المشهد ذاته أو في سياق مشهدي آخر يوازي بؤرة تركيبه بأسلوبية تحقق اتساعاً في الدلالة، كما في هذين المشهدين: قال تعالى: ((مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)) [إبراهيم: ١٨].

وقوله تعالى: ((وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)) [الكهف: ٤٥].

إنّ العرض المشهدي يجعل المكان بعلاقة مع مضامين فكرية وعقدية في موحيات مصير الأعمال وفناء موجودات الدنيا، فقلوه: (اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ) و(تَذْرُوهُ الرِّيحُ) وصف لسرعة الفناء، فدل على أنّ السرعة في الجهات كلها؛ ليبقى في الدّهن مشهد الأعمال المتطايرة والنبات الهشيم منثوراً في الفضاء، فبنيتي المكان والزمان يؤسسان تقابلاً متوازياً لتصوير الهلاك الحسي في المشهدين من خلال تبدّد زينة الحياة الدّنيا، وضياح أعمال الكافرين، فهما يتماثلان بهلاك تخيلي يربط معنى الأعمال بصورة الرماد، وتحول نبات الأرض إلى هشيم متطاير في الاجواء، فالمشهدان تجسّداً بمكان تصوّري ومقياس زمني واحد لمداول الزّوال والهلاك بعلاقة السببية وسرعة مثيرة لمدركات الخيال، وكأنّ الأحداث المتتابعة تمرّ أمام العين فلا تستغرق زمناً، ومع أنّ هناك تفاوت في دلالة المشهدين، لكنّ فضاء التصوير جعلهما يقتربان لتشكيل بؤرة متوازية تعمل على مقارنة مستويات السرد في العرض، ما جعل دلالتهم تتشكّل بسياق متماثل أسلوبياً، فمستويات عرض الحدث تستند إلى وحدة التوازي في الفضاء الذي أطّر المشهد وإحالة عناصر البناء إلى مشهد آخر، فجعل المشهدين بإطار مكاني منتزع من الطّبيعة، وهذا يعني أنّ القيم التوظيفية لعنصري المكان والزّمان في المشهدين تتناسب

طبيعة الحركة وأثرها وشدة عنفوانها في تلاشي الموجودات؛ لبيان أعجاز قدرة الله تعالى في التصرف.

الخاتمة:

انتهى البحث إلى نتائج استخلصها بعد هذا التطواف في نواحي الموضوع، فخلص إلى:

- إن تحليل البناء السياقي في المشهد القرآني يقتضي الوقوف عند عناصره الأسلوبية لبيان وظائفه اللسانية، فكان الوقوف عند مظاهر البناء الأسلوبي واخضاعها إلى التحليل ضرورة تتماز بها المعرفة بالأسلوبية وعناصرها في تشكيلات اللغة النصية، فيبرز مفهوم عدم الخلط بين اللغة والأسلوب في التحليل الأدبي بمعايير التمايز في الأسلوب.

- تقضي التشكلات الأسلوبية تمايزاً في اختيار البنى الوظيفية بغية الإحاطة بالدلالة، وتلفت إلى قواعد تأسيس هذه البنى بما يضيف عليها فاعلية تشكيل النصوص المشهدية، ففهم أن منهجية التحليل الأسلوبي يبدأ من قراءة المشهد قراءة موضوعية سعياً للكشف عن طرائق تشكل النصي والبحث في الخصائص المسؤولة عن أدبيته.

- تتطوي توظيفات الحركة على قيم جمالية ونفسية وعقدية لإبراز دلالة التراكيب، وأنها في المشاهد القرآنية تأتي على وفق اقتضاءات سياقية تركز على أبعاد تواصلية لربط العلاقات الإشارية والعلامات الدالة بما توحى به من إمكاناتها تصويرية متنوعة تجعلها قابلة للإنتاج الدلالي وتعدّد القراءة والتلقي.

- تعول المشاهد القرآنية على بنى التكثيف فتجعل سياقاتها ترتبط بوظائف التوليد في تشكيل المعنى فنجم عن ذلك تحقيق اتساع دلالي في بنى الألفاظ والتراكيب تعبر عن الموقف وتصور الحدث واستدعاء مصاحبات المعنى، لأن قيم التكثيف في المشهد تحسب المعاني إلى مشاهدات حسية تستمد واقعيتها من فاعلية التداعي الذي يفرضه سياق الإحالة وما وتخزنه التراكيب.

- تتسم سياقات المشاهد القرآنية بتوظيف مظهر التوازي في تراكيب المتواليات

اللقطية لتحليل إلى قيم التقابل والتماثل في تشكيل الدلالة وبيان قيم الترابط والتعالق بين وحدات البناء المشهدي في العرض الصوري، فصار لحضوره حضور أسلوب، يدفع المتلقي إلى يتناول النص المشهدي بالتحليل والكشف للوقوف عند أبعاد المتواليات البنيوية وتحليلها بما ينسجم وخصوصية قرائن التماثل والتداخل والتغاير وطبيعة التوليف المشهدي في بنى أساليبه المتنوعة.

الهوامش:

- (١) ينظر: النص والسياق: ٢٥٨.
- (٢) الأسلوبية وتحليل الخطاب: ٣٨.
- (٣) المزهري في علوم اللغة وأنواعها: ١٢/١.
- (٤) الأسلوبية وتحليل الخطاب: ٣١.
- (٥) الأسلوبية والأسلوب: ٤٨.
- (٦) ينظر: المصدر نفسه: ٤٨.
- (٦) الاتجاه الأسلوبية البنيوي في نقد الشعر العربي: ٩٨.
- (٧) ينظر: سورة الواقعة دراسة أسلوبية: ٢٢.
- (٨) ينظر: تصوير الانفعالات النفسية في القرآن (بحث): ٢١٦.
- (٩) وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ٤٠٠.
- (١٠) مسائل فلسفة الفن المعاصرة: ٤٨.
- (١١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ٤٠٠.
- (١٢) جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: ٢٣.
- (١٣) روح المعاني: ١٢٣/١٣.
- (١٤) الكشف: ٢/ ٤٩١.
- (١٥) دلائل الإعجاز: ١٧٥.
- (١٦) ينظر: الصرف الوافي: ٨٥.
- (١٧) المشاهد في القرآن الكريم: ٣٥٥.
- (١٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٦٢.
- (١٩) الإتيان في علوم القرآن: ٢/ ١٥٠.
- (٢٠) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٦٧.
- (٢١) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢/ ٢١٦.
- (٢٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٩٤.
- (٢٣) الصورة الفنية (عصفور): ١٣.

- (٢٤) التصوير الفني في القرآن: ٧٣.
- (٢٥) المشاهد في القرآن الكريم: ٣٧١.
- (٢٦) ينظر: التفسير الكبير: ٣٠ / ٦٩٠.
- (٢٧) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٣٩٥٤.
- (٢٨) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٩٠.
- (٢٩) ينظر: الكشف: ٤ / ٧٩٦، والتحرير والتنوير: ٣٠ / ٥١٣.
- (٣٠) ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١٠٢.
- (٣١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (طوف).
- (٣٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩٣ / ٢٧.
- (٣٣) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية: ٤٥.
- (٣٤) مباحثات لسانية: ١٧٢.
- (٣٥) ينظر: التعبير القرآني والدلالة النفسية: ٧٤.
- (٣٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (ثى).
- (٣٧) العبارة والإشارة: ٢٠٠.
- (٣٨) حركية الحدائث في الشعر العربي المعاصر: ١٥٧.
- (٣٩) مشاهد القيامة في القرآن: ٨٠.
- (٤٠) ينظر: نظم الدرر: ٨ / ٥٢٧.
- (٤١) في ظلال القرآن: ٦ / ٣٩٧٣.
- (٤٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ١٨٧.
- (٤٣) التفسير الكبير: ٩ / ٤٥٣.
- (٤٤) التحرير والتنوير: ٤ / ١٨٩.
- (٤٥) في ظلال القرآن: ١ / ٥٣٩.
- (٤٦) بحث في علم الجمال: ٢٨٨.
- (٤٧) البنية والدلالة: ٨٩.
- (٤٨) ينظر: التحرير والتنوير: ١١ / ١٤٣.
- (٤٩) الكشف: ٢ / ٣٢٥.
- (٥٠) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٥٤.
- (٥١) التحرير والتنوير: ١١ / ١٤١.
- (٥٢) البلاغة العربية قراءة أخرى: ١٧١.
- (٥٣) التحرير والتنوير: ٨ / ١٢٥.
- (٥٤) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل: ٢ / ٢٢٩.

- (٥٥) ينظر: روح المعاني: ٨ / ١١٩.
- (٥٦) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٤٣.
- (٥٧) التوازي في لغة القصيدة العراقية الحديثة، شعر سامي مهدي مقارنة تطبيقية (بحث): ٢٩.
- (٥٨) نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلايين الروس: ٢٢٩.
- (٥٩) ينظر: ظاهرة التوازي في قصيدة للخنساء (بحث): ٢٠٣٠.
- (٦٠) جماليات النثر العربي الفني: ٢٣.
- (٦١) الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم - دراسة تحليلية (بحث): ١٧.
- (٦٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن: ٢١٣.
- (٦٣) ينظر: التوازي في شعر يوسف الصائغ وأثره في الإيقاع والدلالة (بحث): ٢٢.
- (٦٤) الإشارة الجمالية في المثل القرآني: ٧٩.
- (٦٥) التحرير والتنوير: ١٢ / ٧٨.
- (٦٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٢ / ٧٨-٧٩.
- (٦٧) وظيفة الصورة الفنية: ٤٠٠.
- (٦٨) ينظر: من بلاغة القرآن: ٥٠.
- (٦٩) مستويات الخطاب في القصة القرآنية (أطروحة دكتوراه): ٧٥.
- (٧٠) في ظلال القرآن: ٣ / ١٦٥٥.
- (٧١) تفسير غريب القرآن: ١٨٦.
- (٧٢) ينظر: الكشف: ٤٤/٣.
- (٧٣) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية: ٢ / ٢٣٧.
- (٧٤) في ظلال القرآن: ٢ / ٧٠٥.
- (٧٥) نظرية الأدب: ١٨١.
- (٧٦) كتاب الأفعال (السعدي): ٣ / ١٠٩.
- (٧٨) الكشف: ٤ / ٤٠٠.
- (٧٩) التفسير الكبير: ٢٤ / ٥١٨.
- (٨٠) التحرير والتنوير: ١٩ / ١٥٢.
- (٨١) قضايا الشعرية: ١٠٣.
- (٨٢) الإشارة الجمالية في المثل القرآني: ٧٨.

المصادر والمراجع:

- الأسلوبية والاسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط٢: ١٩٨٢م.
- الأسلوبية وتحليل الخطاب، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط١: ٢٠٠٢م.
- الإشارة الجمالية في المثل القرآني، د. عشتار داود محمد، منشورات اتحاد الكتاب العرب:

- دمشق، ٢٠٠٥م.
- الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربي، عدنان حسين قاسم، دار ابن كثير: دمشق، بيروت، ط١: ١٩٩٢م.
 - الإتيقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
 - البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية، د. عبد الله محمد سليمان هندأوي، مطبعة الأمانة: مصر، ط١: ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
 - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) الدار التونسية: تونس، ١٩٨٤م.
 - التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، مكتبة سيد قطب، د. ط.
 - التعبير القرآني والدلالة النفسية، د. عبد الله محمد الجبوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية: دمشق، ط١: ٢٠٠٦م.
 - تفسير غريب القرآن، لأبي حفص عمر بن أبي الحسن علي بن أحمد بن الملقن، تح: سمير طه المجذوب، عالم الكتب للطباعة والنشر: بيروت، ط١: ٢٠١١م.
 - التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الامام محمد فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٤هـ) دار الفكر للطباعة والنشر: بيروت، ط١: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
 - تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ) دار الأضواء: بيروت، د.ت.
 - جماليات النثر العربي الفني، طراد الكبيسي، دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد، د.ت.
 - حركية الحداثة في الشعر العربي المعاصر، د. كمال خيربك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: ط١، ١٩٨٦م.
 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادى (ت: ١٢٧٠هـ) دار إحياء التراث العربي: بيروت، د.ت.
 - الصرف الوافي، دراسة وصفية تطبيقية في الصرف وبعض المسائل الصوتية، د. هادي نهر، دار الأمل: الأردن، ط٢: ٢٠٠٢م.
 - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي: بيروت، ط٣: ١٩٩٢م.
 - الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد علي الصغير، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، ط١: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
 - العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، د. محمد العبد، مكتبة الآداب: القاهرة، ط٢: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
 - في ظلال القرآن، سيد قطب دار الشروق: القاهرة، ط١٤٢٥: ٣٥هـ، ٢٠٠٥م.

- قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، تر: محمد الولي، مبارك حنون، دار توبقال: الدار البيضاء، ط١: ١٩٨٨م.
- كتاب الأفعال، لأبي القاسم علي بن جعفر السعدي، عالم الكتب: بيروت، ط١: ١٩٨٣م.
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي: بيروت، د.ت.
- مباحث لسانية في ظواهر قرآنية، د. مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١: ٢٠٠٨م.
- مسائل فلسفة الفن المعاصرة، جان ماري جويو، تر: سامي الدروبي، دار الفكر العربي: القاهرة، ط١، ١٩٤٨م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١: ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
- المشاهد في القرآن الكريم، دراسة تحليلية وصفية، د. حامد صادق قنيبي، مكتب المنار: الزرقاء، ط١: ١٩٨٤م.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة: مصر، ط٣: ١٣٩٨هـ. ١٩٧٨م.
- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني لبنان، دار الكتاب المصري القاهرة، د. ط١، ١٩٨٢م.
- المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) تح محمد سيد كيلاني، دار المعرفة: بيروت، د.ت.
- من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة، ٢٠٠٥م، د.ط.
- النص والسياق فان دايك، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق: الدار البيضاء ١٩٩٩م.
- نظرية الأدب، رينيه وليك وارسنتن وارين، تر: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، ط٢: ١٩٨١م.
- نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلايين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ومؤسسة الأبحاث العربية، بيروت: لبنان، ط١، ١٩٨٢م.
- وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

الرسائل والأطاريح:

- سورة الواقعة دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير)، بلال سامي إحمود الفقهاء، جامعة الشق الأوسط: كلية الآداب والعلوم، ٢٠١١-٢٠١٢.
- مستويات الخطاب في القصة القرآنية، (أطروحة دكتوراه) فائزة محمد محمود المشهداني، كلية التربية: جامعة الموصل، ٢٠٠٤ م.

الأبحاث:

- الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم، دراسة تحليلية (بحث)، فائز القرعان، مجلة أبحاث اليرموك: الأردن، مج ١٢، ع ١، ١٩٩٤ م.
- التوازي في شعر يوسف الصائغ وأثره في الإيقاع والدلالة (بحث)، سامح رواشدة، مجلة أبحاث اليرموك، مج ١٦، ع ٢، ١٩٩٨ م.
- التوازي في لغة القصيدة العراقية الحديثة، شعر سامي مهدي مقارنة تطبيقية (بحث)، د. فهد محسن فرحان، مهرجان المربد الشعري الرابع عشر، بغداد، ١٩٩٨ م.
- ظاهرة التوازي في قصيدة للخنساء (بحث)، موسى ربابعة، مجلة دراسات - العلوم الإنسانية، مج ٢٢، ع ٥، ١٩٩٥ م.

توظيف اللسانيات الروائية لخدمة المجتمع
كتاب: الرواية؛ مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته
لبرنار فاليت أنموذجا

أ.م.د. إسماعيل عباس حسين

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

أ.د. حسن عبد الهادي الدجيلي

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

من الأمور المشاعة حاليا سيادة الكثير من النظريات، والمناهج، والسياقات الفكرية الحديثة، وتغشيتها في الكثير من منصات الأدب، وبحوثه، ودراساته، بيد أن هذه الدراسات غالبا ما تكون منزهة عن الفائدة الاجتماعية التي لولاها ما كان لهذه النظرية، أو تلك أن تسود وتشتهر.

لهذا كان البعد الاجتماعي، هو البعد الذي يُنشط العمل، ويوحد خطاه، ويسير في العجلة المعرفية إلى الأمام، وما برحت الدراسات اللسانية - بفروعها المختلفة - دعامة أساسية في مسيرة السرديات الحديثة وبخاصة في تبيين أطراف الخطاب السردى ووضعيته ومحافله اللفظية، وهذا عائد أساسا إلى ذلك التماثل بين الكلام والسرد بوصفهما أداء يقوم على كفاءة واحدة هي اللغة.

ويأتي هذا البحث في إطار توظيف اللسانيات في واحد من جوانبها المتعددة؛ ليهتم بالمقاربات المعاصرة في اللغة، وسينصب الاهتمام فيها على تمحيص ما يمكن أن تسهم به بعض فروع الدراسات اللسانية في الدراسات الأدبية.. حيث أن اللسانيات الحديثة تمدنا بأساس لدراسة الأنماط المختلفة من الخطاب ووسائل الاتصال اللغوية، وتحليل الدور الانساني على نطاق مجتمعه بشكل واسع.. ويظهر الخطاب في الرواية - كما يرى برنار فاليت - تحت أشكال متنوعة وفي مستويات غير متجانسة جد دقيقة، شكليا، يتجلى الخطاب من خلال العلامات الكلامية للتلفظ الشخصي، خارج الحوارات. (فاليت، برنار، ٢٠١٣، ٤٣)

ومن هنا قام هذا البحث على مجموعة من الأمور الأساسية، وهي:

- ١ - إظهار مكانة اللسانيات الروائية في خدمة الفكر الأدبي من ناحية، وخدمة المجتمع من ناحية ثانية.
- ٢ - إظهار فلسفة التفسير داخل خطابات اللسانيات الروائية التفسيرية، وبيان أهميتها في خدمة المجتمع.
- ٣ - يعد كتاب (الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته) لـ (برنار فاليت) في صدارة النتاجات التي أهتمت باللسانيات الروائية، وكذلك أهتمت بتفسير هذه اللسانيات، فضلاً عن توظيف كل ذلك لخدمة المجتمع، لذلك اتخذناه أنموذجاً تطبيقياً لبحثنا هذا.

وقد قسمنا البحث على خمسة محاور رئيسية، وهي: -
المحور الأول: مفهوم اللسانيات الروائية.

المحور الثاني: اللسانيات التفسيرية.

المحور الثالث: برنار فاليت.

المحور الرابع: أهمية كتاب (الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته)
المحور الخامس: توظيف اللسانيات الروائية لخدمة المجتمع - كتاب الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته لبرنار فاليت إنموذجاً -.

المحور الأول: مفهوم اللسانيات الروائية (Noveletion Langustic):

تسعى اللسانيات المعاصرة من أجل بناء نظريات عامة لوصف الوقائع اللسانية وتفسيرها بعيداً عن كل الاعتبارات الخارجة عن نطاق اللغة البشرية، فهي تعنى بدراسة الظواهر اللغوية وما يتصل بها من ظواهر أخرى تدرسها العلوم المختلفة كعلم النفس وعلم الاجتماع والاتصال والإعلام وغيرها من العلوم التي تتناول ظاهرة اللغة والكلام لدى البشر.

إن البنية اللغوية في أي نشاط لغوي أدبي أو فني بصرف النظر عن جنسه أو نوعه تعد مكوناً بالغ الخطورة لا يمكن رصد مكونات النص الأخرى رصداً موضوعياً دون أن نأخذ بالحسبان مراعاته، وإذا كنا نتحدث عن جنس معين مثل الرواية، فإن اللغة ترتبط بعلاقة مباشرة بكل ما في النص من مكونات تشكل عالم الرواية، وإدراك هذه العلاقة هو المفتاح لدخول النص وتحليله على نحو

موضوعي واعٍ وهو أيضا نقطة بداية في التعرف على مستوى إبداع الكاتب أو المؤلف ومدى براعته وثراء ملكته وقدرته على استثمار أدواته التعبيرية اللغوية الملائمة لمضمون نصه وأحداثه وشخصياته وموضوعه (ينظر: كاظم، ظافر، ٢٠١٦).

وحينما نتعمق في دراسة (علم اللسان أو اللسانيات) سنجد أن ثمة مصطلح كان يتردد في كتب اللسانيات الأولى، ولاسيما الأدبية منها موسوم بـ (اللسانيات الروائية) (ينظر مثلا: الطارق، محمد، ١٩٩٩، ٣٣ - ٤٤)، وقد تطور إلى معرفة لسانية خاصة به في عام (٢٠٠٩) حينما أصدر الأمريكي (جان بول كاسريوه) منتجته الكبير (اللسانيات الروائية في تفكيك السرد الإبداعي للرواية الأمريكية من (١٩٩٩ - ٢٠٠٨)) (ينظر: كاسريوه، جان بول، ٢٠١٢، ١١١ - ١١٢)، وقد عرّف (كاسريوه) ثيمة (اللسانيات الروائية) بأنها: لسانيات تبغي التنقيب عميقا داخل مدونة الخطاب الروائي لاستخراج كنوز هذا الخطاب في بنوية الشكل وشفرة المضمون سواء أكان هذا المضمون في جدار دلالي يتيم أم مشضى إلى هالة من الجدران الدلالية الصلدة التي تحاول الوصول إلى هدف النص الأساس وليس الهامشي. (ينظر: نفسه، ١١٥ - ١١٧).

ومن ثم درت الكثير من الموضوعات التي حملت هذا المصطلح، وأهمها:

- ١ - اللسانيات الروائية في الخطاب الروائي التاريخي الحديث / للناقد السويدي كوليس سيوارت / ٢٠١١ (ينظر: سيوارت، كوليس، ٢٠١٢).
- ٢ - اللسانيات الروائية في رواية (العيش في دهاليز النسيان) / للفيلسوف الألماني باستيل وايت / ٢٠١٣ (ينظر: وايت، باستيل، ٢٠١٥).
- ٣ - اللسانيات الروائية في الرؤية الحديثة لرواية (نزهة المنزل) / للأديب الفرنسي مارتن بولوتيه / ٢٠١٤ (ينظر: بولوتيه، مارتن، ٢٠١٦).
- ٤ - الخطاب السردي لرواية (كمين الخوف) - دراسة لسانية روائية - / للمفكر البلغاري كونترايس بولو / ٢٠١٦ (ينظر: بولو، كونترايس، ٢٠١٧).

- ٥ - دراسة لسانية روائية لرواية (مياه إغتالت الإرواء) / للناقد الإيطالي هوليوس باتريك / ٢٠١٨ (ينظر: باتريك، هوليوس، ٢٠١٩).
- ٦ - اللسانيات الروائية في البنية السردية لرواية (غدا يعتقل الزمن) / للمفكر الأرجنتيني ثاتوليك جبسون / ٢٠١٨ (ينظر: جبسون، ثاتوليك، ٢٠١٩).
- ٧ - أحشاء اللسانيات الروائية في البعد الإبداعي لرواية (رحيق الجذور) / للناقد الروسي جيكوراس كيراموف / ٢٠١٨ (ينظر: كيراموف، جيكوراس، ٢٠١٩).
- ٨ - اللسانيات الروائية والعقدة الزمنية في شفرة رواية (مستعمرات حرة) / للناقد الإنكليزي جيمس كارنوس / ٢٠١٨ (ينظر: كارنوس، جيمس، ٢٠١٩).
- ٩ - اللسانيات الروائية في السرد السيميائي لرواية (دكتاتورية الزهد) / للفيلسوف الأسباني خيليسيف ثاوكيليه / ٢٠١٨ (ينظر: ثاوكيليه، خيليسيف، ٢٠١٩).
- ١٠ - البعد الفلسفي للسانيات الروائية في عتبات نص رواية (ناطحات الأقزام) / للناقد الأوكراني شيتولوف بارثي ٢٠١٨ (ينظر: بارثي، شيتولوف، ٢٠١٩).

المحور الثاني: اللسانيات التفسيرية:

١ - التفسير في اللغة:

أ- التفسير في اللغة العربية:

قد نجد مصطلح (تفسير) مشتق من (الشفرة) في الخطاب المعجمي العربي لكننا لا نفوز في رحم هذا المصطلح على الدلالة التي نبتغيها هنا، فنمت تقاطعا واسعا بين الشفرة العربية، والتفسير العالمي، فالمصطلح الأول: هو اسم ثان للسكين الحادة (ينظر: ابن منظور، أحمد، ١٩٦٤، مادة (تفسير))، والمصطلح الثاني: ما هو إلا رمز لشيء آخر، لكن خطابا معجميا عربيا متخصصا أورد على أن الشفرة: قد تكون الرمال العالية، في حين أن دلالتها المشهورة هي السكين الحادة (ينظر: الزمخشري، محمود بن عمر، ١٩٧٢، مادة (تفسير

((، وهذا يدل على أن ثمة فكرة عربية قربت المصطلح العربي التراثي من المصطلح العالمي .

وعند تصفح البنية اللغوية العربية سنجد أن ثمة مصطلحا آخر - قد يكون أوضح من السابق - مثل لنا دلالة التشفير خير تمثيل، ألا وهو (كود) - بفتح الكاف وسكون الواو -، والذي يعني حمل الشيء أكثر من دلالة، أو أن ظاهر المعنى للشيء مخالف لمعناه الحقيقي (ينظر: ابن منظور، أحمد، ١٩٦٤، مادة (كود)) .

وعند تأمل الخطاب المعجمي العربي سنجد أن أي مفردة محتفظ بها في ملف هذا الخطاب لا ترتبط بفضائها الحسي إلا بالمعنى الأول الذي يورده المعجم، أما بقية معاني هذا المعجم فهي تحلق في الفضاء العقلي - المجازي - بمعنى أن تشفير المصطلح اللغوي العربي أوسع من اللاتشفير .

ب - التشفير في اللغات العالمية:

عند تصفح الخطاب المعجمي العالمي سنجد أن ملفوظ المصطلح - التشفير - ما هو إلا التصريف العربي لمصطلح SHIPHARE)) الذي ورد في أغلب اللغات اللاتينية (ينظر: جيكار، سوليه، ٢٠٠٠، مادة (تشفير)) أو (SHEVRA) في لغات أخرى (نفسه)، أو (CHEFRA)) وفي لغات أخرى (ينظر: سيلفادور، إيفان، ٢٠٠٥، مادة (تشفير))، أو (SEVRA)) في بعض اللغات، وفي كل هذه الموارد كان المصطلح يفيد ما يأتي:

١- اللغة أو التركيب ذات الدلالة المعقدة (ينظر: جيكار، سوليه، ٢٠٠٠، مادة (تشفير)) .

٢- شكل خارجي للنص ليس له علاقة بعمقه (ينظر: نفسه) .

٣- التضاد بين الظاهر، والمخفي (ينظر: سيلفادور، إيفان، ٢٠٠٥، مادة (تشفير)) .

٤- رمز لا علاقة له بمرموزه (ينظر: نفسه) .

وانطلاقاً من هذه التقارير نصل إلى صورة تعريف موجز للتشفير في الخطاب اللغوي العالمي، وهو: (النص الذي يتقاطع ظاهره مع باطنه، أو الخطاب

الذي يكون لظاهرة دلالة عريضة لكن هذه الدلالة لغو في فضاء الخطاب العميق (.) وعلى هذا المنطلق فليس كل متلق هو ناقد تشفيري إلا إذا تحققت قضيتان أساسيتان لا ثالث لهما، وهما:

١-الخلفية الثقافية المتينة للمتلقى على المستوى العمودي، والأفقي معا .

ب-القدرة على إعادة القراءة للنص مرات عديدة، فالقراءات المتنوعة تكشف الكثير من البنى التشفيرية التي يتعذر الكشف عنها مع القراءة الواحدة السطحية .

ولو أردنا الإمساك بهوية الناقد التشفيري الثقافية فلا نبالغ إذا قلنا بأنه الفيلسوف نفسه من خلال قدرة هذا المثقف على النظر للأشياء التي لا ترى بالعين المجردة، أو الأشياء التي لا تخضع للحواس التقليدية .

وتمت أسباب - في رأينا- تقف خلف ظهور التشفير في الخطاب الإنساني، لعل أهمها:-

١-الإيجاز في طرح النظرية المراد التحدث عنها .

٢-الدلالة الجمالية المتحققة في الخطاب .

٣-الخوف من التحدث في كل التفاصيل .

٤-عدم الرغبة الشخصية أو العامة في طرح كل التفاصيل المطلوبة .

٥-خلود الخطاب- من خلال كثرة التأويلات التي ترد عليه في كل زمان، ومكان-

لقد تطور الخطاب اللغوي التشفيري في العصر الحديث حينما تنوعت صورته، وبالصور الآتية:

١-اختصار الاسم/فبدلاً من القول مثلاً: JORGE MAIKLE SONATA يطرح الاسم بالشكل الآتي: (J.M.S)، أي اختصار (سبعة عشر حرفاً) ب(ثلاثة حروف) فقط .

ب-اختصار النظرية العلمية/من خلال علم المصطلحات الذي استقر بدل موقع

التفصيل الممل للشيء، فكل مصطلح إذا ما ترجمناه إلى عناصره الرئيسية نحتاج إلى كم هائل من الأوراق لتحقيق ذلك .

ج-الاختصار الرمزي/فتمة رمزا معين هو دلالة على شيء أكبر منه بكثير .

لقد استطاع مفكرو التشفير أن يطبقوا قواعد هذه النظرية على عالم الإشارات الواسع فيفكوا ما عصي منه كلغة الحضارات القديمة، وما كانت تكتنزه من معارف ودلالات تاريخية، وغير تاريخية(ينظر: مايكل، أنطونيو، ١٩٩٩، ٢٦ - ٣٣)، ونفس الشيء يقال عن علم الرياضيات(ينظر: نفسه)، والهندسة(ينظر: نفسه)، والكيمياء، والفيزياء، والأحياء(ينظر: نفسه)، وعلم التشريح النفسي(ينظر: نفسه) .

فإذن الخطاب التشفيري اللغوي العالمي يقدم لنا اختصارات هائلة للغة بمفردات بسيطة جدا، وسهلة الإدراك، والحفظ، وكلما كانت اللغة الإنسانية لغة مشفرة دل ذلك على سعة التقنيات الثقافية التي يمتلكها مجتمع هذه اللغة . ولا يمكن أن يصل المجتمع الإنساني إلى قمة الفكر التشفيري إلا إذا تطورت أخلاق هذا المجتمع بالشكل الذي ترقى الأخلاق إلى أن تتجاوز الفكر البدائي، وشضايا الفكر الحيواني حينها سيصبح الخطاب التشفيري هو الخطاب الرسمي الذي يتعامل به عامة الناس، وليس الخصوص فحسب لأنه سينطلق من وعي عال المستوى، ومتعدد الثقافات، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن تكون المنظومة اللغوية لفائدة المجتمع الإنساني، وليست ضده .

التشفير في الاصطلاح:

عند التأسيس لأصول الدلالة الاصطلاحية لهذا المصطلح فليس أمامنا إلا المعاجم الحديثة التي اشتهرت صورتها الدلالية من الخطاب المعجمي الاصطلاحي العالمي-ولاسيما الخطاب المعجمي الأوربي-، لأن هذا الخطاب له تجربة بعيدة المدى زمانيا مع طقس هذا المصطلح، والذي بدوره أثر على الخطاب المعجمي الاصطلاحي العربي الحديث فكان هذا الخطاب الأخير تكرارا للخطاب الأول ليس إلا .

وقد عرّفه المعجم الاصطلاحي العالمي الحديث، بما يأتي:

تنوع الدلالة الرمزية في المدلول الواحد، سواء كان مفردة، أو تركيباً، أو نصاً بحيث لا يمكن ببسر الوصول إلى أي دلالة أصلية للمدلول دون وجود خلفية ثقافية عملاقة، وذهن وقاد (ينظر: إيكار، تونبي، ١٩٩٩، ١٢٣ - ١٢٦) .

لقد عرف عن التشفير أنه ولد وترعرع في أروقة المؤسسة المخبرية العالمية حينما كانت أعمال، ومقررات هذه المؤسسة تتم بسرية تامة حتى لا تكشف مشاريعها للملأ (ينظر: الأحمد، صالح، ٢٠٠٦، ١٠٠ - ١١٠)، ومن بعد انتقل إلى المؤسسة الأدبية، والفنية مع وجود جذور للقضية في الملاحم القديمة فكل ملحمة كانت ترمز إلى هدف معين (ينظر: الخزرجي، عبد الباقي بدر، الدجيلي، حسن عبد الهادي، ٢٠١٢، ٢٥ - ٢٦) بمعنى أن كل ملحمة كان لها تشفيراً خاصاً بها .

وقد احتضنت بعض أعمال كورنيه المسرحية التيار التشفيري-كما أرى-ولاسيما مسرحية(السيد) التي ارتسم في كثير من تفصيلاتها الفكر التشفيري(ينظر: عبد العزيز، جميل، ٢٠١٣، ٤٤ - ٤٥) .

أما مالاراميه فقد انتشر التشفير عنده- كما أعتمد- في أكثر من خطاب روائي(ينظر: نفسه، ٦٦) .

ويرى (فاليت) أن الرواية تستخدم مادة مرمزة سابقاً، مشحونة برنين أسطوري: فهي تعمل على إشارات ثقافية أكثر من الواقع، ويتبنى فكرة وجود طرق تعبيرية ضمنية تسمح بالتسميع من دون تحميل مسؤولية ما قيل، ويتساءل هل هذه الطرق التعبيرية مرموزة، أو هل هي غير قابلة للاختزال إلى أي محاولة لفك الرموز؟ هل تقلت من الكاتب ذاته؟ ويجيب عن ذلك: أن سمات المحاكاة الساخرة _ باستثناء حدثنة وجه السخرية _ ليست هي عمل مصدر النص، بل مفسره: أي القارئ. يمكن أن تستخدم مقولة أراغون في (les beaux quartiers) أن "شهوانية الشباب الصغار محدودة جداً"، لتحفيز الأعمال اللاحقة، وذلك يعني، في جميع الأحوال أن شهوانية الرجال الكبار السن (أو النساء) هي تامة.(ينظر: الرواية، ٤٢، ٤٥، ٤٩، ٥٢) .

ويؤكد (فاليت) على أن الدخول إلى عالم الخيال والحبكة يستلزم أن يكون قد تم

احترام جميع التقاليد وعبور جميع الأبواب: من العنوان والعنوان الإضافي عند الاقتضاء... والفواتح المختلفة والإهداءات والملاحظات التمهيديّة... سوف تتم العودة إلى العالم الواقعي من خلال عبور مداخل أخرى: الملحقات و/ أو الحواشي. ويتساءل لماذا مثل هذه المزايدة في البيئة الميتالسانية؟ ويرى أن وظيفة الطباعة وفكرة الكتاب والمراجع السياقية هي بالتأكيد تسجيل العمل ضمن بنية عامة وسلالة وموضوعاتية أو شخصية. إلا أن دور هذا الجهاز المعيق المؤشر بالتأكيد لا يتوافق إلا مع الإرادة بتقليل تعددية دلالات النص السردى (ينظر: نفسه: ٥٤-٥٥).

وتنوع الدلالة وتشفيرها في الرواية يقودنا إلى الاعتراف أن أهم ما _ في الرواية كما في اللغة _ يكمن في فراغات النص، وفي غير المقول، والمضمر والافتراضات المسبقة، أو بطريقة أكثر انتشارية، على مستوى المفاهيم.. حاول (بارت) تعريف هذا المفهوم بطريقة دقيقة وصحيحة لجميع أنظمة الدلائل، الشفهية والأيقونية، قد يكون ما تمثله السيرورة التضمينية مدلولاً استعارياً، ومدلولاً ثانياً ليست دلالاته أي شيء آخر سوى المدلول الأول، المعتاد للمعنى الدال على الكلمة. (ينظر: نفسه: ٨٦)

ويعتقد (فالييت) أن المفاهيم إذا كانت أحادية المعنى، فهي تختلط مع المعاني المجازية المارة في اللغة، وإذا بقيت غامضة وأحادية المعنى ومتعددة القيمة، فهي تتبع لنظام تأويلي مجرد من رمز: ستكون معرفة بشكل سيء وغير قابل للبت وتائهة. (ينظر: نفسه: ٨٦ - ٨٧).

المحور الثالث: برنار فالييت:

ولد برنار فالييت (Bernard Vallet) في (فيين آزار) (Vean Azare) في (فرنسا) في (١٨ يناير، عام ١٩٥٤) (ينظر: الجمل، نور الدين الدكتور، ٢٠١١، ٣٣٣).

نبح منذ نعومة أظفاره بقضايا كثيرة، منها:

١ - اخترع نظرية في علم الرياضيات يمكنها مسح ملايين الأرقام بدقائق قليلة وهو لم يزل في سن العاشرة من العمر، وقد أسماها بـ (نظرية التسابق

- الرقمي) (ينظر: الجابر، سليم الدكتور، ٢٠١٠، ٧٧ - ٧٨).
- ٢ - حقق قانونا في الحرارة يمكنه صهر أي شيء بها بدقائق مثالية (ينظر: نفسه، ٨٨ - ٨٩).
- ٣ - أنتج معجما للمصطلحات الثقافية أسماه (خطاب المدنية) (Unevercity text) (ينظر: المدني، رفعت الدكتور، ٢٠١٢، ٢٤٤ - ٢٥٥).
- ٤ - كانت لهنتاجات أدبية متميزة، وهي كالاتي: -
- ١ - النتاجات الشعرية: كانت له شاعرية فذة ظهرت من خلال عشرة دواوين، وهي: -

- ظروف مبدلة / ١٩٧٧.
- الصراع أمام الخطوط الحمراء / ١٩٧٨.
- قوانين التفرعن / ١٩٨٢.
- شيطان مهذب / ١٩٨٤.
- مقاصل الشهيقي / ١٩٨٦.
- إحتضارات المانوليزا / ١٩٨٨.
- سلال السعير / ١٩٨٩.
- اجوبة لاتفقه الخجل / ١٩٩٢.
- زقورة الندم / ١٩٩٤.
- كهوف الرحيل / ١٩٩٦ (ينظر مثلا: العادل، سليمان الدكتور، ٢٠٠٠، ١١١ - ١١٦).

ب - النتاجات النثرية: وهي - تنازليا - على قسمين: - النتاجات الروائية، والنتاجات المسرحية:

- **النتاجات الروائية:** حيث ظهرت له خمس روايات مطبوعة، وهي: -

- سيميائيات فنطازية / ١٩٨١.
- قارورة الطموح / ١٩٨٣.
- بكتريا الأخلاق / ١٩٨٥.

- أناة الفشل / ١٩٩٩.
- دينصور مرمل / ٢٠١٠ (ينظر مثلاً: الطاهر، سمية، ٢٠١٣، ٣٣ - ٤٤).

النتائج المسرحية: وكانت حصيلته منها هي ثلاث مسرحيات فقط، وهي:

- ضفادع مؤسفرة / ٢٠٠٠.
- كؤوس مشفرة / ٢٠٠٧.
- قديد الضمأ / ٢٠٠٩ (ينظر مثلاً: الساري، عبد الحميد، ٢٠١٤، ٨٧ - ٩٠).

٥ - كانت له مجموعة من الكتب الأدبية المهمة، وأهمها: -

١ - الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته - موضوع بحثنا - (ينظر: فالييت، برنار، ٢٠١٣).

ب - النص الروائي تقنيات ومناهج (ينظر: فالييت، برنار، ٢٠١٥).

كما يشغل الآن (أستاذًا متمرسًا في كلية الآداب - جامعة السوربون).

المحور الرابع: أهمية كتاب (الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته):

يعد هذا الكتاب من النتائج المهمة جدا في الخطاب النقدي الروائي، إذ أنه يستعرض النظريات، والطروحات التي طافت في فضاء الرواية، ومن ثم يعيد صياغتها بشكل يختلف عن الذي سبق، يعدّ هذا الكتاب عملاً منهجياً تحليلياً ثقافياً في فن الرواية صدر في وقت كانت المكتبة العربية بحاجة إلى عمل مماثل حيث تم تقديمه بمنهجية عالية.

وقد تحدث عن الرواية بوصفها "عملاً مفتوحاً"، بقوله: " يمكننا القول، إذا استندنا إلى جمالية إعلامية، إن العمل الروائي هو رسالة منجزة بشكل صوري إلا أنها جزئية. ليس للرواية أي بنية محددة مسبقاً، وهي قد تخلصت من أي منظورية. إلا أنها، كي تكون مفهومة، عليها أن تحترم عدداً من الزخارف، أو أن

تخلق عادات تؤسس معايير جديدة للمقروئية. تدين بحدائتها المستمرة إلى التوازن، المتقلب دائماً والمستقر بين ترقب المتلقي وأصالة المرسل". (نفسه: ٥٠)

وفي ذات الفصل، تابع حديثه قائلاً: "إن العمل المغلق هو أحادي الدلالة ويفرض وجود تفسير أدبي. يركز كل عمل فقه اللغة على إنشاء فهم أحادي المعنى للنص. أما العمل المفتوح فهو متعدد القيم، ويفلت من كاتبه، ويتخطى العصر وإطار المجتمع الذي تم تأليفه فيه وقد يأخذ على عاتقه دلالات جديدة، غير قابلة للبت، وفي بعض الأحيان معارضة بشكل كلي للتصميم البدائي لمبدعه. وُلد المعنى المتناقض من ازدواجية الإشارات، وهو بذاته خصب". (نفسه: ٥١)

- وقد نسب الكاتب الموضوعية الروائية إلى مناهج نقدية معينة، من خلال: -
- ١ - المنهج الأسلوبى (Stalecim).
 - ٢ - المنهج البنوي (Strjucture).
 - ٣ - المنهج السيميائي (Semantic).
 - ٤ - المنهج التفكيكي (Deconstruction).
 - ٥ - المنهج الديلاكتيكي (Delacteacsim).
 - ٦ - المنهج التداولي (Pragmatic).
 - ٧ - المنهج السياقي (References).
 - ٨ - المنهج اللساني (Linguistics).
 - ٩ - المنهج الثقافي (Culcurisim).
 - ١٠ - المنهج الفني (Artilisym).
 - ١١ - المنهج القرائي (Leadersim).
 - ١٢ - المنهج البيئي (Homlisime).
 - ١٣ - المنهج التقاعلي (Deagytelesim) (ينظر: فاليت، برنار، ٢٠١٣).
- كما تطرق (فاليت) إلى كل الأنماط الروائية، ولعل أشهرها، هو: -

- ١ - الرواية التاريخية (Historicism Novel).
- ٢ - الرواية الاجتماعية (Sexology Novel).
- ٣ - الرواية النفسية (Sinology Novel).
- ٤ - الرواية الكلاسيكية (Clacice Novel).
- ٥ - الرواية الرومانسية (Romanteac Novel).
- ٦ - الرواية الرمزية (Sombre Novel).
- ٧ - الرواية الدينية (Methology Novel).
- ٨ - الرواية الفنتازية (Fentazyza Novel).
- ٩ - الرواية السياسية (Deamucratic novel).
- ١٠ - الرواية المقنعة (Sheferese novel).
- ١١ - الرواية الفلسفية (Phelosophy novel).
- ١٢ - الرواية المتنوعة (Koctea novel).
- ١٣ - الرواية العلمية (Sience novel).
- ١٤ - رواية الرحلات (Going novel).
- ١٥ - رواية الحلم (Seayng novel).
- ١٦ - رواية الحرب (War novel).
- ١٧ - الرواية الشعبية (Folkloor novel).
- ١٨ - الرواية الثقافية (Culcure novel).
- ١٩ - الرواية المفتوحة (Opener novel).
- ٢٠ - الرواية المغلقة (Closed novel).
- ٢١ - الرواية الزمنية (Timy novel) (ينظر: نفسه).

وقد درس (فاليت) نظرية التلقي حينما عدَّ أنَّ النظرية الروائية أساسا هي نظرية قرائية، لهذا اهتم بالقارئ (Reader) إهتماما كبيرا فقد عد هذا القارئ على ثلاثة أنواع، هي: -

- ١ - القارئ الذروة (Once reader).
 - ٢ - القارئ المحاور (Daeloky reader).
 - ٣ - القارئ اللغوي (Langugy reader) (ينظر: نفسه، ٢٧٧ - ٢٨٨).
- وقد تطرق فاليت إلى كل عصور الرواية، وهي: - (١ - القديمة، ٢ - العصور الوسطى، ٣ - عصر النهضة، ٤ - العصر الراهن) (ينظر: نفسه، ٣٣٣ - ٤١٠).
- وأورد كل مواقع الازدهار الروائي، وهي: - (١ - الولايات المتحدة الأمريكية، ٢ - بريطانيا، ٣ - ألمانيا، ٤ - فرنسا، ٥ - إيطاليا ٦ - روسيا، ٧ - إسبانيا) (ينظر: مثلا، نفسه، ١٣٢ - ١٤٤، ٢٧٧ - ٢٩٩).
- وذكر أسباب الإبداع الروائي، ومن جملتها، هي: - (١ - الموهبة، ٢ - الخبرة، ٣ - الثقافة، ٤ - المحنة، ٥ - التحدي) (ينظر: مثلا، نفسه، ٢١١ - ٣٤٤، ٢٢٥ - ٣٥٥).
- وتطرق إلى أعرق الأعمال الروائية العالمية (ينظر: مثلا، نفسه، ٢٢٢ - ٣٣٠، ٣٤٠).
- أما تقسيم الكتاب، فقد كان على النحو الآتي: -
- ١ - مقدمة المؤلف.
 - ٢ - الفصل الأول: عناصر تاريخية، ويقسم على قسمين، وهما: -
 - ١ - الرواية ونظرياتها.
 - ب - تصورات وآليات حديثة.
 - ٣ - الفصل الثاني: التوجهات المنهجية الأساسية، ويقسم على ستة أقسام، وهي: -
 - ١ - المقارنة النوعية.
 - ب - دراسة لنمطية المنطوق الروائي.
 - ج - قراءات نفسية وسوسيو - منطوية.

- د - مساهمات اللسانيات.
- هـ - التحليل البنيوي.
- و - الشعرية والسردانية.
- ٤ - الفصل الثالث: آفاق وأبحاث، ويقسم على ثلاثة أقسام، وهي: -
- ١ - حدود النظرية الأدبية.
- ب - طرق جديدة لشعرية النص الروائي.
- ج - من النظرية إلى التطبيق.
- ٥ - ثبت المصطلحات.
- ٦ - المراجع (ينظر: نفسه).
- ومن أشهر ترجمات هذا الكتاب هي ترجمة الأستاذة (سمية الجراح) التي صدرت عن
- (مركز دراسات الوحدة العربية) في (بيروت) عام (٢٠١٣)، والذي اعتمدنا عليها تماما في هذا البحث. وقد ترجمه أيضا الدكتور عبد الحميد بوراير وقد صدر عن (دار الحكمة) في الجزائر عام (٢٠٠٢).
- المحور الخامس: توظيف اللسانيات الروائية التفسيرية لخدمة المجتمع -**
- كتاب الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته لبرنار فاليت أنموذجا:**
- من الأمور المهمة التي لحظناها في كثير من الدراسات الألسنية الروائية أنها اضطلعت الدراسات لتشفير الكثير من ثيماتها التي طرحتها أولا، ومن ثم قامت بتوظيف هذه الثيم لخدمة المجتمع ثانيا.
- ومن هذه الدراسات:
- ١ - الطموح السنروائي في خطابات (جاك توربيل) الفلسفية (ينظر: العميد، خالد، ٢٠٠٠، ١١١ - ١١٨).
- ٢ - جذليات الألسنية الروائية في (محطات تستقبر الرفاه) (ينظر: برماودو، سويوسي، ٢٠٠٧، ٣٩٩ - ٤١٠).

٣ - الخطاب الزمني الأسروائي في (ممرات لاتفقه الجحود) (ينظر : تورساب، كونتي، ٢٠١٠، ٤٩٩ - ٥٠٦).

أما موضوعنا فقد وجدنا أن التشفيرة الأسروائية حاضرة في المنتج - بضم الميم، وفتح التاء -، عن طريق قسمين رئيسين، وهما: -

١ - حضور بعض الموضوعات الألسنية فيه.

٢ - حضور الألسنية في كثير من الموضوعات اللا ألسنية فيه.

١ - حضور بعض الموضوعات الألسنية فيه:

حضرت مجموعة من الموضوعات الألسنية في كتاب (فاليت)، وهي: -

١ - دراسة لنمطية المنطوق الروائي - القسم الثاني من الفصل الثاني - حاول (فاليت) في هذا المبحث أن يصنف الملفوظ الروائي والتمييز بين أصناف الرواية وهذا الأمر يتعلق برصد الدلائل التي أغلبها ذات طبيعة لغوية والتي حولها ينظم العالم الروائي وينبني، ويرى أن استخلاص نمطية الملفوظ الروائي يشير الى رغبة أكثر تواضعا وباهتمام بالدقة جدير بالثناء، وأنطلق من حقيقة رباعية الأوجه: يحكي الروائي، يصف، خطابا أو يجعل أشخاصا يتحدثون؛ وبهذا نتوقع أن نجد في الرواية أربعة أصناف من الملفوظات: سردي، وصفي، خطابي أو شفوي (ينظر : نفسه ٥٤).

ب - مساهمات اللسانيات - القسم الرابع من الفصل الثاني - يرى (فاليت) أن أهمية اللسانيات في قراءة نقد الرواية مزدوجة إذ يرى أنها "تندرج بداية، باعتبارها منهجا لبحت النصوص، في التقليد الممتحن لفقه اللغة الكلاسيكي الذي سيبقى فكره ورسائله ونتائجه نموذجاً للباحثين. ثم مع تجديد سوسير وبنويوة أعوام الستينات وتدويل السيميائية أخيراً، أتاحت للدراسات الأدبية الاقتراب من العلوم التي يُقال عنها دقيقة" (نفسه: ٩٨)، فاللسانيات لديه منهجا لتقصي النصوص والتي بدورها سمحت للدراسات الأدبية بالولوج في دائرة العلوم البحتة.

وما ذهب إليه سوسير في أن الدليل ينقسم الى دال ومدلول، يكون الأول

حاملا (خطيا، ومرثيا، صوتيا...) والثاني هو الذي يمثل الشيء أو المفهوم المعين، هذا التحديد للدليل هو المنطلق الأساسي بالنسبة للساني المعاصر، وهو الأساس أيضا بالنسبة لدراسة الرواية، فالنص الأدبي يتألف قبل كل شيء من كلمات، وتكمن أولوية مهمة التحليل إذًا في فحص الكلمات لا الواقع التجريبي الذي تعود إليه؛ وقد تبنى (فاليت) ما ذهبت إليه اللسانيات السوسورية في أن هدف اللسانيات هو دراسة دلالات اللغة، كذلك تستند الدراسة الشكلية للرواية الى تحليل حصري للوازم الأدبية. (نفسه: ٩٩)

٢ - حضور الألسنية في كثير من الموضوعات اللسانية فيه:

وقد ظهر ذلك في أغلب الأقسام الأخرى، وهي: -

١ - الرواية ونظرياتها - القسم الثاني من الفصل الأول - في الوقت الذي نجد فيه (فاليت) الرواية ونظرياتها ويحلل الكتابة الروائية باعتبارها سننا خاصا، مستعينا بالطرق التي يراها أصبحت تقليدية كونها مستمدة من البنيوية والسيميولوجيا، نراه يقحم اللسانيات ولا يهمل الإشارة إلى الدلائل اللفظية ويراها النواة المكونة لعلم الجمال والخطاب النقدي، وهو يرى أن العلوم الإنسانية على وجه العموم، واللسانيات على وجه الخصوص، تم تحفيزها من خلال الابداع الروائي. (ينظر: فاليت، برنار، ١٩، ٢١، ٢٣).

ب - المقاربات النوعية - القسم الأول من الفصل الثاني - في حديثه عن الأنواع السردية وأجراء المقاربات النوعية وتفرع أفلاطون هذه الأنواع الى مستقل وآخر مختلط، ومتابعاته إلى الظهور الأول لمصطلح الرواية في العصور الوسطى، والذي يشير بداية إلى قصص شعرية ثم نثرية، مكتوبة بلغة عامية لا باللغة المخصصة للنصوص المقدسة أو العالمية اللاتينية، وهو بهذا يميز بين مستويات الخطاب، معتبرا الأداء والقول السرديين العناصر المهيمنة في الإدراك الأصلي للنوع.

ومع تلك المقاربات بين الرواية والأجناس الأدبية المجاورة، نراه يولي اهتماماً خاصاً بلغة السرد الروائي، فهو يرى أنه يمكن تعريفه من خلال عدة سمات، صورية وصرفية وتركيبية ودلالية: استخدام الماضي البسيط، وصيغة الماضي،

والحاضر للسرد، وأدوات الإشارة وأفعال العمل، وجمل ترتبط ببعضها عموماً برابط قواعد (ربط نسقي) أو موضوعاتي (اقتران تضميني). (ينظر: نفسه، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٤، ٥٦، ٤١، ٣٦ - ٥٧).

ج - قراءات نفسية وسوسيو - منطقية - القسم الثالث من الفصل الثاني - في هذا القسم من الكتاب يرى (فاليت) أنه قد يكون من الوهم الاعتقاد أنه بالإمكان أن ينطبق على أي نص - روائي أو لا - أي شبكة قراءة: جمالية وأنتروبولوجية وتاريخية وبراغماتية واجتماعية نفسية وتحليلية نفسية... الخ.

وهو يرى أنه لا تصلح أسطورة القراءة المتعددة سوى لتبرير تعددية التأويلات غير المحدودة من دون أن يُسمح بالاعتراض على مبادئها أو التصديق على نتائجها، فأى خطاب نقدي، مؤسس على البديهيات ومفصول اصطناعياً عن مجال علمي محدد، لا يمكن إلا أن يلتصق بطريقة عشوائية بعمل - أو بكتابه.

ويؤكد (فاليت) على أن جميع المقاربات للظاهرة الأدبية تجتمع في نقطة مشتركة مهما كانت اختلافاتها: فهي تتموضع في محيط أدبيتها وتولي اهتماماً إما بالمرسل (المفرد أو المشترك) أو بالمتلقي (الفردي أو على شكل مؤسسة) أو بالرسالة المأخوذة كملفوظ أسطوري يعود إلى المسرح بطريقة غير مبالية، وإلى الأدب الشفهي (الحكاية الشعبية) أو إلى انتقالها في رمز إيقونوغرافي. (ينظر: نفسه، ٧٨، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٩٩ - ١٠٠، ١١٢ - ١١٧).

من خلال السرد الموضوعي السابق نستطيع كشف التشفير فيه من خلال:

١ - الرواية كما هو معروف ملحمة العصر الحديث الأولى فهي تتضمن كل تفاصيل المجتمع الحديث وهمومه لهذا هي في تحليلها تشفيراً لفك مشاكل، وتعقيدات المجتمع الإنساني المعاصر، وهذا عين صنع (فاليت) في كتابه الذي نحن الآن بصدد دراسته.

٢ - دراسة اللسانيات في الرواية معناه تحقيق مجموعة من القيم اللغوية التطبيقية عند المتلقي دون غيره، وأهمها: -

١ - إتقان دقة اللفظ والذي بدوره يعطي صورة صوتية للفضاء المشاهد العيني للرواية من خصوصية الاختيار دون غيره من المرادفات، وإعطاء دقة في خصوصية الدلالة التي قصدها ناص الرواية في المستوى الظاهر للخطاب الروائي، والمستوى المخفي.

ب - القدرة على إظهار ما قبل وما بعد السرد في نص السياق الروائي.

ج - التعبير على صوتيات الخطاب ذات الأبعاد الكبيرة في الفضاء الروائي.

د - العمل على تشضي إيقاع النص في مستوياته: النحوية، والصرفية، والبلاغية.

٣ - استحضار المصطلحات الإنسانية العامة في تثبيت الأفكار السردية في بعدها التاريخي، والأدبي معا.

٤ - إحقاق الأمثال، والقيم، والأفكار العالمية المتفق عليها، وبشكل دقيق، ومفهوم.

٥ - انفتاح النص الروائي على أكثر من خطاب من خلال استقبال كل الخلفيات الثقافية قراء للنص، ومبدعين من خلاله.

أما في ما يتعلق بالخدمة التي تقدمها اللسانيات الروائية التفسيرية للمجتمع، فهي: -

١ - الوقوف على أهم سليات المجتمع، وإيجاد الحلول لها.

٢ - إصلاح المنطق من خلال إصلاح اللفظ.

٣ - معرفة أبعاد المسكوت عنه، ومحاولة مناقشته مناقشة علمية دقيقة.

٤ - إيجاد حوار مشترك بين المتلقين العرب جميعا.

٥ - الدعوة إلى الإيجاز، وترك الإطناب الممل.

ثم تحدث المؤلف عن الرسالة المتضمنة في الروايات، بفصل أسماء "المضمون الظاهر والمضمون الكامن"، والذي يقول فيه: " يمكن اعتبار الملفوظ الروائي، ما تقوله الرواية، مكاناً للخطاب المزدوج؛ الواحد ذو نمط إخباري بحت، مفهومي؛ والآخر الذي يقتبس من الحكاية إغراءات المتخيل، يكون سردياً

حصراً.. تتوافق دراسة كل من هذه السجلات مع توجه محدد، فبينما يسعى تحليل المضمون إلى الإمساك بالعناصر المناسبة على مستوى الأفكار فقط ولا يمتنع عن القراءة بين السطور كي يكتشف دلالة عميقة، ماذا يريد النص أن يقول، على العكس من ذلك، ما يعتبره التحليل البنيوي أساساً هو منطق السرد. ما يهم بالنسبة إلى الإثنوغرافيين، كما بالنسبة لأولئك المدعويين بالشكلانيين الروس، بالنسبة إلى أي محاولة تحليل وثائقي، مكنن أو معلّم، لمدونة سردية، هو فقط الأفعال أو وفقاً لمصطلحية (بروب)، الوظائف. من بين الأوائل، أعتقد (إيفي-ستراوس) أنه بالإمكان الملاحظة: “لا توجد ماهية الأسطورة في الأسلوب ولا في طريقة السرد ولا في علم النحو لكن في القصة المروية”. (ينظر: نفسه ٨٤-٨٥)

كذلك يبدو أن الرواية تقدم خطاباً سطحياً، أو معنى ظاهرياً، ومضموناً كامناً، أو معنى عميقاً، ويمكننا منذ الآن ملاحظة أنها تتطابق بالنسبة للبعض مع نواتها الدلالية؛ قال (لا فونتين): “لا يجب تقديم درس أخلاقي سوى الملل، أما الحكاية فهي تمرر التعليم الأخلاقي معها”. وبالنسبة إلى الآخرين، تتطابق الرواية مع بنيتها السردية، القصصية أو العاملة.

أخيراً نستطيع أن نقول: أن برنار فاليت قدّم وبمنهجية عالية دراسة تحليلية دقيقة للرواية بالاستناد إلى المناهج الحديثة للبحث الأدبي. وفي سببه للعالم الروائي ومنهجياته، حدّد المؤلف المعالم التاريخية للأدب الروائي، واضعاً في نهاية مطافه مقارباته الموضوعية معتمداً على المناهج الكلاسيكية للبنيوية وما بعد البنيوية والسيميائية.

والكتاب مليء بالاقتراس الروائي وبمصطلحات نقدية متعلقة باختصاصات متنوعة روائية ولسانية أثّرت بالقيم التعبيرية، وهو ما يدلّ على الكفاءة في نسج الدلالات الصورية للرواية، ومناهج استخدامها بما يتوافق مع فعل المصطلح وفهمه. ويتقرّد مؤلفه بالأسلوب المنهجي غير المعهود في فن الرواية والاصالة الروائية، نتيجة لمقارباته العامة في التصور لهذا المجال الذي يعدّ حالياً باباً لقياس فنون أدبية أخرى تتعلق بالرواية كالشعر وسبكه روائياً.

يذكر الكاتب أن الملحمة هي عالم الآباء والبدائيات والدورات الكونية، وأن

ظهورها ليس نوعاً شفهياً فحسب، وإنما تمت كتابتها وطباعتها على الفور، بينما تنتسب الرواية إلى الحقبة الحديثة، وأنها تعبر عن التاريخانية والوجه العابر للقيم، وعن هشاشة الرمز الأدبي الذي ينقلها. ويتساءل هنا هل تبدو الرواية مدمرة للغة ولذاتها؟

ويرى الكاتب أن الدراسات اللسانية الحديثة ساهمت بشكل كبير في بلاغة السرد، وأن البنيوية والشعرية أتاحتا دراسة عمل السارد بطريقة مفصلة، سواء أكان يتموضع على مستوى الأحداث الواقعية أو الخيالية أو كان الأمر يتعلق بالتاريخ أو بالخيال.

لقد أصر الكاتب على اختراق الحالات الروائية العادية من خلال تحليله للعناصر الروائية وربطها باللغة والتصور ليضع مفاهيم جديدة بعضها ذاتي وبعضها يتأقلم مع الحداثة ومردوداتها الاجتماعية، وبهذا يمكن القول إن هذا الكتاب هو نتاج فكر عصارته الفائدة المستفيضة للباحث والدارس معاً.

أما أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث، فهي: -

- ١ - تعد اللسانيات الروائية من أرقى اللسانيات نظرية وتطبيقاً في المجتمع.
- ٢ - اللسانيات الروائية تستند كثيراً في نتائجها لخدمة المجتمع على التفسير الذي يتبطنها.
- ٣ - يعد كتاب (الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته) من أرقى كتب (برنار فاليت) في طرح شفرات اللسانيات الروائية وتقديم خدماتها للمجتمع برمته، والتي أهمها:-

١ - إصلاح المنطق من خلال إصلاح اللفظ.

ب - معرفة أبعاد المسكوت عنه، ومحاولة مناقشته مناقشة علمية دقيقة.

ج - الدعوة إلى الإيجاز، وترك الإطناب الممل.

المصادر والمراجع:

- ابن منظور، أحمد (٧١١ هـ)، لسان العرب، بيروت - دار صادر، ط١، ١٩٦٤.
- الأحمد، صالح الدكتور، منطلقات نظرية المسكوت عنه في الفكر الإنساني، برلين - دار

- نيوتن، ط١، ٢٠٠٦.
- إيكار، تونبي، الطويل، إحسان الدكتور المترجم، المعجم الاصطلاحي الحديث، موسكو - دار تونيبار، ط١، ١٩٩٩.
 - باتريك، هوليوس، دراسة لسانية روائية لرواية (مياه اغتالت الإرواء)، بيروت - دار الآداب، ط١، ٢٠١٩.
 - بارثي، شيتولوف، عبد الله، سلامة الدكتور المترجم، البعد الفلسفي للسانيات الروائية في عتبات نص رواية (ناطحات الأقزام)، بيروت - دار الثقافة، ط١، ٢٠١٩.
 - برماودو، سويسوي، السديد، عبد الرحمن الدكتور المترجم، جذليات الألسنية الروائية في محطات تستقبر الرفاه)، الجزائر - منشورات الانتشار، ط١، ٢٠٠٧.
 - بولو، كونترايس، جلال، حمدي الدكتور المترجم، الخطاب السرد لرواية (كمين الخوف) - دراسة لسانية روائية -، بيروت - دار الغد، ط١، ٢٠١٧.
 - بولوتيه، مارتن، جوزيف، يوسف الدكتور المترجم، اللسانيات الروائية في الرؤية الحديثة لرواية (نزهة المنزل)، بيروت - دار الحداثة، ط١، ٢٠١٦.
 - تورساب، كونتي، جلال، سعيد الدكتور المترجم، الخطاب الزمني الألسروائي في (ممرات لاتفقه الجحود)، بيروت - دار الفكر، ط١، ٢٠١٠.
 - ثاوكليله، خيليسوف، خالد، جميل الدكتور المترجم، اللسانيات الروائية في السرد السيميائي لرواية (دكتاتورية الزهد)، بيروت - دار الفكر، ط١، ٢٠١٩.
 - الجابر، سليم الدكتور، النظريات الحديثة، بيروت - دار الحداثة، ط١، ٢٠١٠.
 - جيسون، ثاتوليك، حداد، أحمد الدكتور المترجم، اللسانيات الروائية في البنية السردية لرواية (غدا يعتقل الزمن)، بيروت - دار بيروت، ط١، ٢٠١٩.
 - الجمل، نور الدين الدكتور، تراجم ثقافية عالمية، برلين - دار الثقافة، ط١، ٢٠١١.
 - جيكارد، سوليه، العالم، محمود الدكتور المترجم، المعجم النقدي العالمي، بيروت - دار لسان العرب، ط١، ٢٠٠٠.
 - الحملوي، أحمد الشيخ، شذا العرف في فن الصرف، بيروت - دار التراث، ط١، ١٩٤٤.
 - الخزرجي، عبد الباقي بدر الدكتور، الدجيلي، حسن عبد الهادي الدكتور، القناع في الخطاب الروائي العراقي الحديث من (٢٠٠٠ - ٢٠٠٨)، بغداد - دار ومكتبة عدنان، ط١، ٢٠١٢.
 - الدجيلي، حسن عبد الهادي الدكتور:
١. التشفير في الخطاب الشعري للشريف الرضي، دمشق - دار تموز، بغداد - دار بغداد، ط١، ٢٠١٤.
 ٢. تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف - دراسة في التركيب والدلالة -، بغداد -

- دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ٢٠٠٥.
- الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨ هـ)، أساس البلاغة، بيروت - دار المعرفة، ط١، ١٩٧٢.
 - الساري، عبد الحميد الدكتور، خارطة الإبداع، روما - دار الصروح، ط١، ٢٠١٤.
 - سيلفادور، إيفان، الفيومي، عبد الباري الدكتور المترجم، معجم المصطلحات النقدية الحديثة، بيروت - دار التنوير، ط١، ٢٠٠٥.
 - سيوارت، كوليس، عبد المنعم، صلاح الدكتور المترجم، اللسانيات الروائية في الخطاب الروائي التاريخي الحديث، المغرب - دار توبقال، ط١، ٢٠١٢.
 - الطارق، محمد، اللسانيات والإبداع الأدبي، بيروت - دار الفكر، ط١، ١٩٩٩.
 - الطاهر، سمية الدكتورة، النتاجات الذروة، مدريد - دار الجماليات، ط١، ٢٠١٣.
 - العادل، سليمان الدكتور، بانوراما الفكر، البرتغال - دار التفكير، ط١، ٢٠٠٠.
 - عبد العزيز، جميل الدكتور، الاتجاه السيميائي في الفكر الإبداعي العالمي، مدريد - دار بيكاسو، ط١، ٢٠١٣.
 - عزام، عبد الإله الدكتور، علم الصوت الحركي، بيروت - دار المعارف، ط١، ١٩٨٨.
 - العميد، خالد الدكتور، بانوراما البعد الروائي العالمي الحديث، بيروت - دار الحداثة، ط١، ٢٠٠٠.
 - فاليت، برنار:
 - ١. بنحدو، رشيد المترجم، النص الروائي تقنيات ومناهج، الجزائر - المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٥.
 - ٢. الجراح، سمية المترجمة، الرواية مدخل إلى مناهج التحليل الأدبي وتقنياته، بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٣.
 - كارنوس، جيمس، عبد الجليل، عفاف الدكتورة المترجمة، اللسانيات الروائية والعقدة الزمنية في شفرة رواية (مستعمرات حرة)، بيروت - دار الأندلس، ط١، ٢٠١٩.
 - كاسريوه، جان بول، الأدهم، علاء الدكتور، المترجم، اللسانيات الروائية في تفكيك السرد الإبداعي للرواية الأمريكية من ١٩٩٩ - ٢٠٠٨، القاهرة - دار الشروق، ط١، ٢٠١٢.
 - كاظم، ظافر، اللسانيات في خدمة السرد، صحيفة الرأي الأردنية، مقال، ٢٦/٢/٢٠١٦.
 - كيماروف، جيكوراس، عادل، عماد الدكتور المترجم، أحشاء اللسانيات الروائية في البعد الإبداعي لرواية (رحيق الجذور)، بيروت - دار الحداثة، ط١، ٢٠١٩.
 - مايكل، أنطونيو، السامر، عبد الوهاب الدكتور المترجم، تاريخ العلوم الإنسانية، برلين - دار الثقافة، ط١، ٢٠١٠.
 - محمود، أحمد الدكتور، الرياضيات الحرفية في التراث العربي، بيروت - دار الحداثة،

ط١، ٢٠٠٠.

- المديني، رفعت الدكتور، شخصيات سوبر ثقافية، لندن - دار فيس بوك، ط١، ٢٠١٢.
- المصلح، عبد الرحمن الدكتور، المعجم الاصطلاحي الحديث، بيروت - دار الثقافة، ط١، ١٩٩٦.
- مطلوب، أحمد الدكتور، معجم المصطلحات النقدية والبلاغية، بيروت - دار الفكر، ط١، ١٩٨٥.
- وايتنر، باستيل، فهمي، عماد الدكتور المترجم، اللسانيات الروائية في رواية (العيش في دهاليز النسيان)، تونس - دار الأرجوان، ط١، ٢٠١٥.

التوليد اللغوي بين التداولية والنقد الثقافي اللهجة العراقية أنموذجا

أ.م. د. حسين علي جبار القاصد

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

مقدمة

تظهر الحاجة للغة المولدة التي قد تكون في جانب من جوانبها لهجة محلية لها جذور فصيحة لكنها هجنت بعد أن لاكتها الألسن، أو ألفاظ اجنبية دخلت الواقع اليومي وصار التواصل بها لا غنى عنه، وهو ما حدث في أغلب اللغات؛ أما في العراق فقد بدأت اللهجة العراقية بألفاظ جديدة منذ الدولة العباسية وعاصمتها بغداد، حيث شقت بعض الألفاظ طريقها إلى الشعر لتتال رتبة تقريبها من اللغة الأم.

وكان لهذا البحث أن يخوض في معاني بعض الألفاظ العامية العراقية وعلاقتها بالموروث الفصيح، وعلاقة الأمثال الشعبية العراقية بما وصلنا من شعر ونثر وصلنا فصيحاً، لكننا صرنا نسمعه بقالب عامي.

لذلك وقف المبحث الأول عند الأمثال الشعبية العراقية وجذورها في اللغة الفصحى، وواءم بينها وبين شبيهها في الموروث؛ بينما اهتم المبحث الثاني بالتداخل الدلالي بين الفصحى والعامية ووقف عند نسق الاتكاء لدى شعراء الفصحى على اللهجة العامية تداولياً وثقافياً؛ حتى وصل إلى شاطئ الخاتمة والنتائج، وليس لأي بحث أن ينتهي، فسنة البحث أن يستمر وأن تتوالد من نقاشه أسئلة جديدة تتجب أسئلة أكثر؛ وهذا هو شأن البحث العلمي فهو كالحياة له أن يعيش عمره التساؤلي ليقطف أجوبة تنبض بأسئلة أخرى، ووفق هذا، أقول ليس لي إلا ما رأيته حين اخترت الحفر ومطاردة جذور الألفاظ العامية واتكاء الشعراء عليها.

هذا ما رآه البحث وما توصل اليه؛ ولي أن أقول ليس لأي بحث أن ينتهي،

لأن البحث اسئلة والنتائج أجوبة لايراد منها الجزم، فالاسئلة حياة والجواب الجازم
نهاية وموت، وحسبي قول الشاعر:

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كُلُّها

كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معائبه

جعلنا الله والقارئ الكريم ممن تعد معائبهم.

والله ولي التوفيق

المبحث الأول: الأمثال الشعبية العراقية وجذورها في اللغة الفصحى

يلجأ العربي بشكل عام إلى سند من الموروث الديني أو الأدبي أو الاجتماعي، لكي يسوغ عملاً ما يقوم به؛ وغالباً ما يكون لهذا " السند " المستدعى من الماضي، أو الشائع اجتماعياً، هو الفيصل لينهي أي جدل أو نقاش.

ان نسق الاتكاء تداولياً يعالج مقتضى الحال بقوالب جاهزة ومقولات مأثورة، ليست بالضرورة أن تكون من الواقع المعيش، بل غالباً ما يتم استدعاؤها من الموروث ليتم الاتكاء عليها بعد توافقها مع مقتضى الحال؛ لأن ما تحتاجه التداولية قد لا يتوافر لحظة القول، لكنه راسخ بين المخاطب والمخاطب وفق عقد ثقافي أساسه رسوخ القبول المضمّر، وهنا يتدخل النقد الثقافي ليسهم في اتمام عملية التواصل.

ان العربي أسير مآثر القول ومجبول على الاقتناع بمثل شائع أو بيت شعر في الحكمة لأن ثقافتنا تعبد النصوص، كما يقول نصر حامد أبو زيد؛ يكفي أن تقول قال فلان ويتوقف العقل، لذلك تلتئم سبل التواصل تداولياً وثقافياً بالاتكاء على تلك النصوص، أو ما هو مولد منها.

ولنا أن نتجنب النص الديني لأن سلطته غالباً ما تكون مفروضة الطاعة وعندها ينتهي الخطاب بقول مقدس يركن اليه طرفا التواصل؛ لكن الشعر العربي والموروث النثري وفر لنا الكثير من أبيات الحكمة التي تفض النزاع، فضلاً عن

الأمثال العربية التي بنيت على حادثة نسيت وبقي المثل حاكماً، ذلك لأن بيت الشعر الذي يحمل الحكمة أو المثل الشائع يمثل نصاً حاضراً ذهنياً مهماً اختلف فإن له مقتضى حال يليق به لأن (النص بهذا الاختلاف لا يحدد هويته فقط ويميز نفسه عن غيره من النصوص بل يجعل ذلك لكي يجعل من نفسه محوراً في الثقافة عن طريق قابليته للتفسيرات والتأويلات)^(١) وقد شاعت في اللهجة العراقية المعاصرة كلمات وأمثال وردت في الشعر العباسي، لكن تم اندثارها في القول الفصيح لتدخل الى نطاق اللهجة المحلية الضيقة؛ ربما لأن الكلمات تخاف الخروج بمفردها؛ اذ يقول يانس رتسوس: (تخاف الكلمات التي تبقى خارج القصيدة)^(٢) وذلك لأن الشعر، كما يبدو، حارس اللغة، وما غاب او اندثر منه أو اختبأ بين طيات المعاجيم، لم يبق منه الا ما يتناوله عامة الناس في لهجتهم المحلية الدارجة و (ما أكثر الكلمات الخائفة في اللغة العربية. المعجم العربي مليء بالخوف)^(٣)، على حد تعبير أدونيس، وإلا فمن من الشعراء يجروا على ادخال كلمة (أثول التي تقال للغبي) في بيت شعر وهي التي لها وجود في الشعر العباسي، أو كلمة (بس) التي تعني (فقط) و كلمة (بستوكة) وكثير من الكلمات التي وجدت لها موطناً في اللهجة المحلية بعد أن احوالها ركنها الشعراء الى المعاجيم، وغابت عن المشهد اللغوي الفصيح.

فأما الأثول (في مقاييس اللغة لابن فارس: الأثول: داء يصيب الشاة فتسترخي أعضاؤها، وقد يكون في الذكر أيضاً. وربما قالوا للأحمق البطيء الخير: أثول، وهو من الاضطراب... وكان قد استعملها السري الرفاء بمعنى: غبي، جاهل في قوله " في رجل من بغداد ":

وُصِفَ ابْنُ يَوْسُفَ لِي بِكُلِّ فَضِيلَةٍ وَرَأَيْتُهُ فَرَأَيْتُ مِنْهُ أَثُولًا

سَاءَلْتُهُ عَنْ عِلْمِهِ، فَكَأَنَّمَا سَاءَلْتُ عَنْ سَكَانِهِ رِبْعًا خَلَا

(١) مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن، نصر حامد ابو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١/ ٢٠١٤: ١٨٧

(٢) رأس اللغة جسم الصحراء، أدونيس، دار الساقي لبنان، ط١ ٢٠٠٨: ٣١٤

(٣) نفسه.

وكما استعملها السريّ بمعنى الغباوة والجهل ما يزال العراقيون يستعملونها في لهجتهم^(١) أما كلمة (بس) فقد وردت في الشعر أيضاً: (قال ابن الحجاج " ت ٣٩٣ هـ - " كما ورد في درة التاج من شعر ابن الحجاج للبدیع الاسطرلابي، قال يطلب تبناً لفرسه:

فامئنُ بتبنٍ عليه بسٌ ففي تكليفك القَتَّ بعده سَرَفُ

ومعناها _ كما هو واضح _ فقط، وهي من العامي الذي ما يزال مستعملاً في العراق حتى اليوم، وتأتي بمعنى فقط كما استعملها الشاعر، وتأتي بمعنى: يكفي أيضاً...^(٢) ولعل كلمة مثل (بشت) بكسر الباء، لا يتوقع أن نجد لها أثراً في الموروث العربي، لكنها تغلغلت اثر تلاقح اللغات في أواخر العصر العباسي(قال أسامة بن منقذ " ت: ٥٨٤ هـ - في " الاعتبار: " فضربه الوالد بهذا السيف وهو في غمده متقلدٌ به، فقطع الجهاز، والنعل الفضة، وبُشتاً كان على الركابي...". وعلق المحقق الاستاذ فيليب حُتي في الحاشية بقوله: أو بُشتاً عباءة. ولعلها " بُشت" الفارسية.)^(٣) ويعلق العلامة د. محمد حسين الأعرجي رحمه الله فيقول(وأراني أميل الى أن البشت عباءة، ويبدو أنها بكسر الباء كما هي في متن الاعتبار، وليس بالضم كما هي في حاشية المحقق... ومن أمثال العراقيين العامية: يا بو بشت بيش بلشت " يقولونه لمن يغالب خصماً لا يقدر عليه " ومعناه يا أبا بشت كناية عن الرجل المترب بماذا ورطت نفسك؟)^(٤). أما (بستوكة) فقد وردت في ديوان ابن الرومي يهجو إسماعيل بن بلبل:

سائل أبا الصقر اذا جئته عن امه ذات البساتيق

فقال المحقق في الحاشية: ذكر القاموس المحيط أن البستق بمعنى: الخادم

(١) شذرات من العامي والمولد، محمد حسين الأعرجي، منشورات بغداد عاصمة الثقافة العربية،

٢٠١٣: ٧٢

(٢) السابق: ٥١ - ٥٢.

(٣) نفسه

(٤) السابق: ٥٢ - ٥٣

ولعله يتهم امه بالخدم... أقول: البستوقة هي الزير الصغير ومازالت تستعمل في العراق بهذا المعنى... وصار العراقيون يستعملون البساتيق لحفظ المخللات، وهم يسمون هذا المخل: الطرشي^(١)؛ وأرى أنها مازالت تستعمل في بعض البلدان العربية وقد شاهدتها في سورية وفي تونس؛ ثم ماذا نسمي ما تحمله كهرمانه في تمثالها الذي يتوسط بغداد؟.

لقد وقع المحقق في فخ المعنى التداولي ومقتضى الحال، ذلك لأن التداولية (منهج معرفي يطال المستويات اللغوية كلها، فالنحو يتأثر بالتداولية، والدلالة تتأثر بالتداولية، والمعجم يتأثر بالتداولية، وسائر أصناف الخطاب تتأثر بها، فتكون من ثم أداة معرفية تضيء جوانب كثيرة من اللغة والخطاب)^(٢)، ولأن ام المهجو تحمل البساتيق فقام بترحيل صفة الحامل لجعلها اسماً للمحمول (البستوقة)، لأن وجهة الهجاء هي أم المهجو لا ما تحمله.

كما ان النسق المضمر في النقد الثقافي قد يفاقم الهجاء ويجعل أم المهجو حمالة الخمر للراغبين فيه، وهو امر يشي باختلاطه وتردها عليهم؛ لكن الهجاء او صفة الخادم ليست للبستوقة انما لحاملتها.

ومثل ذلك كلمة (بوس) فلقد استقرت في الشعر العربي حتى شاعت فصيحَةً وعاميَّةً، لأن (باس: بمعنى قبل قالها ابو نواس...

يا ماسح القبله من خده من بعدما قد كان أعطاها

خشيت أن يعرف إجماعها مولاك في الخد قيقراها

ولو علمنا أنه هكذا كنا اذا بسنا مسحناها

... أقول بقيت اللفظة مستعملة في اللهجة العراقية، وفي كثير من اللهجات

(١) السابق: ٥٣

(٢) سيمياء الانساق - تشكلات المعنى في الخطابات التراثية ط١، د. آمنة بلعلي، رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠١٥: ١١٥

العربية الى اليوم^(١).

بقي أن أشير الى الكثير من الكلمات العامية الشائعة في العراق ومنها ما يشترك في استعمالها بعض البلدان العربية، من مثل كلمة (ليش) التي لها جذور أيضا في الشعر العباسي، لكن معناها واضح وهي اختصار أصلها (لأي شيء) بمعنى لأي سبب، أو لماذا؛ كذلك كلمة (هسة) أصلها (هذه الساعة) والمصريون يستعملون ما هو قريب منها، للسؤال بقولهم (لسه) لهذه الساعة، أو جوابا على سؤال من مثل هل انتهيت من كتابة هذا البحث فيكون الجواب (لسه) أي: لا، لهذه الساعة لم انته؛ والعراقيون يقولون (شلونك) اختصارا لـ (أي شيء لونك) أي كيف حالك؛ ومن المشتركات بين لهجة جنوب العراق ولبنان كلمة (موش) وهي عند المصريين (مُش) وتستعمل للنفي، وأصلها حرفيا (لشيء) أو ما من شيء، لكن معناها التواصلي يفيد النفي و يشبه معنى (ليس) من دون اشتراطات النحو.

الأمثال الشعبية بين مقتضى الحال ونسق الاتكاء الثقافي:

يقول دي سوسير (اكتشاف الحقيقة أسهل من وضعها في مكانها المناسب)^(٢)؛ لكن في قول الحكمة التي تنهي الحوار هل نكون قد اكتشفنا الحقيقة حقا؟ الجواب: لا، بل مارسنا اللجوء الى شاهد مشترك ذهنيا بين المتكلمين، واتكأنا على معنى قضوي قيل في مقام ما، لكنه استمر صامدا وكأن الحياة وظروفها مستنسخة تماما؛ أو لأن لهذا المعنى ومقتضاه من القوة في التأثير تصل لحسم الحوار والاقناع؛ وهو في الوقت نفسه نسق ثقافي فيه مضمّر مستمر، ومتى ما انطبق على خطاب حديث استدعي لصرامته.

قبل الخوض في الأمثال العامية العراقية وعلاقتها بالمرورث الفصيح، أود الوقوف عند هذه المقطوعة الشعرية المثيرة باختزالها اللغوي واسباب هذا الاختزال

(١) شذرات من العامي والمولد: ٦٢

(٢) علم اللغة العام. دي سوسير، فردينان. تر. يوثيل يوسف عزيز. مراجعة النص العربي:

مالك يوسف المطليبي. دار الآفاق العربية، بغداد. ط ٣: ٨٧

واتكائه التداولي والثقافي:

يقول الشاعر صباح الهلالي:

هذوله من طغو صحنه لهذولاك اجو عالصوت فورا وانتخوله
اجت نفس الوجوه وذوله ذولاك نصيح المن ونخلص من هذوله

الشاعر حذف المشار اليهم وهما فريقان كما هو واضح، لكن ما الذي دعاه لهذا الحذف الرائع وهل كان من ابتكاره؟ فاذا عدنا الى أبي الطيب المتنبي في قوله: (١)

ما أبعد الغيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهزم

نجد (ذان) التي هي (هذان) وقد حذف المتنبي هاء التنبيه، تشبه (هذوله) التي هي من الجمع العامي، فالعراقيون يجمعون اسم الإشارة فيقولون (هذوله) ولا يقولون (هؤلاء)، ومثلها (هذولاك) التي أصلها (أولئك)؛ ولعل الاستعمال الغريب في حذف المشار اليه يصب فيما نحن بصدده؛ فبغض النظر عن الحضور الذهني لبیت المتنبي الذي وفر عقدا ثقافيا ومقتضى حال تداوليا، نجد الاشتراك في حذف المشار اليه يجعل مقامي القول متفقين تماما؛ ولن اتساءل وأقول (أين ذهب المشار إليه؟، من دونه لم يعد لدينا سوى دوال تخنق الجو) (٢) وأحسبني أدرك ما اراد المتنبي ومن بعدها صباح الهلالي.

في حادثة المتنبي كان المشار اليهما جالسين لكن كبرياءه العظيمة جعلته - قضويا - يأنف ويتعالى عن ذكرهما لأنهما حاسدان له وقد وشيا به عند سيف الدولة، لذلك اتكأ تداوليا على تقانة الحذف، ليحقق نسق التحقير وهو المضمّر في " النقد الثقافي".

(١) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، المطبعة الأدبية في بيروت:

٣٤٤

(٢) الخروج من التيه دراسة في سلطة النص، عبد العزيز حمودة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ٢٠٠٣: ٥٠

أما صباح الهلالي فقد مارس أكثر من اتكاء ثقافي وتداولي؛ فهو استدعى معنى بيت المتنبي ووظفه باللهجة العامية العراقية، لكن مقتضى حاله متعدد فبين استعراض القدرة على الحذف التي لم يكن المتنبي بحاجة لاستعراضها، وبين مقام القول هو طغيان (هذوله) الأولى التي يعني بها نظام الدكتاتور صدام حسين، وبين حاجته لـ (هذولاك) لينقذوه، ليصل الى صدمته الكبرى بتشابهه حتى المشار اليهم — على حد تعبيره — ليدخل في حيرة البحث عن (هذولاك) جدد ينقذونه من (هذوله) الجدد؛ ومقتضى الحال، هنا، هو تشابه الظالم والمنقذ، لذلك حذف المشار اليهم يأسا لا تحقيرا، واليأس هو النسق الثقافي المضمحل لديه.

نأتي الى الأمثال الشعبية العراقية:

• المبلل ما يخاف من المطر:

مثلٌ شعبي عراقي يقال لمن يتعرض للوم اذا ما تورط في أمر مزعج، فيقال من باب المكابرة؛ ومضمرة ومقتضى حال فيه، هو: أن قائله لاسبيل ولا حل أمامه غير المضي في ما هو بصدده؛ الا ان الاستدعاء الثقافي والقضوي واضح جدا، لأنه، في الأصل من قول المتنبي: (أنا الغريق فما خوفي من البلل)^(١).

• ناس تاكل دجاج وناس تتلگه العجاج و ناس تاكل دجاج وناس تتلگه العجاج.. و حظي من العنجور منجور وحظي اللاحگ من گشور.

مثلان يضربان لندب الحظ؛ والشائع في الأمثال، على الأغلب، هو السجع؛ فأما (العنجور) أو (الحنجور) فهو (البرتقال) ومنجور مشتقة من النجار الذي صنعه الخشب، بمعنى ان البرتقال يابس جدا يشبه الخشب؛ و اللاحگ هو الناضج، لكن نصيب سيئ الحظ منه هو (گشور) قشور فقط؛ بينما

(١) العرف الطيب: ٣٤٩

يندب حظه الذي ليس له سوى (العجاج) وهي العواصف الترابية، بينما غيره يأكل الدجاج الذي يعد مصدر ترف من وجهة نظره.

وقد ترجم هذا المثل الى الفصحى شاعر سوداني، مع ان لمعناه أصل عند المتنبى؛ فأما الشاعر السوداني فيقول: ^(١)

إِنَّ حَظِّي كدقيقٍ فوقَ شوْكِ نثروهُ

ثم قالوا لحُفَاةٍ يومَ رِيحٍ إجمعوهُ

والمثلان يستندان الى بيت المتنبى: ^(٢)

أَمَسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خَازِنًا وَيَدًا ،،، أَنَا الْغَنِيُّ وَأَمْوَالِي الْمَوَاعِيدُ

أما مقتضى الحال فهو اليأس، وهو واضح في بيت المتنبى، وأما النسق الثقافي فهو الاحساس بالغبن لأن القائل يرى أنه يستحق ما يستحق غيره وربما أكثر.

• زين التعرفه أحسن من زين الما تعرفه:

يقال للتوجس والضمان والحذر، وهو قريب لقول المتنبى: ^(٣)

إِذَا رَأَيْتَ تُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً. فَلَا تَظُنَّنْ أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

• نايِم ورجليك بالشمس.

يقال لمن لا يدري ولا يشعر بما قد يهدده، وهو ترجمة واضحة لمقتضى الحال في المثل العربي (فلان رأسه في القبلة واسنثه في الحربة) ^(٤)؛ وقد قال

^(١) الشاعر السوداني ادريس جماع - حياته وشعره، تأليف حجاز مدثر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم - شارع البلدية.

^(٢) العرف الطيب: ٥٤٩

^(٣) السابق: ٣٤٣

^(٤) مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد: المعاونة الثقافية للأستاذة الرضوية - إيران، ١٩٨٧م - ١٤٤١هـ: ٣١٧ / ١

معروف الرصافي:

يا قوم لا تتكلموا ما فاز الا النوم

ثم تبعه الجواهري فقال:

نامي جيا ع الشعب نامي حرسك آلهة الطعام

وأحسب أن كلا الشاعرين مارسا الاتكاء على المثل الشعبي ليقوعا مع المتلقي عقد القبول لأن المعنى راسخ في ذهنه، فضلاً عن اتكائهما على مقتضى الحال وهو (توبيخ) المتقاعس؛ ولي أن أرى أن المثل الشعبي وما قاله الرصافي والجواهري هو بناء على انقراض معنى مغاير لموروث مشهور قاله المتنبي: ^(١)

أَنَا مِلءٌ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا... وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَزَاها وَيَخْتَصِمُ

وهو نوم اليقظ المطمئن لا نوم من لا يجهل مصيره.

• لا بو علي ولا مسحاته.

يقال لليأس من الانتظار؛ والمسحاة ^(٢) فصيحة، فهي: اسم آلة من سحاً وسحى، أداة القشر والجرف؛ وفي الموروث قال الشاعر:

لقد ذهب الحمار بأمر عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

وقد روى الجاحظ في (نوادير المعلمين): ^(٣) "ألقت كتاباً في نوادر المعلمين، وما هم عليه من التغفل ثم رجعت عن ذلك، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب. فدخلت يوماً مدينة، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلمت عليه، فرد علي أحسن رد، ورحب بي، فجلست عنده وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر

(١) العرف الطيب: ٣٤٣

(٢) ينظر: لسان العرب.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد الأبيهي، الباب الخامس والسبعين،

الفصل الخامس - في "نوادير المعلمين"، دار الطباعة السنوية - مصر سنة ١٨٦٨م -

١٢٨٥هـ: ٦٢٤.

فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المنقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب. فقلت: هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب.

كنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته، فإذا بالكتاب مغلق ولم أجده، فسألت عنه، فقيل مات له ميت، فحزن عليه، وجلس في بيته للعزاء.

ذهبت إلى بيته وطرقت الباب، [...] وإذا به جالس، فقلت: عظم الله أجرك! لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، كل نفس ذائقة الموت فعليك بالصبر، ثم قلت:

هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا، [...] فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي! فقلت في نفسي فهذه أول المناحس، فقلت: سبحان الله النساء كثير، وستجد غيرها. فقال: أظن أنني رأيتها؟ قلت وهذه منحسة ثانية، قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أنني كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه بُرد وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة.. ردي علي فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي - لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها لما قيل فيها هذا الشعر، فعشقتها!! فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار". بعد هذه السياحة مع الجاحظ وام عمر وحبيبها الذي لم يرها، ليس لنا إلا أن نقول سامح الله الشاعر جرير، ولا أظن أن شاعرا وراء انتظار (أبي علي ومسحاته) وليس غير نسق الاتكاء التداولي وهو اليأس، والعقد الذهني مع المتلقي بالاتكاء على الموروث نسقاً ثقافياً.

• واحد يَبْخَر عشرة يفسون:

تناص تام مع المثل العربي: (لا يقوم عطرها بفسائها)^(١)، ويقال في من يضيع احسانه بإساءته.

• يسأل عن النغل منو أبوه.

النغل فساد الأديم ونغل نغل الأديم ينغل نغلاً، ومنه اشتقاق النغل لفساد مولده؛ لذا فهو ابن الزنا، مجهول الأب.

يقول العلامة د. محمد حسين الأعرجي: (استعملها ابن الرومي بسكون الغين منها في قصيدة واحدة يهجو بها ابن خنساء، إذ يقول:

كم قد ركضت حشاها والنغل يسمع ركضي

... فليشتم النغل عرضي بالشم لا المتقضي

ووجدت الحسين بن الحجاج على ما نقل ابن أيدير في كتابه المخطوط " الدر الفريد وبيت القصيد" ... يجمعها وكأنها كانت تُنطق كما استعملها ابن الرومي، على نغول كما في قوله:

هذا زمان النغول وحدهم لا كان إن دام ذا، ولا كانوا)^(٢).

ولقد كانت العرب تقول (هم أبناء الدهاليز)^(٣)، كناية عن أبناء الأراذل وأبناء الزواني؛ ولعل هذا القول يمثل المتكأ التداولي، أما النسق الثقافي فهو (الشتيمة) حتى وإن كان المشتوم ليس نغلاً.

• من كل زيغ رگعه.

قالت العرب: فيهم من كل زيغ رقعة، ومن كل قِدر مغرفة، ومن كل

(١) مجمع الأمثال: ٢٠٩/ ٢

(٢) شذرات من العامي والمولد: ٣١٩

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي

النبيسابوري أبو منصور، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار المعارف: ٣٧٠

كُتَابٍ صَبِي، وَمِنْ كُلِّ سَكَّةٍ حَارِسٌ^(١)، وَهُوَ مِثْلُ يَدٍ عَلَى (خَلِيط) مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْ النَّاسِ وَيُقَالُ اسْتَهْجَانًا وَاحْتِقَارًا.

• ثَلَاثِينَ الْوَلَدَ عَلَى خَالِهِ.

مِثْلُ شَعْبِيٍّ مَتَدَاوِلٍ فِي الْعِرَاقِ، يُقَالُ مِنْ بَابِ الْفَخْرِ؛ فَلَقَدْ (نَكَرَ "الْجَاظُ" أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: "عِرْقُ الْخَالِ لَا يَنَامُ". وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِرْقَ الْخَالِ أَنْزَعَ مِنْ عِرْقِ الْعَمِّ. وَمِنْ دَلَائِلِ ذَلِكَ تَبَاهِي النَّاسُ بِأَخْوَالِهِمْ، وَاعْتَبَرُوا الْخَالَ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ. وَقَوْلُ الْعَرَبِ: "لَتَيْمُ الْخَالِ"، وَاحْتِمَاءُ الْأَوْلَادِ بِأَخْوَالِهِمْ وَلَجُودُهُمْ إِلَيْهِمْ أَكْثَرَ مِنْ لَجُودِهِمْ إِلَى أَعْمَامِهِمْ)^(٢). وَهَذَا يُوفِّرُ مَعْنَى قَضْوِيًّا تَدْوَالِيًّا هُوَ الْفَخْرُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ؛ لَكِنْ النِّسْقُ الثَّقَافِيُّ الْمَضْمَرُ يَعِيدُنَا إِلَى الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ (اسْتَجِيدُوا الْخَالَ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَاسٌ)^(٣)

• أَوَّلُ مَا شَطَحَ نَطَحَ.

هُوَ فِي الْمَوْرُوثِ الْعَرَبِيِّ أَصْلُهُ: (حَيْثَمَا سَقَطَ لَقَطٌ)^(٤) وَلَهُ تَنَاصُ آخَرٌ فِي الْلُهْجَةِ الْعِرَاقِيَّةِ (شَلُونِ مَا تَذْبَهُ يَطِيحُ عَلَى رَأْسِهِ) وَيُقَالُ لِلْمَحْتَالِ الْحَرَكِ.

• أَضْرَبَكَ جَلَاقَ أَوْ دِيكَ لِلْحَلَاقِ.

يَقُولُهُ الْمُتَمَكِّنُ مِنْ خَصْمِهِ مُسْتَعْرِضًا قُوَّتَهُ؛ وَ (الشَّلَاقُ) مَوْجُودَةٌ فِي الْمَوْرُوثِ الْعَرَبِيِّ: (فِي الْجُمُورَةِ لِابْنِ دَرِيدٍ: الشَّلُّ هُوَ الضَّرْبُ بِالسُّوْطِ، وَغَيْرِهِ... وَمِنْ الْمَعْنَى الَّتِي قَالَه ابْنُ دَرِيدٍ تَطَوَّرَتِ اللَّفْظَةُ فِي عَامِيَّةِ الْعِرَاقِيِّينَ فَصَارَتْ: " جَلَاقًا " بِكَسْرِ الْأَوَّلِ، وَصَارَتْ تَعْنِي الضَّرْبَ بِمَقْدَمَةِ الْقَدَمِ وَظَاهِرُهُ عَلَى مُؤَخَّرَةِ الْإِنْسَانِ)^(٥)؛ وَالْمَعْنَى التَّدَاوُلِيَّ هُوَ قُوَّةُ الضَّارِبِ وَطُولُ الْمَسَافَةِ الَّتِي اقْتَضَاهَا

(١) مجمع الأمثال: ٢ / ٤١٠

(٢) التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد

الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١: ٣٢٠

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري: ١١٧/٢.

(٤) مجمع الأمثال: ١ / ٢٣٠

(٥) شذرات من العامي والمولد: ١٩٤ - ١٩٥

(السجع) لتكون الى الحلاق؛ أما المضمّر فهو الإهانة، لأن المتكلم لديه تواصل ذهني مع خصمه، وبذلك سيرتدع الخصم وتنتهي المعركة بالتهديد المهين لفظاً ومعنى فضلاً عن مكان الضربة الذي يحدد لنا نسق الفحولة لدى المتكلم.

المبحث الثاني: التداخل الدلالي بين الفصحى والعامية

نسق الاتكاء لدى شعراء الفصحى على اللهجة العامية تداولياً وثقافياً.

يتكئ الشاعر العراقي الفصيح على اللهجة العامية ليمد خيوط التواصل بينه وبين المتلقي؛ وأقول: خيوط، ولم أقل: حبال التواصل، لأن لابد للشعر من الإبهام كي يبقى باب التأويل مفتوحاً؛ فضلاً استعراض مقدرة الشاعر على التلغيز وابتداع الصورة الجديدة، لكنه - أي الشاعر - يحتاج الى خيط رفيع يجعل القارئ يمسك بشيء من القصيدة لكي يبقى باب التواصل مفتوحاً، ثم يفتح للمتلقي كل أبواب التأويل.

ولا بد من وقفة عند شعراء اللهجة العراقية وانتكائهم على الصورة الموروثة من الشعر العربي ليدعوا ابداعها ونسبتها لهم، مع انها مسبوقة وراسخة ذهنيًا لدى المطلع على فصيح الشعر؛ ومثال هذا، قول الشاعر الشعبي عطا السعيد:

عمت عينك العوره وعينك الأخرى^(١)

لماذا الأخرى؟ الجواب: اذا قال الشاعر: عمت عيونك، انتفت صفة الشعر وصار الأمر ليس أكثر من شتيمة متداولة؛ لكن تركيز الشاعر يحيلنا الى بيت المتنبي الشهير في هجائه لشخص أعور، إذ يقول: ^(٢)

فيا ابنَ كَرُوسٍ يا نِصفَ أعمى وإنْ تَفَخَّرَ فَيَا نِصفَ البَصِيرِ

وقل مثل ذلك، عن بيت في اغنية (يا هواجس) للفنان المبدع حسن بريسّم، إذ يرد فيها بيت: (شهنو نفعلك وانت لي بدنياي ضيم..... عود أموت

(١) أغلب الشعر الشعبي ومثله الاغاني، مصدره السماع والشيوع، والتداول الشفاهي، لذلك سيكتفي الباحث بالإشارة الى النصوص دون مصادرها او معلوماتها المكتبية.

(٢) العرف الطيب: ١٧٠

تقول ما يستاهل !!)، أقول: هو من بيت عبيد بن الأبرص:

لَأَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي^(١)

إن الالتكاء على الموروث، واستثماره باللهجة الشعبية نابع من أن (النص الشعبي حركة مستمرة مع حركة الحياة، فكل ما يطرأ على الحياة الاجتماعية من تغيير، وكل ما يستوعبه الشعب من أفكار إزاء هذا التغيير، لا بد أن يجد صدها في حركة النص^(٢))، لذلك يحقق هذا الالتكاء ديمومة تداولية؛ فمقتضى الحال بين عطا السعيدى والمتنبى هو الشنمية والهجاء، لكن النسق الثقافي المضمّر هو نسق (الاستدعاء) من منظور النقد الثقافي.

(فالأدب الشعبي لا يتميز بالفصحى أو العامية، ولا يقال إنه يلتزم بوحدة منهما، وإنما الأولى أن يقال إن له لغة خاصة به، تحمل من سماته وصفاته ما يجعلها تضمّ الفصحى والعامية، أو تسمو عليهما حين تأخذ ببساطة العامية وانتشار الفصحى وتصبح قادرة على التوصيل والإبلاغ لكل فرد من أفراد الأمة، بقدر ماهي قادرة على التصوير والإبداع والتأثير في كل فرد من أفراد الأمة^(٣)).

ولو تفحصنا قصائد شعراء الفصحى، لوجدنا اتكاءً واضحاً يحقق غاياته التواصلية الى أبعد المديات؛ ولقد وظف عدد ما الشعراء الأغنية المشهورة ليحققوا التواصل عبر الالتكاء التداولي الذي يشرحه مقتضى حال المغني وسامع الاغنية، وبعدهما الشاعر والمتلقي لقصيدته؛ الالتقاء الثقافي الذي يضمّر الشاعر ويفضحه التواصل، وهو نسق الالتكاء على شهرة الاغنية واتخاذها جسراً للمتلقي.

ومن بين الشعراء العراقيين، رائد الشعر الحر بدر شاكر السياب، حيث

(١) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصار، شركة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٣٧هـ-١٩٥٧م: ٤٧-٥٠

(٢) خصوصيات الإبداع الشعبي، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، مجلد ١٠، ع ٣ و٤، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، يناير ٢٠٠٢: ٦٤.

(٣) الأدب الشعبي العربي؛ مفهومه ومضمونه، حمود ذهني، مطبوعات جامعة القاهرة، الخرطوم، ١٣٩٣/ ١٩٧٢: ٥٤

لجأ الى التناص مع الواقع واتكأ على الاغنية في توظيف رائع؛ فهو بعد أن اطلق على (المومس العمياء) اسم سليمة، وهو اسم على غير مسمى، استفز المتلقي به، استحضر مقطعاً من اغنية شعبية عراقية شائعة:... وتلوب أغنية قديمة في نفسها وصدى يوشوش:

يا سليمة، سليمة

نامت عيون الناس. أه.. فمن لقلبي كي ينيمه؟^(١)

لا أجمل ولا أروع من هذا التناص وهذا التوظيف، فالشاعر ترجم ما اقتبسه الى اللغة الفصحى وأبقى على خيط التواصل وهو الأغنية، محققاً ذرائعية التداولية ومضمر النقد الثقافي؛ لأن الأدب بحسب: يوري سوكولوف: هو (الإبداع الشعري الشفاهي لجماهير الشعب العريضة)^(٢).

أما الشاعر العراقي سعدي يوسف فقد وظف من الفلكور ما يحدد هويته، وهو ما فعله في قصيدته " عن المسألة كلها" محتقلاً بتأميم النفط من دون أن ينسى بوحه الذاتي، فجاء بالمقطع الآتي:^(٣)

حلوة يا حلوة

ركضنا اليوم للجلوة ومن كركوك جيناها

من كركوك والبصرة جينا اليوم للحلوة

جينا اليوم للجلوة.

وهي مما يتردد ألسنة البنات المقرّبات للعروس، لحظة تجميل العروس؛ أقول: لعل (الجلوة) مشتقة من الجلاء وإزالة الاشياء غير المرغوب فيها، التي

(١) ديوان بدر شاكر السياب، بيروت: دار العودة ١٩٩٥: ٥٣٢ - ٥٣١

(٢) ينظر: الفلكور / قضاياها وتاريخها، يوري سوكولوف، تر: حلمي شعراوي وعبد الحميد حواس، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف، ١٩٧١، ص ٥٥.

(٣) لغة النار الأثرية، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام مديرية الثقافة العامة، أشرف على اعداده: ماجد السامرائي، ١٩٧٣: عن المسألة كلها - سعدي يوسف: ٤٣

تشوه شكل العروس؛ وهو ذاته جلاء الشركات الأجنبية، في تناص رائع وتوليد لغوي لطيف قام به الشاعر الذي ادخل (البصرة) لكي يجلب الجمهور الى ساحته، جمهور مدينته البصرة، والأغنية من الفلكلور الذي كثيرا ما ينسى اسم قائله، لكنه يبقى حاضرا مهيمننا وهو (الأدب المجهول المؤلف، العامي اللغة، المتوارث جيلا بعد جيل بالرواية الشفوية)^(١).

الاتكاء جسر للمتلقي وحبل وصل؛ وقد قال الشاعر كاظم اسماعيل الكاطع في واحدة من اروع قصائده: "اللوحة".

واحد بناله قصر باسعار مفتوحة
رسموله طير بقفص والايدي متلوحة
واختلفوا على السعر
واللي رسمها تعب بالجيه والروحه
الرسام دمه الصبغ وتكلفه اللوحة
ما عامل على الرسم عامل على جروحه
طال النقاش وكبر واللوحة متعلكت عالكاع مطروحه
ايام بعد الزعل شقناها ممسوحة
والطير منها اختفه ومنهم سحب روحه
الطير ليش اختفه ومنهم سحب روحه؟
الرسام حطه بقفص بيبانه مفتوحة

ولقد اشتهرت هذه القصيدة بموال شجي بصوت كريم منصور، وأحسبها نواة اتكاء دفعت الشاعر عارف الساعدي للانطلاق منها، فجاء بقصيدته (ما لم يقله الرسام)

وكان يرسم بلداناً ويحسدها
وكان يشتم اهلها اذا نظرا
لأنه رش ريفاً فوق ضحكهم

(١) الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، مكتبة النهضة المصرية، د ط، القاهرة، ١٩٧١: ١٤.

وكان يرسم طيناً مورقاً صوراً
وكان يرسم ابواباً مفتحةً
للناس يدخلها من تاب .. من كفر
الكل يدخل من ابواب لوحته
إله ظل على الابواب منتظراً

الكاطع جعل الرسام يضع الطير في قفص أبوابه مفتوحة، والساعدي فتح أبواب اللوحة وأدخل الجميع وأبقى الرسام أمام باب لوحته.

إن استعمال اللهجة العامية بين المولد والطارئ (الأجنبي) وبين ما له أصل عربي لكنه اندثر وغاب في دهاليز المعاجيم، إن هذا الاستعمال لم يغيب عن ذهن الشاعر العراقي الفصيح، لكن هل كل ما يقال إنه من اللهجة العامية هو عامي حقاً؟ فما زال الدعاء الغضب لدى الأمهات الجنوبيات ما يشي بالعامية لكنه يملك جذوراً في الموروث العربي الفصيح سواء كان أصيلاً أو من اللغة المولدة؛ ولنقف عن الشاعر سراج محمد، ففي قصيدته (مالم يقله عبد الأمير جرس) التي القاها في ملتقى "جواهريون" الذي اقامه اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، يقول في أحد أبياتها: ^(١)

أنا الجنوبي من قد (طرّه فلك) ... و (فرّه الدهر) مذ أم مع الغسقي

والشاعر وضع (طرّه فلك) بين قوسين لأنها صارت من اللهجة العامية بعد شيوعها جنوب العراق دون غيره؛ لكن لها أصل في الموروث الفصيح؛ فمن معاني (طرّ): (طَرَّهُ بِالسَّيْفِ: قَطَعَهُ) ^(٢)؛ أما المفلوك، فيقول العلامة د. محمد حسين الأعرجي: (للمفلوك أصل في اللغة المولدة فالمفلوك: هو الذي ضربه الفلك فافتقر كما قالوا في الذي ضربه الفالج: مفلوج. ومن عقائد العامة أن

^(١) القصيدة غير منشورة في ديوان لكنها موثقة على اليوتيوب في شبكة الانترنت:

<https://www.youtube.com/watch?v=m10avRZvzQ3>

^(٢) ينظر: لسان العرب، طرر: "طَرَّهم بالسيف يطرُّهم طَرّاً، والطرُّ كالشَّلِّ، وطرَّ الإبل يطرُّها طَرّاً: ساقها سوقاً شديداً وطردها.

الأفلاك تقدر الأرزاق... ثم لما صار المفلوك عندهم الفقير اشتقوا منه فعلا لمن افتقر فقالوا: فُلْكَ أي: ضربه الفلك^(١)؛ لذا فإن المعنى مستقيم، لدينا، لغةً ولهجةً، فصيحاً وعامياً، لكنه اندثر عند بعض المدن وأغلب البلدان العربية، ذلك لأن الأدب العباسي أدب عراقي محض لا يكاد يفهمه بدقة إلا العراقي - كما يرى العلامة الأعرجي -^(٢)؛ لذلك يحتفظ العراقيون بأغلب ما قيل من مولد وأصيل في العصر العباسي، وظل أغلبه يجري على سنتهم، حتى اندثر عند الآخرين وظنوه عامياً.

أما (فرّة الدهر) فإن (فرّه) عامية عراقية لا أصل لها في اللغة ولا في المولد، وهي عند العراقيين تعني (دار به) أما الدهر فهو كما قال ابن سيده: (فأما قوله، صلى الله عليه وسلم: لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ: هو الدَّهْرُ؛ فمعناه أن ما أصابك من الدهر فالله فاعله ليس الدهر، فإذا شتمت به الدهر فكأنك أردت به الله...)^(٣)

ولقد صب الشاعر كل معاناته من خلال التناص مع الشائع دعاءً غاضباً، مستثمراً دلالاته ومعاناة الجنوبيين، فالإتكاء القضوي هو الفقر والعذابات، أما النسق الثقافي المضمّر فهو باختصار شديد: إن " المفلوك " " المدهور " سراج محمد (شروكي) وهي تسمية تطلق على الجنوبيين نسبة إلى سكنهم جنوب شرق العراق وفي مثلث الهور تحديداً.

و مازال أهل جنوب العراق يستعملون الفعل (طرّ) بمعنى قطع التي منها القطع الفعلي الذي يحمل معنى التقطيع، أو قطع مسافة من الطريق بمعنى اجتازها ومن مثال ذلك أغنية المطرب صاحب الصوت الشجي " داخل حسن " والمطرب نسيم عودة من فيلم (إنعيمه):^(٤)

(١) شذرات من العامي والمولد: ٢٥٧ - ٢٥٨

(٢) ينظر: السابق: ١٥

(٣) ينظر: لسان العرب، دهر.

(٤) <https://www.youtube.com/watch?v=KṛSxEsGIDMw>

مشحوفه طرّ الهور يسبّك بمشيّه الماطور
مكيفين ماخذنه الفرح واليوم صيدتنه طيور
يخنيجر افرح وابتشر وافرح وغني هسة لي
يهليل يطيب العمر لو صارت انعيمه ئلي

والمشحوف بلهجة جنوب هو المحليّ الصنع القديم الذي يعتمد التجديف، وفي البيت تحدّ واضح لتطور الصناعة حيث ان هذا المشحوف ببساطته يسبق (يسبّك) بمسيره (بمشيّه) الماطور ويراد به الزورق الذي يعمل بالمحرك والوقود.

ونقف عند تصغير التحبيب (يخنيجر) هو مصغر (خنجر) و (ياهليل) مصغر (هلال) وهذه تكثر في الجنوب وغالبا ما تقترب دقة الاستعمال من الاستعمال الصرفي في كتب اللغة والنحو.

هما سعيدان لأن مشحوفهما اجتاز الهور (طرّه) وكما انهما حصلا على صيد ثمين هو طيور الماء وهي نوع من الطيور التي تتوافر وتتكاثر في أهوار العراق؛ لكن سرعان مايتذكر داخل حسن حبيبته الصيد الأكبر ويتمنى أن يحظى بحبيبته نعيمه، فيجيبه خنيجر (نسيم عودة) بأن عليه أن يهرب بها من وهو من يقوم بحماية ظهره، فيشكره (هليل) بالدعاء لم تم ذلك؛ وينهب فصيحة، من النهب والسلب، أما (النهيبة) فهي سرقة الحبيبة من اهلها بموافقتها، ووقعها على قبيلة الحبيبة هو العار الذي يوجب قتل الناهب والناهبة، ولا يقال المنهوبة، لأنها شريكة في (النهيبة)؛ لكن بعد تعهد خنيجر بمساندة صديقه وحمايته، يبدو ان الأمر سيتم.

الخاتمة

ليس هناك نص بريء تماما، وكما قال الإمام علي: لولا أن الكلام يعاد لنفد؛ لذلك صار الكلام المكرور المنمق بثوب جديد من البلاغة، أو الذي جرى على الألسن باللهجة العراقية، من أصليها، أو ما طرأ عليها من الأعجمي/الأجنبي، صار هذا الكلام يبدو جديدا، لكنه في أصله مسبوق وله جذوره؛ ولقد وصل هذا البحث الى:

١. الاتكاء بوصفه ذريعة تداولية كان واضحاً لدى أغلب الشعراء، لكن عدد صفحات البحث جعلنا نقف عند بعض الأمثلة والشواهد.
٢. المسوغ الثقافي للاتكاء التداولي بنسق ثقافي مضمّر، قد حقق جسر التواصل بين المؤلف والمتلقي.
٣. أغلب الكلمات التي غابت عن الحضور الفصيح وقيل إنها عامية كانت متداولة بوصفها فصيحة، وقد أوردنا أدلة بشواهد شعرية ونثرية من الموروث العربي.
٤. أغلب الأمثال لها جذورها في شعر الحكمة العربي، وفي النثر العربي القديم.
٥. اعتماد الأغنية جسراً للمتلقي وهو نسق ازدهر في العصر العباسي، ثم اندثر، ليعود في العصر الحديث بصيغة الاتكاء الثقافي.
٦. هناك مشترك بين العامي العراقي وبين ما هو فصيح في موروث البلدان العربية وليس العراق فحسب.
٧. أحسب أن البحث استطاع يسأل الموروث الفصيح، والعامي المعاصر، والمشارك بين الاثنين، بأسئلة النقد الحديث معتمداً التداولية، والنقد الثقافي.
٨. وتبقى أسئلة البحث مفتوحة، فالأمر الذي كنت بصدده، كان له أن يمتد ويتسع ليصبح كتاباً لولا أنني محكوم بعدد الصفحات.

المصادر والمراجع

- الأدب الشعبي العربي - مفهومه ومضمونه، حمود ذهني، مطبوعات جامعة القاهرة، الخرطوم
- الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، مكتبة النهضة المصرية، د ط، القاهرة، 1971.
- التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري أبو منصور، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار المعارف.
- الخروج من التيه دراسة في سلطة النص، عبد العزيز حمودة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ٢٠٠٣.

- خصوصيات الإبداع الشعبي، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، مجلد ١٠، ع ٣ و٤، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، يناير ٢٠٠٢.
 - ديوان بدر شاكر السياب، بيروت: دار العودة ١٩٩٥.
 - ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصار، شركة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٣٧هـ-١٩٥٧م.
 - رأس اللغة جسم الصحراء، أدونيس، دار الساقي لبنان، ط ١ ٢٠٠٨.
 - سيماء الانساق - تشكلات المعنى في الخطابات التراثية ط ١، د. أمنة بلعلي، رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة 2015.
 - الشاعر السوداني ادريس جماع - حياته وشعره، تأليف حجاز مدثر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم - شارع البلدية.
 - شذرات من العامي والمولد، محمد حسين الأعرجي، منشورات بغداد عاصمة الثقافة العربية، ٢٠١٣.
 - العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، المطبعة الأدبية في بيروت.
 - علم اللغة العام. دي سوسير، فردينان. تر. يوثيل يوسف عزيز. مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطليبي. دار الآفاق العربية، بغداد. ط ٣.
 - الفلكلور، قضايا وتاريخه، يوري سوكولوف، تر: حلمي شعراوي وعبد الحميد حواس، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف، ١٩٧١.
 - لغة النار الأزلية، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام مديرية الثقافة العامة، أشرف على اعداده: ماجد السامرائي، ١٩٧٣: عن المسألة كلها - سعدي يوسف.
 - مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المعاونة الثقافية للأستاذة الرضوية - إيران، ١٩٨٧م - ١٤٤١هـ.
 - المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد الأبيشي، الباب الخامس والسبعين، الفصل الخامس - في "توادر المعلمين"، دار الطباعة السنوية - مصر سنة ١٨٦٨م - ١٢٨٥هـ.
 - مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن، نصر حامد ابو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ٢٠١٤.
 - النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، ج ٢.
- الشابكة العنكبوتية:

- <https://www.youtube.com/watch?v=m3avRZvzQ10>

- www.youtube.com/watch?v=K3SxEsGIDMw

مدينة الكفل في مدونات الرحالة والأعلام دراسة تاريخية تحقيقية

د. أرشد حمزة حسن

مديرية ديوان الوقف الشيعي - بابل

مقدمة

مما لاشك فيه ان هناك مدن عدة قد تنبأت مراكز مهمة و متميزة في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، ومثلت هذه المدن مراكز إشعاع فكري في جميع المجالات العلمية والإنسانية بدءاً من علوم الدين وانتهاءً بالعلوم الصرفة، ونتيجة لذلك فقد اكتسبت تواريخ المدن العراقية في حقب زمنية محددة من تاريخ العراق القديم والحديث والمعاصر أهمية تاريخية، ذلك لأنها تعرضت لجوانب معينة أكسبتها ميزات نابعة من طبيعة المدينة وخصائصها العامة، ومنها مدينة الكفل التي شغلت موقعاً مهماً، ومكانة متميزة على الخارطة التاريخية والدينية والحضارية في العراق، فبقربها نشأت حضارة بابل بأدوارها التاريخية المختلفة، فكانت مهداً لولادة نبي الله إبراهيم عليه السلام، ومرقداً ومستقراً لنبي الله ذي الكفل عليه السلام، وشاءت قدرة الباري عز وجل أن تكون منطلقاً لجيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حرب صفين ضد معاوية، وبقيت تمارس دورها الحضاري والديني وعلى مدى قرون طويلة، فشهدت صراعات فكرية وأيدولوجية والسبب في ذلك يعود إلى وجود مسجد النخيلة التاريخي الذي كان محط أنظار اليهود وأخبارهم على مر العصور، فقد حاولوا أن يغيروا ما في المسجد من معالم إسلامية وتحويله الى كنيس ومعبد يهودي على الرغم من صبغته الدينية والإسلامية المؤطرة بوجود منبر ومحراب لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لذلك فقد كانت هذه المدينة مستقراً لكثير من الرحالة والمؤرخين والباحثين، وأخذوا يدونون ما كانت تقع عليه أعينهم من مشاهدات، أو ما نُقلَ لهم من رواة قد ترتقي الى جانب الحقيقة، أو لا ترتقي، ومن هنا اخذ الباحث على عاتقه موضع البحث عن هذه الحقيقة من خلال النصوص التاريخية التي استطاع

الحصول عليها، فكانت عملية التقصي والبحث والموضوعية والتجرد من الانحياز هي الطريق الذي سلكه من أجل استقراء تاريخ هذه المدينة، ذلك لأن الكثير من النصوص المدونة والتي تخص هذا التاريخ هو في أغلبه كتابات ومدونات كتبت من خلال رحالة ومؤرخين يهود، أبتعد الكثير منهم عن نقل الحقائق كما هي متأثرين بكتبهم (السماوية - المزيفة-) أو ما فرض عليهم من أحبارهم وكهنتهم في تدوين تاريخ يهودي بعيد كل البعد عن الحقيقة والغرض منه هو محاولة تهويد هذه المدينة.

اتخذ الباحث في منهجه التسلسل الزمني والتاريخي والتحقيقي في دراسة مشاهدات ومدونات الرحالة والمؤرخين وكذلك ترجمة بعض النصوص من لغات مختلفة خصت موضوع البحث، فضلاً عن قيامه بتحليل النصوص وتحقيقها في الهامش ليكون القارئ مطلعاً على حقيقة وواقع مدينة الكفل ومرقدها المقدس، ومن جانب آخر سعى إلى تأكيد إمكانية اعتماد كتب ومؤلفات ومدونات الرحالة والمؤرخين والأعلام باعتبارها الرافد الأهم في هذه الدراسة بشكل خاص، مع الأخذ بنظر الاعتبار عملية التدقيق العلمي الرصين لهذه المدونات والبحث والكشف بين الواقع وبين ما مدون فعلاً في هذه المصادر، وهذا ما أعطى لهذه الدراسة الأهمية في كتابة الموضوع، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الباحث أورد في دراسته هذه الرحالة الأجانب فقط الذين زاروا مدينة الكفل وذلك لسببين الأول خوفاً من سعة الموضوع وتشعبه، وثانياً لأن بعض من هؤلاء الرحالة قد نقلوا صوراً ومعلومات عن المدينة ومرقدها المقدس هي بعيدة عن الحقيقة لذلك أخضعها الباحث إلى التقصي والتحليل.

اعتمدت الدراسة على منهج التحليل والاستنتاج والتحقيق ومراعاة التسلسل التاريخي في عرض الأفكار وتحليل النصوص وكذلك اعتمد على منهجية الاستقراء والاستقصاء لكل ما كتبه الرحالة والأعلام الذين زاروا المرقد أو كتبوا عنه، ومما تجدر الإشارة إليه أن الباحث اعتمد في دراسة الموضوع على (خمسة عشر) رحلة لرحالة أجانب زاروا مدينة الكفل ومرقدها المقدس منذ القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ونظراً لاستخدام هؤلاء الرحالة اسمي ذي الكفل وحزقيال والذين يدلان على اسم النبي ذي الكفل (عليه السلام)

سنوردهما كلاهما.

ومن دوافع اختيار هذا الموضوع، الرغبة في إحياء تراث هذه المدينة العلمي والفكري والثقافي والديني.

المبحث الاول: الموقع الجغرافي والاهمية التاريخية لمدينة الكفل

تقع مدينة الكفل التاريخية على بعد (٣٠) كم الى الجنوب الغربي لمدينة الحلة وسط الطريق الواصل بين الحلة والكوفة وعلى ضفاف نهر الفرات، ويعود تاريخها إلى عهد نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، وما يؤيد ذلك ما ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان عن « كوثى »: " موضع بسواد العراق في أرض بابل... كوثى اسم لثلاثة مواضع إثنان منها في العراق وهما كوثى الطريق وكوثى ربي، أما الثالثة فهي منازل بني عبد الدار في مكة، وقيل أنشئت كوثى على نهر يحمل نفس الاسم، وقيل كوثى اسم الذي حفر النهر وهو كوثى من بني ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.. وهو جد نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، وكوثى ربي فيها مشهد نبي الله إبراهيم عليه السلام وبها ولد وهي من أرض بابل، وبها ألقى في النار... " (١)، وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في وصف حركة الامام المهدي عليه السلام حيث قال: " حتى ينتهي إلى مسجد إبراهيم عليه السلام بالنخيلة فيصل في ركعتين فيخرج إليه من كان بالكوفة من مرجئها وغيرهم من جيش السفيناني " (٢).

سميت مدينة الكفل بأسماء مختلفة، فلكل عصر كان لها اسم ففي عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام كانت الكفل جزءا من مدينة (بانيقيا) التي اشتراها النبي عليه السلام، وفي هذا السياق نورد هذه الرواية.. قال محمد بن أدریس (رحمه الله): " بانقيا هي القادسية وما وراؤها وأعمالها وإنما سميت القادسية بدعوة من إبراهيم عليه السلام لأنه قال: كوني مقدسة للقادسية أي مطهرة من التقديس، وإنما سميت القادسية بانيقيا لان إبراهيم عليه السلام اشتراها بمائة نعجة من غنمه، وبذلك يصبح المعنى (مائة نعجة) لان با: مائة ونيقيا: شاة، بلفظ أهل النبط " (٣).

وعن أمير المؤمنين الإمام علي ابن ابي طالب عليه السلام قال: " إن إبراهيم (عليه السلام) مرَّ ببانقيا فكان يزلزل بها فبات بها، فأصبح القوم ولم يزلزل بهم،

فقالوا: ما هذا وليس حدث، قالوا: نزل هاهنا شيخ ومعه غلام له قال: فأتوه فقالوا له: يا هذا إنه كان يزلزل بنا كل ليلة ولم يزلزل بنا هذه الليلة فبت عندنا، فبات فلم يزلزل بهم فقالوا: أقم عندنا ونحن نجري عليك ما أحببت قال: لا، ولكن تبيعوني هذا الظهر ولا يزلزل بكم ! فقالوا: فهو لك، قال: لا أخذه إلا بالشرء فقالوا: فخذ ما شئت فاشتره بسبع نعاج وأربعة أحمره "، فلذلك سمي بانيقيا، لأن النعاج بالنبطية نقيا قال: فقال له غلامه: يا خليل الرحمن ما تصنع بهذا الظهر ليس فيه زرع ولا ضرع ؟ فقال له: أسكت فإن الله تعالى يحشر من هذا الظهر سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب يشفع الرجل منهم لكذا وكذا " (٤) والنخيلة هي جزء من بانيقيا^(٥).

وسميت كذلك مدينة الكفل باسم (تل أبيب) كما ورد في الكتاب المقدس والتي سكن فيها الشعب اليهودي الذي سباه الملك البابلي نبوخذ نصر من القدس وكان فيهم نبي الله حزقيل ونبي الله دانيال (عليهم السلام) وكان ذلك في عام (٥٩٧ ق.م، ونحن لا نؤيد هذا الرأي ونرى أن موقعها ما زال مجهولا في العراق، وهذا ما ذهب اليه يوسف غنيمه في كتابه المعروف بنزهة المشتاق (٦)، ومن ثم سميت مدينة الكفل باسم (بلاشكر) وكان ذلك في عهد البرثيين^(٧) إذ بناها احد ملوك البرثيين سنة (٦٠) ميلادية لجلب القوافل التجارية اليها والقادمة من بلاد الهند والشام وبلاد آسيا الصغرى (٨)

سميت المدينة بـ (النخيلة) وذلك في القرن الأول الإسلامي، والتي كانت من توابع مدينة الكوفة المعروفة آنذاك (٩)، وفي العهد العباسي (١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ) سميت مدينة (الكفل) باسم (دار المliche أو بر ملاحه) (١٠)، في حين بقيت خلال العهد الايلخاني (٦٥٤-٧٥٦ هـ) / (١٢٥٦-١٣٥٥ م) تسمى بإسم (برملاحه)، والظاهر من بعض الأخبار أن (بر ملاحه) كانت مدينة كبيرة تضم العديد من القرى، كان من ابرزها (قرية الكفل) التي أشار إليها الرحالة ابن بطوطة (١٣٢٥ - ١٣٥٢م) في رحلته.

أصبحت (قرية الكفل) في عام ١٨٥٠م وبشكل رسمي ناحية بهذا الاسم (ناحية الكفل) (١١)

وقد تشرفت هذه المدينة التاريخية بضم الكثير من مرقد ومقامات الأنبياء كـ (مرقد نبي الله ذي الكفل ونبي الله أيوب ومقام نبي الله إبراهيم الخليل عليهم السلام) وكذلك ضمت مرقد صحابة الأئمة وقبور أولاد الأئمة عليه السلام ك (مرقد الصحابي الجليل رشيد الهجري (رضي الله عنه) ومقام زيد الشهيد عليه السلام ومرقد أبناء الحسن المثنى بن الحسن السبط (عليهم السلام) وغيرهم الكثير (١٢).

والنخيلة هي مدينة الكفل الحالية، كما ذكرها السيد بحر العلوم بقوله: "هي ذو الكفل" (١٣) وقال صاحب الجواهر: "الظاهر من ملاحظة بعض الأخبار وغيرها أن النخيلة هي المسماة الآن بذو الكفل أو مكان قريب منه، فيكون على برید من مصر" (١٤).

وكان في النخيلة عدة مساجد ومقامات للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وخاصة منذ ان تولى خلافة المسلمين سنة ٣٥هـ، وكان من أئمة مسجد النخيلة راوي حديث الإمام علي عليه السلام عبّاد بن الربيع (١٥)، وذكرت لنا المصادر التاريخية إن الكثير من مساجد النخيلة قد هدمت من قبل بني أمية بعد ان تولوا الخلافة سنة ٤٠ هـ، وذلك لما لهذه المساجد من علاقة بشيعة الإمام علي ابن ابي طالب عليه السلام، ولهذا لم تذكر لنا المصادر أي معلومة أو إشارة إلى المسجد خلال ستمائة وستة وسبعين عاماً تقريباً من استشهاد الإمام علي «عليه السلام» عام (٤٠هـ) - الى العهد الايلخاني، وفي عهد السلطان اولجايتو محمد خدابنده (رحمه الله) (١٦) (٧٠٣-٧١٦ هـ) شهد هذا المسجد أهمية كبيرة من قبل المسلمين لهذا أمر الاخير عام (٧٠٣هـ / ١٣٠٤م) ببناء المسجد والقبر الشريف وقد أكتمل البناء في عهد ولده السلطان أبو سعيد بهادر خان (١٧).

وكان السيد الإمام الشهيد تاج الدين الآوي الأفتسي (رحمه الله) آنذاك أماماً للمسجد وقد نصب في صحنه منبراً وأقام فيه صلاة الجمعة والجماعة وبقيت هذه الصلاة قائمة إلى يوم إستشهاده هو ونجليه عام (٧١١ هـ) (١٨)، وقبره اليوم من المزارات العظيمة في مدينة العزيزية التابعة إلى محافظة واسط.

وذكرت لنا المصادر التاريخية أن اليهود استطاعوا أن يضعوا أيديهم على

المسجد والمرقد، وبمساعدة من الحكومة العثمانية التي قامت بطرد القائمين على المرقد من الشيعة، وبجدة ان المسجد بحاجة الى ترميمات عمرانية وإضافات انشائية، لذلك قامت بتسليم مشروع تأهيل وأعمار المسجد والمرقد إلى اليهود بجدة أن مياه الفيضانات قد أثرت في المرقد والمسجد، واشترطوا أن يتحمل هؤلاء (اليهود) أجور الصيانة وعملية إعادة البناء، وبالفعل تحركوا وبقوة لجمع التبرعات من تجار اليهود في العراق وخارجه، للبدء بحملة طمس كافة المعالم الإسلامية التي بناها السلطان اولجايتو خدابنده (رحمه الله) عام (٧٠٣هـ) والتي تعد من أهم الآثار العراقية النادرة والتي بقيت قائمة الى الان.

بدأت حملة التخريب والطمس لمعالم مسجد النخيلة ومرقد نبي الله ذي الكفل «عليه السلام» بحدود عام ١٨٤٠م، فقد أزيلت كافة الكتابات والنقوش الإسلامية داخل حرم الصلاة وتم التلاعب في شكل ومخطط حرم الصلاة، فاستحدث اليهود في جهته الغربية شبه محرابٍ يشير إلى اتجاه القدس، بعد أن هدموا جزءه الغربي ورفعوا سقف حرم الصلاة والقبة المسننة التي كانت فوقه، وبنوا سقفاً جديداً احتوي على أثني عشر قبة صغيرة شبيهة بالقنديل لغرض التهوية والإنارة، وهدموا المئذنة الصغيرة التي كانت ملاصقة لحرم الصلاة من الجهة الشمالية الشرقية (١٩) ومن ثم تغيير واجهات حرم الصلاة من الجهة الشمالية والشرقية والغربية، وذلك برفع الشبابيك الكبيرة في هذه الجهات والتي كانت تطل على صحن المسجد، وابقاء مدخلاً واحداً من الجهة الشمالية للدخول الى حرم الصلاة، ثم قاموا بوضع مرتفعات صغيرة (دكات) تستخدم للعبادة في داخل حرم الصلاة وبالتحديد في وسطه، ثم اقتطعوا الجزء الشرقي الجنوبي من حرم الصلاة ليكون مكتبة لحفظ كتبهم ومخطوطاتهم، واستحدثوا في الجهة الغربية الجنوبية باباً صغيراً يوصل الى مقبرة صحابة نبي الله ذي الكفل عليه السلام الواقعة خلف غرفة القبر الشريف، ورفعوا محراب المسجد من حرم الصلاة الذي كان مكانه الى الجنوب من الحرم في جدار القبر الشريف ودفنوا المنبر الصخري في حفرة مجهولة، واستحدثوا بعد ذلك بابين صغيرين في جدار غرفة الضريح توصل الزائر من حرم الصلاة الى غرفة الضريح وكتبوا في أعلى البابين باللغة العبرية ((هذا قبر سيدنا حزقيال النبي ابن بوزي الكاهن، الذي نسأله بفضلته أن يحمينا وكل

إسرائيل. أمين)) (٢٠)، وبهذا حوّلوا حرم الصلاة ومقام الإمام علي عليه السلام من مسجد باتجاه الكعبة المشرفة الى معبد يهودي باتجاه بيت المقدس، وبعد أن أكملوا عمليات التغيير والطمس لمعالم حرم الصلاة والقبر الشريف، توجهوا نحو شراء وتسجيل الأملاك المجاورة للمسجد والمرقد بأسمائهم، لغرض توسعة سيطرتهم على المدينة، وباشروا فعلاً بهدم سور المسجد العظيم وإخفاء أبراجه بين هدم، أو بناء خانات فوقه للزائرين أو للتجارة وبيوتاً، ومقابر وإسطبلات (للخيول والحمير) وحمامات وسوقاً للتجارة، وكان ذلك في عام ١٩١٦ م (٢١)، وفي عام ١٩٣٠م أكمل اليهود مشروعهم في مدينة الكفل باستملاك الأف الدوام الزراعية (٢٢) من الأراضي الزراعية والعقارات المجاورة لمسجد النخيلة التاريخي وتقسيمة إلى بيوتات ومنعهم إقامة الصلاة في المسجد (٢٣).

المبحث الثاني: مدينة الكفل في مدونات الرحالة الاجانب.

هناك الكثير من الرحالة والمستشرقين والمؤرخين الذين زاروا مدينة الكفل ودونوا عنها كتاباتهم وتصوراتهم عن المدينة، وكان البعض من هؤلاء فضلاً عن تدوين ما رآه فقد حرص على رسم الكثير من معالم المدينة ومرقدتها المقدس، ولعل من اولى الاشارات التي وردت إلينا من مصادر الرحالة الاجانب عن مدينة الكفل ومرقدتها المقدس هو من قبل الرحالة الاندلسي بنيامين التظلي عام ١١٦٥م.

اولاً: رحلة بنيامين التظلي / ١١٦٥ م

دخل العراق عن طريق مدينة الموصل ومنها توجه إلى مدينة بغداد، ووصل إلى مدن الفرات الأوسط، وسجل كل ما وجده لنا من مقامات وقبور للأولياء والصالحين (٢٤)، واتجه بعد ذلك إلى مدينة بابل الاثرية قلب مدن الفرات (٢٥) حيث يوجد قصر بخت نصر (٢٦)، والكنيس القديم المنسوب لنبي الله دانيال عليه السلام (٢٧)، وعلى بعد خمسة أميال من الاثار وصل إلى مدينة الحلة، وعلى بعد أربعة أميال وصل إلى آثار برس نمرود (٢٨)، ومنه وعلى مسيرة نصف يوم وصل منطقة نفاحة (٢٩)، وبعد ثلاثة فراسخ (٣٠) من نفاحة وصل إلى مرقد النبي حزقيال عليه السلام (٣١) - (٣٢)، ذاكراً لنا: "أن مرقد حزقيال

يقع على شاطئ الفرات (٣٣)، وهو بناء جسيم يحتوي على ستين صومعة (٣٤)، لكل منها برج ويتوسط أكبر هذه الصوامع منبر (٣٥)، خلفه مرقد النبي حزقيال بن بوزي الكاهن (٣٦)، تعلوه قبة كبيرة وهي آية في حسن الإنشاء (٣٧) ويقال أنها من بناء يكيه (٣٨) ملك يهوذا وثلاثين ألفاً من أتباعه بعدما سرحهم من الأسر الملك البابلي أويل مروداخ البابلي (٣٩)، "بعد ذلك ناقض قوله الأول بأن موقع القبر على فرع من الفرات قالاً: "ومرقد حزقيال على فرع من الفرات يدعى (كيبار) (٤٠) منقوش على حجارته اسم يكيه الملك وأتباعه وفي آخر الثب اسم حزقيال النبي (٤١).

وبعد أن أنتهى من وصف المرقد يذكر لنا معلومات تاريخية عن تقديس اليهود للمرقد وحجهم اليه من اقاصي البلاد لأداء مراسيم العبادة ويبالغ الرحالة في عددهم فيقول: (وهذا المقام يعظمه اليهود ويحجونه من أقاصي البلاد للتبرك به وإقامة الصلاة فيه، ويحل موسم الزيارة بين رأس السنة وعيد الكفار (٤٢) فتقام الأفراح والمهرجانات يحضرها من بغداد رأس الجالوت ورأس المثيبة (٤٣) فتضطر الجموع الغفيرة إلى الإقامة في العراء ويمتد مخيمهم إلى مسافة اثنين وعشرين ميلاً (٤٤) ويقام الأعراب في هذا الموسم سوقاً عظيمة يبيعون فيها أنواع السلع إلى الحجاج).

ثم ذكر العبادة التي تمارس في احد اعيادهم المشهورة وأورد فيها معلومات لا يوجد لها أي واقع تاريخي مثل (مخطوط الاسفار الخمسة التي خطها حزقيال عليه السلام والقنديل الذي اوقده بيده) إذ قال في هذا الصدد: " وفي يوم عيد الكفارة تتلى فصول من أسفار النبي موسى عليه السلام (٤٥)، من مخطوط كبير يقال أن النبي حزقيال كتبه بيده (٤٦)، وفوق القبر قنديل يتقد ليلاً ونهاراً، يقال أن النبي حزقيال كان أول من أشعله (٤٧)، وعليه قيم يتعهد بتبديل الفتائل وتجديد الزيت كلما دعت الحاجة إلى ذلك"، واسترسل قائلاً: " أن في المرقد داراً هي من أوقاف النبي تعود الى الهيكل الثاني وتوجد عادة عند اليهود ان من يموت بلا عقب يقف كتبه على هذه الدار وتجاور المرقد دار من أوقاف النبي فيها خزانة كتب يقال أن بعضها يرتقي تاريخه إلى عهد الهيكل الثاني (٤٨)، ومن جاري العادة أن من يموت بلا عقب يقف كتبه على خزانة الدار هذه "

(٤٩)، وذكر: " ان هناك مجموعة من المجاورين للمرقد عملهم الاهتمام بالمرقد وإرشاد الزائرين (وفي مقام النبي حزقيال طائفة من المجاورين (٥٠) مهمتهم العناية بالزوار القادمين من بلاد فارس ومادي (٥١) ممن يندرون حج هذا النبي فيكونون هم لهم أدلاء ومرشدين) وان زوار مرقد حزقيال هم ليسوا من اليهود فقط بل من المسلمين المجاورين للمرقد والبعيدين عنه يقصدونه للزيارة وإقامة الصلاة (ومن زوار هذا المرقد أيضا جماعة من أتقياء المسلمين (٥٢)، يؤمنونه لإقامة الصلاة فيه، له في قلوبهم حرمة كبيرة ويسمونونه في لغتهم (دار المليحة) (٥٣)، ثم يذكر أن للمرقد أوقافا واسعة من الأراضي الزراعية المجاورة له ويذكر الرحالة ان هذه الأوقاف هي من تركة الملك يكنيه ولا أدري من أين جاء بهذا المعلومة (ولهذا المرقد أوقاف واسعة من العقار والضياح يقال أنها من تركة الملك يكنيه، فلما تولى محمد (المقتفي) خليفة المسلمين على البلاد، أيد حق المرقد في تلك الأوقاف) (٥٤). وبعد أن أنهى الرحالة نقله لما يتعلق بالمرقد ذكر لنا قبورا اعتقد انها تعود لأصحاب نبي الله دانيال عليه السلام لا يوجد لها أي أثر اليوم ولا يؤيد قوله مؤيد تاريخي (وعلى بعد نصف ميل من قبر حزقيال، قباب تحتها قبور حننية ميشائيل وعزرية وهذه الأبنية كلها محافظ عليها من قبل اليهود والمسلمين على السواء لا يمسه أحد بضرر حتى في أيام الحروب (٥٥).

ثانياً: الرحالة الألماني فتاحية - بتاخيا / ١٨٥١م

زار الرحالة فتاحية العراق بعد رحلة بنيامين التطيلي بعشرين عاماً ووصف لنا مرقد نبي الله ذي الكفل ^{عليه السلام} بمبالغة عجيبة وغريبة، فذكر لنا أموراً ليس لها واقع تاريخي ولا مؤيدات تؤيدها، ووصفه لمرقد نبي الله ذي الكفل ^{عليه السلام} هو عبارة عن مشاهدات مليئة بالتناقضات فبعد أن اجمع كل من كتب عن مرقد نبي الله ذي الكفل ^{عليه السلام} أو شاهده أنه يقع على نهر الفرات أو فرع منه يأتي فتاحية، وقال في وصف مرقد نبي الله ذي الكفل ^{عليه السلام}: " بأنه أجمل بناء تقع عليه العيون، جدرانه الداخلية موشاة بالذهب. وفوق القبر ضريح يرتفع نحو القامة مكسو بخشب الأرز المطعم بالذهب... تعلوه قبة مذهبة مرصعة بالبلور تتدلى منها السجوف الجميلة، وتحت القبة ثلاثون قنديلا مرتبة بالزيت تضيء المقام ليلاً ونهاراً... ولمقام النبي قوام موكلون بالمحافظة عليه يبلغ عددهم المائتين،

وهم يعيشون على النذور التي تتوارد من كل الجهات. ويصرف ما فاض عن الحاجة لإعالة طلاب العلم و إعانة الأيامي وتزويج اليتيمات" (٥٦)، وإن (٦٠-٨٠) ألف يهودي (٥٧) بإمكانهم الدخول ماعدا الاسماعليين (٥٨) وكان الزوار يعاهدون أو يجددون العهد بالقبر ويضعون الهدايا والتبرعات عليه، ويحتوي الضريح على نوافذ يدخل الشخص رأسه من خلالها ويصلي. وفوق الضريح قبة ذهبية عظيمة وتحيطها من الداخل أغطية جميلة وفي داخل القبر كؤوس وأواني جميلة جداً، توجد ثلاثون شعلة من زيت الزيتون موقدة ليلاً ونهاراً. ويشترى الناس زيت الزيتون مقابل الهدايا التي يضعونها على القبر. يشرف حوالي مائتين مراقب على الهدايا الموضوعة على القبر ويتقاضون أجراً مقابل ذلك. وتصرف الأموال المتروكة على القبر في إصلاح المعبد الذي يحتاج للصيانة" (٥٩).

ثالثاً: الرحالة الأندلسي يهوذا الحريزي / ١٢٢٥ م

بعد مرور أكثر من (٤٥ سنة) من مجيء الرحالة فتاحية زار الشاعر والرحالة اليهودي يهوذا الحريزي العراق ومرقد النبي حزقيال عليه السلام، وقد وصف المرقد بقصيدة مع الأسف لم نحصل الا على هذين البيتين منها، ذكر فيهما متولي القبر الشريف والذي كان يدعى « يحيى بن الذباح » ونأمل أن شاء الله تعالى على الحصول على باقي القصيدة لنشرها في طبعة أخرى.

عندما زار الشاعر يهوذا الحريزي ما بين عام (١٢١٦ - ١٢٢٥م) قبر النبي حزقيال عليه السلام في مدينة الكفل كتب قطعة نثرية جميلة عنه. جاء فيها: "وأما جماعة الحلة فإنها جملة صالحة من أعيان الملة وفيهم وكيل سيدنا يحزقل عليه السلام (٦٠)، يحيى ابن الذباح، (٦١) وهو من أهل الدين والصلاح" (٦٢):

• رابعاً: الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا / ١٦٠٥ م

تعد رحلة بيدرو تكسيرا من أهم الرحلات البرتغالية في القرن السابع عشر الميلادي وخاصة رحلته الى العراق، ذلك لأنها ضمت الكثير من المعلومات التاريخية المهمة والمشاهدات. وقد كان الرحالة بيدرو تكسيرا من الرحالة البرتغاليين الذين زاروا المناطق الخاضعة للإمبراطورية البرتغالية ربحاً طويلاً

وبالأخص منطقة الخليج العربي وما كان يحيط بها من الأمصار والبلاد، وقد وصل تكسيرا الى البصرة في صباح اليوم السادس من شهر آب ١٦٠٤م.

زار الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا في ٢٢ ايلول عام ١٦٠٤م مدينة الكفل ومرقد حزقيال النبي عليه السلام قادماً من النجف الاشرف فوصف المرقد قائلاً: " في يوم الاربعاء الموافق ٢٢ ايلول قطعنا سبعة فراسخ من النجف توقفنا عند الساعة الحادية عشر والنصف في نزل او خان قديم، لكنه كبير وجيد البناء، وفي سهل قريب من بئر صافية، مياهها صالحة للشرب، وعلى بعد ضعف اطلالة بندقية الى الجنوب، ثمة خمسة عشر سقيفة وخيمة للعرب، وعدد كبير من الجمال، وقبل ذلك بنحو ثلاثة فراسخ رأينا على مسافة نصف فرسخ من الطريق بناء ضخماً ذا برج عال (٦٣) حيث ضريح وجثمان حزقيال المقدس الذي يسميه المحمديون (٦٤) واليهود (حزقيال) وقد ذكر سادنه بأنه يتمتع بقدرسية كبيرة بسبب الكرامات التي يقولون ان الله حباه بها، وبينما كنا في الخان الذي يسميه العرب (حزقيال) (٦٥) سقط ديبغو ميلو^(٦٦) متأثراً بالحمى. " (٦٧).

• خامساً: الرحالة الايطالي بيترو ديلافاليه / ١٦١٦م

هذا الرحالة لم يزر مدينة الكفل وانما سمع عنها وقد تأسف لعدم زيارتها وذكر ذلك بقوله " أنه سوء حظي الذي حرمني من هذه الزيارة المهمة " ولكنه ومع ذلك ذكر لنا ما نقل له بقوله: " لقد ذكر الأهالي (٦٨) خبراً لم افهمه في بادئ بدء لصعوبة تفاهمي بالعربية فلم اعرف انتباهي، وقد تأسفت جداً بعد فوات الأوان، لقد اخبروني انه على بعد نصف نهار من الحلة في طريق يختلف عن الطريق الذي سلكته يوجد قبر ((حزقيال النبي "، ويفد إليه الزوار اليهود سنوياً للتبرك به ويقع على نهر (كوبار أو كابور) - كما يلفظه العرب حالياً - (٦٩) المذكور في الكتاب المقدس في سفر حزقيال ويتدفق النهر في ارض بين النهرين من منبع شهير يسمى (رأس العين)^(٧٠) ثم يصب في الفرات، كما كان هذا الموضع جديراً بالزيارة فصاحبه من الأنبياء العظام ولأن مثواه حسب شهادة سفر الشهداء (٧١) هو أيضاً قبر سام وارفكشاد من أجداد سيدنا إبراهيم (٧٢)، انه سوء حظي الذي حرمني من هذه الزيارة المهمة " (٧٣).

• سادساً: الرحالة الفرنسي تافرنيه/ ١٦٧٦م

زار الرحالة تافرنيه العراق عام ١٦٧٦م ولم يزر مدينة الكفل ولكنه ذكرها عندما تطرق لليهود بغداد حيث قال: "وفي بغداد عدد من اليهود أيضاً، ويأتي الكثير منهم وفي كل عام إلى زيارة النبي حزقيال في مدينة بر ملاحه (٧٤) والتي تبعد عن بغداد مسافة يوم ونصف اليوم" (٧٥).

سابعاً: الرحالة الألماني كارستن نيبور/ ١٧٦٥م

دخل نيبور العراق عن طريق البصرة ومنها عن طريق النهر الى الديوانية ومنها ترك النهر واختار البر فتوجه الى النجف الاشرف ودخلها في ٢٢ كانون الأول ١٧٦٥م، ومن ثم الى الكوفة ومنها توجه الى مدينة الكفل ووصل إليها يوم ٢٥ كانون الأول ١٧٦٥م بعد مسيرة أربعة ساعات ونصف وقال عنها: "في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول سافرت من مشهد علي (٧٦) إلى ((كفيل)) (٧٧) الواقعة على مسافة أربع ساعات ونصف باتجاه الشمال ثم منها إلى الحلة الواقعة باتجاه الشمال إلى الشمال الشرقي على البعد نفسه وهكذا يبلغ مجموع المسافة بين المدينتين تسع ساعات أو سبع أميال ألمانية"، وقد تطرق الرحالة بعد ذلك الى معلومات ليست صحيحة ومبالغ بها سمع بها من أهالي مدينة الكفل حيث قال: "إن كفيل هو اسم (حزقيال) باللغة العربية (٧٨)، ولا يزال المئات من اليهود سنوياً يزورون قبره هناك، إلا انه ليس لهذا النبي خزائن من الفضة أو الذهب أو الأحجار الكريمة، ويرجع ذلك إلى أن اليهود حتى ولو رغبوا أن يقدموا له مثل هذه الهدايا لما تركها المسلمون لهم مدة طويلة (٧٩) وعلى اليهود أن يكونوا ممتنين للسماح لهم وتمكينهم من زيارة هذا المكان" (٨٠).

وقد شاهد حين وصوله الى مدينة الكفل المعالم الدينية لمرقد النبي ذي الكفل عليه السلام فذكر المسجد والصور والقبعة، وأشار الى أن متول هذا المجمع هم عائلة عربية تتكسب من المسافرين ومن اهم المعلومات التي ذكرها لنا الرحالة هو ارتفاع وطول السور التاريخي الذي كان يحيط بالقبر وحرمة الصلاة فقال: "ولا يشاهد في مسجد النبي (٨١) شيء آخر، غير قبر محاط بالجدران تحت منارة صغيرة (٨٢)، وصاحبة أو حامية هذا المحل المقدس عائلة عربية (٨٣) لها

هناك جامع صغير وجميل ذو منارة واحدة (٨٤)، ولم تكن تدفع للأتراك أي ضريبة عن الأراضي المجاورة بسبب هذا النبي (٨٥)، و بالإضافة إلى ذلك كانت هذه العائلة تكسب الكثير من المسافرين الذين يرغبون بكل سرور في الاستراحة هناك بعض الوقت، ويحاط بقبر حسيقيل والجامع وبضعة مساكن عربية كلها بسيطة بسور قوي يرتفع إلى علو ثلاثين قدماً ويبلغ محيطه ٢٥٠ خطوة مضاعفة ما يقارب ألف ومائتين قدماً " (٨٦).

ولكن الرحالة رجع مرة أخرى ليعتمد على النقل في ذكر المعلومات دون التحقق فيها فنذكر ان "من بنى هذا السور شخصية يهودية يدعى سليمان سكن الكوفة، وقد شيد هذا السور للمرة الأولى، على نفقة رجل يهودي سمي سليمان (٨٧) سكن في الكوفة ومن المحتمل أن اليهود أنفسهم هم الذين يتولون العناية به يتولون العناية به على نفقتهم لأن فائدته تعود عليهم أكثر مما على غيرهم"، ثم تطرق الرحالة الى زيارة القبر من قبل العرب المسلمين في موسم زيارة اليهود وأشار الى امكانية استفادة اليهود من العرب شرط تفاهمهم مع العرب لان اليهود جبناء حسب تعبير الرحالة فقال: " وليس من النادر أن يفد العرب في الموسم الذي يأتي اليهود فيه إلى هناك ليباركوا لهم على سلامة الوصول، وأكثر من ذلك لطلب الهدايا منهم، ولو تمكن اليهود أن يتفاهموا مع العرب بسلام لاستقادوا من ذلك كثيراً حيث أن اليهود جبناء بدرجة أن بضعة أفراد من المسلمين يتمكنون من إرهاب عشرة أو حتى عشرين ضعفاً من اليهود ولهذا أصبح العرب في بعض الأحيان وقحاء جدا وعندئذ لم يكن لليهود سبيل آخر للنجاة غير أن يغلقوا أنفسهم في قلعة صغيرة أو خان (٨٨) كما كانوا يدعونها، ولم يتجاسر اليهود على إطلاق النار على أعدائهم من هناك حتى لو كانوا يمتلكون البنادق ويعرفون كيفية استعمالها، إذ أن ما يسفكه اليهود من دم المسلم لا يدفع ثمنه غالياً إلى حد يدعو إلى العجب فحسب بل أن العرب لا يألون جهداً أيضاً من ترقب قافلتهم في فرصة أخرى ومهاجمتها بل نهبها لذا على الزوار البقاء في الخان ريثما ينجدهم من الحصار متصرف الحلة أو باشا بغداد، إذ كان عدد الأعراب كبيراً وهذا يكلفهم دائماً أكثر مما يطلبه العرب منهم، وفي الحالة الأخيرة يضطر العرب على الانسحاب بخفي حنين أو ببعض الهدايا البسيطة (٨٩)، الأمر الذي يكون

إنذارا لهم بعدم التماذي كثيراً في الوقاحة مع اليهود مرة أخرى" (٩٠).

• ثامناً: الرحالة أوشار ألوي / ١٨٣٥م

لم يقف الباحث على ترجمة لسيرة الرحالة ورحلته وكل ما وقع في أيدينا انه في ٢٤ أيار سنة ١٨٣٥ وعلى الطريق المؤدية من بغداد إلى الحلة عند خان آزاد (٩١)، قال: " ووجدنا على طريقنا زرافات من اليهود والعجم والهنود والعرب يذهبون للزيارة. فكان الأولون منهم يتوجهون إلى الكفل (٩٢) الذي فيه قبر حزقيال الذي مات في جلاء بابل، والآخرين يتوجهون إلى كربلاء " وفي ٢٥ من ذاك الشهر زار اثار بابل القديمة، وقال عنها: " شددنا الأتقال غبشة (٩٣) لتنفذ برج نمرود الذي يظن انه هيكل البعل (٩٤)...ومن ذروة إطلال هذا الهيكل رأيت الكفل الذي فيه قبر حزقيال" (٩٥)

• تاسعاً: بنيامين الثاني (الروماني) / ١٨٥١م

وصل هذا الرحالة الى مدينة الكفل في الرابع من تشرين الاول عام ١٨٥١ بعد ان زار عدة مناطق ومدن عراقية، وفيما يخص رحلته الى مدينة الكفل فدونها في رحلته قائلاً: " إن في بلدة الكفل بناء حوله سور (٩٦) وفيه قبر النبي حزقيال مغشى بسجاد ثمين وبقماش مشغول بالإبرة ومطرز ذي قيمة، ولم يكن القبر مسورا بادئ بدء بل إن الملك (يهوياكيم) بنى السور بعد ذلك وساعده بضعة ألوف من اليهود (٩٧). وعمل فيه أبراجا كأنه معقل"، وأشار الى مسجد المسلمين الذي بناه السلطان أولجايتو عام ٧٠٣ هـ ولكن ذكره للمسجد فيه إشارة الى ان بناء المسجد جاء طارئاً على البناء القديم في تلميح منه الى تجاوز المسلمين على المكان فيقول: " وكان يحيط بأعلى برج منها رواق (٩٨) أتخذ أساسا لبناء يشبه جامعا وفي داخله سلم ملتو عال يصعد به إلى قمة البرج "، ثم تحدث الرحالة عن منارة المسجد ليصف لنا اعجوبتها بانها منارة متحركة قائلاً: "ومن هناك يشاهد الإنسان بعينه برج بابل منتصباً كالجبال في البعد، وفي برج الكفل اختراع غريب يحمل السكان على الاعتقاد بان هناك أعجوبة خارقة الطبيعة، وهو إن رافعة من خشب أو عمود يجتاز البرج من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر وكلا رأسيه ينفذ من طرفي الرواق. فان هز هذا العمود بعنف

يشعر بحركة ارتجاج في القسم الأعلى من البرج أو على معتقد السكان إن الإنسان يجب أن يقول آنئذ هذه الألفاظ بمقام رقية (بشم ملكا شالوم واثراو) ومعناها (باسم سليمان الملك وتاجه) فان غفل عن قولها تصيبه داهية دهماء. وقد حاولت أن اقنع إخواني أن لا أعجوبة هناك على ما يتوهمون بل إن الاهتزاز ناشئ عن لولب مخفي في البناء أو إحدى القطع الميكانيكية ولكني لم أتمكن من إزاحة هذا الاعتقاد الخرافي عن أذهانهم^(٩٩) .

ثم يصف قبر النبي عليه السلام وحرمة الصلاة الملاصق للقبر والذي يسميه الرحالة كنيسا قائلاً: " وفي هذا المكان قبر النبي وعليه تقوم صخرة كبيرة وهي مطلية بالطباشير كسائر أقسام البناء (يريد القول إنها مغشاة بالبورك) وبجانبها كنيس كبير (١٠٠). وظاهر الكنيس مدهون بدهان جميل يشبه لونه قشرة السلحفاة (١٠١). وفي داخله يرى القسم الذي في قبة أورشليم مجرداً وغير كامل علامة الحداد (١٠٢) على الهيكل المقدس في مدينة الله، ويرى في طرف من أطراف البناء صورتان بذكر الإنسان الطبيعي صورتا في الزمان الغابر على مر الأعوام. وعلى مروجيات اليهود أن هاتين الصورتين هما صورة النبي حزقيال ويهوياكيم الملك (١٠٣)، إلا أنه يصعب من الناظر إليهما أن يميز من آثارهما الطامسة الفانية شبه هيئة بشر ولا يعرف لونهما ولا لباسهما. فجدار الباب مغطى في أمكنة مختلفة بطائفة من الصور شبه الكتابات والنقوش المصرية وهي تخلد ذكر الذين شيّدوا البناء أي الشعب كله وملكهم (١٠٤)، ويحفظ في الحرم المقدس من هذا الكنيس أدراج من الشريعة وبينهما واحد كبره عظيم جداً لم أشاهد مثله قد كتب على نوع من الرق يسمى (كويل) وعلى معتقد يهود العراق قد كتبه حزقيال نفسه وعلى رأيي (أي على رأي بنيامين الثاني) إن كتابة هذا السفر يرتقي إلى عهد عنان سنة ٤٤٩٠ ق.م. للخلقة، يقرأ في هذا السفر في يوم الغفران فقط (الكبور) (١٠٥). وقد حاولت أن أفحص هذه المخطوطة فلم يسمح لي بذلك لأنه لم يكن آنئذ يوم الكبور اليوم الذي يقرأ فيه كما أسلفت. وفي داخل الكنيس غرفة وهي الخزانة (أي الكنيزا) تحفظ كتب الخط القديمة التي تأتي من أمكنة مختلفة. وبجانب الكنيس مجمع الربانين (جشيبا) (١٠٦) حيث يلتئم دائماً نحو عشرين ربانا لقراءة كتب التقى. ودرس التلمود وكتب أخرى من الشريعة. وهم اليهود

الوحيدون الذين لهم مثوى في الكفل. ويتبرع أخوانهم يهود بغداد باحباتهم وبلوازم هذا المعهد بما يجودون به من الهدايا والهبات الكبيرة، ومن أمثال ذلك إنني قبل أن أهبط تلك الديار ببضع سنوات مات المثري اليهودي يعقوب سيماح (١٠٧) بدون خلف ذكر. وأوقف تركته على إخوانه اليهود في صفد وكذلك أوقف (١٥٠٠٠٠٠٠٠٠) لمساعدة معهد الريانيين (جيشيبا) في الكفل، يعتقد اليهود والعرب من سكان تلك البقعة بمفاعيل بعض أعمال يقومون بها على قبر النبي طلباً لشفاعته ولاسيما لشفاء المرضى المصابين بأمراض عضالة، يذهب هؤلاء الريانون كل جمعة بعد الظهر إلى القبر لينشدوا ترانيم وأناشيد تقوية ويبدلوا ستار القبر. وفي كل سنة في صوم الأسابيع (١٠٨) يقصد الكفل زوار اليهود من بغداد والبصرة وبلاد فارس وأمكنة أخرى ليحتفلوا بالعيد هناك. فتجري الحفلات المختلفة في المزار. فيذهب الرجال الى الكنيس مساءً قبل يوم العيد ويقرأون سفر حزقيال. وقبل بزوغ النهار بساعة يتزايدون على الحصول على ميزة تغيير ستور القبر فمن يدفع أكبر ثمن ينل ذلك الامتياز ويقرأ بصوت عال فصلاً من سفر النبي (هفتورا) (١٠٩). وتبدل ستور القبر بين الأناشيد والترانيم، ويروي الأهلون هناك ألوفاً من الخوارق والمعجزات التي تحدث على قبر حزقيال وهي تقريباً من الخرافات. وان عشائر البدو الرحل يأتون الى زيارة النبي حزقيال ويقبلون قبره باحترام ويعتقدون به صحيحاً وينفحون الريانيين بهدايا ليظفروا بإحسانات النبي بوساطتهم" (١١٠).

• عاشراً: اليهودي أفاريم نيمارق / ١٨٤٨ م

لم يقف الباحث على سيرة الرحالة في المصادر المتوفرة لدينا وكل ما وقع في أيدينا هذا النص.

" يبعد الكفل خمس ساعات عن الحلة ويوجد فيها قبر النبي حزقيال وأقيم على هذا القبر كنيس فخم (١١١) وفي إحدى غرفه توجد مغارة تدعى مغارة الياهو كما توجد بجوار هذا القبر أربعة قبور أخرى تابعة لـ (غاؤونيم)^(١١٢) من زمن بابل وهم رؤساء المدارس انذاك (١١٣) - (١١٤) "

• حادي عشر: الرحالة الانكليزي وليم كنت لوفتس / ١٨٥٤م

زار الرحالة لوفتس مدينة الكفل عام ١٨٥٣م وذكر هذا الوصف في رحلته ((سياحة تنقيب في كلدة والسوس)). وذكر في رحلته أنه شاهد دارين الاول حرم الصلاة القديم المستند على ست اعمدة ضخمة والثاني غرفة الضريح والتي يصف القبر الواقع داخلها قائلاً: "يقوم المزار من دارين معقودتي السقف^(١١٥). فسقف الدار الخارجية يستند الى أعمدة ضخمة أما المزار فهو صندوق كبير وقديم الأيام طوله عشر أقدام وعلوه أربعة أقدام ومزين بشيت أنكليزي وبعض أعلام حمراء وخضراء ويزين السقف المعقود أدارج ذهب وفضة وقلز (١١٦) وقد بني في إحدى زواياه أسفار موسى الخمسة بالعبرية (١١٧) ويظن أن حزقيال النبي كتبها بيده (١١٨)، وهناك قنديل موقد ليلاً ونهاراً ويقال إن حزقيال بنفسه (١١٩) أوقد ذلك القنديل وبقي على تلك الحال منذ ذلك العهد ويغيرون الزيت والفتائل كلما دعت الحاجة إليه (١٢٠)).

• ثاني عشر الانكليزي جون أشر/ ١٨٦٤م

توجه الرحالة جون الى العراق ودخله من محافظة الموصل وكان في نيته السفر عن طريق نهر دجلة ولكنه لم يوفق بسبب انخفاض مستوى الماء في النهر. ولذلك تحرك من ديار بكر في يوم ٢٣ / تشرين الثاني ١٨٦٤م بطريق البر ووصل إلى زاخو وان وصولهم الى زاخو عن طريق الخابور ومنها توجه الى الموصل، وفي اليوم الرابع عشر من كانون الاول ١٨٦٤م تحرك من الموصل الى بغداد ماراً في مدينة سامراء وتكريت.

وفي يوم ٢٨ كانون الاول ١٨٦٤م غادر «المستر أشر» بغداد متوجهاً الى كربلاء وقد وصلها عن طريق المسيب ومن كربلاء الى النجف عن طريق «طويريج» أي الهندية ولأجل أن يذهب الى النجف الاشراف أستأجر (المستر أشر) سفينة شرعية من طويريج نقله مع جماعته الى الكوفة وحينما وصلوا إلى مدينة الكفل التي يوجد فيها مرقد النبي حزقيال عليه السلام ذكر لنا وصفه للمدينة والقبر قائلاً: "ألفوا البلدة مسكونة باليهود في الغالب (١٢١)، وبعد أن باتوا ليلتهم في مخيم نصبوه على ساحل الجدول، ذهبوا في صباح اليوم التالي لزيارة القبر الذي كانت تعلوه قبة مخروطية الشكل بيضاء اللون تشبه قبة الست زبيدة (١٢٢)

الموجودة في بغداد- على حد قول المستر جون اش-، وبعد أن اجتازوا الصحن الخارجي المبلط (١٢٣) دخلوا من باب خُطت في أعلاه كتابات عبرية واضحة، فألفوا أنفسهم في كنيس بني بطراز معماري خاص تعلوه قبة صغيرة (١٢٤) وتغطي جذرائه رسوم تتألف من الأزهار في الغالب (١٢٥)، وكان هناك أيضاً عدد من الكتابات العبرية المكتوبة على ألواح خاصة، وفي (١٢٦) مقابل المدخل كان هناك باباً آخر يؤدي إلى القبة التي يقوم فيها القبر (١٢٧) الذي كان عبارة عن منصة من الأجر يبلغ طولها ستة أقدام وعرضها أربعة أقدام وارتفاعها ستة أقدام (١٢٨)، وكان مغطى بقطعة من الشال الإيراني، وقد وجدوا هناك بعض اليهود المتسكعين، وراحاًمأ تجول معهم في مرافق المرقد فعلموا منه أن اليهود يأتون لزيارة المرقد مرة في السنة من جميع أنحاء بلاد آشور وبابل، ويقيم هؤلاء عاد حوالي البلدة بالآلاف على حد تعبيره فيمتد مخيمهم إلى مسافات غير يسيرة طولاً وعرضاً (١٢٩) - (١٣٠).

• ثالث عشر: الرحالة الفرنسي كيبوم لجان / ١٨٦٦م

كتبت الرحلة باللغة الفرنسية، وترجمها الى العربية الأب الدكتور بطرس حداد، وأورد الرحالة ما نصه عن مدينة الكفل قائلاً: "ومن بعيد أشاروا إلى الكفل، ويعتقدون (١٣١) انه يضم قبر النبي حزقيال وقولهم جدير بالثقة (١٣٢)، ويجذب المقام سنوياً أعداداً كبيرة من الزوار اليهود والمسلمين، والمكان المبارك بيد اليهود حالياً (١٣٣) وقد تحملوا صعوبات كبيرة من اجل حيازته (١٣٤)، فقبل سنوات طالب احد المتشردين الذين يكثرون في المدن التركية الكبيرة، وعددهم مذهب في دواوين الحريم فادعى بعائدية الكفل للمسلمين، وبعد اخذ ورد تمت تسوية القضية لصالح اليهود بعد تأديتهم مئة إلى مائتين كيس (أي ١٣ - ٢٦ فرنك) فاطمأنوا إلى ان يظهر درويش آخر .. " (١٣٥).

• رابع عشر: الهولندي تنكو آينهولت / ١٨٦٧م

اوردنا الرحلة كاملة ومن ثم أجرى الباحث تحقيقاً لما ورد فيها، وأما رحلته فقد كتبت باللغة الفرنسية وترجمها إلى العربية الأستاذ مير بصري (١٣٦)، وفي يوم الجمعة ١٢ نيسان ١٨٦٧م ترك آينهولت الحلة بعد أن شكر قائم مقام

الحلة سليمان أفندي على لطفه، حاملاً رسالة منه إلى شيخ الكفل، لانه كان عازماً على زيارة ضريح نبي الله ^{عليه السلام} الكفل وواصل الرحالة الهولندي آينهولت كلامه قالاً (١٣٧): "بعد قضاء ساعة في تأمل الأطلال تركنا (برس نمرود) إلى طريق الكفل، ولم يكن ذلك بالأمر الميسور، في وسط البادية المغمورة هنا وهناك بالمياه التي تعرقل مسيرنا ولم يهياً لنا أن نعرف طريقنا إلا بمعونة دليل من الإعراب أخذته من البرس حيث كان يحوم حولنا مستطلعاً. ولا بد أن أضيف، مقراً بذنبي، إنني استصحبته عنوة كما يجري في إثاء الحرب، فالمسكين لم يكن يرغب في هذه السخرة بالرغم من المكافأة الموعودة، زاعماً أنه ذاهب إلى الجهة المقابلة، ولم يكد يخطو خطواته الأولى مكرهاً حتى رضي بالقدر المحتوم وسار بنا عن طيبة خاطر، فاجتزنا أولاً سفح تل إبراهيم ومسجده، و هو تل يقول البدو أن الخليل إبراهيم قد استراح غير مرة في ظله في غضون سفراته. ويقوم هناك مسجد صغير عقدت عليه قبة ضئيلة يزوره الزوار من الأنحاء القريبة (١٣٨)، ولم تمض ساعة واحدة حتى أوصلنا دليلنا المرغم إلى النهج الواضح فأطلقت سراحه، وتركنا وهو أكثر ارتياحاً مما كان في البداية، وقد خلع عليّ كل ألقاب التشريف التي لا يضمن بها الشرقيون على ما يكافئهم بسخاء، وأرسلت القواص أمامنا يحمل إلى شيخ الكفل الرسالة التي جاد بها عليّ قائم مقام الحلة، وبعد ساعتين رأيت في استقبالي صبيّاً لطيفاً لا يتجاوز سنه الخمس عشرة يرافقه اثنان من (الظبطية) (١٣٩) وكان هذا ابن أخ شيخ الكفل، وكان الشيخ غائباً آنذاك وأخوه والد الغلام، يقوم مقامه فأرسله لتحيّتنا، وبلغنا البلدة بعد ربع ساعة، والأصح أن تدعي الكفل بالقرية فهي مجموعة أكواخ مشيدة بالأقصاب والحصار ومسقفة بسعف النخيل، وفي وسطها يقع دور مبنية بالطابوق تعود إلى العرب الأغنياء أو اليهود، وعلى عشرين خطوة من المدخل النقيت بالشيخ حمزة أخ الشيخ الحاكم نرب بن عباس (١٤٠) ومعه ولده الآخران، فرحب بنا وأخذنا إلى داره يتقدمنا نحو عشرة من الرجال الضبطية كانوا في ركباه. وكان الشيخ حمزة في نحو الخامسة والأربعين من عمره، يرتدي بفخر واعتزاز لباس عشيرته الأبيض والأحمر وكان بطبيعة الحال يمتطي صهوة جواد، وكذلك كان ولده المرافقان له، فأكبرهم لم يكد يبلغ العشرين تلوح عليه مخايل الرجولة، الآخر فارس صغير

لطيف في الثانية عشرة. أما ثالث الإخوة، وهو الذي قدم لاستقبالي، فكان يسير في طليعة الموكب. وكانوا يحملون جميعهم خناجر جميلة ومسدسات بدت مؤخراتها الفضية المزخرفة من أحزمتهم، وقد جاء الأعراب بدافع الفضول يسلمون علينا سلاماً كثيراً، ولا ريب عندي أن تحياتهم إنما كانت تعرب عن الاحترام الذي يكونونه لأسرة شيخهم المحبوبة أكثر من المجاملة لشخصي، ودار الشيوخ في آخر البلدة المبنية كلها بالطابوق وهي ولا بدع أجمل البيوت واسعة نظيفة وحسنة التقسيم على بساطتها يتوسطها فناء كبير فيه عدد من النخيل، ووضع الجناح الخلفي تحت تصرفي لإقامتي مع حاشيتي وكانت الحجرة التي أسكنني فيها الشيخ حمزة تشرف على الريف، فكنت أطل من النافذة على السهل المنبسط الذي تغمر بعضه المياه، وتمتد في قسمه الآخر المراعي ذات الحشائش العالية الجميلة. ولقد خلت نفسي في بلادي هولندا، لولا النخيل الذي شمع بقوامه إلى السماء الصافية فذكرني بالبعداد، واسترحت نصف ساعة، ثم اقترح علي الشيخ حمزة أن يأخذني بنفسه إلى المعبر القريب الذي يقوم فيه ضريح النبي حزقيال، ومفاتيحه بيد أسرته، ومدخل المعبد القائم على ساحة صغيرة مثال البساطة، ولا يزينه من الخارج سوى كتابة بالحروف العبرية منقوشة على باب قوطي الشكل (١٤١)، ويعلو البناء قبة مسننة الرأس ومغطاة بكاشي أزرق اللون (١٤٢) ويمضي الداخل إلى القاعة على شيء من السعة يسند سقفها إلى ستة أعمدة من الطابوق (١٤٣)، وهي الكنيس نفسه (١٤٤)، وإلى اليمين خزانة كبيرة تضم الكتب المقدسة مكتوبة على لفائف الرق ومحفوظة في صناديق بشكل منائر صغيرة مزينة بنقوش الفضة (١٤٥)، وتفتح الاسطوانات من وسطها فتبرز صحائف الرق ملفوفة على محور خشب تدار باليد تقسم اللفات كالشريط الطويل وتسمح بذلك لأشخاص متعددين بالقراءة مرة واحدة، وتنفذ هذه القاعة إلى حجرة ثانية يقوم في وسطها مرقد حزقيال بشكل ضريح مربع من الخشب لا ميزة فيه (١٤٦). لكن بناء القاعة نفسها جميل، فالقوس المعقود وقسم من الهيكل مزينة برسوم زجاجية فارسية الطراز، بديعة الأثر. وفي جهتي القبر غرزت ريتان غامقتان اللون. وترتفع إلى جانب البناء منارة طولها زهاء أربعين قدماً (١٤٧) يقال إنها مثال منائر أصفهان المرتجفة، تهتز على قاعدتها حين يرتقيها المرء، ولكن يظهر أن

هذه الحركة ضئيلة لا يشعر بها ^(١٤٨)، ويهود الكفل يدعون امتلاك المعبد والضريح ويعدونهما صحيحين لا يرقى الشك إليهما ويكتون لها غاية الاحترام. وقد أنهوا أمرهم إلى الأستانة في عهد مصطفى باشا ^(١٤٩) لتثبيت حقهم، لكنهم لم يحصلوا على بغيتهم لأنهم لم يستطيعوا إثبات قيام أجدادهم بتشييد هذا المرقد الذي يبدو مع ذلك أنه يرجع إلى زمن سابق للإسلام. وهم بالرغم من ذلك يتعهدون بصيانته، وتظهر فيه آثار ترميم حديث (١٥٠)، ولكن المفاتيح قد بقيت في يد الشيخ الذي يدعي (الكدار) (١٥١)، أي حامل المفتاح. ويدعي اليهود الساكنون في جوانب الفرات الانتساب إلى الأسرى الذين جيء بهم إلى بابل.

وذرب بن عباس شيخ عشيرة آل علي هو في الوقت نفسه رئيس جميع العشائر العربية القاطنة في نواحي الكفل، وتقيم أسرته فيها منذ عهد بعيد وهو يتبع قائممقام الحلة، وقد أقطعتة الحكومة التركية (العثمانية) أراضي يتولى زراعتها، وجباية حاصلها، ويتعهد بأداء الضرائب عنها، وتتعلم عليه الحكومة كل سنة بعشرة طغارات (١٥٢) شعيراً لعلف خيول المسافرين النازلين في ضيافته، ولما عدنا إلى منزل الشيخ تناولنا غدائنا دجاجاً وسمكاً وتمراً طرياً قدمها لنا. ثم صعدت إلى السطح وقضيت ألطف أمسية أن الحرارة لم تكن شديدة كما هي في شهر نيسان في هذه البقعة المجاورة للصحراء. وجلس معي الشيخ حمزة وأبناؤه، فرأيت الأفق يمتد إلى ما لا نهاية لأنه في جميع الجهات، ولا يقع البصر إلا على السهل الشاسع، فمن الجهة الواحدة بادية الشام الكبرى، هذا البحر الرملي الذي يصل بابل بسورية وإلى الجهة الأخرى مياه الفرات الفائضة، وقد ظهر واضحاً في وسطها برس نمرود في عظمتة وشموخه.

وأشار الشيخ حمزة بأصبعه إلى المشاهد المقدسة المختلفة، وهي كالنقاط البارزة في الفضاء. والتي عزمت على زيارتها. الكوفة والنجف وفي الشمال البعيد كربلاء ورسم لي خطوط السفر التي عليّ إتباعها تقريباً للمسافات وتخفيفاً للتعب والعناء ونصحني بإرسال خيولي وأمتعتي إلى الحلة بنفس الطريق التي جئت منها ومن هناك يذهب رجالي عن طريق المسيب متبعين خطاً منحرفاً لاتقاء مياه الفيضان لانتظاري في كربلاء محط رجالي الأخير. أما أنا فيحسن بي أن أواصل معظم رحلتي على الماء، أركب السفينة في الكفل على فرع النهر الذي ضخه

الفيضان إلى الكوفة وهي أدنى إلى الفرات. والطريق من الكوفة الى مشهد علي يتجه إلى الشرق مبتعداً عن النهر ويمكنني قطعه على دواب يهيئها لي حمزة نفسه. ثم أعود إلى الكوفة لأخذ السفينة كرة أخرى إلى كربلاء. وكربلاء تبعد عن الفرات مسافة مقاربة (اثني عشر كيلو متراً) للكوفة على مبعده نحو عشرين فرسخاً إلى الشمال وقد كانت المسافة بين هذين البلدين مغمورة جميعاً بالماء

فقال الشيخ حمزة إن الانتقال بينهما على متن السفينة ممكن ميسور ولا يدوم إلا يومين، فاصل بوجود رجالي دون أن اعرض نفسي لتعب ركوب الخيل مثلهم. وقد أقررت هذا المنهاج وراسلت جماعتي في مساء ذلك اليوم ولم استبق سوى قواص نامق باشا وكان ساعدي الأمين ورضا قلي خادمي العجمي الشيخ ليهيئ الطعام للسيد حبيب ولي واختتمت العشية بحفلة طرب شاء مضيفي ان يفاجئني بها ولم تكن إلا مشهد رقص غريب مضحك قام بتأديته صبيان من الزنج متكرران تتكرراً ساخراً بهيئة الديكة.

وفي يوم السبت ١٣ نيسان عند الفجر ركبت في السفينة ومعني السيد حبيب وخادمي والقواص، وقد سبقنا إلى الركوب أربعة أعراب من المعدان أحضرهم الشيخ لمرافقتي إلى كربلاء. وجاء الشيخ بنفسه لتوديعي واتى معه ولده الكبيران حسوني وعباس اللذان يرافقاني إلى مشهد علي ولم ادر كيف اشكر هذا الرجل الطيب على ألطافه المضاعفة التي لا تخلو من تقدير شخصي ازائي، ولكن هؤلاء الرؤساء البدو يكتفون بكلمة واحدة ويستأثرون من الاستماع إلى المغالاة في الشكر والثناء. وبعد ذلك اقلعنا فبلغنا الكوفة بعد ساعة ونصف (١٥٣).

• خامس عشر: الرحالة الانكليزي سر وليس بدج / ١٨٩٠م

كانت هذه الرحلة هي الرحلة الثالثة التي قام بها الرحالة سر وليس بدج الى العراق. فقد غادر مدينة لندن في السادس والعشرون من أيلول عام ١٨٩٠ الى مصر ومكث فيها قليلاً ومن ثم غادرها الى بيروت ثم الى الشام ومن هناك اتخذ الصحراء طريقاً في رحلته الى العراق ماراً بمدينة تدمر وسخنة ثم عبر الفرات عند دير الزور ومنها قطع الجزيرة ثم وصل الى الجزيرة في سنجار حتى بلغ الموصل. ومن هناك اشترى مخطوطات سريانية نفيسة، ثم قدر له أن يزور

تلكيف والقوش ليعود بعدها إلى الموصل، ليغادرها على ظهر كلك (١٥٤)، عبر دجلة فوصل إلى تكريت وسامراء وغيرهما من المواقع الأثرية والقرى حتى وصل إلى بغداد. وبعد ذلك زار بارسبا الأثرية وهي قريبة من اليوسفية الحالية. ومن هناك سافر إلى الكفل وسدة الهندية والكوفة والنجف الأشرف^(١٥٥) ومنها إلى مدينة الكفل وقد ذكر تلك الرحلة قائلاً: "إن المسافة بين (الدير) (١٥٦) و (الكفل) على ما كانت عليه عهد ذاك بعيدة لا سيما وإن الفرات كان قد مَدَّ وطغى على جانبه الشرقي. وما كنت قد جاوزت (برس نمرود) فيما مضى، كما كانت ثمة تلال كثيرة تقوم في محاذاة (شط الهندية) أصبوا إلى رؤيتها. وقلت لـ (حسن) ورفيقه إنني سأذهب إلى مشاهدة الرقيمت شريطة أن أعود إلى (الدير) في ظرف أسبوع واحد أو نحو ذلك^(١٥٧)."

الخاتمة

كشفت الدراسة التي قام بها الباحث عن جملة نتائج مهمة منها:

زار مدينة الكفل خلال مدة الدراسة عدد كبير من الرحالة الأجانب والمؤرخين، فدوّنوا انطباعاتهم ومشاهداتهم عن المدينة، وتمثل المعلومات التي وصلت إلينا منهم مادة ثرية ومهمة في التعرف على أحوال المدينة وفي مراحل زمنية متباينة، بالرغم من كونها تمثل وجهات نظر شخصية، إلا أنها كانت قد ملئت فراغاً كبيراً في التعرف على الأحوال الاجتماعية والإدارية التي كانت تعيشها المدينة، وكان لتلك المدينة نصيب وافر من تلك الزيارات لمجموعة من الأسباب والتي يمكن حصرها بما يلي:

- يعد مرقد نبي الله ذي الكفل عليه السلام الواقع في المدينة من المزارات المقدسة التي يشترك فيها المسلمون واليهود على حد سواء، وقد تناوب الطرفان على سدائنه تبعاً للظروف السياسية التي كانت تحيط بهما، ويعد المسجد الإسلامي ومنازته الأثرية إلى جانب مرقد نبي الله ذي الكفل (عليه السلام) من الآثار الدينية والتاريخية القديمة والنادرة.

- وقوع مدينة الكفل على مفترق طرق المواصلات القريبة التي توصل بين مدينة الحلة وبين بغداد وكذلك بين الأماكن المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء

المقدسة.

- وجود جالية يهودية في المدينة استوطنت المكان منذ عهد الدولة البابلية القديمة إلى أن انتهى الوجود اليهودي في العراق بعد قانون إسقاط الجنسية العراقية عنهم في عام ١٩٥٠.
- كشفت الدراسة بان مدينة الكفل شهدت توافداً لأعداد كبيرة من اليهود وخاصة في مناسباتهم الدينية.
- كشفت الدراسة ان مدينة الكفل ضمت بين ظهرانيها الديانتين الإسلامية واليهودية، وعاشوا في هذه المدينة في ظل نظام سياسي متذبذب فرضه أو أوجده الاحتلال الأجنبي المتعدد للعراق.
- أظهرت الدراسة مناوبة سدانة المسجد بين المسلمين وبين اليهود، وفي مراحل زمنية مختلفة
- توصل الباحث إلى نتيجة إن معظم الرحالة اليهود الذين كتبوا عن مدينة الكفل ومسجدها لم يكونوا حياديين ابدأً. بدليل ما وصل إلينا من كتاباتهم التي كانت بعيدة تمام البعد عن الواقع التاريخي الموجود فعلاً في المدينة.
- على الرغم من مدونات الرحالة الذين زاروا المدينة منذ القرن الثاني عشر الميلادي ولغاية القرن التاسع عشر الميلادي، إلا ان معظمهم لم يكن حيادياً في نقل الاحداث، ذلك لانهم كانوا على غير الديانة الاسلامية، وان المدينة ومسجدها التاريخي كان بيد اليهود، الذين اعطوا او سمحوا للرحالة بان تكون كتاباتهم وفق ما يتلاءم مع توجهات هؤلاء اليهود.

الهوامش

- (١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد: ٧-٨، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨، ص ١٥٨
- (٢) علي الكوراني، العراق بلد إبراهيم وآله (عليه السلام)، ط١، ق٢، مطبعة الوراق بغداد، ٢٠١٠، ص ٤٣
- (٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٤) جعفر الصدوق، علل الشرائع، ج٢، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٥٨٥.

(٥) علي الكوراني، المصدر السابق، ص ٣٤.

(٦) اعتقد الباحث يوسف رزق غنيمة إن موقع (تل أبيب) ما زال مجهولاً، وأما معنى هذا الاسم في اللغة العبرية «تل السنبلة»، وقد قال فرديريك دليج: - " ان كان هذا الاسم بابلي فإذا كان كذلك فلفظه الصحيح «تل أبوب» أو «تل ابوبي» حيث يعني لفظ ابوبو باللغة الآشورية «الطوفان»، ومعناه «تل الطوفان» (ينظر: يوسف غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، المطبعة: دار الوراق، الطبعة: الثالثة ٢٠٠٦، ص ٥٣-٥٤، ويؤكد المرحوم احمد سوسه: (أن تل أبيب تسمية بابلية لموقع في جنوب العراق من القرن الخامس قبل الميلاد، استقر فيه في أثناء العهد الأخميني عدد من اليهود لذلك فإن الإشارة إلى هذا الموضع في التوراة إنما يدل على قدمه تاريخياً. احمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ط٧، المطبعة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٩٠، ص ٨٨٩

(٧) البرثيون أو الفرثيون: هم سكان إقليم فرثيا أو بارثيا (خراسان) الذي سكن فيه أحد الشعوب الإيرانية (الآرية)، وقد حصل هذا الإقليم على استقلاله في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد أيام سلوقس الثاني (٢٤١ - ٢٢٦ ق.م)، وكانت عاصمته أرشاق للمزيد من التفاصيل ينظر: الموقع الإلكتروني (www.elmessiri.com/encyclopedia)

(٨) يوسف رزق الله غنيمة، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٩) محمد سعيد الطريحي، النبي حزقيال سيرته ومشهده في بابل، أكاديمية الكوفة في هولندا، مجلة الموسم، العددان (٢-٣)، امستردام، ١٩٨٩م، ص ٣٥٠.

(١٠) بنيامين التيطلي، رحلة بنيامين التيطلي، ترجمة: عزرا حداد، ط١، مطبعة دار الوراق، بغداد، ٢٠١١، ص ١٧٤.

(١١) عزيز جفات الطرقي، مدن عراقية على ضفاف الفرات، ج٢، مطبعة: دار الصادق (عليه السلام) للطباعة والنشر، بابل، ٢٠١١م، ص ٨٧.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(١٤) حسن الجواهري، جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام، ج ١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠١، ص ٢٢٦.

(١٥) محمد سعيد الطريحي، المصدر السابق، ص ٣٥٣.

(١٦) هو السلطان المؤيد غياث الدين الجايو محمد المشتهر بـ "خدابنده" بن أرغون شاه بن أياقا خان بن هولاكو خان بن قولوي خان بن چنگيز خان، سلطان المغول الايلخانيين، كان يسمى قبل اسلامه ألبايو، اعتنق المذهب الشيعي وجعله مذهباً رسمياً لدولته، فاستدعى العلامة الحلي ليتولى الشؤون الدينية والتوجيه في دولته، لكن الأخير اعتذر واكتفى بارسال كتابه "منهاج الكرامة في معرفة الإمامة"، ليكون كتاب دعوة لنشر الفكر الامامي بين الناس، محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ج ٩٩، ط٣، مطبعة الاعلمي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٨٦.

(١٧) **أبو سعيد** بهادر خان (١٣٣٥-١٣١٦ م): وهو من سلاطين الدولة الايلخانية ومن أهم أعماله إكماله بناء مسجد النخيلة الذي بدأ في عهد أبيه السلطان اولجايتو محمد خدابنده (رحمه الله) تمكن من فرض سيطرته على بلاد **الأناضول**، انقسمت الدولة بعده إلى عدة مناطق حكمت كل منها أسرة مستقلة أثناء العهود الأخيرة للدولة الإيلخانية بحيث كان السلاطين يتولون الحكم لفترة قصيرة. للمزيد ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

(١٨) محمد سعيد الطريحي، المصدر السابق، ص ٣٥٦.

(١٩) رحلة آينهولت الهولندي الى العراق، ترجمة: مير بصري، تحقيق وتقديم: طارق نافع الحمداني. ط ١، مطبعة دار الوراق، بغداد، ٢٠١٢، ص ٢٢٩-٢٣٣

(٢٠) رحلة آينهولت الهولندي الى العراق، المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٢١) محمد سعيد الطريحي، المصدر السابق، ص ٣٦٢.

(٢٢) الدونم وحدة مساحة وتعادل ٢٥٠٠ متر مربع.

(٢٣) محمد سعيد الطريحي، المصدر السابق، ص ٣٦٢.

(٢٤) بنيامين التطيلي، مصدر سابق، ص ٤١-٤٣

(٢٥) هي آثار بابل المعروفة.

(٢٦) نبوخذ نصر او بخت نصر: هو أشهر ملوك الدولة الكلدانية خلف أباه الملك نبو بولصر في الحكم الذي دام (٤٣ سنة) بين سنة (٦٠٥ و ٥٦٢ ق.م) قضاه في توسيع نفوذ مملكته وتعمير عاصمته بابل قام بعدة حملات أشهرها حملته على مملكة يهوذا في سنتي (٥٩٧ ق.م سنة ٥٨٦ ق.م). للمزيد من التفاصيل ينظر: أحمد سوسة، المصدر السابق، ص ٩٥٧.

(٢٧) النبي دانيال (عليه السلام): هو أحد الأنبياء الاربعة الكبار عند اليهود يأتي في الترتيب بعد حزقيال، وكان من عائلة شريفة نشأ وترعرع في اورشليم ثم أقتيد وهو شاب مع

من سباهم نبوخذ نصر إلى بابل واستدعاه ملك بابل ليفسر له حلم مزعج بعد أن عجز عن تفسيره كافة حكماء الملك، ففسره دانيال وحصل على منزلة عظيمة عند الملك وتربى في بلاطه. لمزيد من التفاصيل ينظر: محمد سعيد الطريحي المصدر السابق، ص ٣٤٠

(٢٨) نمروذ بن كنعان، وعرف عند المسلمين بنمرود، وهو شخصية ذكرت لأول مرة في التوراة اليهودية بالاسم كملك جبار تحدى الله ببنائه برج بابل. وربط المفسرون نمروذ هذا مع الشخصية القرآنية للملك الذي تجادل مع إبراهيم وعاقبه بالحرق. وذكر أنه «نمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح» أو أنه «نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح أو أنه ابن ماش ابن أرام ابن سام» للمزيد ينظر الموقع على الانترنت: www.elmessiri.com/encyclopedia

(٢٩) نفاحه: اختلف لفظها في النسخ فقد وردت بلفظ «نفاح» وفي نسخة المتحف البريطاني وردت محلها لفظة «كافري» لذلك اختلف المحققون في تعيين موقعها. للمزيد ينظر: بنيامين التطيلي، المصدر السابق، ص ١٧٢

(٣٠) الفرسخ: بفتح فسكون لفظ معرب. فراسخ: مقياس من مقاييس المسافات مقداره ثلاثة أميال = اثنا عشر ألف ذراع = ٥٥٤٤ متراً. للمزيد ينظر: ابراهيم سليمان العاملي، الأوزان والمقادير، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٢، ص ٨٦.

(٣١) مرقد حزقيال أو «مرقد ذي الكفل» من أهم وأقدس المزارات الدينية المقدسة لدى الديانات السماوية في العراق. وقد اختلف في تحديد موقع القبر وإن كان الموجود في بابل ناحية الكفل هو الأكثر شهرة وهذا الاختلاف ناتج من تحديد نهر كيباب الذي عاش جواره النبي حزقيال وعدم إشارة الروايات الإسلامية إلى مكان قبره (عليه السلام). (٣٢) هذا التسلسل في حركة رحلة بنيامين حسبما ورد في الرحلة في حين يعتقد الباحث إن الرحلة بنيامين لم يتم بزيارة أغلب المناطق التي كتب عنها.

(٣٣) وهذه أحد التناقضات التي وردت في الرحلة فبعد عدة أسطر من هذه الرحلة ذكر بنيامين موقعا آخر لمرقد حزقيال قائلاً: " ومرقد حزقيال على فرع من الفرات يدعى كيباب". بينما ذكر يوسف غنيمه: " أن قبر حزقيال يقع على عدوة الفرات" ثم ناقض قوله الاول وذكر لنا موقعا آخر للقبر قائلاً: " إن موقعه يقع بين نهر الخابور ونهر آخر". يوسف غنيمه، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط ٣، مطبعة الفرات، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٢٢٦.

(٣٤) الصومعة: مكان منفرد يسكنه الزاهد أو المتعبد ابتعادا عن الناس وشؤون الدنيا للمزيد

من التفاصيل ينظر: محمد بن بكر الرازي، مختار الصحاح، مطبعة العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٥٥.

واليوم لا توجد أي من هذه الصوامع أو الأبراج المشار إليها في الرحلة بل لم يشر أي رحالة أو مؤرخ أو بعثة تنقيبية إلى هذه الصوامع

(٣٥) لا اعرف مقصود الرحالة من كلمة «منبر» ولعله خطأ في الترجمة. وقد ذكر يوسف غنيمة ترجمة لنص بنيامين لم يذكر فيها كلمة منبر. يوسف غنيمة، المصدر السابق، ص ٢٢٦

(٣٦) حزقيال بن بوزي الكاهن: هو أحد أنبياء بني إسرائيل وله سفر في التوراة يسمى بـ«سفر حزقيال» وكذلك وردت قصته في القرآن الكريم، قال تعالى: - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) البقرة: (٢٤٣). وهو أسم عبري معناه «الله يقوى»، ولد ونشأ في فلسطين. محمد سعيد الطريحي، المصدر السابق، ص ٣٤٠، وذكره أحمد سوسة قائلاً: "كان النبي حزقيال كاهنا على سيرة أبيه «بوزي» في فلسطين وكانت نبوته في بابل بين ٥٩٢ و ٥٧٠ ق.م (على قول) وكان احد المسيبيين الذين حملوا مع يهوياكين الى بابل في القافلة الأولى سنة ٥٩٧ ق.م، احمد سوسة، ملامح من تاريخ يهود العراق، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ص ١٣٢.

(٣٧) لم يذكر لنا أحد هذا الوصف للقبه سوى الرحالة بنيامين التيطلي وقد بالغ في قوله أنها من بناء الملك يكتيه المسيبي عام ٥٩٧ ق.م أي أن عمر البناء أيام مرور بنيامين قد تجاوز ١٧٥٠ عاما وهو محافظ على شكله الذي وصفه لنا الرحالة و لا يوجد من يؤيد قوله هذا ونؤكد مرة أخرى ان كل ما وصفه من (الصوامع والابرار الستين والمنبر والقبه) لا يوجد له أي واقع تاريخي ولم يشر إليه أحد قبل بنيامين ولم يؤيده أحد بعده ألا نقلا عنه. وقد تكرر من بنيامين في ذكره لعدة مواضع لا واقع لها ولا مؤيد مثل ذكره لموضع يسمى (عكبرى) في العراق حيث نسب بنائه الى الملك يكتيه وقد علق الأستاذ عزرا حداد على هذا القول بـ(فليس لدينا ما يؤيد أن عكبرى هي من بناء الملك يكتيه). بنيامين التيطلي، المصدر السابق، ص ١٥٩

(٣٨) يكتيه: هو اسم عبري معناه (يهوه يثبت) وهو ابن يهوياقيم ملك يهوذا وخليفته، تبوأ العرش سنة ٥٩٧ ق.م، وكان ابن ١٨ سنة ولم يملك إلا ثلاثة أشهر وعشرة أيام وبقي أسيرا في بابل ٣٧ عاما ويدعى الملك يهوياكين بـ(يكتيا). للمزيد ينظر الموقع على الانترنت، st-takla.org -.

(٣٩) أويل مردوخ: وهو ابن نبوخذ نصر الثاني ملك بابل وخليفته، والصيغة البابلية للاسم

هي «أميلو - مردوك» أي «رجل أو عبد مردوك» (مردوك إله بابلي) ولقد اكتشف حوالي ثلاثين لوحا في بابل ترجع إلى عهده، يتضح منها أنه قد حكم حوالي سنتين وخمسة أشهر (حوالي (٥٦٠ - ٥٦٢ ق.م.)).

للمزيد عن التفاصيل ينظر الموقع على الانترنت: <https://www.linga.org/Bible-Names/Meaning>

(٤٠) كبار: لفظ باللغة العبرية و(خابور) بالاكديّة، وذكر هذا النهر في سفر حزقيال في ثلاثة موضع الأول: (كان في سنة الثلاثين، في الشهر الرابع، في الخامس من الشهر، وانا بين المسبيين عند نهر خابور). الثاني: (صار كلام الرب الى حزقيال الكاهن ابن بوذي في أرض الكلدانيين عند نهر خابور) الثالث: (فجئت الى المسبيين عند تل ابيب الساكنين عند نهر خابور)، وقد اختلف في تحديد موقع هذا النهر.. لمزيد من التفاصيل ينظر: يوسف غنيمّة، المصدر السابق، ص ٥٣-٥٤.

(٤١) وهذا مما لا يحتاج الى أثبات ان في قوله مبالغة لا واقع لها.

(٤٢) وهي الأيام العشرة الأولى من تشريه في التقويم العبري وتقع في أواخر أيلول أو أوائل تشرين الثاني ويسمىها اليهود أيام التوبة العشرة، ويحتفل في اليومين الأول والثاني منها بعيد رأس السنة وفي اليوم العاشر بعيد الكفارة، لمزيد من التفاصيل ينظر: بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص ١٧٣

(٤٣) رأس الجالوت: وهو لقب أمير الطائفة اليهودية في بلاد الرافدين قبل الإسلام وبعده. إن أول ذكر تاريخي لرأس الجالوت كان في القرن الثاني بعد الميلاد (في حكم الفرثيين). كان لابد لمن يشغلها أن يكون من نسل داود وكانت وظيفة رأس الجالوت وراثية، الأمر الذي أدّى إلى الفساد والتآمر من أجل الاستيلاء عليها، ولكن. وقد فقد المنصب مكانته بعض الوقت..: الموقع على الانترنت: www.elmessiri.com، ولفظة «مثيبة» كانت تستعمل عند اليهود للدلالة على المدرسة الدينية « الأكاديمية » أصلها « مثبّتا » وعنها اخذ العرب لفظة « المثيبة ». احمد سوسة، المصدر السابق، ص ١٧٦

(٤٤) وهذه مبالغة لان الميل يساوي ١,٦٠٠ كم أي أن تمتد المسافة الى ٣٥ كم.

(٤٥) وهي الكتب المقدسة التي أنزلت على النبي موسى الكليم (عليه السلام) في بادية سيناء بعد خروج اليهود من مصر الفرعونية في نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهي (الخليقة والخروج واللاويين والعدد والتثنية) يوسف رزق غنيمّة، المصدر السابق، ص ٣٤٢

(٤٦) لم يشير احد قبل الرحالة بنيامين الى « أن حزقيال قد كتب الأسفار بيده ولا أوقد قنديلا

بيده « ولعل قول بنيامين يقال خير دليل على أن هذا الموضوع قد نقل له من أقوال عامة الناس ولا يوجد ما يؤيد أو يدعم قول بنيامين (٤٧) نفس ما ورد في التعليق السابق.

(٤٨) الهيكل الثاني: نصت المخطوطات العبرانية على أن النبي داود «عليه السلام» دام حكمه لمملكة إسرائيل ٤٠ عاماً، وبالتحديد حتى سنة ٩٧٠ ق.م، وبعد وفاته خلفه ولده سليمان الذي حكم طيلة ٣٣ عاماً، وفي عهده تم تشييد هيكل المدينة على جبل موريا، بالإضافة إلى هيكل سليمان (عليه السلام) الشهير، الذي لعب دوراً مهماً عند اليهود، كونه يمثل المستودع الذي حفظ فيه تابوت العهد وفقاً للمعتقد اليهودي. أصبحت القدس تسمى بالمدينة المقدسة في عام ٩٧٥ ق.م، وشكلت عاصمة لمملكة إسرائيل الموحدة. لمزيد من التفاصيل ينظر: جواد مطر الموسوي، أوضاع اليهود في اسبانيا قبل الفتح الاسلامي، مجلة واسط للعلوم الانسانية، العدد (١٠)، ٢٠١٦، ص ٨.

(٤٩) وهذا ما نُقل للرحالة و لا يوجد ما يؤيد قوله.

(٥٠) ويعرفون باسم أهل المشيبة (المثيبة) ولا يجوز أن يقل عددهم عن العشرة يقضون أوقاتهم بقراءة الكتب المقدسة بجوار المرقد وينفق عليهم من أوقاف النبي. بنيامين التظلي، المصدر السابق، هامش (١) ص ١٧٤. (من المترجم)

(٥١) مادي: كلمة مشتقة من ماداي ابن يافث الثالث. وهي اسم بلاد يحدها نهر اركسيس وبحر قزوين إلى الشمال والشمال الشرقي، و فرثية وهركانية وصحراء فارس من الشرق. وفارس وسوسيانة من الجنوب وآشور وأرمينية من الغرب. وكان طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٦٠٠ ميل وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ٢٥٠ ميلاً ومساحتها ١٥٠.٠٠٠ ميل مربع. لمزيد من التفاصيل ينظر www.st-takla.org

(٥٢) هذه إشارة إلى إقامة صلاة الجماعة للمسلمين في المرقد.

(٥٣) لم أقف على سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم ولم أجد مصدر يشير الى حدودها بالدقة ولكن يوجد تقريب لمعنى (بر مرحلة) ذكر المؤرخ والمستشرق الالمانى (فريخة):- (أن المقطع الأول من الاسم (بِرْ) قد يكون كلمة آرامية (BARRA) ومعناها الحقل، وقد تكون (BARR) ومعناها الحب و الحنطة ولكن « فريخة » فضّل كلمة (BAR) السريانية ومعناها « ابن » كما هي في العربية الجنوبية أيضاً) وأما (ملاحة) بفتح الميم قد تكون إشارة إلى مكان تجمع الملح. فعلى هذا المعنى يكون معنى اسمها (حقل الملح) أو (حنطة الملح) أو (ابن الملح) وبر ملاحة هي منطقة واسعة جداً قد يكون الجزء الغالب من مساحتها موضوع لتجمع الملح للمزيد ينظر الموضوع (بر الياس) موقع الموسوعة الحرة. والصحيح بر ملاحة كما ورد في معجم البلدان.. ياقوت

الحموي، المصدر السابق، ص ٣١٩

(٥٤) وهو الخليفة العباسي محمد المقتفي لأمر الله (٥٣١-٥٥٥ هـ) في عهده تقلص حكم السلاجقة واستعادت الخلافة نفوذها السياسي، وكان المقتفي قد أرجع لليهود جميع حقوقهم ومراسيم رؤسائهم وأوقافهم أيضا ويؤيد ذلك ما أورده الرحالة فتاحية من أن الخليفة كان قد أظهر عناية كبيرة بمرقد حزقيال. بنيامين التتلي، المصدر السابق، هامش (١) ص (١٧٥).

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٧٢

(٥٦) قال يوسف غنيمه: " غالى الريان بتاخيا في وصف بناء مزار حزقيال حتى أفضى به غلوه الى القول: من لم ير قصر حزقيال العظيم فانه لم ير أثرا جميلا في حياته ". ووصف القبر وقال انه من خشب الأرز المذهب لم تشاهد العين مثله ويسهر مائتا شرطي على حفظ الكنوز التي تهدى الى القبر يوسف غنيمه، مصدر سابق، ص ٢٥٢. ونحن نؤيد ماذهب اليه الكاتب يوسف رزق الله غنيمه في ذلك.

(٥٧) هذه مبالغة كبيرة جدا وألا كيف يدخل ٦٠ الى ٨٠ الف يهودي الى مرقد لا تتجاوز مساحته على اكثر الاحتمالات ١٠٠٠ م٢.

(٥٨) ربما قصد بالإسماعيلية: هي فرقة من الشيعة وسبب نشأتهم وافتراقهم عن الأمامية الآخر انه لما أستشهد الامام جعفر الصادق (عليه السلام) وكان له ابن يسمى إسماعيل توفي في حياته، قالت طائفة بان الامام بعد جعفر هو ابنه موسى - وهؤلاء هم الروافض الاثني عشرية - وطائفة قالوا بان الامام هو إسماعيل بن جعفر وأنه مات في حياة أبيه وهذا سبب تسميتهم الاسماعيلية لقولهم بامامة اسماعيل بن جعفر وابنائهم (لمزيد من التفاصيل ينظر: محمد كامل حسين، طائفة الاسماعيلية تاريخها ونظمها وعقائدها، بغداد، مطبعة الوحدة، ١٩٥٩، ٢١٢-١٤).

(59) tombs of synagogues in babylonia, by ;Zvi Yehuda, p,p.19 20.

(٦٠) حزقيال كما ورد في سفر حزقيال

(٦١) لم يعثر الباحث على أي معلومة تعرّفنا بهذا الوكيل

(٦٢) هيثم محمود ابراهيم، الاحتيال في مقامات الحريري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة قنا، ٢٠١١، ص ١٠-١١

(٦٣) إشارة الى منارة المسجد.

(٦٤) يقصد المسلمون لانتسابهم الى النبي محمد (صلى الله عليه واله) وكانوا يسمونه ذا الكفل وليس حزقيال

(٦٥) ان السلطان اولجايتو بنى قرب المسجد والقبر خانا وتسميته باسم خان حزقييل (عليه السلام) تسمية يهودية ولعل اسمه خان ذي الكفل (عليه السلام).

(٦٦) الظاهر أنه أحد المرافقين الذين كانوا معه اثناء رحلته هذه.

(٦٧) بدرو تكسيرا، مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤، ملخصه عن الترجمة الانكليزية من قبل جعفر الخياط، الجزء ٤، السنة ١، مجلة الأقلام، ١٩٦٤، ص ٦٩-٧٠.

(٦٨) يقصد أهالي الحلة و ما ذكره عن الكفل هو منقول منهم لان الرحالة وكما ذكر: "أنه سوء حظي الذي حرمني من زيارة مرقد حزقيال في الكفل".

(٦٩) يحتمل أنه سأل يهودا عن قبر حزقيال فذكروا له أنه يقع على نهر كوبار وهذا ما اعتقد به ولا يوجد مؤيد تاريخي لما ذكره ان النهر الذي يقع عليه قبر حزقيال يسمى كوبار في هذه المدة وخاصة عند العرب

(٧٠) تحدث الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق) عن رأس العين قائلا: " رأس العين مدينة كبيرة فيها مياه نحو من ثلاثمائة عين عليها شباك حديد تحفظ ما يسقط فيها، ومن هذه المياه ينشأ معظم نهر الخابور الذي يصب في قرية البصيرة"، أما ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان فقد قال: " هي مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين وديسر، وفي رأس العين عيون كثيرة عجيبة صافية وتجتمع كلها في موضع فتشكل نهر الخابور ". ينظر: (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

(٧١) سفر الشهداء: هو كتاب يضم أسماء الشهداء والأولياء النصاري منذ أقدم العصور النصرانية وهو مقسم على أيام السنة. بيترو ديلافالیه، رحلة ديلافالیه، ترجمة: بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة، بغداد، ٢٠٠١، ص ٦١.

(٧٢) مجلة المشرق، السنة الثانية ١٨٩٩. من ص ٦١ - ص ٦٦.

(٧٣) ديلا فالیه، المصدر السابق، ص ٦١

(٧٤) وهذه إشارة تاريخية الى أن المدينة الى عام ١٦٧٦م تسمى (بر ملاحه)

(٧٥) جان بابتيست تافرنيه، رحلة الفرنسي تافرنيه الى العراق في القرن السابع عشر سنة ١٦٧٦ م: ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس، الدار العربية، بيروت، ١٩٦٥، ص ٦٣.

(٧٦) يقصد مرقد الإمام علي ابي طالب (عليه السلام)

(٧٧) يقصد ناحية الكفل اليوم

(٧٨) مما لا ريب فيه ان هذا الرأي جاء نتيجة لسؤال الرحالة لأحد الأهالي فلا يوجد دليل على ما ذكره سوى رواية التابعي حسن البصري وهي رواية غير مسندة اصلا وضعيفة

ولم يؤيد هذا الرأي أي من المفسرين أو المؤرخين وكلهم ذكروا في كتبهم قصة ذي الكفل في فصل وقصة حزقيل في فصل آخر وللمزيد راجع كتب قصص الانبياء لكل المؤلفين والمؤرخين فستجد ذلك.

(٧٩) ان هذا العمل بعيد عن المسلمين والإسلام والظاهر أن الرحالة نقله من بعض المبغضين للإسلام والمسلمين

(٨٠) لان اليهود جبنا كما سيذكر الرحالة لاحقا

(٨١) إشارة الى المسجد الذي بناه اولجايتو محمد خدابنده عام (٧١٦ هـ) وان قبر النبي واقع داخل سور المسجد كما أثبتت التنقيبات التي أجريت عام ٢٠١٢م

(٨٢) يقصد قبة نبي الله ذي الكفل «ع» ولعله خطأ من المترجم حيث ترجم القبة منارة

(٨٣) لم نتعرف على أسم هذه العائلة في المصادر المتوفرة لدينا

(٨٤) أشار الرحالة الى حرم الصلاة المجاور لضريح النبي ذي الكفل «ع» وكانت في إحدى جوانبه منارة صغيرة يصل ارتفاعها الى أربعين قدما وهي شبيهة بمنائر أصفهان المرتفعة. للمزيد ينظر (آينهولت الهولندي) المصدر السابق، ص ٢٣٢، ولا يحتمل انه يشير الى منارة الكفل المعروفة اليوم لان ارتفاع هذه المنارة دليل على وجود مسجد كبير وليس صغير كما أشار الرحالة

(٨٥) لمرقد نبي الله ذي الكفل (عليه السلام) عدة عقارات وأراضي زراعية مساحتها أكثر من (٤٠٠) دونم زراعي موجودة اليوم في ناحية الكفل تسمى البرذويل مقاطعة (٥٣-٥٤)

(٨٦) الثلاثون قدما يعادل بالمتر (٩,١٤٤م) وألف ومائتين قدم يعادل (٣٦٥,٧٦ م)، ولقد أثبتت التنقيبات أن سور المسجد يبلغ محيطه حوالي (٢٣٠ م) وهناك امتداد للسور لم يستظهر بعد يشمل الخان الذي بناه السلطان اوجايتو محمد خدابنده عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م وهو السور الذي طمسه اليهود وبنوه عليه خاني (السيف وكريش) حيث بلغ طوله حوالي ١٣٢م، وبلغ ارتفاع سور المسجد اليوم ثمانية أمتار .

(٨٧) لم يرد ذكر هذا الرجل في أي مصدر حسب اطلاع الباحث ولم يذكر لنا نيبور مصدر هذه المعلومة وقد بحثنا مصادر كثيرة فلم نجد لهذا الرجل من ذكر علما أن هناك دلائل كثيرة تدل على أن هذا السور لا علاقة له باليهود بدليل قيامهم بتخريبه وهدمه وطمسه بالبناء عليه ووضع قبور وهمية فوقه من قبلهم فأن كان عاندا لهم فلا معنى لما فعلوه بالسور من هذه الأعمال التخريبية له، كما أثبتت النتائج العلمية التي قام بها ديوان الوقف الشيعي أن تاريخ السور يعود الى العهد الاسلامي ويحتمل أن مصدر المعلومة التي حصل عليها نيبور كانت من نفس يهود المدينة.

(٨٨) ذكر حمد الله المستوفي أن السلطان اولجايتو محمد خدا بنده قد بنى جوار المسجد والمرقد خانا لإيواء الزائرين - ونعتقد يقع في شرق المسجد والذي هدمه اليهود واستغلوا أسسه القديمة لبناء خانين سمي الأول باسم خان السيف والثاني خان قریش: عيسى سلمان وآخرون، مجموعة العمارات العربية الاسلامية في العراق، ج٢، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م، ص ١٢١

(٨٩) كل ما ذكره الرحالة هو منقول له و لا يوجد له واقع تاريخي وربما هو يتحدث عن مجموعة تعمل على سلب العوائل الزائرة للمرقد سواء كانت العوائل مسلمة أو يهودية.

(٩٠) كارسطن نيبور، رحلة نيبور الكاملة الى العراق، ترجمة سالم الالوسي - سعاد هادي العمري، ط: الاولى مط: دار الوراق، ٢٠٠٩، ص ١٢٩-١٣١.

(٩١) وهو من الخانات التي تقع على الطريق ما بين بغداد والحلة، يبعد عن بغداد مسافة ٤ ساعات بوسائل النقل البدائية التي كانت سائدة آنذاك، ذكره الميجر تايلر الذي زار بغداد عام ١٧٨٠م لمزيد من التفاصيل ينظر: علي هادي عباس المهداوي، الحلة كما وصفها السواح الاجانب في العصر الحديث دراسة تاريخية تحليلية، مطبعة مكتبة الرياحين، بابل، ٢٠٠٥، ص ٦٢

(٩٢) وهذا إشارة الى أن تسمية المنطقة في التاريخ المشار إليها أعلاها كانت « الكفل»

(٩٣) يقصد به أول الصبح

(٩٤) إتفق المؤرخون على معنى كلمة بعلبك وعلى أن دلالتها واحدة، سواء في اليونانية أو السريانية أو العربية. فجميعهم نسبوها إلى البعل، إله الفينيقيين. فهي مدينة البعل، نسبة إلى هيكل البعل الذي بناه فيها الفينيقيون

(٩٥) مجلة المشرق،، السنة الثانية ١٨٩٩. ص ٦٣

(٩٦) هو سور مسجد النخيلة التاريخي والذي تم اكتشافه من قبل هيئة الأعمار في الكفل عام ٢٠١٢م

(٩٧) هذا الادعاء غير صحيح ولا يوجد أي مستند تاريخي الى ان الملك يهوياكين هو الذي بنى السور بل قد أثبت المختصين أن عمر السور لا يتجاوز (٨٠٠) عام وبالطرق العلمية.

(٩٨) يقصد بالبرج العالي منارة المسجد وبـ(الرواق) ربما كان يشير الى الاواوين التي كانت مرتبطة بالسور أو رواق كبير مرتبط بحرم الصلاة القديم الملاصق لغرفة الضريح وقوله (كان...) يدل على انها معلومة تاريخية عالقة قي ذهنه لم يرد مؤيد تاريخي لها.

(٩٩) كان لمسجد النخيلة التاريخي منارة بلغ ارتفاعها ٤٠ قدما شبيهة بمنائر أصفهان المرتجفة قام اليهود بهدمها من أساسها ما بين عام ١٨٧٠م وعام ١٨٨٠م كما أشار الرحالة آينهولت الهولندي في رحلته الى العراق كما سيأتي في رحلته (١٠٠) يشير إلى حرم الصلاة الواقع شمال القبر الشريف والذي حوله اليهود الى كنيس بعد أن غيروا معالمه الإسلامية

(١٠١) الظاهر انه يشير إلى النقوش الملونة والتي وضعت على جدار حرم الصلاة من الخارج

(١٠٢) يقصد نجمة نبي الله داود (عليه السلام) كما يطلق عليها (١٠٣) وهي من مرويّات اليهود نقلًا عن بنيامين التطيلي والتي لا يوجد ما يؤيدها في التاريخ أو الواقع

(١٠٤) وهذه الاسماء لا يوجد لها مؤيد تاريخي أو واقعي ولم يذكره لنا رحالة لا قبله ولا بعده (١٠٥) يوم كييبور، يوم هاكيبوريم أو (عيد الغفران) بالعبرية יוֹם כִּיּוּר או יוֹם הַכִּפּוּרִים، هو اليوم العاشر من شهر "تשרيه"، الشهر الأول في التقويم اليهودي، وهو يوم مقدس عند اليهود مخصص للصلاة والصيام فقط. ويوم كييبور هو اليوم المتمم لأيام التوبة العشرة والتي تبدأ بيومي رأس السنة. ينظر الموضوع للمزيد ينظر: (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

(١٠٦) الظاهر أنها (مدرسة أو معهد) لتدريس التوراة.

(١٠٧) هو من بنى اوابين المرقد وقد سميت آنذاك بخان يعقوب سيماح.

(١٠٨) يقع عيد الأسابيع في الشهر الثالث العبري «سيوان» حيث كان الحجاج يجتمعون مع البواكير التي كانوا يحملونها من أنحاء أرض إسرائيل إلى باحة البيت المقدس (الهيكل) في أورشليم. ويسمى هذا العيد «عيد الخمسين»، لأنه يقع بعد تعداد سبعة أسابيع تبدأ من اليوم الثاني من عيد الخروج (الفصح العبري)، وقد قيل ﴿وَأَخْضُوا لَكُمْ مِنْ غَدِ الْعُطْلَةِ مِنْ يَوْمِ جِئْتُمْ بِعُمُرِ (حُزْمَةٍ) التَّحْرِيكِ سَبْعَةَ أَسابِيعٍ تَامَّةٍ تَكُونُ. وَإِلَى غَدِ الْأُسْبُوعِ السَّابِعِ فَيَصِيرُ جُمْلَةً مَا تَحْصُونَهُ خَمْسِينَ يَوْمًا﴾ للمزيد ينظر. (aslalyahud.org)

(١٠٩) لم يقف الباحث على مقصد الكاتب من قوله (هفتورا) في المصادر المتوفرة.

(١١٠) يوسف غنيمه، المصدر السابق، ص ٢٢٩-٢٣٢

(١١١) إشارة الى حرم الصلاة الذي بناه السلطان اولجايتو خدابنده عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م وقد حوله اليهود إلى معبد لهم بعد عام ١٨٥٠ م

(١١٢) كلمة ارامية كانت تطلق على الربانيين رؤساء المدرستين الدينيتين اليهوديتين في

منطقة بابل (فومبيثة وسورا). وقد واصل الغاؤونييم أعمالهم الدينية بعد إخراج التلمود سنة ٥٨٨ م. وحلوا محل الامورائيم والسيورائيم وكانت أعمالهم إصدار الفتاوى الدينية ليهود الشرق والغرب وكانت الاسئلة تتوارد عليهم من جميع الأقطار. استمرت أعمالهم في هاتين المدرستين من سنة ٥٨٩م الى ١٠٣٨م عندما اغلقتا في خلافة القادر بأمر الله (٩٩١ - ١٠٣١م) فانتقل عندئذ مركز اليهود العلمي الى الأندلس. للمزيد من التفاصيل ينظر: احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، المصدر السابق ص ٩٣٥

(١١٣) وهي القبور التي أشار إليها ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) وهم (باروخ وعزرا ويوسف الربان وخون ناقل التوراة)

(١١٤) المكتب الهندسي الاستشاري العالمي، مشروع التجديد الحضري لمرقد نبي الله ذي الكفل (عليه السلام) والمناطق المحيطة به، مطبعة دار السلام، بغداد، ٢٠١٤، ص ٣٢
(١١٥) أعتقد انه يشير الى غرفة الضريح وحرم الصلاة بدليل قوله على الدار الخارجية ان سقفها يستند على أعمدة ضخمة وهذه الاعمدة موجودة الى يومنا هذا داخل حرم الصلاة.

(١١٦) القلز هو النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد

(١١٧) توجد كتابات بالعبرية في جدران المزار وفي حرم الصلاة قد تكون هي الاسفار الخمسة ولكنها حديثة لا يتجاوز عمرها ١٢٠ عاما.

(١١٨) وهذا القول مأخوذ من قول بنيامين التطيلي في رحلته المارة الذكر والذي لا يوجد ما يؤيده تاريخيا وكذلك لم يذكر هذا الوصف الرحالة الذين سبقوا لوفتس قبل سنوات.

(١١٩) وهذا من أقوال بنيامين التطيلي التي لا واقع تاريخي لها.

(١٢٠) يوسف غنيمه، المصدر السابق، ص ٢٢٨

(١٢١) ويقصد بالبلدة ما يحيط بالمرقد الشريف حيث سكن اليهود جوار المرقد مباشرة وكان اغلب العرب المسلمين يعيشون على بعد من المرقد قرب نهر الفرات لاعتمادهم على الزراعة وتربية الماشية

(١٢٢) يقصد قبة السيدة زمرد خاتون لكنها معروفة بقبة الست زبيدة.(من المترجم)، هامش ص ١٥٩

(١٢٣) يقع هذا الصحن أمام حرم الصلاة وقد قام اليهود بوضع الكتابات العبرية على مدخله القوطي الشكل بعد أن فرضوا سيطرتهم على المرقد قبل عام ١٨٦٠م

(١٢٤) وهي قبة مسننة الرأس كانت موجودة فوق حرم الصلاة مغلفة بكاشي ازرق اللون وقد أشار إليها الرحالة آينهولت الهولندي عام ١٨٦٧م في رحلته الى العراق، ص ٢٣١

(١٢٥) وهي نقوش نحتت على الفرشي كانت تزين حرم الصلاة قام اليهود برفعها واستبدالها بنقوش وزخارف يهودية وقد عثرنا على بعض منها أثناء صيانة حرم الصلاة عام ٢٠١٢

(١٢٦) ان للقبر الشريف بابان الأول وضع بعد عام ١٨٦٠ م والثاني بعد عام ١٩٢٠ م لان الوثائق التي بحوزتنا والمصادر التاريخية تشير الى ان الباب المقابل للباب الرئيسي كان محرابا - موضع صلاة الإمام علي - وقد تم رفع المحراب واستبدالها بباب وأما الباب الآخر فهو باب صغير تم وضعه بعد عام ١٩٢٠ م وهو مجاور لمدخل الباب المؤدي لباب الأصحاب او باب مقام سيدنا الخضر (عليه السلام)

(١٢٧) ان للقبر الشريف بابان الأول وضع بعد عام ١٨٦٠ م والثاني بعد عام ١٩٢٠ م لان الوثائق التي بحوزتنا والمصادر التاريخية تشير الى ان الباب المقابل للباب الرئيسي كان محرابا - موضع صلاة الإمام علي - وقد تم رفع المحراب واستبدالها بباب وأما الباب الآخر فهو باب صغير تم وضعه بعد عام ١٩٢٠ م وهو مجاور لمدخل الباب المؤدي لباب الأصحاب او باب مقام سيدنا الخضر (عليه السلام)

(١٢٨) قد أشار الرحالة الانكليزي لوفتس عام ١٨٥٤م ان طول القبر ١٠ اقدام وارتفاعه ٤ اقدام وهذا يعني ان طول القبر قد تغير خلال عشرة سنوات, ينظر: المصدر نفسه, ص ١٠٦

(١٢٩) وهو مأخوذ من قول رحلة بنيامين التطيلي.

(١٣٠) رحلة أوريبيون في العراق, ط١, شركة دار الوراق للنشر, بغداد, ٢٠٠٧, ص ١٥٩-١٦٠

(١٣١) يقصد بهم اليهود

(١٣٢) وقد أعتمد في قوله هذا - ان قولهم جدير بالثقة - لكثرة زائري اليهود للمرقد ولاحتمال أن من أخبروه هم من اليهود

(١٣٣) يقصد أن أمر صيانة المرقد كانت بيد اليهود وبأمر عثماني جائر وباطل وكانت مفاتيح المرقد بيد عائلة عربية متنفذة في الحكومة العثمانية أنظر: رحلة آينهولت إلى العراق عام ١٨٦٧ م, المصدر السابق, ص ٢٣٣

(١٣٤) وكان ذلك أيام الوالي مصطفى نوري باشا ١٨٦٠ م حيث أرسل لجنة إلى مدينة الكفل وقد أثبتت اللجنة وجود المسجد والمحراب والأعمال التخريبية التي قام بها اليهود في مسجد النخيلة التاريخي وقد قام اليهود ومن كل دول العالم بالتدخل ومفاتيح القنصليات الأجنبية لأجل حيازة وسدانة المرقد وبعد أن قدموا رشوة كبيرة إلى الوالي

مصطفى نوري باشا أستطاعوا غصب المرقد والمسجد وسحب التولية من المسلمين.
للمزيد ينظر:

The jews of arab lands “ a history and source book, p.p, 389-392.

(١٣٥) كيوم لجان، رحلتي الى العراق، ترجمة مير بصري، مطبعة الاعتماد، بغداد، ١٩٥٩، ص ١٢٨.

(١٣٦) مير بصري (١٩١١-١٩٧٢): أديب يكتب القصة والشعر من نتاجاته (رجال وظلال) و(أعلام السياسة في العراق الحديث). شغل منصب رئيس الطائفة اليهودية في العراق في الستينيات. ولد في بغداد في ١٩ / ٩ / ١٩١١م ودرس في مدرسة التعاون ثم الالينس وتخرج منها عام ١٩٢٨ م. غادر العراق في أوائل السبعينات إلى لندن وتوفي فيها للمزيد من التفاصيل ينظر: شامل عبد القادر، القاموس الموسوعي، ط١، مطبعة دار الحكمة، لندن، ٢٠١٢، ص ٢٧٨-٢٧٩

(١٣٧) رحلة آينهولت الهولندي إلى العراق، المصدر السابق، ص ٢٢٩ - ٢٣٣

(١٣٨) هذا المكان هو الآن مزار مشهور يعرف بأنه المحل الذي ولد فيه نبي الله إبراهيم الخليل (عليه السلام)

(١٣٩) هم الشرطة

(١٤٠) احد زعماء عشائر بني مالك تولى إدارة ناحية الكفل مرتين الأولى عام ١٨٧٣ وعام ١٨٧٨ بالإضافة إلى توليته على المرقد والمسجد. عماد عبد السلام رؤوف، الاسر الحاكمة في العراق ورجال الإدارة والقضاء في العراق في العهود المتأخرة ٦٥٦هـ - ١٣٣٧هـ / ١٢٥٨م - ١٩١٨م، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٩٢، ص ٣٧٣.

(١٤١) لقد وضع اليهود في بداية أعمالهم الترميمية لحرم الصلاة شريط كتابي باللغة العبرية من الجهة الشمالية. والعمارة القوطية هي مرحلة من العمارة الأوروبية التي تميزت بأشكال هيكليّة مميزة منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي إلى نحو عام ١٤٠٠ نشأ اسم قوطي مع متقفي النهضة الإيطالية المعروفين بالإنسانيين وينسب إلى قبائل القوط الجرمانية التي اجتاحت إيطاليا في القرن الخامس الميلادي.

وللمزيد ينظر: (www.marefa.org/index.phpw)

(١٤٢) كان لحرم الصلاة المجاور لضريح النبي ذي الكفل (عليه السلام) قبة مسننة ومغلقة بالكاشي الأزرق، وهذا خير دليل على أن هذا الحرم ليس كنيسا كما يدعي الكثير من الرحالة والمؤرخين واليهود لان الكنيس لا يحتوي على قبة مسننة ومغلقة بالكاشي

لان القباب من مكملات الطراز المعماري للمساجد والمراقد، وقد تم رفع القبة والسقف في أواخر القرن التاسع عشر او بداية القرن العشرين واستبدالها بقبب صغيرة شبيهة بقبب سوق مناحيم دانيال.

(١٤٣) أشار الى أعمدة حرم الصلاة الحالية

(١٤٤) وهو حرم الصلاة الملاصق لقبر نبي الله ذي الكفل (عليه السلام) اليوم. وهو عبارة عن قاعة مستطيلة يدخل اليها من باب في الجدار الشمالي لها حولها اليهود قبل عام ١٨٦٠ م الى محفل وكنيس لعبادتهم وقد طمسوا الكثير من معالم هذا الحرم وغيروا الكثير فيه فقد كان الحرم يحتوي على محراب ايلخاني المشهور انه الموضع الذي صلى فيه الامام علي (عليه السلام) عام ٣٦ هـ - للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد حرز الدين، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٤-٢٩٥

(١٤٥) بعد ان سيطر اليهود على قبر نبي الله ذي الكفل عام ١٨٦٠م اقتطعوا جزءا من الجهة الشرقية الجنوبية لحرم الصلاة بالبناء بالطابوق وجعلوه بمثابة مكتبة يحفظ فيها توراتهم وكتبهم المقدسة وذلك لاعتقادهم بان مرقد النبي ذي الكفل كان يحتوي على مكتبة ضخمة تحتوي على الكتب المقدسة واعتقادهم هذا جاء بناء على رواية الرحالة بنيامين التطيلي.

(١٤٦) أشار الى ضريح نبي الله ذي الكفل (عليه السلام)

(١٤٧) ما يعادل بالامتار ١٩٢، ١٢م

(١٤٨) كان لمسجد النخيلة منارة مجاورة لحرم الصلاة هدمها اليهود ضمن أعمالهم التخريبية لالغاء معالم المسجد وتهويد المدينة

(١٤٩) هو مصطفى نوري باشا الذي تولى ولاية العراق ١٨٥٩-١٨٦٠ م سنة واحدة تقريبا.

(١٥٠) لا أعرف من أين استدل الرحالة على أن البناء يبدو انه يعود الى زمن قبل الإسلام رغم وجود قبة مخروطة تعود الى مراحل إسلامية متلاحقة - العهد السلجوقي والمغولي - ومنارة طرزت بكتابات إسلامية تعود الى العهد الايلخاني ٧٠٣هـ - / ١٣٠٤م وعقود إسلامية ولا يوجد في البناء ما يدل على أنه يعود الى مرحلة ما قبل الإسلام، وأما أن اليهود يتعهدون بصيانتها فالغاية في نفوسهم معلومة وهي تغيير كل المعالم الاسلامية التي تعود الى العهد الايلخاني.

(١٥١) الكلدار: هذا التعبير هنا غير دقيق ولعل التسمية الصحيحة هي السادن.

(١٥٢) الطغار: اطلاق عرفي يطلق ويقصد به الطن ويساوي ١٠٠٠ كغم وهي وحدة قياس للوزن

- (١٥٣) تينكو ننهولت، المصدر السابق، ص ٢٣٤.
- (١٥٤) الكلك: واسطة نهريّة قديمة كانت تستخدم بكثرة، للمزيد من التفاصيل ينظر: طارق نافع الحمداني، ملامح سياسية واجتماعية من تاريخ العراق الحديث، بيروت و مطبعة الاعلمي، ١٩٨٩م، ص ١٢٠
- (١٥٥) سر وليس بدج، رحلات الى العراق، ترجمة: فواد جميل، ط١، ج٢، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٨، ص ١١
- (١٥٦) لم يقف الباحث على إشارة إلى هذا الدير في المصادر المتوفرة بين أيدينا
- (١٥٧) سر وليس بدج، المصدر السابق، ص ١٧٠

المصادر:

أولاً: الكتب العربية والمعرّبة.

١. ابراهيم سليمان العاملي، الاوزان والمقادير، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٢
٢. احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ط٧، المطبعة العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٩٠.
٣. احمد سوسة، ملامح من تاريخ يهود العراق، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٠.
٤. جعفر الصدوق، علل الشرائع، ج٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٤.
٥. حسن الجواهري، جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام، ج١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠١.
٦. شامل عبد القادر، القاموس الموسوعي، ط١، مطبعة دار الحكمة، لندن، ٢٠١٢.
٧. طارق نافع الحمداني، ملامح سياسية واجتماعية من تاريخ العراق الحديث، بيروت ومطبعة الأعلمي، ١٩٨٩.
٨. علي الكوراني، العراق بلد إبراهيم وآله (عليه السلام)، ط١، ق٢، مطبعة الوراق بغداد، ٢٠١٠.
٩. علي هادي عباس المهداوي، الحلة كما وصفها السواح الاجانب في العصر الحديث دراسة تاريخية تحليلية، مطبعة مكتبة الرياحين، بابل، ٢٠٠٥.
١٠. عماد عبد السلام رؤوف، الاسر الحاكمة في العراق ورجال الإدارة والقضاء في العراق في العهود المتأخرة ٦٥٦هـ - ١٣٣٧هـ / ١٢٥٨م - ١٩١٨م، بغداد، مطابع جامعة

بغداد، ١٩٩٢.

١١. عيسى سلمان وآخرون، مجموعة العمارات العربية الاسلامية في العراق، ج٢، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢.

١٢. محمد بن بكر الرازي، مختار الصحاح، مطبعة العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦.

١٣. محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ج ٩٩، ط٣، مطبعة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٣.

١٤. محمد حرز الدين، مرآة المعارف، ج١، مطبعة قلم، قم المقدسة، ٢٠٠٧.

١٥. محمد كامل حسين، طائفة الاسماعيلية تاريخها ونظمها وعقائدها، بغداد، مطبعة الوحدة، ١٩٥٩.

١٦. المكتب الهندسي الاستشاري العالمي، مشروع التجديد الحضري لمقر نبي الله ذي الكفل (عليه السلام) والمناطق المحيطة به، مطبعة دار السلام، بغداد، ٢٠١٤.

١٧. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد: ٧-٨، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨.

١٨. يوسف غنيمه، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط٣، مطبعة الفرات، بيروت، ٢٠٠٦.

ثانياً: كتب الرحلات:

١. بدرو تكسيرا، مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤، ملخصه عن الترجمة الانكليزية من قبل جعفر الخياط، الجزء ٤، السنة ١، مجلة الأقلام، ١٩٦٤.

٢. بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، ط١، مطبعة دار الوراق، بغداد، ٢٠١١.

٣. بيترو ديلافاليه، رحلة ديلافاليه، ترجمة: بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة، بغداد، ٢٠٠١.

٤. جان بابتيست تافرنيه، رحلة الفرنسي تافرنيه الى العراق في القرن السابع عشر سنة ١٦٧٦ م: ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس، الدار العربية، بيروت، ١٩٦٥.

٥. رحالة أوريبيون في العراق، ط١، شركة دار الوراق للنشر، بغداد، ٢٠٠٧.

٦. رحلة آينهولت الهولندي الى العراق، ترجمة: مير بصري، تحقيق وتقديم: طارق نافع الحمداني، ط١، مطبعة دار الوراق، بغداد، ٢٠١٢.

٧. سر وليس بدج، رحلات الى العراق، ترجمة: فواد جميل، ط١، ج٢، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٨.

٨. عزيز جفات الطرقي، مدن عراقية على ضفاف الفرات، ج٢، مطبعة: دار الصادق (عليه السلام) للطباعة والنشر، بابل، ٢٠١١.
٩. كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة الى العراق، ترجمة سالم الالوسي - سعاد هادي العمري، ط: الاولى مط: دار الوراق، ٢٠٠٩.
١٠. كيوم لجان، رحلتي الى العراق، ترجمة مير بصري، مطبعة الاعتماد، بغداد، ١٩٥٩.

ثالثاً: الرسائل والأطاريح.

١. هيثم محمود ابراهيم، الاحتيال في مقامات الحريري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة فنا، ٢٠١١.

رابعاً: الدوريات.

١. جواد مطر الموسوي، اوضاع اليهود في اسبانيا قبل الفتح الاسلامي، مجلة واسط للعلوم الانسانية، العدد (١٠)، ٢٠١٦.
٢. مجلة المشرق، السنة الثانية ١٨٩٩.
٣. محمد سعيد الطريحي، النبي حزقيال سيرته ومشهده في بابل، أكاديمية الكوفة في هولندا، مجلة الموسم، العددان (٢-٣)، امستردام، ١٩٨٩م.

خامساً: الكتب الاجنبية.

The jews of arab lands “ a history and source book.

Tombs of synagogues in babylonia, by ;Zvi Yehuda.

سادساً: مواقع الانترنت.

www.elmessiri.com/encyclopedit-takla.org

<https://www.linga.org/Bible-Names/Meaning>

www.elmessiri.com,

www.st-takla.org

www.marefa.org/index.phpw

البنية الخارجية لقصيدة المديح في شعر ابن بقي الاندلسي (٥٤٠هـ)

أ.م.د. ندى عسكر محمود

كلية التربية الأساسية

الجامعة المستنصرية

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه أجمعين.

ونحن في صدد بحثنا هذا، والذي نسعى في تحصيله بدقة ومعرفة وفهم، هو التعرف على الجانب البنائي الخارجي في قصيدة المديح في شعر ابن بقي الاندلسي (٤٦٣-٥٤٠هـ)، ومن هنا كان الاختيار للمنهج النقدي في دراسة قصيدة المديح في شعر ابن بقي والخاص بموضوع بحثنا هذا، والموسوم بـ(البناء الخارجي لقصيدة المديح في شعر ابن بقي الاندلسي (٥٤٠هـ))، والمعروف بـ: أبي بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الاندلسي القرطبي، وكان من أبرز وألمع شعراء عصره ((عصر الموحدين))، وعُرف بتمتعه بدرجة عالية من العلم والثقافة، إذ كان رجلاً مبرزاً في الوسط الادبي، وله مكانة عالية بين تلاميذه الذين كانوا يقلدونه في طريقته في النظم والتوشيح، فضلاً عن تمتعه بالفلسفة ومنهجه في الحياة السياسية.

وقد اقتضت طبيعة دراسة هذا البحث من الجانب النقدي التقصي والبحث في البناء الخارجي في قصيدة المديح في شعر ابن بقي الاندلسي، منطلقين من النصوص الشعرية الخاصة بنظمه للمديح، نحللها، ونقومها نقدياً، وبنائياً وعليه، فإن دراسة هذا البحث لا تُعنى بحياة الشاعر الشخصية وتفاصيلها وظروفها، وبحسب هذا المنهج قسمنا البحث على قسمين:

القسم الأول: تضمن دراسة البناء القصيدة المستقلة ذات الموضوع الواحد

وهو المديح، والتي تضمنت معاني والفاظ واساليب فنية في معالجة موضوع المديح للامراء والقضاة.

أما القسم الثاني: فقد احتوى دراسة مقدمة القصائد المدحية والمتضمنة لطبيعة المقدمات الغزلية المتصدرة لقصائد المديح في شعر المديح لدى ابن بقي الاندلسي.

فضلاً عن تضمن البحث، للخاتمة التي احتوت النتائج التي توصل اليها البحث.

توطئة:

يُعد المديح من ابرز الأغراض الشعرية التي لاقت رواجاً في مضمار الشعر العربي، والمدح (هو تعداد لجميل المزايا ووصف الشرائع الكريمة وإظهار التقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم مزايا وعرفوا بمثل هاتيك الشرائع) ^(١)، وافضل المدح (ما صدر عن صدق عاطفة وحقيقة واقعة) ^(٢)، ويتضمن المديح معان وصفات يسبغها المادح على الممدوح منها (العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة) ^(٣)، ويضيف ابن رشيح القيرواني، معاني أخرى، منها امكانية استحداث ما يعبر عن الصفات التي يختص بها ممدوح من دون آخر ^(٤)، وبذلك فسح المجال واسعاً أمام الشعراء في تناول معاني المدح بما يلائم الممدوح، ولم تختلف مدائح شعراء الاندلس عن مدائح ابناء جلدتهم في المشرق فكانت معانيهم تشتمل على، الكرم، والشجاعة، والتواضع، والهيبة، والصدق، والعدل..، واغلب تلك الاماديج تحمل المعاني نفسها، لغرض التقرب من الممدوح ونيل عطاياه وتجويد القول لذلك، وكثر شعر المديح في الاندلس، وقد خص الشعراء الاندلسيون ممدوحهم بقصائد رائعة، وقد يكون سبب ذلك، الى أنَّ

(١) فن المديح وتطوره في الشعر العربي: ٥.

(٢) المعجم المفصل في اللغة والادب: ١١٣٣.

(٣) نقد الشعر: ٢٠.

(٤) ينظر: العمدة: ١٣١/٢.

الشعراء ما زالوا متأثرين بالشعراء العرب، معبرين عن شعور العربي بأن في ممدوحه من الصفات ما يستحق الذكر فيمدحه بما فيه من صفات، وقد يمدحه ليد إحسان له عليه لا يستطيع أن يردها بغير الشعر^(١).

ويعد الشاعر ابن بقيّ الاندلسي من الشعراء الذين نظموا في فن المديح، وابدعوا فيه لأنه قضى زمناً طويلاً من عمره يسعى وراء الرزق وقد عاش فقيراً، نزل عند قضاة في مدن الاندلس، فأكرموا وفادته، وأغدقوا عليه المال فما كان منه إلا أن يرد لهم الجميل بالثناء عليهم، وبعطائهم ما جعل لسانه يلهج بمدحهم، وقد جاء غرض المديح في شعر ابن بقيّ الاندلسي على شكل قصائد طوال، مزجت مع أغراض أخرى، والتي عُرفت بالمقدمات الغزلية لقصائد المديح، فضلاً عن نظمه لمقطوعات مدحية في مدح الامراء والحكام، والقضاة، إلا أننا سوف ندرس البنية الخارجية الخاصة بقصيدة المديح في شعر ابن بقيّ والخاصة ضمن عنوان بحثنا هذا.

أ. القصيدة الشعرية:

القصيدة في الغالب هي ما زاد من الشعر العربي عن ستة أبيات متحدة في الوزن والقافية والروي^(٢)، وذكر القدماء (أنّ الشعر كله كان رجزاً وقطعاً)^(٣)، قبل أن نقصد القصائد ذات الموضوع الواحد التي تشكل خروجاً على شكل القصيدة المكتملة التي حدد ابن قتيبة عناصرها، وقد علل ابن رشيق قيام القصيدة ذات الموضوع الواحد بقوله (إنّ من الشعراء من يهجم على ما يرده مكافحة ويتناوله مصافحة)^(٤)، ويعد أن استقامت قواعد القصيدة القديمة حرص الشعراء الاندلسيون على التزام شروط القصيدة العربية وخصائصها في ما انتهجوه من شعر في الأغراض كافة ومنها الغزل، والمديح، والثناء... الخ، الذي استوت له قصائد ومقطعات ومقدمات غزلية.

(١) ينظر: في الادب الاندلسي موضوعات وقضايا: ٧٤-٧٥.

(٢) ينظر: معجم المصطلحات العربية: ١٦٢.

(٣) العمدة: ١٨٩/١.

(٤) العمدة: ٢٣١/١.

ومن ذلك نلاحظ الشكل البنائي ذو الموضوع الواحد في قصائد ابن بقي الاندلسي، الذي يختص النص الشعري فيه إطار موضوعي واحد لا يحيد عنه يتقلب في اعطاف باعث خاص ويعالج غرضاً شعرياً واحداً وهو المديح، ونجد أن هذا الشكل البنائي قد شاع في شعر ابن بقي الاندلسي، إذ جاءت معظم قصائده المستقلة في موضوع واحد وهو المديح، خاصة في مدح القضاة، وذلك بقوله في قصيدة له نظمها في مدح القاضي أحمد، وأخيه يحيى بن علي بن القاسم، والي مدينة بلنسية، ثم قرطبة، واصفاً شجاعته وبطولاته ضد الافرنج، فضلاً عن وصفه لممدوحيه هذين، بأنهما نوران لا يحجبان عن الناس، لأنهما يتحليان بالكرم، والجود، والثناء بهما ويعطاءهما المنتشر في كل مكان كدخان المجرم^(١):

نوران ليسا يحجبان عن الوري	كرم الطباع ولا جمال المنظر
وكلاهما جُمعاً ليحيى فليدع	كتمان نور علائه المتشهر
في كل أفق من جميل ثنائه	عرق يزيد على دخان المجر
رُد في شمائله ورد في جوده	بين الحديقة والغمام الممطر
نذب عليه من الوقار سكينه	فيها حفيظة كل ليث مخدر
مثل الحسام إذا انطوى في غمده	ألقى المهانة في نفوس الحضر
أربى على الغيث المثلث لانه	أعطى كما أعطى ولم يستعير

ويتابع الشاعر ابن بقي الاندلسي في أبيات قصيدته المدحية هذه، والتي بلغت ثلاثة عشر بيتاً، في مدح الاخوين بقوله^(٢):

أزرى على البحر الخضم لانه	في كل كف منه خمسة أبحر
أقبلت مرتاداً لجودك إنه	صوب الغمامة بل زلال الكوثر
يجري إليك بناسفين أتلع	مثل البعير مُحرم في المنخر

وهنا يشبه الشاعر ابن بقي ممدوحه بالبحر الذي لا ينضب عطاءاته، ويشبّهه بالغمامة التي تحمل الخير للأرض والبرية، فهو يثني عليه بكرمه وجوده،

(١) ديوانه: ٨٧.

(٢) ديوانه: ٨٧-٨٨.

لأنه أكرمه واجاد عليه، ويشبّهه بالنهر الكوثر، إشارة في ذلك الى سورة الكوثر، لما لهذا النهر من مكانة، وهذا يتجسد لنا واضحاً تأثر الشاعر ابن بقي بالطبيعة الاندلسية، فجلاً صورة استوحاها منها، فهي التي أرهقت حسه، ورققت مفرداته والفاظه لتخرج معبرة عن صدق مشاعره تجاه الممدوح، وهنا لم يعد الموضوع الجليل بحاجة الى تهديد، من نسيب أو شكوى، أو غزل، واخذ الشاعر ابن بقي يهجم على موضوعه بثقة كبيرة وبصورة مباشرة ويصافح موضوع المدح مصافحة.

ومن ذلك قوله وهو يصف واقعة حرب حصلت مع الاعلاج وهم الغرب، الذين سبوا النساء، ومزقوا الحرمات، ولكن لما رأوا الممدوح وكان الموت محتدماً في ساحة المعركة، لكن كان موعدهم مع الهلاك والموت قدر لا قرار منه، ففضى على الاعداء، وابتردت الارواح، وأخذ الثأر من العدو، فضلاً عن وصف الشاعر ابن بقي، سيوف الحرب وجيوشه وخيله، وشجاعة ذلك الجيش المنذر لعدوه بالموت والهلاك، في ساحة أرض المعركة تلك المدينة المدنية الاندلسية قلمرية^(١):

صَبَحْتُ كُلَّ حَرِيمٍ فِي قَلْمَرِيَّةٍ	بَغَارَةٍ أَنْتَ فِيهَا الْفَارِسُ النَّجْدُ
بُسَّ الصَّبَاحُ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ بِهَا	وَنَعِمَ غَزُو أَمِيرٍ أَمْرُهُ رَشْدُ
لَهَا الصَّفَايَا مَعَ الْمَرْبَاعِ مِنْ نَقْلِ	فِي طَيْهِ سَيِّدُ الْكُفَّارِ وَالْبَلْدُ
قَالُوا: ظُبَاءٌ أَقْبَلَتْ سَنَحاً	إِلَى خُمَائِلٍ تَرْعَاهُنَّ أَوْ تَرْدُ
تِلْكَ الظُّبَاءُ الْخَيْلُ دُونَكُمْ	نَهْدٌ وَوَرْدٌ وَذِيَالٌ وَمَتَجَرْدُ
مِنْ كُلِّ سَابِجَةٍ طَارَتْ بِفَارِسِهَا	كَأَنَّهَا لِقُوَّةٍ فِي عَظْفِهَا أَسْدُ
يَسْبِيهِمُ الْجَيْشُ مَا أَمْتَدَّتْ أَعْنَتُهُ	كَالنَّارِ تَوْسَعُ حَرْقاً كُلَّ مَا تَجْدُ
فَكَانَتْ الْخَيْلُ تَطْمَاهُمْ دَوَاهِمَهُ	وَالْمَشْرِفِيُّ تَلْقَاهُمْ فَتَنْتَقِدُ

وهنا نلاحظ أن مدح الشاعر ابن بقي هو شعر أو مدحٌ غيري، نظمه للقضاة والامراء في عصره، فكان غرضه المديح في قصائده المدحية مدحاً لم

(١) ديوانه: ٨٣-٨٤.

يخرج به عن اي موضوع آخر , وانصب اهتمامه للحديث عن غزوة الامير وجيوشه وشجاعتهم ضد العدو الافرنجي, فهنئ بذلك ممدوحه وجيوشه, حتى بلغت ابيات قصيدته المدحية هذه خمسة عشر بيتاً, مجسداً قدرته في تصوير تلك المواقف والاحداث والمعارك الى المتلقي بصورة لا تجعلها تفقد حيويتها, ولا تخل بما يريد الشاعر أن يوصله الى المتلقي باستخدامه اسلوب الحوار القصصي, قالوا: طباءً أقبلت...., واساليب التشبيه, كأنها لقوة في عطفها أسدُ وقوله (١):

صلّوا الى سيفك المسلول وانحرفوا	عن الصليب الذي بقاءه سجدوا
يوماً من القيظ يسودُ السلام به	كأن كلّ كلام فيه مُفتادُ
وقاض سيفك نهراً في ظهرته	فأقبلت الارواحُ تبتردُ

والقصيدة هذه في غاية السبك وحسن البيان, والتي جسدت على اخلاق العرب من الديانة والشهامة وصدق العزيمة وعزة النفس, والشجاعة والتباهي بالنصر ووصف الخيول والجيوش واجواء المعارك, وقد أبدع الشاعر ابن بقي الاندلسي في تجسيده لهذه المعاني والاساليب في قصيدة مديح أخرى, وهو يمدح جيش المسلمين ويهجو النصارى الروم, مؤكداً قدرته على اعطاء موضوع المديح هذا القدر والمكانة من الاهتمام والعناية والدقة والبراعة في الوصف, وهو يصف معارك الخليفة وتصديه لجيوش الروم, والفخر بشجاعة الجيش العربي, والتباهي بالنصر للعربية واصفاً اجواء المعركة بقوله (٢):

أقبلت بالجيش ملموماً كتائبه	كأنك البدرُ تحت العارض الهطل
في فتيه كسيوف الهندٍ أنحلهم	حبُّ الصوارم والخطيئة الذبل
وتيمّموا بعيونٍ غير فاترةٍ	من الاسنة لم تهجّع مع المُقل
إن لا تكن أعيناً نجلاً فإنّ لها	في أضلع القوم مثلُ الاعين النجل
تري السماء دُخاناً مثلما خلقت	والارض قد شرقت بالخيّل والابل

(١) المصدر نفسه: ٨٤.

(٢) ديوانه: ٩٨.

تمشي بها الخيل لا جرد مطهمة مشي الكواعب في حلي وفي حلل

ونلاحظ الشاعر هنا وهو مستمر في وصف انفعاله وقوته ودقته في نظم ابیات قصيدته المدحية هذه والتي بلغت عشرة ابیات فقط، مجسداً في ضوءها استجابة سريعة ودقيقة في الوقت نفسه لما أعتل في نفسه من شعور نفسي وانفعالي هاجماً على موضوعه المدحي بثقة كبيرة بوصفه الخيل والسيوف والجيش واجواء الحرب بقوله ^(١):

أقبلت بالجيش ملموماً كتائبه	كأنك البدر تحت العارض الهطل
في قتية كسيوف الهند أنحلهم	حب الصوارم والخطيئة الذبل
وتيمؤا بعيون غير فاترة	من لا سنة لم نهج مع المقل
إن لا تكن أعيناً نجلاً فإن لها	في أضلع القوم مثل الاعين النجل
تري السماء دُخاناً مثلما خلقت	والارض قد شرقت بالخيّل والابل
تمشي بها الخيل لا جرد مطهمة	مشي الكواعب في حلي وفي حلل

ونلاحظ الشاعر هنا وهو مستمر في وصف انفعاله وقوته ودقته في نظم ابیات قصيدته المدحية هذه والتي بلغت عشرة ابیات فقط، مجسداً في ضوءها استجابة سريعة ودقيقة في الوقت نفسه لما اعتل في نفسه من شعور نفسي وانفعالي هاجماً على موضوعه المدحي بثقة كبيرة بوصفه الخيل والسيوف والجيش واجواء الحرب بقوله ^(٢):

من كل مضطمر الكشحين حافره	أحق من مبسم الحسناء بالقبل
يا معشر الروم قد شالت نعمتكم	إما من الحين أو من شدة الفشل
لم يكسكم من ثياب الخزي اسبغها	إلا أتقاؤكم للصدر بالكفل

وامتزاج الفاظ المديح بألفاظ الطبيعة والغزل والهجاء واضح جداً في ابیات قصيدته المدحية هذه، مما يدل على براعة ابن بقي الاندلسي في تنوع الفاظه واساليبه مع محافظته على الفاظ ومفردات عربية حملها معه من بيئته المشرقية

(١) ديوانه: ٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ٩٨-٩٩.

ومزجها بما توارثه من بيئة الاندلس التي اسهمت في رقي احساسه وشفافة مفرداته ومعانيها، مجسداً في الوقت نفسه عمق مشاعره واحاسيسه وطريقته الفنية وهو يمدح ضمن نظمه لقصيدة المدح مجدداً في اسلوبه والفاظه فضلاً عن ابرازه لملامح الشخصية الاندلسية في قصيدته الشعرية المدحية، المتجسدة بلامح البيئة الاندلسية الجميلة.

ب. المقدمة الغزلية:

يُعد الغزل من اقدم الفنون الشعرية عند العرب، واكثرها شيوعاً لاتصاله الوثيق بالطبيعة الانسانية فـ(الحب او محاولة الحب لغة عالمية، وميل فطري في كل بيئة)^(١)، هذا الفن الذي يُعبر فيه الشاعر عن تجاربه الذاتية بصدق عاطفي وحرارة وجدان، كان له صدى كبير في الاندلس، وساعدت عوامل عديدة على ذبوعه وانتشاره فبيئة الاندلس (اغنى بقاع المسلمين منظراً واوفرها جمالاً)^(٢)، فضلاً عما تتمتع به من انفتاح اجتماعي تُضاف اليه الحرية التي تتمتع بها المرأة في المجتمع الاندلسي، كان له الاثر الواضح في انتشار الغزل.

ولقد اهتم العرب ببناء القصيدة من مطلع وحسن تخلص والمقدمات الغزلية والطللية بصورة خاصة وبنائها، ومنهم ابن قتيبة ومحاويلته في ايجاد رابطة فنية بين اجزاء القصيدة في صورتها التي استقرت والشاعر عند ابن رشيق لم يقف على الديار (إلا لتتخذ من ذلك وسيلة لذكر اهلها والحديث عنهم وهذا الحديث له وظيفة عند الشاعر إذ يتخذ منه اداة لجذب الانتباه واستمالة القلوب لما جيلت عليه النفوس من التعلق بالغزل والتأثر به)^(٣)، وذلك في قول ابن قتيبة: (إن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها يذكر الديار والد من والاثر فبكي، وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الطاعنين منها.... ثم وصل ذلك بالتسبيب فشكا شدة الوجد والم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه، وليستدعي بث اصغاء الاسماع اليه، لان التشبيب

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري: ٥٠.

(٢) الادب العربي في الاندلس: ١٦٩.

(٣) القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي: ٢٣.

قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل والفت النساء فإذا علم انه استوثق من الاصغاء اليه... شكا النصيب والسهر... بدأ في المديح...^(١)، وهذا الانتقال من الغزل الى المديح الذي تجسد في المقدمات الغزلية قد سمي (المخلص)^(٢)، وسماه النقاد تخلصاً وخروجاً وتوسلاً^(٣)، وحسن الخروج عند ابن رشيق ان يخرج الشاعر من نسيب الى مدح او غيره بلطف تحيل... وقد استحسن منه، ما كان الانتقال فيه من المقدمة الى الغرض لطيفاً: يحسن فيه الشاعر الخروج من الموضوع السابق والدخول في الموضوع اللاحق برابط معنوي متين^(٤)، ونجد اهتمام النقاد قد انصب على التخلص من المقدمة الى الغرض الرئيس (يبدو ان الانتقال الى الموضوع الرئيس هو الثقة المعنوية الابرز بين تلك الموضوعات)^(٥).

هكذا كان الحال للقصيدة العربية وقد حوت اغراضاً متعددة من وقوف على الاطلال والنسيب والغزل ووصف الناقة والرحلة ومن ثم المدح والثناء وشكوى الزمن والحكم والفخر بالامجاد العربية، وفي الاندلس الفأن بعض شعراء الاندلس لم يتخلصوا نهائياً من التقاليد الموروثة فتعددت الموضوعات في القصيدة الواحدة^(٦).

ومن هذا المنطلق فقد انقسمت القصيدة الاندلسية على قسمين: قسم ذاتي يعبر عنه الشاعر عن احساسه ومشاعره، ويتحدث عن نفسه ويصور فيه عواطفه وانفعالاته، والشاعر الاندلسي في هذا القسم يحاول اثبات وجوده متجسداً بذلك المقدمات الغزلية، اذا اعتاد الشعراء أن يفتتحوا مدائحهم بالغزل، وهو منهج تقليدي معروف منذ القدم، وقد بقي في الاندلس، لكنه تطور فابتكر وسائل جديدة

(١) الشعر والشعراء: ٧٤/١-٧٦.

(٢) ينظر: القصيدة الاندلسية: ١٦٤/٢.

(٣) ينظر: العمدة: ١٣٦/١، ٢٣٤.

(٤) ينظر: العمدة: ٢٣٤/١. وينظر: القصيدة الاندلسية: ١٤٦/٢.

(٥) القصيدة الاندلسية: ١٦٥/٢.

(٦) الادب العربي في الاندلس وتطوره: ٣٥٨.

للوصول الى قلوب الممدوحين، ومنها ما تصدر بمقدمات وموضوعات غزلية، ولذا كانت غاية الشعر عند الشعراء في الاندلس ان يصل الى مستوى الغزل، وإذا كانت مقدمة النسيب تحقق تلك الغاية النفسية للشاعر فانها تحقق ذات الغاية للمتلقى ايضاً فهو الى أن يستمع الى النسيب أميل منها الى سماع المدح، الذي جسده القسم الثاني، الغيري، في تضمنه المديح أو الفخر والحماسة وغيرها، وقد اشتد الشوق عليه وهيجته تحركهم ورحيلهم، وكأن الايام طمست معالم ديارهم بالرياح الساقية والامطار الهاطلة، وذكره (السلمى) ذلك الاسم التقليدي المشرقي الذي ترمز به المرأة والشوق والحنين لديارها في المقدمات الغزلية الشرقية - والاندلسية، منها خاصة، واصفاً حاله وانتظاره، في البرد، والحر، مجسداً في الوقت نفسه ابداعه وقدرته في مزج الفاظ الغزل بألفاظ الطبيعة الساحرة، مشبهاً بالكواكب - الفتيات الجميلات - وليلة اللامعة في طلالها النجوم ويشع فيها القمر بنوره، بالزنجية السوداء، تلك ظلمات الليل التي يمكن تحديد معالم الارض برصد النجوم وتحديد زوايا سمعتها ومكان وموضع رحيل الاحية، فضلاً عن قدرة ابن بقي وفنية نصه الشعري وهو يمزج الفاظ الغزل بألفاظ الحرب والسيوف، مشبهاً الفتيات الجميلات وبياضها، ببيض السيوف، وقد احتمل ما يقاسيه من أثر السيوف البتارة، بما احتمله من جراح العيون الجميلة اللامعة بقوله^(١):

هلا خببت الى ربع أقيمت به	مع الكواكب في تحرير أذيال
وكم قضبت مع الحسناء في أرب	والدهر قد نام عنا نوم إغفال
تصمنا حيث لا يدري الرقيب بنا	زنجية بالدراري جيدها حالي
كأنما البدر إذ عم البلاد سنا	ملك تطلع من إيوانه العالي
فرقعة الارض قد أبدت مساحتها	شهب أفاضت زوايا بأشكال

ومن هنا نجد الشاعر ابن بقي الاندلسي وقد افتتح قصيدة له في مدح الفقيه ابي بكر يحيى بن علي بن عمر، بمقدمة غزلية، مجسداً أهمية الاستهلال بالمقدمة الغزلية والنسيب، في ذكر فضائل الممدوح وسمو اخلاقه وعزة نفسه وصبره وتجلده على نوائب الدهر والحلم والكرم، مجسداً في الوقت نفسه قدرته في

(١) ديوانه: ١٠٣-١٠٤.

نظمه لتلك المقدمات وطول نفسه في قصيدة بلغت ثمانية وخمسين بيتاً، ثمانية عشر منها تضمنته المقدمة الغزلية تلك بقوله^(١):

منازلُ لك يا سلمى بذى ضالٍ	هيجن لاعج او صابي ولبالي
تعاقرتها الليالي بعد قاطنِها	بما حيين لها: ساق وهطال
هَنْ المنازلُ قد أودت معالمها	وبدلْتُ من برودِ سحقِ أسمالِ
وإن عهدت بها الارامُ كافة	لله ما هاجني رسمها البالي
كالوشم في اذرع كالوحي في صحفٍ	كالحبل في خللِ أفصت لاجلالِ
لم يبق مما يهيجُ الشوق باقية	الا تلوم عشاق بأطلالِ
حقا سلوت ولم تحفظ عهدهم	وانما ذاك فعلُ الخائن السالي

في هذا النص الشعري المتضمن المقدمة الغزلية في مدح الخليفة والفقير أبي بكر، إذ ألقت زخماً عاطفياً يحس القارئ معه، بخضوع الشاعر لتجربة شعرية عاطفية، وليس مجرد محاكاة وتقليد الاوائل في طبيعة بناء تركيبه الشعري، إذ نجد ملامح التقليد ومظاهر الابداع والتجديد معاً، واصفاً وقوفه على اطلال وديار الاحبة بقوله^(٢):

ليت الغزال الذي وافى المساء به	كانت إقامته من غير ترحالٍ
وليت مكتوبة الظماء ما محيت	له بماءٍ من الاشباح سيالٍ
يا مشفقاً من سقام كنت ألبسه	أنا جنيثٌ على نفسي وأولى لي
هي الصبابة إلا أنها مرضٌ	لاقرب الله منه يوم إبلالي
بيض الكواعب لابيض القواضب لي	فمن لصب مشوقٍ رهن بلبالٍ
دع الكماة لدى الهيجاء بينهم	رجم الاسنة وارجمني بخلخالٍ

وهنا نلاحظ التأملات والحسرات، ومعاني النسيب والشوق والحنين، مجسداً سعة نفسه، والدقة والابداع، والتجديد في الغوص بمعاني ابدياته الغزلية، وبعدها يدخل الشاعر ابن بقي لغرضه الرئيس وهو مدح الفقيه أبي بكر يحيى بن علي،

(١) المصدر نفسه: ١٠٣.

(٢) ديوانه: ١١٤.

في سبعة وثلاثين بيتاً.

ونرى في ضوء قراءة البنية الخارجية لقصيدة المديح في شعر ابن بقي الاندلسي، وقد نظم ثلاث مقدمات غزلية فقط، وقد تصدرت مقدماته تلك لقصائد المديح ضمن ديوانه الشعري.

وفي مقدمة غزلية وقد تصدرت قصيدة للشاعر ابن بقي الاندلسي، وهو يمدح قاضٍ، وقد امتزجت الفاظه الغزلية متأثراً بالفاظ ومعان مشرفية، مازجاً إياها بما توارثه من بيئة الاندلس التي اسهمت في رقي إحساسه وشفافة مفرداته ومعانيها، واصفاً الشوق والشكوى وسقم الفراق، وكيف مزج بين الفاظ الغزل والنسيب، بالفاظ الطبيعة والحرب^(١):

إذا ما غرأب الليل مد جناحه	علي وغطاني بريش قوادم
تقلب في طي الجناح لعلي	أرى الصبح يبدو من خلال القوادم
إلى الله اشكوها نوى أجنبيّة	لها من اببها الدهر شيمة ظالم
سلا كلّ مشتاق برؤية إلفه	وكان عليّ الشوق ضربّة لازم
إذا جاش صدر الارض بين كنت منجداً	وإن لم يجش بي كنت بين التهام

أم الظلم محمولٌ عليّ لانني	طلبتُ الغلا من قبل حلّ التمام
ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها	على عربي ضاع بين أعاجم

وقد بلغت مقدمته الغزلية هذه عشرة ابيات، انتقل بعدها الشاعر ابن بقي في مدح القاضي في سبعة وعشرين بيتاً، واصفاً في ضوءها مدى صدق المشاعر تجاه ممدوحه فهو يقول: إن العلا والمجد اللذين وصل اليهما القاضي لم يأتيا في ليلة وضحاها، انما ورثهما عن اجداده العرب الذين قضوا شنيئاً للوصول الى هذا المجد والحفاظ عليه نافياً استطاعة الحاسد الوصول الى ما

(١) ديوانه: ١١٤.

وصل اليه من عز ومجد، لانه لا يعلم سر هذا المجد بقوله (١):

ورثت العلا من قلب ابنة وائل تلاحاً لها من عهدا المتقادم
وأنى يُجارىكم الى المجد حاسدٌ جهولٌ بأسرار الغلا غير عالم

ونجد الشاعر ابن بقي الاندلسي وقد افتتح قصيدة له في المديح، بمقدمة غزلية قصيرة لم تتجاوز الخمسة ابيات، اعتقاداً منه ان البديل الافضل من الاستهلال بالغزل في هذه القصيدة، هو ذكر فضائل الممدوح، وكرمه وجوده وحسن جواره، وهذا عنده أولى من النسيب، مجسداً أهمية فضائل وصفات الممدوح عنده والفخر بنسبه واجداده وقد بدأ قصيدته في المدح بمقدمة غزلية بقوله (٢):

غُلقتُها من ربرب العفر لكنها عربية النجر
لا تلتمحها رُبما سلبت منك الفؤاد وانت لا تدري
واذهب بشأنك إن مقتلها سقيت ببابل قهوة السحر
سل بالعيون فتى أصيب بها مثلي لتعلم صحة الامر
هـن السيوف من الردى طبعت تيري القلوب وقلما تيري

وهنا نلاحظ قدرته في المزج بين الفاظ المديح والحرب وبين الفاظ الغزل ومعانيه، منتقلاً بعدها الى مدح الخليفة في سبعة ابيات ضمن قصيدته احتوت اثنتا عشرة بيتاً.

ولا عجب أن نرى أن الشاعر ابن بقي الاندلسي وهو يقصر من استعماله لمقدماته الغزلية والتي بلغت ثلاث مقدمات غزلية فقط تصدرت قصائد المديح لديه ضمن ديوانه الشعري، فضلاً عن نظمه ثلاث قصائد مدحية للامراء والقضاة، مجسداً البنية الخارجية لطبيعة ومضمون وهيكلية القصيدة المدحية في شعره، فضلاً عن نظمه لمقطوعات مدحية التي لم يخل ديوانه الشعري منها، وبهذا يكون المديح في شعر ابن بقي الاندلسي لقلته، في المرتبة الثانية بعد شعر

(١) المصدر نفسه: ١١٦.

(٢) ديوانه: ٨٩.

الغزل الذي تصدر ديوانه الشعري والوصف والفخر والخمريات.

الخاتمة:

وهنا نصل الى نهاية مسيرتنا البحثية مع الشاعر ابي بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الاندلسي، وبعد الدراسة والبحث استطعنا الوصول الى نتائج مرضية ومقنعة ألا وهي:

في ضوء دراستنا لموضوع البحث (البناء الخارجي لقصيدة المديح في شعر ابن بقي الاندلسي) فقد شهد عدداً قليلاً من قصائد المديح المستقل ذات الموضوع الواحد في مدح الامراء والقضاة والخلفاء، فضلاً عن قلة المقدمات الغزلية المتصدرة لقصائد المديح ضمن اطار البنية الخارجية لقصيدة المديح في شعره، فقد احتوى مديحه ثلاث قصائد مستقلة بموضوع المديح، فضلاً عن مقدمات غزلية ثلاث متصدرة قصائد المديح، ظهرت فيها شخصية الشاعر واضحة، ومتشخصة عمله الفني ونصوصه الشعرية المدحية، متأثراً بالبيئة الاندلسية، والبيئة المشرقية بألفاظها ومعانيها في الوقت نفسه، مجسداً قدرته وابداعه وتجديده في مزجه لألفاظ الحرب والسيوف والمعارك، بألفاظ الغزل والطبيعة والتي احتوتها مقدماته الغزلية المتصدرة لقصائده في مدح الامراء والقضاة خاصة، معبراً في تلك المقدمات عن مشاعر الحب والحنين والشوق بأسلوب تقليدي مستعملاً لاسم (سلمى) في احدى مقدماته الغزلية، مطوعاً رمز المرأة لاستنهاض المشاعر والاحاسيس.

قائمة المصادر والمراجع

١. اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، د. يوسف بكار، دار المناهل للطباعة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.
٢. الادب العربي في الاندلس وتطوره وموضوعاته وأشهر اعلامه، على محمد سلامة، الطبعة الاولى، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩م.
٣. ديوان ابن بقي الاندلسي (٤٦٣-٥٤٠هـ) جمعاً ودراسة، اعداد انتصار خضر الدنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٩٧١م.
٤. الشعر والشعراء، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤م.

٥. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ونقده، تأليف ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، حققه وعلق عليه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.
٦. فن المديح وتطوره في الشعر العربي، احمد ابو حاقه، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، د. ط، د. ت.
٧. في الادب الاندلسي موضوعات وقضايا، د. خليل محمد ابراهيم، اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، الطبعة الاولى، ٢٠١٧م.
٨. القصيدة الاندلسية خلال القرن الثامن الهجري، الطواهر والقضايا والابنية، د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الاسلامية، الطبعة الاولى، ١٩٩٦م.
٩. القيم المستحدثة في الشعر العباسي من بشار الى ابن المعتز، توفيق الفيل، مطبعة ذات السلاسل، ١٩٨٤م.
١٠. معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩م.
١١. المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، د. اميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة اولى، ١٩٩١م.
١٢. نقد الشعر، ابو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، الطبعة الاولى، القاهرة، ١٩٧٨م.

List of sources and references

1. Spinning trends in the second century AH, d. Youssef Bakkar, Dar Al-Manahil for printing, second edition, 2009 AD.
2. Arab literature in Andalusia, its development, its topics and its most famous flags, Ali Muhammad Salama, first edition, Arab House of Encyclopedias, 1989 AD.
3. The poetry of Ibn Baqi Al-Andalusi (463-540AH), collection and study, prepared by Intisar Khader Al-Danan, Dar Al-Kotob Al-Alami, Beirut, Lebanon, first edition, 1971
4. Poetry and Poets, Abu Muhammad Abdullah Ibn Muslim Ibn Qutaybah Al-Dniouri (276 AH), House of Culture, Beirut, 1964 AD.
5. Al-Umda in the Beauties of Poetry, Literature, and Criticism, authored by Ibn Rashid al-Qayrawani (456 AH).
6. Praise Art and its Development in Arabic Poetry, Ahmad Abu Haqa, Dar Al Sharq Al Jadid Publications, Beirut, d.

7. In Andalusian literature and topics, d. Khalil Muhammad Ibrahim, issued by the General Union of Authors and Writers in Iraq, first edition, 2017.
8. The New Values in Abbasid Poetry from Bashar to Ibn Al-Mu'taz, Tawfiq Al-Fil, That Al-Salasil Press, 1984
9. Andalusian poem during the eighth century AH, phenomena, issues and buildings, d. Abdul Hamid Abdullah Al-Haramah, College of Islamic Call, First Edition, 1996 AD.
10. A detailed dictionary of performances, rhyme and poetry arts, d. Emile Yaqoub, House of Scientific Books, Beirut, first edition, 1991 AD.
11. Dictionary of Arabic Terms in Language and Literature, Magdy Wahba, Kamel Al-Muhandis, Lebanon Library, Beirut, 1979 AD.
12. Criticism of poetry, Abu al-Faraj Qudamah bin Jaafar (d. 37 AH), edited by: Kamal Mustafa, first edition, Cairo, 1978 AD.

دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع الشائعات انموذجا

أ.د. عبد العزيز حسين محمد

وكيل المعهد العالي للخدمة الاجتماعية
بورسعيد - مصر

أ.د. مهدي محمد القصاص

عميد المعهد العالي للخدمة الاجتماعية
بورسعيد - مصر

أولاً: مدخل إلى مشكلة البحث:

يعد الوعي الاجتماعي أحد أكثر الآليات المجتمعية المطلوب استحضارها لمواجهة أحد أخطر الحروب المدمرة للمجتمعات في القرن الحادي والعشرين وهي حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات حيث إن المضاد الأقوى لهذه الحروب هو الوعي الاجتماعي القائم على المعرفة والفهم والسلوك السوي والشمول لكافة جوانب الحياة المجتمعية الفاعلة في بناء الإنسان الواعي والقادر على مواجهة مخاطر تلك الحروب وما تنطوي عليه من شائعات والتي من شأنها في غياب الوعي الاجتماعي للمجتمع أن تدمر المجتمع وتحقق أهداف أعداءه.

حيث يعتبر موضوع الوعي الاجتماعي من الموضوعات السوسيولوجية ذات الأهمية القصوى في حياة الأفراد والمجتمعات على السواء؛ فهو يلعب دوراً هاماً في التطور الاجتماعي (<http://www.anfasse.org>) ومن ثم فعلى إدراك أهمية الوعي وبناءه؛ لأننا بهذا ننظر إلى غد أفضل، حيث إن المشاركة الفعلية تبدأ من الاهتمام ببناء الوعي وهو الفهم والإدراك السليم ويأتي هذا من نشر المعرفة والخبرات الحياتية، وكذلك أعمال العقل وبالتالي نجد أننا أمام عملية عقلية يستطيع خلالها الإنسان أن يفهم ويدرك بشكل سليم ليحل ويقارن لاتخاذ القرار السليم، هذا بالإضافة إلى أن الوعي هو حائط الصد أمام أي أفكار متطرفة أو سلوكيات منحرفة وبالتالي الرهان على الوعي (<http://gate.ahram.org.eg>).

وتعتبر حروب الجيل الرابع من أشكال التمرد المتطورة، وفيه تستغل كل

الشبكات المتاحة لمهاجمة عقول صناع القرار وتحطيم الارادة السياسية ومن ثم هزيمة الدولة وانتشار الفوضى كبديل لوجود الدولة (Shantanu,2010,P:66) وهي حروب تحركها العديد من الدوافع كالدوافع الايدولوجية أو الدينية أو الانتقامية أو السلطوية (Rialize,2010,P:52) ويمتد أثر حروب الجيل الرابع ليصل إلى افشال الدولة من خلال صناعة الازمات المؤدية إلى تدمير النظام العام للدولة ومعه ارادة الشعب وفقد الثقة المتبادل ومن ثم انهيار الدولة نظاما وانحلالها اخلاقا مع الارتباك والتخبط وفقد الثقة من الجميع في الجميع ومن ثم الوقوع في المجهول الذي لا يكاد ينتهي ليبدأ من جديد في سلسلة من الضياع لا تُعرف لها نهاية .

وحروب الجيل الرابع بدأت منذ عام (٢٠١١) في بث التفرقة بين الشعوب ومؤسسات الدول المستهدفة والسعي لنشر الفوضى الخلاقة داخل الدولة نفسها من خلال إنهاك مؤسساتها والسعي لتحطيم اقتصادها مستغلين بذلك الانفلات الأمني الناتج عن ثورات الربيع العربي، ثم سقوطها، ثم تقسيمها على نحو عرقي طائفي (زايد، ٢٠١٩، ص: ٣٤٣٧) .

من أجل ذلك فقد اعتمدت حروب الجيل الرابع على الشائعات كأسلحة اجتماعية قادرة على تحقيق الغرض الذي تسعى اليه تلك الحروب ومن ثم فقد استخدمت لها منصات اطلاق تسمح بوصول الطلقات المدمرة للهدف بهدوء وفي لحظات الاسترخاء وغياب الوعي الاجتماعي أو على الاقل ضعفه وعدم يقظته المطلوبة كمضاد اجتماعي للشائعات .

وتعتبر الشائعات التي تقوم عليها حروب الجيل الرابع من الاسلحة الاجتماعية الفتاكة التي لا يقل خطرها عن الاسلحة الاخرى المدمرة للاخضر واليابس بل تفوقها في كثير من الاحيان لانها تتسلل إلى العقول في هدوء يشبه لعبة ابليس مع البشر حيث تلعب بالعقول عن طريق اثاره الشك والفتن والتخلي عن الثوابت من اخلاق وقيم وانتماء ووطنية ومبادئ انسانية ليظهر العقل الجمعي الفاسد المستعد للاستخدام من قبل الاعداء صانعي الشائعات لتحقيق اغراضهم التي تتضمن اثاره الفوضى والانحلال والانقسام والتفتت والضعف

والانشغال بكل شيء غير العلم والتقدم والوحدة والتماسك والرقى والنجاح والازدهار ليحل مكان ذلك كل شر يريده الاعداء سواء عرفناهم أم لم نعرفهم لا فرق طالما كانت النتيجة واحدة وهي تحقيق الشائعات اغراضها المدمرة للمجتمع .

وتعد الشائعات من الظواهر العالمية التي تهدد أمن واستقرار الدول والمجتمعات والافراد في كافة انحاء العالم وتجد بقوة من يستمع إليها ويروج لها عن قصد أو عن جهل . حيث نجد على سبيل المثال في الولايات المتحدة الامريكية وحدها قد تم انشاء (٢٠٠٠) مركز متخصص في التحكم في المعلومات للتصدي للمشاكل ولمنع انتشار الشائعات التي قد تؤدي إلى التأثير على عملية سير الاقتصاد واتخاذ القرارات الصائبة (الحربي، ٢٠١٢، ص: ١٠٢) والشائعات تتسم بالعالمية حيث يمكن نشر الشائعات على مستوى العالم على الرغم من انها قد تكون موجهة لشريحة معينة أو جمهور معين أو دولة معينة (البداينة، ٢٠٠١، ص: ٦٧)

وحيث تعتبر شبكات التواصل الاجتماعي كشبكات تفاعلية تتيح التواصل لمستخدميها في أي وقت يشاءون وفي أي مكان في العالم (منصور، ٢٠١٢، ص: ٢٨) وقد أدى استخدام شبكات التواصل الاجتماعي إلى تجاوز الحدود الجغرافية وبالتالي تميزت العملية الاتصالية بالعالمية وسقوط الحواجز الثقافية بين اطراف العملية الاتصالية (عبد الحميد، ٢٠٠٧، ص: ٣٥) فإنها تعد آلية نشر الشائعات بشكل عالمي واقليمي ومحلي وبطريقة تصويب دقيقة ومقصودة نحو هدفها الذي يتسم في ادنى مستوياته بكونه خبيث وموجه للافساد في الارض وتحقيق غايات غير انسانية بالمرّة .

وبنظرة تحليلية تحمل نوع من الوعي الاجتماعي لمنصات اطلاق الشائعات المتمثلة في وسائل التواصل الاجتماعي نجد انها وبصفة عامة تمثل آلية متاحة للجميع في أي مكان على وجه الارض وفي أي زمان من ليل أو نهار يضاف إلى ذلك سرعتها الفائقة وصعوبة التحكم فيها وضبطها فهي عابرة للحدود والقيود ومقتلته من الرقابة وكل البشر اعضاء فيها وليس لأحد القدرة على التمييز بين ما هو صحيح وما هو خطأ من الكم الهائل من الاخبار والمعلومات المتدفقة على

مدار الساعة من أكثر من مصدر وأحيانا من أغلب المصادر حيث تتردد لدى الجميع بشكل يحمل حبكة فنية تفقد المتلقي القدرة على القيام بالفلتر المطلوبة بل أكثر من ذلك يتحول كثير من المتلقين إلى مروجين لنفس الكلام على حساباتهم الشخصية فتنتشر الشائعات على نطاق أوسع يجعلها تكتسب مصداقية ليس نتيجة لصحتها ولكن لكثرة انتشارها وتداولها وهكذا يغيب الوعي الاجتماعي وتعمل الشائعات فعلتها الخبيثة وفقا لمراد مروجيها .

وحيث تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي بأنواعها كأدوات في حرب الجيل الرابع فإنه يتم تجنيد أكبر عدد ممكن من صحفي وإعلامي الدولة المستهدفة لبث الشائعات وإثارة الفوضى والفتن وزعزعة الأمن والاستقرار ومن ثم تحقيق الأغراض الخبيثة في هدم المجتمعات وإنهيار نظامها العام (Christina & Eric, 2012, P:7) حيث تسمح شبكات التواصل الاجتماعي من خلال نظامها الرقمي بنقل البيانات في شكل نصوص وكتابات كما في تويتر والفيسبوك وغيرها إضافة إلى الصوت والصورة والرسوم المتاحة بأنواعها بقدر عال من الدقة والجودة كما في اليوتيوب والانستجرام (مكاوي، ٢٠٠٩، ص: ١٥١) وتنتقل من خلال تلك الشبكات بمواقعها المتنوعة الشائعات الالكترونية . وهذه الشائعات تنتقي مادتها من مصادر متنوعة تختلف عن الشائعات التقليدية من حيث المحتوى والبناء حيث يعبر عنها بالنص المكتوب والمنطوق والصور المرفقة والصوت والرسوم المتحركة والفيديو (الحربي، ٢٠١٢، ص: ١١٤) .

ولقد اشارت العديد من البحوث العلمية ضمن نتائجها إلى ما تحدثه ادوات حروب الجيل الرابع من تهينة وتأثير فاعل لتحقيق اهدافها حيث اشارت نتائج دراسة (الجوهري، ٢٠٠٠) إلى العديد من الآثار السلبية لشبكة الانترنت باعتبارها قاعدة الانطلاق الكبرى لحروب الجيل الرابع وذلك على كافة المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية والاخلاقية وكذلك الحال فيما يتعلق بانتشار العديد من الجرائم، كما اشارت دراسة (صادق، ٢٠٠٣) إلى ما أحدثه استخدام الانترنت في غياب الوعي الاجتماعي من انحرافات اخلاقية لدى ابناء المجتمع لتحقيق الانحلال الاخلاقي الذي تستهدفه حروب الجيل الرابع، وقد اشارت نتائج دراسة (Ann, 2003) إلى ما لعبه الانترنت من دور في اتجاه

تحقيق اهداف حروب الجيل الرابع من اضعاف العلاقات الاجتماعية بين ابناء المجتمع وضعف الانتماء للوطن، وهو ما اكدته نتائج دراسة (زاهر، ٢٠٠٤) من تراجع القيم والانتماء لدى ابناء المجتمع وتزايد التطرف والارهاب والعنف ضد المجتمع وابناءه.

وقد اشارت بعض الدراسات ومنها دراسة (حامد، ٢٠٠٥) إلى ان منصة الانترنت من خلال وسائل التواصل الاجتماعي تساعد على التعرض لاثارة الفتن والشائعات وتشويه وتحريف وتزييف الحقائق واثارة مشكلات قانونية وفكرية ودينية واخلاقية وكلها تصب في اغراض تدميرية تحقق اهداف حروب الجيل الرابع من اوسع ابوابها، وفي المقابل نجد ان هناك العديد من الدراسات التي دعت إلى ضرورة تنمية الوعي الاجتماعي واستنهاض دوره من خلال عدة جوانب منها تنمية قيم الولاء والانتماء الوطني ومنها دراسة (عبد الحميد، ٢٠٠٧) وكلها تصب في الوعي الاجتماعي المطلوب لمواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات التي تستهدف تدمير النظام القيمي للمجتمع وسلمه الاجتماعي، واحداث تغييرات جذرية في حياة الناس ادت إلى تفتيت العلاقات الاجتماعية وتحويل ما كان يتمتع به ابناء المجتمع من دفاء وحميمية إلى برود وفتور وتغيير لأنماط التفاعل وتدمير للقيم الاخلاقية وايجاد مشكلات غير مألوفة كتبدل الحس الاجتماعي والاغتراب والعزلة وانتشار القيم الفاسدة وهو ما اكدته نتائج دراسة (ساري، ٢٠٠٨) بالإضافة إلى اشاعة الاحباط وشل الفكر ومن ثم تحقيق الاعاقة النفسية والاجتماعية للمجتمع وفقا لما اكدته دراسة كلا من (الهمص، وشلدان، ٢٠٠٩) وكأننا امام نوع من التجهيز المستمر للمجتمع للوقوع في فخ تلك الحروب وما تقوم عليه من شائعات الالكترونية موجهة.

كما تعددت الدراسات التي لفتت الانتباه إلى مخاطر الشائعات المنطلقة من منصات شبكات التواصل الاجتماعي حيث اشارت نتائج دراسة (مباي، ٢٠١٣) إلى ان شبكات التواصل الاجتماعي لها تأثير على الفرد والمجتمع في اطار حروب الجيل الرابع حيث تسهم في احداث التمرد والثورة على الانظمة السياسية القائمة بالإضافة إلى التحريض ونشر الشائعات حول بعض القضايا والمشكلات وتسريب الافكار الهدامة ونشر المعلومات والمشاهد اللا

أخلاقية والأمراض النفسية والادمان وبث السلوكيات الخاطئة والفكر الإرهابي المتطرف والحث على العنف والانفلات الأمني وإثارة كافة الاحتجاجات والفوضى والترويج الدائم للشائعات المغرضة.

وقد دعت دراسة (السديري، ٢٠١٤) إلى ضرورة التوعية ضد مخاطر الشائعات وفرض الرقابة والعقوبات على من يروج لها، كما دعت دراسة (بن صالح، ٢٠١٤) إلى المعاملة الجنائية لمروجي الشائعات، وانتقلت معها دراسة (أحمد، ٢٠١٥) من خلال القوانين والعقوبات وأنظمة المحاسبة الصارمة بالإضافة إلى التوعية بمخاطر تلك الشائعات، وقد أشارت نتائج دراسة (حسام الدين، ٢٠١٦) إلى أن حروب الجيل الرابع المنطلقة من خلال شبكة الانترنت وما تحمله من منصات إطلاق تمثلت وبشكل شائع في مواقع التواصل الاجتماعي التي تم استخدامها في إطلاق الشائعات التي تحمل التشكيك ونظرية المؤامرة وحشد الرأي العام والإرهاب ضد الدولة في سبيل إنهاء وجودها لصالح العدو، كما أشارت نتائج دراسة (Mahdy, 2017) إلى مخاطر شبكات التواصل الاجتماعي على أمن واستقرار المجتمع من خلال المعلومات غير الموثقة والتي تبث الشائعات بغرض تشتيت الرأي العام وإيجاد الفرقة والانقسام والفوضى المقصودة من قبل مروجي تلك الشائعات لتحقيق غرض خبيث يسعى له أولئك الأشرار.

وقد دعت نتائج دراسة (العسال، ٢٠١٧) إلى ضرورة إنشاء جهات وطنية رقابية للرد على الشائعات ونشر وتصحيح المعلومات وكشف أغراض أصحاب تلك الشائعات للرأي العام وبشكل يتسم بالسرعة لتفويت الفرص المغرضة التي يسعى إليها الأعداء، وقد اتفق ذلك مع ما انتهت إليه دراسة (عودة، ٢٠١٨) من نتائج تبين ضرورة تبني أجهزة الدولة توضيح طبيعة الشائعات وشرح أهدافها وخطورتها على المجتمع واستقراره والحد من انتشار الشائعات من خلال التوعية باستخدام نفس منصة إطلاقها وهي وسائل التواصل الاجتماعي ذاتها مع ضرورة التوعية بأهداف الأعداء والقيام بالتشديد الأمني لملاحقة مروجي الشائعات وتطبيق أقصى عقوبة على المروجين مع نشر التوعية الدينية والقانونية المضادة للشائعات والزام الإعلام بالتدقيق والتوعية وعرض الحقائق وإنشاء هيئة مختصة

بالشائعات والرد عليها، وهو ايضا ما انتهت اليه نتائج دراسة كلا من (على ومحمد، ٢٠١٩) من ضرورة تصدي اجهزة الدولة خاصة الحكومة للشائعات وما تمثله من خطورة على الاستقرار السياسي والامن القومي للدولة وذلك عبر كافة وسائل التواصل الاجتماعي ومنصات اطلاق تلك الشائعات بشكل يتسم بقوة الرد والردع في آن واحد.

وبتحليل الدراسات السابقة وما سبقها من كتابات علمية نجد ان هناك حاجة للقيام ببحث دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات وذلك لتحديد واقع تلك الحروب المدمرة للمجتمعات وما تحتاجه من وعي اجتماعي لمواجهة مخاطرها.

ثانيا: الموجهات النظرية للبحث:

- في ضوء موضوع البحث فان نظرية الدور Role Theory تمثل الموجه المناسب لدراسة دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات.
- حيث إن الدور هو نمط السلوك المتوقع اجتماعيا وهو يتحدد بواسطة مكانة الفرد في مجتمع معين (Webster, 2009, P:1079).
- والادوار يمكن ان تفهم فقط في المواقف الاجتماعية فهي تعكس التوقعات والسلوكيات المرتبطة بوضع اجتماعي أو مكانة معينة، كما ان الادوار يتم تعلمها من الملاحظة والتجربة، لذلك تسعى نظرية الدور إلى تحديد كيف ان توقعات الناس وردود افعالهم تجاه بعضهم البعض تتأثر بادوارهم (Peter & Jonathan, P:304).
- ونظرية الدور توجه البحث الى:
- تحديد دور حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات.
- تحديد دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حرب الجيل الرابع القائمة على الشائعات والمتوقع من ابناء المجتمع في اطار ما يشغلونه من مكانة كمواطنين في مجتمعهم من سلوك مضاد للشائعات المدمرة للمجتمعات من

- خلال معرفتهم وفهمهم واقتناعهم بمخاطر تلك الحروب •
- تحديد التصور المقترح للتفعيل المستمر للوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات، والدور المتوقع لهذا التصور في تحقيق التفعيل المطلوب •

ثالثا: صياغة مشكلة البحث:

في ضوء الكتابات العلمية والدراسات السابقة والموجه النظري للبحث فإن مشكلة البحث تتبلور في ان حروب الجيل الرابع هي حروب تدمير المجتمع ذاتيا عن طريق تدمير عقول ابناء المجتمع انفسهم بشتى السبل ومنها الشائعات كسلاح قاتل ومفتت وهادم للمجتمع ومكوناته وان افضل مواجهة لتلك الحروب هو بناء الوعي الاجتماعي الذي يمثل مناعة ضد تلك الحروب وبالتالي تقويت الفرص على الاعداء حيث تصدم شائعاتهم المدمرة بحائط اقوى من حائط الصواريخ وهو حائط الوعي الاجتماعي العام، ومن ثم فقد تحددت القضية البحثية لهذا البحث في سؤال مؤداه: ما دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات؟ ومن ثم فقد انطلق البحث لدراسة هذه القضية •

رابعا: اهداف البحث:

- الهدف الرئيسي للبحث هو: تحديد دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات • وذلك عن طريق:
- تحديد واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات •
- تحديد دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات •
- تحديد التصور المقترح للتفعيل المستمر للوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات •

خامسا: اهمية البحث:

- الاهمية المجتمعية: قد يساهم هذا البحث في تحقيق نوع من الحماية

- للمجتمع من خطر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات المدمرة للمجتمع وافراده وذلك عن طريق الوعي الاجتماعي العام لابناء المجتمع .
- الاهمية التخصصية: وذلك من خلال ما يتوقع ان يحققه البحث من اثرات نظري وعلمي فيما يتعلق بالوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات .
- الاهمية البحثية: قد يساهم هذا البحث في اثارة الباحثين لمزيد من البحث والنقضي لإيجاد آليات علمية لمحاصرة الشائعات التي وجدت ارضا خصبة من مغرضين ومحرضين ومواقع تواصل الاجتماعي تعمل على مدار الساعة وكثير من المغرر بهم وفاقد الوعي السليم بخطورة تلك الشائعات واثارها التدميرية على المجتمع وافراده .

سادسا: مفاهيم البحث وتعريفاتها:

- **تعريف الدور: Role:**
- يعرف الدور على انه: نموذج السلوك الذي يتطلبه المركز ويتحدد سلوك الفرد في ضوء توقعاته وتوقعات الآخرين منه وهذه تتأثر بفهم الفرد والآخرين للحقوق والواجبات المرتبطة بمركزه الاجتماعي وحدود الدور تتضمن تلك الافعال التي تتقبلها الجماعة في ضوء مستويات السلوك في الثقافة السائدة (بدوي، ص: ٣٩٥) .
- وفي اطار هذا البحث فان الدور يقصد به: ما يجب ان يقوم به الوعي الاجتماعي لدى ابناء المجتمع من معرفة وفهم واقتناع وعمل لمواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات .
- **تعريف الوعي الاجتماعي: Social consciousness:**
- الوعي الاجتماعي يعرف على انه: الصورة الذهنية للفرد عن واقعه الاجتماعي، والمتمثلة في مجموعة الأفكار والمشاعر والسلوكيات التي تعبر عن إدراكه لهذا الواقع، والتي غالباً ما تكون مستمدة من هذا الواقع، ثم تعود لتؤثر في فهم الفرد لهذا الواقع، وتُشكل استجابته تجاهه (<http://www.anfasse.org>) وهو الشعور الجمعي للأفراد

- نحو الاشتراك في تحمل مسؤولية النهوض بمجتمعهم (بدوي، ص: ٨١) •
- ويقصد بالوعي الاجتماعي في هذا البحث: معرفة افراد المجتمع بحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات وفهمهم لمخاطرها على مجتمعهم ومن ثم قيامهم بما يجب للتصدي لها •

• تعريف المواجهة: Confrontation

- المواجهة تعرف على انها: التحدي والمجابهة والمقابلة (البلبكي، ٢٠٠٣، ص: ٢٠٦) •
- ويقصد بالمواجهة في هذا البحث: التصدي الهادف لمنع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات من تحقيق اهدافها في تدمير المجتمع •

• تعريف حروب الجيل الرابع: (4GW) Fourth Generation Wars

- حروب الجيل الرابع تعرف على انها: الحرب التي تقوم لأفشال الدولة و زعزعة استقرارها ثم فرض واقع جديد (<http://www.group73historians.com>) وهي حروب السيطرة على العقول والخداع النفسي (<http://gate.ahram.org.eg>) •
- ويقصد بحروب الجيل الرابع في هذا البحث: تلك الحروب القائمة على الشائعات للتضليل والخداع ومن ثم السيطرة على العقول وتوجيهها نحو تدمير المجتمع المستهدف ذاتيا وتحويله إلى مجتمعات صغيرة وضعيفة وتابعة •

▪ تعريف الشائعات: Rumors

- تعرف الشائعات على انها: الخبر أو الموضوع أو القضية الذي يتم تداوله من خلال الانترنت أو شبكات التواصل الاجتماعي وكذلك الهاتف الجوال (الحربي، ٢٠١٢، ص: ١١٤) وهي خبر أو قصة أو حدث يتناقله الناس بدون تمحيص أو تحقق من صحته (طه، ٢٠٠٣، ص: ٢٢) •

- ويقصد بالشائعات في هذا البحث: الاخبار والمعلومات المضللة الموجهة عن قصد عبر وسائل الاعلام خاصة وسائل التواصل الاجتماعي لمجتمع معين خاصة شبابه بوصفهم الاكثر حماسا والاقل خبرة للسيطرة على عقولهم ودفعهم نحو تدمير مجتمعهم بأيديهم لتحقيق اهداف العدو في تقنيت المجتمع والسيطرة عليه.

سابعا: الإطار المنهجي للبحث:

- نوع البحث: يعتبر هذا البحث من نوع الدراسات الوصفية حيث يركز على وصف دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات، وذلك عن طريق وصف وتحديد واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات، وصف وتحديد دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات، وصف وتحديد التصور المقترح لتنفيذ الوعي الاجتماعي في تكوين مناعة ضد حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات.
- منهج البحث: اعتمد البحث لتحقيق اهدافه على منهج المسح الاجتماعي بطريقة عينة كرة الثلج وذلك بالنسبة للمبحوثين من الخبراء المعنيين.
- تساؤلات البحث: تمثل التساؤل الرئيسي للبحث في سؤال مؤداه: ما دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات؟ وهذا التساؤل تم الاجابة عليه من خلال الاجابة على التساؤلات التالية:
 ١. ما واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات؟
 ٢. ما دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات؟
 ٣. ما التصور المقترح للتنفيذ المستمر للوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات؟

■ مجالات البحث:

- المجال المكاني: ويتمثل في المجتمع المصري بالتطبيق على عينة من خبراء المعنيين.
- المجال البشري: وقد تمثل في عينة من الخبراء المعنيين بموضوع البحث وقد تم اختيارهم باستخدام عينة كرة الثلج وقد بلغ عددهم (٢٠) خبيراً.
- المجال الزمني: استغرق البحث الفترة من (يناير-فبراير) ٢٠٢٠.

■ ادوات البحث: وقد تمثلت في:-

- البحث المكتبي: في الجانب النظري للبحث لاستيفاء جوانبه العلمية النظرية.
- استمارة استبيان: في الجانب الميداني لجمع البيانات من المبحوثين وقد تم اعدادها وتحكيمها وفق القواعد العلمية، ثم تطبيقها على عينة من الخبراء المعنيين حيث تم جمع البيانات عن طريق (الاتصال الشخصي المباشر-الاتصال التليفوني - الانترنت).

- المعالجات الاحصائية المستخدمة في البحث: اعتمدت الدراسة على النسبة المئوية ومجموع الاوزان والوزن النسبي والترتيب.

ثامناً: عرض وتحليل نتائج الدراسة الميدانية:

١- خصائص مجتمع البحث:

جدول (١) يوضح خصائص مجتمع البحث ن = ٢٠

م	البيان	الفئات	العدد	%	الترتيب
١	النوع	أ- ذكر .	١٢	٦٠	١
		ب- أنثى .	٨	٤٠	٢
٢	السن	أ- اقل من ٥٠ سنة .	٥	٢٥	٢
		ب- من ٥٠-اقل من ٦٠ سنة .	١٢	٦٠	١
		ج- من ٦٠ سنة	٣	١٥	٣

			فأكثر .		
٣	مصدر الخبرة الاساسي	أ- خبرة ميدانية . ب- خبرة اكااديمية .	٨ ١٢	٤٠ ٦٠	٢ ١

يتضح من بيانات جدول (١) أنه:

- بالنسبة لخصائص المبحوثين من حيث النوع: يتضح تمثيل المبحوثين من الجنسين في عينة البحث، وان المبحوثين من الخبراء الرجال قد بلغت نسبتهم (٦٠٪) وان المبحوثين من الخبراء الاناث قد بلغت نسبتهم (٤٠٪) ولعل ذلك يعكس التكامل في وجهات النظر بين نوعي المبحوثين من الخبراء لصالح موضوع البحث .
- وبالنسبة لخصائص المبحوثين من حيث السن: نجد ان المبحوثين يمثلون جميع فئات سن الخبرة وإن كان اغلبهم في الفئة العمرية من (٥٠ إلى اقل من ٦٠ سنة) وبنسبة بلغت (٦٠٪) ولعل هذا يتسق مع موضوع البحث من حيث استحواذة على اهتمام الخبراء في هذه المرحلة العمرية التي تجمع بين الحماس والخبرة معا لدى الخبراء المعنيين .
- وبالنسبة لخصائص المبحوثين من حيث مصدر الخبرة الاساسي: نجد ان المبحوثين من الخبراء يغطون المصدرين الاساسيين للخبرة في مجال موضوع البحث وهما الخبرة الاكاديمية بنسبة بلغت (٦٠٪) والخبرة الميدانية بنسبة بلغت (٤٠٪) ولعل ذلك يحقق نوع من التكامل بين النظرية والتطبيق لصالح تحقيق اهداف البحث .

٢- واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات:

جدول (٢) يوضح النتائج الخاصة بواقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات ن = ٢٠

م	الواقع	مجموع الاوزان	المتوسط النسبي	%	الترتيب
---	--------	------------------	-------------------	---	---------

أ	تستهدف حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات تدمير المجتمع من الداخل بأيدي ابناءه٥٥.	٥٨	٢.٩٠	٩٦.٦٧	٣
ب	حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات مخطط لها بشكل فائق لبلوغ اهدافها بدقة٥.	٥٣	٢.٦٥	٨٨.٣٣	٨
ج	تقوم حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على الاكاذيب ذات الحبكة المتقنة لتصديقها٥.	٥٩	٢.٩٥	٩٨.٣٣	٢
د	تتجه حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات إلى الشباب في المقام الاول باعتبارهم الاكثر حماسا الاقل خبرة٥.	٥٧	٢.٨٥	٩٥	٤
هـ	تعتمد حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على برامج الانترنت القادرة على الخداع٥.	٥٥	٢.٧٥	٩١.٦٧	٦
و	تنطلق حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات من كافة وسائل الاعلام خاصة مواقع التواصل الاجتماعي لكونها متاحة للجميع٥.	٦٠	٣	١٠٠	١
ز	تركز حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على التشكيك في نظام الدولة لزرعة ثقة المجتمع فيه فتتحقق الفوضى المطلوبة٥.	٥٢	٢.٦	٨٦.٦٧	٩

٧	٩٠	٢.٧	٥٤	ح	تستثمر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات نظرية المؤامرة في تضخيم الأحداث السياسية لتحطيم الامن القومي للدولة المستهدفة.
٥	٩٣.٣٣	٢.٨	٥٦	ط	تحشد حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الرأي العام للتأمر على الدولة باستخدام شبابها المغرر بهم.
١٠	٨٥	٢.٥٥	٥١	ي	تستخدم حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الارهاب كأداة لتدمير المجتمع من الداخل بايدي المغرر بهم من ابناءه.
	٩٢.٥٠	٢.٧٨	٥٥٥	مج	

يتضح من بيانات جدول (٢) أنه:

- في ضوء قراءة الجدول: يتبين أن المؤشرات الدالة على واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات تقع في المستوى المرتفع من حيث وجودها من وجهة نظر الباحثين من الخبراء المعنيين وذلك بمتوسط نسبي مرتفع بلغ (٢.٧٨) وبنسبة مئوية مرتفعة جدا بلغت (٩٢.٥٠٪).
- في ضوء الدلالة العملية: فان تلك النتائج توضح خطورة الواقع بالنسبة لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الامر الذي يستدعي وبقوة دور الوعي الاجتماعي في مواجهة تلك الحروب وحماية المجتمع من مخاطرها المدمرة.
- في ضوء الدراسات السابقة: نجد ان تلك النتائج تتفق مع ما انتهت اليه الدراسات السابقة من ان حروب الجيل الرابع والشائعات تمثل واقعا خطيرا ومدمرا للمجتمعات على كافة الجوانب والاصعدة ومن تلك

الدراسات دراسة: الجوهري ٢٠٠٠، Ann 2003، زاهر ٢٠٠٤، حامد ٢٠٠٥، امبابي ٢٠١٣، Mahdy 2017.

■ في ضوء النظرية الموجهة للبحث: نجد ان هذا الواقع لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات يعكس الدور الذي تقوم به تلك الحروب من تدمير للمجتمعات المستهدفة من قبل اعداء تلك المجتمعات الامر الذي يتطلب دور اقوى واكثر فاعلية للوعي الاجتماعي لمواجهة هذا النوع من الحروب التي تستخدم احدث الادوات التكنولوجية وتتجه للعقول للسيطرة عليها والنفوذ من خلالها لتحقيق اهدافها.

■ في ضوء تساؤلات البحث: نجد ان تلك النتائج قد اجابت على التساؤل الاول للبحث والذي مؤداه: ما واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات. حيث تبين انها تقع في المستوى المرتفع من حيث الوجود والتأثير المدمر وذلك بنسبة مرتفعة جدا بلغت (٩٢.٥٠٪).

■ في ضوء اهداف البحث: فقد تحقق الهدف الاول للبحث وهو: تحديد واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات، حيث تبين ان واقعها المدمر يأتي في المستوى المرتفع شديد الخطورة.

٣- دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات:

جدول (٣) يوضح النتائج الخاصة بدور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات. ن = ٢٠

م	الدور	مجموع الاوزان	المتوسط النسبي	%	الترتيب
أ	المعرفة السليمة بالاهداف الخيثة لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لافشالها.	٥٦	٢.٨	٩٣.٣٣	٥

ب	الفهم الصحيح لمخططات حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتفادي الوقوع فيها .	٥٧	٢.٨٥	٩٥	٤
ج	كشف اكاذيب حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لابطال تأثيرها .	٦٠	٣	١٠٠	١
د	اقتناع ابناء المجتمع خاصة الشباب بمخاطر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات ليتصدوا لها بالقوة المطلوبة .	٥٥	٢.٧٥	٩١.٦٧	٦
هـ	الانتباه لبرامج الانترنت القادرة على الخداع المستخدمة في حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتزييف الحقائق .	٥٤	٢.٧	٩٠	٧
و	اليقظة الدائمة لوسائل الاعلام خاصة مواقع التواصل الاجتماعي كمنصات لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتفادي مخاطرها .	٥٩	٢.٩٥	٩٨.٣٣	٢
ز	الرفض التام لمحاولات حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات التشكيك في نظام الدولة لافشالها .	٥٣	٢.٦٥	٨٨.٣٣	٨
ح	ابطال مفعول نظرية المؤامرة التي تستخدمها حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتحطيم الامن القومي .	٥٠	٢.٥٠	٨٣.٣٣	١٠
ط	تكوين راي عام داعم للدولة ضد المتأمرين مستخدمين حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات .	٥٢	٢.٦	٨٦.٦٧	٩

٣	٩٦.٦٧	٢.٩	٥٨	ي	محاربة الارهاب الذي تستخدمه حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لهدم الدولة بيد ابناءها المغرر بهم .
	٩٢.٣٣	٢.٧٧	٥٥٤	مج	

يتضح من بيانات جدول(٣) أنه:

- في ضوء قراءة الجدول: يتبن أن المؤشرات الدالة على دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات تقع في المستوى المرتفع من حيث فاعليتها والحاجة اليها لمواجهة مخاطر تلك الحروب على المجتمع وذلك من وجهة نظر المبحوثين من الخبراء المعنيين بمتوسط نسبي مرتفع بلغ (٢.٧٧) وبنسبة مئوية مرتفعة جدا بلغت (٩٢.٣٣٪) .
- في ضوء الدلالة العملية: فان تلك النتائج توضح اهمية ومكانة وفاعلية ومن ثم الحاجة الضرورية للغاية لدور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الامر الذي يستدعي وبقوة تفعيل هذا الدور متعدد المحاور بشكل هام وعاجل .
- في ضوء الدراسات السابقة: نجد ان تلك النتائج تتفق مع ما انتهت اليه الدراسات السابقة من الحاجة الماسة وبشدة في هذه المرحلة من حياة المجتمعات لتفعيل الوعي الاجتماعي لأقصى ما يمكن وتحديد دوره في مواجهة مخاطر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات المدمرة للمجتمعات وللأسف بأيدي ابناء تلك المجتمعات المغرر بهم ومن تلك الدراسات دراسة: عبد الحميد ٢٠٠٧، السديري ٢٠١٤، احمد ٢٠١٥، حسام الدين ٢٠١٦، العسال ٢٠١٧ علي ومحمد ٢٠١٩ .
- في ضوء النظرية الموجهة للبحث: نجد ان هذا الدور للوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات هو الدور المطلوب وبقوة لمواجهة هذا النوع من الحروب خاصة انه يتفق مع ما انتهت اليه الدراسات السابقة وما اكده وقرره وحدده الخبراء المعنيين من

المبحوثين •

- في ضوء تساؤلات البحث: نجد ان تلك النتائج قد اجابت على التساؤل الثاني للبحث والذي مؤداه: ما دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات • حيث تبين ان هذا الدور يقع في المستوى المرتفع من حيث الفاعلية والحاجة اليه وذلك بنسبة مرتفعة جدا بلغت (٩٢.٣٣٪) •
- في ضوء اهداف البحث: فقد تحقق الهدف الثاني للبحث وهو: تحديد دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات، حيث تم تحديد الدور وتبين انه يأتي في المستوى المرتفع من حيث الفاعلية والحاجة اليه ومن ثم قدرته على تحقيق المواجهة المطلوبة لتلك الحروب •

تاسعا: نتائج البحث وتصوره المستقبلي:

- النتائج الخاصة بالهدف الاول للبحث وهو: تحديد واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات • فقد تحقق هذا الهدف حيث تبين ان هذا الواقع يأتي في المستوى المرتفع من حيث الوجود والتأثير المدمر وذلك بنسبة مرتفعة جدا بلغت (٩٢.٥٠٪) وقد جاء هذا الواقع مرتبا تنازليا كما يوضحه جدول (٢) وذلك على النحو التالي:
- ١. تتطلق حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات من كافة وسائل الاعلام خاصة مواقع التواصل الاجتماعي لكونها متاحة للجميع •
- ٢. تقوم حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على الاكاذيب ذات الحبكة المتقنة لتصديقها •
- ٣. تستهدف حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات تدمير المجتمع من الداخل بايدي ابناءه •
- ٤. تتجه حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات إلى الشباب في المقام الاول باعتبارهم الاكثر حماسا الاقل خبرة •

٥. تحشد حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الرأي العام للتأمر على الدولة باستخدام شبابها المغرر بهم •
 ٦. تعتمد حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على برامج الانترنت القادرة على الخداع •
 ٧. تستثمر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات نظرية المؤامرة في تضخيم الاحداث السياسية لتحطيم الامن القومي للدولة المستهدفة •
 ٨. حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات مخطط لها بشكل فائق لبلوغ اهدافها بدقة •
 ٩. تركز حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على التشكيك في نظام الدولة لزعزعة ثقة المجتمع فيه فتتحقق الفوضى المطلوبة •
 ١٠. تستخدم حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الارهاب كأداة لتدمير المجتمع من الداخل بايدي المغرر بهم من ابناءه •
- النتائج الخاصة بالهدف الثاني للبحث وهو: تحديد دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات • فقد تحقق هذا الهدف حيث تبين ان هذا الدور يأتي في المستوى المرتفع من حيث الفاعلية والحاجة اليه وذلك بنسبة مرتفعة جدا بلغت (٩٢.٣٣%) وقد جاء هذا الدور مرتبا تنازليا كما يوضحه جدول (٣) وذلك على النحو التالي:
١. كشف اكاذيب حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لإبطال تأثيرها •
 ٢. اليقظة الدائمة لوسائل الاعلام خاصة مواقع التواصل الاجتماعي كمنصات لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتقادي مخاطرها •
 ٣. محاربة الارهاب الذي تستخدمه حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لهدم الدولة بيد ابناءها المغرر بهم •
 ٤. الفهم الصحيح لمخططات حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتقادي الوقوع فيها •
 ٥. المعرفة السليمة بالأهداف الخبيثة لحروب الجيل الرابع القائمة على

الشائعات لافشالها •

٦. اقتناع ابناء المجتمع خاصة الشباب بمخاطر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات ليتصدوا لها بالقوة المطلوبة •

٧. الانتباه لبرامج الانترنت القادرة على الخداع المستخدمة في حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتزييف الحقائق •

٨. الرفض التام لمحاولات حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات التشكيك في نظام الدولة لافشالها •

٩. تكوين رأي عام داعم للدولة ضد المتأمرين مستخدمي حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات •

١٠. ابطال مفعول نظرية المؤامرة التي تستخدمها حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتحطيم الامن القومي •

■ النتائج الخاصة بالهدف الثالث للبحث وهو: تحديد التصور المقترح للتفعيل المستمر للوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات:

في ضوء ما أسفر عنه البحث من نتائج فان رؤية الباحثين للتصور المقترح للتفعيل المستمر للوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لمنع تأثيرها المدمر على المجتمع تتحدد على النحو التالي:

• اولاً: تنمية الوعي بالواقع الذي اظهرته نتائج البحث لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات حتى تتوفر المعرفة والفهم والاعتناع بمخاطر تلك الحروب ومن ثم القيام بما يلزم لمواجهةها من قبل كافة الاطراف المعنية •

• ثانياً: تنمية الوعي بمتطلبات مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات وفي مقدمتها ما انتهى اليه البحث من نتائج خاصة بدور الوعي الاجتماعي في تحقيق المواجهة المطلوبة لتلك الحروب •

• ثالثاً: قيام المعنيين من الخبراء والأسر والمدارس والجامعات والمعاهد العليا وكافة المؤسسات المعنية سواء كانت أهلية أو حكومية أو خاصة

بدورها في تنمية الوعي الاجتماعي المطلوب سواء بواقع تلك الحروب أو بالدور المطلوب لمواجهة مخاطرها المدمرة للمجتمع وذلك في ضوء ما اسفرت عنه نتائج هذا البحث .

- رابعا: توفير الدعم اللازم سواء كان ماديا أو معنويا للجهات الامنية والاعلامية والمؤسسات الدينية وكافة المؤسسات المعنية للقيام بدورها في مواجهة المطلوبة لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات خاصة كشف الاكاذيب والرد عليها وتتبع الارهابيين والمغرر بهم ومروجي الشائعات والقضاء عليهم حفاظا على امن وسلامة المجتمع .
- خامسا: الاستمرار في اجراء البحوث العلمية على كافة جوانب ظاهرة حروب الجيل الرابع وتقديم الحلول العلمية القابلة للتطبيق في الواقع المجتمعي والتي من شأنها محاصرة تلك الظاهرة من كافة الجوانب ومن ثم تقادي مخاطرها وانهاء وجودها .
- سادسا: التوصية بضرورة تنمية واستثمار الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتدمير المجتمعات العربية لكونه اقوى سلاح مجتمعي لتحقيق المواجهة المطلوبة .

مراجع البحث:

اولا: المراجع العربية:

١. احمد، محمد محمد سيد (٢٠١٥) .المسؤولية الجنائية عن ترويج الاشاعات عبر وسائل التواصل الاجتماعي بحث منشور في مؤتمر وسائل التواصل الاجتماعي، كلية الاعلام والاتصال، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض .
٢. امبابي، أبو عميرة ربيع (٢٠١٣) .تأثيرات شبكات التواصل الاجتماعي على الفرد والمجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بعد ثورات الربيع العربي، بحث منشور في مجلة دراسات في الخدمة الاجتماعية والعلوم الانسانية، كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، العدد (٣٥) اكتوبر .
٣. البداينة، ذياب موسى (٢٠٠١) .استخدام التقنيات الحديثة في الشائعات، الرياض، اكااديمية نايف العربية للعلوم الامنية .

٤. البعلبكي، منير (٢٠٠٣)٠ المورد، بيروت، دار العلم للملايين.
٥. الجوهري، هناء (٢٠٠٠)٠ استجابات الشباب لشبكة الانترنت، اعمال الندوة السنوية السابعة، قسم علم الاجتماع كلية الآداب، جامعة القاهرة.
٦. الحربي، هباس بن رجاء (٢٠١٢)٠ الشائعات ودور وسائل الاعلام في عصر المعلومات، عمان، دار اسامة للنشر والتوزيع.
٧. السديري، تركي بن عبد العزيز (٢٠١٤)٠ توظيف شبكات التواصل الاجتماعي في التوعية الامنية ضد خطر الشائعات، رسالة ماجستير، كلية العدالة الجنائية، جامعة نايف العربية للعلوم الامنية، السعودية.
٨. العسال، الهام مهدي (٢٠١٧)٠ دور مواقع التواصل الاجتماعي في ترتيب أولويات الطلبة الجامعيين نحو القضايا الاجتماعية، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة العربي التبسي الجزائر.
٩. الهمص، عبد الفتاح عبدالغني، وشلدان، فايز كمال (٢٠٠٩)٠ الابعاد النفسية والاجتماعية في ترويج الاشاعات عبر وسائل الاعلام وسبل علاجها من منظور اسلامي، مجلة كلية التربية، الجامعة الاسلامية، غزة.
١٠. بن صالح، محمد بن عبد العزيز (٢٠١٤)٠ المسؤولية الجنائية عن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة نايف العربية للعلوم الامنية، السعودية.
١١. حامد، محمد دسوقي (٢٠٠٥)٠ خطورة المحادثة الانترنتية والرسائل عبر الفضائيات على ممارسة خدمة الجماعة، بحث منشور في المؤتمر العلمي الثامن، كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، القاهرة.
١٢. حسام الدين، نسرين (٢٠١٦)٠ مخاطر حروب الجيل الرابع: دراسة ميدانية، جامعة القاهرة، كلية الاعلام، المجلة المصرية لبحوث الرأي العام، المجلد (١٥) العدد (٢) يونية.
١٣. زاهر، محمد ضياء الدين (٢٠٠٤)٠ مستقبل الشباب والمشاركة المجتمعية والاشكاليات، الاسكندرية، مجلة مستقبل التربية العربية، ج١٠، العدد (٣٢) المركز العربي للتعليم والتنمية.
١٤. زايد، غادة عبدالفتاح عبد العزيز (٢٠١٩)٠ برنامج في التاريخ قائم على ادوات حروب الجيل الخامس لتنمية مهارات موثوقة المعلومات والاتصالات الرقمية لدى طلاب كلية التربية ومدى تأثيره على اتجاهاتهم، بحث منشور في المجلة التربوية، العدد (٦٨) ديسمبر، كلية التربية، جامعة سوهاج.

١٥. ساري، حلمي خضر (٢٠٠٨). تأثير الاتصال عبر الانترنت في العلاقات الاجتماعية، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق، ج ١، العدد الاول.
١٦. صادق، محمود محمد (٢٠٠٣). فاعلية العلاج المعرفي السلوكي في خدمة الفرد ووقاية الطلاب من سوء استخدام الانترنت، بحث منشور في المؤتمر العلمي السادس عشر، كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان.
١٧. طه، فرج عبد القادر (٢٠٠٣). موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار غريب، القاهرة.
١٨. عبد الحميد، تغريد محمد (٢٠٠٧). فاعلية استخدام مصادر تعليم متعددة في تدريس التاريخ لتنمية قيمة الانتماء الوطني لدى تلاميذ الصف الاول الاعدادي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة عين شمس القاهرة.
١٩. عبد الحميد، محمد (٢٠٠٧). الاتصال والاعلام على شبكة الانترنت، القاهرة، عالم الكتب.
٢٠. علي، عبد الله سعد، ومحمد، حسن ربيع (٢٠١٩). تأثير الشائعات على الاستقرار السياسي في مصر، وذلك خلال الفترة من ٢٠١٣-٢٠١٩، المركز الديمقراطي - العربي، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، مصر.
٢١. عودة، يحيى خير الله (٢٠١٨). دور مواقع التواصل الاجتماعي في نقل الشائعات بالمجتمع العراقي، بحث منشور في المؤتمر الاقليمي للمعهد العالي للخدمة الاجتماعية ببورسعيد بالتعاون مع كلية الآداب جامعة بورسعيد في الفترة من ١٤-١٥ مارس، مصر.
٢٢. مكاي، حسن عماد (٢٠٠٩). تكنولوجيا الاتصال الحديثة في عصر المعلومات، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
٢٣. منصور، محمد (٢٠١٢). تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على جمهور المتلقي - دراسة مقارنة للمواقع الاجتماعية والمواقع الالكترونية العربية انموذجا، رسالة ماجستير، كلية الآداب والتربية، الاكاديمية العربية في الدنمارك.

ثانيا: المراجع الاجنبية:

1. Ann, Andrade Jennifer (2003). The Effect of Internet use on Children's perceived support, Ph.D, University of Hart Ford.
2. Christina, M. Knope, and Eric, J. Ziegelmayer (2012). Fourth generation warfare and the US Military's social media strategy, USA, Alabama Air force research Institute.

3. Ferreira, Rialize (2010).Irregular warfare in African conflicts, South African, Stellenbosch University, Department of military history, journal of military studies, volume 38, number 1.
4. Mahdy, Hassan Rabhi (2017): The Awareness of the Digital Citizenship among the Users of Social Networks and its Relation to some variables, Faculty of Education Al- Aqsa University.
5. Peter and Jonathan: Role theory, In, Martin Davies (Editor): The Blackwell Encyclopaedia of Social Work, USA, Black Well Publishers, Ltd, 2000.
6. Shantanu, Chakrabarti (2010).Evolving insurgency and India's counter insurgency options: Entering into the age of Fourth-Generation Warfare, Berlin: connections: the quarterly journal, volume 9, number 2.
7. Webster, Merriam (2009).Collegiate Dictionary (17 Ed) Library of Congress, USA.

ثالثاً: مواقع شبكة المعلومات الدولية (الانترنت):

1. <http://www.gate.ahram.org.eg>
2. <http://www.anfasse.org>
3. <http://www.group73historians.com>

ملحق (١)

استمارة استبيان حول:

دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات (مطبقة على عينة من الخبراء المعنيين):
أولاً: البيانات الأولية:

١-

الاسم:.....(اختياري)

٢- النوع:

أ- ذكر.....()

ب- أنثى.....()

٣- السن:

أ- اقل من ٥٠ سنة.....()

ب- من ٥٠-٦٠ سنة.....()

- ج- من ٦٠ سنة فأكثر..... ()
- ٤- مصدر الخبرة الاساسي:
- أ- خبرة ميدانية..... ()
- ب- خبرة اكاديمية..... ()
- ثانيا: واقع حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات في تدمير المجتمعات:

م	الواقع	مدى وجوده		
		نعم	إلى حد ما	لا
أ	تستهدف حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات تدمير المجتمع من الداخل بأيدي ابناءه.			
ب	حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات مخطط لها بشكل فائق لبلوغ اهدافها بدقة.			
ج	تقوم حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على الاكاذيب ذات الحبكة المتقنة لتصديقها.			
د	تتجه حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات إلى الشباب في المقام الاول باعتبارهم الاكثر حماسا الاقل خيرة.			
هـ	تعتمد حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على برامج الانترنت القادرة على الخداع.			
و	تنطلق حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات من كافة وسائل الاعلام خاصة مواقع التواصل الاجتماعي لكونها متاحة للجميع.			
ز	تركز حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات على التشكيك في نظام الدولة لزعزعة ثقة المجتمع فيه فتتحقق الفوضى المطلوبة.			
ح	تستثمر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات نظرية المؤامرة في تضخيم الاحداث السياسية لتحطيم الامن القومي للدولة المستهدفة.			
ط	تحشد حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الرأي العام للتأمر على الدولة باستخدام شبابها المغرر بهم.			
ي	تستخدم حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات الارهاب كأداة لتدمير المجتمع من الداخل بأيدي المغرر بهم من			

			ابناءه •
			اخـ _____
			تذكر

ثالثاً: دور الوعي الاجتماعي في مواجهة حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات:

م	الدور	مدى فاعليته		
		نعم	إلى حد ما	لا
أ	المعرفة السليمة بالأهداف الخبيثة لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لافشالها •			
ب	الفهم الصحيح لمخططات حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتفادي الوقوع فيها •			
ج	كشف اكاذيب حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لإبطال تأثيرها •			
د	اقتناع ابناء المجتمع خاصة الشباب بمخاطر حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات ليتصدوا لها بالقوة المطلوبة •			
هـ	الانتباه لبرامج الانترنت القادرة على الخداع المستخدمة في حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتزييف الحقائق •			
و	اليقظة الدائمة لوسائل الاعلام خاصة مواقع التواصل الاجتماعي كمنصات لحروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتفادي مخاطرها •			
ز	الرفض التام لمحاولات حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات التشكيك في نظام الدولة لافشالها •			
ح	ابطال مفعول نظرية المؤامرة التي تستخدمها حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لتحطيم الامن القومي •			
ط	تكوين راي عام داعم للدولة ضد المتأمرين مستخدمي حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات •			
ي	محاربة الارهاب الذي تستخدمه حروب الجيل الرابع القائمة على الشائعات لهدم الدولة بيد ابناءها المغرر بهم •			
	اخـ _____			
	تذكر			

قراءة سوسيو - ثقافية

في نشوء وتطور الدولة العراقية الحديثة 1921-2021

أ.م.د. محمد حمود إبراهيم السهر

كلية الآداب - جامعة ذي قار

المبحث الأول: الإطار النظري والمنهجي للبحث

عناصر البحث:

أولاً- إشكالية البحث: إن العراق الذي تأسست الدولة الحديثة فيه العام 1921؛ لا زال وهو عند العام 2021، يفتش عن شكل، ونوع، وطبيعة الدولة التي يمكن أن تنجح فيه. لقد سبق تشكيل الدولة الحديثة في العراق تحت ظل ورعاية الانتداب البريطاني بداية العقد الثالث من القرن العشرين؛ أشكالاً متعددة من حكومات دول أجنبية سيطرت على جزء أو أكثر من أرضه؛ الأربعة قرون السابقة للتأسيس (1500-1918) خضع العراق فيها لاحتلالات عثمانية- صفوية عمقت الشرخ المجتمعي ذو الخلفية الدينية المذهبية الذي كانت بغداد تعاني منه بشكل خاص؛ إذ كانت تقوم (تلك أو هذه) على دفع جزء من المجتمع ضد الجزء الآخر على أساس التصنيف الطائفي والمذهبي- الديني، سبق ذلك ومنذ سقوط بغداد عام 1258؛ أن تعرض العراق لموجات من الغزو الأجنبي (هولاكو، جلائريين، تيمورلنك، الخروفيين الأبيض والأسود)؛ وكان قد سبق ذلك كله ثلاثة قرون (950-1258) من الحكم العباسي الضعيف الذي كان يخضع بدوره مرة للبويعيين، ومرة أخرى للسلاجقة.

إن هذه الدولة قد قضت الآن نحو قرن كامل ستبلغه عند هذا العام 2021. هذا القرن الكامل بأعوامه المائة لم يتمكن العراقيون من خلاله من إقامة دولة مستقرة؛ لا وفق الطراز الغربي الليبرالي المبني على الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة عبر صناديق الانتخاب؛ ولا وفق الطراز الشرق أوسطي المبني على حكم العائلات وتوارث السلطة؛ ولا وفق النموذج الثوري اليساري الذي كان

قد نجح في مناطق مختلفة من العالم. وكان آخرها النموذج التوافقي المبني على المحاصصة؛ الذي كان للأحزاب الدينية دور بارز فيه؛ ولقد فشل هو الآخر فشلا ذريعا في تحقيق أي من أهدافه وبرامجه السياسية سوى هدف الاستحواذ على السلطة، وتوزيع المغانم على الأهل والأقارب، والسير بالبلد نحو المجهول.

لقد فشلت كل التجارب التي حاولت إقامة دولة دائمة مستقرة طويلة الأمد، تلك التجارب التي تناوب عليها ليبراليون حاولوا التمثيل بالدولة الراعية الأولى للعراق الحديث بريطانيا العظمى، أو ضباط حاولوا تطبيق الطراز القومي، أو اليساري الذي كانت تنتهجه معظم حركات التحرر التي كان يقودها العسكر؛ ثم جاءت تجربة ما بعد 2003 التي استلمت فيها الأحزاب الدينية معظم مفاصل قيادة الدولة؛ لكن الجميع (ليبراليون، ويساريون، وقوميون، وإسلاميون)، الجميع فشلوا في إقامة دولة مواطنة حقيقية، ثابتة ومستقرة.

ولقد ظلت الدولة في العراق تتجاذبها صراعات القوى الكبرى، والإقليمية، وتتقاذفها المحن التي لم تسلم منها طوال المائة عام الماضية حتى لعقد واحد من الزمن تلتقط أنفاسها فيه؛ إذ كان العنف، والصراع، والقلق، والخوف، وهاجس الخيانة، والتآمر يسيطر على أفكار ورؤى الحاكمين والمجتمع على حد سواء. وكانت الدولة ما أن تتخلص من معضلة حتى تقع في أخرى أشد، وما أن تتحرر من أزمة حتى تقع فريسة لأزمة جديدة أشد وأقوى.

إن استمرار عملية الهدم بعد كل عملية بناء، جعلت العراق يعود عند العام 2020 إلى نقطة الصفر؛ إذ تمتلك اليوم المنظمات غير الخاضعة للدولة، والمؤسسات الدينية على اختلاف مسمياتها وتشكيلاتها، والروح القبلية والعشائرية التي صارت تتنامى بشكل سريع وخطير؛ تمتلك هذه المؤسسات مقومات استمرار وديمومة أكثر من الدولة ذاتها. ولقد أصبحت هذه التنظيمات تخترق كيان الدولة نفسه وتصيبه بالضعف والهزال، وكأن الوضع لا زال إن لم يكن أشد وطأة، مما تركه الملك فيصل الأول الذي ينسب إليه القول: (في اعتقادي لا يوجد شعب عراقي بعد، بل توجد تكتلات بشرية خيالية خالية من أية فكرة وطنية، متشبعون بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة)؛ أو كما ينسب للوردي: (بأن مزيج

من القيم المتناقضة تتحكم في سلوك الأفراد والجماعات في المجتمع العراقي بسبب وجود النهرين اللذين يسهمان في الزراعة والاستقرار من جانب، ومن جانب آخر قربها من الصحراء العربية التي تمدد على الدوام بموجات جديدة من الهجرات الكبيرة كانت آخرها قد بدأت منذ منتصف القرن الثامن عشر). هذه الدولة التي ينخر فيها اليوم الفساد المالي والإداري وتخضع للمحاصصة المقيتة قد حولت البلد الغني إلى مجرد غنيمة يتم تقاسمها بين أمراء السلطة، والحرب داخليا، وبين دول الإقليم خارجيا.

ثانيا- أهداف البحث: يهدف البحث - من خلال قراءة هادئة متأنية وفق منهجية علم اجتماع الثقافة- إلى تحديد عوامل نشوء وتطور الدولة الحديثة في العراق، ثم نكوصها خلال مدة قرن كامل من الزمن. بعض تلك العوامل والأسباب ظاهر للعيان، يتداوله الناس، وبعضها الآخر كامن، وخفي يغطس في أعماق الثقافة، يحمي نفسه من الرصد، في محاولة منه لانتقاء الضربات التي تتعرض لها العوامل الأخرى السياسية منها، والاقتصادية وغيرها؛ والتي تتفكك ثم تعيد نفسها من جديد. وحدها العوامل الثقافية تبقى قوية صلبة ذات تاريخ عميق، وطويل.

ثالثا- أهمية البحث: هل لمثل هذه الدراسة من ضرورة علمية؟ هل حقا نحن بحاجة إليها في الوقت الحاضر؟ الجواب نعم وبكل تأكيد، بل وأن الحاجة إليها ماسة وضرورية جدا؛ ذلك أننا نشهد اليوم مظاهر ضياع مائة عام من عمر دولة وكأنها ذهبت أدراج الريح؛ لتعود تلك الدولة إلى احتمالية أن تكون مهددة بالتشطي، والتفكك، والزوال. إن تلك (المشكلة الظاهرة) لجديرة حقا بالدراسة، والبحث، والنقضي من أجل كشف العوامل الغاطسة وعرضها على السطح، علها تتفكك وتزول، أو يقتنع المجتمع بعملية التفاعل، والتكيف إيجابيا معها، وإلا فإننا سنكون على استعداد تام للتفريط بمائة عام جديدة قادمة بكل سهولة، ويسر.

رابعا- تساؤلات وفرضية البحث:

إن جملة من الأسئلة تتبادر إلى أذهاننا ونحن نناقش هذا الموضوع، يمكن إجمالها بالآتي:-

ما الذي جعل المائة عام (1921-2021) تلك تذهب أدراج الريح؟ ما

الذي حصل؟ ولماذا؟ وكيف حصل؟

لماذا لم يتمكن المجتمع العراقي من بناء دولة ناجحة؟ ولماذا لم تستطع الدولة من دمج مكونات المجتمع العراقي في بوتقة واحدة؟ ولماذا لم تستطع الدولة، والمجتمع في العراق النأي بالنفس، والتخلص من شرك ما كان يحاك لهما من مؤامرات إقليمية؛ كانت ولم تزل تهدف إلى تقتيت الوطن، وإضعافه؟ ولماذا عجز الحاكم في الأعم الأغلب عن أن يكون عراقي قبل أي شيء آخر؟

لماذا لم يتخلص العراقي من العبء الثقيل الذي لا زال يحمله على عاتقه لكي يستطيع العيش بسلام؟

إن الباحث سيحاول في هذه الدراسة الإجابة على تلك الأسئلة، وأسئلة فرعية أخرى؛ إذ يقوم هذا البحث على فكرة أساسية قد تخرج عن إطار الأفكار الأخرى التي حاولت دراسة إخفاق الدولة العراقية في التقدم، والاستمرار. إن الفكرة هنا تتمحور حول العناصر المركبة، المتداخلة، والمعقدة التي تشكل الثقافة العراقية من عادات، وتقاليد، وأفكار، وقيم، وأعراف، ومعتقدات، وتراث شعبي، وفلكلور؛ والتي تشكل بمجملها تلك المنظومة المتميزة عن كل الثقافات المحيطة بها. ووفقاً لذلك فإن الباحث يعتقد أن الثقافة العراقية كانت هي العامل الأبرز في إحداث كل الأزمات، والمشكلات الكبرى والمعقدة التي وقع، ولا زال يقع بها هذا البلد؛ والتي أسهمت، ولا زالت تسهم في ديمومة التشظي، وعدم القدرة على لملمة الأجزاء في (كل موحد) دون إحداث الشرخ في الأجزاء الأخرى؛ إذ تعود تلك الأجزاء للتشظي من جديد بعد كل أزمة حقيقية، أو مفتعلة تطفو على السطح.

خامساً - فرضية البحث: يقوم البحث على افتراض علمي مفاده أن النسق الثقافي الذي هو أحد أنساق البناء الاجتماعي العراقي، يلعب الدور الأبرز، والأكثر أهمية في عدم اكتمال نمو كيان الدولة، وتطورها في العراق؛ وذلك من خلال التأثير المباشر، وغير المباشر في بقية الأنساق الأخرى. إن الثقافة التي هي مجموعة معقدة ومركبة من العادات، والتقاليد، والأفكار، والقيم، والمعتقدات، والأعراف، والذاكرة الشعبية، والمخيال الشعبي، والفلكلور، هي التي أسهمت ولا زالت تسهم في تصور فكرة الدولة في العراق لدى كل من الحاكم، والمحكومين،

السلطة والشعب، الحكومة والجماهير على حد سواء؛ فالعراق الذي هو وريث تلك الشعوب، والأمم القديمة التي تعايشت مع المياه وشيدت أساطيرها، وخرافاتها، وذاكرتها الجمعية، ورث من أسلافه الحاجة لحاكم قوي مستبد، عنيف ورحيم، متسلط ورؤوف؛ ولأن نوازع الخير تتواري أمام نوازع الشر خصوصاً عندما يصل المرء إلى سدة الحكم المطلق المستبد، فإن المجتمع في الغالب يكون هو الخاسر الأكبر.

إن الحكم الذي هو وفقاً للثقافة التقليدية، قوة وغلبة قبل كل شيء؛ تحوزه الطائفة، أو القومية في كيانها العام الشامل، ثم تستأثر به قبيلة واحدة من تلك القبائل ضمن الطائفة، أو القومية، ثم تختص به عائلة من ضمن القبيلة؛ ولكن حتى مع عدم حصول الملايين من تلك الطائفة أو القومية التي ينتمي إليها الحاكم، عدم حصولها على فرص عادلة؛ فأن الأفراد والجماعات فيها تتصهر داخل جسد المكون الكبير خوفاً، ونكاية بالآخر؛ هذا الآخر الذي يتعلم منذ نعومة أظفاره كيف يبغض ويكره شريكه في الوطن ليس لسبب، سوى لأنه يختلف عنه في المعتقد؛ أو لأن خطبة رجل الدين، أو حكاية قصتها الجدة، أو حديث في مقهى، أو مقالة في صحيفة، أو فكرة في كتاب، أو دراما تلفزيونية تناولت حدث قديم، وعتيق مرت عليه مئات السنين كانت قد قامت به طائفة الآخر ضد طائفة المتلقي. إن العناصر العميقة، والعقيمة القابعة في الذاكرة الجمعية؛ والتي يتم تناقلها عبر عملية التنشئة الاجتماعية؛ يتم شحذها، وديمومة استمرارها وبعث الروح فيها كلما خبت من خلال فقهاء الطوائف، ووعاظ السلاطان لأنها أقصر الطرق التي تؤدي إلى تجهيل المجتمع وبالتالي سهولة السيطرة عليه.

المبحث الثاني: الدولة والمجتمع

ما المجتمع العراقي؟ ما هي مكوناته؟ وما هي بنيته؟ وكيف استطاع نظامه الاجتماعي من أن يستمر؛ على الرغم من كل ما تعرض له من صدمات مادية تتمثل في سفر طويل من الصراع الداخلي والخارجي، وصدمات معنوية تتمثل في ما تعرض له الأفراد والجماعات من ثقافات عصرية جديدة نتيجة التعليم، والسفر، والاحتكاك، والانترنت؛ سنحاول عبر المباحث القادمة تفسير هذه الظاهرة من خلال قراءة سوسيو-ثقافية؛ تعتمد مقاربات عالم الاجتماع

الفرنسي ببيير بورديو بشكل أساس؛ مضافا لها بعض مقاربات التفاعلية الرمزية بالأخص منها ما يتعلق بالرمز والمعنى، قراءة تبحث في طبيعة وشكل الدولة والمجتمع في العراق طيلة قرن كامل.

إن العراق الحديث هو حصيلة العملية التدريجية للتوحيد الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي للولايات العثمانية الثلاثة بغداد، والبصرة، والموصل، توحيداً نجم عنه وطن واحد، وسوق وطنية واحدة. ولم تكن تلك العملية وليدة الساعة عند العام 1921 وإنما كانت قد بدأت منذ الاحتلال التركي الثالث لبغداد عند العام 1831 واشتد زخمها منذ ستينيات القرن التاسع عشر، حتى أفضت إلى تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة تحت الاحتلال البريطاني في العام 1920.⁽¹⁾

- 1- Philip Willard Ireland, *Iraq: A study in political development*, (London: Routledge, 1937), p. 277.

لقد تأسست الدولة العراقية الحديثة العام 1921 تحت ظل ورعاية بريطانيا التي منحت العراق الكثير وسلّبت منه الكثير؛ فلقد منحت حدود مميزة مع دول محيطة به، لا زال بعضها يعتقد أن له الحق في أجزاء من أرضه؛ إذ الحدود مع تركيا، وإيران، والشام، ونجد كانت لصالح العراق. ولم يكن للعراق أن يحقق ذلك لو لا وقوف بريطانيا - القوة العظمى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى - إلى جانبه؛ إذ لم يستطع الفرنسيون في سوريا، ولا أتاتورك في تركيا، ولا الشاه في إيران، ولا ابن سعود في نجد أن يقفوا في وجه بريطانيا وهي تمنح العراق هذه الخريطة الرائعة. إن القنبلة الموقوتة الوحيدة كانت في الحدود البرية، والمائية مع إمارة الكويت، والتي انفجرت أخيراً في الثاني من آب 1990، أي بعد مرور سبعة عقود كاملة على تأسيس الدولة العراقية الحديثة؛ ولا زالت الشظايا والأجزاء غير المنفصلة من تلك القنبلة تنذر بالخطر بين مدة وأخرى. ومن الغريب أن العراقيين يعودون عند العام 2020، وبعد أن أعيتهم الحيلة في التوافق على يوم وطني، وعلم وشعار موحدين؛ تعود حكومتهم في آب 2020 لتصوت على اعتبار الثالث من تشرين الثاني يوماً وطنياً للعراق، ذلك اليوم الذي أنهت فيه بريطانيا انتدابها على العراق عام 1932 ليصبح أول دولة عربية عضواً في

عصبة الأمم، حتى قبل مصر أكبر البلدان العربية وأقدمها في بناء الدولة الحديثة.

لم يقتصر دور بريطانيا المحوري في تأسيس، ودعم الدولة العراقية على تنظيم الحدود، ودعم البلد في وجه الأطماع الإيرانية، والتركية، والنجدية؛ بل لقد أسهم البريطانيون في بناء نظام متكامل (إداري - اقتصادي - سياسي - تربوي) متطور، لا زال العراقيون ينظرون إليه بإعجاب، وهم يطلقون عليه مصطلح (أبو ناجي). لقد كان في رسم الحدود، وتحديد العاصمة، والعلم الوطني، وشعار الدولة؛ قيمة رمزية كبيرة، إذ بعد أن كان لكل عشيرة بيرقها وشعارها الخاصين بها، ها هي الدولة الجديدة ترفع لها علم، وتضع لها شعار وطني عام وشامل. أما من ناحية الأمور التشريعية فقد تم وضع دستور، وقانون انتخابي، وجمعية تأسيسية، وقانون أساسي، ومحاكم، وشرطة، وجيش، وتنظيمات اقتصادية، ونظام ضرائب، ونظام تعليم وطني كان يتم من خلاله نشر الثقافة الوطنية العراقية الجديدة.⁽²⁾

2- Rupert Emerson, Iraq: *The End of Mandate*, (Foreign Affairs, January, 1933), pp. 356-359.

لقد تم ضم العراق إلى المنظمة الدولية عبر الاعتراف بسيادته وقدرته على تنظيم وإدارة نفسه، وتفاعله مع الأمم الأخرى بما فيها القوى الكبرى مثل الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وفرنسا. ولقد جاء انضمام العراق إلى عصبة الأمم ليشير إلى الاهتمام البريطاني الكبير بهذا البلد بحيث أسهمت بدخوله إلى أكبر محفل دولي حينذاك كأول بلد عربي يصل إليه.

وإذا كانت هذه أوضاع الأرض والطوبوغرافيا، فإن أوضاع الديموغرافيا كانت مختلفة، إذ كان التنوع والثراء الكبير في مكونات المجتمع العراقي يشير إلى مصدر قوة لو كان هناك قادة بلد كبار يوظفون ذلك التنوع لصالح البلد والدولة والوطن والمجتمع؛ لكن وعلى العكس من ذلك، فلقد تحول هذا التنوع إلى مصدر للاختلاف والنزاع والتصادم. ولم تكن التقسيمات الكبرى من عرب (سنة وشيعة)، وأكراد وتركمان، وأقليات يهودية ومسيحية ومندائية وايزيدية وسواهم، لم

تكن تلك التقسيمات موحدة لذاتها؛ إذ ما أن يختلي كل مكون مع نفسه، ويعيش حالة سلام مؤقت مع المكونات الأخرى، سواء أكان النزاع بينها ماديا أم معنويا، حتى تعود تلك المكونات إلى الاختلاف فيما بينها؛ لأن هذه المكونات في الأساس كانت تشعر بأن هنالك ظلم، وحيف، وإجحاف يرتكبه الآخر المغاير بحقها؛ هذا الآخر الذي يكون من قومية أخرى (العرب ضد الأكراد)، (والأكراد ضد التركمان)، أو من دين آخر (المسلمون ضد الديانات الأخرى)، أو طائفا (السنة ضد الشيعة)، أو طبقيًا (الشيخ ضد الفلاح)، و (الجلبي ضد العامل)، أو مناطقيًا (الحضر ضد الريف، والمدينة ضد القرية)، أو معرفيًا (المتعلم ضد الأمي)، أو على أساس الجندر (الرجل ضد المرأة)، أو على أساس الفئة العمرية (الكبار ضد الصغار)؛ وهكذا تتمدد، وتتعدد، وتلتوي، وتتداخل شبكة الاختلافات داخل هذا المجتمع الذي وجد أفراده أنفسهم على حين غرة في دولة يمنحون فيها هوية أحوال مدنية يشار للفرد منهم على أنه عراقي.

لقد كان المجتمع العراقي عند تشكيل الدولة، والحال هذه، يعاني من التوتر المزمن بسبب الصراع الثقافي المعقد والطويل؛ إذ كان ينقسم على نفسه، وينشطر على ذاته من خلال التنظيمات الدينية والطائفية من جهة، ومن جراء الصراع المستمر بين القبائل من جهة ثانية، وثالثة من خلال الفجوة المكانية والنفسية التي تفصل بين أجزائه ومجتمعاته (كردية - عربية - تركمانية)، أو (مسلمة - يهودية - مسيحية - مندائية - ايزيدية)؛ بل تظهر الاختلافات حتى داخل الطائفة الواحدة مثل الاختلاف بين (الحنابلة، والأحناف، والشافعية) لدى السنة، وآخر بين (الأخبارية والأصولية) لدى الشيعة، أو حتى داخل القومية الواحدة (أكراد السليمانية وأكراد أربيل)؛ ثم هناك الانقسام بين المدينة والقرية (الحي والمحلة مقابل القبيلة)، وصراع الأجيال بين التقليد والحداثة، والصراع الطبقي، لتظهر لنا في النهاية قطعة سيففساء ممزقة، من العسير تخليص خيوطها بسبب تشابكها، ومن الصعوبة أيضا إعادة نسجها من جديد.

لم يكن للعراقي قبل العام 1921 شعور نفسي - ثقافي موحد بعراقيته، لكن التغيرات الكبرى التي نتجت عن الحرب العالمية الأولى، وبداية تشكل الدول في الشرق الأوسط، منحت العراقيين شعور يتمثل في أنهم أصبحوا ضمن دولة جديدة

لها أسم موحد، وحدود معروفة. وكانت شرارة الشعور بالوطنية العراقية قد انطلقت في الثلاثين من حزيران العام 1920، عندما أدت تلك الحركة المسلحة ضد الاحتلال البريطاني إلى ظهور وليد جديد بدأ ينمو، ويتطور في شعور ووجدان الناس الذين صاروا لأول مرة يشعرون بأن لهم هوية وطنية حالهم حال الأتراك والفرس.

لقد كانت الحالة العراقية عند منتصف عشرينيات القرن العشرين، من الصعوبة بمكان المضي فيها بنجاح، فما أن تم ترسيم حدود الدولة حتى راحت مختلف الجماعات الأثنية في هذه الدولة - الأمة الجديدة تشعر بالمرارة جراء فقدان الاستقلال الذاتي السابق. وهكذا يظهر لنا الانقسام العربي - الكردي معلم ينتمي لعصر القوميات، أما الانقسامات الدينية - المذهبية، والحضرية - القبلية فإنها تعبر عن أو تنتج من الإرث التاريخي الاجتماعي الإسلامي. أما المشكلة الكردية فكان أن اشترك فيها في الأساس كل من تركيا الاتاتورية وبريطانيا والملك فيصل نفسه الذي طالب بضم المنطقة الكردية إلى الدولة الوليدة لغرض إحداث التوازن في الحالة العراقية، بعد أن وجد الملك نفسه أمام أغلبية شيعية، وسنة أحناف، في الوقت الذي يحتاج فيه وهو السني الشافعي إلى وجود الأكراد لأنهم شوافع.⁽³⁾ أنظر إلى تعقد المشهد العراقي، فلقد وجد الملك نفسه في خضم بحر متلاطم الأمواج، فحتى العرب الذين جاءهم هو كعربي وجدهم ينقسمون إلى سنة وشيعة، وحتى السنة الذين ينتمي إليهم وجدهم على مذهب أبي حنيفة النعمان

3 - فالح عبد الجبار، كتاب الدولة - اللويثان الجديد، نقله إلى العربية فريق من المترجمين، ط١ (بغداد - بيروت: منشورات الجمل، ٢٠١٧)، ص ١٠٨-١٠٩.

صاحب مدرسة الرأي العراقية الخالصة، فولى وجهه شطر العراقيين الأكراد لأنهم سنة شوافع عله يجد فيهم سند في مواجهة أبناء قومه من العرب الذين ربما ينقلبون عليه في أية لحظة.

المبحث الثالث: مكونات المجتمع العراقي ومكوناته

لقد كان ترتيب المكونات الدينية، والإثنية (العرقية) لسكان العراق عند العام

1947 يشير إلى: (4) أن العرب الشيعية يأتون في مقدمة المكونات وبنسبة 51.4%، يليهم في الترتيب نظرائهم من العرب السنة بنسبة 19.7%، ثم الأكراد السنة بنسبة 18.4%؛ وفي هذا إشارة واضحة إلى أن المجتمع العراقي كان ينقسم عرقياً، وطائفياً إلى ثلاثة مكونات كبرى تستحوذ على ما مجموعه أكثر من 90% من المجموع الكلي للسكان؛ تتركز هذه المكونات في أجزاء رئيسية من العراق: العرب الشيعية جنوب بغداد حتى البصرة، والعرب السنة غرب وشمال غرب بغداد حتى الحدود مع سوريا والأردن، والأكراد في شمال البلد على الحدود الشمالية مع تركيا والشمالية الشرقية مع إيران. أما العشرة بالمائة الأخيرة فقد كانت نسبة مهمة جداً لأنها وعلى الرغم من ضعفها العددي مقابل المكونات الأخرى، إلا أنها كانت تمتاز بالتنوع على حساب الكمية، حيث المال والتعليم والبعد الدولي، إضافة إلى الإرث العراقي الخالص. لقد كان نزيف العراق للعشرة بالمائة المهمة من سكانه تلك؛ قد بدأ منذ قمع الآثوريين ثلاثينات القرن العشرين، ثم تهجير اليهود منذ العام 1948، ثم طرد البهائيين، ثم تهجير الكرد الفيليين، تلتها هجرة المسيحيين والمندائيين منذ تسعينات القرن العشرين وانتهاء بسبي الأيزيديين عند العام 2014. ولقد شكلت تلك الأقليات عند العام 1947 نسب متباينة، إذ جاءت نسبة المسيحيين 3%، ونسبة اليهود 2.6%، والفرس الشيعية بنسبة 1.2%، والتركمان السنة بنسبة 1%، ثم التركمان الشيعية بنسبة 0.9%، والأيزيديون والشبك مجتمعين بنسبة 0.8%، والأكراد الشيعية (الفيلية) بنسبة 0.6%، وأخيراً الصابئة المندائيين بنسبة صغيرة تصل إلى 0.2%.

(4) أنظر: حنا بطاطو، العراق - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الجزء الأول، ترجمة عفيف الرزاز، ج ١، ط ١ (طهران: منشورات فرصاد، ٢٠٠٥)، ص ٦٠.

وبنظرة سريعة إلى تلك النسب من المكونات الدينية، والعرقية لمجتمع لا يصل مجموع سكانه إلى خمسة ملايين نسمة منتصف القرن العشرين؛ ندرك كم هي معقدة ومتداخلة تلك التركيبة التي لم يكن ينفع معها من علاجات أو حلول سوى دولة عراقية قوية تحتوي الجميع، تعتمد معيار المواطنة، وتطبق القانون بصرامة، ووفقاً لتلك المؤشرات نستنتج ما يلي:-

- 1 - أن المجتمع العراقي يتشكل من فسيفساء من الصعوبة سحب خيوط نسيجها، إذ ينقسم العرب، والأكراد، والتركمان إلى شيعة وسنة مذهبياً؛ ومثلها تنقسم القبائل سواء منها العربية التي ظلت تغذي البيئة العراقية بموجات جديدة من السكان استقرت على ضفاف الفرات بين راوة وسوق الشيوخ، أو تلك التي انتقلت إلى منطقة الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات وعبرت منها باتجاه ديارى، أو تلك التي عبرت من نجد نحو جنوب البصرة.
- 2 - أن تلك المكونات لم تكن تشعر بروابط وطنية تجمع بينها قبل الاحتلال البريطاني، وما تبعته من أحداث للمدة بين 1914 و 1920 مثل؛ فشل معاهدة سيفر في إفراز حدود مستقلة لدولة كردية في شمال العراق وغرب إيران وشرق تركيا، وأحداث دير الزور وانتقالها إلى تلعفر، وانتفاضة النجف، وانتفاضة السليمانية وغيرها من الأحداث التي صارت تقع في حيز جغرافي معلوم؛ كانت بريطانيا تعمل على إقامة دولة فيه تحت رعايتها. ولقد جاءت ثورة العشرين لتكون بذرة الشعور الوطني في العراق الذي ظل ناقصاً، أو متذبذباً بين قوة وضعف، وترحيب وصدود، وفي اعتماد الفكرة وتبنيها، أو رفضها والتكرار لها؛ فاليهود والمسيحيون كانوا يخوفون من إقامة دولة عربية ذات عقيدة دينية إسلامية بسبب ما تعرض له أسلافهم طوال القرون الماضية من تهمة، وإقصاء، وتتكيل على يد الدول التي كانت تقوم في العراق، أما الأكراد فقد كان حلم قادتهم في كيان دولة مستقلة يمثل قوميتهم، وخصوصيتهم الثقافية وتاريخهم المشترك.
- 3 - كان من الواضح أن قيادات الدولة الوليدة تتمركز في قومية وطائفة واحدة؛ وربما يعود ذلك كما أشار العديد من الباحثين إلى عدم وجود مهارات، أو خبرات سياسية وإدارية لدى الشيعة، والأكراد مثل تلك التي كانت لدى نظرائهم العرب السنة الذين حازوا المناصب القيادية العليا في الوزارات، والجيش، والإدارة. لقد عادت الذاكرة الجمعية إلى الخزان العميق، والعقيم غير المعقم الذي يحتوي على سلسلة من الصراعات الدموية بين الشيعة والسنة منذ تأسيس بغداد على يد العباسيين عام 750 ميلادية وحتى سقوطها على يد البريطانيين عام 1917؛ هذا الخزين الثقافي الذي يتمحور حول قناعة السنة

في أنهم مفوضون بواسطة القرآن والسنة النبوية في أن يكونون ولاية أمر الأمة؛ تقابلها قناعة الشيعة في أن حق أئمتهم في قيادة الأمة قد تم سلبه منذ يوم سقيفة بنو ساعدة؛ وهكذا فلقد تم اختزال 1300 عام لتعود قيادات الطائفتين إلى معيّنهم الذي لا ينضب من الحقد، والبغض، والكراهية، والصراع الخفي الذي يتجذر في اللاشعور ويتحول إلى ثقافة قوية عميقة، وراسخة توجه السلوك اليومي المعاش.

4- لم تستمر الحال طويلاً بالدولة الفتية حتى ظهرت العيوب وطفّت فوق سطح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكان المحرك ثقافي بامتياز. فلقد انطلقت انتفاضات في الشمال والفرات الأوسط والجنوب، من أبرزها انتفاضة الآثوريين، والفرات الأوسط، وسوق الشيوخ عام 1935، وكانت شعارات تلك الانتفاضات (نريد المساواة). أنظر كيف شعر الناس بالغبن بعد مرور عقد ونصف فقط على تشكيل الدولة، بل أن الشعور بذلك كان بصورة مبكرة، إذ ينقل ضابط بريطاني رفيع، أنه كان ذات يوم من العام 1924 يقود سيارة مكشوفة في المنطقة التي جرت فيها معركة السوير بين عشائر الظوالم والقوات البريطانية عام 1920؛ وكان يجلس إلى جانبه شعلان أبو الجون مفجر تلك الثورة؛ ثم ينقل هذا الضابط صورتين لأبي الجون: واحدة يضحك فيها رافعا رأسه إلى السماء وهو يقول: (صديق عمامك هنا ثبعت بيهم الواوية) في إشارة إلى عدد القتلى الكبير من الانكليز والهنود الذين صاروا طعاماً للثعالب بعد هزيمتهم النكراء في تلك المعركة، أما الصورة الأخرى فقد كان أبي الجون مطأطأ الرأس فيها، بعد أن قام بصفع جبهته ندماً على قيامه بالثورة وتكبيد عشيرته الخسائر الكبيرة؛ بينما كانت النتيجة مناصب وزارية وعسكرية وسياسية رفيعة حازها (النايمين للضحى) كما كان يسميهم من الضباط الشريفين والعائلة المالكة وبعض العوائل البغدادية. ولقد شعر قائد آخر من قادة ثورة العشرين بنفس المرارة التي شعر بها شعلان أبو الجون، ذلك هو رئيس عشائر الفتلة الذي قاد انتفاضة 1935 في الفرات الأوسط احتجاجاً على الحكم (العربي البغداي ذو الطابع السني).

5 - على الرغم من أن الملك فيصل كان قد حاول مسك العصا من الوسط في

مواجهة مجتمع مجبول على الجدل والاختلاف، مصقول في التنافس والصراع، مأزوم بالتاريخ والتراث، عصي على الانقياد، مستعد للتمرد والعصيان، فما كان من فيصل إلا أن حاول المزج بين القوة وكسب الود؛ عل الرغم من ذلك، إلا أن الضباط الشريفيين الذين صاروا يتناوبون على رئاسة الوزراء بعد حكومة عبد الرحمن النقيب البائسة التي كانت فلتة لم يقي الله العراقيين شرها، إذ أصبحت رئاسة الحكومة يتم تداولها بين عبد المحسن السعدون، وجعفر العسكري، وياسين الهاشمي، ونوري السعيد، وبكر صدقي وغيرهم من الضباط الشريفيين الذين مالو بقوة نحو القوة والإجبار فتم قمع الأشوريين، والأكراد والشيعية على حد سواء؛ حتى إذا ما مات الملك المؤسس دخل هؤلاء الضباط في صراع محموم على السلطة في ظل وجود ملك ضعيف ليس لديه عشر خبرة وكياسة والده؛ فجاء انقلاب بكر صدقي عام 1936 ليؤسس لعصر الانقلابات في المنطقة العربية، إذ كان هو الأول على الإطلاق؛ ثم لتزداد الأمور سوء بعد موت غازي وتحول العرش إلى طفل تحت وصاية خاله، يحيط به عدد كبير من القادة العسكريين والسياسيين المحنكين، وكبار ملاك الأراضي من الاقطاعيين، وتجار المدن من الجلبين؛ في الوقت الذي ارتفع الوعي لدى عامة الشعب نتيجة انتشار التعليم الحديث، وانتشار الأفكار والايديولوجيات العلمانية وعلى رأسها الأفكار الماركسية؛ حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الثانية وخرج العراق من الاحتلال البريطاني الثاني الذي جاء بعد حركة رشيد عالي الكيلاني والضباط الأربعة عام 1941، بلغت الدولة العراقية حالة من النضج بعد تطور اللحمة الوطنية العراقية في الخمسينيات خصوصا نتيجة الوفرة المالية التي ظهرت بعد اتفاق العراق مع شركات النفط العالمية العاملة في حقوله وحصوله على نصف الأرباح. لقد تم إنشاء مجلس الإعمار الذي قام بالتأسيس لبنية تحتية متطورة في عموم البلد، إلا أن الجمرة ظلت مختبئة تحت الرماد، إذ لم تتمكن الدولة وعلى الرغم من مسيرتها في العهد الملكي الذي استمر لمدة سبعا وثلاثون عاما، لم تتمكن من زرع وتطويع شجرة المواطنة.

6 - وهكذا يبدو لنا شكل وحجم المكونات الخفية للمكونات المختلفة في البناء

الاجتماعي العراقي، والتي كانت بحاجة إلى دولة حاضنة للجميع تعتمد المواطنة والكفاءة في عملية تقييم مواطنيها، وليس الإثرة وتحويل الموارد إلى غنيمة توزع على أفراد الفئات والشرائح الحاكمة.

المبحث الرابع: تحقيق أطوار الدولة

يمكننا تقسيم المائة عام الماضية من عمر الدولة العراقية الحديثة إلى تصنيفات عدة؛ منها: أن نقوم بشرط القرن إلى نصفين، كل نصف أمدته خمسون عاما؛ إذ يكون لدينا الشرط الأول منه مشتملا على المدة الزمنية (1921-1970)، فيما يمتد الشرط الثاني من العام (1971 وحتى 2021). ومع أن هذا التصنيف قد لا يبدو منطقيا لأنه لا يحتوي على مضامين ودلالات تربط مفردات كل شرط مع بعضها، إذ يحتوي الشرط الأول على 37 عام من الحكم الملكي، وعشرة أعوام من الحكم الجمهوري بأطواره القاسمية والعارفية، يضاف إليها الأعوام الثلاثة الأولى من عمر حكم البعث، فيما يشتمل الشرط الثاني على حكم البعث كاملا حتى سقوطه عند العام 2003، ثم على الثماني عشرة عاما الأخيرة (حكم المحاصصة الطائفية، والأثنية)؛ أقول حتى مع ذلك، فأني أعتقد أن من الممكن اعتماد هذا التصنيف؛ خصوصا إذا ما علمنا أن الدولة العراقية في شطرها الأول (النصف الأول من عمرها) حتى مع وصول العسكر إلى السلطة، وحتى مع أحداث العنف الشديدة التي عمت أرجاء البلد؛ من انتفاضات شعبية وانقلابات عسكرية، تم تتويجها بانقلاب 14 تموز 1958، والانقلاب الأكثر دموية في شباط 1963؛ أقول: حتى مع تلك الأحداث الدموية، فإن الدولة لم تكن قد دخلت بعد في نموذج الدولة التوتاليتارية الشمولية ذات العقيدة الحزبية الواحدة، التي تعتمد القوة المفرطة، والتعبئة الشاملة، والعصبية القبلية في ديمومة وجودها.

لقد دخلت الدولة العراقية في طور ديكتاتورية الحزب الواحد بعد وصول البعثيين إلى السلطة في تموز عام 1968؛ وخصوصا في ظل القيادة الشابة لصادق حسين ورفاقه من البعثيين الطامحين للسيطرة الكاملة، إذ كانت الدولة تسير في طريق ديكتاتورية الفرد. ولقد كان المؤمنون بنهج نموذجهم الأعلى (صادق)؛ يعملون بكل ما لديهم من قوة على تمكينه من الوصول بهم إلى تلك

النقطة الفارقة في تاريخ البلد؛ بعد أن أثبت مهارة عالية في التنظيم الحزبي، وجدارة في التخلص من كل النماذج التي لم يكن مرغوباً بها، سواء منها تلك القديمة التي لا تتلاءم مع طبيعة حركتهم السريعة المنفلتة مثل صالح مهدي عماش، وکردان التكريتي، أو تلك التي وصفوها بالانتهازية التي سوامتهم على مشاركتهم السلطة لقاء سكوتها عن التبليغ ضدهم عشية الانقلاب، مثل عبد الرزاق النايف، وإبراهيم الداوود. وما أن حل حزيران العام 1973 حتى تم التخلص دفعة واحدة من قيادات لم يكن من الممكن لها الاستمرار إلى جانب وجود صدام حسين في السلطة؛ فكان أن تم التخلص من ناظم كزار، وحمادي شهاب، وتحيد سعدون غيدان. ولم تمضي سوى ستة أعوام وشهر واحد على ذلك، حتى تمت إقالة البكر في تموز 1979 وتصفية كل العناصر القيادية المهمة في الحزب والدولة من الذين يعتقد أنهم لم يكونوا يؤمنون بوجود صدام حسين على رأس السلطة في العراق.

وهكذا نجد أن العقد الأول من النصف الثاني من عمر الدولة العراقية كان مفعماً بالعمل الجاد والدؤوب لقيام السلطة الدكتاتورية الشاملة تحت قيادة صدام حسين، التي وصلت بالفعل في تموز 1979؛ والتي ارتكبت اخطاء استراتيجية كبرى أدخلت البلد في مأزق الانسداد شبه التام؛ عقدان وثلاثة أعوام اشتملت على حربين مدمرتين وحصار اقتصادي شامل، وعزلة دولية خانقة، وانفصال المحافظات الشمالية ذات الأغلبية الكردية، وتدمير البنى التحتية، وانتهاء قوة العراق العسكرية، وتفتيت بنية المجتمع العراقي؛ وأخيراً التسبب بالاحتلال الأمريكي الذي أدخل نظام المحاصصة الطائفية، لتبدأ صفحات جديدة جميعها سوداء، تمثلت بالاحتراب الأهلي، وسقوط ثلاث محافظات بيد الدولة الإسلامية، واستشرى آفة الفساد الإداري والحكومي الذي نخر مفاصل الدولة والمجتمع على حد سواء، فانطلقت على إثر ذلك الاحتجاجات الشعبية في الأول من تشرين أول 2019.

ومع ذلك فمن الممكن لنا أن نستعرض تحقيق آخر لمسيرة الدولة الحديثة في العراق خلال المائة عام الماضية، والتي يمكن إجمالها بالآتي:-
١. النشأة تحت ظل سلطة الانتداب (1921-1932).

٢. الاستقلال الأول تحت الرعاية البريطانية (1932-1941).
٣. الدولة تحت ظل الاحتلال البريطاني الثاني (1941-1945).
٤. الدولة في ظل الاستقلال الثاني (1945-1958).
٥. الدولة في ظل حكم العسكر - عبد الكريم قاسم والأخوين عارف- (1958-1968).
٦. الدولة في ظل البعث - البكر وصادم- (1968-1979): دولة تسلطية يقودها حزب واحد تعتمد الريع النفطي، إلى جانب القمع والإجبار، يرافقهما أدلجة التربية وعسكرة المجتمع.
٧. الدولة في ظل صدام (1979-2003): دولة تقودها أسرة توليتارية، الأسرة يقودها ديكتاتور مستبد.
٨. الدولة في ظل الاحتلال الأميركي (2003-2011): دولة عض الأصابع ولي الأذرع.
٩. الدولة في مهب الريح (2014-2020): نظام دولة اللا دولة.
١٠. الدولة والفرصة الأخيرة (..... - 2020).

ولقد كان العنف، والقسوة، والفساد هو القاسم المشترك لكل تغيير يحدث في شكل تلك الدولة منذ تأسيسها وحتى اليوم، وكان وضع البلد وكأنه قد وضع في مرجل يغلي على الدوام، ولقد أسهم سفر العنف الطويل في هذا البلد إلى استبطانه (العنف) ثم استظهاره على شكل سلوك يومي معاش يتمثل في جميع تفاصيل الأفراد والجماعات في المنزل، والشارع، والمجتمع المحلي، والدائرة الحكومية، والمدرسة، والجامع، بل وحتى في علاقات الحب.

المبحث الخامس: السنة والشيعة في العراق (نموذج لعقدة الخلاف و الاختلاف المزمنة)

لن نعود إلى سفر الصراع السني- الشيعي الطويل والمقيت، لكننا نحاول هنا أن نبحث في الكامن والمخفي من الثقافة الذي ينتج صوراً تطفو على سطح الواقع؛ لتتحول بدورها إلى أزمة أو تصبح هي ذاتها أزمة. إن نقطة الاختلاف الأولى وكما هو معروف، تعود إلى اعتقاد الشيعة بأن بعضاً من الصحابة قد

تسبب في سلب الإمام علي بن أبي طالب حقه في خلافة النبي، ثم تتطور المشكلة بعد اعتقاد السنة بأن أصحاب علي قد تسببوا في قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان؛ ثم ينقسم أولئك وهؤلاء حول النظر إلى الأحداث التي جرت بين طرفين من صحابة النبي، على رأسها معركة الجمل، ثم الحرب الطويلة بين جيشي علي ومعاوية، ثم اغتيال الإمام علي، ووصول السلطة كاملة إلى أيدي معاوية، ثم ما جرى طوال عشرين عاما بين 61-41 هجرية تكللت بمقتل الإمام الحسين بن علي في العراق عام 681 ميلادية.

لقد كان العراق ساحة لمعظم الصراعات التي حدثت بين الإمام علي ومناوئيه، أو بين السلطة ومؤيدي علي بعد مقتله، كما أن العراق كان ساحة لسلسلة من الثورات والانتفاضات للمدة بين 681 وحتى 1258 للميلاد؛ تلا ذلك تعميق الشرخ وتجذره بين السنة والشيعة في ظل الصراع الجيو-سياسي الذي كان يجري بين العثمانيين والصفويين طوال القرنين السادس عشر، والسابع عشر. لكن في الحقيقة فإن هذا الصراع كان محصورا في العاصمة بغداد ولم يشكل أمرا مهما لبقية العراقيين الذي كانوا يعيشون في البلدات، والقرى، والأرياف البعيدة الممتدة على ضفاف شبكات الجداول، والأنهار على طول العراق وعرضه. لقد كان الإنسان مشغولا في البحث عن قوته، وفي الدفاع عن كيانه الذي يتمثل في العشيرة والقبيلة، وفي الالتصاق بالأرض التي هي مصدر رزقه وعمود ديمومته؛ إذ هو العراقي الذي لا يجد للحياة من معنى دون الأرض الخصيبة والمياه العذبة، ودون العيش في كنف العشيرة، أو الحي السكني، أو المحلة في المدن على قلتها.

إن الصراع الذي كان يجري في بغداد، اشتمل على سفر طويل من الصراع النفسي والثقافي أكثر حتى من كونه صدام مادي مسلح؛ على الرغم من أن حوادث الصراع بين الطائفتين عندما كانت تحدث، فإنها تكون مدمرة تصل إلى إراقة الدماء، وحرق الأحياء السكنية، والتهجير على أساس الهوية الطائفية، وقد تصل إلى حرق المراقد المقدسة كما حصل مع الشيعة حينما أحرقوا مراقد مقدسة لدى السنة أيام البويهيين، وكما حصل كذلك مع السنة حين أحرقوا مراقد ومقامات مقدسة لدى الشيعة أيام السلاجقة. حقا أننا نقف عاجزين ونحن ننظر إلى التاريخ

كيف يتمكن من اختزال نفسه، وللتقافة كيف تتمكن من إعادة إنتاج ذاتها عند العامين 2006-2007 حينما اندلعت نار الحرب الطائفية في بغداد بعد تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء؛ وكأن الألف عام بين القرنين الحادي عشر، والحادي والعشرين لم تكن سوى يوماً أو بعض يوم.

لكن التاريخ العراقي وحتى في ظل جذوة الصراعات الطائفية بين الشيعة والسنة؛ لم يشهد أن تحول الصراع فيه إلى حرب أهلية شاملة تعم أنحاء العراق كافة؛ ولم يتحول إلى صراع إبادة، مع مقدرة كل طرف على إبادة الطرف الآخر أثناء امتلاكه القوة، والاستعانة بالأجنبي بوبهيا كان أم سلجوقيا، صفويا كان أم عثمانيا؛ لكن ذلك لم يحدث. ومن الغريب أن بغداد عادت عند ربيع العام 2006 إلى الوراثة كثيرا، فحدث فيها ما كان يحدث بين السنة والشيعة في الأيام الخوالي، وكأن القرون الطويلة الفاصلة بين الماضي والحاضر كانت مجرد أوهم، وحزم من السراب. لكن الحرب سرعان ما انطفأت، بينما بقيت جمة ثقافة الاختلاف كامنة تحت الرماد تنتظر من ينفخ عليها لتشتعل حرائق من جديد، ولا يبدو أن هنالك من حل سحري لإطفاء تلك الجمة الخبيثة سوى القيام بعمل جبار يؤديه المجتمع والدولة قوامه: (أن العراق للجميع، وأنه هو الأول وقبل كل شيء آخر). ولنا أن نطرح على أنفسنا الأسئلة التالية:-

١- لماذا لم يتحول هذا الصراع إلى حرب أهلية شاملة تغطي كامل الخريطة العراقية؟

٢- ولماذا لم تقم إحدى الطائفتين بالإجهاد الكامل على الطائفة الأخرى أثناء هزيمتها؟

٣- وإذا كان ذلك لم يحصل، لا الحرب الشاملة، ولا حرب الإبادة، فلماذا إذن هي لم تزل مستمرة وفاعلة، تظهر تمثلاتها في السياسة بصورة خاصة؟

للإجابة على السؤالين الأول والثاني؛ لا بد لنا من أن ندرك بأن هناك تداخل قبلي واجتماعي معقد بين الفريقين؛ إذ كانت العديد من القبائل السنية التي دخلت العراق قادمة إليه من الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الثامن عشر، قد تحول جزء منها إلى التشيع أثناء عمليات الصراع على الأرض والمياه؛ تلك العمليات

التي تمخضت عن دفع وإحلال؛ فكان أن تأثرت القبائل الجديدة بالقبائل المضيفة التي كانت تمتلك تاريخ استقرار زراعي أطول من تلك القبائل الجديدة التي كانت بدوية أو نصف بدوية؛ تأثرت بها فتحوّلت أما نتيجة القناعة أو للضرورات الحياتية إلى المذهب الشيعي الأثني عشري المعروف بالمذهب الجعفري. ولقد حصل هذا الأمر مع عشائر عربية عديدة من أهمها: شمر، وجبور، وزبيد، وتميم، وعبيد، ودليم، وعنزة وغيرها.

وبالعودة إلى ما كان يجري في بغداد من صراع شيعي - سني، فقد كان الطرفين يعلمان أنهما على دين واحد حتى مع تشكيك بعضهم بإيمان وسلامة المعتقد لدى الآخر؛ كذلك كانا يدركان مدى الخسائر الفادحة التي يتعرضان لها في حالة اندلاع حرب إبادة شاملة؛ يضاف إلى ذلك المصلحة الاجتماعية، والاقتصادية في وجودهما إلى جنب بعض، إذ يعتمد كل منهما على الآخر.

أما الجواب على السؤال الثالث فيرتبط بالفكرة الرئيسة لهذا البحث والتي تتمثل في قدرة الذاكرة الجمعية على رصد الأحداث فوق بعضها البعض، ونقلها بمزيد من الإضافات غير الواقعية من جيل إلى آخر؛ من خلال عملية تنشئة اجتماعية ثقافية ذات أبعاد طائفية يتغذى عليها الفرد منذ نعومة أظفاره بواسطة العائلة، والرفقة، والجيرة، وبشكل أساس ورئيس من قبل المؤسسات الدينية لدى الطرفين التي كانت ولم تزال تعمل على سقي شجرة الأحقاد ورعايتها لكي تستطيع (تلك المؤسسات) من جني ثمار هذه الشجرة أموال ومناصب سياسية، ومراكز قيادية رفيعة؛ بالإضافة إلى تحكمها بال جماهير وهي تحذرنا من هذا الآخر الذي فعل أسلافه من قبل، من المنكرات ما لا يعد ولا يحصى؛ والذي هو لم يزل يحمل أخلاق وسجايا أولئك الأسلاف بكل أمانة.

إنّ ليس هنالك من غرابة عندما نجد أن أول تشكيل حكومي في العراق في 25 تشرين الأول 1920، كان قد خلا تماما من الشيعة، وليس هنالك من غرابة في أن يتم استيراد ملك سني من الحجاز، وأن يكون رئيس وزراء سني من أحفاد شيخ المتصوفة عبد القادر الكيلاني؛ على الرغم من أن الثورة التي أدت إلى قيام الدولة كانت ثورة فراتية شيعية في معظم مفاصلها وتفصيلاتها. أما لماذا يجب

أن لا نستغرب من ذلك؟ فالجواب موجود في الذاكرة الجمعية العراقية التي تختزن بين طياتها صور الصراع التاريخي الطويل، وفكرة أن السلطة يجب أن تكون محصورة في أيدي الطائفة السنية، لأن السلف الصالح اعتاد على ذلك، وأن الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها؛ لذا فإن أي خروج على الحاكم قد يؤدي إلى فتنة تشبه تلك التي قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان منتصف القرن السابع الميلادي؛ ووفقاً لذلك فإن فتاوى أئمة الأمة في القرون الوسطى مثل: (سلطان غشوم خير من فتنة تدوم، وأن الإمارة حتى ولو كانت على الحجارة)، ربما كانت حاضرة في أذهان البعض على الأقل ممن حضر التكليف، أو حتى ممن تم تكليفه بمنصب وزاري رفيع في تلك الحكومة والحكومات اللاحقة. ولماذا نستغرب من وجود ذلك إذا كان العراقيين قد عادوا بعد ثمانية عقود من ذلك التاريخ) أقصد تاريخ تشكيل الدولة الحديثة؛ عادوا إلى خزان الأحقاد القديمة ليستتب منه الشيعة، والسنة على حد سواء ما كان يغذي الضغائن من فتاوى، وقصص، وحكايات، وأمثلة، وقصائد شعر، ومراثي، وفلكلور.

في المقابل ظلت الذاكرة الجمعية الشيعية تغذي أبناءها على الحيف والإجحاف التي لاقى بها الصحابة آل بيت النبي بعد وفاته، ثم تستعرض التاريخ الطويل من أمويين، وعباسيين، وعثمانيين الذين تعرض الشيعة على أيديهم إلى الاضطهاد، والتهميش، والإقصاء. لكن المؤسسات المرجعية الشيعية لم تكن تدعو في الأساس إلى دخول الشيعة في حكومة تدار من قبل الإنكليز، ليس لأن تلك الحكومة ستكون تحت رعاية دولة كافرة فحسب، بل لأن العقل السياسي للمرجعيات الشيعية لا يؤمن بقيام دولة قبل ظهور الإمام المهدي الغائب، كما أنها لم تكن تحبذ دخول رعاياها في إدارة تلك الدولة فتفقد السيطرة الروحية عليهم. ولقد أسهم هذا الأمر في استغلال السنة للفرصة المتاحة عندما تلاقوها مناصب رفيعة ومراكز مهمة في الدولة الفتية؛ ليعود الشيعة بعد ذلك إلى التباكي ورفع شعار المظلومية؛ إذ لم يتم الانتباه إلى خلو الحكومة من وزير واحد ينتمي إلى الطائفة الشيعية إلا في 22 شباط 1921 عندما تقرر إسناد أحد المناصب الوزارية إلى أحد أفراد الشيعة الإمامية، فتم اختيار محمد مهدي بحر العلوم لمنصب وزير المعارف.⁽⁵⁾ لكن تمثيل الشيعة في الحكومات العراقية ارتفع بعد

ذلك إلى ما نسبته 35% من التشكيلات الوزارية قبل العام 1958، ولقد تسنم شيعية رئاسة الوزارة مرات عديدة.

هل كانت هنالك من حلول للحالة العراقية، لم تعتمد الدولة طوال مسيرتها؟

لقد أخطأت الدولة، وأخطأ قبلها منظرو السياسة العراقية في الطور الأخير من العهد الملكي؛ حينما ظنوا أن الدمج الاجتماعي يعتمد على، أو ينتج من خلال تمثيل مختلف الطوائف والأثنيات في الحكومة والبرلمان؛ متناسين أن ممثلي تلك الطوائف من الشيوخ الاقطاعيين، والأغوات، وكبار ملاك الأراضي، والتجار، والضباط إنما كانوا يمثلون طبقة اقتصادية تدافع عن مصالحها قبل أن تدافع عن القطاعات الواسعة من المجتمع التي من المفترض أنها تكون ممثلة له. ولقد مضى النصف الأول من عمر الدولة العراقية دون تحقيق اندماج حقيقي بين العرب والأكراد؛ لتقوم الحكومة العراقية عند العام 1971 بالإعلان عن اتفاق صدام حسين مع مصطفى البارزاني على مشروع الحكم الذاتي للأكراد؛ هذا

5 - أنظر عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي، ج ١، ط ٢، (صيدا لبنان: مطبعة العرفان، ١٩٥٧)، ص ١٥٩.

المشروع الذي انتكس بسرعة ليشغل الصراع المسلح الدامي بين الجيش العراقي، والفصائل الكردية المسلحة؛ إلى أن قام صدام حسين نفسه بعد ذلك بعقد اتفاق مع شاه إيران محمد رضا بهلوي على هامش مؤتمر لمنظمة الأوبك عقد في الجزائر آذار 1975 تم بموجبه الاتفاق على أن يرفع الشاه يده عن دعم الثورة الكردية مقابل حصول إيران على نصف شط العرب.

ويؤشر اتفاق الجزائر جملة من الأمور التي تشير إلى خطيئة السياسة في العراق؛ فلقد تم من خلال هذا الاتفاق منح جزء حيوي ومهم جدا من أرض ومياه العراق إلى دولة أجنبية مقابل رفع تلك الدولة يدها عن دعم تمرد مسلح كانت تقوم به فصائل عراقية؛ كان يمكن حل المشكلة معها بمزيد من سعة الأفق، والتحرر من عقدة الاصطفاء العربي على نظيره الكردي، وترسيخ روح المواطنة العراقية بدلا من زج البلد في الأفكار القومية العربية، وإلا فكيف يمكنك أن تقنع المواطن العراقي الكردي الذي ارتفع لديه الوعي السياسي في سبعينات القرن

الماضي، تقنعه بأنه مواطن من الدرجة الأولى وقيادة الدولة ترفع شعار أمة عربية واحدة؟

لم تهنئ الدولة العراقية التي تخلت عن جزء من مياهاها مقابل قمع أبناء شعبها، لم تهنئ بالانتصار على أبناء جلدتها أكثر من خمسة أعوام، حتى دخلت في حرب طاحنة استمرت لثمان أعوام كاملة كان هدفها الرئيس استرجاع نصف شط العرب الذي تم منحه لإيران قبل خمسة أعوام وبضعة شهور. ولقد كانت حرب دامية مدمرة أكلت الأخضر واليابس وأسست لعصر الخراب العراقي الذي نعيشه اليوم؛ فلقد انتهت تلك الحرب ليجد العرق نفسه متأخرا كثيرا عن دول أقليمية صغيرة كان سببا في ثرائها بسبب ارتفاع أسعار النفط نتيجة حرب الناقلات في الخليج، بينما هو يعاني من مديونيات كبيرة، إضافة إلى فقدته لأعداد كبيرة من الطاقات الشابة التي قضمتها الحرب، مع توقف تام لعجلة التنمية. وبلحظة طيش جديدة قررت السلطة العراقية ممثلة بالرئيس صدام غزو الكويت وضمه إليها تحت ذريعة أنه جزء من العراق مرة، ومرة أخرى بسبب تأمره في أسعار النفط، على الرغم من أن قيام العراق بحربه المدمرة ضد إيران كانت من أجل وقف نار الثور الإيرانية عن الوصول إلى هذه البلدان كما كان يدعي العراقيون أنفسهم. ولقد أدخلت هذه الخطوة العراق في نفق مظلم طويل لم يستطع الخروج منه إلى اليوم؛ فحرب الخليج الثانية تبعها حصار اقتصادي مدمر وعزلة دولية خانقة، أسهما في تفتيت البناء الاجتماعي العراقي وتدمير منظومته القيمية؛ كما أنه تمخض عن انفصال ثلاث محافظات شمالية ذات أغلبية كردية كان الغرض من اتفاق الجزائر قمع سكانها وإذلالهم ومنعهم من الانفصال.

أنظر إلى الكوميديا السوداء التي تمخضت عنها السياسة في العراق: ((تتفق مع دولة أجنبية على رفع يد تلك الدولة عن دعم جزء من شعبك كان يقاتل ضد الجيش الوطني، مقابل منح تلك الدولة جزء من مياهاك المحلية، ثم تدخل في حرب مع تلك الدولة لاسترجاع هذا الجزء بعد أن تشعر بأنك قد ارتكبت خطأ استراتيجي فادح؛ تكلفة هذه الحرب الاجتماعية والاقتصادية كبيرة جدا، بل باهضة الثمن ومدمرة بكل ما للكلمة من معنى؛ تشعر بعد انتهائها أن دول مجاورة لك قد قامت بخديعتك في الدخول إليها (إلى تلك الحرب) بقصد تدميرك؛

وها هي اليوم تتآمر عليك من خلال الإسهام في خفض أسعار النفط ليس لغرض تحقيق هدف آخر سوى الاضرار بك؛ فترفع أنت شعارا جديدا هو (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق)، ثم تتلقف الطعم الجديد فتدخل في مصيدة الحرب، والحصار، والعزلة الدولية عندما تقرر غزو الكويت وضمه؛ لكنك تعود لترفع شعارا جديدا آخر عندما تشن الولايات المتحدة مع تحالف دولي تقوده ضدك حرب مدمرة (لقد غدر الغادرون بنا)؛ وما أن تنجلي الغبرة حتى تجد قطعات جيشك وهي محطمة، وخمسة عشرة محافظة من محافظاتك الثمانية عشرة تندلع فيها أعمال تمرد مسلح ضد الدولة. وهكذا تجد نفسك وقد أعييتك الحروب والحصار تعيش حالة من الضياع؛ فالمحافظات الكردية التي كنت قد دفعت نصف شط العرب مقابل دحر التمرد فيها، ها هي اليوم تعيش حالة استقلال شبه كامل، وإيران التي حاربتها من أجل استرجاع الشط لم تتل منها شيء، أما الكويت التي كنت تحلم بضمها نهائيا لأرضك ها هي اليوم تقطع جزء من أرضك ومياهاك)). هذا هو ملخص الحالة المأساوية التي أدخلت الدولة العراقية فيها البلد بمقدراته البشرية، والمادية في دوامة من الدم، والخراب مستمرة منذ أربعة عقود كاملة.

أين عقدة المنشار إذن؟ وكيف لنا أن نمسك برأس الخيط وسط هذه الشبكة غير المنظمة؟ وأنى لنا أن نرى الضوء في نهاية النفق الذي حرصنا على أن يكون طويل شديد الظلمة والبرودة؟

المبحث السادس: الثقافة والدولة والمجتمع

إن كل سلطة عنف رمزي، إنما تزيد إلى علاقات القوة، قوتها الخاصة بها؛ كما يمكننا اعتبار أن كل فعل بيداغوجي بمثابة عنف رمزي؛ على اعتبار أنه قد فرض بواسطة سلطة اعتبارية، وليس من خلال اعتبار ثقافي. إن الفعل البيداغوجي يبتغي إعادة إنتاج الاعتبار الثقافي للطبقات المهيمنة، أو الطبقات المهيمن عليها. إن مدى صحة تلك الافتراضات إنما يلقي نفسه محددًا بفعل أنها تتناسب مع كل تشكيلة اجتماعية؛ منظورا إليها على أنها نسق من علاقات القوة، وعلاقات المعنى بين الزمر، والطبقات. ⁽⁶⁾ ومن خلال اعتمادنا مقارنة بورديو وباسرون هذه في تفسير إعادة الإنتاج الثقافي عند تشكل الدولة العراقية الحديثة؛

الذي تجلى في عودة الطائفتين الكبيرتين اللتين تشكلان الأغلبية العربية في المجتمع العراقي؛ عودتهما إلى الماضي حيث تراث التباغض بين سنة بغداد وشيعتها أيام العباسيين، والعثمانيين والصفويين؛ إذ كان قد تم إعادة الإنتاج للاعتباط الثقافي لدى الطائفة المهيمنة سياسياً (العرب السنة)، وكذلك لدى الطائفة المهيمن عليها (العرب الشيعة) من خلال استحضار الماضي وتمثله في الحاضر، (استحضاره ثم استحضاره)؛ استحضاره تراكمياً عبر قرون طويلة من الزمن، ثم استحضاره بلحظة فارقة تحرق الأخضر واليابس. لكن الاعتباط الثقافي هذا لم يتوقف عند حدود هاتين الطائفتين، بل ذهب يتجلى ويتغلغل في داخل المكونات الأخرى، إذ العراقيون العرب يفتخرون على بقية العراقيين بأن منهم النبي والخلفاء

6 - بيار بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الإنتاج (في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم)، ترجمة ماهر تريمش، مراجعة سعود المولى، ط ١، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، و مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧)، ص ١٠٢-١٠٤.

الراشدون؛ وهم الفاتحون، والمقيمون للإمبراطوريات الكبرى في القرون الوسطى، لا سيما العباسية منها التي أقيمت في العراق وانطلقت منه، ووفقاً لذلك فإنهم يعتقدون بأن لهم الأحقية في قيادة هذا البلد؛ إذ الزمن لا يغير فكرة سيادة قریش؛ فكان أن جيء بالأمير فيصل ملكاً على العراق؛ مثلاً جاء الخلفاء والولاة القریشيون إلى الكوفة، وبغداد قبل قرون عدة؛ وهنا تبدو الثقافة عابرة للزمن ومختزلة له، ويبدو الرمز بارز وقوي، وإعادة التأويل من خلال اجترار الماضي منهاج عمل وإن كان غير معلن.

محاولة تفسير الطلاسم وتحليل المشكلة

الثقافة السياسية في العراق تحت ظل الفعل البيداغوجي

إن من شروط الفعل البيداغوجي باعتباره عنف رمزي، وجود علاقات القوة بين الزمر، أو الطبقات المكونة لتشكيلة اجتماعية تعتبر أس السلطة الاعتبارية؛ هذه السلطة التي تعتبر بدورها شرط إنشاء علاقة تواصل بيداغوجي. ولا يمكن للفعل البيداغوجي إنتاج أثره الرمزي خصوصاً من دون علاقة تواصل، وكذلك من

دون شروط الفرض والتلقين الاجتماعية؛ هذا الأمر لا يأتي من فراغ بل يتناسب مع المصالح الموضوعية للزمر، والطبقات المهيمنة. ومع ذلك فإن مختلف الطبقات المكونة للتشكيلة الاجتماعية ومن خلال أفعالها البيداغوجية بشكل مباشر، أو غير مباشر تسهم في هيمنة الطبقات المهيمنة وانفرادها بالسلطة.⁽⁷⁾

إن اصطفاء الدلالات هو اصطفاء اعتباطي يحدد ثقافة زمرة، أو طبقة باعتبارها نسق رمزي؛ وهو اصطفاء ضروري سوسيوي- منطقي على اعتبار أن تلك الثقافة تدين بوجودها لشروط اجتماعية كما أنها تدين للتناسق والوظائف ذات الدلالة التي تشكلها. إن شروط إنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي، بل وإعادة البنية برمتها، وإعادة التأويل كلها ترتبط بشروط اجتماعية حقيقية تسهم في عملية إعادة الإنتاج وتساعد على الديمومة والاستمرار.⁽⁸⁾

7- بيار بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤-١٠٦.

8 - المصدر نفسه، ص ١٠٨.

إن صاحبي نظرية إعادة الإنتاج يدعوان إلى ضرورة استبدال عبارة (هكذا وجدنا أسلافنا)، بمقولة (أن اللاوعي الثقافي يفضي إلى نتاج التاريخ). ووفقا لرؤية بورديو وزميله هذه فإن الفعل البيداغوجي الذي كان هو السائد لحظة تشكيل الدولة العراقية الحديثة، ظل قويا لم يتزحزح وهو يقاوم كل الأعداء من حركات تحديث، وعصرنة، وراديو، وسينما وأفكار يسارية؛ يقاومها بالدعاية وبأدواته البيداغوجية التي يخدع بها الجماهير ويسحبها دوما إلى الوراء حيث مخزن التاريخ، والتراث، وحيث الرموز، والصراعات المقدسة، وحيث التماهي مع الوهم. ولقد استطاعت الثقافة التقليدية في العراق من أن تعيد إنتاج نفسها مرات عديدة، وبنجاح منقطع النظير طوال المائة عام الماضية، واستطاعت من خلال ذلك الانتصار على جميع الأفكار، والمعتقدات المغايرة التي هي في الأساس مستوردة وليست أصيلة كما هي الثقافة التقليدية. ولقد انتصرت تلك الثقافة التي ظلت تتمرس خلف جدران عالية صلبة صعبة الاختراق قوامها مزيج متماسك من الدين، والطائفة، والقومية، والقبيلة، في الوقت الذي تعرضت فيه الوطنية العراقية إلى خسائر فادحة.

كان الفعل البيداغوجي يعمل في تنشئة الأجيال على الخلاف أكثر من الاتفاق، وعلى الحرب أكثر من السلام، وعلى التباغض أكثر من اللؤم، وكان الأجداد، والجدات يلقنون الصبية وهم يقصون عليهم حكايات المساء قصص اليهود في العراق منذ السبي البابلي وحتى قدوم الإنجليز، وقصص نكسات الشيعة من يوم السقيفة وحتى انفراد السنة بالدولة العراقية الحديثة، حتى بعد أن قام الشيعة بتفجير ثورة العشرين، وقصص انتصارات أهل الجماعة والتوحيد في مقاومة البدع والضلالة منذ أيام الفتنة وحتى رجوع الحق لأهله ممثلاً بالملك الهاشمي فيصل ورئيس الوزراء عبد الرحمن النقيب، بينما كان المسيحيين يحكون قصص تواجدهم الأقدم على أرض العراق وكيف جاء الأعراب من الجزيرة تحت راية الإسلام يقودهم خالد بن الوليد الذي قام بمجزرة نهر الدم وقتل فيها سبعون ألف مسيحي في عين التمر، ثم يسرد الباقون من أكراد، وتركمان، وفرس، وأرمن، وصابئة، وأيزيديون، وشبك وغيرهم، يسردون حكاياتهم الخاصة بهم التي تؤسس على ثقافة الخوف من الآخر المختلف الذي يجب أن تتوجس منه خشية وخيفة، لأنه قطعاً يريد بك الشر، ولا بد أن تأخذ حذرَكَ منه لكي لا يفتك بك متى ما حانت له الفرصة لفعل ذلك.

أزمة الزعيم

تبدو مشكلة الاتفاق على زعيم واحد في العراق مشكلة معقدة تصل إلى حد الأزمات، وهي متجذرة في وعي العراقيين على اختلاف انتماءاتهم الفرعية الأخرى، الأتنية منها والدينية، أو الطائفية، أو المناطقية؛ وهذه الظاهرة موجودة على حد سواء لدى الريفي ولدى الحضري، المتعلم والأمي، التقليدي أو الحديثي، الجميع لديهم كم هائل، ومساحة واسعة من الشك بالزعيم حتى قبل أن يتسلم تلك الزعامة الموبوءة بغايروس الريبة، والمعمدة بالدم. ولقد عبر الشاعر العراقي علي الشرقي عن هذه الظاهرة في بيت شعر أحسن تعبير، لا زال العراقيون يرددونه وهم يجلدون ذاتهم ليل نهار: (قومي رؤوس كلهم... رأيت مزرعة البصل). ونضرب هنا مثلاً بسيطاً يتمثل في تصريح أدلى به الضابط السياسي في لواء المنتفق عام 1918، حيث يقول: كنت أسعى طوال خدمتي في لواء المنتفق والبالغة ثلاث سنوات ونصف إلى أن أضع السلطة في يد رجل واحد من كل عشيرة بدلاً من

سبعة شيوخ لكل واحدة منها، جميعهم بنفس المستوى، وليس لدى أي منهم الاستعداد بالنظر إلى الآخرين على أنهم بمنزلة أفضل منه).⁽⁹⁾

ومن المعروف أن التكتلات القبلية الثلاث في هذه المنطقة التي أشار إليها هذا الضابط هي كل من: (بني سعيد، وبني مالك، وأجود) لم تكن لتستطيع أن تنهي حالة الصراع فيما بينها وتعيش في حلف قوي إلا بعد وصول عائلة السعدون مهاجرة إلى تلك المنطقة من الحجاز، عند ذاك ارتضت تلك القبائل على أن تكون لعائلة السعدون الإمارة على الحلف، على أن يحتفظ كل زعيم قبلي بما لديه من زعامة على قبيلته، ثم يحتفظ الزعماء المحليين الآخرين كل بزعامته الفرعية، في شبكة معقدة من الزعامات التي تترصد لبعضها طمعا وخشية وانتظار فرصة الإيقاع بالآخر. وليس لذلك من تفسير سوى أن عقدة عدم الثقة كانت متأصلة في نفوس أفراد وزعامات تلك القبائل تجاه بعضهم البعض، لذلك فقد ارتضوا أن يكون هذا المهاجر الغريب زعيما عليهم ما دام لا تجمعهم به تاريخ من المنازعات والمناكفات. ويمكن أن نفسر اتفاق العراقيين على فيصل بن الحسين ملكا عليهم عند تشكيل الدولة الحديثة عام 1921 بنفس الطريقة التي فكر فيها رجال القبائل في المنتفق قبل ذلك بثلاثة قرون. كيف للأكراد إذن أن يرتضوا بحاكم

9 - غسان العطية، العراق نشأة الدولة ١٩٠٨-١٩٢١، تقديم حسين جميل، ترجمة عطا عبد الوهاب، (لندن: دار السلام، ١٩٨٨)، ص ٢١٦-٣١٧.

عربي؟ وكيف للشيعا ان يرتضوا بحاكم سني؟ بل كيف للسنة أن يرتضوا بحاكم شيعي، أو كردي وهم يجدون في أنفسهم خلفاء القوم الذين كان ينتمي إليهم الخليفة، أو الوالي، أو قائد العسكر منذ تشكيل الدولة العربية الأولى في صورتها التقليدية ممثلة بالدولة الأموية ومن بعدها العباسية؟ أما بالنسبة لبقية الأقليات بالأخص منها اليهودية، والمسيحية فلقد كانت ترغب في البقاء تحت ظل حكم البريطانيين ما دام هؤلاء يشعرونهم بالأخوة الدينية، أو على الأقل بالرعاية من دولة أجنبية قوية تستطيع حمايتهم من جبروت وتسلط الدولة العربية الواحدة القوية التي عانى أجدادهم من جبروتها في مدد زمنية متفرقة من تاريخهم في العراق.

إن عدم اتفاق عشيرة واحدة لا يتعدى عدد رجالها المقاتلون خمسمائة رجل على شيخ واحد، وتفرقهم بدلا من ذلك إلى مجموعة من الأفخاذ لكل واحد منهم شيخ يرى في نفسه الأهلية للزعامة؛ يفسر لنا الأزمة التي وجد الانكليز أنفسهم فيها عشية تشكيل الدولة وإنشاءها. لكن هؤلاء (العراقيون) ارتضوا بطريقة أو بأخرى، مقتنعين أو مرغمين، بالقوة أو بالرشى بالمال والمناصب، على القبول بفصل ملكا على هذه الدولة التي تتشكل في بغداد لأول مرة منذ سقوط الدولة العباسية فيها عام 1258؛ ولقد عبر فيصل عام 1933، بعد تمضيته لاثنتي عشر عام في رأس السلطة ملكا على العراق عن خيبة أمه وهو يرى أن العشائر العراقية أكثر قوة ومنعة من قوة دولته، إذ كان لدى العشائر مائة ألف بندقية مقابل خمسة عشر ألف فقط لدى الدولة بكافة قطاعاتها العسكرية؛ هذه المائة ألف بندقية التي لا يعرف أحد متى تنور فوهاتنا بوجه الدولة هي ذاتها التي كان معاوية قد نصح أبنه يزيد بعدم التحرش بالعراقيين كيلا يشهر في وجهه مائة ألف سيف، لذا فإن من الخير له أن يستبدل لهم في كل يوم وال على أن تشهر في وجهه تلك السيوف المشرعة على الدوام، فانظر إلى تأصل أزمة الحاكم في هذا البلد، وأنظر إلى إعادة تمثيل الماضي في الحاضر من خلال عملية إعادة الإنتاج، والاجترار المتخيل للتاريخ، والتراث اللذين يثقلان كاهل العراقي المسكون بالجدل، والشك، واستمرار التأويل.

السلطة والثقافة في العراق بين الاجترار المتخيل وإعادة الإنتاج الثقافي:

يقول تشارلس رايت ميلز أن السلطة إذا ما توفرت لدى شخص، فإنه قد يجبر الآخرين على الازعان لصورة ذاته التي يرغب فيها، ثم يترجم إذعانهم كتأكيد لصورته. كما أن نوع المجتمع الذي نتخيل من خلاله صورا متباينة للذات يتميز بأن كل من منصب يحوزه الشخص ينطوي على تقييمات متباينة من قبل الأشخاص الآخرين.⁽¹⁰⁾ ويذهب جورج ميد إلى أن هناك ما أطلق عليه بالاجترار المتخيل (*The Imaginative Rehearsals*) يستخدم اللغة والرمز؛ إذ يكون تصور العقل في هذه الحالة، عبارة عن سيرورة من العمليات أكثر مما هو بناء وتنظيم. إن هذا الاجترار المتخيل هو الذي يلعب أدوارا مهمة في النشاطات بسبب امتلاكه لقوة تأثير كبيرة في علاقات الأفراد فيما بينهم، وعلاقتهم بالمجتمع

وبمجموعة الرموز القيمية المحيطة بهم. ويعد الاجترار المتخيل واحدة من أهم الوسائل التي توجه سلوك الفرد وتعديل منه طوال فترة نضوجه فيتمكن من تكيف نفسه ونشاطاته. لكن المشكلة تتعدّد أكثر عندما يقاوم الاجترار المتخيل التطور بعد أن يصل الفرد إلى مرحلة النضج بين الفرد وذاته، ويكون تطوره معتمدا على ما ينتج من تفاعلها من تعديل ومعنى مشترك؛ لذلك فإن قدرة الفهم والتأويل المتضمنة في مجموعة الرموز وشبكاتها تدل على درجة التطور التي بلغها العقل والذات والمجتمع.⁽¹¹⁾

إن الأفراد يكونون مدفوعين ومسحوبين بقوى اجتماعية سيكولوجية، وهم في ذلك يكيّفون أنفسهم لمسايرة بنية المجتمع، ويوجهونها تبعاً لمقتضيات الأدوار الاجتماعية. ووفقاً لذلك فإنه في الغالب تكون العلاقات الاجتماعية علاقات تقاد واجتباب، بينما تكون علاقات الرفض والنزاع والتناقض قليلة. وتذهب فرضية الهابيتوس لدى بورديو إلى إن الفرد يستجيب للمواقف والظروف

10-Charles Wright Mills and Hans Heinrich Gerth, *Character and Social Structure. The Psychology of Social Institutions* (New York: Harcourt. Brace and World. 1953). P.94.

11- George Herbert Mead. *Mind, self and Society from the standpoint of a social behaviorist*. Edited by Charles W. Morris(Chicago. III: University of Chicago Press.1934.

التي يوضع فيها بتطويره قدرات التعامل معها والتغلب عليها. ويتطلب تطوير القدرات هذا، القيام بعملية (استبطان واستظهار خارجي)؛ فالفرد وعبر نشاطه المادي والرمزي المحيط به وإعادة تنشيطه له، إنما يكون: (متأثراً بعالمه، مؤثراً فيه- مشكلاً له، ومتشكلاً به)، بكيفية جدلية تتم بشكل آني و متعاقب؛ وذلك عبر علاقات مطبوعة بالتغير المستمر، ترتبط بمجموعة المهارات المكتسبة من الوضع الاجتماعي الثقافي المسقط عليه. ويدخل في هذه العملية التفاعلية، والتفاعلية الداخلية ميكازم منظم اصطلاح بورديو على تسميته بالهابيتوس. إن الهابيتوس يتشكل عبر الزمن من خلال الخطابات التي يقوم الأفراد بتوظيفها (أفراداً وجماعات) عن وعي مرة، وعن لا وعي مرة أخرى، لغرض إدراك مواقعهم

في المجال الاجتماعي. إذ يكون الفرد باعتباره عضواً في المجتمع، ما هو إلا نتاج التاريخ الذي يضيف عليه الهابتوس الخاص به؛ ذلك التاريخ الذي ينتج ممارسات الفرد والمجموعة وفق التاريخ نفسه، ووفقاً لذلك يستطيع الفرد بواسطة الهابتوس من استبطان تجارب الماضي استبطاناً فعالاً يؤثر في الإدراك والتفكير والعمل.⁽¹²⁾

بيار بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الانتاج، مصدر سبق ذكره، ص 12.١٠٨-

نتائج الدراسة

يمكننا أن نتوصل أخيراً إلى عدد من الاستنتاجات التي تنمهي مع فرضية هذه الدراسة، والتي يمكن إجمالها بالآتي:-

١. أن الدولة الحديثة في العراق قد أمضت اليوم مائة عام منذ لحظة تأسيسها العام 1921، وأنها لا زالت تعاني من جملة من المشكلات التي تلعب الثقافة الدور الرئيس في إنتاجها، وفي ديمومتها، وانتشارها.

٢. أن الدولة والمجتمع عجزا كل من موقعه عن تأدية المهام المنوطة بهما، إذ لم تستطع الدولة أن تضم المجتمع في وحدة اندماج مجتمعي شاملة، ولم تستطع الارتقاء به فوق الرواسب العتيقة، وهو يعيش حاضره، ويخطط لمستقبله؛ في الوقت الذي فشل فيه المجتمع في إنتاج دولة تستطيع أن تقفز به خارج حركة الماضي، وتتأى به عن خضم الصراعات ذات الجذور القديمة.

٣. لقد دخلت الدولة العراقية وعبر أطوار تطورها في شراك الفخ الذي نصبته لها الثقافة، إذ ظلت هذه حاضرة في أذهان قادة الدولة توجه سلوكهم، وتحدد مسيرتهم. ولم تتمكن السدرة، ولا البيرية من أن تنتصر على العقال، والعمامة؛ ولا ربطة العنق من أن تغير في ما كانت تحمله تلافيف الدماغ من مفردات الثقافة التقليدية العقيمة؛ لذا فقد احتلت الطائفة، والقبيلة موقعا أعلى من الوطن ذاته؛ وبالتالي فقد نجحتا في البقاء، والاستمرار، في الوقت الذي فشل فيه الوطن.

٤. إن المدة القصيرة التي يمكن أن نقطعها من عمر الدولة العراقية الحديثة ذو المائة عام، هي مدة حكومة عبد الكريم قاسم (تموز 1958 - شباط 1963)،

إذ استطاعت هذه الحكومة أن تتجنب شراك الثقافة، وأن تكون حكومة وطنية خارج أطر القبيلة، والطائفة، والقومية؛ وفي هذا تفسير لطبيعة الهجمة الشرسة متعددة الأقطاب التي تعرضت لها هذه الحكومة؛ دولية منها تمثلت بالولايات المتحدة، وبريطانيا، وإقليمية تمثلت بإيران، وتركيا، ومصر، وجميع الدول المحادة للعراق دون استثناء، بالإضافة إلى القوى المحلية التي تمثلت بالرجعية، والإقطاع، والمرجعيات التقليدية؛ ولقد نجحت تلك القوى مجتمعة أخيراً من إسقاط الحكومة الوطنية الوحيدة؛ والتي هي ذات أصول عراقية خالصة منذ سقوط بابل الأخير عام 539 قبل الميلاد. أما المجتمع فلقد حاول مرات عديدة الخروج من شراك الثقافة التقليدية، وقدم لقاء ذلك التضحيات الجسام، فلقد ارتفع الوعي السياسي لديه مع انتشار التعليم منذ ثلاثينات القرن العشرين، لكن معوقات التقدم كانت أقوى وأكثر ثباتاً، لذا وبعد كل انتكاسة تتعرض لها القوى الوطنية، والتقدمية في العراق كانت أطياف المجتمع تعود إلى حضن الثقافة التقليدية حيث القبيلة، والطائفة ومشتقاتهما.

٥. إن الاجترار المتخيل لأحداث ووقائع ماضية؛ المزيف منها أكثر من الواقعي، والواقعي فيه من التضخيم ما لا يقبله عقل سليم؛ تتناقلها الذاكرة الجمعية عبر عملية التنشئة الاجتماعية - الثقافية؛ قد نجح (هذا الاجترار المتخيل) في أن يلعب دوراً رئيساً وهاماً في عملية إعادة إنتاج الثقافة لدى كافة مكونات المجتمع العراقي طوال المائة عام الماضية. ولقد أثر ذلك في تفكير الدولة بالمجتمع، وفي فكرة المجتمع عن ذاته وعن الدولة؛ لذا فقد ظلت تلك المكونات عاجزة عن كسر قيود الماضي، ولا في التحرر من ربكة الجماعة لكي تستطيع أن تلتقي في داخل المجال الاجتماعي الوطني؛ ولقد ظل العراقي غالباً؛ الليبرالي، واليساري، والقومي، والإسلامي على حد سواء وفيها لانتماءاته الفرعية على حساب الانتماء الوطني، حتى وهو يرفع شعارات التقدم، والوحدة، والحرية.

٦. إن الخوض في النقاط السابقة يجب ان لا يخدعنا، فنظن من خلالها أن الدولة والمجتمع في العراق لم يتقدما إلى الأمام طيلة ستة عقود من عمرها (1980-1920)؛ إذ لا يمكن نكران ما تم تحقيقه من الانجازات الهامة في قطاعات التعليم، والصحة، والخدمات، والرفاهية الاجتماعية بلغت ذروتها عند

العام 1980، لكن العراقيون يستذكرون اليوم العام 1978 على أنه عام الرفاهية القصوى التي بدأ بعدها الاندحار، والانحدار، وربما يربطون ذلك بمدة ما قبل تسلم الرئيس صدام حسين المنصب الأول في الدولة منتصف تموز 1979. ولكن ومع كل مراحل التقدم التي وصل إليها العراق نهاية سبعينيات القرن الماضي، فإن الدولة ظلت حبيسة الثقافة التقليدية، وظل المجتمع يطوف حول كعبتها يؤدي فرائض الطاعة والإذعان.

وأخيراً... هل لمعضلة الدولة في العراق من حل؟

هل من توصيات؟

نعم هنالك حل، وهو في غاية البساطة ولا يحتاج إلى أموال ولا جهود كبيرة، فالحل يوجد في عقل الفرد العراقي، وينتقل من خلاله إلى عقل المجتمع، ولكن ليس العقل الجمعي. يرتبط هذا الحل بإرادة حقيقية يتم من خلالها تغيير بوصلة التفكير من الماضي إلى المستقبل، عندها سيفكر العراقي بالحياة على أنها منحة ستذهب ذات يوم مثل ومضة غير مرئية من عمر هذا الكون، وأن عليه أن يعيش في هذا البلد كإنسان يبحث عن كرامته وأمنه ومستقبل أطفاله. كما أنه يجب أن يتخلص من عقدة الماضي، وأن يتصالح مع ذاته، وأن يقتنع بأنه غير مسؤول عما حصل ذات يوم على هذه الأرض. عند ذلك ستزوب الانتماءات الفرعية في داخل انتماء وطني يضم الجميع ليس لأي سبب آخر، سوى لأنهم مواطنون.

إن الدولة العراقية يجب عليها اليوم أكثر من أي زمن مضى؛ العمل الجاد والحديث على إعادة ترتيب البناء الاجتماعي، وعلى التفكير في المستقبل، والاستفادة من التجارب المريرة والانتكاسات الكبرى التي مرت بها طيلة المائة عام الماضية؛ متوخية قدر الإمكان الوقوع في كمائن ومصائد المغفلين التي دفع بسببها المجتمع العراقي الكثير من أمنه، واستقراره، ووحدته، ورخائه. إن المسؤولية اليوم تبدو مشتركة بين المجتمع والدولة؛ فالعراق أمام خطوة فارقة في تاريخه؛ أما الوحدة والاستقرار، والتنمية، والسلام، وأما الصراع والتشطي والخراب لا سمح الله.

كلنا أمل في أن نتجاوز جميعنا المحنة، وأن نعيد بناء وطننا من جديد من خلال إعادة بناء منظومة أفكارنا، وتحديث ثقافتنا التقليدية، وتنقيتها من الشوائب؛

لتكون الثقافة هذه المرة عنصر بناء وقوة في الدولة والمجتمع في العراق بعد أن كانت عنصر هدم وضعف طوال المائة عام الماضية.

المراجع:

باللغة العربية:

١. فالح عبد الجبار. كتاب الدولة- اللويثان الجديد. نقله إلى العربية فريق من المترجمين. ط١. بغداد- بيروت: منشورات الجمل، ٢٠١٧.
٢. حنا بطاطو. العراق- الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. الجزء الأول، ترجمة عفيف الرزاز. ج١. ط٢. طهران: منشورات فرصاد، ٢٠٠٥.
٣. عبد الرزاق الحسني. تاريخ العراق السياسي. ج١. ط٢. صيدا- لبنان: مطبعة العرفان، ١٩٥٧.
٤. بيار بورديو وجان كلود باسرون. إعادة الانتاج (في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم). ترجمة ماهر تريمش، مراجعة سعود المولى، ط١. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ومركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧.
٥. غسان العطية. العراق نشأة الدولة ١٩٠٨-١٩٢١. تقديم حسين جميل، ترجمة عطا عبد الوهاب. لندن: دار السلام، ١٩٨٨.

باللغة الإنجليزية:

- 1- Ireland, Philip Willard. *Iraq: A study in political development*. London: Routledge, 1937.
- 2- Emerson, Rupert. *Iraq: The End of Mandate*. Foreign Affairs, January, 1933.
- 3- Mills, Charles Wright and Hans Heinrich Gerth. *Character and Social Structure. The Psychology of Social Institutions*. New York: Harcourt. Brace and World, 1953.
- 4- Mead, George Herbert. *Mind, self and Society from the standpoint of a social behaviorist*. Edited by Charles W. Morris. Chicago. III: University of Chicago Press, 1934.

إبحار في العلوم العصبية التربوية
بحثاً عن التوفيق بين الدماغ والقلب واليد
من أجل تربية تتصف بالتكامل والانسجام والتوازن

أ. يوسف المرواني

تونس

١ - مقدمة

لماذا اختيار هذا الموضوع ؟ ولماذا هذا الربط بين الدماغ والقلب واليد في مجال تحقيق التربية المتوازنة؟

أسئلة عديدة خامرتنا ونحن نستكشف مجال العلوم العصبية المبهر والمتشعب وقلبت العديد من المعطيات التربوية والنفسية والتربوية التي تشبعنا بها. نقلوها إلينا ثم ساهمنا بدورنا في نقلها إلى أجيال من الطلاب والفاعلين التربويين. ولعل الداعي الأهم في اختياري لهذا البحث هو اللغط المستمر في السنوات الأخيرة بين عدد من علماء العلوم العصبية وبعض خبراء علوم التربية حول طبيعة عمل الدماغ ودور القلب من جهة واليد من جهة أخرى. فالمتمزتون من بين علماء الأعصاب يركزون على الدماغ ويعتبرونه العضو الأهم في حياة الإنسان واستقراره وتوازنه ولا يرون في القلب غير العضو المكلف بضخ الدم إلى الجسم ولا علاقة له بغير ذلك ونحن الذين كنا نوزع مجالات النمو إلى ثلاث: النمو الذهني (ويمثله الدماغ) والنمو الوجداني (ويكفل به القلب) والنمو البدني (وتربية اليد جزء رئيس في تربية الجسد).

تؤكد الدراسات العلمية الحديثة أن هذا الطرح تجاوزه الزمن وإن عديد الأبحاث الجديدة استطاعت أن تبرز الدور المحوري الذي يلعبه القلب في مختلف الوظائف الحيوية للإنسان وإن للقلب "دماغ " (دماغ القلب) كما سنتعرض إليه لاحقاً.

أما اليد فإن السؤال المطروح حيالها هل انها اداء تنفيذ لاوامر الدماغ فحسب

أو القلب أو ان دورها مهم جدا في مجال تجسيم نتائج العمل والفعل في ابعاده
الابداعية ومجالات التطوير والتجاوز والاضافة؟

وعندما نستعرض الحركات التجديدية في التربية منذ بداية القرن العشرين نلاحظ المخاطر العملاقة التي قطعها خبراء التربية في هذا المجال وكان جلهم من اوروبا ثم امريكا وكان أغلبهم من اختصاصات متعددة (أطباء علماء نفس وبيولوجيون ومربين) : ماريا منتيسوري من إيطاليا وسيلستان فريني من فرنسا وأوفيد دكرولي من بلجيكا وجون ديوي من أمريكا وكان هاجسهم الأول الاطفال الذين يعانون من صعوبات كبيرة في التعلم وبناء على طلب من الحكومة الفرنسية قام الطبيب النفساني الباريسي، ألفريد بينيه ببناء أو اختبار لقيس الذكاء وبروز مصطلح الحاصل الذكائي وذلك سنة ١٩١١م

وخلال القرن العشرين، درس جان بياجي السويسري مراحل النمو الذهني (الذكاء) وقال إن تطوير ذكاء الأطفال هو الشكل الأمثل من أشكال التكيف البيولوجي وأنه مقتنع بترسيخ الدماغ للعمليات المنطقية الرياضية (العدد والتصنيف والاستدلال) للطفل والمراهق والكبار . طبعاً كان بياجي في ذلك الوقت كان يفتقر إلى الوسائل التكنولوجية لمراقبة ذلك في مخبريا أي بالوسائل الحديثة المتاحة الان ونعني تصوير الدماغ. ولذلك فقد اقتصرت نتائج أعماله على الآليات النفسية للعمليات المنطقية - الرياضية من خلال المراقبة الدقيقة للسلوكيات: أفعال الأطفال واستجاباتهم اللفظية.

وقفزة في عالم اليوم نلاحظ التقدم الحاصل في ايجاد الوسائل التقنية المتطورة لتأكيد أو تنفيذ عديد المعطيات العلمية القديمة.

لتوضيح طرحنا لا بد أن نسترجع في عجلة مجالات العلوم العصبية ثم المجال الذي استفاد منه وهو مجال اهتمامنا (العلوم العصبية التربوية أو العلوم العصبية المطبقة على التربية) لنخلص الى الاشكالية التي نطرحها في هذا البحث وهو العلاقة بين الدماغ والقلب واليد.

٢- دراسة الجهاز العصبي (الدماغ) والاستفادة منها في المجال التربوي

لو أردنا تعريف العلوم العصبية فقلنا انه الدراسة العلمية للجهاز العصبي، سواء من وجهة نظر بنيته أو وظيفته لان وهذا الجهاز هو من أكثر أعضاء الجسم البشري تعقيداً وهو يؤوي عدة مليارات من الخلايا العصبية وهو يشكل أهمية بالنسبة للبحوث الأساسية، بالإضافة الى أن فهم كيفية اشتغال الدماغ يحقق أهدافا علاجية عديدة وخاصة تلك الأمراض التي لها علاقة مباشرة بالجهاز العصبي مثل الشيخوخة ومرض الزهايمر ومرض باركنسون وغيرها.

ومن المهم أن نشير أن هذا العلم (العلوم العصبية) يجمع باحثين من عديد الاختصاصات تمس مختلف مناحي الحياة: علم التشريح والكيمياء البيولوجية والعلوم الصيدلانية وعلم الوراثة وعلم البيولوجيا الجزيئية وكل هذه العلوم تتشكل في ثمانية مجالات سهلة التحديد وهي البيولوجيا العصبية النمائية و التشريح العصبي والبيولوجيا العصبية الجزيئية والخلية والكيمياء العصبية والفرماكولوجيا العصبية وعلم الغدد العصبية وعلم الأعصاب السريري والفيزيولوجيا العصبية والعلوم العرفانية والعلوم العصبية النظرية

ومن خلال هذا التصنيف ندرك أهمية هذه الاختصاصات أو المجالات في المساعدة في مجالات التربية والتعليم.

لقد أحدث التقدم في أساليب التصوير المختلفة للدماغ ثورة في هذه المجالات المختلفة من البحث بفضل التصوير العصبي الذي يمكننا أن نلاحظ بشكل فعال دماغ الفرد الذي يقوم بمهمة إدراكية محددة (التحدث، العد، التذكر...) وبالتالي تحديد المجالات المحددة المقابلة. إن ما يسمى "التصوير العصبي الهيكلي" الذي يحدد الهياكل المختلفة للدماغ، يضاف إلى "التصوير العصبي الوظيفي" الذي يهدف إلى إنتاج خريطة لوظائف الدماغ وقدراته. وهكذا أصبحت تقنيات التصوير المختلفة الأدوات الأساسية لتطوير علم الأعصاب السريري والجراحي والمعرفي

وعلى سبيل المثال نذكر أن علم الغدد الصماء العصبية يدرس مختلف التفاعلات بين الجهاز العصبي والجهاز الغدد الصماء: السيطرة التي يقوم بها

الأول على الثاني، والإجراءات التي يمكن أن تتخذها الهرمونات على الجهاز العصبي من أجل تكيف الجسم مع تقلبات البيئة الداخلية والبيئة الخارجية، وكذلك قدرة الجهاز العصبي على إنتاج الهرمونات الهضمية

أما العلوم العصبية التربوية أو التعليمية فهو مجال جديد يفتح ابوابا رحبة أمام خبراء التربية لينهلوا منه ما يمكنهم من تحسين ممارساتهم التربوية إذ أن ظهور الاستراتيجيات والتكنولوجيات التعليمية التي تركز على المعارف الخاصة بالدماغ والجهاز العصبي عموما ساهمت في تغيير واقع التعليم والتربية في البلدان التي أحسنت الاستفادة من هذه المعارف في اتجاه تحسين عمليات التعليم والتعلم من ذلك أن الوقوف على أسرار وظيفة الذاكرة ونقل الاحاسيس والتعبير عنها.

وتتلخص ابعاد الاطلاع على ما تعرضه العلوم والعصبية في المساعدة على جعل الطالب يشارك بفاعلية في تطوير المعلومات التي يتلقوها وذلك بالتدرب على تنشيط دماغه وتنويع نشاط الوصلات العصبية كما تساعد الأولياء على تحسين علاقاتهم بأبنائهم على المستوى التعليمي وايضا العاطفي يمكنهم تحفيز أطفالهم على التعلم وتنمية إمكاناتهم والحفاظ على صحتهم العقلية بطريقة مثالية ورغم كل هذا الاهتمام الكبير بالعلوم العصبية والمحاولات الجادة للاستفادة منها في تطوير اداء المعلم والمتعلم فان موضوعية المختصين في هذا المجال تجعلهم ينبهون الى ضرورة التريث والحذر لان البحوث عن العلاقة بين الجهاز العصبي ما زالت غير قادرة الى حد الان على اعلامنا بكيفية علاج اضطرابات معينة بالنجاعة المطلوبة مثل اضطرابات الانتباه وفرط الحركة. ان ما يتم التوصل اليه في مخابر العلوم العصبية ليس بالضرورة قابل الى التطبيق في المجال التربوي لان العملية التعليمية التعلمية تمس أبعادا متعددة ووجب أخذها بعين الاعتبار كلها للاستفادة الحقيقية من هذه المعطيات العلمية.

ويرى اوليفي هودي أن " تربية قشرة الفص الجبهي cortex «
» préfrontal اصبحت من المستجدات التعليمية التربوية المهمة (١)

وقد أظهر تصوير الدماغ بذلك وجود شكلين متكاملين من التعلم العصبي

المعرفي لدى الأطفال والبالغين: الأتمتة من خلال الممارسة والتحكم من خلال التثبيط. فهم يتحولون من وضع ادراكي سهل ووتوماتيكي ولكنه خاطيء الى وضع منطقي صعب ودقيق وتشير نتائج تحليل صور الدماغ الى تغيير واضح في تنشيط الدماغ من الجزء الخلفي من الدماغ الى قشرة الفص الجبهي.

فالنوع الأول من التعلم - الأتمتة من خلال الممارسة - هو المعرفة العامة الراسخة التي يتم تعلمها من خلال التكرار، والحفظ، وهو المعرفة المتاحة للجميع مثل البرامج المدرسية على سبيل المثال

والنوع الثاني من التعلم -وهو السيطرة من خلال التثبيط -- تناشد الخيال، والقدرة على تغيير استراتيجيات التفكير عن طريق التثبيط هي في النهاية تعلم القدرة على المقاومة في المدرسة، نحن نتعلم اساسا من خلال التكرار والممارسة والأتمتة. هذا أمر جيد، ولكن، كما رأينا للتو، يجب أن يتعلم عقل الطلاب أيضًا التفكير بالنمط المعاكس: تثبيط التلقائية الخاصة بهم. ولذلك سيكون من المفيد جدا تربية قشرة الفص الجبهي، ولا سيما ممارسة قدرة تثبيط الدماغ. التثبيط هو، في الواقع، شكل من أشكال السيطرة على الانتباه والسلوك الذي يسمح للأطفال بمقاومة العادات أو، والإغراءات، والانحرافات أو التدخل، والتكيف مع الحالات المعقدة من خلال المرونة. عدم وجود تثبيط قد يفسر صعوبات التعلم (الأخطاء، والتحيز المنطق، وما إلى ذلك) والتكيف المعرفي والاجتماعي ولذلك فإن التربية في قشرة الفص الجبهي هي تربية مدى الحياة! لا يكفي أن نعرف القواعد، يجب علينا تعلم تثبيط " المعتاد"،

ولم يكن من المفاجيء مراجعة النظر في عدة معطيات تضمنتها أبحاث جون بياجى العالم النفسى الفرنسى السويسري الشهير (١٨٩٦-١٩٨٠) (٢) الذي طغت دراساته على القرن العشرين وأهمها نظريته حول مراحل النمو وأهمه نمو الذكاء والتي أثرت تأثيرا بالغا في مجال علم النفس عموما وعلم نفس الطفل بالأخص. ومن المعروف أن مهمة بياجى الرمزية لاختبار ذكاء الطفل كانت الحفاظ على الأرقام. أمام صفيين من الرموز من نفس العدد (٥ رموز، على سبيل المثال) ولكن أكثر أو أقل انتشار مكانيا في كل صف، والطفل، تصل إلى حوالي

٧ سنوات من العمر، يعتبر أن "هناك المزيد من الرقائق حيث أنها أطول" (الصف الأكثر بعداً)، وهو خطأ من الحدس الإدراكي. النجاح بعد ٧ سنوات (الجواب: "نفس العدد من رقائق في كلا الصفتين") ينعكس، وفقاً لبياجي، والانتقال من مرحلة الإدراك الحسي إلى مرحلة التفكير المنطقي الرياضي المحسوس مع أطفال رياض

تم حوسبة هذه المهمة في التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي الأطفال والمدارس الابتدائية مما يكشف عن أنها حشدت ليس فقط مناطق الدماغ المخصصة للأرقام (القشرة الجدارية)، ولكن أيضاً مناطق قشرة النصف الجبهي وهذا يؤدي إلى مراجعة نظرية بياجي بإضافة الدور الرئيسي للتشبيط المعرفي كآلية إيجابية لتطوير الذكاء لدى الأطفال..

هذه المعطيات التي سقناها تباعاً تدل بوضوح عن الأهمية القصوى التي بدأت تحتلها العلوم العصبية في عدة مجالات ومنها مجال التعليم والتربية موضوع اهتمامنا في هذا البحث حتى أن عديد الأصوات باتت تدعو إلى تغييرات جذرية على مستوى المدرسة وبعد أن كنا ندعو إلى مدرسة تتكيف مع حاجات الطفل وتركز عليه بات من الضروري الدعوة إلى مدرسة تتكيف مع دماغ كل طفل.

ولعل ما يسترعي الانتباه أن البحوث في العلوم العصبية أكدت صحة معطيات قديمة أفرزها نبوغ بعض العلماء في أزمنة غابرة من ذلك على سبيل المثال.

المثال الأول:

المثل العليا التي صاغها أفلاطون قبل ٢٤٠٠ سنة " الصحيح والجميل والخير". هل نسخر من ذلك؟ أبداً. هذا الطرح يتوافق مع الأداء الأمثل لدماغنا إذ يقول خبراء العلوم العصبية أنه على المدرسة أن تعرض الجميل في المدرسة لتنشيط الدماغ. ذلك أن بعض المواد الدراسية مثل الرسم والموسيقى والتربية البدنية تعتبر ثانوية أو هامشية في حين تبينت أهميتها في تنشيط الدماغ وتشكل منشطات لا مثيل لها لممارسة القدرات العاطفية والمعرفية لأدمغة الأطفال.

والمثال الثاني:

علم النفس وعلم الأعصاب إلى حد كبير التحقق من صحة المبادئ الأساسية للتربية الفرينيت. والباحثون أكدت ابحاث العلوم العصبية على فاعلية المبادئ الأساسية للتربية لدى فريني ولدى منتيسوري وغيرها من رواد التربية الحديثة

ومع ذلك فمن المشروعية بمكان أن نتساءل عن حدود الوثوق المطلق بالمستجدات العلمية في العلوم العصبية وتطبيقاتها في مجال التربية والتعليم...؟ هل أن الدماغ هو العضو الأهم أو الاساسي في تحديد سلوكات الكائن البشري عموما وبالتالي يشرعن هذا الاهتمام المنقطع النظير في عالم التربية والتعليم ؟ ونحاول الاجابة على هذه التساؤلات بتسليط الضوء على عضوين نعتبرهما مهمين أيضا في تحديد توجهات الانسان وسلوكاته وأيضا في أثرهما على الجانب التعليمي التعليمي.

٢ - القلب: يرفض عديد الأطباء وبعض الباحثين في العلوم العصبية أن يكون القلب أكثر من مجرد عضو يضخ الدم للجسم.. ولكن تبين من خلال الملاحظات العلمية والدراسات (٢) ان للقلب جهاز عصبي مستقل ومتطور (٤٠,٠٠٠) الخلايا العصبية وشبكة معقدة وكثيفة من الناقلات العصبية والبروتينات والخلايا الداعمة ويبدو أن القلب يمكن أن يتخذ القرارات وإجراءات مستقلة عن الدماغ كما اكتشفوا أن هناك أربعة أنواع من التوصيلات التي تربط القلب بالدماغ (٣).

التوصيلة الاولى: عصبية.

هناك اتصال عصبي بين القلب والدماغ من خلال انتقال النبضات العصبية. يرسل القلب معلومات إلى الدماغ أكثر مما يتلقى، فهو العضو الوحيد في الجسم الذي يتمتع بهذه الخاصية، ويمكن أن يثبط أو ينشط أجزاء محددة من الدماغ حسب الظروف. هل هذا يعني أن القلب يمكن أن يؤثر على الطريقة التي

نفكر بها؟

في الحقيقة يمكن أن يؤثر على تصورنا للواقع وبالتالي يحدد ردود أفعالنا

التوصيلة الثانية: بيو كيميائية

يرسل القلب المعلومات الكيميائية الحيوية من خلال الهرمونات والناقلات العصبية. والقلب هو الذي ينتج هرمون الذي يضمن التوازن العام للجسم ومن آثاره منع إنتاج هرمون الإجهاد، وإنتاج وإطلاق الأوكسيتوسين، والمعروفة باسم هرمون الحب.

التوصيلة الثالثة: بيوفيزيائية

ويتم ذلك عن طريق موجات الضغط. اذ يبدو أنه من خلال معدل ضربات القلب واختلافاته، يرسل القلب رسائل إلى الدماغ وبقية الجسم.

التوصيلة الرابعة: طاقة

/ المجال الكهرومغناطيسي للقلب هو أقوى من جميع أجهزة الجسم، ٥٠٠٠ مرة أكثر كثافة من الدماغ. وقد لوحظ أنه يختلف وفقا للحالة العاطفية. عندما نخاف، عندما نشعر بالإحباط أو الإجهاد، يصبح الأمر فوضوياً. ثم يعود إليه توازنه عن طريق المشاعر الإيجابية؟ نعم. ونحن نعلم أن المجال المغناطيسي للقلب يمتد من مترين إلى أربعة أمتار حول الجسم، أي أن كل من حولنا يتلقى معلومات الطاقة الموجودة في قلوبنا.

ماذا نستنتج مما سبق ؟

دائرة دماغ القلب هي الأولى التي تقوم بمعالجة المعلومات، والتي تمر بعد ذلك الى دماغ الرأس. ألن تكون هذه الدائرة الجديدة خطوة أخرى في التطور البشري؟ هناك نوعان من الاختلاف في معدل ضربات القلب: واحد متناغم، مع موجات فضفاضة ومنظمة، ويأخذ هذا الشكل عندما يكون الشخص لديه مشاعر. والآخر غير منظم، مع موجات غير متماسكة. وهذا في حالة الخوف والغضب والحذر.

وأكثر من ذلك: تتزامن موجات الدماغ مع هذه التغيرات في معدل ضربات القلب، أي أن القلب يدفع الرأس. والاستنتاج هو أن حب القلب ليس عاطفة، بل هو حالة من الوعي الذكي... أليس هذا، في النهاية، تأكيداً إضافياً لنظرية الطب الصيني، التي تقول إن القلب هو مركز الشن (المصطلح الصيني الذي يشمل العواطف والوعي والعقل والنفس).

هل لاحظتم أنه في السنوات الأخيرة تزايد تعرض الناس الى اضطرابات إيقاعية في القلب (عدم انتظام دقات القلب، و، وعدم التناسق، وما إلى ذلك) - وهو ما يختلف عن النوبات القلبية التي هي مجرد مسألة نخر بالاختناق الناتج عن أمراض القلب التاجية. ولكن موضوعنا موجه على تنظيم الطاقة في أو من القلب الذي تبين أن لديها العديد من البوابات

ومن المعطيات التي يسوقها الباحثون في مجال القلب وتأثيره على المحيط المادي والبشري ما يلي:.

- كل من حولنا يتلقى معلومات الطاقة الواردة في قلوبنا
- يمكن قياس نشاط قلب الشخص في موجات الدماغ لشخص آخر.
- يمكن للمجالات الكهرومغناطيسية لكائنين قريبين بما فيه الكفاية من بعضهما البعض التفاعل، بحيث يمكن قياس النشاط القلبي لأحدهما من خلال موجات الدماغ للآخر.
- دائرة الدماغ في القلب هي الأولى لمعالجة المعلومات، والتي تمر بعد ذلك من خلال الدماغ من الرأس"

ونستحضر في هذا الإطار المثل الشعبي التونسي "قلبو خبيرو" أي أن القلب هو الذي يقدم للفرد المشورة أو المعلومة التي قد تحدد نوع القرار المتخذ... أو ما قاله الفيلسوف العربي الغزالي "وظيفة القلب هو وظيفة المرأة" أي التي تعكس الكثير من حاله الفرد النفسية والجسدية وغيرها (نقلا عن بيبير لوروا المدير العلمي للمعهد الفرنسي للشرق الأدنى).

وهذا ما يقودنا الى التعرّيج عن الطب الصيني العريق لان العديد من

الدراسات تذهب في الاتجاه الذي سطره الطب الصيني الذي يقول أن القلب هو مركز "الشرين" وهو المصطلح الذي يشير الى العواطف والوعي والعقل والنفس". كما يقول الطب الصيني أن القلب هو سيد الجسم وإمبراطور شبكات الأعضاء وأن خطوط الطول الـ ١٢ للجسد تطيع أوامر القلب.

هل من خلال ما سبق سنعلن عن عصر التربية المركزة على القلب ؟ ونسميها من باب المزاح أو الجدية "التربية القلبية" ؟ أو "العلوم العصبية القلبية". هل تصبح التربية الوجدانية لها الاولوية ضمن اهداف التربية في المستقبل. وهذا ما نلاحظه في برامج أغلب الدول التي بدأت تطور برامجها لتحقيق هذه الاهداف مثل البلدان السكندنافية ذات المنظومات التربوية المتطورة والتي أصبحت تركز على التربية على التعاطف والتسامح والتأمل والتحكم في الانفعالات والتعاون وغيرها من القيم التي اعيد احيائها بعد أن لوحظ ميل الانسان الى التوحش والمادية المفرطة والانانية والعنف والعنصرية.

وماذا عن اليد وهو العنصر الثالث في الاشكالية المطروحة في هذا البحث ؟

٣- اليد المفكرة

لنبدأ باستعراض بعض الأقوال المؤثرة حول اليدين " منحت الطبيعة للكائن الأكثر قدرة على اكتساب اكبر عدد ممكن من التقنيات الأداة الأكثر افادة ونجاعة: اليد "

"يكرس الدماغ جزء من قدراته لمعالجة الرسائل الواردة عليه من اليد" (ويلدر بنفيلد: عالم الفيزيولوجيا العصبية الامريكي) (٤)

" اليد تعوض كل الأدوات وبِعلاقتها المباشرة بالذكاء فانها مكنت الانسان من الهيمنة على العالم " (داروين)

" حتى تتمكن من تطوير اللمس لدى الطفل وتجعل منه قدرة ينبع الذكاء من اليد " برقسون

" اليد هي الجزء المرئي من الدماغ " (كانت)

كل هذه الاقوال لكبار الفلاسفة المبدعين والاختصاصيين المعروفين تبرز أهمية تربية اليد في تناغم مع تربية مختلف اعضاء الجسم لتحقيق التناغم والتكامل والانسجام.

وقد أظهرت البحوث العلمية التي أجريت على مدى عشرات السنين أن الممارسة الحسية واستخدام الأدوات باليد يعززان الحصول على البيانات المجردة. ولذلك ركزت الحركات العصرية والحديثة منذ النصف الثاني من القرن الماضي (حركة المدرسة العصرية وحركة المدرسة الجديدة في أوروبا) على استنباط الأدوات والوسائل التي تحقق تربية الحواس عن طريق اعطاء مجال اكبر الى الممارسة اليدوية (موننتسوري وفريني وكرولي وكوسيني وغيرهم من عباقرة النظريات التربوية)

ويبدو أن العديد من الاضطرابات وصعوبات التعلم يكون سببها السهو عن اعطاء مكانة مهمة لتربية اليدين منذ سن مبكرة. وهو ما تؤكد وتعززه المعطيات المتلاحقة في مختلف الابحاث المتصلة بالعلوم العصبية حيث يقول دكتور كلود فردان (٤) "لأن ممارسة اليد ضرورية لتنمية دماغ الطفل، يجب أن تؤخذ في الاعتبار في التعليم وتشجيع العمل اليدوي وممارسة الفنون أثناء الدراسة"

ومن المؤكد أن الربط المستمر بين الدماغ واليدين بصفة مباشرة وقوية له ايجابيات عديدة كما أن تدعيم التنسيق بين اليد والعين له تأثير مباشر على نمو الدماغ وتطوير وظيفته. وهي مبادئ تربوية في جوهر التربية منذ عقود من الزمن ومتفق عليها من ذلك أن تكوين المدرسين والطلاب يركز على تحقيقها وترسيخها. " هناك جانب هام جدا في اعداد المعلم بمدارس تكوين المعلمين وهذا الجانب يتمثل في الانشطة الثقافية والاجتماعية والتربوية والرياضية كالمسرح والتصوير الشمسي والرسم والخط والرحلات وغيرها" (٥) "ومن بين اهداف هذه الانشطة تهذيب ملكاته الفنية والابداعية وتوجيه طاقاته الى البحث والممارسة العملية لأنشطة تكوينية هادفة حتى يكون المدرس مؤهلا للقيام بدوره المهم في نحت شخصية الطالب تتصف بالتوازن والوحدة والانسجام" (٥)

الخاتمة:

لعل اجمل خاتمة لهذا البحث ما جاء على قلم جون روسكن (٦): "الفن جميل عندما تعمل اليد والرأس والقلب معا " فالإنسان يتكون من جسم وهو اول ما نراه، إنه الجانب المرئي والمادي المحسوس ونحن نعلم أيضا أن كل واحد منا يمتلك " حياة داخلية "، وتتجسم في الطاقات والقدرات والانفعالات التي جزء من هذا الداخل، وهي في حقيقة الأمر غير مرئية ولكنها تحتاج إلى الجسم لتلاحظ وتتجسم مرئيا، فاذا شعرت بحالة نفسية داخلي فان الجسد هو الذي سيعبر عنها في الخارج: الحزن أو الفرح أو الغضب أو الخوف الى اخره ولذلك يتشكل الانسان من وحدة فيها الجانبين الداخلي والخارجي وان هناك درجات مختلفة من العمق في هذا الداخل..

والملاحظ أن الانسان في العصر الحديث اقتنع أن مستقبل الانسانية في بناء هذا الداخل بكل ايجابياته بما يسمح بتلاحم الذكاء والقدرة على المعرفة وعلى الحب والتعاطف. وهو في الحقيقة ليس بجديد على احلام الانسان ولكن جنوحه الى المادية والى الجفاف الروحي والى تجاهله الى أهمية الجانب الروحي فيه جعله يسير نحو التوحش والانانية المقيتة والميل الى العنف والغلو في كل شيء.

ان الفلسفة التي وجب ان تبنى عليها التربية " هي قبل كل شيء فلسفة الانسان وبهذا الشرط وحده تستطيع أن تؤدي رسالتها وهي العمل على تنظيم الكائن الانساني ووحدته وتأليفه تأليفا جديدا مستمرا وحمائته قبل كل شيء من القوى المختلفة التي تتنازع في اتجاهات متباينة ووقايتها من مخاطر تشتت فكره وانحلال ارادته " (٦)

أليس من أهم الأهداف التربوية اليوم العمل على تحقيق التوازن بين الدماغ والقلب واليد لتتجسم ابعاد النمو الذهني والوجداني والجسمي كما دعت اليه النظريات التربوية منذ حقبات من الزمن طويلة ؟....

المراجع والهوامش:

- (1) Houdé olivier – Juin 2018 -« pour une école adaptée à chaque cerveau » in « cerveau et psycho » N° 100- pages 56-62

(2) Piaget Jean – Le développement des quantités chez l'enfant – 1941
– Edition Delachaux et Niestlé

(3) Marquier Annie -« Le maître dans le cœur »(2007) Editions Valinor.

١. Verdan Claude طبيب جراح فرنسي ولد في -١٩٠٩ توفي - ٢٠٠٦ أنشأ متحفا
باسمه سماه " متحف اليد"

٢. المرواني يوسف -اعداد المعلمين وتدريبهم (١٩٨٧) نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم

٣. هوبير روني - التربية العامة - ترجمة عبدالله الدائم - (١٩٩١) نشر دار العلم للملايين
ص ٧٩.

في عام ١٩٨١، أنشأ المؤسسة التي تحمل اسمه، لدعم تركيب "متحف يد الإنسان"
الذي يقع في لوزان، بالقرب من مستشفى جامعة فو (CHUV) عاطفي عن الفن، كلود فيردان
الممارسات النحت؛ مجموعات من الأعمال الفنية، فضلا عن توثيقه واسعة من المراجع
والايقونية تغذية المعارض من مؤسسته.

معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلاب في الجامعة

خرموش منى

جامعة محمد لمين دباغين سطيف
الجزائر

بحري صابر

جامعة محمد لمين دباغين سطيف
الجزائر

١. مشكلة الدراسة:

يعد الاهتمام بالعملية التعليمية التعلمية والعمل على تحسينها من الأمور المهمة التي تهتم بها كافة المجتمعات نظرا لدور التعليم في تقدم المجتمعات ورفقيها، ولقد تميزت الآونة الأخيرة بمحاولات جادة لتحديث التعليم وتنويعه في كثير من الدول المتقدمة والنامية، وذلك سعيا للخروج بالتعلم من النمط الأكاديمي المألوف والتغلب على نمطية الأساليب التقليدية في التعلم (سامية إبراهيمي، ٢٠١٢، ص ٨).

إن العملية التدريسية تهدف إلى إحداث تغييرات سلوكية مرغوبة لدى الطلاب سواء من الناحية العقلية كالمعرفة والاستنتاج والنقد، وطرق التفكير، أو من الناحية الانفعالية كالتدق والتقدير، والاستمتاع بالفنون أو في الناحية الحركية وما تشمله من المهارات، وتتوقف فعالية التدريس على ما يحدث من تغييرات في سلوك الطلاب في الاتجاه المرغوب (عبد الحميد حسن عبد الحميد شاهين، ٢٠١٢، ص ١٥).

والجامعة باعتبارها مؤسسة تكوينية فهي تساهم في تنشئة الطالب تنشئة نفسية سليمة كما تزوده بالكثير من القيم الإنسانية والأخلاقية والفكرية، التي تسمح له بالتكيف مع مجتمعه ومع عصره، كما تساهم في إنماء مختلف قدرات الطالب واستعداداته وتدريبه على العمل الجماعي في إطار إنجازه لمشروعات مشتركة مع أقرانه والتعاون معهم والنتيجة في النهاية هي أن يصبح الطالب قادرا على التفكير السليم ومزودا بالمهارات والخبرات التي تمكنه من اكتساب العلم،

وتوسيع آفاقه المعرفية، بالاعتماد على ما يبذله من مجهودات ذاتية (بن عبد الله محمد، ٢٠٠٥، ص ١٢٧-١٢٨)، كما تلعب الجامعة دورا بارزا في دعم مختلف العلوم والتكنولوجيا والرفع من مكانتها في ثقافة وحياة المواطن من أجل خوض معركة المنافسة واكتساب القدرة على الابتكار، فبدون بحث علمي منافس لا يمكن أن توجد هناك جامعات فعالة وقوية قادرة على جلب واستقطاب الطلبة والباحثين الأكفاء (Mihchel laurent, 2003, p ٧٨))، فالتعليم يعد من أهم استثمارات المجتمعات والشعوب المتقدمة التي تسعى دوما للنهوض بطاقتها وإمكاناتها البشرية، بما يحقق لها استقلاليته وسيادتها وتطورها، حيث يستثمر التعليم موردا من أهم موارد المجتمع، ألا وهو قدرات أفراد وطاقتهم الذهنية لتحقيق أكبر عائد من التنمية الشاملة في المجالات كافة، ولما كانت الجامعات على رأس المؤسسات التعليمية المنوطة بإعداد الكوادر الفنية المتخصصة في شتى المجالات، فإن هناك حاجة ماسة ظ إلى دراسة المعوقات التي تواجه هذه الكوادر الناشئة خلال سنوات الدراسة الجامعية حتى يحسن إعدادها لسوق العمل ومتطلباته (معر إرحيم الفر، ٢٠١٠، ص ٢٣٢).

إن الجامعة لكي تحقق مختلف الأهداف المنوطة بها لا بد عليها من ضمان فعالية العملية التدريسية والتي تتضمن نقل المعلومات والمعارف للطلاب من جهة، وكذا خلق طالب مبدع في مجال تخصصه قادر على حل المشكلات التي سوف تواجهه في ميدان عمله، وذلك يتم عن طريق عملية التعلم، هذه العملية التي تتطلب في الواقع العديد من الشروط والعوامل التي تساهم في ضمان جودتها وفق ما يحقق الأهداف المبتغاة.

والملاحظ في واقع سوق العمل أن الكثير من أرباب العمل ومؤسسات العمل تشتركي من جودة المنتج المتخرج من الجامعة، حتى الجامعة نفسها تعترف بعجزها عن تكوين كادر قادر على تحمل الأعباء الوظيفية، هذا النقص الذي يعاني منه الكثير من الطلبة في الكثير من التخصصات التي يعد ميدان العلوم الاجتماعية أحد أبرزها، والتي يدخل ضمن إطارها تخصص علم النفس الذي تقف الكثير من المعوقات والعوامل التي تحول دون تدريس هذا العلم وفق ما مطلوب وبالأداء الذي يضمن تخرج منتج ذا جودة عالية يستطيع ممارسة والقيام

بمهامه في العمل بأريحية وبدون أي مشاكل تذكر، فالعملية التدريسية التي يقوم بها الأستاذ في علم النفس تشوبها العديد من المعوقات التي تحول دون تحقيق العلم لأهدافه المسطرة، وهو ما يجعل نحاول أن نتطرق لتلك المشكلات والمعوقات التي تقف أمام العملية التدريسية في العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر عنصران هامين في العملية التعليمية واللذان يشكلان طرفا العلاقة التعليمية، وهما كل من الأستاذ والطالب معا، في محاولة لفهم المعوقات لتذليل العقبات نحو ضمان فعالية للعملية التدريسية وهو ما ينعكس بصورة إيجابية على أداء الطالب ونوع المنتج المتخرج بما يخدم سوق العمل ويساهم في التنمية الاقتصادية من الناحية البشرية.

٢. أسئلة الدراسة:

ما هي معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي؟.

ما هي معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي المتعلقة بالطالب؟

ما هي معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي المتعلقة بالأستاذ؟

ما هي معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي المتعلقة بالجامعة؟

ما هي معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي المتعلقة بالمنهاج الدراسي؟

٣. فرضيات الدراسة:

١. هناك معوقات تتعلق بالطالب في تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي.

٢. هناك معوقات تتعلق بالأستاذ في تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي.

٣. هناك معيقات تتعلق بالجامعة في تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي.
٤. هناك معيقات تتعلق بالمنهاج الدراسي في تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي.

أهداف الدراسة:

- تحديد معيقات تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي التي تتعلق بالطالب.
- تحديد المعوقات التي تتعلق بالأستاذ في تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي.
- تحديد معيقات تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي التي تتعلق بالجامعة.
- تحديد معيقات تدريس العلوم النفسية والتربوية التي تتعلق بالمنهاج الجامعي حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطالب الجامعي.
- تحديد الفروق بين كل من أعضاء هيئة التدريس والطلبة في وجهات نظرهم حول المعوقات المختلفة في تدريس العلوم النفسية والتربوية.

١. تحديد مصطلحات الدراسة:

المعوقات: هي العوامل التي تؤدي إلى التأثير السلبي على عملية التعلم والتعليم وتجعله أقل فعالية (حسين تقي طه،، ٢٠٠٨، ص ٣١٥).

التدريس: هو المهمة الأساسية الثانية لأستاذ الجامعة، وأساس التدريس هو الاستعداد العلمي والنفسي له، ويتضمن التدريس ما يلي:

- التخطيط لإعداد الدروس وإلقائها سواء في مرحلة التدرج أو ما بعد التدرج من حيث تحديد الأهداف من التدريس، تحديد وضعية الطلبة المعرفية قبل التدريس، تحديد مضمون الدرس (مفاهيم، حقائق، معلومات)، تحديد الأنشطة (طرق التدريس، وسائل التدريس، ما يقوم به الطالب)، تحديد أساليب التقويم (تمارين، أسئلة كتابية، أسئلة شفوية، أو أدائية)، التحكم في سلوك

الطلبة أثناء إلقاء الدرس.

- تأليف الكتب في التخصص الذي يدرس.
- تطوير مناهج التدريس في التخصص الذي يدرسه.
- العمل في اللجان البيداغوجية.
- إتقان اللغة التي يدرس بها (سلامي دلال، إيمان عزي، ٢٠١٣، ص ١٥٤).

علم النفس: هو العلم الذي يدرس الحياة النفسية وما تتضمنه من أفكار ومشاعر وإحساسات وميول ورغبات وذكريات وانفعالات، فهو العلم الذي يدرى سلوك الإنسان، أي ما يصدر عنه من أفعال وأقوال وحركات ظاهرة (أحمد عزت راجح، ١٩٦٨، ص ٣).

وجهة نظر: هي مجموعة الآراء الذي يكونها الشخص حول موضوع معين وهي تعبر عن رأيه في موضوع معين، والذي يكون مبينا على أسس ذاتية أو موضوعية خاصة بالشخص الذي يبدي وجهة نظر دون أي تدخل من طرف خارجي للتأثير عليها، فهي إذن تلك الإجابات التي يبديها الأولياء حول الإشتيان الموجه لهم للإجابة عليه.

أعضاء هيئة التدريس: هو العنصر الفعال في العملية التعليمية الجامعية، والمحرك الأساسي لها فخصائصه الشخصية والمعرفية والانفعالية لها دور هام في فعالية العملية التعليمية، لأنه مهما كان مستوى المناهج التي تقدمها الجامعة، والتجهيزات والمخابر والهيكل التي تتوفر عليها، لا يمكن لها أن تحقق أهدافها في إحداث التغيير المطلوب، وفرض قيادتها العلمية والاجتماعية، ما لم يتواجد فيها الأستاذ الكفء تدريسا وبحثا، فالأستاذ الجامعي ذو الكفاءة العالية يمكن أن يعوض أي نقص أو تقصير محتمل في الإمكانيات المادية والفنية في الجامعة (يوسف أحمد صالح، ٢٠١٠، ص ٣١٣-٣١٤).

الطالب الجامعي: هو الذي يتلقى دروس ومحاضرات والتدريب على كيفية الحصول على المعلومات في مؤسسة التعليم العالي للحصول على شهادة جامعية (مزيش مصفي، ٢٠٠٩، ص ٢٤)، فهو شخص يسمح له مستواه العلمي

بالانتقال من المرحلة الثانوية بشقيها العام والتقني إلى الجامعة وفقا لتخصص يخول له الحصول على الشهادة إذ أن للطلاب الحق في إختيار التخصص الذي يتلاءم وذوقه ويتماشى وميله (رياض قائم، ١٩٩٥، ص ٨٥).

الجامعة: هي مؤسسة أو مجموعة أشخاص يجمعهم نظام ونسق خاصين تستعمل وسائل وتنسيق بين مهام مختلفة للوصول بطريقة ما إلى معرفة عليا (R.Macia Manso: 1978, p 79، ويشار للجامعة بأنها "المكان الذي تتفاعل فيه مدخلات التعليم الجامعي بعملياته المختلف وصولا إلى مخرجاته التي يرجى أن تكون بمستويات ومعايير معدة ومحددة مسبقا، والجامعة التي تحدد رسالتها وأهدافها وخططها الإستراتيجية وآلياتها التنفيذية وبالتالي وبحكم الواقع هي المنطلق لتشكيل جودة الأداء الجامعي ومستوياته" (محمد عبد الرزاق إبراهيم ويح، أحمد نصحي أنيس الشربيني الباز، ٢٠١٢، ص ٨٨٠).

المنهاج الجامعي: هو مجموعة الخبرات (النشاطات أو الممارسات) المخططة التي توفرها الجامعة لمساعدة الطلبة على تحقيق النتائج التعليمية المنشودة إلى أفضل ما تستطيعه قدراتهم (أحمد الحسين اللقاني، ١٩٩٥، ص ٤).

٢. أدوات الدراسة:

لقد تم استخدام استبيان من إعداد الباحثين اعتمادا على التراث النظري والذي جاء لتحديد أهم معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة، حيث شمل المقياس ٥٢ عبارة، وقد تم تقسيم الاستبيان إلى عدة محاور، المحور الأول خاص بالمعوقات المتعلقة بالطلاب بـ ١٦ عبارة، والمحور الثاني خاص بالمعوقات المرتبطة بالأستاذ الجامعي بـ ١٥ عبارة، والمحور الثالث خاص بالمعوقات المرتبطة بالجامعة بـ ١٤ عبارة، والمحور الرابع خاص بالمعوقات المتعلقة بالمنهاج الدراسي بـ ٧ عبارات، وللتأكد من صدق الاستبيان المصمم فقد تم عرضه على مجموعة من الأساتذة المحكمين لتقديم آرائهم وملاحظاتهم، وبعد إجراء التعديلات المطلوبة تم حساب معامل الصدق الذي بلغ ٠.٧٥ وهو ما يجعل الاستبيان صادق، كما تم حساب معامل الثبات باستخدام معادلة ألفا كرونباخ أين بلغ معامل الثبات ٠.٨٢، وهو ما يدل

على أن الاستبيان ثابت وقابل للتطبيق على عينة الدراسة.

٣. عينة الدراسة:

لقد طبقت أداة الدراسة على عينتتين العينة الأولى هم أعضاء هيئة التدريس الذين بلغوا ٥٠ أستاذ، والطلبة الذين بلغوا ١٢٠ طالب جامعي، وقد تم اختيارهم عن طريق المعاينة العشوائية.

٤. حدود الدراسة:

الحدود الموضوعية: معوقات تدريس علم النفس.
الحدود البشرية: طلبة وأساتذة جامعة محمد لمين دباغين سطيف ٢.
الحدود الزمنية: السنة الجامعية ٢٠١٩-٢٠٢٠.

٥. المنهج المستخدم:

لقد تم استخدام المنهج الوصفي لأنه الأنسب في مثل هذه الدراسات أين يتم وصف تلك العلاقة بين متغيرات الدراسة وطبيعتها، ويعرف المنهج الوصفي بأنه "أسلوب من أساليب التحليل المرتكز على معلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع محدد من خلال فترة أو زمنية معلومة، وذلك من أجل الحصول على نتائج عملية تم تفسيرها بطريقة موضوعية وبما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة (محمد عبيدات وآخرون، ١٩٩٩، ص ٤٦).

٦. الأساليب الإحصائية:

بالنظر لطبيعة الموضوع المتناول فقد تم الإعتماد على الأساليب الإحصائية التالية:

الوسط المرجح: لوصف كل معيق ومعرفة قيمته وترتيبه ضمن كل مجال وفق القانون الآتي:

$$\frac{(1x3)+(\square)}{2}$$

2

حيث أن:

وح = الوسط المرجح.

ن = عدد أفراد العينة.

١ = تكرار الاستجابة للبديل الأول (معيق رئيسي) ووزنها ثلاث درجات.

٢ = تكرار الاستجابة للبديل الثاني (معيق ثانوي) ووزنها درجتان.

٣ = تكرار الاستجابة للبديل الثالث (ليس معيق) ووزنها درجة واحدة.

$$100x \frac{\text{العبارة ١} \times \text{العبارة ٢} \times \text{العبارة ٣}}{\text{العبارة ١} + \text{العبارة ٢} + \text{العبارة ٣}} = \text{العبارة ١} \times \text{العبارة ٢} \times \text{العبارة ٣}$$

(العبودي، ٢٠٠٨، ص ١٦٤).

٧. عرض النتائج ومناقشتها:

١.١١ عرض نتائج الفرضية الإجرائية الأولى: "هناك عدة معوقات لتدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة تتعلق بالطالب".

معيقات تدريس العلوم النفسية والتربوية المتعلقة بالطالب						
من وجهة نظر الطالب			من وجهة نظر الأستاذ			العبارات
الترتيب	الوزن المئوي	الوسط المرجع	الترتيب	الوزن المئوي	الوسط المرجع	
8	69.33	2.08	3	89.66	2.69	ضعف مستوى الطالب الجامعي
7	74	2.22	6	85.66	2.57	اهتمام الطالب بالعلامة دون التركيز على تطوير مستواه العلمي
10	66	1.98	4	88.33	2.65	تدني مستوى دافعية الطالب نحو التعلم
14	52	1.56	8	83.33	2.5	التأثير السلبي للجماعات الطلابية داخل القاعة

11	59.33	1.78	7	84.33	2.53	عدم اهتمام الطالب بالتحضير والمشاركة أثناء الدرس
6	74.66	2.24	15	74.33	2.23	عدم اهتمام الطالب بالدراسة في الجامعة
13	55.66	1.67	11	82	2.46	ضعف قدرة الطالب على استيعاب المعلومات المقدمة
4	78	2.34	8	83.33	2.5	انشغال الطلب بأمور جانبية بعيدا عن الدراسة
1	91.66	2.75	1	91	2.73	عدم استخدام الطالب لمهارات التعلم الذاتي.
3	89.33	2.68	2	90.33	2.71	اعتماد الطالب على ما يقدمه الأستاذ فقط من معلومات
5	76.66	2.30	8	84.33	2.53	عدم قيام الطالب بالبحث في المصادر الأخرى للتعلم
12	58.66	1.76	14	76.66	2.30	ضعف الخلفية المعرفية للطالب الجامعي في تخصص علم النفس
2	91.33	2.74	16	69	2.07	عدم تعود الطالب على كيفية البحث عن المعرفة ومصدرها
9	67.66	2.03	5	87	2.61	عدم تمكن الطالب من البحث باستخدام الإنترنت
15	51.33	1.54	13	79.33	2.38	وجود اتجاهات سلبية للطالب نحو التعلم في الجامعة

16	36	1.08	12	80.66	2.42	غياب التفاعل من قبل الطالب داخل القاعة
68.22		2.04	78.34		2.35	المجموع

جدول رقم (٠١) يرصد نتائج الفرضية الأولى

التعليق ومناقشة النتائج :

من خلال الجدول رقم (٠١) أعلاه، والذي يرصد لنا نتائج الفرضية الإجرائية الأولى يظهر لنا أن هناك عدة معوقات في تدريس العلوم النفسية والتربوية المتعلقة بالطالب من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة، وقد اختلفت وجهات نظرهم حول هذه المعوقات بين الجانبين، مع أنه حصل اتفاق أو تقارب بين العنصرين فيما يخص بعض النقاط والتي من بينها عدم استخدام الطالب لمهارات التعلم الذاتي والتي جاءت في الترتيب الأول لكل من أعضاء هيئة التدريس والطلبة بوسط مرجح بلغ لأعضاء هيئة التدريس ٢.٧٣ ووزن مؤوي ٩١، أما الطلبة فقد بلغ الوسط المرجح ٢.٧٥، ووزن مؤوي بلغ ٩١.٦٦، وهو ما يؤكد أن الطلبة يعتمدون اعتمادا كليا على الأستاذ الجامعي في الحصول على المعرفة والمعلومات ولا يبذلون أي جهد في تحسين قدراتهم المعرفية والعلمية، ويرجع ذلك أيضا لطبيعة الامتحانات التي يستخدمها الأساتذة والتي تؤكد على بضاعتكم ردت إليكم، في ظل الاعتماد على عملية التقييم القائمة على الحفظ دون الاهتمام بحل المشكلات والإبداع، كما حصل تقارب في النظرة الخاصة باعتماد الطالب على ما يقدمه الأستاذ فقط من معلومات أين تحصل على الترتيب الثاني بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس والترتيب الثالث بالنسبة للطلبة بمتوسط مرجح على التوالي ٢.٧١، ٢.٦٨ ووزن مؤوي على التوالي ٩٠.٣٣، ٨٩.٣٣، وهو ما يؤكد أن كل من الطلبة والأساتذة يعتبرون اعتماد وتركيز الطالب على الأستاذ معيق من معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية وهو ما نلاحظه من خلال الواقع المعاش في جامعتنا أين لا يبذل الطلبة أي مجهود في تنويع مصادر المعرفة رغم أنها موجودة بصورة كبيرة في العديد من الفضاءات غير الأستاذ، كما حصل اتفاق متقارب لدى أعضاء هيئة التدريس والطلبة بخصوص إهتمام الطالب بالعلامة دون التركيز على تطوير مستواه العلمي بوسط مرجح على التوالي

٢.٥٧ و ٢.٢٢ ووزن مؤوي ٨٥.٦٦ و ٧٤ وهو ما يعني أن كلا الطرفين يريان في هذا العنصر معيقا في تدريس العلوم النفسية والتربوية بدرجة متقاربة نوعا ما، أما مسألة التأثير السلبي للجماعات الطلابية فأعضاء هيئة التدريس يرونه معيقا احتل الترتيب الثامن بوسط مرجح ٢.٥ ووزن مؤوي ٨٣.٣٣، في حين الطلبة لا يرونه معيقا بوسط مرجح ١.٥٦ ووزن مؤوي ٥٢ وبذلك حصل على الترتيب العاشر، وهو ما يؤكد حصول الاختلاف فيما يخص نظرة الطرفين لهذا العنصر، كما أن عدم اهتمام الطالب بالتحضير والمشاركة أثناء الدرس جاء في الترتيب السابع من بين المعوقات المتعلقة بالطالب بالنسبة للأساتذة (وسط مرجح ٢.٥٣ ووزن مؤوي ٨٤.٣٣) في حين جاء في الترتيب إحدى عشر بالنسبة للطلبة (وسط مرجح ١.٧٨ ووزن مؤوي ٥٩.٣٣) وهو ما يؤكد اختلاف السورة لدى الجانبين أين لا يوليه الطلبة أي دور كمعيق في تدريس العلوم النفسية والتربوية على عكس الأساتذة، ويرى الطلبة أن عدم اهتمام الطالب بالدراسة في الجامعة هو معيقا في تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٢٤ ووزن مؤوي ٧٤.٦٦ وترتيب سادس في حين رأى الأساتذة أنه عامل غير مهم أين جاء في الترتيب الخامس عشر، بوسط مرجح ٢.٢٣ ووزن مؤوي ٧٤.٣٣، وهو ما يؤكد اختلاف الرؤية في هذا المضمرة، كما أن ضعف مستوى الطالب الجامعي اعتبره أعضاء هيئة التدريس أنه معيق في تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٦٩ ووزن مؤوي ٨٩.٦٦ في حين تحصل على الترتيب الثامن بالنسبة للطالب بوسط مرجح ٢.٠٨ ووزن مؤوي ٦٩.٣٣ وهو ما يؤكد أن هناك اختلاف بالنسبة لمستوى الطالب الجامعي فأعضاء هيئة التدريس تعتبره معيقا مهما في حين أن الطلبة لا يرون الضعف فيهم، فكل طرف يحمل الطرف الآخر المسؤولية، ولم تتفق عينة الدراسة حول تدني مستوى دافعية الطالب نحو التعلم الذي يشكل معيقا في تدريس العلوم النفسية والتربوية أين حل في الترتيب الرابع بوسط مرجح ٢.٦٥ ووزن مؤوي ٨٨.٦٦ بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس، في حين حل في الترتيب العاشر بالنسبة للطلبة بوسط مرجح ١.٩٨ ووزن مؤوي ٦٦، وهو ما يؤكد أن الأساتذة يرون أنه لا توجد دافعية للطالب والطلبة يرون العكس إذ يؤكدون أن لديهم الدافعية وفق تصوراتهم ورؤيتهم لذا لا يعتبرونها معيقا في عملية تدريس

العلوم النفسية والتربوية، كما حصل اختلاف في رؤية عينة الدراسة لعنصر ضعف قدرة الطالب على استيعاب المعلومات المقدمة كمعيق في تدريس العلوم النفسية والتربوية أين اعتبره الأساتذة في الترتيب ١١ والطلبة في الترتيب ١٥ بوسط مرجح ٢.٤٦ ووزن مئوي ٨٢ في حين لدى الطلبة بوسط مرجح ١.٦٧ ووزن مئوي ٥٥.٦٦ وهو ما يؤكد أن الطلبة لا يرون أن هناك ضعف في قدرة الطالب مقارنة بالأساتذة الذين يحملون الطالب المسؤولية بوسط أعلى منه وفق وجهة نظر الطلبة، كما أن الأمر بالنسبة لانشغال الطالب بأمر جانبيه بعيدا عن الدراسة حسب وجهة نظر الطلبة يعد العامل الرابع المعيق لعملية التدريس بوسط مرجح بلغ ٢.٣٤ ووزن مئوي ٧٨، أما الأساتذة فقد احتل الترتيب الثامن بوسط مرجح ٢.٥ ووزن مئوي ٨٣.٣٣ وهو ما يؤكد ذلك الاختلاف في وجهة نظر الجانبين بخصوص هذا المعيق، كما اختلفت وجهات نظر عينة الدراسة حول عدم قيام الطالب بالبحث في المصادر الأخرى للتعليم حيث بلغ لدى أعضاء هيئة التدريس وسط مرجح ٢.٥٣ ووزن مئوي ٨٤.٣٣ بترتيب ثامن في حين احتل الترتيب الخامس لدى الطلبة بوسط مرجح ٢.٣٠ ووزن مئوي ٧٦.٦٦، وهو ما يبين لنا الاختلاف بين الجانبين في رؤية هذا المعيق في عملية التدريس، ولعل الخلفية المعرفية للطالب حول تخصص علم النفس يعد معيقا لعملية تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٣٠ ووزن مئوي ٧٦.٦٦ وترتيب رابع عشر لدى أعضاء هيئة التدريس، وقد اختلفت بذلك وجهة نظرهم مع الطلبة الجامعيين الذي اعتبروه معيقا بوسط مرجح ١.٧٦ ووزن مئوي ٥٨.٦٦ وترتيب اثنا عشر، وما يمكن تسجيله بخصوص تعود الطالب على كيفية البحث عن المعرفة ومصدرها فقد اعتبر الطالب هذا المعيق جد مهم أين احتل الترتيب الثاني بوسط مرجح بلغ ٢.٧٤ ووزن مئوي ٩١.٣٣ في حين أن أعضاء هيئة التدريس لم يروا في هذا العنصر معيق في تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٠٧ ووزن مئوي ٦٩ وترتيب ١٦، وهو تباين واضح في الرؤية بين العيّنتين بخصوص هذا المعيق، وهو الأمر الذي سجل أيضا بالنسبة لعدم تمكن الطالب من البحث باستخدام الإنترنت الذي رأى الأساتذة أنه معيق في الترتيب الخامس بوسط مرجح بلغ ٢.٦١ ووزن مئوي ٨٧، أما الطلبة اعتبروه لا يشكل معيق

أساسي حسب وجهة نظرهم بوسط مرجح ٢٠٠٣ ووزن مؤوي ٦٧.٦٦ بترتيب تاسع، أما بالنسبة لوجود اتجاهات سلبية للطالب نحو التعلم في الجامعة فقد رأى أعضاء هيئة التدريس أنه يعد معيق يحتل الترتيب ١٣ عشر وهو متقارب في الترتيب مع وجهة نظر الطلبة الترتيب السادس عشر، بالرغم من وجود تباين في الوسط المرجح والوزن المؤوي الواضح بين الأساتذة (٢٠٤٢ ووزن مؤوي ٨٠.٦٦) والطلبة (١٠٠٨ ووزن مؤوي ٣٦).

٢٠١١ عرض نتائج الفرضية الإجرائية الثانية: "هناك عدة معوقات لتدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة تتعلق بالأستاذ".

معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية المتعلقة بالأستاذ					
من وجهة نظر الطالب			من وجهة نظر الأستاذ		
الترتيب	الوزن المؤوي	الوسط المرجح	الترتيب	الوزن المؤوي	الوسط المرجح
11	51.33	1.54	3	71.66	2.15
كثرة الأعباء الوظيفية الملقاة على عاتق الأستاذ					
4	84.66	2.54	12	49.33	1.48
عرض المعلومات من قبل الأستاذ بطريقة غير مناسبة					
14	34.66	1.04	13	48.66	1.46
سوء علاقة بين الأستاذ والطالب					
5	80	2.4	6	60	1.80
عدم قدرة الأستاذ على توظيف المعارف في الواقع الجزائري.					
6	77.33	2.32	10	51	1.53
عدم تحكم الأستاذ في طرائق التدريس					

3	85.33	2.56	14	44.66	1.34	النظرة السلبية للأستاذ تجاه مستوى الطالب
8	74.66	2.24	7	57	1.73	إبتعاد الأستاذ عن التخطيط للمحاضرة أو الدرس المقدم للطالب
2	87.66	2.63	11	50	1.5	عدم التنوع في طرق التدريس والتركيز على طرق واحدة
15	34	1.02	15	43.33	1.30	سوء علاقة الأستاذ بالإدارة مما ينعكس سلباً على أدائه في القاعة
12	43.33	1.30	2	73	2.19	عدم إطلاع الأستاذ على المستجدات في مجال تخصصه
13	41	1.23	8	56.33	1.69	عدم قيام الأستاذ بالتحضير للمادة العلمية
9	69	2.07	5	69	2.07	عدم إهتمام الأستاذ بوضع الأهداف السلوكية للدرس الذي يشرع في تقديمه
1	89.33	2.68	1	83.33	2.5	عدم إستخدام الأستاذ للوسائل التكنولوجية كجهاز العرض
7	75.33	2.26	3	71.66	2.15	عدم مراعاة الأستاذ لعنصر التشويق في الدرس والتخفيف من الملل

10	67	2.01	9	53.66	1.61	التركيز على عملية الإلقاء أثناء تقديم الدرس
66.31		1.98	58.77		1.76	المجموع

جدول رقم (٠٢) يرصد نتائج الفرضية الثانية

التعليق والمناقشة :

من خلال النتائج المبينة في الجدول رقم (٠٢) والتي ترصد الفرضية الإجرائية الثانية يتبين لنا أن هناك العديد من المعوقات في تدريس العلوم النفسية والتربوية المتعلقة بالأستاذ وهذا من وجهة نظر كل من أعضاء هيئة التدريس والطلبة، وقد حصل اتفاق فيما يخص بعض المعوقات في حين كان هناك تباين في وجهات النظر حول بعض المعوقات وهو ما يؤكد لنا اختلاف الرؤية والتوجه في النظر للمعوقات في تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر الطرفين، أما بخصوص المعوقات التي كان هناك نوع من الاتفاق عليها، والتي جاءت في الترتيب الأول بالنسبة لكل من أعضاء هيئة التدريس الطلبة فقد تعلق الأمر بعدم استخدام الأستاذ للوسائل التكنولوجية كجهاز العرض الذي احتل الترتيب الأول بوسط مرجح ٢.٥ ووزن مئوي ٨٣.٣٣ لدى أعضاء هيئة التدريس، ووسط مرجح ٢.٦٨ ووزن مئوي ٨٩.٣٣ لدى الطلبة، وهو ما يؤكد أنه مشكل كبير لدى الطرفان وقد يرجع ذلك إلى نقص وسائل التكنولوجيا المستخدمة في التدريس من جهة خاصة ما تعلق بتجهيز القاعات بمثل هذه الأجهزة والذي يرى فيه الطلبة جانبا مهما في عملية التدريس ومساعدتها على فهم المعلومات المقدمة، أما فيما يخص سوء العلاقة بين الأستاذ والطالب فكلما الطرفان لم يريا فيها معيقا في تدريس العلوم النفسية والتربوية حيث بلغ الوسط المرجح ١.٤٦ ووزن مئوي ٤٨.٦٦ لدى أعضاء هيئة التدريس، ووسط مرجح ١.٠٤ ووزن مئوي ٣٤.٦٦ لدى الطلبة وترتيب متقارب ١٣ و ١٤ على التوالي وهو ما يؤكد أن هناك نوع من العلاقات الجيدة التي تربط الأستاذ بالطالب لكن ذلك لا يؤكد أن هذه العلاقة جيدة لدى الجميع فهي تختلف حسب كل أستاذ وكل طالب مع أن هناك تقارب في الرؤية المبينة على العلاقات الجيدة المميزة اليوم بين الأستاذ

والطالب، كذلك الأمر بالنسبة لعدم قدرة الأستاذ على توظيف المعارف في الواقع الجزائري فكلا الطرفين يريان فيه معيقا في تدريس العلوم النفسية والتربوية فهو لدى أعضاء هيئة التدريس إحتمل الترتيب السادس والخامس لدى الطلبة بوسط مرجح على التوالي ١٠.٨٠ و ٢.٤ ووزن مئوي ٦٠ و ٨٠، على الرغم من أن هناك تباين في وجهات النظر حول درجة هذا المعيق فهو حسب وجهة نظر الطلبة أعلى منه لدى الأستاذ، خاصة وأن الطالب هو المتلقي للمعلومات من قبل الأستاذ وهو الذي يستطيع أن يقيم الأستاذ من وجهة نظره، أما فيما يخص سوء علاقة الأستاذ بالإدارة مما ينعكس سلبا على أدائه في القاعة فقد أكد كل من الأستاذ والطالب أن ذلك لا يعيق عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية بترتيب خامس عشر، أين بلغ لدى أعضاء هيئة التدريس الوسط المرجح ١.٣٠ و ٤٣.٣٣ الوزن المئوي، ولدى الطلبة ١.٠٢ وسط مرجح، ووزن مئوي ٣٤، أما مسألة عدم قيام الأستاذ بالتحضير للمادة العلمية فالأساتذة يؤكدون أنه لا يشكل لديهم معيق بترتيب ثامن ووسط مرجح ١.٦٩ ووزن مئوي ٥٦.٣٣، وهو نفس الأمر لدى الطلبة الذي لا يرون فيه أي معيق في عملية التدريس بوسط مرجح ١.٢٣ ووزن مئوي ٤١، وهو ما يؤكد أن هناك اتفاق حول أن الأساتذة يحضرون المادة العلمية المقدمة للطلاب حسب وجهة نظر طرفا الدراسة الممثلة في العينة، وهو نفس الأمر لعدم اهتمام الأستاذ بوضع الأهداف السلوكية للدرس الذي يشرع في تقديمه حيث يرى كل من الأستاذ والطالب أنه لا يشكل معيقا كبيرا في عملية التدريس بوسط مرجح ٢.٠٧ ووزن مئوي ٦٩ لدى الجانبين، أما عدم مراعاة الأستاذ لعنصر التشويق في الدرس والتخفيف من الملل والذي اعتبره الأساتذة معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.١٥ ووزن مئوي ٧١.٦٦ بترتيب ثالث، في حين يرى الطلبة أنه معيق بوسط مرجح ٢.٢٦ ووزن مئوي ٧٥.٣٣ وترتيب سابع، وهو ما يؤكد أن تدريس العلوم النفسية والتربوية من قبل الأساتذة ينقصه عنصر التشويق في الدرس وقد يعود ذلك لطبيعة بعض المواضيع المدرسة من جهة، وكذا طريقة تقديم الدرس من قبل الأستاذ من جهة أخرى، أما المعوقات التي حصل فيها تباين فالأمر تعلق بكل من كثرة الأعباء الوظيفية الملقاة على عاتق الأستاذ، فأعضاء هيئة التدريس يرونها معيقا هاما

في تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.١٥ ووزن مؤوي ٧١.٦٦ وترتيب ثالث من بين المعوقات، في حين احتل الترتيب الحادي عشر وفق وجهة نظر الطلبة بوسط مرجح ١.٥٤ ووزن مؤوي ٥١.٣٣، وهو ما يبرز لنا اختلاف وجهة نظر الجانبين بالنسبة للأعباء المكلف بها الأستاذ وقد يعود ذلك لعدم إدراك الطالب لتلك الأعباء من جهة وأيضاً المعرفة السطحية بمهنة الأستاذ من قبل الطلبة وفق التصورات الاجتماعية المبنية في كثير من المرات على أساس ما هو شائع وليس على ما هو واقع، كما يؤكد الطلبة أن عرض المعلومات من قبل الأستاذ بطريقة غير مناسبة يعد معيقاً هاماً بترتيب رابع أين بلغ الوسط المرجح ٢.٥٤ ووزن مؤوي ٨٤.٦٦ في حين لم يتعد بالنسبة للأستاذة وسط مرجح ١.٤٨ ووزن مؤوي ٤٩.٣٣ بترتيب ثاني عشر، وهو ما يؤكد أن الطلبة يحملون الأستاذ المسؤولية في تلقي المعلومات من قبل الأستاذ وقد يتعلق ذلك بالطريقة التي يقدم بها الأستاذ المعلومات والتي تتعلق في كثير من الأحيان بطريقة غير ملائمة وغير مناسبة وهو ما يؤثر سلباً على الطالب من ناحية فهم المعلومات، أما بالنسبة لعدم تحكم الأستاذ في طرائق التدريس فقد حصل اختلاف في وجهات النظر لدى الطرفان فأعضاء هيئة التدريس يرونه لا يشكل معيق بترتيب رابع عشر ووسط مرجح ١.٣٤ ووزن مؤوي ٤٤.٦٦، في حين يعتبره الطلبة معيقاً مهماً بترتيب ثالث أين بلغ الوسط المرجح ٢.٥٦ والوزن المؤوي ٨٥.٣٣، فالأستاذ يعتقد أنه يتحكم في طرق التدريس والطلبة يرون عكس ذلك، كما حصل اختلاف فيما يخص النظرة السلبية للأستاذ تجاه مستوى الطالب كمعيق في تدريس العلوم النفسية والتربوية فأعضاء هيئة التدريس لا يعتبرونه يشكل معيقاً بوسط مرجح ١.٣٤ ووزن مؤوي ٤٤.٦٦ وترتيب رابع عشر، أما الطلبة فيرون أنه يشكل معيقاً بترتيب ثالث ووسط مرجح ٢.٥٦ ووزن مؤوي ٨٥.٣٣، وهو ما يؤكد لنا اختلاف الرؤية في النظر لهذا العنصر حيث يعتقد الطلبة أن الأستاذة ينظرون نظرة سلبية للطلاب ويمكن تسجيل ذلك من خلال السلوكيات والتصرفات التي ما فتأ يؤكد من خلالها الطلبة ضعف الطالب وعدم قدرته على الدراسة وعدم اهتمامه، كما اختلفت وجهات نظر الطرفين حول ابتعاد الأستاذ عن التخطيط للمحاضرة أو الدرس المقدم للطلاب حيث يرى كل من

الأستاذ أنه لا يشكل معيق والطلبة يرونه أنه يشكل معيق في تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ١.٧٣ ووزن مئوي ٥٧ وترتيب سابع لدى أعضاء هيئة التدريس، ووسط مرجح ٢.٢٤ ووزن مئوي ٧٤.٦٦ وترتيب ثامن لدى الطلبة، وفيما يخص التنوع في طرق التدريس فقد أكد الطلبة أنه معيق كبير في تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٦٣ ووزن مئوي ٨٧.٦٦ وترتيب ثاني، في حين أن الأساتذة يرون أنه لا يشكل معيق بوسط مرجح ١.٥ ووزن مئوي ٥٠ ترتيب ١١ مع أن ٥٠ بالمائة منهم يرون أنه معيق وهو ما يؤكد أن هناك اعتراف من قبل الأستاذ بأنهم لا ينوعون في طرق التدريس وهو ما انعكس سلباً على التحصيل الدراسي لدى الطالب ومدى تدريس علم النفس في الجامعة حيث يركز الأستاذ على طريقة واحدة ولا يغير منها، وفيما يخص عدم إطلاع الأستاذ على المستجدات العلمية في مجال تخصصه فهو بالنسبة للأستاذ عائق مهما في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية في حين أنه لا يشكل معيق لدى الطالب، بوسط مرجح لدى الأستاذ ٢.١٩ (الوزن المئوي ٧٣) ولدى الطالب ١.٣٠ (الوزن المئوي ٤٣.٣٣)، وهو ما يؤكد لنا أن هناك اختلاف في رؤية الجانبين لهذا المعيق وقد يعود ذلك لعدم إدراك الطالب لمجال تخصصه وهو ما يجعله لا يستطيع أن يحكم على المعلومات المقدمة إليه، فالملاحظ أن الطلبة لا يسألون الأساتذة حول مجال التخصص ولا يطلعون على الكتب في التخصص التي تمكنهم من بناء قاعدة معرفية حقيقية في مجال التخصص تمكنه من النقاش والحوار حول التخصص، أما بالنسبة للتركيز على عملية إلقاء الدرس من قبل الأستاذ فهو لم يعد معيق مهم حسب وجهة نظر الطلبة والأساتذة بوسط مرجح ٢.٠١ و ٦٧ وزن مئوي ١.٦١ ووزن مئوي ٥٣.٦٦ على التوالي، وهو ما يؤكد ذلك الاختلاف في طريقة تقديم الدروس بين الأساتذة، لذا لم يشكل معيقاً مهما بالنسبة لديهم.

٣.١١ عرض نتائج الفرضية الإجرائية الثالثة: "هناك عدة معوقات لتدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة تتعلق بالجامعة".

معيقات تدريس العلوم النفسية والتربوية المتعلقة بالجامعة						
من وجهة نظر الطالب			من وجهة نظر الأستاذ			العبارة
الترتيب	الوزن المئوي	الوسط المرجع	الترتيب	الوزن المئوي	الوسط المرجع	
7	73.3 3	2.20	6	80.66	2.42	طبيعة المناخ التنظيمي السائد في الجامعة لا يشجع على عملية التعليم
3	83.3 3	2.5	8	71.66	2.15	عدم توفر وسائل التكنولوجيا الحديثة التي تساهم في العملية التعليمية
2	88	2.64	1	92	2.76	عدم توفر المراجع ذات الجودة في التخصص
8	67.3 3	2.02	10	61.33	1.84	انعدام التواصل بين الإدارة والطالب
6	76.6 6	2.30	8	71.66	2.15	انتشار الضوضاء خارج قاعة الدرس
11	35.6 6	1.07	13	29.33	0.88	القوانين والتعليمات التي تحد من الحرية الأكاديمية للأستاذ داخل القاعة
3	83.3 3	2.5	4	89.66	2.69	الحصص المبرمجة للتدريس غير كافية
1	92	2.76	1	92	2.76	غياب التربص الميداني في ظل عدم وجود اتفاقيات مع المؤسسات الاقتصادية
13	29.3	0.88	12	34.3	1.03	ضعف توفير الظروف

	3					الفيزيائية للعمل (إضاءة، تهوية، الأثاث).
5	78	2.34	5	88.33	2.65	عدم تجهيز قاعات الدرس لاستخدام الوسائط التكنولوجية
9	48.3 3	1.45	11	52.33	1.57	إهدار الوقت من قبل الإدارة في تحضير برامج الأساتذة
12	34	1.02	3	91	2.73	غياب عملية تكوين الأساتذ الجامعي في طرائق التدريس والتقييم
10	41.3 3	1.24	7	72.33	2.17	الاحتفاظ في القاعة
63.89		1.91	71.28		2.13	المجموع

جدول رقم (٠٢) يرصد نتائج الفرضية الثالثة.

التعليق والمناقشة :

من خلال النتائج المتوصل إليها في الجدول رقم (٠٣) أعلاه، والمتعلق بنتائج الفرضية الإجرائية الثالثة يتبين لنا أن هناك عدة معيقات في تدريس العلوم النفسية والتربوية والتي ترتبط بالمناخ الجامعي وذلك من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة معا، ولقد جاءت وجهات نظر الطلبة والأساتذة في جانبيين أساسيين، جانب من الاتفاق حول بعض الجوانب والمعيقات وجانب تباينت فيها وجهات النظر واختلفت، أما الجانب الأول والمتعلق في العناصر التي شكلت معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والأساتذة، فقد اتفق الطرفان على أن غياب التربص الميداني في ظل عدم وجود اتفاقيات مع المؤسسات الاقتصادية يعد من بين أول المعوقات التي تتعلق بالجامعة بوسط مرجح ٢٠٧٦ ووزن مؤوي ٩٢ لدى كل من الأساتذ والطلبة، وكذلك الأمر بالنسبة لعدم توفر المراجع ذات الجودة في التخصص

والتي يراها كل من الطلبة والأساتذة عنصر مهما في إعاقة تدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهات نظرهم، أين بلغ الوسط المرجح ٢.٧٦ ووزن مؤوي ٩٢ ترتيب أول لدى أعضاء هيئة التدريس، في حين بلغ لدى الطلبة الوسط المرجح ٢.٦٤ ووزن مؤوي ٨٨ وترتيب ثاني، وهو ما يؤكد حقيقة مفادها أن هناك نقص فادح في طبيعة المراجع المتوفرة لدى المكتبة خاصة تلك المرتبطة بالتخصصات وهي ميزة تتميز بها المكتبات الجامعية نظير عشوائية اقتناء الكتب وهو ما أعاق عملية التدريس خاصة ما تعلق بأمر إعداد البحوث العلمية من طرف الطلبة، كما اتفق كل من الأساتذة والطلبة على أن الحصص المبرمجة للتدريس غير كافية وهو ما أعاق العملية التدريسية في ميدان علم النفس والعلوم التربوية وذلك بوسط مرجح ٢.٩٦ ووزن مؤوي ٨٩.٦٦ وترتيب رابع لدى الأستاذ، ووسط مرجح ٢.٥ ووزن مؤوي ٨٣.٣٣ وترتيب ثالث لدى الطلبة، وهو ما يبرز لنا أن الوقت المبرمج لعملية التدريس غير كاف خاصة وأن السنة الجامعية غير كافية بالنظر للعطل والغيابات والمواسم والذي أثر بشكل سلبي، كما اعتبرت عينة الدراسة أن عدم تجهيز قاعات الدرس لاستخدام الوسائط التكنولوجية يعد معيقا في تدريس العلوم النفسية والتربوية حسب وجهة نظر كل من أعضاء هيئة التدريس والطلبة بوسط مرجح ٢.٦٥ و ٢.٣٤ على التوالي، ووزن مؤوي ٨٨.٣٣ و ٧٨ على التوالي وبترتيب خامس لدى كلا الطرفين، وهو ما يؤكد الواقع الذي تعيشه الجامعة الجزائرية في ظل غياب التجهيزات الخاصة باستخدام التكنولوجيات الحديثة والتي تشجع الأستاذ على تطوير نفسه مما يساهم في تطوير العملية التدريسية التي تنعكس بصورة إيجابية على الطالب الجامعي، ويعد طبيعة المناخ التنظيمي السائد في الجامعة والذي لا يشجع على عملية التعليم حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس و الطلبة معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح لدى الأستاذ ٢.٤٢ ووزن مؤوي ٨٠.٦٦، أما بالنسبة للطلبة بوسط مرجح ٢.٢٠ ووزن مؤوي ٧٣.٣٣، وهو ما يؤكد أن المناخ التنظيمي السائد في الجامعة لا يساهم في تفعيل العملية التدريسية بقدر ما يشكل معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية وهو الذي كان من المفروض أن يعد عاملا مساعدا في التعلم وليس العكس، ولعل عدم توفر وسائل التكنولوجيا

الحديث التي تساهم في العملية التعليمية لم يعتبره الأساتذة معيقا في عملية التدريس بوسط مرجح ٢.١٥ ووزن مؤوي ٧١.٦٦، في حين يراه الطلبة معيقا في عملية التدريس بوسط مرجح ٢.٥ ووزن مؤوي ٨٣.٣٣، وهو ما يؤكد لنا أن الأساتذة لا يولون أهمية لوسائل التكنولوجيا وقد يكون ذلك لعدم إدراكهم لأهمية هذا العنصر في تفعيل العملية التدريسية، كما انتفت عينة الدراسة حول انتشار الضوضاء خارج قاعة الدرس كمعيق في العملية التدريسية بوسط مرجح ٢.١٥ و ٢.٣٠ ووزن مؤوي ٧١.٦٦ و ٧٦.٦٦ لدى أعضاء هيئة التدريس والطلبة على التوالي، وهو ما يؤكد لنا طبيعة المناخ السائد في الجامعة التي تتميز بالضوضاء خارج قاعة الدرس وهو ما يعيق عملية التدريس ويعتبر مشوشا في عملية الاتصال بين الأستاذ والطالب في قاعة الدرس، كما أن انعدام التواصل بين الإدارة والطالب شكل معيقا بدرجة متوسطة حسب كل من أعضاء هيئة التدريس والطلبة معا، بوزن مؤوي تراوح ما بين ٦١.٣٣ و ٦٧.٣٣، وهو ما يؤكد لنا أن الاتصال يلعب دورا مهما في عملية التدريس خاصة من قبل الإدارة التي تعد همزة الوصل بين الأستاذ والطالب الجامعي، كما حصل اتفاق من قبل عينة الدراسة حول إهدار الوقت من قبل الإدارة في تحضير برامج الأساتذة والذي لم يعد معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية لدى كل من الأساتذة والطلبة بوزن مؤوي تراوح ما بين ٥٢.٣٣ و ٤٨.٣٣، وهو ما يؤكد لنا أن الإدارة تلتزم بوضع البرامج الخاصة بعملية التدريس والامتحانات في وقتها لذا لم يعتبرها الطرفان معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية، ولم تعتبر عينة الدراسة كل من ضعف توفير الظروف الفيزيائية للعمل (إضاءة، تهوية، الأثاث)، وكذا القوانين والتعليمات التي تحد من الحرية الأكاديمية للأستاذ داخل القاعة معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية من قبل الأستاذ والطالب وهو ما يؤكد لنا أن الظروف الفيزيائية متوافرة في الجامعة بالإضافة إلى أن هناك حرية أكاديمية للأستاذ في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية، أما الجانب الثاني والذي شكل اختلاف وجهات النظر حول المعوقات المرتبطة بالجامعة فيتعلق الأمر بكل من غياب عملية تكوين الأستاذ الجامعي في طرائق التدريس والتقييم فالأساتذة اعتبروها معيقا في الترتيب الثالث بوسط مرجح ٢.٧٣ ووزن مؤوي ٩١

في حين الطلبة لم يرو فيها أي معيق في عملية التدريس بوسط مرجح ١.٠٢ ووزن مؤوي ٣٤ وترتيب ثاني عشر، وهو ما يبرز لنا أن الطلبة لا يدركوا أهمية طرائق التدريس وعملية التقييم في عملية التدريس في الجامعة، ومن بين المعوقات التي رأى فيها الأستاذ أنها تشكل معيقاً في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية هو الاكتظاظ في القاعة بوسط مرجح ٢.١٧ ووزن مؤوي قدر بـ ٧٢.٣٣ في حين لم يشكل لدى الطالب معيقاً في تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ١.٢٤ ووزن مؤوي ٤١.٣٣، وهو ما يؤكد ذلك الاختلاف في رؤية مسألة عدد الطلبة إذ من الصعب على الأستاذ التعامل مع عدد كبير من الطلبة في القاعة الواحدة رغم أن نظام ل م د يشترط العدد القليل من الطلبة لنجاح العملية التدريسية.

٤.١١ عرض نتائج الفرضية الإجرائية الثالثة:

هناك عدة معوقات لتدريس العلوم النفسية والتربوية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة تتعلق بالمنهاج الجامعي".

معوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية المتعلقة بالمنهاج الدراسي						
من وجهة نظر الطالب			من وجهة نظر الأستاذ			العبارات
الترتيب	الوزن المؤوي	الوسط المرجح	الترتيب	الوزن المؤوي	الوسط المرجح	
6	75	2.25	5	64	1.92	تعارض النظريات النفسية مع معتقدات الطالب
3	82	2.46	2	84.33	2.53	عدم مراعاة المنهاج الجامعي خصوصيات الطالب الجزائري
4	80.33	2.41	6	52.33	1.57	كثافة البرامج الدراسية المطبقة في علم النفس
2	83.66	2.51	1	89.66	2.69	غياب عنصر التشويق في

المناهج المعتمدة في التدريس					
كثرة المعلومات وحشو المقرر الدراسي	2.24	47.66	7	2.24	74.66
الغموض في أسلوب عرض المادة العلمية	2.04	68	4	2.57	85.66
عدم تلبية المقرر الدراسي لحاجات الطالب واستعداداته وميوله	2.45	81.66	3	2.38	79.33
المجموع	2.20	73.52		2.40	80.09

جدول رقم (٠٤) يرصد نتائج الفرضية الرابعة.

التعليق والمناقشة

من خلال الجدول أعلاه رقم (٠٤) والذي يرصد نتائج الفرضية الرابعة، نستطيع أن نؤكد أن هناك معوقات في تدريس العلوم النفسية والتربوية المتعلقة بالمنهاج الدراسي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة معاً، ومن بين هذه المعوقات غياب عنصر التشويق في المناهج المعتمدة في التدريس الذي اعتبره كل من الأستاذ والطلبة يعد معيقاً في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية، حيث جاء في الترتيب الأول بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس بوسط مرجح ٢.٦٩ ووزن مؤني ٨٩.٦٦، وفي الترتيب الثاني بالنسبة للطلبة بوسط مرجح ٢.٥١ ووزن مؤني ٨٣.٦٦، كما أن عدم مراعاة المنهاج الجامعي خصوصيات الطالب الجزائري يعتبر معيقاً في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٥٣ ووزن مؤني ٨٤.٣٣ لدى أعضاء هيئة التدريس، ووسط مرجح ٢.٤٦ ووزن مؤني ٨٢ وفق وجهة نظر الطلبة، وهو ما يؤكد لنا أن المنهاج المعتمد في الجامعة هو منهاج غربي لا يراعي خصوصيات الطالب الجامعي الجزائري وطبيعة البيئة الجزائرية وهو ما أعاق تدريس العلوم النفسية والتربوية خاصة وأن الكثير من النظريات التي تدرس اليوم هي مخالفة لما هو

موجود في واقع مجتمعنا، وقد اعتبر أعضاء هيئة التدريس أن عدم تلبية المقرر الدراسي لحاجات الطالب واستعداداته وميوله معيقا في عملية تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٤٥ ووزن مؤوي ٨١.٦٦، وهو الأمر نفسه وفق وجهة نظر الطلبة بوسط مرجح ٢.٣٨ ووزن مؤوي ٧٩.٣٣، وهو ما يؤكد لنا أن المقرر الدراسي لا يلبي حاجات وميول الطالب الجزائري واستعداداته لأنه مقرر غربي لا يراعي الخصوصيات الجزائرية التي تميز المجتمع عن غيره، كما أن الغموض في أسلوب عرض المادة العلمية أعتبر معيقا وفق وجهات نظر كل من الأستاذ والطالب بوسط مرجح ٢.٠٤ و ٢.٥٧ ووزن مؤوي ٦٨ و ٨٥.٦٦ على التوالي، مع أن الطالب يرى أن الغموض يعد المعيق الأول المتعلق بالمنهاج على عكس الأستاذ الذي يراه معيقا رابعا من بين المعوقات المرتبطة بالمنهاج الجامعي، وبالنسبة لتعارض النظريات النفسية مع معتقدات الطالب فهو عد كمعيق متوسط حسب وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس (١.٦٢ ووزن مؤوي ٦٤)، أما حسب وجهة نظر الطالب فقد عد معيقا شكل وزن مؤوي ٧٥ ووسط مرجح ٢.٢٥، وهو ما يجعل من عملية توطيّن علم النفس في الجزائر أمر أكثر من ضروري اليوم لإزالة الهوة بين الطالب والمناهج في مجال علم النفس، أما بالنسبة لكثافة البرامج الدراسية المطبقة في علم النفس فقد اعتبرها الطلبة معيقا بوزن مؤوي ٨٠.٣٣ ووسط مرجح ٢.٤١ في حين اعتبرها أعضاء هيئة التدريس كمعيق أقل منه بالنسبة للطالب بوسط مرجح ١.٥٧ ووزن مؤوي ٥٢.٣٣، وهو ما يبين لنا أن الطلبة يرون أن هناك كثافة في البرامج في حين أن الأساتذة يرونها كثيفة لكن ليس بنفس درجة الطلبة، ولم تتفق وجهات النظر للطرفين حول مسألة كثرة المعلومات وحشو المقرر الدراسي فأعضاء هيئة التدريس لا يعتبرونه معيقا في عملية التدريس في حين أن الطلبة يعتبرونه معيقا بوسط مرجح ٢.٢٤ ووزن مؤوي ٧٤.٦٦، وهو ما يؤكد إختلاف الرؤية بخصوص كثرة المعلومات والحشو الذي يتميز به المقرر.

٥.١١ عرض نتائج الفرضية الإجرائية الخامسة:

"هناك فروق في معوقات لتدريس العلوم النفسية والتربوية بين وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة والطلبة".

من وجهة نظر الطالب			من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس			
المرتبة	الوزن المئوي	الوسط المرجح	الترتيب ب	الوزن المئوي	الوسط المرجح	المعوقات
2	68.22	2.04	1	78.34	2.35	الطالب
3	66.31	1.98	4	58.77	1.76	الأستاذ
4	63.89	1.91	3	71.28	2.13	الجامعة
1	80.09	2.40	2	73.52	2.20	المنهاج

جدول رقم (٥٥) يرصد نتائج الفرضية الخامسة.

التعليق والمناقشة:

من خلال النتائج المبينة في الجدول أعلاه (٥٥)، يتبين لنا أن هناك فروق في وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة لمعوقات تدريس العلوم النفسية والتربوية من عدة جوانب، فمن ناحية ترتيب المعوقات فقد اعتبر أعضاء هيئة التدريس أن المعيق الأساسي والأول تمثل في المعوقات المتعلقة بالطالب بوسط مرجح ٢.٣٥ ووزن مئوي ٧٨.٣٤ وبذلك فالأستاذة يحملون الطالب كافة المسؤولية فيما يخص عدم نجاح العملية التدريسية في العلوم النفسية والتربوية، في حين جاءت المعوقات المتعلقة بالمنهاج الجامعي في الترتيب الثاني حسب أعضاء هيئة التدريس بوسط مرجح ٢.٢٠ ووزن مئوي ٧٣.٥٢، وهو ما يبين لنا تلك النظر التي يحملها الأساتذة نحو المنهاج الجامعي الذي يعتمدون عليه في تدريس العلوم النفسية ويحملونه جزءاً أساسياً في ما يتم في العملية التدريسية أين يعتبرونه معيقاً مساهماً فيها بدرجة معينة، كما جاءت المعوقات المرتبطة بالجامعة في الترتيب الثالث بوسط مرجح ٢.١٣ ووزن مئوي ٧١.٢٨، وهو ما يعني أن أعضاء هيئة التدريس يرون في الجامعة بما تشمله من محيط ومناخ تنظيمي عاملاً أساسياً في إعاقة تدريس العلوم النفسية والتربوية، وما يمكن ملاحظته أن أعضاء هيئة التدريس لم يروا في الأستاذ معيقاً في تدريس العلوم

النفسية والتربوية أين اعتبروه معيق ثانوي وليس رئيسي والذي احتل آخر الترتيب في المعوقات من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس بوسط مرجح ١.٧٦ ووزن مؤوي ٥٨.٧٧، أما من وجهة نظر الطالب فقد كان الترتيب مخالفا تماما لنظرة أعضاء هيئة التدريس، فقد جاء المعيق المتعلق بالمنهاج الجامعي في الترتيب الأول بوسط مرجح ٢.٤٠ ووزن مؤوي ٨٠.٠٩، وهو ما يبين لنا أن الطلبة يعانون حقيقة من المناهج المطبقة في علم النفس والتي تعد معيقا في العملية التدريسية بالنسبة لهم، وفي الترتيب الثاني رأى الطلبة أن المعوقات المتعلقة بالطالب تلعب دورا أساسيا في إعاقة تدريس العلوم النفسية والتربوية بوسط مرجح ٢.٠٤ ووزن مؤوي ٦٨.٢٢، وهو ما يؤكد لنا اعتراف الطلبة أنفسهم بالنقص الذي يتميزون به وهو نوع من تحمل المسؤولية، وفي الترتيب الثالث جاءت المعوقات المرتبطة بالأستاذ بوسط مرجح ١.٩٥ ووزن مؤوي ٦٦.٣١ حيث أن الطلبة بينوا لنا أنهم يحملون مسؤولية إعاقة التدريس لأنفسهم قبل الأساتذة عكس الأساتذة الذين لم يحملوا أنفسهم المسؤولية تجاه إعاقة عملية التدريس، وفي الترتيب الأخير جاءت المعوقات المرتبطة بالجامعة بوسط مرجح ١.٩١ ووزن مؤوي ٦٣.٨٩ وهو ما يؤكد لنا ذلك الاختلاف في وجهات النظر بين الأساتذة والطلبة إذ توجد فروق في وجهات النظر بين الجانبين على الرغم من أن النتائج جاءت متقاربة فيما بينهم والفرق لم يكن كبيرا.

خاتمة:

تقف الكثير من المعوقات اليوم أمام كل من الأستاذ والطالب في تدريس العلوم النفسية والتربوية في الجامعة الجزائرية، وإن كانت هذه المعوقات تتعلق في الأساس بالأستاذ والطالب وأخرى تتعلق بالجامعة والمنهاج الدراسي، بالإضافة إلى الظروف المحيطة بالجامعة وبالأستاذ بشكل عام، لذا فمن المهم ليس إدراك هذه المعوقات فقط بل إن من المهم محاولة تجاوز هذه المعوقات من أجل تحسين جودة المنتج الجامعي في ظل الرهانات اليوم التي تعترض الجامعة الجزائرية في ظل المنافسة التي تميز سوق العمل اليوم.

قائمة المراجع:

١. أحمد الحسين اللقاني، تطوير مناهج التعليم، ط١، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ١٩٩٥.
٢. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ط٧، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٦٨.
٣. بن عبد الله محمد: المنظومة التعليمية والتطلع إلى الإصلاح، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ٢٠٠٥.
٤. حسين تقي طه، معوقات التطبيقات العملية في تدريس الكيمياء في المرحلة المتوسطة من وجهة نظر المدرسين والمدرسات، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، ع١-٢، م٧، ٢٠٠٨.
٥. الحميد حسن عبد الحميد شاهين، إستراتيجيات التدريس المتقدمة وإستراتيجيات التعلم وأنماط التعلم، الدبلوم الخاص في التربية، كلية التربية بدمههور، جامعة الإسكندرية، مصر، ٢٠١٢.
٦. رياض قائم، مسؤولية المجتمع العلمي العربي، منظور الجامعة العصرية، المستقبل العربي، ع١٩٣، الكويت، ١٩٩٥.
٧. سامية إبراهيمي، أثر إستراتيجية التعلم التعاوني-لنعمل معا على اكتساب المفاهيم الرياضية لدى تلاميذ السنة الأولى متوسط، مجلة الباحث، ع٦، المدرسة العليا للأساتذة، جوان ٢٠١٢.
٨. سلامي دلال، إيمان عزي، تكوين الأستاذ الجامعي الواقع والآفاق، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي، ع٣، ديسمبر ٢٠١٣.
٩. علي جراد يوسف العبودي، صعوبات تدريس المناهج التربوية والنفسية لأقسام غير الاختصاص في كليات التربية من وجهة نظر التدريسيين، مجلة دراسات الكوفة، ع٩، جامعة الكوفة، العراق، ٢٠٠٨.
١٠. محمد عبد الرزاق إبراهيم، أحمد نصحي أنيس الشربيني الباز: تطوير إدارة مؤسسات التعليم الجامعي في ضوء أسلوب حلقات الجودة، المؤتمر العربي الدولي الثاني لضمان جودة التعليم العالي، القاهرة، مصر، ٢٠١٢.
١١. محمد عبيدات، محمد أبو نصار، منصور علقه مبيضين، منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل والتطبيقات، دار وائل للطباعة والنشر عمان، الأردن، ١٩٩٩.
١٢. مزيش مصفي، مصادر المعلومات ودورها في تكوين الطالب الجامعي وتنمية ميوله القرائية، أطروحة دكتوراه علوم في علم المكتبات والتوثيق، جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٩.
١٣. معمر إرحيم الفر، معوقات التحصيل الأكاديمي لمقرري العلوم والصحة وطرق تدريسها

(١) و(٢) بجامعة القدس المفتوحة وعلاقتها باتجاهات الدارسين نحو تعلم العلوم وتعليمها، المجلة الفلسطينية للتربية المفتوحة عن بعد، م٢، ع٤٤، كانون ثاني ٢٠١٠.

١٤. يوسف أحمد صالح، تنمية أداء الأستاذ الجامعي وتقييمه في ظل الجودة الشاملة للتعليم العالي، أبحاث الندوة الثالثة حول الجودة في التعليم العالي الجامعي بالعالم الإسلامي، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠١٠.

1. Mihchel laurent: premier vice président de la conférence des présidents d'université, (France), le monde de 10/10/2003.
2. R.Macia Manso, Université y democracia, Madrid, CUPSA, 1978.

**دور المسرح المدرسي
في معالجة قضية التحصيل العلمي والتربية الإعلامية والمهارية
بمرحلة ما قبل التعليم الجامعي
مسرح المناهج المصرية نموذجا**

أ.م.د. صفاء علم الدين عبد الجواد النواردي
جامعة ٦ أكتوبر- مصر

مقدمة:

يعد المسرح من أوائل الفنون في العالم ووسيلة اتصال جماهيرية مباشرة منذ القدم، وإن كانت أقل (انتشارا) بالنسبة لوسائل الميديا المرئية والمسموعة والمصورة المتمثلة في السينما والتلفزيون والإذاعة والصحف والأترنت، ولكنها كانت أكثر تأثيرا وعمقا في المتلقين، كونها فناً اتصالياً جماهيرياً آنياً، ومع وجود حالة التلاهي التكنولوجي بوسائل الميديا وتكنولوجيا الاتصال المتسارعة، التي جعلت التعامل مع الإعلام الآن مشكلة ملحة، فلم يعد مجرد مؤثر محدود التأثير (محلياً) كالتلفزيون والقنوات المحلية كما كان الحال حتى نهاية التسعينيات بالقرن الماضي، بل صار ذو خطورة استوجبت التعامل معه بعينٍ تتوخى الحذر، وتعلم الخطورة الكامنة وراء هذا الكم والكيف المُقدم منها دون رابط أو حاكم، والذي يمكن أن يتسبب في ضياع تراثٍ وهويةٍ أمم، مع فرض سيطرة ثقافة أمة على غيرها.

مببرات إجراء الدراسة:

- خلو المكتبة العربية من دراسة بينية تؤكد على دور المسرح كوسيلة إعلامية في قضايا التربية والتنشئة وتدعيم الهوية، كونه فناً اتصالياً إعلامياً قديم النشأة ارتبط بحياة وتنشئة الفرد، في مقابلة لإعلائه كفن جامع للفنون مثل (التصميم والغناء والأداء والموسيقى والمعمار والفن التشكيلي.. وغيرها).

- الحاجة الملحة والمهمة والعاجلة إلى الوعي الإعلامي، وإدراك خطورة تلك القضية التربوية والتحصيلية وتأثير الإعلام عليها، (ولاسيَّما) مع التغيرات السياسية المتلاحقة والسريعة التي تضرب المجتمعات العربية اعتمادًا على أدوات العصر الرقمي اللامحدودة، التي قد تؤدي بعقول الشباب إلى الابتكار أو إلى الاصطدام مع هويته وتراثه وعدّ تلك الأمور -الموروث والتراث والهوية وما إلى ذلك- نسقًا قديمًا، وهو ما يمكن أن يعرض تراث وموروثات وحضارات الشرق الأوسط للضياع وتماهي الهوية في عالم معولم لا محدود. تلك الرسائل التي يستقبلها المتلقي الشاب بدون وعي ومعرفة مسبقة، وخبرة تؤهله للتعامل مع الإعلام بوعي لما تحمله وسائله المسموعة والمرئية من رسائل موجهة مستترة يصعب عليه فك شفراتها الدلالية في مرحلته العمرية والخبرانية البسيطة، لذلك كانت الحاجة ملحة إلى تغيير طرق التعليم التقليدية القائمة على الحفظ والمعلومة المسموعة والمقروءة، التي قد يجتاحها الغموض أو الصعوبة أو الخطأ إلى وسيلة إرسالية واتصالية مصورة وممثلة مؤداة قادرة على التواصل، وتوصيل الرسائل العلمية والتربوية والفنية والمعلومات بشكل واع وسليم محققةً هذه المآرب، بطريقة اتصالية إعلامية واعية، وهي المسرح مكثفة المعلومات ومصححة المغلوط منها، ومقدمة إياها في صورة واضحة يسهل استيعابها وتذكرها واستعادتها مرة أخرى، بإشراف معلمين ومدرّبين متخصصين، لمساعدة هذا النشء على استقراء المعلومة الحقيقية وما يُقدم من مناهج مُراجعة ومُصححة من خلال العمل المسرحي التعليمي المُراجع.
- هدف الدراسة: التعرف على تأثير دور المسرح كوسيلة تربوية إعلامية وفنية على طلاب التعليم قبل الجامعي المصري، برصد وتحليل تجربة مسرحية المناهج المصرية في المراحل الأساسية بالتعليم قبل الجامعي، وطرق تطبيقها، ومدى تأثيرها على أبناء الدولة المصرية، لرصد ذلك التأثير على عملية الإدراك والتعليم وتصحيح المعلومات والمفاهيم العلمية والتاريخية أو التراثية المتعلقة بالوطن أو بالقومية العربية أو القارية، ومدى ثباتها في ذهنية الطالب المصري، وإيضاح الفارق بينها وبين المسرح المدرسي، مع التوضيح بنماذج

تطبيقية للتحليل والنقد، ومعوقات ونتائج تلك التجربة على المستويات (التربوية، والعلمية الثقافية، والوجدانية) مؤكدة على دورها الفعال في توطيد هوية الطالب، وتدعيم انتماءاته، وتفعيل قدراته ومواهبه، من خلال النماذج المقدمة له.

• وترجع أهمية هذه الدراسة إلى الآتي:

- ايضاح دور المسرح كأقدم وسيلة فنية تربوية تتحقق فيها مواصفات الرسالة الإعلامية.
- التأكيد على أهمية توظيف المسرح ولاسيما تقنية مسرحية المناهج الدراسية في تنمية قدرات طلبة ما قبل التعليم الجامعي التحصيلية والتوعوية التعليمية والإعلامية. كونه وسيلة ذات تأثير كبير وعميق في نفس الطالب المتلقي عن طرائق التعلم والتربية التقليدية، من: (قراءة ومطالعة ومذاكرة وكتابة، وتلقين نظري معلوماتي مسموع) تطبيقاً على مقرر قصة (على مبارك) بالمرحلة الابتدائية.

• **مشكلة الدراسة:** أظهرت بعض الدراسات مثل [دراسة محمد عبد الله محمد النصر ٢٠٠٨م^[١]، ودراسة أ.د. هناء محمد جمال الدين، و د. د. رامي زكريا زكي زكي إسكندر، و أ. أشرف الشحات رضوان محمد الموافي ٢٠١٦م^[٢]، ودراسة بدر بن سيف بن أحمد النبهاني ٢٠١٢م^[٣]، ودراسة أ. عبد الله بن سعيد الفارسي ٢٠١٢م^[٤]، ودراسة رائد محمد ٢٠٠٩م^[٥]، ودراسة ثناء عبد المنعم رجب ٢٠٠٢م^[٦]، ودراسة حنان عبد الحميد العناني ٢٠٠٢م^[٧]، ودراسة زينب محمد عبد المنعم أبو الفتوح ٢٠٠٥م^[٨]]، تدني مستوى تحصيل الطلاب بمرحلة ما قبل الجامعي التي تعتمد على المقررات الدراسية، ولاسيما مقررات التاريخ والكيمياء والنحو والقواعد اللغوية بمقرر اللغة العربية لما يزعمون به من أسماء ومعلومات وأرقام يصعب على الطالب المتلقي أن يستقبلها ويحفظها بذاكرته بشكل يُسهل عليه استرجاعها فيما بعد الامتحان النهائي، وكشفت -تلك المقررات- عن ضرورة تغيير طرائق التدريس التقليدية التي اعتمدت على التلقين والحفظ، متكأةً على حاسة السمع فقط دونما باقي الحواس لدى الطالب، كما كشفت في ظل تزايد أعداد الطلاب بالفصل

الدراسي الواحد في المدارس المصرية عن ضعفها في إيصال المعلومات، وقدرة الطالب على الاستيعاب مما أدى لتدني أداء الطلاب في مهارات الاستماع والتحدث والايجابية لقلة الاهتمام بهم لذلك برزت الحاجة إلى مثل هذه الدراسة، التي تتلخص مشكلتها في التساؤلات الآتية:

○ هل استطاع المسرح (التعليمي أو المدرسي) أن يحفز الطلاب للأداء التحصيلي الأعلى؟، وكيف كان ذلك؟ وهل هو وسيلة تربوية إعلامية ذات تأثير ايجابي على طلاب ما قبل الجامعي؟ وهل يُكتفى به دون الالتجاء لطرق أخرى؟.

○ كيف واجهت الدولة مشكلة تدني التحصيل العلمي لمقررات التاريخ والكيمياء والنحو؟ وهل أتت حلول الدولة - مسرحية المناهج - بما طمحت له من نتائج وكيف كان ذلك؟.

○ ما آثار مسرحية المناهج على مستوى التحصيل والتلقي وتطوير حواس الطالب البصرية والحسية والوجدانية وإنماء مهارات الاستماع والتحدث والتعبير عن النفس والايجابية الفكرية؟.

○ ما الصعوبات التطبيقية لإقامة مسرح مدرسي، وتطبيق "مسرحية المناهج" لجميع المقررات الدراسية لكافة مراحل التعليم الأساسي الثلاث (ما قبل الجامعي)؟ وكيفية إيجاد حل لتلك الصعوبات؟.

● فروض البحث: يسعى البحث للتحقق من صحة الفروض الآتية:

١- هل يوجد فرق ذو دلالة إحصائية بين متوسطي درجات تلاميذ المجموعة التجريبية (الذين يدرسون باستخدام مسرحية المناهج الدراسية)، وأقرانهم المجموعة الضابطة (الذين يدرسون بالطريقة التقليدية) في التحصيل العلمي وتصحيح المفاهيم والمعلومات لصالح المجموعة التجريبية.

٢- هل يوجد فرق ذو دلالة إحصائية بين متوسطي درجات تلاميذ المجموعة التجريبية (الذين يدرسون باستخدام مسرحية المناهج الدراسية)، وأقرانهم المجموعة الضابطة (الذين يدرسون بالطريقة التقليدية) في التربية الإعلامية والمهارية لصالح المجموعة التجريبية، والمجموعة التوثيقية.

• **عينات الدراسة:** فقد شملت ثلاث عينات، وهم:

- **الأولى: استطلاعية،** تمثلت نتائجها الإحصائية باستبانة تقصت صحة فروض الدراسة، ومردود ما تم من مسرحية منهج القصة بمقرر اللغة العربية لشخصية "علي مبارك" على تحصيل الطالب واستيعابه للشخصية التاريخية المقررة، ولمنهج القصة لتلك السنة الدراسية بالمرحلة الابتدائية، وتغيير المفاهيم والمعلومات وتصحيحها، وزيادة قدرة الطالب التحصيلية والاستيعابية والمهارية، تطبيقاً على طلاب الصف السادس الابتدائي، وأهلهم ومدرسيهم عام ٢٠١٤م.

- **والثانية: اختيرت حسب متغيرات البحث** [مسرحية درس النحو —(أسماء الإشارة) بمدرسة محمد عبد السلام، ومسرحية درس العلوم (المجموعة الشمسية) بمدرسة المدينة المنورة بنات بالإسكندرية للمرحلة الإعدادية، ومسرحية درس (الكيمياء للأكاسيد) بمدرسة التوفيق للبنين بمحافظة بنى سويف].

- **والثالثة: توثيقية تحليلية،** وهي مسرحية "عريس لبنت السلطان" للمرحلة الثانوية مشترك بين مدارس (روض الفرج الثانوية للبنات، ومدرسة شبرا الثانوية للبنات، ومدرسة التوفيقية بنين بإشراف إدارة شمال القاهرة التعليمية صيف عام ١٩٩٢م)، والمسرحية الشعرية "الوزير العاشق" ١٩٩٣م لطالبات (مدرسة روض الفرج الثانوية للبنات).

• **بيانات الدراسة:** اعتمدت الدراسة في عملية تجميع بياناتها على الآتي:

- أ. المشاهدات الحية للعروض والمشاهد المسرحية عبر المدارس أو وسائل الميديا المختلفة ومواقع التواصل الالكتروني، وشرائط (CD) والـ (DVD).
- ب. نموذج استقصائي استهدف ثلاث فئات أساسية، هم: (طلاب المراحل الثلاث ما قبل الجامعي، بعض مدرسي تلك المراحل، بعض أهالي هؤلاء الطلاب) الذين شاهدوا المنهج الدراسي مسرحاً.
- ت. الممارسة التطبيقية والخبرة الشخصية للباحث.

ث. بعض المراجع والدراسات السابقة ذات الصلة بموضوع الدراسة.

- **منهج الدراسة:** اعتمدت الدراسة على منهجي (الرصد والتوثيق، والوصف التحليلي).

فلذا ستنقسم الدراسة إلى (جزئين بأربعة مباحث وخاتمة)، الجزء الأول يضم مبحثين، الأول: علاقة التربية الإعلامية بالفن المسرحي، بينما اهتم المبحث الثاني بدور المسرح المدرسي بمراحل التعليم الأساسي من خلال رصد وتوثيق وتحليل تجربتي الباحثة بالمرحلة الثانوية، وهما مسرحيتي "عريس لبنت السلطان"، و"الوزير العاشق" لعامي ١٩٩٣، ١٩٩٤م، بينما سيناقش الجزء الثاني بالدراسة مشروع "مسرح المناهج" واتجاهاته، مع تناول بعض الأمثلة بالتحليل والعرض من خلال مبحثين أحدهما سيناقش الاتجاه الفردي، بينما الثاني سيرصد ويناقش الاتجاه الثاني الجمعي. يلي ذلك الخاتمة التي تستعرض فيه الباحثة ما توصلت إليه من نتائج في مسيرة الدراسة وتطورها، وبعض التوصيات والحلول في حال استدعت ذلك، ومقترح تحسين وتطوير لمخطط مناهج المقررات الفنية بمرحلة ما قبل التعليم الجامعي لتنمية وتطوير مهارات الطلاب الابتكارية والفنية.

الكلمات المفتاحية: (المسرح المدرسي، المسرح التعليمي، مسرحي المناهج، الثقافة التشاركية، الفجوة التشاركية، التربية الاعلامية).

* * * * *

المهاد النظري (مفاهيم الدراسة):

١- **المسرح المدرسي (School theater):** له تعريفات كثيرة، ومنها تعريف البسيوني بأنه وسيلة تعليمية فعّالة تساعد الطالب على التعبير عن أغراضه الفنية، ولا يتم ذلك إلا أن يكون المدرس على وعي بعملية التعليم، وقابلياته لتحويل الشرح إلى خبرة جمالية فنية يكتسبها الطالب. أمّا السبتي فيعرفه: بأنه وسيلة تعليمية فعّالة في مساعدة المتعلم لكي تتم العملية التربوية على أكمل وجه مثيرة هوايات الطلبة، مراعيًا المستوى العقلي والفروق الفردية، موضحاً معالم الغموض في الدرس، مراعيًا سرعة التعلم

في اكتساب المعارف العلمية والخبرات الفنية اللازمة. وهو بذلك التعريف أقرب ما يكون للمسرح التعليمي عن المسرح المدرسي. ويعرف الباحث **المسرح المدرسي**: بأنه ذلك المسرح الذي يُقدّم في بيئة تعليمية يقوم به الطالب/المتعلم بالتعاون مع المعلم، ولا يلتزم بها بنص مسرحي محدد مرتبط بمقرر أو منهج أو درس من دروسه التعليمية، ولكن يلتزم بتقديم نص يتناسب مع فئته العمرية ومشكلاته ومشكلات مجتمعه، فقد يناقش قضية أخلاقية أو قضية انتمائية أو قضية سياسية وفق ميوله ومرحلته الفكرية، ويمكن أن يكون مجهوداً شخصياً أو بإشراف المدرسة، وهو بذلك يعد وسيلة تنفيسية تساعد الطالب على التعبير عن نفسه والكشف عن آرائه وأفكاره بطريقة مسرحية مناسبة لقدراته وقابلياته، ممّا يكسبه ثقافة فنية مكتسفاً مواهبه فاهماً للمعاني والأفكار ومضامين الحياة والكون.

٢- **أمّا المسرح التعليمي (The Educational Theater):** فهو منهج من مناهج الأداء والتنفيذ المسرحي، وقد قدمه المسرحي الألماني برتولد بريخت في أحد مراحل نموه الفكري ونضوجه الفني، يُعنى هذا المسرح بشكل وإطار التقديم، الذي يلجأ فيه المخرج والمؤدي لاستخدام اللافتات وعنونة المشاهد والفصول ومخاطبة العقل والجمهور بشكل يعكس به الحائط الرابع، مستخدماً وسائلاً مرئية مختلفة كشاشات العرض، والتنقل بيت الجمهور، وما إلى ذلك، وقد يعرض موضوعاً علمياً أو درساً من دروس المنهج كحالة من مسرحية المنهج أو الدرس المقدم لتيسير تقبله، أو يقدم معلومات عامة ونصائح أخلاقية وتربوية لا ترتبط بدروس أو منهج محدد، وهو بذلك يختلف من خلال الشكل والتقديم وطريقة العرض عن المسرح المدرسي الذي يقترب من الشكل التقليدي عن الشكل التعليمي الملحمي، والمسرح التعليمي مسرح تشرف عليه المدرسة والقائمين عليها، ويكون القائم بالإخراج أحد أساتذة المدرسة أو شخص من الخارج، بينما يكون الطلبة هم المؤدين، وهو أيضاً لا يلتزم بمنهج مقرر بعينه، ولكنه يقدم المعلومات والنصائح والتجربة للطلاب من خلال الطالب بواسطة هذه النوعية من التقديم. (الباحثة).

وبذلك يعد المسرح المدرسي شكلاً من أشكال المسرح التعليمي، ويتفقان على كونهما يُقدّمان في البيئة المدرسية ولفئة الطلاب، ويهتمان بنوعية الموضوعات المقدمة في أن تتناسب مع الأفكار التي تريد المدرسة إيصالها وترسيخها لدى الطالب دون الارتباط بمقرر محدد، ويختلفان من حيث الشكل وطريقة التقديم كما أوضحنا أعلاه.

٣- بينما مسرحية المناهج (Theatrical curriculum) وفق المفهوم

اللغوي: هو وضع المناهج الدراسية في قالب مسرحي من خلال تجسيد المواقف والأحداث التي بداخلها، وتمثيلها في مكان مخصص لذلك^[٩]، وقد عرفها كمال الدين حسين: بأنها إعادة صياغة المحتوى التعليمي ووضعه في خبرة حياتية في قالب درامي في إطار من عناصر الفن المسرحي، وتقديمه إلى التلاميذ داخل المؤسسات التعليمية، بهدف تحقيق مزيد من الفهم والتفسير^[١٠].

ويعرفها الباحث بأنها ذلك المنهج الدراسي أو الدرس التعليمي الذي تقدمه الجهة التعليمية محددة العناصر والموضوع التربوي التعليمي بإشراف أستاذ المادة أو وزارة التربية والتعليم لوحدها أو بمشاركة مع وزارة الثقافة بدعم وزارة المالية -إن وجد- بشكل مسرحي مرتبط بمقرر ما أو درس ما، وقد يكون مجهود فرد أو مؤسسة، وقد يؤديه الطالب للطالب داخل البيئة التعليمية (المدرسة)، وقد يؤديه ممثلون محترفون للطالب داخل البيئة التعليمية أو خارجها كمسارح الدولة أو أحد مسارح الجهة التعليمية، بإشراف الوزارات الثلاث التي ذكرناها، بهدف إيصال المنهج الدراسي للطالب بأسرع وأكثر الوسائل استيعاباً وتأثيراً، لزيادة قدرته التحصيلية والتوعوية، وهو بذلك يعد رافداً وشكلاً محدداً من المسرح التعليمي المرتبط بمنهج أو مقرر أو درس معين.

٤- التعليم التفاعلي (Interactivity): له عدة تعريفات، وأعدت له عدة

برامج استهدفت في البداية تحسين مستويات الطلبة بطيئي وضعيفي التحصيل أو من ذوي الاحتياجات الخاصة في الصفوف الابتدائية الأولى في مهارات القراءة والكتابة والحساب^[١١]، ثم تطور حتى صار أسلوباً في

التعليم، فهو ذلك "التعلم الذي يتم من خلال الشبكات الرقمية المعاصرة والشبكات التفاعلية الكونية، التي تميز وسائل الإعلام وتقنيات المعلومات الحديثة، والتي تتيح للأفراد فرصة التفاعل في بيئات تفاعلية كونية واسعة المدى" [١٢].

٥- **الثقافة التشاركية (Participatory Culture):** هي تلك الثقافة التي تعتمد على إتاحة فرصة المشاركة النشطة لتقنيات الإنترنت وتطبيقاته المختلفة، فالصيغ المختلفة للعوالم والمجتمعات الافتراضية على الإنترنت أصبحت تتيح فرصاً لتبادل فرص التعبير الجمالي والحر، والدعم والشاركة الحضارية بشكل غير رسمي، وإتاحة فرص التدريب الحر وتثقل المعارف من الخبراء إلى المبتدئين والراغبين، وهي بذلك تنتج حالة تبادلية تشاركية بين الطرفين، لأنها لا تكتفي بتبادل المعلومات والخبرات بينهم؛ ولكنها تساعدهم في تكوين وإنماء روابط (علمية وثقافية واجتماعية) مختلفة، يشعر فيها المشارك بموقعه في المساهمة الفعالة" [١٣].

٦- **الفجوة التشاركية (Participatory Gap):** هي تلك الفجوة التي ترتبط بعدم مساواة كافة الطلاب (أطفال وشباب) في الوصول إلى خبرات غنية ومهارات ومعارف تهئ الشباب ليصبح مشاركون بشكل كامل في مستقبل الغد بكافة مستوياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية للمجتمع [١٤].

٧- **التربية الإعلامية (Media Education):** قد عرفت عدة مراجع ومؤتمرات دولية مثل مؤتمر فينيا عام ١٩٩٩م [١٥]، ومركز الثقافة الإعلامية ٢٠٠٣م [١٦]، وغيرهما [١٧] [١٨]، وإجمالاً هو يُعنى بـ "كيفية تنشئة الفرد بطريقة يستطيع من خلالها التعامل والتعاطي مع وسائل الإعلام على اختلافها" [١٩]، "بعقلٍ واعٍ ويقظٍ للتقنيح والنقد والتعديل والابتكار وحل المشكلات بشكل تفاعلي، وفي تعزيز الثقافة التشاركية الواعية، محققاً قدرًا عاليًا من التوازن والتفاعل والإيجابية والتفكير الصحيح وحسن التمييز بين الحقيقة والزيف، مع طرح القبيح والقيم غير المناسبة والملائمة مع

موروثاته ومعتقداته ورفضها وتجاوزها، وتنمية قدرته على تكوين شخصيته بشكلٍ مستقل قادر على المعرفة الشاملة والتقييم والاختبار والتفكير والانتقاء" (الباحثة)، "مع تعزيز الإحساس بالثقة بالنفس والتعلم الذاتي المستمر مع الروح الايجابية الواعية" [٢٠].

* * * * *

الجزء الأول: المسرح المدرسي والتربية الإعلامية:

بإجراء الاستبانة على عينة تجريبية من بعض مدارس القاهرة الكبرى بالمرحلتين الإعدادية والثانوية بالتعليم ما قبل الجامعي، لعدد (١٠٠) طالب من كل مدرسة من المدارس الآتية على حدة، وهي: (السعيدية بالحيزة، الهرم للبنات الإعدادية والثانوية، وروض الفرج الثانوية، وقاسم أمين للبنين الإعدادية)، وجد ما يأتي:

عدد (٤٣٨) من إجمالي (٥٠٠) يعانون من صعوبة تقبل بعض الدروس المقررة عليهم، وصعوبة تذكرها واسترجاعها بسهولة ما بعد الاختبارات، أي: بنسبة (٨٧.٦٪) من إجمالي العينة، وذلك نتيجة افتقارها لأيّ عنصر من عناصر الشغف أو الجذب أو التأكيد لإرسائها ورسوخها في ذهنية الطالب، مثل: موضوعات النحو والصرف، والقواعد اللغوية في اللغة العربية، وبعض دروس الكيمياء ولاسيماً المتعلقة بالأكاسيد ومواصفاتها وأضرارها، وما إلى ذلك، تلك الموضوعات التي تحتاج إلى الحفظ والتذكر والاسترجاع الدقيق مرة بعد أخرى، وكذلك موضوعات التاريخ التي تمتليء بالتواريخ والأحداث التي أصبح من الصعوبة استيعابها وتذكرها مع تكديس أعداد الطلاب داخل الفصل الواحد (حجرة الدراسة) بالفصول المصرية الحكومية والخاصة.

ولذلك اقترحت الاستبانة عدة طرق لحل تلك المشكلة، منها بعض الوسائل الإعلامية للطالب لاستخدامها في نقل المعلومة، وقد جاءت نتيجة الاستبانة باختيار الطلاب لوسيلة المسرح بعدد (٣٨٨) من إجمالي (٥٠٠)، أي: بنسبة ٧٧.٦٪ من عينة الاستبانة، وتلاها وسيلة الفيلم المصور بعدد (٢٩٠) من إجمالي (٥٠٠)، أي: بنسبة ٥٨٪ من عينة الاستبانة. بينما كانت الأغنية ٢٧٪،

والقصة ١٠.٨٪، وعرض الشرائح المصورة والمكتوبة ٥٪، والطرق التقليدية بالترتيب ٣.٢٪، ومن هنا كانت الوسيلة ذات المطلب الطلابي للتعليم وتيسير وصول المعلومة والدرس للطلاب، هي (المسرح)، وقد فطنت الدولة لذلك فبدأت منذ ثمانينيات القرن الماضي بالاهتمام بالأنشطة الفنية المرتبطة بالمسرح، مثل: فنون الخطابة والإلقاء والتمثيل داخل المدرسة وخارجها بين المدارس في المنطقة التعليمية الواحدة، أو بين المناطق التعليمية المختلفة على مستوى الجمهورية في شكل مسابقات ومنافسات وأنشطة طلابية، كما سيتضح في التجريبتين المسرحيتين: "الوزير العاشق"، و"عريس لبننت السلطان"، التي مرت بهما الباحثة، وسيأتي ذكرهما لاحقاً بالمبحث الثاني في الجزء الأول من الدراسة.

ولكن ما لبثت مع بدايات القرن الحادي والعشرين مع تزايد أعداد الطلبة، والأحداث السياسية التي مرت بها البلاد ما بعد ٢٠١٠م، أن تراجع الاهتمام بهذه النوعية من الأنشطة الطلابية الهامة من قبل بعض المدرسين، وبعض المدارس والمناطق التعليمية، وانتشار المعلومات المغلوطة، وتقبل ما تنتجه وسائل الإعلام الأخرى كما هو، في مقابلة واضحة لتدني مستوى المدرس المهاري، لذا قامت وزارتا التربية والتعليم والثقافة برعاية وزارة المالية بمسرحة مقررات السنوات النهائية لمادة التاريخ بالمرحلة الثلاث الأساسية ما قبل الجامعي لعام ٢٠١٤م.

محاولة من الدولة أن تحل تلك المشكلة الاستيعابية والادراكية والتحصيلية والتربوية لتلك المراحل، من خلال استغلال وسيلة اتصالية إعلامية خاضعة للتربية الإعلامية، وهي المسرح.

المبحث الأول: التربية الإعلامية والفن المسرحي:

تتكون الرسالة الإعلامية من خمسة عناصر أساسية هي:



[شكل رقم (١)]

هكذا تعمل الرسالة الإعلامية، وحيث إنَّ المسرح عُرف وانتشر كفنٍ مرئيٍّ آني؛ إلَّا أنَّه يتوافر به عناصر الرسالة الإعلامية الموضحة بـ[الشكل رقم (١)]، ولذلك فقد أُعتبر من الوسائل الإعلامية الاتصالية والفنية الأولى في العالم، التي استخدمها الإنسان منذ بدء الخليقة، في شكل ظاهرةٍ سُميت بـ"التمسرح"، ولكن بدأ التنظير له كفنٍ له قواعد وضوابط ويخضع لقوانين على يد الشاعر والمنظر اليوناني "أرسطوطاليس"، وإن ظهرت قبله الهيئة المسرحية نصًّا وأداءً في الكثير من أنحاء العالم^[٢١]، وهو ما لسنّا بصدده الآن، إذ أُستخدم في بداية ظهوره كوسيلة إخبارية وإعلامية للقبيلة عن أحداث الراوي/المُشخِّص للأحداث، وذلك في حلقات السمر الأولى التي عقدها الإنسان البدائي، ولكن مع بداية نشأة الحضارات أصبحت له وظيفة تربوية بخلاف استغلاله كوسيلة للمجالات الآتية:

- ١- إتمام الشعائر الدينية، وتعليم العامة كيفية أدائها.
 - ٢- الاحتفال والترفيه والتسلية والمتعة النفسية والوجدانية^[٢٢].
 - ٣- التعليم والتقويم وإعطاء الموعظة الأخلاقية، والحث على السلوك القويم انتصارًا للخير وهزيمة للقوى الشريرة.
- ومنذ ذاك الحين وبعد صدور الكثير من المناهج والأساليب الفنية المختلفة، ومرور العصور وتغيراتها، احتفظ المسرح بوظائفه السابقة مضافاً له أنَّه أصبح:
- ٤- منارة للتنوير والتحميس السياسي كما في المسرح السياسي لبسكاتور

ومسرح بريخت وغيرهما^[٢٣]، وهو ما لمسناه أيضاً، ورأيناه في تجربة الثورات العربية بالقرن الحالي^[٢٤].

٥- إثارة للمتعة الفكرية وإعمال العقل في القضايا الاجتماعية والاقتصادية كما في مسرح الشمس وأوجستوبال والمقهورين^[٢٥].

فالمسرح على الرغم من كونه أبا للفنون لتجميعه لفنون مختلفة ومتنوعة من (عمارة وتشكيل وأداء وموسيقى ورقص وغناء وكتابة وإخراج...إلى آخره). إلا أننا لا يمكننا إغفال دوره التعليمي في أي مرحلة زمنية مرت عليه، فهو يعد وسيلة إعلامية مهمة ارتبطت منذ ظهورها بالتكتلات الجماهيرية، التي اعتمد فيها المسرح على المباشرة والمواجهة بين الجمهور والعمل الفني المقدم والفنانين والإعلاميين والخطباء والسياسيين، إذ كان المسرح وما يزال وسيلة ثرية مباشرة حميمية مع المتلقي، تلك الوسيلة التي توفر للمتلقي أن يرى ويسمع ويلمس أحياناً الحدث بحواسه دون وسيط كالمذيع أو شاشة السينما أو جهاز التلفاز أو الحاسوب، ومن هذا ننطلق لطرح تساؤل عن كيفية قيام المسرح بدوره التربوي الإعلامي والفني في مراحل التعليم الأساسي؟.

للإجابة عن هذا التساؤل لزم علينا التفريق بين المسرح بأنواعه، والتي تتحدد في الآتي:

١- **مسرح الدولة (البيت الفني، وقصور وبيوت الثقافة):** التي تشرف عليه الدولة وتحدد ميزانيته، وهو مسرح محترف، يمثل الدولة في المحافل الدولية بالداخل والخارج، وكل من يعمل به معين ومتخرج من جهة مؤهلة لعمله سواء على مستوى الأداء أو الملابس أو الديكور أو الكتابة أو الإخراج، ويهتم بتقديم العروض المختفة من الكلاسيكي إلى الحديث، ومن النصوص الجادة إلى الكوميديّة مراعية الآداب العامة.

٢- **مسرح القطاع الخاص:** هو مسرح لفرق مستقلة تدعمها جهة إنتاج مستقلة لا تخضع لإشراف الدولة؛ ولكن تخضع لإشراف النقابة، وعادة ما تهتم بتقديم النصوص الكوميديّة.

٣- **مسرح الفرق المستقلة الهواة:** هو يشبه مسرح القطاع الخاص من حيث

الشكل، ولكن إنتاجه بسيط، وعادةً يكون من الشباب، ويعد حلقة وصل بين فرق مسرح الدولة الجادة التي تخضع للرقابة ومسرح القطاع الخاص، الذي قد يصل للابتذال بغرض إثارة الضحك، مهتماً بقضايا الوطن وقضايا الساعة، وعادةً ما تكون تلك الفرق غير محترفة.

٤- **المسرح التعليمي** وهو يضم **(المدرسي والجامعي)**: وقد عرفنا المسرح التعليمي والمدرسي أعلاه، بينما **المسرح الجامعي**: هو ذلك المسرح الذي تشرف عليه إدارة رعاية الشباب بالجامعة، وعادةً ما يتولى الإخراج فيه أحد الطلاب أو المحترفين من البيت الفني للمسرح أو أستاذ من داخل الجامعة، العمل فيه نشاط تطوعي يؤديه مجموعة من الطلاب لزملائهم من داخل الكلية أو الجامعة أو الجامعات الأخرى، وعادةً ما يُقدم على مسرح مؤجر من البيت الفني أو مسرح رعاية الشباب نفسه كما في جامعة عين شمس أو مسرح الكليات كما في كلية التجارة والحقوق بجامعة القاهرة، وتقام له المهرجانات التنافسية السنوية بين الجامعات وبين فرق الجامعة، والفرق المستقلة مع فرق البيت الفني للمسرح بمهرجان المسرح القومي السنوي بمصر. وهو بذلك ينتشبه في قالبه وطرق تقديمه وموضوعاته مع المسرح المدرسي الذي عرفناه سابقاً، ويكمن اختلافه الجوهرى في طبيعة الجمهور والمقدم له العروض، هو فئة الشباب الجامعي وليس المدرسي، وعادةً ما يميل إلى الموضوعات السياسية التي تروق مجتمعه ويقدمها إماً بشكل جاد كلاسيكي أو بشكل ساخر حديث. بينما يهتم المسرح المدرسي بالموضوعات الأخلاقية وتصحيح مسارات التلميذ الفكرية بما يتناسب مع مرحلته النفسية والفسولوجية والذهنية.

* * * *

المبحث الثاني: دور المسرح المدرسي في التربية الإعلامية والفنية:

١- مسرحية "عريس لبنت السلطان":

كان المسرح المدرسي المصري في مراحل التعليم الأساسية من (سبعينيات حتى تسعينيات القرن العشرين) يعد نشاطاً مدرسياً يقوم به أحد مدرسي النشاط

الفني أو موجه المسرح داخل المدرسة في أثناء العام الدراسي، أو نشاطاً مشتركاً بين أكثر من مدرسة كنشاط منطقة تعليمية كاملة في أثناء الإجازة الصيفية لطلاب المدارس^[٢٦]. أي: في الحالتين كان يُقدم نشاطاً يمكن تقديمه أو محوه، وليس مقررًا أو منهجًا يُشترط على جميع الطلاب القيام به، وإنما عمل انتقائي تتحكم فيه إرادة الطلاب واختياراتهم والظروف التدريسية بالمدرسة، ووقت الموجه وقدرته. وقد عاصرت الباحثة هذا الظرف التاريخي والسياسي والاقتصادي والفني في مصر، بل وشاركت في أنشطة منطقتها التعليمية خاصة على المستوى المسرحي، والذي بدأ بمشاركتها للمسابقات التعليمية والفنية بين مدارس المنطقة التعليمية الواحدة، مثل مسابقات الخطابة والتمثيل والإلقاء بمرحلة التعليم المرحلة المتوسطة (الإعدادية) بمدرسة شبرا الإعدادية للبنات عام ١٩٨٩م، التي كانت بدعم معلمة اللغة العربية، واختيارها للباحثة وإشراكها مع المسئول عن الأنشطة للمشاركة باسم المدرسة في المسابقات الخارجية، وفي تلك المسابقات تعرفت الباحثة على المدارس الأخرى والمواهب، التي قدمتها من مدارس البنين والبنات لمرحلتها التعليمية والمرحلتين الأخريتين (الإبتدائية، والثانوية)، وقد تكرر ذلك لثلاثة أعوام حتى أصبحت الباحثة بالمرحلة الثانوية، وفي تلك المرحلة العمرية كان النشاط المسرحي مرتبطاً بدرجة كبيرة بالأعياد والمناسبات والإجازات السنوية، وفي عام ١٩٩٢م أبلغت الباحثة من قبل مديرة مدرستها (روض الفرج الثانوية للبنات) اختيار مسئول النشاط المسرحي بمدرسة التوفيقية الثانوية بنين للباحثة وبعض الفتيات من المدارس الأخرى للمشاركة في العرض المسرحي الصيفي الذي تقيمه المنطقة التعليمية، وهو العرض المسرحي "عريس لبننت السلطان"، وعلى الرغم من عدم وجود مسرح بهاتين المدرستين إلا أن المنطقة التعليمية وفرت لهما في دائرة المدرستين مسرح مدرسة شبرا الثانوية للبنات للتدريب الصيفي، وقد كان المسرح الذي تقام عليه معظم المسابقات والمنافسات بين المدارس بمنطقة شمال القاهرة التعليمية التي تخضع لها المدارس السابقة الذكر.

النص الدرامي:

النص من تأليف محفوظ عبد الرحمن، ومن إخراج حسن يوسف، تناول

النص المسرحي قصة لمحاولة تيمورلنك السيطرة على مدينة السلطان شعبان الغازي من خلال محاصرتها وطلب الزواج من ابنة السلطان ذهبية، التي يقع في غرامها أحد أفراد الثوار، هو أحمد الغلبان، وهو من الشعب البسيط الذين ثاروا ضد تيمورلنك ليوقفوا محاولاته للسيطرة وتخريب المدينة بعدما كان رسوله لها، ولكن وقوعه في حبها جعله يرى حقائق السياسة والأمور، وتمثل حب الوطن في نفسه حتى تحول موقفه من رسول تيمورلنك لثائر في وجهه ووجه الوزراء الذين كانوا يساندون تيمورلنك ضد السلطان.

بيانات العرض:

- ١- مكان العرض: مسرح شبرا الثانوية للبنات بمنطقة شمال القاهرة التعليمية.
- ٢- وقت التدريب: لم يكن النشاط حينها قائماً بشكل مستمر إلا بالإجازات الصيفية فقط.
- ٣- موعد العرض: قبل بداية الدراسة للعام الدراسي ١٩٩٣م — ١٩٩٤م بثلاثة أسابيع في الإجازة الصيفية.
- ٤- مدة العرض: ٤٠:١ ق (ساعة وأربعون دقيقة).
- ٥- نوع العرض: أخلاقي، سياسي.
- ٦- الحضور، والفئة المستهدفة: منطقة شمال القاهرة التعليمية بجميع مدارسها ولاسيما مرحلتي الإعدادية والثانوية.
- ٧- نوع التجربة: جماعية، نشاط المنطقة التعليمية بإشراف موجهي التربية المسرحية والمنطقة التعليمية (منطقة شمال القاهرة التعليمية).
- ٨- الدروس المستفادة منه: يدعو إلى أن الثراء الحقيقي يكمن في النفس القنوعة، وليس في أصحاب الثروات والسلطات، وأن القوة الحقيقية تكمن في الحب والإخلاص له وللوطن، وأن هذه الأمة لن ينصلح حالها إلا بشبابها.
- ٩- المشاركات الأخرى:

- ١- جمع العرض بين طلاب مدرسة شبرا الإعدادية للبنين، والتوفيقية الثانوية للبنين، وروض الفرج الثانوية للبنات، وقد أقيمت البروفات

والتدريبات تحت إشراف مخرج من خريجي المعهد العالي للفنون المسرحية، وعلى أرض خشبة مسرح شبرا الثانوية للبنات [٢٧]، فلا إقامة عرض مسرحي تعاونت أربع مدارس بنين وبنات لتقديمه.

٢- ضم العرض والتدريبات على صوت واهتمام وعمل الملحن والمطرب المصري سيد أنور.

٣- ضم العرض والتدريبات على صوت واهتمام وعمل الملحن والمطرب المصري سيد أنور.

٤- ضم العرض فريق الكورال وفريق الموسيقى من مدرستي شبرا الثانوية للبنات والتوفيقية الثانوية للبنين.

١٠ - مشكلات العرض ومعوقاته:

١- الدعم المادي البسيط، وإن أُخرج العرض بشكل لائق.

٢- غربة فريق المسرح في البداية عن بعضهم، ممّا استدعى تعريفات وبروفات أكثر لتوطيد المعرفة بين مهارات وقدرات فريق التمثيل من طلاب المدارس الثلاث.

٣- التعرف على الجانب الموسيقي والغنائي لبطلتي العرض لأول مرة، ممّا أربك الطلاب في العملية التنفيذية في أثناء العرض لعدم التجهيز الكامل له نفسياً وتدريباً، وكانوا: الطلاب ("الباحثة في دور ابنة السلطان، الطالبة إيمان سمير في دور بنت البلد تقاحة"، من مدرسة روض الفرج الثانوية للبنات، و"الطالب حسام الشاذلي في دور العريس، والطالب عمرو قابيل في دور ابن البلد" من مدرسة التوفيقية الثانوية للبنين)^[٢٨].

١١ - مدى ارتباط العرض بالمناهج الدراسية بالمرحلة الثانوية قبل الجامعية:

لا يرتبط العرض بأي منهج دراسي أو درس من مقرر دراسي ما؛ بل كان عملاً ترفيهياً لإشغال الطلاب بالإجازة الصيفية بزيادة الوعي المسرحي والتدريب واستعراض المهارات بينهم.

١٢ - الجوانب الايجابية والسلبية للعرض:

الجوانب الايجابية:

- ١- التوقيت للتدريب والبروفات والعرض كانا مناسبين جداً.
- ٢- الاستفادة من أوقات الفراغ الصيفية بشكل مثمر بالنسبة للإدارة التعليمية وإدارات المدارس والطلاب.
- ٣- تحفيز باقي أهالي الطلاب غير المشاركين في السماح لأبنائهم بالاشتراك في الفرق الفنية بالإجازات الصيفية، وفي أثناء الدراسة لإيمانهم بجدية التجربة، وما قدمه أبنائهم وأقرانهم من عمل فني مكتمل وممتع.

الجوانب السلبية: تضم مشكلات العرض ومعوقاته مضافاً إليها الآتي:

- ١- مدة العرض المستغرقة كانت طويلة بعض الشيء على المتلقى الشاب الذي لا يحب الجلوس لأكثر من ساعة ساكناً متابعاً.
- ٢- عدم وجود فريق كوال أو غناء بمدارس شبرا الإعدادية للبنين وروض الفرج الثانوية للبنات، ممّا جعل تدريبهم على الغناء والاستعراض مجهداً لباقي فريق العمل من مدربين ومؤدّيين.
- ٣- عدم وجود مسرح بأيّ من المدارس المشاركة بالعرض المسرح، ممّا ألجأ الطلاب والقائمين على التجربة المسرحية لإستعارة مسرح مدرسة أخرى غير مشاركة في العرض لإقامة التدريبات والعرض عليها.

من ذلك نخلص إلى أنّ العرض كعرضٍ مسرحيٍّ مستقلٍّ ناجحٍ وتجربة موفقةٍ مثمرة، هذا على مستوى الفرجة والمتعة الوجدانية؛ لكنه على مستوى التحصيل العلمي أو التربوي الإعلامي أو الفني لم يحقق أيّ تطورٍ في تصحيح المفاهيم أو توصيل معلومات دراسية، بل لم تكن تلك من أحد أهدافه من الأساس، إذ كان العمل مجرد عملية نشاط فني طلابي فقط.

* * * * *

٢- تجربة مسرحية "الوزير العاشق":

في عام ١٩٩٣م بعدما انتهت الباحثة من تجربتها السابقة، ومع بداية الدراسة في العام التالي، قامت الباحثة بمدرستها الثانوية للبنات بتكوين فريق

مسرحي من الفتيات، إذ قامت فيه بانتقاء الطالبات المؤهلات بعض الشيء للتمثيل، وقد اختارت الباحثة المسرحية الشعرية "الوزير العاشق" للشاعر الصحفي فاروق جويده، لما تحمله هذه المسرحية من قيم سياسية تعبر عن مرحلة مهمة في تاريخ بلاد الأندلس والتاريخ الإسلامي في الغرب، تلك المسرحية الشعرية الشاعرية المأخوذة عن الأحداث التاريخية لفترة الحكم الأمويين ولاسيما حكم الخليفة المستكفي بالأندلس من نهاية الألفية الأولى وبداية الألفية الثانية ببلاد المشرق الغربي ببلاد المغرب والأندلس (إسبانيا حالياً). تلك المسرحية التي تناولت قصة حب بين ولادة بينت المستكفي والوزير ابن زيدون، وكيف واجهتهم الكثير من المعوقات والتحديات منعت من ارتباطهم، تشكلت تلك المعوقات في طريقة التفكير واستقبال المجتمع لتلك العلاقة، مع مكر الحاقدين والملتفين حول كرسي العرش.

خطوات تكوين الفريق:

١- تم الإعلان عن بداية تكوين فريق للمسرح تتراسه الباحثة من خلال عرض فكرة التكوين على مديرة المدرسة، وبعدما تمت الموافقة تم الإعلان عنه بإذاعة المدرسة الداخلية الصباحية، وقد تم التسجيل للانضمام للفريق مع الباحثة في المكتبة بوقت الغداء (الفسحة).

٢- بعد أسبوع من بداية تسجيل أسماء الطالبات الراغبات في الاشتراك بالفريق وتسجيل فصلهم، تم عقد اجتماع معهم في وقت الغداء للتعرف عليهم، وانتقاء أفضلهم وأكثرهم تأهيلاً للعمل في المجال المسرحي من خلال إعطائهم قصيدة شعرية من نصوص المسرحية، وسماع أصوات وطرق أداء المشتركة.

٣- تم تصفية المشتركة، وبدأ توزيع الأدوار بحيث وزعت الأدوار الرجالية والنسائية على الطالبات جميعهن، كل حسب مقدرتها واستطاعتها وتأهيلها، وحصلت الباحثة على دور البطل (شخصية ابن زيدون)، بينما وزعت بقية الأدوار على باقي الفريق.

مشكلات التكوين والتشغيل:

١. المكان: لم يكن بالمدرسة مبنى مخصصا للمسرح، ولهذا كانت التدريبات والبروفات تُعقد في إحدى غرف الدرس أو في الممرات أو بفناء المدرسة بجزء بسيط منه غير مرئي لكل المدرسة، لخصوصية التدريب.
٢. فريق العمل: جميعهم من الطالبات سواء على مستوى التمثيل أو الإعداد أو الإخراج.
٣. الشكل الرسمي: تمت الموافقات الرسمية على إقامة الفريق والعرض، ولكن لم يُحدد له معلم يقوم بالتدريب أو المتابعة، ومن كان يقوم بذلك هو الباحثة.
٤. الدعم المالي والإداري: لم يُحدد أي دعم مالي أو إداري عدا الموافقة على النشاط فقط، دون متابعة أو إشراف من المدرسة وإدارتها.
٥. موضوع العرض: كان من اختيار الباحثة كاختيار شخصي بحت، لا يمت لأي مقرر بصلة، ولم يخضع لأي ضوابط أو معايير محددة من قبل المدرسة أو مسؤوليها.
٦. وقت التدريب: لم يكن له وقت محدد إلا وفق جدول حصص الألعاب أو الدروس التي يتغيب بها معلميها، وبعض أيام الإجازة الأسبوعية كيوم الجمعة.
٧. مكان العرض: لم يُحدد له مكان فتم عرض أجزاء منه في فناء المدرسة بشكل يخلو من المكملات المسرحية والجمالية الديكورية.
٨. موعد العرض: كان في أثناء الفصل الدراسي الأول قبل نهايته، ممّا أجهد الطالبات، وتسبب عنه عدم الالتزام بكامل بمواعيد التدريب، فلم ينجز العرض كما كان ينبغي.
٩. مدة العرض: ساعتان.
١٠. نوع العرض: سياسي-شعري.
١١. المشاركات الأخرى: لم يُوجد أي مشاركات أو إشراف من الداخل أو الخارج.
١٢. الحضور، والفئة المستهدفة: مدرسة روض الفرج الثانوية للبنات فقط.

١٣. الدروس المستفادة منه: التعرف على مرحلة من تاريخ بلاد الأندلس في أثناء نهايات الحكم الإسلامي فيها.
١٤. احتياجات العرض: كان ينقص العرض الكثير من التجهيزات، والتدريبات والمعونات، وخاصة مكان وتوقيت التدريبات.
١٥. نوع التجربة: فردية - نشاط طلابي بدون إشراف.

العوامل الإيجابية والسلبية:

ولذلك كان من العوامل الإيجابية لتلك التجربة الآتي:

- ١- تعيين موجه مسرحي بالمدرسة للقيام بتدريب الطالبات وتأهيلهم لأداء مسابقات الإلقاء والأداء التمثيلي وإقامة الأمسيات الشعرية، مثل إلقاء بُردة البوصيري في حب سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)، وإعطاء بعض النصائح المتخصصة في مجال الأداء التمثيلي.
- ٢- تدريب الفتيات بشكل أكثر احترافية سواء بأدوار رجالية أو نسائية.
- ٣- تعريفهم بالكثير من النصوص المسرحية المحلية والعالمية التي تصلح لهم.
- ٤- تعريف الطالبات بأهمية النشاط الفني، ولاسيما المسرح، وأهميته في زيادة المهارة الخطابية والإدراكية وزيادة الثقة بالنفس.

بينما تحددت النواحي السلبية في الآتي:

- ١- تحديد موضوعات المسرحيات التي يتم التدريب عليها من قبل الموجه دون رغبة أو استشارة الطالبات، ممّا جعل العمل في الفريق المسرحي يفتقر لحماسة الفكرة والتطبيق، والتي كانت تبعد عن ميولهن وعن الموضوعات الدراسية، وإن كانت تحمل قيماً أخلاقية وتربوية.
- ٢- عدم وجود أوقات مخصصة بالمسرحية تتناسب مع جميع أوقات الطالبات، ولاسيما أنّ العمل بالمدرسة ينتهي بأوقات محددة لا تخضع للعمل الصيفي، مثل تجربة المدارس المشتركة كما كان بتجربة عريس لبننت السلطان.
- ٣- عدد المستفيدين من التدريب يكاد يكون ضئيلاً جداً بالنسبة لطالبات المدرسة الكلي، كما سيتم ذكره تالياً.

وعلى الرغم من المجهود الكبير الذي بُذل لإنشاء وتكوين الفريق إلا أنه لم يُكتب له البقاء والاستمرار بعدما أنهت الباحثة مرحلة الثانوية وانتقلت للجامعة. وذلك لعدم وجود جهة رسمية من المدرسة تُشرف على هذا النشاط.

١ - مدى ارتباط العرض بالمناهج الدراسية بالمرحلة الثانوية قبل الجامعية:

لا يرتبط العرض بأي منهج دراسي أو درس علمي بمقررٍ ما، ولذلك لا يُشكل تغييراً أو دافعاً أو دعماً حقيقياً لتطوير مهارات الطلاب التحصيلية، وإنما يكفي بتطوير مهارات الطلاب الفنية لمجموعة الطلاب المتدربين المنتقلين للعمل المسرحي (الفريق المسرحي) فقط، وعددهم بالنسبة لباقي زملائهم لا يشكل رقماً مغيراً، ففي تلك التجربة كان عدد فريق المسرح ١٤ تلميذة فقط بالنسبة لقوة المدرسة الكلية، التي كانت تتشكل من ١٠ حجرات فصلية لكل فرقة، أي: ثلاثين حجرة دراسية بمعدل عدد (٢٥: ٣٠ طالبة تقريباً للغرفة الواحدة)، أي: ما يبلغ ٣٠ غرفة دراسية في عدد متوسطي للطالبات (٢٧) $(27 \times 30 = 810)$: ٩٠٠ طالبة)، أي: فريق المسرح المدرب بالنسبة لطلاب المدرسة يبلغ نسبة $14 \times 100 = 900/810 = 11.1\%$ ، وهي نسبة ضئيلة جداً بالنسبة لرصد مقدار تطور مهارات الطالبات التحصيلي في مدرسة ما، وهو ذاته الحال بمدارس باقي المنطقة التعليمية حينها، فمابالنا في المدة الحالية وقد بلغ عدد الطلبة بالحجرة الدراسية أكثر من ٤٠: ٥٠ طالباً في المدارس الحكومية، ومن ٣٠: ٤٠ للمدارس الخاصة. وبذلك لم يستطع المسرح التعليمي بالمدرسة أن يقوم بدورٍ فعال بالنسبة لطلاب المدارس بالتعليم ما قبل الجامعي سواء على مستوى التربية والتوعية الإعلامية من تصحيح مفاهيم أو ضبط معلومات مغلوطة، أو على المستوى الفني المهاري والادراكي بالنسبة للتلميذ بشكل مؤثر.

ولهذا نجد هذا النشاط المدرسي تراجع -بعض الشيء- من المدارس الحكومية الرسمية بالدولة مع بداية الألفية الثالثة لأسباب كثيرة منها:

١. تفاقم عدد طلاب المدارس حتى أصبح المدرس في حالة انشغالٍ دائمة بالمقررات الأساسية بالمرحلة.

٢. قلة الدخل الاقتصادي للمعلم جعلته يهمل الجانب التربوي والفني تماماً، في

حين انصب اهتمامه على الدروس الخصوصية والمجموعات العلمية بالجوامع والمدارس مساءً.

٣. عدم وجود مبنى مسرحي في الأبنية الجديدة للمدارس، هذا خلاف أن المدارس القديمة لا تحتوي جميعها على مسرح؛ بل بعضها فقط.

٤. عدم تخصيص ميزانية للنشاط الفني؛ ولاسيما المسرحي.

٥. خضوع هذه النوعية من الأنشطة الدرامية والإعلامية لطموح الموجه المسرحي أو المدرس المهتم، ولذلك عند غيابهم يتقلص دور المسرح المدرسي التربوي حتى ينزوي، إذ كان عملاً فردياً وليس توجهاً وقراراً رسمياً تُشرف عليه الدولة، وتُلزم به كالمقرارات الدراسية التي تُشرف عليها إدارات التعليم بوزارة التربية والتعليم بالدولة المصرية.

وعلى الرغم من قلة الموارد البشرية والمالية في تلك الآونة بنهايات القرن الماضي إلا أن الإجازة الصيفية كانت تزخر بالعمل الجماعي الحيوي بين المدارس بمرحلة ما قبل الجامعي ولاسيما بالمرحلة الثانوية. وقد اكتفت -حينذاك- المناطق التعليمية للتعليم الأساسي بقيام مهرجانات ومسابقات الشعر والإلقاء فقط بين المدارس على أحد مسارحها، والتي عادة ما كانت في كل منطقة تعليمية تزخر بأكثر من مسرح واحد بأحد مدارسها مثل مسرح شبرا الثانوية للبنات بمنطقة شبرا مصر، ومدرسة السعيدية بمنطقة الجيزة التعليمية، ومسرح الطلبة بالعجوزة، ومسرح شرق المنطقة التعليمية، مسرح "الملك فهد" بمدينة نصر، وغيرها في قطاع المدارس الخاصة.

وكذلك كان الحال في المسرح الجامعي، وإن كانت إدارة رعاية الشباب المركزية بالجامعة أو المستقلة بالكلية هي المعنية بالنشاط الفني والمسرحي في أثناء الفصل الدراسي أو في الإجازة الصيفية^[٢٩] أنظر الأشكال (٢، ٣، ٤).

وفي الحالين ظل المسرح نشاطاً فردياً خالصاً، انحصر دوره التربوي في الرؤية الفنية المقدمة من المعلم أو المخرج المسئول، وهذا يخضع لقانون النسبية المعتمدة على توجهات وأفكار وميول ورغبات مخرج العرض، ولذلك كان دوره محدوداً ونسبياً.

وعلى الرغم من هذا النشاط الذي قامت به الباحثة في أثناء مراحل التعليم الأساسي بمرحلتى الإعدادية والثانوية بالمشاركة وإقامة فريق للمسرح؛ ولكنه لم يخضع لفكرة مسرحية المناهج في البداية، بل كان نشاطاً فردياً فقط، سعت فيه الباحثة لتعزيز الثقة بالنفس والاطلاع المعرفي، وتفعيل الخيال وملكات ومواهب الكتابة والإلقاء والشعر والغناء والأداء لدى باقي زميلاتها بمدريستي "شبرا الإعدادية للبنات"، و"روض الفرج الثانوية للبنات" من بوتقة العزلة والانفصال عن المجتمع إلى الاندماج من خلال تبادل الأدوار والشخصيات بين الطالبات كذوات مستقلة، وشخصيات الأدوار الممثلة كذوات محاكية تارة، والأساتذة كذوات متبادلة متفاعلة تارة أخرى، في حضور وإشراف موجه التربية المسرحية، وعادةً ما يكون خريج قسم التمثيل والإخراج بأكاديمية الفنون، أو قسم المسرح بكليات التربية.

وقد كان من أوجه القصور وأهم معوقات تلك التجربة على المستويين (النظرية والتطبيقية)، هي:

- ١- عدم المعرفة الكافية بأسلوب مسرحية المناهج.
- ٢- عدم الوعي لدى المسؤولين بالدور الفعال للمسرح المدرسي.
- ٣- عدم وجود ميزانية مالية.
- ٤- عدم تحديد وقت كافٍ للبروفات.
- ٥- عدم تحديد مكان محدد للبروفات والتدريب والعرض.
- ٦- عدم وجود نصوص كافية وملائمة لتحقيق هذا النشاط.
- ٧- عدم وجود مدرب متخصص لتدريب الطلبة لاكسابهم مهارات العرض.
- ٨- وجود قصور في إعداد المعلم النوعي.
- ٩- قلة الكفاءات البشرية التي تشرف على المسرح المدرسي، ومسرحية المناهج.
- ١٠- قلة عدد الدورات التدريبية المقدمة لمشرفي المسرح.
- ١١- عدم وجود شروط ومواصفات فنية وعملية محددة يتم على أساسها اختيار المعلم القادر على قيادة العمل المسرحي أو كتابته وإعداده.

وذلك وفق ما طرحته وأشارت له بعض الدراسات مثل دراسة حسن عبد المنعم (١٩٩٣م)، ودراسة سيف الإسلام محمد (١٩٩٨م)، ودراسة عمرو محمد عبد الله نحلة (٢٠٠١م).

١٢- عدم وجود مواد مؤهلة للطلبة منذ الصف الأول لتحفيز ملكاتهم الإبداعية الابتكارية الدرامية، للعمل فيما بعد في الأداء المسرحي التطبيقي لتقنية مسرح المناهج بالتعاون مع المعلمين وإدارة المدرسة.

وبذلك لم يحقق المسرح المدرسي هدفه التحصيلي بشكل كامل مما ألبأ القائمين على العملية التعليمية إلى إيجاد تقنية مسرحية أخرى وشكلاً آخرًا يتقيد بالمنهج الدراسي، مما كان دافعاً لظهور تقنية مسرح المناهج، تلك التقنية التي ظهرت على مستويين، أحدهما فردي تقوم به المدرسة أو المدرس بشكل ذاتي بدون دعم مؤسسي ممنهج كامل، أمّا الآخر فكان برعاية ودعم وإشراف وزارة التربية والتعليم، التي عقدت برتوكولاً مع وزارة الثقافة لإنتاج مسرحيات محترفة يكون موضوعها الدرس التعليمي، وقد اختارت في مرحلتها التنفيذية الأولى الشخصيات التاريخية في نهاية كل مرحلة تعليمية لتقديمه للطلاب، وهو ما نعرضه تالياً بالنسب والدلائل وفق الاستبانة التي عقدتها الباحثة.

* * * * *

الجزء الثاني: مسرح المناهج بين أسلوب الابتكار والنموذج:

انقسمت الجهود في عملية مسرح المناهج إلى اتجاهين شملًا أسلوبين، هما:

١- الاتجاه الأول:

هو نشاط فردي يقوم به أحد المعلمين المتطوعين، أو إدارة رعاية شباب المدرسة بالتعاون مع موجه المسرح أو التربية الفنية أو أحد الأساتذة، ويتم العرض داخل الفصل الدراسي أو الفناء أو المسرح المدرسي، أي: داخل المدرسة الواحدة فقط، ويقوم بأداء النشاط الممسرح التلاميذ تحت إشراف أستاذهم. وهذا يختلف عن المسرح المدرسي الذي لا يلتزم بتقديم مقرر دراسي أو تشرف عليه الوزارة بشكل إلزامي، وهو بذلك يعتمد على الأسلوب الإبداعي المعتمد على الدراما المبتكرة، تلك التي تعتمد على "نشاط التلميذ مع زملائه بإشراف مدرب

يعمل على تفجير طاقات المجموعة المشتركة في المسرحية، التي تنمي لديهم (الإدراك، التفكير، التذكر، نمو اللغة، نمو المهارات الحركية،...)، ومساعدتهم على النمو المتوازن واكتساب المعارف محققة للأهداف التعليمية المرغوب تحقيقها^[٣٠]، ثم إنها تساعد التلاميذ على المشاركة الإيجابية، وبناء شخصيتهم وتنمية بعض المهارات الفنية^[٣١]، وتعد أداة مؤثرة في تعلم اللغات والتحدث، وتنمية التفكير^[٣٢]، فضلا عن تنمية الذوق العام وتعلم فنون اللغة^[٣٣].

١- الاتجاه الثاني:

هو توجه معتمد من الدولة من خلال نظام تعاوني بين وزارة "التربية والتعليم" والبيت الفني للمسرح بوزارة "الثقافة"، وقد تم عقد البروتوكول على مرحلتين حتى الآن، بداية من عام ٢٠١٤م، حيث تم تنفيذ تلك العملية بشكل احترافي، وتحت إشراف الوزارتين بالتعاون مع وزارة المالية، كل في تخصصه، حيث تُعنى وزارة التربية والتعليم باختيار المقرر ومراجعته بعد الإعداد الفني له، والتصحيح اللغوي والمعلوماتي، والهدف المراد منه، بينما تُشرف وزارة الثقافة على اختيار الفنانين والفنيين والإعداد الفني والدرامي للمقرر، وصياغته في قالب مسرحي ممتع وجاذب للمتلقي/الطالب، ومكان العرض والبروفات والإعلان عنه على مسارح الدولة، ومسارح مدارس الجمهورية في كافة أرجائها، في حين يُترك الدعم المالي لوزارة المالية. وهو بذلك يخضع لأسلوب النموذج، وهو المعنى لدينا في تلك الدراسة، إذ يعد النموذج هو "الطريقة التي تقوم على معالجة المقرر الدراسي أو بعض موضوعاته بإعادة صيغته ليخرج في شكل مسرحي يعرض على التلاميذ، ويراعي عدم تغيير الحقائق والمعلومات المتضمنة للمحتوى، حتى لا يتعارض مع ما يدرسون... ويعد نوعا من أنواع التعليم التشاركي^[٣٤]؛ لأنها تخضع لمعايير البناء الفني لمسرحية المناهج التعليمية التي عددها: [سمير يونس، شاكر عبد العظيم ٢٠٠٠م^[٣٥]، عزو إسماعيل، ٢٠٠٨م^[٣٦]؛ طارق جمال الدين عطيه، محمد السيد حلاوة ٢٠٠٤م^[٣٧]، وسعيد عبد الله، ٢٠١٠م^[٣٨]؛ وكمال الدين، ٢٠٠٤م^[٣٩]، وزينب علي، ٢٠١٣م^[٤٠]، عبير محمد رواش محمد ٢٠١٠م^[٤١]]، وهي تشمل: (الموضوع وعناصر البناء الدرامي التي تضم (الحبكة المعتمدة على الصراع والايقاع والحوار والشخصيات التي تعرض في ثلاث مراحل وفق البناء

الأرسطي من بداية تقديمية للحبكة والعقدة والشخصيات والحدث، والوسط الدرامي حيث تتشابك فيه العلاقات وفق سلوك الشخصيات وأفعالها ليصل الحدث إلى ذروته، حيث لا يكون هناك مجالاً إلا لبداية النهاية للوصول لحل العقدة والوصول للنهاية، التي تحدد طبيعة العمل كونه تراجيدياً أم كوميدياً، معتمداً على بعض العناصر التكميلية مثل (الأقنعة والمكياج-الملابس-الديكور والإضاءة- بعض الملحقات المسرحية -الموسيقى).

الاتجاه الأول: (فردى)	الاتجاه الثاني: (احترافى جماعى)
نشاط ذاتى للمعلم	برتوكول بين الوزارات المعنية
يعتمد على الأسلوب الإبداعى (الدراما المبتكرة)	يعتمد على أسلوب (النماذج)

* * * * *

وقد أدركت وزارة التربية والتعليم مع الألفية الجديدة أهمية الدور الفنى والإعلامى فى تربية النشء، بل وفى توصيل المعلومات للمقررات الدراسية التى صعب على الطلاب تقبلها لأي من الأسباب الآتية: طول المقرر وزخمه أو صعوبة تخيله، أو كثرة المعلومات به، أو عدم قدرة المعلم على توصيله، مثل منهج التاريخ وموضوعاته وشخصياته وأحداثه، والجغرافيا، والعلوم، والرياضيات، واللغة العربية بفروعها ولاسيما مايرتبط بالقواعد اللغوية والنحو والصرف، وغيرها. ومحاولة من وزارة التربية والتعليم لزيادة وعي الطلاب وزيادة قدرتهم التحصيلية والإدراكية مع تأهيلهم لاستيعاب متطلبات عصرهم، والاستعداد للتعامل معه وفق مفرداته التكنولوجية الحديثة، لذا عمدت إلى المسرح كوسيلة تربوية وفنية وإعلامية ذات أثر عميق على المتلقي من سن السادسة حتى سن السابعة عشر؛ ولكن فى إطار مقنن تحت إشراف علمى وتربوى. ولهذا عقدت وزارة التربية والتعليم اتفاقية تعاون مشترك مع البيت الفنى المسرحى بوزارة الثقافة، لمسرحة المناهج الدراسية المقرر تدريسها بالصفوف النهائية بالمرحلة الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، وتقديمها فى إطار مشروع مشترك سُمي "مسرحة المناهج". والمنهج هو "الطريق أو الوسيلة"، ولكننا هنا نقصد: "المقرر الدراسى الذى أعدت مادته العلمية وزارة

التربية والتعليم، وأفرته للفرقة الدراسية المعنية، وهو يختلف كمًا ونوعًا مع كل صفٍ على حدة، وفيه تحدد الوزارة كم المعلومات المرتبطة بطبيعة التخصص/المادة سواء كانت رياضية أو علمية أو فنية أو دينية أو علوم إنسانية أو قصصية.. وما إلى ذلك. مع مراعاة الفئة العمرية للطالب المُستقبل لتلك المعلومات "(الباحثة)، أمّا مسرحية المناهج فهي تعني: "تقديم هذا المنهج الدراسي/المقرر في إطار فني درامي متخذًا القالب المسرحي وسيلة للعرض، وخاصة في تصحيح مفاهيم تاريخية أو تراثية، إذ يهتم بعرض تاريخ وتراث الوطن، وتعريف الطالب بالمعلومة الصحيحة من خلال تصويرها وتشخيصها في صورة مُمسرحة مُؤداة، محتوية بعض العناصر من الآتي: [المواقف الدرامية التمثيلية، والتمثيل الصامت، والإرتجال، والرقص، والغناء، والموسيقى، والشعر، وفنون العرائس وخيال الظل والأراجوز..]، محققًا بذلك ثلاثة عناصر أساسية، هي:

- ١- الفرجة والمتعة للمشاهد/الطالب التي تعمل على جذبه.
 - ٢- التربية الأخلاقية والسلوكية للطلاب من خلال تعاطفه مع الشخصيات الدرامية، مما يترك أثره على المتلقى/الطالب إيجابًا، وفي مسافة زمنية قصيرة جدًا، ولمدى عمري طويل وعميق الأثر "(الباحثة).
 - ٣- المعلومة الدقيقة التي تشرف عليها وزارة التربية والتعليم وأقرتها.
- وهو بذلك يختلف عن المسرح المدرسي، الذي لا يلتزم بمنهج تعليمي محدد؛ بل يعتمد على النهل من أدب الطفل كما يشاء دون إلزام بالفئة العمرية أو الصف الدراسي أو المقرر ما، وهو بذلك قد يقوم بدوره التربوي، ولكن بشكلٍ نسبي وبدون ضابط لتلك العملية، التي تتوقف على ما يريد المخرج أن يوصله للطلاب، ولربما اكتفى بتقديم عرضٍ ممتع فقط بدون رسالة أخلاقية أو تربوية أو علمية، وهو هنا مسرحٌ للمتعة النفسية للطفل؛ وغير مكترثٍ بالواجب التربوي والإعلامي والتعليمي الفني كما أوضحنا أعلاه. وهو ما تنبّهت له وزارة التربية والتعليم فحاولت إخضاع تلك العملية الفنية، وتلك الوسيلة الإعلامية لسلطانها ومراقبتها ودعمها حتى تكتسب دورها (التربوي الأخلاقي، والعلمي) بجانب كونها وسيلة جذابة ممتعة ومؤثرة.

* * * * *

نماذج تطبيقية لمشروع "مسرحة المناهج"

سنعتمد في هذا الجزء من الدراسة إلى تقديم نموذجين أحدهما للاتجاه والأسلوب الأول (الفردى - الابتكارى) ويمثل العينة الثانية التى اختيرت حسب متغيرات البحث فتمثلت فى مسرحة عدة دروس تعليمية كـ [درس النحو لـ (أسماء الإشارة) بمدرسة محمد عبد السلام، ومسرحة درس العلوم (المجموعة الشمسية) بمدرسة المدينة المنورة للبنات بالإسكندرية للمرحلة الإعدادية، ومسرحة درس (الكيمياء للأكاسيد) بمدرسة التوفيق للبنين بمحافظة بنى سويف]. على سبيل المثال لا الحصر، بينما كان النموذج التطبيقى الآخر من نماذج الاتجاه الثانى (الممنهج وفق أسلوب النموذج) التى تعاونت فيها وزارة التربية والتعليم ووزارة الثقافة، وتمثل فى العينة الاستطلاعية للعرض المسرحى "على مبارك"، ونتائج التحصيلية والتربوية على المستوى الإعلامى والفنى، بشكل إحصائى من خلال استبانة نقصت مردود ما تم من مسرحة منهج التاريخ لشخصية على مبارك على تحصيل الطالب، واستيعابه للشخصية التاريخية ولمنهج التاريخ لتلك السنة الدراسية بالمرحلة الابتدائية، تطبيقاً على طلاب الصف السادس الابتدائى، وأهليهم ومدرسيهم.

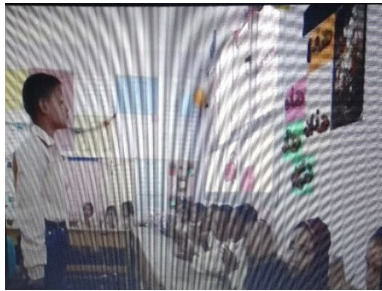
المبحث الأول:

- النموذج التطبيقى للإتجاه (الفردى) لـ "مسرحة المناهج" وفق أسلوب الدراما المبتكرة:

تعددت النماذج التى استخدمت تلك الطريقة، التى اعتمدت على أساتذة المقررات الدراسية، وخاصة عندما بدأت المدارس الخاصة فى الانتشار فى مصر فى الأربعين عاماً الأخيرة، وبدأت فى الآونة الأخيرة من بدايات القرن الحالى تحتل مكان الصدارة، وتتقدم على المدارس الأميرية (الحكومى المدعم)، ولذلك اهتمت تلك المدارس باستخدام طرق متنوعة لجذب الطلاب وتعليمهم بجانب الطرق التقليدية للتلقى والتدريس، وكان على رأس تلك الطرق وأكثرها جذباً وإمتاعاً وفهماً واستيعاباً للطالب "القالب المسرحى"، الذى يعد من أمتع الأشكال الفنية والإعلامية، نظراً لطبيعته الأنوية الحميمية بينه وبين المتلقى/الطالب، إذ

يبحث على الطلاب النشاط والحيوية، ويحببهم في المقرر الدراسي وفي الذهاب للمدرسة، وفق ما جاءت به نتيجة الاستبانة حول الوسيلة والقالب الأكثر تأثيراً لدى الطالب، فبواسطته يتم تحويل المادة العلمية الجامدة إلى حالة متفاعلة جذابة مؤداة من خلال سرد درامي تؤديه شخصيات متفاعلة مع جمهور الطلاب بصالة المسرح أو فناء المدرسة، ثم يستطيع المعلم ترسيخ مبادئ أخلاقية وطرق ومناهج فكرية للطالب بشكل جذاب ومشوق ومحبب للنفس، كما يمكن توعية الطلاب بالمخاطر التي تحيط بهم من خلال تلك الطريقة الفنية والإعلامية التربوية الممتعة. وليس المقصود بمسرحة المناهج، تلك المقررات التي تحتوي قصصاً أو يسمح محتواها بالسرد والتمثيل كمقرر التاريخ أو القصة والشعر؛ ولكن الصحيح أن مسرحة المناهج غُنيت بكافة المناهج من: (رياضيات وجغرافيا وتاريخ وعلوم ونحو وبلاغة وكيمياء وفيزياء..)، والأمثلة التطبيقية على ذلك كثيرة في المدارس المصرية بالمراحل الثلاث، خاصة بالمرحلة الابتدائية الأساسية، وذلك لأهمية زرع المعلومة المراد إيصالها للطلاب في قالب يسهل عليه استيعابه في عالم اليوم، الذي يعتمد على الصورة، ومنها:

- مدرسة د. محمد عبد السلام، إذ قامت المعلمة بمسرحة درس (أسماء الإشارة)، وقد قُدم العرض في قاعة الدرس، وفيها تقدم الطلاب بالتوالي من



خلال الغناء والوزن الشعري لتعريف وتحفيز أسماء الإشارة التي تزين بها لوحة كانت على أحد جدران قاعة الدرس:

" هذا رجل المستقبل.. وهذه بنت المستقبل تسعى دوماً للأفضل وهذان الاثنان، ولدان يلعبان.. وهاتان هما الاثنتين، فتاتان مهذبتان

هؤلاء الأولاد يلعبون مع البنات... (هذا...هذه.. هذان، هاتان.. هؤلاء)" [٢٤] كما في الشكل رقم (٥)

فمن خلال استخدام الحركة الجسدية المؤداة من الطلاب مع الأداء الغنائي في الحجرة الدراسية، وبتوجيهات المعلمة أدى الطلاب العرض المسرحي

الصغير لأسماء الإشارة، وبتطبيق هذا النموذج على مدرسة مصر للغات بصفة اللغة العربية عام ٢٠١٨م بالفصل الدراسي الأول، وبرصد النتيجة التحصيلية لذلك بالمقارنة بالطريقة التقليدية التي تلقاها غيرهم بالحجرات الدراسية الأخرى لنفس الصف من خلال الاستبانة، كان معدل الناتج التحصيلي لاستيعاب الطلاب لهذا الدرس أعلى من الطريقة التقليدية التلقينية الجافة، إذ بلغ معدل الاستيعاب من خلال رصده في الامتحان الشهري بالمدرسة بين الفصول ٧٠٪ للطلاب، الذي حصل عليه بالطريقة المسرحية المغناة إلى ٤٨٪ للطلاب الحاصل عليه بالطريقة التلقينية التقليدية، بل كان من المشهود أن مجموعة العينة التجريبية الذين أدوا تلك التجربة أخذوا يرددون هذا النشيد العلمي كأغنية انتشرت بين زملائهم وأقرانهم؛ بل وظل النشيد يُردد بعد أداء الاختبار الشهري، عالقاً في ذهنية التلميذ، محققاً حالة من التجاوب بطريقة غير مباشرة.

- أمّا في مادة الجغرافيا فقد قدمت عدة مدارس إعدادية عرضاً مسرحياً لبعض الدروس والموضوعات، مثل درس (المجموعة الشمسية)، الذي قُدم بقاعة الدرس تارة، وبغناء المدرسة تارة أخرى، وعلى خشبة مسرح أحدهم تارة ثالثة، مثل ما قدمته مدرسة "المدينة المنورة للبنات" بمحافظة الإسكندرية للمرحلة الإعدادية تأليف وإخراج المعلمة "هدى حجاج"^[٤٣]، إذ قدمت عرضاً غنائياً راقصاً للمجموعة الشمسية كما في الشكل رقم (٦)، وقامت المدرسة بإعداد ملابس تنكرية تمثل كواكب المجرة بألوانها وطبيعتها، وقام التلاميذ بارتدائها، بشكل تناسب مع الموضوع والشرح، مقدمين ذلك الدرس في قالب مسرحي استعراضى قائم على الغناء والرقص تارة، والأداء التمثيلي تارة أخرى، إذ ظهر الطلاب في هيئة كواكب المجرة، وقد حضر الدرس كافة فصول المدرسة بكل صفوفها، ممّا جعل الدرس يتم استقباله بشكل جماعي عام، وقد قام المعلمين إثر ذلك بمناقشة سريعة من خلال الأسئلة والأجوبة بين الطلاب/الممثلين، والأساتذة مع الطلاب الحضور في صالة المسرح بشكل حر غير انتقائي، حيث تحول المسرح في لحظات إلى قاعة تحليل ومناقشة ودرس وتربية، حيث قدم المعلم في نهاية العرض المسرحي نصيحة ما من شأنها الحفاظ على إتزان هذه الطبيعة والسيرورة الكونية.

- وهو ما قدمته تجربة مدرسة "التوفيق للبنين" بمحافظة بنى سويف عن الكيمياء في فناء المدرسة، عندما قدم الطلاب محاكمة تتكون من قاضي ودفاع وأربعة متهمين من أكاسيد الكربون والنيتروجين والكبريت كما في الشكل رقم (٧) معتمدين على الحوار المشهد والحوار المسرحي التمثيلي فقط. فقد تقدم كل مُتهم (أكسيد) وتحدث عن نفسه بشكل مكثف وواضح ومحدد لعيوبه ومخاطره، وما يسببه من أضرار تم عليها اتهامه ومحاسبته، وفي النهاية تقدم الدفاع (وكيل النيابة) للدفاع عنهم، وقدم براهينه على أنَّ الإنسان هو المسؤول الأول عن وجود تلك الأكاسيد، فالخطأ هو سلوك الإنسان، وهو المتهم الحقيقي، وقد قدم النموذج طريقة للتعامل معها، والخلاص منها، وبذلك لم تُقدم المسرحية المعلومة الخاصة بالمنهج المقرر فقط، بل تخطاه لتوجيه التلاميذ لكيفية المعالجة والخلاص بالسلوك السليم^[٤٤].

وبذلك استطاع المسرح أن يقدم المعلومة الصحيحة المناسبة المنتقاة والموجه من قبل معلم الدرس؛ ولكن بشكل يعتمد على طريقته في التناول ورؤيته الذاتية، دون إشراف كامل وواعي للدرس المقدم، كما أنه لم يتخط في تلك التجارب مساحة الدرس التعليمي، وبإجراء استبانة حول تطبيق الطريقة نفسها بمدرسة الهرم الإعدادية للبنات عام ٢٠١٨م، لدرسي المجموعة الشمسية ودرس الأكاسيد، وجد أنَّ معدل النسبة النهائية الناتجة عن استيعاب الدروس كان كالآتي:

م	اسم الدرس	اسم المدرسة	المحافظة	النتيجة التحصيلية بمسرحية الدرس	النسبة المئوية	النتيجة التحصيلية بالطريقة التقليدية	النسبة المئوية
١	المجموعة الشمسية	الهرم الإعدادية للبنات	الجيزة	١١٠ طالب من إجمالى ١٣٠	٩٤ %	٦٠ طالب من إجمالى ١٣٥	٣٩ %

٢	الأكاسيد		٢٨٠ من ٤٠٠	٧٠٪	١٨ من ٥٧	٣١٪
---	----------	--	---------------	-----	----------	-----

وبمراجعة تلك النسب الإحصائية وجد أن وسيلة مسرحية الدرس التعليمي سواء تم تأديته داخل الحجرة الدراسية أو خارجها أكثر استيعاباً وتحصيلاً وثباتاً، ولكن هذه التجارب شابها بعض القصور، وذلك للآتي:

- ١- عدم وجود ميزانية إنتاجية لذلك المجهود.
- ٢- خضوع هذا الإتجاه للذاتية المتعلقة بمجهود المعلم الشخصي، وذوقه وعلمه وتوجهه الفكري.
- ٣- عدم وجود مكان محدد لذلك، فبعض المدارس ليس بها مسرح أو فناء أو قاعات تدريب للأنشطة.
- ٤- عدم وجود مكان يصلح لكافة طلاب الصف بالمدرسة أحياناً كثيرة.
- ٥- عدم وجود مكملات ومعدات المسرح من صوت وإضاءة وغيرها في غالبية العروض.
- ٦- اعتماد العرض على الطالب ومقدرته وكفاءته وطاقته.
- ٧- عدم وجود الوقت الكافي لتدريب كافة الطلاب، وإشراكهم في هذا المجال التدريسي.
- ٨- الرسالة الموجهة للطلاب تخضع لما يريد المعلم توصيله له دون رقابة.
- ٩- قد يتعرض العرض للمغالطة أو عدم التقديم بشكل ملائم ودقيق وصحيح لكون المؤديين من الطلاب، ممّا يفرض عنصر النسيان وعدم التركيز والتشويش .. وما إلى ذلك من مشكلات العرض.
- ١٠- يُقدم العرض للمدرسة فقط إن وجدت قاعة لذلك، وهو أمر قليل الحدوث.

وهو بذلك لا يفي بالغرض التعليمي بشكل مستمر، كما يخضع كالمسرح المدرسي للذاتية والنسبية الفردية المعتمدة على تفهم المعلم وقدرته وطموحه، ولذلك فتحقيق المرجو منه تربوياً وتحصيلياً محدود طلابياً، وإن كان أكثر تحصيلاً واستيعاباً وتحقيقاً للهدف التعليمي للدرس، ولكنه كان في حاجة إلى

وضع الأطر والقواعد المنظمة لتلك التجربة التعليمية والوسيلة التحصيلية الإعلامية الغنية، لذلك لجأت الدولة للنموذج البروتوكولي الآتي.

المبحث الثاني: النموذج التطبيقي للاتجاه الثاني (الجمعي) لـ "مسرحية المناهج" وفق أسلوب النموذج:

خضعت تلك الوسيلة لخطوات ممنهجة محددة اتبعتها وزارتي التربية والتعليم والثقافة، كما في الشكل رقم (٨) ^[٤٥]، وسنذكرها من خلال النموذج التطبيقي للمرحلة الأولى والثانية للبروتوكول الذي عقده الفنان أشرف عبد الغفور نقيب الفنانين المصريين لعام ٢٠١٤م، وفتوح أحمد رئيس البيت الفني والأستاذ الدكتور محمد أبو الخير رئيس القطاع الثقافي مع الفنان هاني كمال المدير العام بالتربية والتعليم بالقاهرة، بالإنبابة عن وكيل الوزارة، وقتذاك، وقد نص البروتوكول على تقديم "أربعة عروض مسرحية" بالمرحلة الأولى للمشروع، يعتمد تنفيذها على فناني البيت الفني للمسرح، وقد تم عرضها بعدد من المسارح التابعة لمدارس مديرية تعليم القاهرة خلال العام الدراسي ٢٠١٤م، متخذين من القصص المقررة على المراحل الثلاث العربية والأجنبية نموذجًا للتطبيق، فكانت مسرحية "طموح جارية" للمرحلة الإعدادية، والتي تناولت قصة الشخصية التاريخية "شجر الدر، وفترة حكم الملك الصالح والحملات الصليبية الأخيرة على مصر"، من إخراج شادي سرور، ومسرحية "الأيام" لطف حسين للمرحلة الثانوية لغة عربية، من إخراج أحمد رجب، وقصة "سجين زندا" للمرحلة الثانوية للمدارس الأجنبية، ومن إخراج "أحمد سراج"، ومسرحية "علي مبارك" من إعداد المسرحي ياسر أبو العينين، وإخراج باسم قناوي، التي سنتناولها في بحثنا كنموذج للتحليل والتطبيق.

وكان اختيار جميع مخرجين هذه العروض من العاملين بشعبة الإخراج بالبيت الفني للمسرح بوزارة الثقافة، بينما كان الإشراف للمادة المعروضة من مسئولية وزارة التربية والتعليم ^[٤٦].

وقد اهتمت المرحلة الثانية من هذا البرتوكول، والتي تم تفعيلها عام ٢٠١٥م، بتقديم مسرحية "المحروسة" لمحمد أبو العلا السلاموني مقدماً التاريخ المصري بتطوره للمراحل الثلاثة الابتدائية والإعدادية والثانوية، ومن إخراج تامر كرم، ومسرحية "هيا نقرأ" لتعليم الحروف وتكوين الكلمات للصف الأول الابتدائي، ومسرحية "كركة" لمقرر العلوم تأليف عمر عبده دياب، وإخراج جلال عثمان، وعرض "أبجد هوز" لمقرر اللغة العربية لناظم نور الدين، وإخراج صلاح الحاج، ومسرحية "صندوق الحوادث" تأليف مصطفى سليم وإخراج محمود حسن، ومسرحية "المياه حياة" من تأليف وإخراج محمد عبد المغني، والتي قدمت خارج إطار المنهج التعليمي، للتأكيد على القيم الحميدة، عبر التراث، وأهمية الحفاظ على الماء [٤٧][٤٨].



بروتوكول بين مديرية تعليم القاهرة والبيت الفني للمسرح لمسرحية المناهج

تجربة المرحلة الأولى: مسرحية منهج القصة لشخصية "علي مبارك" للمرحلة الابتدائية:

أولاً: التعريف بالنص الدراسي القصصي:

انقسم النص القصصي الدراسي لشخصية علي مبارك إلى عدد (٨) على مدار السنة الدراسية، أربعة فصول للفصل الدراسي الأول، وعدد (٤) للفصل الدراسي الثاني. حمل كل فصل عنوان مقتبس من الطبيعة والمرحلة السردية

لحياة على مبارك، فكان الفصل الأول بعنوان **عائلة المشايخ**، والتي يتضح بها نشأة عائلة على مبارك قبل مولده وصفاتهم وألقابهم في بيئتهم، وسبب تلقيهم باسم عائلة المشايخ، التي ترجع إلى حبهم للعلم ولكتاب الله تعالى، كما أوضح الفصل مكانة علي بين إخوته، بينما جاء عنوان الفصل الثاني **عزة نفس .. وطموح مبكر**، وفيها عرضت القصة حب والد علي لتعليم ابنه، فأرسله للشيخ أحمد أبو خضر الذي كان يقطن بعيداً عنهم، فتركه عنده لمدة عامين لحفظ القرآن الكريم وتجويده، وقد حفظه الفتى الصغير القرآن كاملاً خوفاً من الإهانة، وضرب العصا، حتى يخلص من قسوة مثل هذا المعلم القاسي، وعاد لمنزله، ولكن انشغال والده أبعدته عن متابعة ابنه لتثبيت الحفظ، فانشغل التلميذ باللغو واللعب ونسي ما حفظ، فأراد الأب إعادته لمعلمه، ولكن الفتى أوضح ما في نفسه من رفض لهذا المعلم ورغبة في تعلم الكتابة، فأخذه الوالد لأحد كتبة الشكاوي، ولكن الفتى لم يسترح عنده من كثرة الضجة والجلبة وتقديره الطعام عليه، حتى هرب منه لأبيه الذي غضب عليه بشدة وكاد يرسله مرة أخرى إليه، فهرب لأخيه الذي أخذه باللين، وعلم ما في نفسه، فطمئن من غضب الأب وأخذه لمنزله، وهنا اقترح الأب عليه العمل مع كاتب قياس الأراضي، فهذا الفتى ولكنه أعلم والده بأنه سيرى إن كان سيرتاح معه أم لا، لأنه لن يبتعد عن حلم التفوق ليكون من عليّة القوم المهابين، بذلك بدأ الفصل الثالث **"سجين مظلوم"** وفيه نرى الفتى الصغير يمضى ثلاثة أشهر مع الكاتب، الذي طرده لأنه أفسى أسرار ما يأخذه من الفلاحين بغير وجه حق، فألحقه والده بالعمل عند مأمورية أبو كبير بأجر، ولكن الرجل لم يعطه أجره لمدة ثلاثة أشهر، ممّا جعله يحتال عليه ويختصم ماله من المال الذي يجمعه له، فاغتاظ منه وأبلغ عنه مأمور السجن، الذي احتال على الصبي وأدخله السجن لمدة عشرين يوماً، حينها تعاطف السجان معه، وأوجد له طريقة للخلاص من هذا السجن بإلحاقه في وظيفة كاتب لدى عنبر أفندي مأمور الزراعة، الذي أعجب بخطه وألحقه بالعمل معه، وبهذا بدأ الفصل الرابع **"سر غامض"**، حين تعجب على مبارك كثيراً من مكانة عنبر أفندي لدى عليّة القوم، وتبجيلهم له على الرغم من كونه المصري الذي شغل منصباً هو للأتراك فقط، فعلم من فراشه بأنه ارتاد مدرسة القصر العيني، وبعد تخطيه الكثير

من الصعوبات استطاع الالتحاق بمدرسة منية العز التي أهلته للالتحاق بمدرسة القصر العيني دون وساطة، والتي خاب أمله في تخيلها، وانتقل منها إلى مدرسة أبو زعبل، والتي لم تختلف كثيراً، وقد عانى فيها صعوبة التعليم خاصة لمقررات الهندسة والحساب والنحو، حتى جمع ناظر المدرسة رأفت أفندي الطلبة المتخلفين عن أقرنائهم ودرس لهم تلك المواد بشكل يسر حبهام فيها، وجعل علي من المتفوقين حتى التحق بمدرسة المهندس خانة، التي نبغ فيها وصار من النجباء، منها أرسل بعثة لفرنسا خارج مصر مع أبناء محمد علي، وبهذا بدأت فصول الفصل الدراسي الثاني، والتي كان أولها "في فرنسا" إذا قابل الصعوبات العديدة والتي كان أهمها اللغة الفرنسية، وطبيعة الدراسة بها، والتي لم يكن يتقنها وكان على وشك الرجوع للبلاد خاسراً بعثته، وفرصته العلمية، ولكنه استطاع أن يتغلب على ذلك وتغوق وعاد لمصر ليواصل كفاحه ونجاحاته، فعينه عباس الأول ناظراً للمدارس المصرية، فكان أول وزير مصري يتولي هذا المنصب في الفصل السادس المعنون "وزير التربية والتعليم"، والذي استطاع من خلاله أن يعدل ويطور من منظومة التعليم في مصر بشكل شامل استوعب التلميذ ومشكلاته والمدرسون وتأهيلهم، والمنظومة ككل، ولكن مع تولي الخديوي سعيد حكم البلاد أبعد علي مبارك عن نظارة المعارف، وهو ما تناوله الفصل السابع "صعاب وعقبات"، ولكن مع عهد إسماعيل تم إسناد إدارة كثير من مرافق الدولة له، فنجح في إدراتها وإصلاحها، كما أسند إليه ديوان المدارس بالفصل الثامن "أبو التعليم"، والتي ظل يعطى فيها بكل كدٍ وشغفٍ وإخلاص، حتي بعد اعتلاء ابنه توفيق باشا الحكم، وخضوع البلاد لسلطة المحتل، تولي علي مبارك مناصب وزارية كثيرة، حتى توفي عن عمر السبعين عاماً بعام ١٨٩٣م، بعدما قضى حياة حافلة بالكثير من الصعوبات والمعوقات والنجاحات، مليئة بالصبر والاجتهاد والتحمل والجد^[٤٩].

ثانياً: تحليل البناء الدرامي للمعالجة:

١ - التعريف بالنص الدرامي للعرض: يبدأ العرض المسرحي بعد السلام الجمهوري لجمهورية مصر العربية بأغنية تحدد ملامح التجربة المسرحية التعليمية، التي تُقدم للطالب وتحدد نوع المشكلة وكيفية علاجها، حيث

نوهت كلمات الأغنية مع الأداء التمثيلي الاستعراضى بين التلاميذ ومعلمتهم في الافتتاحية المسرحية إلى إجهاد الطالب وضيقه من العملية التعليمية، وطرق المذاكرة التقليدية، الذي دفع المعلمة لتحديهم بهذا الشكل الدرامي، وأن يتم تعريفهم بالمعلومات الدراسية دون إجهاد أو تعب كما ادعوا حيث تقول كلمات الأغنية الافتتاحية:

" بالليل ومع القراءة ومذاكرة في الكتب .. من يوم دراسة ولآخر السنة..
ماشفناش مرة راحة ولا فسحة ولا لعب.. الرحمة يا جماعة هو أحنا ايه
خشب؟؟.. زهقنا قرفنا تعبنا تعبنا.. تعبناااا من الكتب

المعلمة: يا ولاد كفايكم شكوى.. مش ممكن مش معقول.. العلم سلاح في
ايدىكو بينور العقول

التلاميذ: يا سلام.. لو يتذكري معانا كنتي هاتصدقى.. إن احنا ضحايا ولازم
نشتكى

المعلمة: طب يالى معايا يالى مع بعض هانكتشف إن كنتوا صحيح ضحايا ولا
هانختلف.. مع بعض هانكتشف

التلاميذ: أكيد هانختلف.."

وظل تكرار تلك الكلمات النهائية حتى بداية المسرحية التي اتخذت من أسرة بسيطة من أب وأم وطفلة بداية للأحداث، إذ بدأت المسرحية من الزمن الآني، ومشكلة الطفلة في إحساسها بالرفض من كثرة المذاكرة وصعوبة اللغة العربية، وبخاصة القصة من كثرة تواريخها وأحداثها وتشابه الأرقام والأحداث التي تجد معه صعوبة، ممّا ألجأ الأب إلى تمثيل الأحداث وروايتها بالتعاون مع الأم كرواية للأحداث، منتحلاً الأب شخصية علي مبارك، ومتحدثاً بلسانه لتقريب المعلومة لطفلته، بينما ظلت الطفلة هي ممثل جيلها الحالي الذي يسأل ويحاول أن يرى ويسمع ليعرف ويتعلم، ومن هنا بدأت الأحداث برواية علي مبارك من مذكراته عن ميلاده ونشأته وطبيعة أسرته وتعليمه وتنقله بين القرى، وثورته من أجل العلم والرغبة في الحصول عليه وعلى الحصول على محبة الناس واحترامهم، وإظهار البيئة المصرية السياسية والاجتماعية حينها، راداً على موقفه الحيادي من الثورة

العراقية، على الرغم من تمرده وطبيعته المتمردة، وموقفه من بلاده وحبه الشديد لها، ولكن بدفعها للإصلاح والتعليم لا بالقوة والتخريب والعنف، وهو ما أكدته جمل الأب والام وأغنية الفينال (النهاية).

"الأب والأم سوياً: بالتعليم والعلم ممكن حياتنا تبقى جنة.. وممكن تبقى العشة الصغيرة قصر كبير"

الأغنية: "وأدينا شفنا بالعلم تبقى عشنا قصور.. وعلي مبارك بعد الظلم يطلع من الظلمة على النور."

المعلمة: وأنتم كمان أوعاكو تناموا.. وأوعوا تبلطوا في الخط.. اللي يتعب لازم يلقى.. ممكن يصنع أكبر مجد..".

٢- سبب تسمية القصة: يرجع لوزارة التربية والتعليم وتحديدها لشخصية على مبارك للصف التاسع النهائي للمرحلة الإعدادية بمصر كرائد للنهضة الحديثة في التعليم بمصر، ولذلك لم يحاول صانعو المسرحية تغيير الاسم إلى اسم آخر ذو دلالة حتى لا تخرج المعالجة الفنية عن كونها مسرحية لمنهج قصة "علي مبارك"، ويحدث للتلاميذ أي شوشرة أو اضطراب، أو تشتيت ذهني وفصل بين ما يرونه ومقدم لهم، وبين القصة المقررة عليهم التي تحمل الاسم نفسه.

٣- اللغة ودلالاتها: مزج العرض بين اللغة الفصحى المذكورة بكتاب الوزارة وبين العامية بعدة لهجات، ومنها اللهجة القاهرية، واللهجة الفلاحية، ولهجة العرب البدوية، واللغة العربية العامية المكسرة التي كان ينطق بها الأتراك المقيمين بمصر فجمعت بين بعض مفرداتهم والمفردات العامية والفصحى العربية.

وبذلك استطاعت هذه اللغة أن تساعد التلميذ المُشاهد على التنقل مع علي مبارك في مراحل حياته، مؤكدة مع العملية الأدائية على تجسيد المشاهد التمثيلية بدرجة أكثر إيضاحاً وثبوتاً بذهنيته، على الرغم من تكثيفها وسرعتها.

ضم العرض خمس أغاني، منهم أغنية للافتتاحية وأخرى للخاتمة، اختلفت لغتهما وأداؤهما عن الأغاني الثلاث الأخرى اللاتي جنن بمتن العرض معبرات

عن الحالة النفسية والاجتماعية لمبارك وابنه في رحلتها في الحياة، ومؤكدةً على الحالة الإبهامية للعرض المسرحي، بينما ابتعدت أغنيتي البداية والنهاية عن التعبير عن حالة الشخصية المحورية، حيث اتخذتا من ضمائر المخاطب للجمهور (الطلاب) الحضور بصالة العرض متكأً، كما قام بأدائها الكورال الممثلين (التلاميذ) مع معلمتهم، ومن العامية القاهرية لغة لهم للتأكيد على الحالة الآنية للحضور.

مثال ١:

" المعلمة: يا ولاد كفايكم شكوى.. مش ممكن مش معقول.. العلم سلاح في ايديكوا بينور العقول

التلاميذ: يا سلام.. لو يتذكري معانا كنتي هاتصدقني.. إن احنا ضحايا ولازم نشتكى"(الافتتاحية)

مثال ٢: " المعلمة: وانتم كمان أوعاكوا تناموا.. واوعوا تبلطوا في الخط.. اللي يتعب لازم يلقي.. ممكن يصنع أكبر مجد.." (الخاتمة/الفينال)

٤. أوجه الصراع بالعرض:

تمثلت أوجه الصراع في الخططين الدراميين الآتيين:

١- الخط الدرامي الأول (الأسرة): تبلور الصراع في مشكلة التلميذة في صعوبة تلقيها لأحداث وشخصيات وتواريخ وأماكن القصة المقررة عليها بمقرر اللغة العربية بالصف السادس الابتدائي، والذي بدأ بالشكوى وانتهى بالمعرفة.

٢- الخط الدرامي الثاني (القصة): حياة علي مبارك منذ ولادته حتى مماته، الذي تبلور صراعه بين أزمته الاقتصادية ومستواه المالي من جهة، وطموحه الكبير الذي كرر ذكره أكثر من مرة في أكثر من موضع، وهو رغبته الشديدة بالحصول على الاحترام والمهابة والتوقير من الناس، التي أخذ يبحث عنها في عدة طرق حتى تمت هدايته لطريق العلم والدراسة.

ثانياً: المعالجة المسرحية لنص مقرر التاريخ لشخصية "علي مبارك":

١- تقنيات العرض:

مزج العرض بين تقنيتي:

١ - **الايهام داخل الايهام:** من خلال تقديم خط درامي أساسي أني، مثلته الأسرة المصرية البسيطة المكونة من الأب والأم وابنتهما ذات الثانية عشر، التلميذة بالصف السادس الابتدائي، وهم يحاولون شرح المادة القصصية بمقرر اللغة العربية لها، مما ألجأهما للتمثيل داخل التمثيل بتجسيد شخصيات أخرى من الخط الدرامي الثاني السارد والمجسد لحياة علي مبارك، مجسداً الأب شخصية علي مبارك، والأم دور الراوية، بينما ظلت الطفلة هي محور الربط بين الآن (الحضور) والماضي.

٢ - **المسرح التعليمي،** باستخدامه للافتات والراوي والخطاب المباشر للجمهور، والأغنية المخاطبة.

٢ - الحذف والإضافة والابدال:

أولاً: تم حذف الكثير من المعلومات ذات التفاصيل والوصف والتعويض عنها بطرق الأداء التمثيلية التي قدمت بالعرض، والتي قدمت صورة للشخصيات التي قابلها وتعامل معها علي مبارك ووالده دون ذكرها على لسان الراوية.

ثانياً: تم إبدال الحالة السردية المعلوماتية بشخصية الراوية للحديث ممّا صعب تمثيله أو للمساعدة للتنقل بين الأزمنة والأماكن حتى يتم تتبع الأحداث، وأماكنها بشكل مرئي ومسموع بتعليق من الراوي أحياناً وتفسير في أحيانٍ أخرى.

ثالثاً: تم إضافة شخصية علي مبارك، التي جسدها الفنان هشام طلبة على خشبة المسرح مقدماً التمثيل داخل التمثيل، التي جاء على لسانها ما أكمل دور الراوية، ووطد المعلومة المُلقاة، خاصة وأنها جسدت أمام التلميذة مباشرة مما يصعب نسيانها، ونسيان طريقة كلامها وأدائها وملبسها.

رابعاً: إضافة خمسة أغاني للعرض، انقسمت إلي نوعين، نوع مثلته ثلاثة أغاني داخل العرض يجسد الحالة الدرامية ويؤكدّها، بينما قُدمت اثنتين منهما

باللغة العامية القاهرية بكورال طلابي مع معلمتهم، بالافتتاحية والخاتمة، مستعرضين الهدف من التجربة المسرحية المقدمة والدرس المستقي من قصة شخصية علي مبارك، والتأكيد على أنَّ الثورات لا تختص بحمل السلاح والعنف واستخدام القوة، ويمكن أن يتمثل التمرد والثورة بالمزيد من العمل والبحث والطموح الذي يتبعه اجتهاد ومثابرة باستخدام سلاحي (العلم والاصلاح).

٣- المعالجة الزمكانية:

الزمن ومعالجته: جمع العرض بين زمنين، هما:

١- الزمن الآني الحاضر بقرننا الحادي عشر، الذي مثلته الأسرة البسيطة والتلميذة، التي كانت تعاني من صعوبة استذكار وحفظ وتذكر ما يخص شخصية القصة المقررة عليها بالدراسة.

٢- زمن الشخصية المحورية للعرض، وهي من عام ١٨٢٣م حتى عام ١٨٩٣م بالقرن التاسع عشر، وما تبعه من مفردات الحياة حينها بشكل فلاشات سريعة متنقلة في تلك الفترة بين الأماكن والأزمنة من خلال الفلاش باك للخط الدرامي الأول (الأسرة والتلميذة)، متنقلين في الزمن من خلال شخصية علي مبارك أو الراوية.

المعالجة المكانية: النص السردي التعليمي تنقل في الأماكن منذ ولادة علي مبارك حتى النهاية من خلال المعلومة السردية الصماء؛ بينما في المعالجة تم عمل كوانات مسرحية ذات طرز وأماكن باستخدام تقنية المسرح التعليمي من خلال التجسيد ومن خلال شخصيتي الراوية وشخصية علي مبارك، الذي كان يتم التنقل في المكان من خلال ذكره للمكان الجديد، فتنوعت الأماكن بين المحافظات والقرى وبين مستوى الكتبة والجباة والكتاب ومنزلي أبيه من عام ١٨٢٣م حتى عام ١٨٩٣م، ومدارسه التي تنقل منها حتى سفره لفرنسا خارج مصر والعودة إليها بعهد الخديوي عباس باشا، وتنقله بالمناصب.

٤. القيم الجمالية بالعرض:

- المزج بين (المكان والزمان الآني بإكسسواره وملابسه ومكملاته وأدائه ولهجته، والذي مثل الحضور من جمهور التلاميذ)، و(مكان وزمان وأحداث القرن التاسع عشر في مصر بحياتها السياسية والاقتصادية بمكملاتها من ملابس وإكسسوار وأداء ولهجات إلى آخره..)، مما أعطى تنوعاً وجاذبية للعرض ووضوحاً للمعاني والدروس المستفادة.
- تجسيد الشخصية المحورية للقصة وأهم الشخصيات التي عاصرت في زمانه.
- تقديم أغنية إفتتاحية تحدد هوية التجربة المسرحية، وأهميتها بالنسبة لطالب اليوم الذي يحتاج للصورة المجسدة الدرامية أكثر من الوسيلة التلقينية السمعية التقليدية "المعلمة: طب ياللى معايا ياللى مع بعض هانكتشف إن كنتوا صحيح ضحايا ولا هانختلف.. مع بعض هانكتشف، فيجب التلاميذ: أكيد هانختلف..". كما لخص أهداف المسرحية/القصة من دراسة شخصية علي مبارك في الحوار النهائي للأب مع الأم بعدما سألتهم الابنة عن عدم مشاركته في ثورة عرابي على الرغم من طبيعته الثورية التمردية منذ البداية، والتي أجاب عنها الأب ليزيل اللبس عند المتلقي/التلميذ بأنه كان مع عرابي وثورته، ولكنه لم يكن يرضى باستخدام السلاح والقوة، ويميل لإستخدام الإصلاح والعلم للثورة والنماء، وهو وسيلة أخرى للتغيير بعيداً عن المفهوم التقليدي للثورة.
- استخدام تقنية الفلاش باك، والانتقال في الزمان والمكان.

ثالثاً: القضايا التي تعرضت لها المعالجة الأدبية:

اهتم النص المسرحي بنقطتين مهمتين، هما:

- ١- التأكيد على طبيعة علي مبارك التمردية الطامحة في العلم، مع التأكيد على الأسماء والتواريخ والشخصيات والأحداث التي مرت بحياة علي مبارك دون الشرح المطول أو التفرع بالحديث عن الحياة السياسية أو الشخصيات الأخرى، التي عاصرها من حكام أو ولاية أو معلمين.
- ٢- تبلورت القضية المحورية بالقصة وبشخصية علي مبارك خاصة بالعرض

المسرحي حول انتمائه الوطني الذي اتخذ المسار الإصلاحي عن المسار الثوري الانتقاضي، الذي اتخذه أحمد عرابي بعصره، متكاً على طبيعته التي تمردت على الجهل والظلم، ورأت أنه لا خلاص منه بالثورة العنيفة عليه، بل سيتم الخلاص منه بالعقل والحيلة والعلم والتقدم حتى يتسنى للضعيف أن يكون له مكانة ووضعاً يسمح له بالندية مع المستعمر الظالم، سواء أكان هذا المستعمر ينطق العربية ومسلم كالمستعمر التركي، أو من ديانة وثقافة ولغة أخرى كالمستعمر الإنجليزي الأوروبي بمصر، وهو ذاته ما فطن له غاندي في محاربته للإنجليز في بلاده، وغيره الكثير، فبالعلم والعقل نستطيع أن نواجه العدو ونتغلب عليه، وهو ما أكدته رسالة أغنية النهاية للمسرحية "وأدينا شقنا بالعلم تبقى عششنا قصور...وانتم كمان أوعاكوا تناموا..واوعوا تبلطوا في الخط.. الى يتعب لازم يلقي ممكن يصنع أكبر مجد".

رابعاً: مراحل معالجة النص القصصي التعليمي بالتناول المسرحي:

قام مخرج العرض باسم قناوي بإمضاء عقد تعامله مع وزارة التربية والتعليم بمتابعة وإخراج قصة "علي مبارك" المقررة على الصف السادس بالمرحلة الابتدائية بوزارة التربية والتعليم المصرية، فقام بتطبيق الخطوات العلمية الممنهجة التي وضعتها الوزارة، وبرؤية ومتابعة التجربة، وخطواتها، وطريقة التنفيذ مع فريق العمل، ومراجعة الاستبانة، تبلورت خطوات التجربة بالآتي:

أولاً: مرحلة صياغة النص المسرحي، وتنقسم إلى خطوتين هما: الأولى: إعداد القصة التاريخية وتحويلها إلى نص درامي يصلح للعرض على المسرح من خلال دراماتورج محترف "ياسر أبو العينين"، الذي استطاع تحويل النص السردي الصامت إلى حالة درامية وفق الطرح الدرامي الأرسطي بشكل مشاهد درامية مؤداة، مع مراجعة كلمات الأغاني التي قدمت ببداية ونهاية المسرحية، التي أكدت على هوية التجربة ومكانة العلم وأهميته للإنسان، وفائدته، والأغاني التي تخللت العرض المسرحي لتجسيد الحالة الدرامية النفسية والوجدانية لشخصية القصة.

والثانية: مراجعة ما تم إعداده وصياغته وضبطه من الناحية العلمية والتربوية حتى التأكد التام من صحة المعلومات التي ستوجه للطالب، والهدف المرام تحقيقه منها، ويقوم بذلك أستاذ متخصص من الوزارة لهذا المقرر.

ثانيًا: مرحلة التنفيذ والتخطيط، وفيها تتم الخطوات الآتية:

- ١- تحديد الشخصيات الدرامية، وتكوين فريق العمل من الفنانين والفنيين والاتفاق المالي والفني معهم.
- ٢- تحديد مكان البروفات، ومكان العرض.
- ٣- بداية عمل بروفات المنضدة لقراءة وشرح ما يُراد إيصاله من تلك التجربة ومدى خصوصيتها، وتجهيز الممثلين أداءً لذلك.
- ٤- تكوين فريق من الفنيين من [مصمم الديكور ومساعديه، والملابس، المكياج وغيرهم من الفنيين الذين يساعدون المخرج في إخراج صورة المسرحية النهائية بشكل سليم وصحيح].
- ٥- عمل بروفات رسم خطوط الحركة والأداء للممثلين على المسرح.
- ٦- تسجيل صوتي أدائي للشخصيات على أسطوانة مدمجة (CD)، حتى لا تترك فرصة لارتجال الممثلين، لضمان دقة المعلومة المقدمة، وعدم الخروج عن النص [٥٠].
- ٧- البروفات النهائية بالملابس والحركة وخطة الإضاءة والاكسسوار لاكتشاف النواقص من العملية الفنية التنفيذية للمسرحية، وإتمامها لتأهيل المسرحية للعرض على الطلاب.
- ٨- تحديد أيام العرض على مسارح الدولة والمدارس وفق خطة زمنية مقترحة للتنفيذ بالاتفاق بين الوزارتين [٥١].

ثالثًا: مرحلة التقييم، وهي تتم بعد العرض مباشرة، إذ يتم تحليلها وطرح مناقشة علنية بين المسرح والطلاب بالصالة من خلال استبيان أو طرح مجموعة أسئلة تخضع للخطأ والصواب، وجمعها من الطلاب، واستبيان مدى نسبة استيعاب الطلاب لمعلومات المقرر المطروحة بالعرض، ووسيلة التوصيل كما في الشكليات

(٩، ١٠) [٥٢].

ففي النص القصصي الدراسي انتهى كل فصل بالكلمات والمصطلحات الجديدة على التلميذ، وأسئلة عن كل فصل، مما يصعب معها تذكر الأحداث من فصل لفصل، بينما تخلل العرض على لسان شخصية الطفلة أسئلة جوهريّة تمثل مناطق لبس وغموض وصعوبة تذكر لدى التلميذ، ولكن التجربة طرحت نموذج أسئلة بها أسئلة تخص المنهج بعد العرض المسرحي، أي: بعد الانتهاء من القصة تماماً، وليس في نهاية كل فصل أو مشهد، مما يسر على التلاميذ الاسترسال في تتبع أحداث القصة كعمل مكتمل وحدة واحدة.

رابعاً: مرحلة التقويم، وفيها يتم الانتباه للمناطق والمعلومات التي كان لدى الطالب لبس فيها، أو لم يتم استيعابها بشكل جيد، حتى يتم التأكيد عليها وإيضاحها، من خلال وسيطين، هما: (شخصية التلميذة الممثلة الصغيرة التي مثلت مكان التلاميذ الأنبيين فحلت محلهم في الإجابة والسؤال لذكر المعلومات، والتأكيد عليها بشكل مباشر واضح مكثف)، و(الاستبانة التي تم توزيعها على التلاميذ الحضور، ونتائجها، تلك الاستبانة التي قامت أسئلتها حول القصة وشخصيتها المحورية، وخضوع الإجابة بها للصواب والخطأ، وقد تم توزيعها قبل وبعد العرض المسرحي، لاستخلاص مدى قوة تأثير تلك الطريقة في هذه التجربة التربوية الدرامية عن الطرق التعليمية التقليدية في الوصول للمعلومة وخلاصتها)، والتي جاءت بنسب تفوق المتوقع في الاستيعاب والتذكر والفهم، مما شجع الدولة في العام التالي على استكمال المرحلة الثانية من اتفاقية الوزارات الثلاث، سابقة الذكر.

معدل النسبة النهائية الناتجة عن استيعاب القصة قبل العرض وبعد العرض، كان الآتي:

م	اسم الدرس	اسم المدرسة أو المحافظة أو المدينة	النتيجة التحصيلية بمسرحية القصة	النسبة المئوية	النتيجة التحصيلية بالطريقة التقليدية	النسبة المئوية
---	-----------	------------------------------------	---------------------------------	----------------	--------------------------------------	----------------

					المسرح	
١	قصة الصف التاسع بالمرحلة الأساسية (الإعدادية)	مسرح المتروبول (عبد المنعم مديولى)	القاهرة	٥١٠ طالب من اجمالي ٥٦٧	%٨٩.٩٤	١١٢ طالب من اجمالي ٥٦٧ %١٩.٧٥
٢		مسرح قصر ثقافة الصالحية الجديدة	الشرقية	٣٣٥ طالب من اجمالي ٣٩٠	%٨٥.٨٩	٦٤ طالب من اجمالي ٣٩٠ %١٦.٤١
٣		نادى الرواد بالعاشر من رمضان		مدينة العاشر من رمضان	١٨٠ طالب من اجمالي ١٨٧	%٩٢.٢٥

فقد تم عرض المسرحية على الكثير من مساح المدارس والمناطق التعليمية وقصور الثقافة منهم (مسرح المتروبول، نادى الرواد بالعاشر من رمضان، قصر ثقافة الصالحية الجديدة، وطنطا، والاسماعيلية، وجنوب سيناء، كما في الأشكال رقم (٩، ١٠، ١١). كما عرض بالمعهد القومى لأورام الاطفال بالقاهرة والذي لم يهتم فيها بتقديم المعلومة قدر الاهتمام بتقديم المتعة والترفيه عن هؤلاء الاطفال المرضى مع المعلومة الطموحة لشخصية على مبارك الذى استطاع رغم الفقر وحالة البلاد أن يتولى مكانة عليا ويسبح رائد التعليم الحديث ونهضته بمصر الحديثة، مما يعطى الامل للطفل المريض الذى يواجه ويلات هذا المرض الفتاك، معطياً المثل والقُدوة.

وبمراجعة الاستبانة التقييمية وُجد أن المستوى التحصيلي والاستيعابي لأعداد الطلاب أكبر من الاتجاه الفردي الابتكاري وفق ما أتت به الاستبانة، كما استطاع هذا البرتوكول أن يضمن مقررًا كاملاً للتقديم وفق النموذج، وليس دراساً واحداً محدداً بالمقرر الواحد.

وبمراجعة نسب الاستبانة بتلك العينة وجد أنَّ استيعاب الطلاب وقدرتهم التحصيلية قد زاد بمعدل ٨٩٪ عن معدل الاستيعاب والإدراك والتحصيل بالطرق التقليدية، التي يعاني فيها الطالب من صعوبة التذكر للأحداث والتواريخ وأسماء بعض الشخصيات ذات الصلة بالشخصية المحورية، والظرف السياسي التي كانت تحيا فيه، ولكن بعدما رأى الطالب المعلومة ممثلة أمامه، أصبح قادراً على التحليل والشرح وتحديد عناصر القوة والضعف، وتذكر التواريخ والأحداث والظرف البيئي والاقتصادي والسياسي، وعلاقات الشخصيات التاريخية ببعضها؛ لأنه تلقاها كمسرحية درامية مرئية آنية، ومن خلالها تم تصحيح بعض المعلومات التي أتى ذكرها بكتاب الوزارة، ولم يتم تعديلها بعد الطبع، أو توضيح ما غفل عنه النص القصصي السردى واتضح بالأداء التمثيلي، لذا عُدت تلك الطريقة التي أشرفت عليها الدولة حلاً قوياً للتأثير وعميق الأثر وطويل المدى الاستيعابي للمقرر، وعلى الرغم من أنه لا يُزيد من مهارات الطالب الأدائية كالمسرح المدرسي، ومسرحة الدرس في الاتجاه الفردي، لأنه ليس طرفاً تنفيذاً في تلك التجربة؛ بل يلعب دور المتلقي، إلا أنَّ دور مسرحة المنهج أدت رسالتها في تصحيح، وضبط العملية التعليمية والاتصالية والارسالية بطريقة فنية درامية محققة نسب تحصيلية أعلى بالمجموعات التجريبية عن المجموعات الضابطة (التقليدية).

* * *

وقد قدمت هذه المسرحية بإبريل عام ٢٠١٤م بشكل احترافي للطلاب قائماً على الثقافة التشاركية بين مهارات وقدرات الفنانين المقدمين للعرض، وقدرة واستيعاب وتفهم الطالب للمسرحية المُقدمة، ومتابعة ومراجعة الأساتذة التربويين المتخصصين، وبهذا قُدم عملاً مسرحياً لكافة المدارس بتلك المرحلة الأساسية

كمحاولة من مثلث الوزارات الثلاث (التربية والتعليم، والثقافة، والمالية) للخلاص من الفجوة التشاركية بين الوزارات وبعضها، وبين مستوى تلقي الطلاب بكافة محافظات مصر، إذ لم يتوقف تقديم العرض على القاهرة الكبرى/العاصمة فقط؛ بل إمتد إلى بعض المحافظات في شرق وجنوب مصر، الذين يعانون من الفجوة التشاركية بينهم وبين سكان العاصمة في شمال البلاد، حيث قدمت في البداية ٢٠١٤م بنادي الرواد بالعاشر من رمضان والذي لم يحتو على مسرح، ولكن تم إقامة فراشة في مكان مفتوح وصلت حجمها الاستيعابي إلى عدد ٥٠٠ مقعد تقريباً، وقد شهد إقبالاً كبيراً، ولأسيماً عندما علم الجمهور بأن من يقومون بالعرض من فناني المسرح والتلفزيون (الفنانة عزة لبيب والفنان أشرف طلبة، وغيرهما)، ثم تلاها عدد ٢٠ حفلة على مسرح المتروبول/عبد المنعم مدبولي بوسط القاهرة، والذي يبلغ سعته حوالى ٢٥٠ مقعد بصالة العرض، ثم تجول العرض بين مدرسة الصالحية الجديدة ذات المسرح الصغير والإمكانات المكانية المحدودة، التي لم تستطع أن تشمل كافة الديكورات المخصصة للعرض، بينما فتحت مسارح قصور الثقافة بطنطا والإسماعيلية وجنوب سيناء، إذ تم العرض عليها لأهالي تلك المناطق من جمهورية مصر العربية، وفي جميع العروض كان الجمهور المستهدف من طلبة الصف السادس من التعليم الأساسي بموجهينهم التربويين والمشرفين من المديرية التعليمية والمدارس، بينما لم يتخط العرض كونه عرضاً ترفيهياً فقط عندما تم عرضه لأطفال مستشفى الأورام لقسم الأطفال بالقصر العيني، إذ انتفت طبيعة الجمهور المستهدفة، ولم يتم توزيع الأسئلة أو الاستبانة التي كانت توزع على طلاب المدارس في الأماكن سابقة الذكر قبلاً.

وبذلك بدأ عصر التعليم التفاعلي، إذ تم تصوير تلك المقررات المُسرحية، وبدأ إنزالها على وسائل الميديا المختلفة، ولأسيماً على مواقع التواصل الاجتماعي، وإتاحة الفرصة للطلاب لرؤية تلك العروض وقتما يشاء، وبشكل مستمر حسب حاجته، مع إمكانية إبداء رأيه وملاحظاته عليها أيضاً بغرض التعديل والتحسين والتطوير. وهو ما حدث بالنص، إذ تم دراسة النص التعليمي فوجد الدراماتورجي ياسر أبو العينين موضعين من القصة غير مبررين للطلاب المستقصر، وهما من المفارقات الدرامية غير المستحبة، وهما:

• **الموضع الأول:** عندما أشار النص التعليمي إلى أن والد علي مبارك لم ينبجب إلا البنات وكان تواقاً لإنجاب الذكر، بينما في سياق الأحداث جاء ذكر فرار علي من بيت أبيه إلى أخيه الأكبر، ولم يقدم النص القصصي الدراسي أيّ تحليل لتلك المعلومة المقحمة، وعندما بحث الدراماتورجي المسرحي عن مصادر أخرى لإيجاد سبب وجود هذا الأخ الأكبر، الذي لم يُشر له النص القصصي التعليمي، لم يجد له مصدراً محدداً^[٥٣]؛ مما جعله يقدم إجابة منطقية قائمة على طبيعة المجتمع المصري حينها، على لسان شخصية الطفلة المتسائلة عن كيفية وجود أخ أكبر لعلّي، في حين أن القصة تذكر أن والده لم ينبجب إلا البنات، فمن أين يكون قد أتت شخصية الأخ الأكبر، فيجب الدراماتورجي على لسان علي مبارك والرواية بأنه أخيه من زوجة أخرى، بينما أمه لم تأت إلا بالبنات، وبهذا أقام جسراً مبرراً بين ما قدمه النص القصصي، وما قدمه النص الدرامي، وقد تم تنبيه الموجهين لهذه الفجوة المعلوماتية حتى يتم ضبطها في الطباعات التالية للوزارة، وهو ما تم بالعالم التالي فعلياً بالنسخ الحديثة للقصة. (من دلائل التقويم).

• **الموضع الثاني:** ذكر هروب الطفل علي مبارك من بيت أبيه، والإشارة إلى حالته التمردية على قرارات أبيه والانصياع لأوامره للتعلم، تلك الحادثة التي قد تترك أثراً عكسياً في نفسية وذهنية الطفل ذو الحادية والثانية عشر، ممّا وضع الدراماتورجي موضع حيرة من ذكر تلك المعلومة، وطريقة عرضها دون أن يجعل التلميذ يتأثر بتصرفات علي مبارك التمردية من باب التمرد وليس الإصلاح، ولاسيما أنه النموذج الذي تعرضه الوزارة عليه كمثال للعلم والعلماء، لذا فلقد لفت العرض وصناعه من محترفي المسرح موجهي التربية والتعليم ومدرسي اللغة العربية إلى تلك الحادثة، وهذه الزاوية لتلافي إنمائها في نفسية وعقلية التلميذ بذكر أن هذا التصرف غير سليم، فسرعان ما عدل عنه واستجاب له الوالد لإحتواء ابنه، وقد ذكرته شخصية علي مبارك على المسرح للطلاب معقبة على تصرفاته بأنه كان صغيراً، ولا يعي كل ما يفعل وما هو المفيد له، ولا يجوز له أن يفعل ذلك، حتى لا يقلده طالب الصف السادس، ويهرب من منزله إذا لم يستجب له الوالدين في أمر ما استحبه

اقتداءً بعلي مبارك.

من إيجابيات هذه الوسيلة عن الوسيلة الأولى الآتي:

- ١- لها ميزانية محددة من الدولة.
- ٢- خضوع المسرحية المقدمة لرقابة وتوجيه ومتابعة وزارة التربية والتعليم، وبالتالي تحددت وانضبطت النصيحة السلوكية والمعلومة العلمية المقدمة، وتوطدت الانتماءات التي تبنتها الدولة.
- ٣- اعتماد المسرحيات على جهود الدولة ومسئوليتها، والشخصيات المدربة المحترفة.
- ٤- مراجعة المعلومات المقدمة من قبل الوزارة والتأكد من صحتها ومراعاة دقتها.
- ٥- استخدام فناء المدارس ومسارحها ومسارح المنطقة التعليمية والمحافظات ومسارح البيت الفني بوزارة الثقافة.
- ٦- تقديم العروض لكافة المدارس ذات المرحلة العمرية الموجه لها العمل بأنحاء الجمهورية بشكل جماعي علني، للتأكيد على المادة العلمية والجانب التربوي والوجداني الوطني لدى الطالب.

* * * * *

الخاتمة والتوصيات

من خلال الرصد والتوثيق والدراسة الوصفية التحليلية، والنموذج الاستقصائي الذي تم توزيعه على الفئات المستهدفة المباشرة وغير المباشرة بالعينة الثانية والثالثة بالدراسة، وهم: (الفئات المباشرة "الطلاب، والمعلمون"، والفئات غير المباشرة "الأهالي")، وجدنا أنه الوسيلة المثلى الأنوية الحميمة التي تختلط بالطالب سواء عن طريق التفاعل التشاركي بمجهوده مع الأستاذ أو التفاعل التشاركي بالتلقي والتحليل والمناقشة والتقييم والتقويم، فهي أكثر الطرق الحديثة تفاعلاً وتأثيراً على نفسية الطالب، وإيضاحاً وتوصيلاً ونفاذاً لعملية التعلم والمعرفة للمعلومات والدروس المنهجية التي كان يُصعب على الطالب إدراكها

بشكل نظري تلقيني سمعي أو بصري محدود، دون حركة أو دراما تستفز وتحث مخيلته وملكاته. فلقد كان لتلك الوسيلة دورها الفعال وما يزال حتى الآن، وقد جاءت إجابات العينات الـ (٣٨٨) من إجمالي (٥٠٠) فرد بنسبة ٧٧.٦٪، عدت فيه المسرح وسيلة إعلامية تربوية مهمة وحديثة؛ لأنه مرتبطة بالواقع ومعبرة عنه، كما عُدَّت وسيلة تربوية أعلى من الحصة المدرسية، والدرس التعليمي وفق نتائج الاستقصاء التي وصلت إلى نسبة تراوحت من ٨٩٪: ٩٣٪، معتمدة تلك النتائج على أنه وسيلة ترفيهية تجذب النفس وتثير الحواس وتُشغل الملكات التخيلية، وتنمي مواهب الطالب، إذ يعد المسرح صورة متحركة أكثر ثباتاً في الذاكرة، وذلك اعتماداً على كونها وسيلة حل لمشكلة التلقي في القاعة التدريسية، التي تضم عدداً كبيراً من الطلاب، كما تتيح تلك الوسيلة مساحة للتشارك بين (الطلبة والمؤدبين، الطلبة والأساتذة المعلمين، الطلبة وبعضهم).

وعلى الرغم من مكانة وتأثير تلك الوسيلة فقد أظهرت نتائج الاستقصاء أنَّ السبب الأساس وراء عدم انتشارها، وإعتمادها وسيلة تربوية وتعليمية مهمة في جميع المراحل، وطرق التعليم؛ لأنها وسيلة تحتاج لمتخصصين للتدريب والتفذية، وتحتاج إلى وقت وجهد كبيرين للإعداد والترتيب والضبط والتقديم أكثر من باقي الوسائل التعليمية الإعلامية، التي لا تحتاج لطلاب أو ممثلين محترفين قدر احتياجها لمدرّب متخصص واعي لطبيعة تلك الوسيلة، وطبيعة المكان والطلاب، ومعظم المعلمين وأساتذة الجامعة غير مدربين على استخدام تلك الوسيلة في الإرسال والتلقي.

وعلى الرغم من تنوع مسرحية المناهج بين الإتجاه الفردي الإبتكاري والجمعي النموذج؛ إلا أنَّ الإتجاه الجمعي كان الأقرب للرسالة العلمية وتحقيق الأهداف المرجوة، ولم يشبهه إلا كونه اعتمد على الممثلين المحترفين دون التلميذ، الذي اعتمد عليه الإتجاه الفردي الإبتكاري؛ ولكن على الرغم من ذلك لا نجد من التجربة الفعلية التطبيقية للإتجاه الأول، إلا عدداً بسيطاً من الطلاب المتدربين المستفيدين من التجربة الأدائية المسرحية، والتي لا تتعدى نسبتهم بالنسبة لإجمالي الطلاب التلقينيين ١٪ بحدٍ أقصى، لذا يعد الإتجاه الجمعي لمسرحية المناهج التعليمية وفق أسلوب النموذج هو الأقرب والأجح لتوصيل الرسالة،

وتوفير كل متطلبات الرسالة العلمية، وتوصيلها لأكبر عدد ممكن من الطلاب، ولكن يمكن تطويرها بإعداد التلاميذ للقيام بالعملية الأدائية من خلال إدخال مادة تأهيلية في كل صف دراسي من الصف الأول الابتدائي لتجهيز وتدريب مهارات الطالب الأدائية، وتطوير وتحسين المقررات المختصة بالأنشطة والألعاب الموجودة فعلياً -مرفق (١) مقترح تصوري لذلك، لتمكين الطالب من الأداء المسرحي فيما بعد، والحلول محل الممثلين المحترفين، وبذلك تتطور مهاراتهم الإبتكارية، وتتمكن الوزارة من تغطية كافة المقررات بدورها بهذه الهيكلية، مع إشراك أعداد أكبر من الطلاب لكل مقرر.

* * * * *

وقد تغلبت إدارات الشباب بالمنطقة التعليمية، بشمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، بجهود بعض الأساتذة والإداريين بعمل مسرح مدرسي صيفي حيث يتاح الوقت للطالب والأساتذة أو الموجه لذلك، ولكن ظلت الإمكانيات المادية ضعيفة على الرغم من المجهود البشري الكبير الذي بُذل في هذا السياق، ولذلك يعد تدخل وزارة الثقافة مع وزارة المالية حلاً جذرياً لتلك المشكلة. وإن كان لها بعض السلبات التي تم تداركها في المرحلة الثانية للبرتوكول، وظل بعضها الآخر قيد التنفيذ، منها:

١- القيود البيروقراطية التي تعمل على تعطيل خطط العمل الموافق عليها من المسؤولين.

٢- الاهتمام بحصص الأنشطة المكملة للنشاط المسرحي كحصول التربية الفنية والموسيقي والغناء والكورال والرسم والإذاعة الصباحية، والإلقاء... وغيرها.

هذا المشروع استطاع أن يحرر مخيلة الطالب -أيًا كان عمره- من التجرد والكلاسيكية إلى الانفتاح والحيوية، وحثهم وتشجيعهم على المذاكرة واستذكار المعلومة بعد رؤيتها مجسدة من الكتاب المدرسي بنهم وفهم جعله مستريح ويقظ، كما حمسه للمشاركة الايجابية وتنمية مواهبه ليكون أحد أطراف تلك التجربة للاستمتاع بها، وهي بذلك تربط بينه وبين زملائه، وتخرجه من بوتقة الوحدة

التكنولوجية، والعزلة الانترنيتية التي بدأت في التقشي بين طلاب المدارس التي تميزت بجنوح الطالب إلى مجالسة الانترنت عن مجالسة أقرانه وممارسة الأنشطة، ممّا يُنتج شخصية انطوائية انعزالية، ولم تتحدد التجربة عند التلميذ، بل تخطته للأهالي الذين صار بالنسبة إليهم تذكّره لأحداث القصة أكثر وضوحاً وتفهماً واستيعاباً بشكل سهل معه مهمتهم في المراجعات النهائية للقصة، ولذلك فوسيلة المسرح جعلته، وجعلت التلميذ يستشعر جماليات الممارسات التشاركية النفاغلية مع زملائه، وأهله، وبهذا يكون لدينا فيما بعد جيلاً مفعماً بالحوية والنشاط والحماس، له حلم وطموح وذكريات تربط بينه وبين وطنه وأقرانه وتراثه، وتجعله قادراً على قراءة تغييرات العالم ونظرتهم له، لأنّه سيكون على وعي تام بحقيقته الحضارية وحقيقة الآخر مما يحميه من الانسياق وراء المزيف والكاذب، ويوطد هويته وانتماءاته.

التوصيات:

١. اضافة مقررات تسهم في تطوير مهارات الطالب الأدائية بشكل تدريجي تراكمي (مرفق ١ بالدراسة).
٢. توفير ميزانيات لإقامة عدد أكبر من مسرحيات المراحل بسنواتها.
٣. العمل على العروض بفترة الإجازة الصيفية لإعدادها وتجهيزها قبل الفصل الدراسي.
٤. تدريب الطلاب الصيفية على الدروس المختلفة والمقررات المتعددة للأعوام التالية أو التي كان بها الطالب ممّا يتيح فرص متنوعة لعدد كبير من الطلاب للمشاركة الفعالة والإيجابية في تقديم أحد الدروس أو المقررات لزملائه، وبالتالي يستفد أكبر عدد من الطلاب بتدريب مهارتهم الأدائية الصوتية والحركية، مع الاستغناء عن ممثلي البيت الفني للمسرح، قدر المستطاع.
٥. تقديم العروض مع بدء العام الدراسي وليس في نهايته ليتسنى لكل الطلاب والمهتمين مشاهدة العروض أكثر من مرة، لإدراك ما يمكن أن يمر دون اكتراث في المشاهدة الأولى.
٦. تنوع المخرجين كل عام لتقديم روحية جديدة وتقنيات مختلفة في التقديم تثير

- الطالب/المتلقي، وتجذبه لتقبل وتفهم والاستمتاع بالعمل الفني التربوي المقدم.
٧. إلغاء الفجوة التشاركية بين الطلاب والعمل الفني التربوي المقدم، وتصحيح المعلومات المغلوطة، إن وجدت، وترسيخ الصحيح منها في ذهن الطالب، مثل ما قام به معد مسرحية "علي مبارك" من تعديل معلومة ما كانت مغلوطة -خطأ كمبيوترى على سبيل المثال- ولا ضير في ذلك طالما كان في مصلحة الطالب، وهذه هي الثقافة التشاركية.
٨. إدخال الموضوعات والتقنيات الرقمية الحديثة في العرض المسرحي والوسائل التربوية بشكل أساسي وليس بشكل ترفيهي مترف لا يمكن الاستغناء عنه.
٩. تعديل المناهج بالشكل الذي يتناسب مع إدخال مصادر معلوماتية ترتبط بمحتوى المناهج ونشاطات التعليم، وإمكانية التطبيق والتحويل إلى شكل وقالب مسرحي يسهل محاكاته.
١٠. تقديم الدعم الفني والتقني للمعلمين بالتعاون مع الجهاز الفني لإتمام تلك العملية، وتكرارها واستمرارها بشكل متطور بغرض تطور المعلم، وإشراكه في هذه العملية لتدريبه عليها وتحسين أدواته، وتحقيق حالة الرضا الوجداني والعلمي لديه ولدى الطالب.
١١. الاستعانة بالكتاب والنقاد من كليات الآداب وأكاديمية الفنون للعمل على النصوص والقصص التربوية لتحويلها لشكل مسرحي تربوي بالتعاون مع المعلمين، وتحت رعاية وزارة التربية والتعليم.
١٢. انتهاز أسلوب التعليم الإعلامي التشاركي عن الإعلام التفاعلي، لأنه يتيح فرصة لتفاعل الطلاب بين بعضهم البعض بشكل يستطيعون من خلاله تبادل المعلومات، وبذلك تتسع مداركهم وقاعدة معلوماتهم الثقافية.

* * * * *

مرفق (١):

وعلى الرغم مما تحاول الدولة ووزارة التربية والتعليم أن تطوره من مناهج، لكن يظل الشق الإبداعي والابتكاري والتدريبي المهاري غير كامل، وغير واضح

الملاح، فعلى الرغم من وجود مقررات مثل حصص الألعاب وحصة الرسم وحصص الأنشطة، إلا أنها لا تخضع لمنهجية تحدد ماهية تلك الدروس، مثل توصيف محدد لكل مقرر، بما في ذلك حصص الألعاب التي تحدد مسبقاً نوع التدريبات والتمرينات الجسدية، التي يقوم بها التلميذ منذ الصف الأول الدراسي حتى الصف الثاني عشر دون أن يخضع لرغبة الطالب، التي لا تستطيع تحديد الفرق بين ما يحتاجه وما يريده، فليس كل ما يريده وما لا يريده يخضع للصواب والخطأ، لكنه في حاجة لاكتشاف وإنماء قدراته المهارية والابتكارية من خلال توصيف مقررات الألعاب، وتحديد التدريبات ونوعيتها التي تحسن من أدائه الصوتي والحركي والعصبي عضلي وغيرهم، بينما يهتم مقرر الرسم بتدريب الطالب على الخطوات الأساسية على أسس التصميم، واستخدام الخطوط بأشكالها، وعلاقاتها ببعضها مع النقطة والفراغ، لإكسابه المهارات الابتكارية البصرية، والذهنية للتشكيل وإعادة، مع تعليم الخطوط الأساسية لرسم المنظور الحر والپورتزية ومقاييسه، أما ما يخص باقى الدروس من **حصص الأنشطة** الأخرى لا يُترك للتلميذ الاختيار بين **الموسيقى والمطالعة** وغيرهما؛ بل يتلقاها كمواد إجبارية دون درجات تنقص من مجموعه الكلى، حتى يتسنى له الاقبال عليها وممارستها بأريحية ليكتسب المهارات السمعية والحسية والذوقية والوجدانية.

فيتعلم في المرحلة الابتدائية من الصف الأول حتى الرابع أساسيات **الموسيقى والرسم والحركة**، في حين يبدأ في الصف الخامس والسادس بتطوير مهاراته الصوتية في **الغناء، والشعر المنعم**، وبداية تعلم كيفية **إلقاء الشعر**، والفرق بينه وبين الخطبة، بينما يتطور الأمر في الصف السابع والثامن ليتعلم **طرق الأداء الكلاسيكية** المعتمدة على الصوت، والتطبيق على أحد النصوص الكلاسيكية الفرعونية أو اليونانية القديمة، في شكل **مشاهد**، بينما يتم التطبيق بطرق واقعية في الصف التاسع على أحد نصوص الدروس مع التعرف على المسرح الإنجليزي، في حين يدرس في الصف العاشر أحد نصوص المسرح الإيطالي والتعرف على شكل الأوبرا والأوبريت والتطبيق على أحد نصوص المقررات الدراسية، أمّا في الصف الحادي عشر يتعرف على الارتجال والكوميديا دلارتي والفارس ومسرح مولير وألفريد جاري، مع تقديم أحد دروسه بهذه الهيئة، في حين

يتعرف في الصف الثاني عشر على أشكال أخرى من المسرح الحديثة التجريبية من المسرح الفقير ومسرح مايير هول، ويؤدي الطلاب مشاهد تخضع لهذه المناهج الأدائية، مطبقين على نصوص درامية أو دروس تعليمية أو كليهما. بالاستعانة من خريجي وأساتذة المعهد العالي للفنون المسرحية وأكاديمية الفنون، وأقسام المسرح بكليات الآداب.

وبهذا يكون الطالب قد درب ملكاته بالتطبيق، وعرف وتعلم بالمعلومة النظرية، وتلاقح فكرياً واستذكر دروسه بالعرض والنقد بينه وبين زملائه لباقي الدروس وفق خطة تضعها الوزارة للدروس والمقررات المراد تحويلها في شكل مشاهد تطبيقية للفرق التالية لتلاميذ المرحلة أو الصف.

* * * * *

الهوامش:

١. محمد عبد الله محمد النصر، أثر التدريس باستخدام الدراما وفق منحنى مسرحية المناهج لمادة قواعد اللغة العربية في التحصيل الدراسي وتنمية مهاراتي الاستماع والتحدث لدى تلاميذ الصف السادس الابتدائي في مدينة القطيف في المملكة العربية السعودية، مجلة دار المنظومة للرواد في قواعد المعلومات العربية، عمان، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم التربوية، قسم مناهج وطرق تدريس، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨م.
٢. أد. هناء محمد جمال الدين، ود. رامي زكي إسكندر، وأ. أشرف الشحات رضوان محمد موافي، استخدام أسلوب مسرحية المناهج الدراسية في تنمية التحصيل الدراسي والتفكير الابتكاري في مادة العلوم لدى تلاميذ الحلقة الابتدائية، الجمعية العربية لتكنولوجيا التربية، ٢٩٤، جزء ٢، أكتوبر ٢٠١٦م.
٣. بدر بن سيف بن أحمد النبهاني، مسرحية المناهج في مدارس السلطنة الواقع والتحديات، مدرسة الإمام جابر بن زيد، مجلة التطوير التربوي، وزارة التربية والتعليم، س ١٠، ٦٩٤، ٢٠١٢-٣، ص ٤٤-٤٧.
٤. عبد الله بن سعيد الفارسي، قيمة مسرحية المناهج وأهميتها للمعلم، مجلة التطوير التربوي، وزارة التربية والتعليم، العدد ٦٩، مارس ٢٠١٢م، ص ٣٤-٣٩.
٥. رائد محمد، أثر استخدام المسرح في التدريس لبعض موضوعات النحو العربي على التحصيل الدراسي لطلاب الصف الثامن الأساسي، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩م.

٦. ثناء عبد المنعم رجب، أثر وحدة مقترحة في القصص الدينية على تنمية مهارات التفكير الأساسية لدى تلاميذ الصف الخامس الابتدائي، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، العدد (١٩)، كلية التربية، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢م.
 ٧. حنان عبد الحميد العناني، الفن والدراما والموسيقى في تعليم الطفل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٢م.
 ٨. زينب محمد عبد المنعم أبو الفتوح، فاعلية استخدام الدراما الاجتماعية كمدخل في إكساب طفل الروضة تصوراً سليماً لذاته وللزمن والبيئة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية البنات، قسم رياض الأطفال، ٢٠٠٥م.
 ٩. أحمد حسين اللقاني، علي الجمل، معجم المصطلحات التربوية والمعرفة، القاهرة، عالم الكتب ١٩٩٦، ص ١٤٨.
 ١٠. محمد عبد الله محمد النصر، السابق. عن كمال الدين حسين، ملاحظات حول المسرح التعليمي وتعريفه وأهدافه، تحقيقه، مطبعة العمرانية، الجيزة، القاهرة. ٢٠٠٠، ص ١٥.
- http://nyara4.hostkda.com/new_page_8.htm?i=1
- يمكن الاستزادة بمشاهدة:

<https://www.youtube.com/watch?v=yD1mjoCTln4>
<http://ilp.unrwa.ps/downloadActiv.aspx#activities>

١. وترجع التسمية إلى جينكينز وهنري، ٢٠٠٦م.
- Jenkins, Henry(2006). "Convergence Culture: Where Old and New Media Collide": New York University.

للاستزادة:

Rheingold, Howard(٢٠٠٧). Using Participatory Media and Public Voice to Encourage Civic Engagement.

Bowman, S., Willis, C(٢٠٠٣) "We Media: How Audiences are Shaping the Future of News and Information". The Media Center at the American Press Institute.

2. <http://volontariatacj.over-blog.com/article-49049582.htm>

3. <http://www.pidegypt.org/download/Local-election/.pdf>.

٤. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م، ص ١٢٧.

www.saudimediaeducation.org/index.php?option=com

٥. بدر بن أحمد كريم، السابق.

6. Givkivq, 2006.p. 19

للاستزادة: محمد عبد الحميد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، طبعة ١، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٧م، ص ٢١.

7.Freed,2003,CML,2003,Wilimedia,2006,Jinkins.2006,et.,al.,p19.

٨. ورقة بحثية لد. شريف درويش اللبان، المواجهة المحتملة: التربية الإعلامية في مواجهة غزو العقول في العصر الرقمي، بالمؤتمر السنوي الرابع لجامعة الأهرام الكندية بالتعاون مع اليونسكو والمنظمة الدولية للتربية الإعلامية، ٢٢: ٢٤ إبريل/ ٢٠١٥م.
<http://www.alsbbora.com>

الأهرام، العدد (٤٦٨٥٨)، السنة ١٣٩، جمادي الآخرة ١٤٣٦ هـ - ٢٣ مارس ٢٠١٥ م.
وينظر: فهد بن عبد الرحمن الشميري، التربية الإعلامية، الرياض، ٢٠١٥م، عن تقرير المنظمة الدولية للتربية الإعلامية.

٩. بدر بن أحمد كريم، التربية الإعلامية، عن

www.siironline.org/alabwab/alhoda-culture

<http://www.startimes.com/?t=25265706>

١٠. وفي مقدمتهم مصر (في أسطورة إيزيس وأوزوريس وغيرها من النصوص)، والشرق الأقصى كالهند (في ملحمة المهابهاراتا، وقصصهم الديني عن راد وشيام وسيتا ورام ورافان،...)، وغيرهم.

١١. وفق نظرية أرسطو عن التطهير "المتلقي السلبي الذي يستقبل الرسالة ويعمل وجدانه بشكل إيهامي.

١٢. وظهر ذلك جلياً في المسرح السياسي ومسرح الدعاية السياسية والمسرح التعبيري والمسرح الملحمي، والمسرح الديالكتيكي. للاستزادة: سعد أردش، المخرج في المسرح المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

ونهاد صليحة، التيارات المسرحية المعاصرة، دار هلا للنشر والتوزيع، سلسلة المسرح ١٦، ط١، ١٩٩٩م.

١٣. ففي مصر احتلت المنصة المسرحية (بميادين مصر الهامة خاصة ميداني التحرير والاتحادية) دور القيادة والتعليم والتنوير والتحميس والإخبار الإعلامي عن المتغيرات لحظة بلحظة، وكانت المنصة المسرحية هي منارة التعليم قبل وبعد ذلك.

انظر: ورقة بحثية للدكتورة: منى عبد الهادي، بعنوان "مدى تأثير المعايير المهنية والأخلاقية في تعامل الجمهور المصري مع مواقع التواصل الاجتماعي، بالمؤتمر السنوي الرابع "التربية الإعلامية في مواجهة غزو العقول في العصر الرقمي، ٢٢ - ٢٤ إبريل، الذي عقده الأهرام الكندية بالتعاون مع منظمة اليونسكو والمنظمة الدولية للتربية.

www.acseg.org/37937.

١٤. وهو ما يهتم به مسرح الشمس ومسرح أوجستوبال والمسرح الملحمي على سبيل المثال.
١٥. وقد مرت الباحثة بهذه التجربة المدرسية والصيفية، وكان لها بليغ الأثر في اختيار الكلية والهدف من حياتها ومسار تلك الحياة فيما بعد، وسبباً رئيسياً في اكتشاف ذاتها ورسالتها بالحياة.

١٦. كانت الباحثة بطلّة مسرحية عريس لبنت السلطان التي تعاون بها مدرسة روض الفرج الثانوية للبنات، مع مدرسة قاسم أمين الإعدادية للبنين، ومدرسة التوفيقية للبنين، وقدموا العرض المسرحي على مسرح شبرا الثانوية للبنات وجميعهما في مربع سكني واحد ومنطقة تعليمية واحدة بمحافظة القاهرة بمصر. العرض كان من تأليف محفوظ عبد الرحمن، وإخراج حسام الشاذلي.

١٧. بعد مرور أكثر من خمسة وعشرين عاما يعمل جميعهم عدا إيمان سمير في المجال المسرحي الاحترافي، وفي مجال التمثيل والإخراج وأحيانا في الكتابة ومازالوا على علاقة طيبة وتواد حتى اليوم.

١٨. وقد شاركت الباحثة في ثلاثة عروض مسرحية بكلية الفنون التطبيقية تحت إشراف مدير إدارة رعاية الشباب بالكلية، الأول كان في عام ١٩٩٧م بعنوان أغنية على الممر للكاتب علي سالم، وإخراج الطالب حازم البحيري بالفرقة الثانية، قسم الخزف، بينما العرض الثاني بعنوان "فتاة البار والحصان" ١٩٩٨م لجيرير جيلاس وإخراج طالب الفرقة الرابعة بالفنون المسرحية بأكاديمية الفنون- حينها- خالد جلال مدير الشؤون الثقافية حاليًا بوزارة الثقافة، وقد حصل العرض على جائزة أفضل عرض بالمركز أول في مهرجان المسرح الجامعي على مستوى الدولة، وفيه كانت الباحثة تقوم بدور "عين الحب، النازية، والأم"، أمّا العرض الثالث ففي عام ١٩٩٩م، وكان بعنوان "تتويجات في دماغ امرأة" إعداد من عدة مسرحيات عالمية وعربية، إخراج الفنان أسامة فوزي، وقد قامت الباحثة حينها بأداء دور "هند" زوجة أبي سفيان، والملكة في نص "بعد أن يموت الملك"، ودور سالومي في "سالومي" لأوسكار ويلد، ولم يكن للكلية مسرحاً على الرغم من أنّها كلية فنية إلا أنّ التدريبات كانت تتم في أي قاعة فارغة بعد الساعة الثانية ظهراً، وأحيانا كانت تقام التدريبات أعلى المباني على الأسطح، بينما كان يتم العرض حسب المسابقة وتحديد وزارة الشباب مكان العرض بالاتفاق والترتيب بين إدارات رعاية الشباب بالكلية والجامعات والوزارة.

١٩. أ.د/ هناء محمد جمال الدين وأ/ أشرف الشحات رضوان محمد الموفي و د/رامي زكي زكي إسكندر، السابق، ٢٠١٦، ص ٢١١)

844377/Record/com.mandumah.search://h

20. Stinson, Madonna, 2014, pp124: 131.

21. Banerjee (2014), pp 9-79.

22.J.Susank (2005), p.114.

٢٣. (السابق، ص ٢١١). 844377/Record/com.mandumah.search://h
٢٤. سمير يونس، شاكر عبد العظيم، استخدام مسرحية المناهج في تحقيق أهداف وحدة تدريسية في النحو لتلاميذ الصف الأول الإعدادي، مجلة دراسات في المناهج وطرق التدريس، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، إبريل ٢٠٠٠م، ص ٦٣.
٢٥. عزو إسماعيل عفانة، أحمد حسن اللوح، التدريس المسرحي رؤية حديثة في التعليم الصفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٨م، ص ٩٧-١١٦.
٢٦. طارق جمال الدين عطيه، محمد السيد حلاوة، المدخل إلى مسرح الطفل، موسوعة حورس الدولية، الإسكندرية. ٢٠٠٤م.
٢٧. وسعيد عبد الله لافي، النشاط المدرسي بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٨٠، ١٨٩.
٢٨. وكمال الدين حسين، ملاحظات حول المسرح التعليمي المصطلح والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، يناير ٢٠٠٥، ص ١٢٢-١٤١.
٢٩. زينب على يوسف، الهوية الثقافية ومسرح الطفل، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٨٦-١٠٤.
٣٠. عبير محمد رواش محمد، فاعلية مدخل مسرحية المناهج في تنمية التحصيل والتفكير الابداعي لتلاميذ الصف الخامس الابتدائي، رسالة ماجستير، معهد الدراسات التربوية، جامعة القاهرة، ٢٠١٠م.
٣١. للاستزادة: انظر <https://www.youtube.com/watch?v=NWGSji-XaRU>
- <https://www.youtube.com/watch?v=AGD1AHuyG5g>
32. <https://www.youtube.com/watch?v=NWGSji-XaRU>
33. https://www.youtube.com/watch?v=j_9Fji5dFEg
34. <https://www.vetogate.com/976170/%d8%a8%d8%a7%d9%84%d8%b5%d9%88> موقع صور عقد البروتوكول لمسرحية المناهج بين وزارة التربية والتعليم والبيت لافنى للمسرح بوزارة الثقافة
35. https://www.google.com/search?rlz=1C1CAFB_enEG836EG836&sxsrf=ALeKk0 موقع صور عرض على مبارك على مسرح المتربول
- <http://elbadil.com/2014/05/14/%D8%B9%D8%B1%D9%88%D8%B6> قع صور على مبارك على مسرح قصر ثقافة جنوب سيناء
36. <http://www.ahram.org.eg/NewsQ/337155.aspx>
- وقد حضر في أثناء تفعيل المرحلة الثانية من البروتوكول الكثير من فناني البيت الفني

للمسرح، وذلك إيماناً منهم بقضية التربية والتعليم ودور المسرح المؤثر في نهضة الأمة والتربية الجيدة لأبنائها، وإعدادهم للمشاركة الفعالة في بناء المجتمع.

<http://elbadil.com/2014/04/28/%>

٣٧. قصة على مبارك من http://www.almoallem.com/Malahek/Ara_sixRS.pdf

الوزارة

للاستزادة: عائلة المشايخ <https://www.youtube.com/watch?v=SnPwEBjdB2I>

عزة نفس وطموح مبكر https://www.youtube.com/watch?v=hnDI_3Jzb0s

٣٨. لدى الباحثة نسخة كاملة منه.

٣٩. وقد استطاعت الباحثة حضور العرض ومشاهدته على مسرح المتربول.

٤٠. موقع صورة مسرحية مسرحية على مبارك بقصر ثقافة جنوب سيناء

<https://www.dailymotion.com/video/x2cwwp7>

٤١. قد تم لقاء الباحثة مع دراماتورجي العرض والفنان أشرف طلبة ومخرج العرض باسم

قناوى، ومناقشتهم بخصوص تلك التجربة ومشكلاتها واستفادتهم بالعمل فيها بشكل

فردى وفق جدول اعمالهم، فى ١٠ مارس ٢٠١٨، نوفمبر ٢٠١٨، واکتوبر ٢٠١٩ م.

المصادر والمراجع باللغة العربية:

١. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت - لبنان، ١٩٧٧ م.

٢. بدر بن سيف بن أحمد النبهاني، مسرحية المناهج في مدارس السلطنة الواقع والتحديات -

مدرسة الإمام جابر بن زيد، مجلة التطوير التربوي، وزارة التربية والتعليم، س ١٠، ع ٦٩،

٢٠١٢ م، ١٨٢٧٠٢.

٣. ثناء عبد المنعم رجب، أثر وحدة مقترحة في القصص الدينية على تنمية مهارات التفكير

الأساسية لدى تلاميذ الصف الخامس الابتدائي، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، العدد

(١٩)، كلية التربية، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢ م.

٤. حنان عبد الحميد العناني، الفن والدراما والموسيقى في تعليم الطفل، دار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ٢٠٠٢ م.

٥. رائد محمد، اثر استخدام المسرح في التدريس لبعض موضوعات النحو العربي على

التحصيل الدراسي لطلاب الصف الثامن الأساسي، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة

الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩ م.

٦. زينب علي يوسف، الهوية الثقافية ومسرح الطفل، مكتبة الأنجلو، القاهرة - مصر،

٢٠١٣ م.

٧. زينب محمد عبد المنعم أبو الفتوح، فاعلية استخدام الدراما الاجتماعية كمدخل في اكساب

- طفل الروضة تصوراً سليماً لذاته وللزمن والبيئة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية البنات، قسم رياض الأطفال، ٢٠٠٥م.
٨. سعد أردش، المخرج في المسرح المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة — مصر، ١٩٩٨م.
٩. سعيد عبد الله لافي، النشاط المدرسي بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، القاهرة - مصر، ٢٠١٠م.
١٠. سمير يونس، شاكر عبد العظيم، استخدام مسرحية المناهج في تحقيق أهداف وحدة تدريسية في النحو لتلاميذ الصف الأول الاعدادي، مجلة دراسات في المناهج وطرق التدريس، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، إبريل، ٢٠٠٠م، ع ٦٣، ٢١٣-٢٥٣٥.
١١. شريف درويش اللبان، المواجهة المحتومة: التربية الاعلامية في مواجهة غزو العقول في العصر الرقمي، بالمؤتمر السنوي الرابع لجامعة الأهرام الكندية بالتعاون مع اليونسكو والمنظمة الدولية للتربية الإعلامية، ٢٢- ٢٤ إبريل/ ٢٠١٥م. <http://www.alsbbora.com>
١٢. الأهرام، العدد (٤٦٨٥٨)، السنة ١٣٩، جمادي الآخرة ١٤٣٦ هـ - ٢٣ مارس ٢٠١٥م.
١٣. طارق جمال الدين عطيه، محمد السيد حلاوة، المدخل إلى مسرح الطفل، موسوعة حورس الدولية، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.
١٤. عبد الله بن سعيد الفارسي، قيمة مسرحية المناهج وأهميتها للمعلم، مجلة التطوير التربوي، وزارة التربية والتعليم، جمهورية مصر، العدد ٦٩، مارس ٢٠١٢م، ١٨٢٦٩٥.
١٥. عبير محمد رواش محمد، فاعلية مدخل مسرحية المناهج في تنمية التحصيل والتفكير الإبداعي لتلاميذ الصف الخامس الابتدائي، رسالة ماجستير، معهد الدراسات التربوية، جامعة القاهرة، ٢٠١٠م.
١٦. عزو إسماعيل عفانة، أحمد حسن اللوح، التدريس المسرحي رؤية حديثة في التعليم الصفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ٢٠٠٨م.
١٧. عواطف حسن على، هيفاء لافي الحربي، فاعلية مسرحية المناهج في تنمية مهارات القراءة الجهرية، جامعة الزعيم الأزهري، العدد ١٦، ١١/ ٢٠١٥، ٨٠٥١٠٠.
١٨. فهد بن عبد الرحمن الشميمري، التربية الإعلامية، الرياض، ٢٠١٥م.
١٩. كمال الدين حسين، ملاحظات حول المسرح التعليمي المصطلح والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، يناير ٢٠٠٥م.
٢٠. محمد عبد الحميد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، طبعة ١، القاهرة — مصر، عالم الكتب، ١٩٧٧م.

٢١. محمد عبد الله محمد النصر، أثر التدريس باستخدام الدراما وفق منحى مسرحية المناهج لمادة قواعد اللغة العربية في التحصيل الدراسي وتنمية مهارتي الاستماع والتحدث لدى تلاميذ الصف السادس الابتدائي في مدينة القطيف في المملكة العربية السعودية، مجلة دار المنظومة للرواد في قواعد المعلومات العربية، عمان، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم التربوية، مناهج وطرق تدريس، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨م.

٢٢. منى عبد الهادي، تأثير المعايير المهنية والأخلاقية في تعامل الجمهور المصري مع مواقع التواصل الاجتماعي، بحث قدم بالمؤتمر السنوي الرابع "التربية الإعلامية في مواجهة غزو العقول في العصر الرقمي، ٢٢- ٢٤ إبريل، الذي عقدته جامعة الأهرام الكندية بالتعاون مع منظمة اليونيسكو والمنظمة الدولية للتربية. www.acseg.org/37937.

٢٣. نهاد صليحة، التيارات المسرحية المعاصرة، دار هلا للنشر والتوزيع، سلسلة المسرح ١٦، ط١، ١٩٩٩م.

٢٤. هناء محمد جمال الدين، ودرامي زكريا زكي إسكندر، وأ. أشرف الشحات رضوان محمد الموافي، استخدام أسلوب مسرحية المناهج الدراسية في تنمية التحصيل الدراسي والتفكير الابتكاري في مادة العلوم لدى تلاميذ الحلقة الابتدائية، الجمعية العربية لتكنولوجيا التربية- جزء ٢، العدد ٢٩، أكتوبر ٢٠١٦م، ٨٤٤٣٧٧.

٢٥. أحمد حسين اللقاني، علي الجمل، معجم المصطلحات التربوية والمعرفة، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٦م.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية والمواقع الالكترونية:

- 1- Bowman, S., Willis, C. "We Media: How Audiences are Shaping the Future of News and Information". The Media Center at the American Press Institute.. ٢٠٠٣
- 2- Freed, 2003, CML, 2003, Wilimedia, 2006, Jinkins. 2006, et., al
- 3- Givkivq, 2006.
- 4- <http://elbadil.com/2014/05/14/%D8%B9%D8%B1%D9%88%D8%B>
- 5- <http://elbadil.com/2014/04/28/%>
- 6- <http://ilp.unrwa.ps/download/Local-election/.pdf>
- 7- <http://www.ahram.org.eg/NewsQ/337155.aspx>
- 8- <http://www.pidegypt.org/download/Local-election/.pdf>
- 9- <http://volontariatacj.over-blog.com/article-49049582.htm>

- 10- http://www.almoallem.com/Malahek/Ara_sixRS.pdf
- 11- <http://www.startimes.com/?t=2526570>
- 12- <https://www.youtube.com/watch?v=SnPwEBjdB2I>
- 13- https://www.youtube.com/watch?v=hnDl_3Jzb0s
- 14- <https://www.youtube.com/watch?v=yD1mjoCT>
- 15- <https://www.youtube.com/watch?v=NWGSji-XaRU>
- 16- <https://www.youtube.com/watch?v=AGD1AHuyG5g>
- 17- <https://www.youtube.com/watch?v=NWGSji-XaR>
- 18- https://www.youtube.com/watch?v=j_9Fji5dFE
- 19- https://www.youtube.com/watch?v=PiiebSk_uyM البرنامج الثقافي
- 20- http://nyara4.hostkda.com/new_page_8.htm?i=1
- 21- Jenkins, Henry. "Convergence Culture: Where Old and New Media Collide": New York University Press.2006.
- 22- Rheingold ,Howard. Using Participatory Media and Public Voice to Encourage Civic Engagement.2007.
- 23- www.saudimediaeducation.org/index.php?option=com
- 24- www.siironline.org/alabwab/alhoda-cultur

ملحق الصور:



مؤتمر العلوم الإنسانية وخدمة آفاق المجتمع كلية الآداب - الجامعة المستنصرية ٢٧-٢٨ نيسان (أبريل) ٢٠٢١



مرفوعة الحويدي والجماري
وهميلان المصوري
مرفوعة الحويدي والجماري

**أبو التعليم
علي مبارك**

القصة المقررة على الصف السادس الابتدائي

على مسرح المتروبول .. السبت 2014/5/3 الساعة الواحدة ظهراً
الدخول مجاناً .. الحضور قبل العرض بنصف ساعة .. والدخول بالدعوة

أحمد الزاوي - أحمد سمير - محمد النجار - محمد علي
أحمد زكريا - محمد يوسف - هزلاء سليمان - محمد محمد التواهي
مع الزميلات
نوران - نغم - بوسنة جبريل - محمد عساف - إيوان محمد - أحمد رامي - بوسنة أحمد - محمد حسن
أعدتها للتسريح صباغة بريمية والمعلم
أسماء نور الدين - ياسر أبو العز الدين - شادي فرياح - حازم الشفراوي - باسم حناوي



السخرية السياسية وعلاقتها بالسلوك الانتخابي لدى طلبة الجامعة

د. حوراء محمد علي المبرقع
كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

الفصل الأول: أهمية البحث والحاجة إليه:

يشكل تأثير السخرية السياسية على المشاركة السياسية بشكل عام والسلوك الانتخابي بشكل خاص، مثل مصدر قلق مستمر للباحثين الذين يدرسون السلوك السياسي، فقد أدعى الكثير من الباحثين أن السخرية السياسية تضر بشكل كبير في المشاركة الانتخابية، بافتراض أن المواطنين الساخرين لم يشاركوا أو لم يعودوا يشاركون سياسياً، فالمتوقع أن يفتقر المواطنون الساخرون إلى الاهتمام السياسي والمعرفة السياسية، وهذا الافتقار إلى المشاركة السياسية قد يؤدي بدوره إلى تآكل شرعية الحكومة، إذ أن المشاركة السياسية الضعيفة تنتج شرعية حكومية ضعيفة أيضاً. (Rijkhoff, 2015, p. 4)

إن الحكومة الناجحة والفعالة تتطلب وجود مواطنين غير ساخرين منها، فالافتراض الذي يقول؛ أن المستوى المرتفع من السخرية ينتج مشاركة المواطنين في المجال السياسي، قد يؤدي إلى عدم توافق بين الحكومة والشعب في تحديد المشكلات وتقديم الحلول لها، فبدون الحصول على تغذية راجعة من المواطنين، لا تستطيع الحكومة وضع سياسات قادرة على معالجة المشكلات الموجودة داخل سيطرتها. كما أنه ليس من الصحيح، أن يخلو المجتمع من أي نزعة نقدية اتجاه الحكومة، فإن ذلك يؤدي إلى أن المسؤولين الحكوميين سيشعرون بثقة مفرطة في تشريع وتطبيق بعض القوانين التي تكون مثار جدل مجتمعي وسياسي غير أبهين بردة فعل المجتمع. فكلتا الفكرتين غير صحيحة. وإنما الشيء الصائب والمنتج هو وجود مواطنين نشيطين، يتمتعون بنزعة نقدية، من أجل إنشاء حكومة تكون مسؤولة أمام مواطنيها. (Rijkhoff, 2015, p.)

وبلغت الأنظار إلى التأثيرات السلبية التي قد تنتجها السخرية السياسية، فأن هناك نوعان من المخاوف الرئيسة. الأول؛ هو التآكل لشرعية السلطة، فإن أي سلطة لا بد لها من قبول عام من قبل المواطنين، تحقق بها الحد الأدنى من شرعيتها، فقد وجد بعض الباحثين أن السخرية السياسية قد أدت إلى التآكل من شرعية السلطات، وقد أدى هذا التآكل في الشرعية إلى تقليل من هيبة القانون في نفوس المواطنين، من ثم عدم الامتثال لها (Hetherington, 1998; Hooghe, 2011). والثاني؛ هو السخرية السياسية، قد تؤدي إلى انخفاض في المشاركة السياسية. فقد وجدت الكثير من الدراسات، أن السخرية السياسية لها تأثير سلبي على المشاركة السياسية، بافتراض أن المواطنين الساخرون لا يشاركون أو يشاركون مشاركة سياسية سلبية (Berman, 1997; Citrin, Rijkhoff 2015,) (1974; Marien & Hooghe, 2011; Miller, 1974 p. 4).

في المقابل، تشير بعض الدراسات إلى أن مواطنين قد يكونون ساخرين سياسياً بدرجة معينة، ولكنهم في الوقت نفس، يكونون نشيطون سياسياً. وقد دعمت هذه الفرضية، من قبل باحثين عدة، إذ وجدوا أن هناك علاقة إيجابية بين السخرية السياسية وإقبال المواطنين على الانتخابات، وتصبح السخرية انعكاساً لموقف صريح ومسؤول وناقد. كما أن هذه المواقف تجاه النظام السياسي يمكن أن تحفز الإصلاحات، ومن ثم تحسين من نوعية النظام السياسي القائم (Marien & Hooghe, 2011, p. 270).

كما أن هناك وجهتي نظر أخرى حول تأثيرات السخرية السياسية، إحدى وجهتي النظر تقول؛ أن السخرية السياسية تعكس انخفاضاً في دعم المؤسسات السياسية، مما يؤدي؛ إما إلى الامتناع عن التصويت في الانتخابات أو المشاركة في أعمال احتجاجية. أما وجهة النظر الأخرى، فتذهب إلى أن سخرية المواطنين السياسية ما هي إلا تعبير تقييمي سلبي للسياسيين. ووفقاً لهذا المنظور، فإن الخلاف مع السياسيين لا يؤدي بالضرورة إلى تراجع الدعم للمؤسسات أو انخفاض في نسبة إقبال الناخبين (Conway, 2000, p. 172).

ومع ذلك، من الممكن أيضًا أن تكون السخرية والمشاركة مرتبطة بشكل ضعيف جدًا أو حتى غير مرتبطة. يمكن للمواطنين أن يكونوا ساكنين لدرجة أنهم يحتفظون ببعض الاهتمام بالسياسة ويحافظون على مستوى معين من المشاركة السياسية. من المحتمل أن المواطنين لا يتأثرون بالسخرية، ولكن هناك عوامل أخرى تحدد مستويات مشاركتهم. في الواقع، فإن معظم المواطنين الساخرين قادرون على التعبير عن آرائهم السياسية. هذا الاهتمام المثير للسخرية في السياسة له نتائج إيجابية غير مقصودة للمشاركة أيضًا. وأنه قد يكون من أن النخب لديهم القدرة على التمييز بين وجهات النظر ساخرة على السياسة وأهمية المشاركة في الانتخابات" (Vreese, 2005.P.633).

كما وتبرز أهمية مجتمع البحث الحالي لطلبة الجامعة، الذين يمثلون الطاقة الاجتماعية للمجتمع، إذ ينخرطون تحت مسمى الشباب فهم فئة ذات أهمية خاصة من المنظور السياسي في بناء البلدان، ويصبحون أكثر إدراكاً للسياسة ويشكلون مواقفهم الاجتماعية والسياسية، فالمشاركة السياسية للشباب ليست عملية طبيعية يرثها الإنسان وإنما هي عملية مكتسبة يتعلمها الشباب وتنمو خلال مراحل حياتهم وتفاعلهم داخل الجماعات المرجعية، التي ينتمي إليها، ويتوقف ممارستها لها على مدى توافر القدرة والدافعية والفرص الحقيقية التي يتيحها المجتمع لهم والتقاليد السياسية والأيدولوجية السائدة في المجتمع (الشامي، ٢٠١١، ص ١٢٣٩)

فالشباب الجامعي هم الشريحة الأكثر أهمية في أي مجتمع وإذا كانوا اليوم يمثلون نصف الحاضر فأنهم في الغد سيكونون كل المستقبل، ومن هنا جاء القول بأن الشباب عماد المستقبل وبأنهم وسيلة التنمية وغايتها، فهم يساهمون بدور فاعل في تشكيل ملامح الحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

والاهتمام بها يعد اهتماماً بالمجتمع بأسره فهي الوسيلة للتغيير والبناء وهي الطاقة التي يركز عليها أي تطور أو تقدم في البلاد وإن رعايتها والاهتمام بها وتوجيهها أمر لا بد منه، على أن تكون تلك الرعاية تشمل جميع جوانب شخصياتهم العقلية والنفسية والاجتماعية والجسمية، وتمثل المرحلة الجامعية

مرحلة مهمة لأنها المرحلة النهائية في التعليم لمعظم الطلبة الذين يمثلون الطبقة المثقفة الواعية، ولكون التعليم العالي أداة التنمية التي تتطلع إليها المجتمعات وتؤدي دورا في تحقيق أهدافها من خلال توفير ما يحتاجه المجتمع وما تحتاجه عملية البناء و التقدم و التطور في جميع مجالات الحياة. لذا فإن الاهتمام بطلبة الجامعة يعد أمرا لا بد منه وخصوصا عندما يتطلع مجتمع ما إلى خلق أساس متين للتطور والرقى في كل مجالات الحياة

وهذا ما حفز الباحثة الى دراسة تلك الظاهرة محاولة التعرف علي طبيعتها وأسبابها وعلاقاتها وتأثيراتها، كونها من الظواهر التي مازالت جدلية على المستوى الاجتماعي وأيضاً على المستوى العلمي، إذ لحد الآن لم يتفق الباحثون بشكل نهائي ومؤكد، حول العوامل المشكلة لظاهرة السخرية السياسية من جهة، وفيما إذا كانت السخرية السياسية تؤثر بشكل ايجابي أو سلبي على السلوك الانتخابي من جهة أخرى.

أهداف البحث: يستهدف البحث الحالي التعرف الى:

١. السخرية السياسية لدى افراد طلة الجامعة.
٢. دلالة الفروق في السخرية السياسية لدى طلبة الجامعة على وفق متغيري:
 - المهنة (يعمل / لايعمل).
 - الجنس (ذكر / أنثى).
٣. السلوك الانتخابي لدى طلبة الجامعة.
٤. دلالة الفروق في السلوك الانتخابي لدى طلبة الجامعة على وفق متغيري:
 - المهنة (يعمل / لا يعمل).
 - الجنس (ذكر / أنثى).
٥. طبيعة العلاقة الارتباطية بين السخرية السياسية والسلوك الانتخابي لدى العينة ككل.

حدود البحث:

يتحدد البحث الحالي على طلبة الجامعة المستنصرية /طلبة الدراسات العليا للعام ٢٠١٨-٢٠١٩.

تحديد المصطلحات:

أولاً: السخرية السياسية **POLITICAL CYNICISM**:

عرفها بروفسكرفت (Proefschrift, 2007) بأنه (شعور الأفراد بالإحباط، بسبب اعتقادهم العميق، بعدم قدرة السياسيين على تحقيق تطلعاتهم عن المساواة والعدالة الاجتماعية) (Proefschrift, 2007, p.30).

عرفها كولنس (Collins, 2013) بأنه (اعتقاد الأفراد بأن السياسيين دائماً ما يقدمون مصالحهم الشخصية وفي كل الأحوال، وأن سلوكياتهم تكون بدوافع غير نبيلة) (Collins, 2013, p.3).

وتعرّفه الباحثة:

معتقدات سلبية يحملها الأفراد اتجاه السياسيين يدفعهم للشعور بالإحباط والامتناع كونهم (السياسيون) يقدمون مصالحهم الشخصية والحزبية على مصالح الأفراد، وأن سلوكياتهم بعيدة عن تطلعات المواطنين بتحقيق العدالة والمساواة.

التعريف الإجرائي:

هو الدرجة الكلية التي يحصل عليها المستجيب من خلال استجابته على فقرات مقياس السخرية السياسية المستعمل في البحث الحالي.

ثانياً: السلوك الانتخابي **Electoral Behavior**:

عرّفه لازارسفيلد ١٩٥٩ Lazarsfeld

وحدة سلوك متسلسل (متعاقب) موجه نحو هدف ينتهي بشكل متكامل لمصلحة حزب أو مرشح ما. (Lazarsfeld, 1959, p.2)

عرّفه الأعرجي (٢٠١٠)

جميع الأفكار، والممارسات، والوجدانات الموجبة والسالبة، التي تصدر عن الفرد عند اختياره ما يمثله في المجتمع، ويمكن ان يتمثل على شكلين هما:

• سلوك انتخابي ناضج **Maturity Electoral Behavior**:

وهو جميع الأفكار، والممارسات، والوجدانات الموجبة والسالبة، التي يصدرها الفرد عند اختياره ما يمثله في المجتمع، وتكون ايجابية بشكل يخدم المصلحة العامة للمجتمع.

• سلوك انتخابي غير ناضج **Immaturity Electoral Behavior**:

وهو جميع الأفكار، والممارسات، والوجدانات الموجبة والسالبة، التي يصدرها الفرد عند اختياره ما يمثله في المجتمع، وتكون سلبية بشكل لا يخدم المصلحة العامة للمجتمع (الأعرجي، ٢٠١٠، ص ٥٣٦).

وقد قامت ببتبي تعريف (الأعرجي ٢٠١٠) للسلوك الانتخابي وذلك لانها اعتمدت مقياس السلوك الانتخابي.

التعريف الإجرائي:

هو الدرجة الكلية التي يحصل عليها المستجيب من خلال استجابته على فقرات مقياس السلوك الانتخابي المستعمل في البحث الحالي.

الفصل الثاني: الإطار النظري

أولاً: السخرية السياسية:

تعد أول ممارس معروفة تاريخياً للسخرية كانت على يد الفيلسوف ديوجين الكلي (Diogenes) (حوالي ٤١٢ - ٣٢٣ قبل الميلاد)، فقد كان يعيش مشرداً وليس لديه مأوى، إذ كان يتخذ من خزان حديدي بيتاً له، في إشارة إلى إعلان السخرية من الوضع العام. ومن المؤسف لا توجد كتب أو مخطوطات لهذا الفيلسوف، ويعد هذا الأمر مفهوم لأنه كان أحد فلاسفة الحياة الذين تعد الحياة أكثر أهمية من الكتابة". ومع ذلك فقد حفظت أفكاره عبر المواقف العملية الناقدة

التي جعلت منه شخصية أسطورية، فقد كان يسير في شوارع أثينا في النهار ويحمل معه (فانوساً) مضاءً، وعندما يسأله الناس عن السبب، فيجيب بأنه يبحث عن رجل أمين. وكان ينتقد الفلاسفة الذين لم يستطيعوا أن يعيشوا الحياة التي كانوا يبشرون بها، وأن فلسفتهم ما هي إلا غطاء للامتيازات السياسية والظروف المعيشية المريحة التي يتمتعون بها. (Chaloupka, 1999, p. 4).

هذه النزعة الناقدة أخذت بالانفصال عن جذورها الأخلاقية والفلسفية وصارت تستعمل أكثر في المجالات السياسية، وتفسر على نطاق واسع من كونها "حالة من عدم الثقة بالآخرين"، إلى "حالة من عدم الثقة بالسياسيين"، وأن الباحثين أخذوا يركزون عند دراسة السخرية السياسية على شعور الأفراد بالإحباط إزاء أداء السياسيين عموماً، ويشير هذا البعد إلى "الأشياء أو الحاجات التي لم يتم تلبيتها وتكون على شكل مواقف سلبية نحو السياسيين والعملية الانتخابية" وهو الأمر الذي يعبر عن "وجود فجوة بين الفرد والسياسيين والمؤسسات السياسية عموماً". فالفرد الساخر يقوم بتحويل هذه الثغرة إلى بعد أخلاقي يتم فيه النظر إلى المؤسسات السياسية على أنها منافقة وبلا قيم. وأن اعتقاد الأفراد بغياب الأداء الجيد الذي ينبغي أن يقوم به رجال السياسة في عملهم هو طريقة شائعة يعبر من خلالها الأفراد عن كره متجذر للمؤسسات الحكومية ورجال السياسة) (الساعدي، ٢٠١٧، ص ٤٢-٤٣)

فالسخرية لها سمتين؛ الأولى، هي هدف الحفاظ على الذات في أوقات الأزمات. والثانية، هي نوع من الوقاحة الواقعية، فهي لا تأخذ بالاعتبار الموانع الأخلاقية العامة، وإنما تعمل على إظهار الأشياء على حقيقتها الواقعية. وبالمقاييس مع السخرية القديمة القائمة على الواقعية الوجودية، فإن السخرية الحديثة تعمل على إظهار نصف الحقيقة. ذلك لإدراكها الحقائق كما هي وتوجيهها عبر وسائل لتحقيق غاية ما. فجوهر السخرية يحتوي على فلسفة ناقدة لكل الوضع القائم وعبثيته. فللسخرية غايات وأهداف جيدة لكنها تعمل بوسائل تعد سيئة (Sloterdijk, 2005, p 193).

نماذج نظرية في تفسير السخرية السياسية:

يشير Chaloupka 1999 إلى أن الفرد الذي يعتقد أن السلوك البشري هو

حصيلة الدوافع التي تحركها المصلحة الشخصية، لا يتوقع شيئاً غير السوء في السلوك الإنساني ودوافعه، فهو لا يثق بصلاح الآخرين وتصرفاتهم، ويعتقد بأن الآخرين لا يهتمون إلا بأنفسهم. ووفقاً Suijkerbuijk 1983 أن انعدام الثقة السياسية هو توقع المواطن بأن الحكومة لن تتصرف وفق معايير الكفاءة والنزاهة والقابلية والعدالة. فالسخرية حالة ذهنية معقدة مع اعتقاد أساسي بأن السياسة والسياسيين والمؤسسات السياسية هي غير جديرة بالثقة، لا يمكننا الاعتماد عليها، غير أخلاقية وغير كفوءة (Rijkhoff, 2008, p. 6)

وترجع الأبحاث عن مصادر أو أسباب السخرية السياسية إلى عوامل مختلفة؛ منها، الفساد السياسي، والدكتاتورية السياسية، واهتمام وسائل الإعلام بالجوانب السلبية للحياة العامة، والحملات الانتخابية غير المدروسة والسلبية، وقلة أو انعدام الثقافة السياسية. ويضيف كابيل وجيمسون (Cappella&Jamieson, 1997). أيضاً إلى تآكل الفردية في المجتمع، وحملات الشعارات والفصل بين الوعود وأداء القادة، والتركيز على الجانب المظلم من السياسة مثلاً الفضائح السياسية وغيرها، كل تلك الظواهر تعد أسباباً محتملة للسخرية السياسية (Rijkhoff, 2008, p. 6).

وتعد وجهة نظر كلاً من (wrighton, erber, niemi) أن انخفاض الثقة السياسية تعد مؤشراً على السخرية السياسية، غير أن (Eissinger 2000) يرى أن السخرية السياسية هو أكثر عمقاً من مجرد كونه يمثل ضعفاً للثقة بالسياسيين، بل يكشف أيضاً عن توجهات وانفعالات أكثر سلبية وعدائية، وحالة من الغضب المفرط. (Kristofdhont, 2012, P9). ويؤكد (kristofdhont) (2012) في دراسته حول المضامين السيكلوجية للسخرية السياسية؛ بأن درجة الثقة السياسية تعد المرتكز الرئيس الذي يمكن الاعتماد عليه لمعرفة الحدود التي تكشف الأفراد الساخرين، ويرى أن انخفاض الثقة السياسية لدى الأفراد يكون منبئاً على السخرية السياسية، ويلفت إلى أن الأفراد يبدأون بإدراك عدم قدرة السياسيين على الوفاء بالوعود التي قطعوها خلال حملاتهم الانتخابية (Kristofdhont, 2012 p35).

وأشار هاردن (Hardin, 1998) إلى الثقة السياسية بأنها لطالما ارتبطت

بأداء الحكومة، فالشرعية التي تكتسبها أي حكومة يجب أن تستند إلى مفهوم الثقة المتبادلة، وأن وجودها (الثقة) يدل على إمكانية وجود "قوائد مشتركة" بين السياسيين وعامة الناس. ويؤكد أن الضامن لهذه "الثقة والقوائد المشتركة" يكمن في سيادة القانون على الجميع. وبلغت (Hardin 1998) أن الأفراد في هذه الحالة يعتقدون أن العلاقة بينهم وبين الحكومة هي علاقة ثقة وليست علاقة عقد (Hardin, 1998, p9-10). ويضيف كابيلا وجيمسون (Cappella & Jamieson, 1997) بأن انخفاض الثقة السياسية ناتج عن شعور الأفراد بأن من يمثلهم لا يمكن الوثوق بهم، وأنهم يقومون بتقديم مصالحهم الذاتية على مصالح ناخبهم بعد الفوز في المناصب الحكومية". (Cappella and Jamieson, 1997: pp141-142).

ولفت (Lee 2006) إلى أن الظروف الاقتصادية للفرد لا تكون وحدها سبباً كافياً لانخفاض الثقة السياسية، ويمضي بالقول " أن بعض المصوتين في الانتخابات يقيمون مقاييسات بين الوضع الاقتصادي العام ومدى نجاح أو فشل الأحزاب الحاكمة في تحقيق الرخاء المطلوب". (Lee, 2006, p45). ويشير (Agger 1961) إلى أن المواقف الساخرة اتجاه النظام السياسي تصبح عندها انخفاض الثقة أكثر انتشاراً، ومن ثم فإن الجماعات الساخطة داخل المجتمع تذهب إلى رفض نظام الحكم بعد أن تبدأ بالبحث عن نظام آخر يحل محل النظام القائم. ويحذر من أن السخرية السياسية قد تؤدي إلى اعتماد شكل من أشكال الاحتجاجات التي قد تتطور إلى أنواع من العداء العرقي والصراعات الثقافية والسياسية، إضافة إلى تغذية الانقسامات. (Agger, 1961, p478) (الساعدي، ٢٠١٧، ص ٤٧-٤٨).

ويشير Sloterdijk إلى البعد الانفعالي في السخرية السياسية، فغالباً ما تكون الانفعالات مرتبطة بالسمات البارزة للخبرة والدوافع، وتتحكم في ردود أفعالنا، وتوجهاتنا، وتصرفاتنا، وسلوكنا تجاه هذه الأشياء سواء كانت مؤاتية أو غير مؤاتية". ومن ثم، فلا يمكن التغاضي عن السياق الانفعالي للسياسة. فردود الفعل الانفعالية تكون مهمة بالنسبة لطريقة فهم المواطنين للسياسة (Sloterdijk, 2005, p.6). فقد أظهر ماركوس أن هناك أربعة مشاعر بارزة

في السياق السياسي، وهي الحماس والفخر والغضب والأمل، وأن تلك المشاعر السياسية تساهم بشكل كبير في تفسير المواقف السياسية مثل السخرية (Marcus, 2003, p. 189).

فالمواطن الساخر لا يثق بالسياسات والسياسيين ويريد نظاماً أكثر صدقاً. فالسخرية هي موقف واقعي، يرفض المثالية، والمطلقية، والحقائق غير المشروطة، فالساخرون يعيشون من دون أي شغف بالحياة، ويرون أن العالم عقيم وكشيء يجب رفضه. إن المرارة، وموقف الحرمان من الحياة، والتشاؤم، والمعايير المزوجة هما أشياء أساسية في تكوين الشخصية الساخرة، لذلك أن تلك المشاعر السلبية تؤثر بقوة على انخراط الفرد بالحياة السياسية العامة. وكما يذكر Sloterdijk فإن السلبية والانفصال عن الحياة السياسية لا تسمح بوجود الأمل عند الأفراد، لذلك تعمل على التعويض من خلال السخرية. (Sloterdijk, 2005, p.6)

ويشير الكثير من العلماء إلى أهمية الأمل في السياسة، فالحكومة تستطيع توحيد الناس والمجتمعات والثقافات كلها، ومن ثم لديها القدرة على التأثير في مستويات أمل المواطن. كما يمكن للحكومات أن تضع أهداف واقعية سهلة لتحقيقها. وذلك لإعطاء جرعات أمل عالية للأفراد، ومن ثم تحافظ على ثقافة الأمل لدى مواطنيها (Rijkhoff, 2008, p. 13).

نظرية التناشز المعرفي Cognitive Dissonance Theory

وضع هذه النظرية ليون فستنجر "Festinger" ١٩٥٧ وطورها عام ١٩٦٤ إذ إن الفكرة الأساسية التي تركز عليها النظرية، هو أن رأي الفرد عن العالم يتلاءم مع الكيفية التي يشعر بها وما قد يفعله، ووفقاً لهذه النظرية فإن الناس محفزون إلى طلب الانسجام في معارفهم (Hollander, 1971, p.216). ويؤكد فستنجر على أن هناك استثناءات بخصوص العلاقة بين المعارف، إذ يعتقد شخص كاثوليكي أنه لا فرق بين الكاثوليك والبروتستانت، ولكنه مع ذلك لا يرغب في إقامة علاقة صداقة مع شخص بروتستانتي، وعندما تبرز حالات كهذه يظهر التناشز المعرفي Cognitive Dissonance الذي يعبر عن علاقة غير متلائمة بين العناصر المعرفية

"Cognitive elements" التي تعني معارف يمتلكها الفرد عن ذاته وعن سلوكه، ماذا يفعل؟ ماذا يشعر؟ ماذا يريد؟ أو عن محيطه الذي يعيش فيه. ان العناصر المعرفية بحسب فستنجر "Festinger" تشمل (الأفكار - الاتجاهات - المعتقدات - القيم - صور من سلوك سابق - توقعات عن الأحداث المستقبلية) (Schellenberg, 1970, p118). وبالاستناد إلى الاستثناءات التي تحدث عنها فستنجر، يمكن القول بأن بعض الأفراد الساخرين سياسياً يكونون في حالة "تناقض معرفي" من خلال إطلاق صفات سلبية عامة على السياسيين، رغم اعتقادهم بأن "بعض السياسيين الذين يؤيدونهم" هم أفضل من غيرهم، وهنا تبرز حالة من عدم الاتساق المعرفي قد تنتهي بإنكار عام، مثل هذا التمايز (كل السياسيين سيئين) لكنهم في حالات خاصة، وتحت تأثير ظروف معينة من قبيل ضغط الجماعة أو بحثاً عن المصالح الخاصة (يقولون أن بعض السياسيين هم أناس طيبون)، وأن حديث النظرية عن التوقعات المستقبلية يقع في صلب مكونات السخرية أو التهكم السياسي، ويكون تحقق التوقعات التي يضعها الفرد عن الأداء السياسي، أو عدم تحققها عاملاً مضافاً في ضمان تحقق الاتزان المعرفي.

ويرى فستنجر أن انسجام العناصر الإدراكية هو أمر سيكولوجي أكثر مما هو منطقي، فكل ما يبدو منسجماً في ذهن الفرد يمثل انسجماً وأن كل ما لا يمثل ذلك من علاقات الصلة يمثل تناقضاً. (Schellenberg, 1970, p119) هنا تأتي إشارة فستنجر "Festinger" حول "الانسجام السيكولوجي للعناصر المعرفية" لتؤكد أن اعتناق الفرد لتفسيرات خاصة عن حوادث معينة تبدو غير منطقية عند غيره، لكونها منسجمة نفسياً عنده أكثر من اتساقها معرفياً بغير لجوء البعض إلى عدة تفسيرات بغض النظر عن واقعيتها (الساعدي، ٢٠١٧، ص. ١٥٠).

ثانياً: السلوك الانتخابي:

أسهمت فروع عدة من علم النفس - أبرزها الفرعان الاجتماعي والمعرفي - إسهامات رئيسية في تطوير دراسة سلوك الانتخاب (أو التصويت كما يشار إليه أيضاً) والبحوث المبكرة في هذا المجال (التي تأثرت بعلم النفس الاجتماعي إلى حد كبير) كانت ذات طابع موقفي بشكل واضح. بينما كانت البحوث اللاحقة

(التي انبثقت من علم الاقتصاد، وعلم النفس المعرفي، والبحوث في العاطفة والانفعال) نزوعية في اتجاهها. والواقع أن تطبيق السكيمات وغيرها من البنى المعرفية على السياسة يجري أكثر ما يجري في نطاق سلوك الانتخاب. وتظهر الفروق بين افتراضات النماذج النظرية لسلوك الانتخاب القائمة على علم الاقتصاد وتلك القائمة على علم النفس واضحة بشكل خاص هنا. ويجدر أن نلاحظ أن دراسة الخيارات الانتخابية في الوقت الحاضر تتأثر بمنظوري (الإنسان الاقتصادي) و(الإنسان النفسي) (هوتون، ٢٠١٥، ص ٢٥٧).

وقد دخل السلوك الانتخابي مجال البحث في علم النفس بشكل حاسم عام ١٩٣٩ على يد عالم النفس الأمريكي بول لازارسفيلد Paul Lazarsfeld وجماعته في جامعة كولومبيا، عندما أجروا دراستهم عن السلوك الانتخابي في مقاطعة إري Erie، وقد تلقى لازارسفيلد تدريباته في البحث في مجال السلوك الانتخابي في المعهد النفسي لجامعة فينّا، لقد عالج لازارسفيلد هذه الإشكالية من خلال وضع تصور نظري للسلوك الانتخابي، يأخذ بنظر الاعتبار المفهوم النظري لاستمرارية السلوك والجانب العملي للسلوك الانتخابي، إذ عدّ لازارسفيلد السلوك الانتخابي بوصفه وحدة كلية من سلوك متسلسل (متتابع) موجه لهدف نهائي لمصلحة حزب أو مرشح. لقد مكّن هذا التصور الباحثين من دراسة السلوك الانتخابي بوصفه كل متكامل منذ بدايات تشكيله وحتى يوم الانتخاب والإدلاء بالتصويت (الأعرجي، ٢٠١٠، ص ٥٣٨).

وكانت تلك النماذج الأولى التي ظهرت في مجال سلوك الانتخاب، من مثل دليل النزعة السياسية الذي وضعه لازارسفيلد موقفية بالكامل في طبيعتها، فقد رأت هذه المقاربة أن التنبؤ الدقيق بسلوك الانتخاب يمكن أن يبني على معرفتنا المستوى الاقتصادي والاجتماعي للناخب، ودينه، ومكان سكنه، وغير ذلك من خصائصه الاجتماعية. فكانت تنظر إلى الناخب على أنه دالة البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الناخب. كما تنظر إلى الناخبين على أنهم يتقبلون الأوضاع الاجتماعية التي يجدون أنفسهم فيها بسلبية. ولم يكفي هذا المنظور المبكر لسلوك الانتخاب كثير من علم النفس، غير أن الستينات من القرن الماضي شهدت تحولاً أساسياً نحو النزوعية أضافت مقاربة التماهي

الحزبي (party identification approach) ، وهو إحدى الصيغ النزوعية التي اخضعت لكثير من المراجعة - متغيراً سيكولوجياً صريحاً إلى ميدان البحث في سلوك الانتخاب. وتقول هذه النظرية بكل وضوح أن الموقف ليس كل شيء، وأن الاختيار الانتخابي لا يتحدد بالوضع الاجتماعي أو الاقتصادي فحسب (هوتون، ٢٠١٥، ص ٢٥٧-٢٥٨).

نظرية لازارسفيلد وآخرون ١٩٣١ في تحليل السلوك الانتخابي:

طور لازارسفيلد وجماعته نظرية في السلوك الانتخابي من خلال إعماله في مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية في جامعة كولومبيا. وقد تأثرت نظريته بمفاهيم مدرسة الجشطت، ومفاهيم مدرسة التحليل النفسي. الأفكار الأساسية لنظرية لازارسفيلد جاءت من خلال تحليله للدوافع الكامنة وراء آراء مجموعة من المراهقين في فينا عن الاحتلال، وكذلك من تحليله للعوامل الداخلية والخارجية الكامنة وراء الدوافع. وهو يرى إن كل سلوك أو أداء ينشأ من التقارب بين الحاجات والأحداث، هو في حقيقة الأمر محصلة للتفاعل المعقد بين هذه العوامل، فالعوامل الداخلية (مثل الحاجات البيولوجية، والضمير، والأفكار، والمعتقدات، واللاشعور) تقرر توجيه السلوك نحو هدف نهائي، والعوامل الخارجية (مثل البيئة الاجتماعية والطبيعية، والأسرة، والأصدقاء) تولد توتراً واختلالاً في التوازن داخل الفرد، فيسلك عندها لخفض هذا التوتر واستعادة التوازن، لقد دأب لازارسفيلد على التحقق من صحة أفكاره هذه تجريبياً. (Lazarsfeld et al, 1931, pp. 28-32). فقد صاغ فيسر "Visser 1998 تصور نظري عن السلوك الانتخابي نص على أن هناك عدة عوامل تحدد السلوك الانتخابي، لا يجب التعامل معها كل على حدة، بل يتم التعامل معها ككل متكامل (جشطت) لتشكيل المجال، وبالتالي يمكن فهم سلوك الناخب عند التصويت حسب ذلك المجال. لكون هذا المجال يتكون من الفرد والبيئة كما يراها الناخب، وعندها يكون هناك تفاعل مستمر بين العمليات المعرفية الإدراكية والدوافع وهذا التفاعل الدينامي هو الذي يحدد السلوك الانتخابي للفرد (Visser, 1998, p. 89). كما تؤكد على أهمية العوامل البيئية الاجتماعية في السلوك الانتخابي، وأهمية الحراك بين الأطراف السياسية، فضلاً

عن أهمية التغيرات في التشكيلات الحزبية والتي تتأثر بشكل أساسي بحجم التشكيل السياسي، كما وتؤكد أهمية التأثيرات النفسية بوصفها وسيط بين التأثيرات الاجتماعية والتصويت. (Visser, 1998, p.37)

الأنموذج النزوعي (الإنسان النفساني):

يؤكد انغوس كامبل (Angus Campbell) وزملائه من جامعة ميشيغن في كتابهم الكلاسيكي الناخب الأمريكي (The American Voter) أن معظم الناخبين يطورون رابطة عاطفية طويلة الأمد، أو نزعة، نحو حزب سياسي معين خلال فترة تكونهم الحزبي أو فترة مراهقتهم. وهذا يعني أننا نطور انتماء إلى واحد من الأحزاب إبان فترة نمونا السياسي - نتيجة لما نسمعه من الوالدين والجيران حول السياسة، أو ما يصلنا من خلال البيئة الاجتماعية التي نعيش فيها - وأن الرابطة التي تنشأ بيننا وبين حزب معين تحدد الجهة التي سنصوت لها بقية حياتنا (ما لم يقع شيء دراماتيكي جداً يجعلنا نغير أفكارنا كما تنتبأ نظرية التناسق المعرفي) وبذلك تتكون النزعات الفردية نحوى السياسة - والتي تتأثر بالتكوين الخاص لنظام الحزب (كأن يكون محافظاً أو ليبرالياً).

وأن تلك المقاربة النزوعية (التماهي الحزبي) تميل الى الثبات عبر الزمن وتقاوم التغيير، فقد يخسر الحزب بعض الانتخابات، وقد يؤدي أداء سيئاً عند وصوله إلى الحكم، وقد يتبنى سياسات في بعض القضايا لا تتفق مع ما تراه أنت، ولكنك تضل تدعم الحزب لأنه حزبك. ويترتب على ذلك أن كثيراً من الناس لا يابھون للقضايا التي تُناقش في الانتخابات بقدر ما يابھون للحزب ذاته. فالعضو المتماهي مع الحزب بقوة، على سبيل المثال، سيميل الى (حذف) أو إهمال المعلومات غير المرغوب بها المتعلقة بالحزب، حتى عندما لا يكون متفقاً مع مرشح الحزب في قضايا سياسية شديدة الأهمية. فان الناس لا يحبون التصرف بشكل يتناقض مع اعتقاداتهم أو أن يكون لديهم اعتقادات لا تتسجم في ما بينها، أو أن يواجهوا بمعلومات تتعارض مع تلك الاعتقادات، وأن جميع هذه الشروط تخلق حالة من الضيق النفسي (هوتون، ٢٠١٥، ص٢٥٨-٢٦٠).

وأن حدوث مثل هذا الضيق يولد لدى الناخب دافعاً لإعادة الأمور الى ما

كانت عليه من توازن (الاتساق Consistency) ويمكن استعادة ذلك الاتساق، بتبرير عدم الاتفاق الذي نشأ بين الناخب والحزب، أو تبرير عدم قبول الناخب لمرشح الحزب، وذلك بالتقليل من أهمية الأمر المختلف عليه (كالقول إن قانون الحقوق المدنية لن يغير شيئاً) أو القول أن (المحكمة العليا هي التي ستتخذ القرار على أي حال، وهكذا...) أو ربما يضيف الشخص اعتقاداً جديداً يقلل التنافر. وأخيراً يستطيع الناخب تغيير انتمائه الحزبي برمته ليستعيد توازنه و يلغي التعارض بين سلوكه الانتخابي وترشيح الحزب بالكامل، غير أن نموذج التماهي الحزبي يؤكد أن هذا الاحتمال الأخير احتمال ضعيف جداً لأن تغيير الانتماء الحزبي للناخب يحتاج إلى حدث كبير كالحرب أو الانهيار الاقتصادي ليحدث في الواقع.

وبناءً على هذا النموذج، فإن غالبية الناس لا يعينهم المرشح ومواقفهم إزاء قضايا الساعة، فالانتخاب بالنسبة إلى معظم المواطنين منبثقاً من (عادة) أو (غريزة) بشكل ما، كما أن المواطن العادي ليس مطلعاً على أمور السياسة اطلاعاً وافياً، ولا يصرف كثيراً من وقته في فحص البرامج الانتخابية للأحزاب الرئيسية وتمحيصها ليقرر من ينتخب، وإنما يأخذ (طريقاً مختصراً) يقطع من خلالها عملية القرار المعقدة بالتصويت للحزب الذي طور نحوه ولاءً طويلاً الأمد منذ الشباب المبكر (هوتون، ٢٠١٥، ص ٢٦١-٢٦٠). كما أشار فيليب إلى أنه نتيجة لقوة المجال السياسي الاجتماعي وحيز الحياة. ففي جزء من حيز الحياة السياسي قد يكون الناخب انتماء لمجموعة أساسية تبعاً لخواص المرشحين من حيث (حبهم وانتسابهم لحزب، وآرائهم اتجاه قضية، وأداءهم في الحكومة، وسمات شخصياتهم) إذ إن عدد المناطق في المجال ودرجة الترابط في ما بينها قد يتفاوت بالاعتماد على تدخل الأنا والعمليات الإدراكية المعرفية للناخب. كما وإن الحاجات الداخلية والخبرات السابقة ستشحن مناطق معينة في حيز الحياة السياسي فتكافؤها إيجابياً وسلبياً، وليعمل المجال النفسي بقوة على توجيه سلوك الناخب. وعلى هذا الأساس يمكن أن يتجه السلوك الانتخابي بالسلب أو الإيجاب (Campbell et al, 1960, p. 66-67)

الفصل الثالث

منهجية البحث وإجراءاته

يتضمن هذا الفصل استعراض للإجراءات التي قامت بها الباحثة من تحديد للمجتمع واختيار العينة الممثلة له، ومن ثم استعمال الوسائل الإحصائية المناسبة لتحليل البيانات ومعالجتها وكما يأتي:

أولاً: مجتمع البحث:

تألف مجتمع البحث الحالي من طلبة الدراسات العليا في كليات الجامعة المستنصرية، والبالغ عددهم (٢٧٠٧) للعام الدراسي ٢٠١٨-٢٠١٩ موزعين على (١٣) كلية علمية وإنسانية بواقع (١٤٠٠) من الذكور، و(١٣٠٧) من الإناث* والجدول رقم (١) يوضح ذلك.

جدول (١) مجتمع البحث

ت	الكلية	النوع		المجموع
		ذكور	أناث	
١	التربية الأساسية	٢١٥	١٩١	٤٠٦
٢	الصيدلة	٤٣	٤٩	٩٢
٣	الطب	٣٤	٤٩	٨٣
٤	العلوم السياحية	٦١	٢١	٨٢
٥	العلوم السياسية	٢٩	٤٠	٦٩
٦	القانون	٤٠	٣٨	٧٨

٧	طب الاسنان	١٩	١٨	٣٧
٨	الادارة والاقتصاد	١٦٧	١٠٩	٢٧٦
٩	العلوم	١٩٣	٢٤٣	٤٣٦
١٠	الهندسة	١٨١	١٦٩	٣٥٠
١١	الاداب	١٣٤	١٤٥	٢٧٩
١٢	التربية	٢٤١	٢٢٤	٤٦٥
١٣	التربية البدنية وعلوم الرياضة	٤٣	١١	٥٤
	المجموع	١٤٠٠	١٣٠٧	٢٧٠٧

*شعبة الدراسات والتخطيط في الجامعة المستنصرية.

ثانياً: عينة البحث:

لقد اعتمدت الباحثة في اختيار عينة بحثها على الطريقة الطبقية العشوائية حيث بلغ عدد أفراد هذه العينة (٢٠٠) طالب وطالبة تم اختيارهم من خمس كليات في الجامعة المستنصرية هي: (كلية العلوم، كلية التربية، الآداب، القانون، الإدارة والاقتصاد)، موزعين على وفق متغيري نوع الجنس والمهنة (يعمل / لا يعمل)، والجدولين (٢)، (٣) يوضحان ذلك.

جدول (٢) عينة البحث موزعة بحسب الجنس (ذكور/إناث)

ت	الكلية	النوع		المجموع
		ذكور	إناث	
١	العلوم	١٨	٢٠	٣٨
٢	الآداب	٢٠	٢١	٤١
٣	التربية	٢١	٢٠	٤١
٤	القانون	١٩	١٩	٣٨
٥	الإدارة والاقتصاد	٢٢	٢٠	٤٢
	المجموع	١٠٠	١٠٠	٢٠٠

جدول (٣) عينة البحث موزعة بحسب العمل (يعمل/لايعمل)

ت	العمل	الجنس		المجموع
		ذكور	إناث	
١	يعمل	٥٠	٥٠	١٠٠
٢	لايعمل	٥٠	٥٠	١٠٠
	المجموع	١٠٠	١٠٠	٢٠٠

ثالثاً: أدوات البحث:

تحقيقاً لأهداف البحث قامت الباحثة ببناء مقياس السخرية السياسية واعتمدت مقياس السلوك الانتخابي المعد من قبل (الأعرجي ٢٠١٠)، وفيما يلي استعراض للإجراءات.

أولاً: مقياس السخرية السياسية:

قامت الباحثة ببناء مقياس السخرية السياسية، الذي تألف من (٢٧) فقرة بصورته الأولى، اعتماداً على الدراسات السابقة مثل دراسة الساعدي ٢٠١٧، والتظير الخاص بمفهوم السخرية، والنظرية المعتمدة في البحث، وقد تكونت استجاباته من ثلاث بدائل، وهي (تتطبق علي كثيراً، تتطبق علي بدرجة متوسطة، لا تتطبق علي) وأعطيت أوزان لكل بديل، إذ كانت الفقرات الايجابية تبدأ (٣-٢-١) والفقرات السلبية (١-٢-٣).

صلاحية الفقرات (الصدق الظاهري):

لغرض التعرف على مدى صلاحية الفقرات، فقد تم عرض المقياس بصورته الأولى على مجموعة من المختصين* في علم النفس لتحديد مدى صلاحية فقراته، وفي ضوء آراء الخبراء تم الإبقاء على الفقرات التي حصلت على نسبة اتفاق ٨٠٪ فأكثر، وبناءً على ذلك، فقد تم الإبقاء على (٢٤) فقرة، إذ سقطت ثلاثة فقرات من المقياس، كما كانت هناك بعض التعديلات اللغوية، وبهذا يكون المقياس مؤلف من (٢٤) فقرة.

تميز الفقرات:

طبق مقياس السخرية السياسية بصورته الأولى على (٢٠٠) فرد، واعتمدت

* ا.د علي عودة محمد / مركز البحوث النفسية /وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

ا.د سهيلة عبد الرضا / كلية التربية/الجامعة المستنصرية

ا.م.د كمال محمد سرحان /كلية الاداب /جامعة بغداد

ا.م.د سناء عبد الكريم الكواز / كلية الاداب /الجامعة المستنصرية.

ا.م.د محمد عباس محمد / مركز البحوث التربوية والنفسية / جامعة بغداد

هذه العينة لأغراض التحليل الإحصائي للفقرات، ومعرفة الفقرات المميزة من غيرها، وكذلك أعدت هذه العينة التطبيق الأساسي بعد حذف الفقرات غير المميزة، وقد تم استعمال أسلوب المجموعتين المتطرفتين وكما يأتي:

المجموعتين المتطرفتين: لغرض اجراء التحليل بهذا الأسلوب تم اتباع الخطوات الآتية:

- تحديد الدرجة الكلية لكل استمارة.
- ترتيب الاستمارات من اعلى درجة الى اقل درجة للمقياس.
- تعيين نسبة ٢٧٪ من الاستمارات الحاصلة على الدرجات العليا في المقياس و ٢٧٪ من الاستمارات الحاصلة على الدرجات الدنيا، وكان عدد الاستمارات في كل مجموعة (٥٤) استمارة، ثم طبق الاختبار التائي لعينتين مستقلتين لاختبار الفرق بين متوسط درجات المجموعة العليا والمجموعة الدنيا في كل فقرة من المقياس، وعدت القيمة التائية مؤشرا لتمييز كل فقرة بمقارنتها بالقيمة الجدولية البالغة (١,٩٦) وقد كانت الفقرات جميعها مميزة عند مستوى دلالة (٠,٠٥) ودرجة حرية (١٠٦)، وبذلك أصبح المقياس بصورته النهائية يتكون من (٢٤) فقرة، والجدول (٤) يوضح ذلك.

الجدول (٤) يوضح القوة التمييزية لفقرات مقياس السخرية السياسية

القيمة التائية المحسوبة	المجموعة الدنيا		المجموعة العليا		ت
	الانحراف المعياري	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الوسط الحسابي	
3.94	.55	2.64	.19	2.96	١
4.76	.68	1.98	.60	2.57	٢

٣	2.83	.46	2.48	.60	3.38
٤	2.81	.47	2.37	.70	3.82
٥	2.33	.70	1.57	.68	5.67
٦	2.70	.53	2.29	.57	3.82
٧	2.70	.63	2.27	.68	3.35
٨	2.59	.65	1.98	.76	4.44
٩	2.94	.23	2.35	.61	6.58
١٠	2.75	.47	2.18	.58	5.60
١١	2.79	.40	2.00	.72	7.02
١٢	2.77	.46	1.96	.67	7.34
١٣	2.37	.65	2.03	.69	2.56
١٤	2.70	.57	2.11	.71	4.74
١٥	2.87	.33	2.61	.56	2.89
١٦	2.6481	.51	2.11	.69	4.56
١٧	2.4259	.71	1.90	.70	3.78
١٨	2.53	.63	1.98	.59	4.67

١٩	2.27	.65	1.44	.66	6.56
٢٠	2.87	.39	2.37	.65	4.82
٢١	2.88	.37	2.22	.69	6.24
٢٢	2.51	.72	1.81	.72	5.04
٢٣	2.87	.39	2.38	.62	4.78
٢٤	2.87	.33	2.00	.70	8.21

علاقة درجة الفقرة بالدرجة الكلية:

استعملت الباحثة معامل ارتباط بيرسون لاستخراج العلاقة الارتباطية بين درجة كل فقرة من فقرات المقياس والدرجة الكلية، وقد كانت معاملات الارتباط دالة معنوياً، عند مقارنتها بقيمة معامل الارتباط الجدولية البالغة (٠,١٣٨) عند مستوى دلالة (٠,٠٥) وبدرجة حرية (١٩٩) والجدول (٥) يوضح ذلك.

الجدول (٥)

يوضح معاملات ارتباط فقرات مقياس السخرية السياسية بالدرجة الكلية للمقياس

الفقرة	معامل الارتباط	الفقرة	معامل الارتباط
1	.263	2	318
3	283	4	.340
5	.391	6	.310

7	.298	8	.315
9	.475	10	.400
11	511	12	.476
13	.196	14	.335
15	.254	16	332
17	.269	18	.350
19	.434	20	.331
21	.467	22	.379
23	.392	24	.517

الخصائص السيكمترية لمقياس السخرية السياسية:

صدق المقياس Scales Validity:

يعد صدق المقياس من الخصائص القياسية المهمة له، لأنه يؤشر قدرة المقياس في قياس ما اعد لقياس (A.P.A,1985,P.9).

— **الصدق الظاهري (Face Validity):** أن أفضل طريقة لأستخراج الصدق الظاهري هي بعرض فقرات المقياس على مجموعة من الخبراء المحكمين للحكم على صلاحيتها في قياس مايراد قياسه (فاتحي، ١٩٩٥، ص ١٠١)، ولقد تحقق هذا النوع من الصدق في المقياس الحالي عندما عرضت فقراته على مجموعة من الخبراء والمختصين في التربية وعلم النفس، كما ذكر سابقاً.

— **صدق البناء (Construct Validity):** أن أحد مؤشرات صدق البناء هي

استخراج القوة التمييزية للفقرات والاتساق الداخلي والذي يستخرج عن طريق ايجاد علاقة الفقرة بالدرجة الكلية وعلاقة المجالات مع بعضها ومع الدرجة الكلية للمقياس، وقد تحقق هذا النوع من الصدق من خلال استعمال طريقتين لاستخراج تمييز الفقرات وهما: أسلوب المجموعتين المتطرفتين وطريقة الاتساق الداخلي.

الثبات Reliability:

تم حساب الثبات لمقياس السخرية السياسية بطريقة ألفا كرونباخ Cronbach Alfa, إذ بلغ معامل الثبات بهذه الطريقة (٠,٧٠) وهو معامل ثبات يمكن الركون اليه.

ثانياً: مقياس السلوك الانتخابي:

بعد اطلاع الباحثة على الأدبيات والدراسات السابقة ذات العلاقة بمفهوم السلوك الانتخابي، فقد اعتمدت الباحثة مقياس السلوك الانتخابي المعد من قبل (الاعرجي ٢٠١٠).

وصف مقياس السلوك الانتخابي:

ويتكون المقياس بصيغته النهائية من (٤٤) فقرة، وقد وضع له بديلين هي (نعم و لا)، وحددت لها الدرجات (٢،١) للفقرات الايجابية و (١، ٢) للفقرات السلبية.

وقد عرض (الاعرجي، ٢٠١٠) المقياس على (١٠) خبراء من المختصين في التربية وعلم النفس إذ تبين أن فقراته ملائمة لمقياس السلوك الانتخابي وبعدها تم تطبيقه على عينة تألفت من (٢٠٠) اختيروا بالطريقة الطبقيّة العشوائية، ولغرض حساب القوة التمييزية والصدق لفقرات المقياس استعمل الباحث طريقتان هما؛ المجموعتان المتطرفتان وعلاقة درجة الفقرة بالدرجة الكلية للمقياس، فضلاً عن استخراج علاقة درجة الفقرة بدرجة المجال للمقياس، ومن ثم تم حساب الثبات باستعمال طريقة التجزئة النصفية إذ بلغت (٠,٧١).

تمييز الفقرات:

بما أن المقياس قد طبق على شريحة أخرى وتجاوز الخمس سنوات، فقد قامت

الباحثة بإعادة إجراءات التحليل الإحصائي واستخراج تمييز الفقرات وعلاقة درجة الفقرة بالدرجة الكلية فضلا عن الخصائص السيكمترية، إذ طبق مقياس السلوك الانتخابي بصورته الأولية على (٢٠٠) فرد، واعتمدت هذه العينة لأغراض التحليل الإحصائي للفقرات، ومعرفة الفقرات المميزة من غيرها، وكذلك أعدت هذه العينية التطبيق الأساسي بعد حذف الفقرات غير المميزة، وقد تم استعمال أسلوب المجموعتين المتطرفتين وكما يأتي:

المجموعتين المتطرفتين: لغرض إجراء التحليل بهذا الأسلوب تم اتباع الخطوات الآتية:

- تحديد الدرجة الكلية لكل استمارة.

- ترتيب الاستمارات من أعلى درجة الى أقل درجة للمقياس.

— تعيين نسبة ٢٧٪ من الاستمارات الحاصلة على الدرجات العليا في المقياس و٢٧٪ من الاستمارات الحاصلة على الدرجات الدنيا، وكان عدد الاستمارات في كل مجموعة (٥٤) استمارة، وقد استعمل مربع كاي ومعامل فاي لمعرفة الفروق بين درجات المجموعة العليا والدنيا على كل فقرة من فقرات المقياس، وتبين ان قيمة مربع كاي المحسوبة لجميع الفقرات أكثر من قيمة مربع كاي الجدولية البالغة (٣.٨٤) عند مستوى (٠.٠٥) وبدرجة حرية (١)، وهذا يشير الى ان جميع الفقرات دالة إحصائيا لكن من عيوب مربع كاي هو عدم معرفة اتجاه الفروق، أي جميع قيم مربع كاي تكون موجبة، ويشير (السيد، ١٩٧٩) ان لمعرفة اتجاه الفروق او العلاقة للمتغيرات غير المستمرة أي المتغيرات النفسية التي تنقسم الى فئتين فقط مثل اندفاعي / تأملي او نعم لا أو (درجتين، درجة واحدة) يمكن استعمال معامل فاي لانه يصلح لتحليل فقرات المقاييس النفسية (السيد، ١٩٧٩: ٣٧٢-٣٧٦).

وبذلك نستطيع معرفة دلالة الفروق من خلال مربع كاي واتجاه الفروق (بالسالب، ام الموجب) من خلال معامل فاي وبذلك عدت فقرات المقياس جميعها مقبولة على وفق هذه الدلالة وبذلك أصبح المقياس بصورته النهائية يتكون من (٤٤) فقرة، والجدول (٦) يوضح ذلك.

الجدول (٦) يوضح القوة التمييزية لفقرات مقياس السلوك الانتخابي

رقم الفقرة	المجموعة العليا		المجموعة الدنيا		قيمة مربع كاي		قيمة فاي	الدلالة ...٥
	واحد	اثنان	واحد	اثنان	المحسوبة	الجدولية		
١.	3	51	23	31	20.263 ^a	٣.٨٤	.433	دالة موجبة
٢.	7	47	36	18	32.497 ^a		.549	دالة موجبة
٣.	4	50	31	23	30.815 ^a		.534	دالة موجبة
٤.	8	46	33	21	24.572 ^a		.477	دالة موجبة
٥.	5	49	26	28	19.953 ^a		.430	دالة موجبة
٦.	2	52	25	29	26.123 ^a		.492	دالة موجبة
٧.	14	40	39	15	23.156 ^a		.463	دالة موجبة
٨.	11	43	34	20	20.152 ^a		.432	دالة موجبة
٩.	13	41	42	12	31.159 ^a		.537	دالة موجبة
١٠.	11	43	28	26	11.599 ^a		.328	دالة موجبة

دالة موجبة	.532		30.545 ^a	19	35	47	7	١١
دالة موجبة	.381		15.708 ^a	38	16	53	1	١٢
دالة موجبة	.570		35.065 ^a	18	36	48	6	١٣
دالة موجبة	.449		21.812 ^a	19	35	43	11	١٤
دالة موجبة	.478		24.725 ^a	25	29	49	5	١٥
دالة موجبة	.192		3.971 ^a	29	25	39	15	١٦
دالة موجبة	.712		54.682 ^a	12	42	50	4	١٧
دالة موجبة	.495		26.419 ^a	24	30	49	5	١٨
دالة موجبة	.543		31.811 ^a	24	30	51	3	١٩
دالة موجبة	.481		24.938 ^a	28	26	51	3	٢٠
دالة موجبة	.579		36.185 ^a	25	29	53	1	٢١
دالة موجبة	.415		18.563 ^a	21	33	43	11	٢٢

دالة موجبة	.312		10.500 ^a	35	19	49	5	٢٣
دالة موجبة	.406		17.763 ^a	28	26	48	6	٢٤
دالة موجبة	.653		46.032 ^a	20	34	53	1	٢٥
دالة موجبة	.473		24.150 ^a	20	34	45	9	٢٦
دالة موجبة	.375		15.147 ^a	21	33	41	13	٢٧
دالة موجبة	.507		27.771 ^a	18	36	45	9	٢٨
دالة موجبة	.549		32.497 ^a	18	36	47	7	٢٩
دالة موجبة	.594		38.051 ^a	24	30	53	1	٣٠
دالة موجبة	.559		33.750 ^a	15	39	45	9	٣١
دالة موجبة	.470		23.810 ^a	19	35	44	10	٣٢
دالة موجبة	.594		38.051 ^a	24	30	53	1	٣٣
دالة موجبة	.518		29.017 ^a	24	30	50	4	٣٤

٣٥	10	44	46	8	48.066 ^a	.667	دالة موجبة
٣٦	4	50	37	17	42.815 ^a	.630	دالة موجبة
٣٧	12	42	41	13	31.159 ^a	.537	دالة موجبة
٣٨	14	40	31	23	11.010 ^a	.319	دالة موجبة
٣٩	10	44	42	12	37.978 ^a	.593	دالة موجبة
٤٠	5	49	25	29	18.462 ^a	.413	دالة موجبة
٤١	12	42	35	19	19.927 ^a	.430	دالة موجبة
٤٢	8	46	18	36	5.066 ^a	.217	دالة موجبة
٤٣	8	46	41	13	40.682 ^a	.614	دالة موجبة
٤٤	13	41	33	21	15.147 ^a	.375	دالة موجبة

علاقة درجة الفقرة بالدرجة الكلية:

استعملت الباحثة معامل ارتباط بوينت باي سيريل لاستخراج العلاقة الارتباطية بين درجة كل فقرة من فقرات المقياس والدرجة الكلية، وقد كانت معاملات الارتباط دالة معنوياً، عند مستوى دلالة (٠,٠٥) وبدرجة حرية (١٩٩) والجدول (٧) يوضح ذلك.

الجدول (٧)

يوضح معاملات ارتباط فقرات مقياس السلوك الانتخابي بالدرجة الكلية للمقياس

معامل الارتباط	الفقرة	معامل الارتباط	الفقرة
.442**	2	.354**	1
.392**	4	.374**	3
.387**	6	.365**	5
.380**	8	.299**	7
.295**	10	.449**	9
.258**	12	.428**	11
.379**	14	.440**	13
.193**	16	.409**	15
.338**	18	.580**	17
.363**	20	.441**	19
.344**	22	.421**	21
.384**	24	.245**	23
.416**	26	.509**	25
.403**	28	.275**	27
.406**	30	.440**	29
.400**	32	.471**	31
.399**	34	.491**	33

.504**	36	.556**	35
.282**	38	.423**	37
.285**	40	.454**	39
.148*	42	.367**	41
.297**	44	.451**	43

الثبات Reliability:

تم حساب الثبات لمقياس السلوك الانتخابي بطريقة التجزئة النصفية، إذ بلغ معامل الارتباط بين نصفي المقياس كان مقدارها (٠,٧٥)، كما تم تصحيح معامل الارتباط بمعادلة سبيرمان براون فكان مقداره (٠,٨٧) وهي قيمة تدل على ثبات عالي.

رابعاً: التطبيق النهائي:

بعد استخراج الخصائص السايومتريّة لمقياس السخرية السياسية والسلوك الانتخابي والتحقق من صدقهما وثباتهما، قامت بتطبيقهما على عينة البحث البالغة ٢٠٠ فرد.

خامساً: الوسائل الإحصائية:

- الاختبار التائي (T-test) لعينتين مستقلتين.
- معامل ارتباط بيرسون.
- معامل ارتباط بوينت باي سيريل
- معادلة ألفا كرونباخ.
- معادلة التجزئة النصفية.
- معادلة سبيرمان براون
- الاختبار التائي (T-test) لعينة واحدة.

- القيمة التائية لدلالة معاملات الارتباط.
- مربع كاي

الفصل الرابع: عرض النتائج وتفسيرها

يتضمن هذا الفصل عرضاً للنتائج التي تم التوصل إليها في البحث الحالي تبعاً لأهدافه بعد تحليل البيانات، ومن ثم تفسير هذه النتائج وعلى النحو الآتي:

الهدف الأول: التعرف على السخرية السياسية لدى طلبة الجامعة:

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي إن متوسط درجات العينة للسخرية السياسية بلغ (٥٧.٩٩) وبانحراف معياري مقداره (٥.٥٨)، بينما كان المتوسط الفرضي للمقياس (٤٨)، وباستعمال الاختبار التائي (t-test) لعينة واحدة، ظهر أن القيمة التائية المحسوبة كانت (١١.٣١) وعند مقارنتها بالقيمة الجدولية البالغة (١.٩٦) تبين أنها دالة إحصائياً عند مستوى (٠.٠٥) وبدرجة حرية (١٩٩)، مما يعني أن أفراد عينة البحث لديهم سخرية سياسية والجدول (٨) يوضح ذلك.

الجدول (٨)

الاختبار التائي للفرق بين المتوسط الحسابي والفرضي لعينة البحث في السخرية السياسية

مستوى الدلالة (٠.٠٥)	القيمة التائية		المتوسط الفرضي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	العينة
	الجدولية	المحسوبة				
دالة	١.٩٦	١١.٣١	٤٨	٥.٥٨	٥٧.٩٩	٢٠٠

سبب سخرية طلبة الجامعة إزاء الطبقة السياسية ترجع إلى عدم مصداقية الأحزاب السياسية في تطبيق برامجها الانتخابية والتي على أساسها تم اختيارهم لها وضعف إدارة المؤسسات التي تصدوا لها الأمر الذي أدى اتساع الهوة بين المسؤولين والمواطنين ومن ثم نجد المواطن يسخر من إي كلام أو وعد من قبل الطبقة المتنفذة سياسياً ولما كانت السخرية ناتجاً بالدرجة الأساس عن نمط معين

من المعلومات التي تدخل البناء المعرفي للأفراد، فيمكن القول بأن عينة البحث كانت متعرضة إلى كم من المعلومات السلبية عن مجمل الأداء السلبي، وهذا ما أشارت دراسة hardin 1998 متزامن مع استياء طويل الأمد ناتج عن توالي الإخفاقات في الأداء الحكومي المتعاقب في العراق جعل الأفراد يكونون في حالة من عدم التوازن المعرفي الذي ينتج عن تضارب في المعلومات الداخلة إلى نظام الأفراد المعرفي وهنا قد يبدو السخرية وكأنه ناتج عن عدم اتساق الأفراد، بينما يتوقعونه من السياسيين، وما هو واقع فعلا.

الهدف الثاني: دلالة الفروق في السخرية السياسية لدى طلبة الجامعة على وفق متغيري:

- المهنة (يعمل / لا يعمل).

ولتحقيق هذا الهدف تم حساب متوسط درجات كل من الأفراد الذين يعملون والذين لا يعملون كلاً بمعزل عن الآخر في مقياس (السخرية السياسية) إذ بلغ متوسط درجات الأفراد الذين يعملون (٥٦.٤٨) وبانحراف معياري مقداره (٥.١٨)، بينما كان متوسط درجات الذين لا يعملون (٥٩.٥١) وبانحراف معياري مقداره (٥.٦)، وباستعمال الاختبار التائي لعينتين مستقلتين، ظهر أن القيمة التائية المحسوبة (٣.٨٩) وعند مقارنتها بالقيمة الجدولية البالغة (١.٩٦) تبين انها دالة احصائياً في السخرية السياسية ولصالح الأفراد الذين لا يعملون، عند مستوى (٠,٠٥) ودرجة حرية (١٩٨)، والجدول (٩) يوضح ذلك.

الجدول (٩) الاختبار التائي وفقاً لمتغير العمل في السخرية السياسية

النوع	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	القيمة التائية		مستوى الدلالة (٠,٠٥)
				المحسوبة	الجدولية	
يعمل	١٠٠	٥٦.٤٨	٥.١٨	٣.٨٩	١.٩٦	دالة لصالح الذين لا يعملون
لا يعمل	١٠٠	٥٩.٥١	٥.٦			

يمكن أن تفسر الباحثة ذلك على أساس إن المواطن الذي ليس لديه عمل حر او وظيفة معينة يكون في تدمير وسخرية دائمة إزاء الواقع السياسي المتردي ويتقن في طريقة التعبير عن ذلك كونه يمتلك الوقت الذي يمنحه ذلك وإذكاء النزعة السلبية نحو السياسيين، والتي جاءت نتيجة للوضع الاجتماعي العام الواقع تحت تأثير الأزمات السياسية والأمنية والاقتصادية، يمكن القول بأن السخرية السياسية ناتجة عن كم من المعلومات حول السياسيين تدفع الفرد إلى مشاعر سلبية الأمر الذي أدى الى تغيير في البنية المعرفية نتج عنها تغيير في الجوانب الوجدانية، مما سبب حدوث حالة انخفاض الثقة بشكل عام بالأداء السياسي، وهذا ما أكدت عليه دراسة Eissinger 2000 في حين قد نجد الطالب الجامعي الذي يكون لديه عمل ومنهمك في مسؤولياته المنزلية وفي محيط العمل بالعادة قد لا يكون لديه وقت كافٍ للخوض في الواقع السياسي.

- الجنس (ذكور / إناث).

ولتحقيق هذا الهدف تم حساب متوسط درجات كل من الذكور والإناث كلاً بمعدل عن الآخر في مقياس (السخرية السياسية) إذ بلغ متوسط درجات الذكور (٥٧.٣٨) وبانحراف معياري مقداره (٣.١٥)، بينما كان متوسط درجات الإناث (٥٧.٦١) وبانحراف معياري مقداره (٤.٧٢)، وباستعمال الاختبار التائي لعينتين مستقلتين، ظهر أن القيمة التائية المحسوبة (٠.٧٧) وعند مقارنتها بالقيمة الجدولية البالغة (١,٩٦) تبين انها غير دالة إحصائياً في السخرية السياسية، اي بمعنى لا يوجد فرق بين الذكور والإناث في السخرية السياسية، عند مستوى (٠,٠٥) ودرجة حرية (١٩٨)، والجدول (١٠) يوضح ذلك.

الجدول (١٠) الاختبار التائي وفقاً لمتغير الجنس في السخرية السياسية

النوع	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	القيمة التائية		مستوى الدلالة (٠,٠٥)
				المحسوبة	الجدولية	
ذكور	١٠٠	٥٧.٣٨	٣.١٥	٠.٧٧	١,٩٦	غير دالة

إناث	١٠٠	٥٧.٦١	٤.٧٢		
------	-----	-------	------	--	--

تفسر الباحثة هذه النتيجة من خلال إن السخرية كظاهرة اجتماعية لا تختزل بجنس معين ذكور ام إناث كون الواقع السياسي جزء لا يتجزأ من من الواقع المجتمعي والمعروف إن السياسية تحرك كل شيء وان عينة البحث كانت تتعرض إلى مدخلات متشابهة إلى بنائها المعرفي جعلتهم في حالة مقاربة من التقييم السلبي لمجمل الأداء السياسي ولاسيما وان جميع أفراد العينة يعيشون في بيئة اجتماعية واحدة فإنّ عينة البحث قدّمت نتائج متسقة مع هذا الجو العام تجاه مجمل الأداء السياسي، كونه غير جدير بالثقة ولا يمكن الاعتماد عليه وبحسب ما أشارت له دراسة Rijkhoff 2008.

الهدف الثالث: التعرف على السلوك الانتخابي لدى طلبة الجامعة:

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي إن متوسط درجات العينة للسلوك الانتخابي بلغ (٥٥.٨) وبانحراف معياري مقداره (٨.٠٨)، بينما كان المتوسط الفرضي للمقياس (٦٦)، وباستعمال الاختبار التائي (t-test) لعينة واحدة، ظهر أن القيمة التائية المحسوبة كانت (٠.٧٣) وعند مقارنتها بالقيمة الجدولية البالغة (١,٩٦) تبين أنها غير دالة إحصائياً عند مستوى (٠,٠٥) وبدرجة حرية (١٩٩)، مما يعني أن أفراد عينة ليس لديهم سلوك انتخابي والجدول (١١) يوضح ذلك.

الجدول (١١)

الاختبار التائي للفرق بين المتوسط الحسابي والفرضي لعينة البحث في السلوك الانتخابي

العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الفرضي	القيمة التائية		مستوى الدلالة (٠,٠٥)
				المحسوبة	الجدولية	
٢٠٠	٥٥.٨	٧.٦٥	٦٦	٠.٧٣	١,٩٦	غير دالة

يمكن ان تعزى هذه النتيجة الى تردي الأوضاع الاقتصادية والخدمية وتفاقم المشاكل الاجتماعية، وكثرة عمليات التزوير للنتائج الانتخابية، وفشله الأحزاب

الحاكمة في تحقيق الرخاء وهذا ما اشارت له دراسة وفشله الأحزاب الحاكمة في تحقيق الرخاء وهذا ما أشارت له دراسة Lee2004 وبذلك فان ضعف إدارة أحزاب السلطة لمؤسسات الدولة أدى إلى خلق حالة من اليأس والإحباط لدى المواطن ومن ثم عزوفه عن المشاركة الانتخابية.

الهدف الرابع: دلالة الفروق في السلوك الانتخابي لدى طلبة الجامعة على وفق متغيري:

- المهنة (يعمل / لا يعمل).

ولتحقيق هذا الهدف تم حساب متوسط درجات كل من الأفراد الذين يعملون والذين لا يعملون كلاً بمعزل عن الآخر في مقياس (السلوك الانتخابي) إذ بلغ متوسط درجات الأفراد الذين يعملون (٥٥.١٢) وبانحراف معياري مقداره (٧.٧٤)، بينما كان متوسط درجات الذين لا يعملون (٥٥.٠٨) وبانحراف معياري مقداره (٧.٥٧)، وباستعمال الاختبار التائي لعينتين مستقلتين، ظهر أن القيمة التائية المحسوبة (٠.٨٨) وعند مقارنتها بالقيمة الجدولية البالغة (١,٩٦) تبين أن ليس هناك فروق ذات دلالة احصائية بين الذين يعملون والذين لا يعملون في مقياس السلوك الانتخابي عند مستوى (٠,٠٥) ودرجة حرية (١٩٨)، والجدول (١٢) يوضح ذلك.

الجدول (١٢) الاختبار التائي وفقاً لمتغير العمل في مقياس السلوك الانتخابي

النوع	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	القيمة التائية		مستوى الدلالة (٠,٠٥)
				المحسوبة	الجدولية	
يعملون	١٠٠	٥٥.١٢	٧.٧٤	٠.٨٨	١,٩٦	غير دالة
لا يعملون	١٠٠	٥٥.٠٨	٧.٥٧			

الجنس (ذكور / اناث).

ولتحقيق هذا الهدف تم حساب متوسط درجات كل من الذكور والإناث كلاً بمعزل عن الآخر في مقياس (السلوك الانتخابي) إذ بلغ متوسط درجات الذكور (٥٥.٠٥) وبانحراف معياري مقداره (٩.٨٩), بينما كان متوسط درجات الإناث (٥٥.١٥) وبانحراف معياري مقداره (٤.٤١), وباستعمال الاختبار التائي لعينتين مستقلتين, ظهر أن القيمة التائية المحسوبة (٠.٨٣) وعند مقارنتها بالقيمة الجدولية البالغة (١,٩٦) تبين أن ليس هناك فروق بين الذكور والإناث في السلوك الانتخابي عند مستوى (٠,٠٥) ودرجة حرية (١٩٨), والجدول (١٣) يوضح ذلك.

الجدول (١٣) الاختبار التائي وفقاً لمتغير الجنس في السلوك الانتخابي

النوع	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	القيمة التائية		مستوى الدلالة (٠,٠٥)
				المحسوبة	الجدولية	
ذكور	١٠٠	٥٥.٠٥	٩.٨٩	٠.٨٣	١,٩٦	غير دالة
إناث	١٠٠	٥٥.١٥	٤.٤١			

ان السلوك الانتخابي المتمثل بالمشاركة السياسية للطلاب الجامعي ذكراً كان ام انثى يعمل او لا يعمل يعتبر حق ومن ثم فانه يمارس هذا الحق او يتخلى عنه قد يكون ذلك مرهون بمستوى الأداء السابق للحكومات التي تم انتخابها فالمواطن ادرك عدم قدرة السياسيين على الوفاء بالوعود التي قطعوها خلال حملاتهم الانتخابية وهذا توصلت اليه دراسة Kristofdhont 2012.

الهدف الخامس: الكشف على طبيعة العلاقة الارتباطية بين السخرية السياسية والسلوك الانتخابي للعينة ككل:

بعد تحليل النتائج باستعمال معامل ارتباط بيرسون فإنه لا توجد علاقة ارتباطية بين السخرية السياسية والسلوك الانتخابي للعينة ككل, إذ بلغت قيمة معامل الارتباط (٠,١٣١) و هي اقل من قيمة بيرسون الجدولية البالغة

(٠,١٣٨)، وباستعمال الاختبار التائي لمعرفة دلالة معامل الارتباط بلغت القيمة التائية المحسوبة (١,٦٣) وهي اصغر من القيمة الجدولية (١,٩٦) عند مستوى دلالة (٠,٠٥) ودرجة حرية (١٩٩).

السخرية وسيلة للتعبير عن القضايا التي تدعو للانتقاد بلغة مجتمعية ساخرة التي قد لا تكون هي السبب المباشر في السلوك الانتخابي المرتبط شأنه بمدى مصداقية الأحزاب في تطبيق ما سوقت له انتخابياً امام الطالب الجامعي كونه مواطن. لما كانت هناك عملية تعميم لمشاعر النفور تجاه (الأحداث والسياسيين) في وقت وأحد فالفرد الذي يقدم مواقف مشككة في الأحداث التي تقع في محيطه، سيتم تعميمها لتشمل مجمل الأداء السياسي بوصفه غير موثوق به. وأصبحت السلبية والانفصال عن العملية السياسية التي لأتسمح بوجود الأمل عند المواطن وهذا ما قد أكدت عليه دراسة Sloterdijk2005 ولما كانت هذه المعطيات لها تأثير كبير في كلا المتغيرين فإن تأثيراتها ستكون متسقة بطبيعة الحال.

التوصيات:

في ضوء نتائج البحث توصي الباحثة بالآتي:

١- العمل على وضع تطبيق الكتروني للاستشارات الانتخابية او المساعدة الانتخابية يمكن استخدامه في الأجهزة الذكية تقوم بأعداده المفوضية العليا المستقلة للانتخابات اذ يمكن من خلالها أن يتأثر السلوك الانتخابي بتطبيقات الاستشارات الانتخابية: من خلال تحفيز المستخدمين على تحفيز المشاركة في الانتخابات.

٢- تنمية مستوى الوعي لكافة شرائح المجتمع العراقي، بأهمية دورهم في ممارسة حقهم السياسي (حق الانتخاب)، وانعكاس ذلك على تطور المجتمع اقتصادياً وحضارياً وأمنياً ومجتمعياً، وعدم الاهتمام بالوضع العام للبلاد بسبب فشل بعض الأحزاب في إدارتها للمؤسسات التي تصدت لها

٣- أن تقوم مؤسسات الدولة المتمثلة بوزارة التعليم العالي ووزارة الثقافة ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية المفوضية العليا المستقلة للانتخابات

والمفوضية العليا لحقوق الإنسان بالاشتراك مع وسائل الإعلام ومنظمات المجتمع المدني ذات الاختصاص؛ في الشروع بالتثقيف في أهمية الانتخابات ومخرجاتها على مصير ومستقبل البلد، سواء من الناحية السلبية مثل العزوف عن المشاركة بسبب فكرة السخرية وعدم الاهتمام واللامبالاة، أو بالمشاركة الفاعلة والتغيير للأفضل.

المقترحات:

وتقترح الباحثة اجراء دراسة عن:

- ١- السلوك الانتخابي مع بعض المتغيرات مثل التعصب، والتطرف، والانتماء للأحزاب السياسية .
- ٢- مقارنة للسلوك الانتخابي في الانتخابات النيابية للعراق مع السلوك الانتخابي للدول التي تتشابه في التركيبة الاجتماعية والديموقراطية مثل لبنان.

المصادر:

- الأعرجي، ابراهيم مرتضى (٢٠١٠). السلوك الانتخابي وعلاقته بالاعتقاد بعدالة العالم، لدى طلبة جامعة بغداد، دراسة عن الانتخابات النيابية في العراق عام ٢٠١٠. مجلة كلية الآداب، العدد ٩٨.
- الساعدي، أحمد صدام (٢٠١٧). التهكم السياسي وعلاقته بالاعتقاد بنظرية المؤامرة، اطروحة دكتوراه غير منشورة.
- الشامي، محمود محمد صالح (٢٠١١). مستوى المشاركة السياسية لدى الشباب الجامعي الفلسطيني في عصر العولمة، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد التاسع، العدد الثاني، ص ١٢٣٧-١٢٧٧.
- هوتون، دايفد باتريك (٢٠١٥) علم النفس السياسي: أوضاع، وأفراد، وحالات. ترجمة ياسمين حداد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت.
- Campbell, A., P.E. Converse, W.E. Miller & D.E. Stokes (١٩٦٠) The American voter. New York: Wiley.
- Chaloupka, W. (1999). Everybody knows, cynicism in America. (6th ed.). University of Minnesota Press Minneapolis, London.

- Collins, Judith (2013): (Preventing Identity Theft in Your Business How to Protect Your Business, Customers, and Employees), John Wiley & Sons, Inc.
- Conway, Margaret M. (2000). Political Participation in the United States. Washington D.C.: CQ Press. L., & Jervis, R. (Eds), Oxford Handbook of Political Psychology, New York:
- Lazarsfeld, P.F. (1959) Reflections on business. American Journal of Sociology, Volume ٦٥, PP. ١- ٣١.
- Lazarsfeld, P.F., C. Bühler, B. Biegeleisen, H. Hetzer & K. Reininger. Reininger (1931)) Jugend und Beruf. Kritik und Material. Jena: Fischer.
- Marcus, G.E. (2003). The psychology of emotion and politics. In Sears, D.O., Huddy Minneapolis/London: University of Minnesota Press.
- Marien, Sofie and Marc Hooghe. 2011. “Does Political Trust Matter? An Empirical Investigation into the Relation between Political Trust and Support for Law Compliance.” European Journal of Political Research 50: 267-291.
- Oxford University Press, PP. 182-221
- Proefschrift, Arther (2007): Organizational cynicism on the nature, antecedents, and consequences of employee cynicism toward the employing organization. Unpublished Dissertation, University of Maastricht.
- Sanne A. M. Rijkhoff (2008)The Dark Side of Politics:Kynicism, Cynicism and Political Behaviour. Leiden University Paper prepared for the 2008 Annual meeting of theInternational Societyof Political Psychology, Paris, July 9-12.Unit: Electoral Behaviour, Participation and Public OpinionSession: 4C, Cynicism, Emotion and Voting.
- Sloterdijk, P. (2005). Critique of cynical reason. Theory and History of Literature, 40, School of Politics, Philosophy and Public Affairs.
- SUSANNA, A. M. RIJKHOFF(2015). THE MEASUREMENT AND

ASSESSMENT OF POLITICAL CYNICISM AND THE CONSEQUENCES FOR POLITICAL PARTICIPATION, A dissertation DOCTOR OF PHILOSOPHY, WASHINGTON STATE UNIVERSITY,

- Visser, M (1998) Five theories of voting action strategy and structure of psychological explanation,
<http://doc.utwente.nl/1/1346/t0000001.pdf>.
- Vreese, De, Claes H. (2005). "The Spiral of Cynicism Reconsidered." European Journal of Communication 20: 283-301.

دور الارشاد النفسي في معالجة المشكلات الاجتماعية والسلوكية التفكك الاسري وادمان المخدرات أنموذجاً

م. د. عدي جبر كاظم

مديرية تربية واسط - تربية العزيزية

معنى التنشئة الاسرية:

تعتبر الاسرة جماعة اجتماعية اساسية ودائمة ونظام اجتماعي رئيس وهي ليست اساس وجود المجتمع فحسب بل مصدر الاخلاق والدعامة الاولى لضبط السلوك والاطار الذي يتلقى فيه الانسان اول دروس الحياة الاجتماعية، وتؤكد معظم الدراسات على اهمية وجود علاقة بين طبيعة التنشئة الاسرية والسلوك السوي وذلك لتحقيق غاية التنشئة من تطوير لبعض المفاهيم المتصلة بالسلوك لدى الابناء ومساعدتهم على التمييز بين الاستجابات المتوافقة اجتماعياً وتلك غير المتوافقة، وتؤكد الدراسات على وجود علاقة بين طبيعة التنشئة الاسرية والسلوك المنحرف كالإدمان على المخدرات فإن كانت قاسية تؤدي الى الكبت والتمرد، واذ كانت متراخية فإنها تؤدي الى عدم اللامبالاة او التصرف بدون ضوابط وهذه التنشئة الغير سوية منشؤها والسبب المؤدي لها التفكك الاسري الذي ينخر جسد الاسرة، و تختلف الاساليب التي تتبعها الاسر في تنشئة ابنائها من اسرة لأخرى وكالاتي:-

اولاً: التنشئة العقلانية والتي تقوم على الحب المرتبط بعقلانية وفهم للموقف وملابساته وترتكز على التطبيق الجيد للثواب والعقاب من جهة والتشجيع والارشاد والتوجيه من جهة اخرى، ويكون العقاب هو حرمان من الثواب ومن المكافآت التي سبق ان حصل عليها وهذا يحقق الضبط المتوازن.

ثانياً: التنشئة القائمة على العقاب باستخدام العنف المرتبط بالغضب والتهديد لبلوغ درجة الكف السريع للأخطاء السلوكية.

ثالثاً: التنشئة المتراخية القائمة على اللامبالاة المطلقة او الاهمال حيث لا يكلف الوالدين نفسيهما اي مشقة في استخدام اي اسلوب من اساليب ضبط

السلوك.

رابعاً: التذبذب بين اللين والشدّة حيث يعتمد احد الابوين الى اسلوب معين يركز على الشدة والقسوة سواء البدنية او النفسية او هما معاً بينما يتخذ الطرف الثاني اسلوباً معاكساً له.

خامساً: التنشئة غير المنتظمة او غير المتناسقة التي تعتمد على اساليب متعددة تتأرجح بين الشدة واللين واللامبالاة (عثمان, ٢٠٠٥: ٥٩).

التوافق والانسجام الاسري:

ان الاسرة هي المجال الاجتماعي الاول الذي ينشأ فيه الطفل وتعتبر المسؤول المباشر الاول عن نموه نمواً طبيعياً او غير طبيعي حيث تؤثر المتغيرات البيئية تأثيراً مهماً في توافق الابناء سواء كان ذلك في نوع علاقة الوالدين بالابناء والتمثلة في تحديد المجال النفسي الذي يعيشه الطفل مع والديه او في تربية الابناء اي ما يتلقاه الطفل من التدريب السلوكي من الوالدين, ويشير علماء النفس الى ان الخبرات المبكرة التي يخبرها الطفل في السنوات الاولى تؤثر تأثيراً مهماً في

تكوين شخصيته ونموها وتشكيل سلوكه وبأن هناك علاقة مباشرة وواضحة بين اساليب المعاملة الوالدية, وسلوك الطفل وشخصيته, فقد أكد فرويد (Freud) ان نوع الشخصية المميزة تتكون في الطفولة من طبيعة التعامل والتفاعل بين الطفل ووالديه ومن تماسك الاسرة وعدم تفككها خاصة في السنوات الخمس الاولى (كوري, ٢٠١١: ١٠٣).

وركز ادلر (Adler) على اهمية علاقة الطفل بوالديه وعلى معاملة الزوج لزوجته ومعاملتها لأولادهم في خلق شخصية الفرد وفي توافقه مع نفسه ومع البيئة وان الاستقرار الاسري والتماسك والتفاعل الايجابي هو شرط اساس للنمو الانفعالي للطفل في حين التفكك والانحلال الاسري سوف تكون عواقبه مدمرة للابناء والاسرة والمجتمع, كما اظهرت دراسات عديدة بأن الابناء الذين لم يحصلوا على عطف أبوي كافٍ ونشئوا في جو اسري لا يسوده الحب والوئام والانسجام كانوا أقل امناً وأقل ثقة بالنفس وأقل توافقاً في علاقاتهم الاجتماعية

واكثر استعداداً للانحراف (الزبيدي والشمري, ١٩٩٩: ٨٢).

عناصر التنشئة الاسرية الاساسية:

- هناك عناصر عديدة للتنشئة الاسرية الاساسية نذكر منها الآتي:-
- ١- الانتظام والتناسق في اسلوب التنشئة المتبع ويعني ان تكون التنشئة عقلانية من حيث الهدف متناسقة من حيث الاسلوب فالإدراك العقلاني لعناصر كل موقف واستيعاب المبررات الكافية للتعامل معه بأسلوب معين لا شك اقدر على خلق ضوابط داخلية او بلورة ذات عليا سوية لدى الطفل بوجه عام.
 - ٢- الاسلوب المناسب وتعني ملائمة العقاب للموقف بحيث يكون العقاب ومبررات استخدامه مقنعة لكل من الاب والابن فالعقاب يصبح اجدي لخلق الضوابط الداخلية الصحيحة لدى الطفل.
 - ٣- نوعية العقاب ذاته فقد يكون العقاب بدنياً نفسياً او عاطفياً، واثبتت التجارب ان اختيار نوع العقاب الصائب في كل حالة يحقق جدوى العقاب، فقد يستبدل بالعقاب البدني احيانا بعقاب نفسي او وجداني حين يشعر الطفل بفقدانه لعطف ابويه او حين يشعر بفقد بعض الامتيازات التي كان ينعم بها.

ويرى الباحث ان المشاجرات والمنازعات بين افراد الاسرة تنعكس سلباً على تماسك الاسرة واستقرارها وان ذلك يؤدي بدوره الى الانحراف خاصة اذا ما كان لهذه النزاعات صفة الاستمرارية، كذلك دور الاباء والامهات لا يقتصر على توفير المال والطعام والملبس والمسكن لأبنائهم بل يمتد لتوفير الحب والحنان والرعاية النفسية التي لا يجدون لها بديلاً عند اي فرد اخر، ان غياب التوجيه والارشاد الاسري نتيجة انحراف الاباء وسعيهم للكسب المادي من دون الالتفات الى الابناء والاهتمام بهم والخلافات بين الوالدين وغياب القدوة الحسنة في الاسرة قد يؤدي بالأبناء الى تعاطي المخدرات كذلك الفراغ الروحي وكثرة الرسوب والتخلف الدراسي وتعاطي الابوين وغياب احدهما عن الاسرة وضعف الالتزام الديني والقسوة المفرطة التي يتعرض لها الابناء من قبل ابائهم يجعلهم اكثر عرضة لتعاطي المخدرات.

الاسرة والمجتمع:

يؤكد علماء الانسان (انثروبولوجي) اهمية الاطر الثقافية والاجتماعية في بناء شخصية الانسان، ومن جملة العوامل التي تترك اثراً بالغاً في تركيبة شخصية الانسان، بيئته وطبقة اسرته والعلاقة بين ابويه ومستوى مدرسته ورفاقه وكل ما يرى ويسمع في حياته، فالسلوك الحسن او السيء والاخلاق الفاضلة او الرذيلة التي اقتبسها الشاب في طفولته من كنف ابويه ومدرسته واقرانه، والتي ترسخت في ضميره تشكل جانباً من صفات شخصيته، وان من العوامل المؤثرة في نفسيته العلاقة التي تنشأ بينه وبين ابويه فان كان الابوين متصلبين لا يغدقان عليه العطف والحنان اصبح الطفل متقوقعاً يهجر عالم الحقيقة والواقع ليلجأ الى عالم الخيال ينشد ويبعث عما لم ينله في حياته العادية، كذلك الجو الاسري اذ كان مشحوناً بالنزاع والجدل والتفكك فذلك يشكل احد ابرز العوامل المؤثرة في شخصية الطفل والتي تنعكس سلباً في حياته اللاحقة، فعن أبي جعفر الامام الباقر عليه السلام قال: " يُحْفَظُ الْأَطْفَالُ بِصَلَاحِ آبَائِهِمْ ".

ان الوطن يعتبر بمثابة الاسرة الكبيرة، والاسرة تعتبر بمثابة الوطن الصغير، وتضم الاسرة مجموعة من الافراد كباراً وصغاراً، اما الوطن فيضم مجموعة من الاسر كبيرة وصغيرة، وبعبارة ادق يشكل الفرد أحاد الأسرة، وتشكل الأسرة أحاد المجتمع او الوطن، فان صلحت الاسرة صلح الوطن وأن فسدت وتفككت الاسرة فسد وتفكك الوطن، ولقد اتسعت الدراسات في السنوات الاخيرة بشكل كبير في معرفة تأثير اساليب الالاء وممارساتهم في شخصيات الابناء وسوء التوافق والادمان على المخدرات بغية الوصول الى نتائج تهدف الى تحسين التعامل مع هذه المرحلة بما يخلق جيلاً وشباباً اصحاء نفسياً وجسماً، ان الاسرة اهم هيئة في المجتمع تضطلع بعملية التنشئة وهي الهيئة التربوية الاساسية طوال حقب التاريخ وفيها يقول روزفلت " ان حياة المنزل هي اسمى وابدع ثمرات الحضارة وهي اعظم قوة في تكوين العقل والاخلاق ولا يجب ان يحرم منها الطفل الا لأسباب قاهرة ".

والاسرة تزود الفرد بالرصيد الاول من اساليب السلوك الاجتماعية، والصح

والخطأ، وكيفية كسب رضا الجماعة ويكتسب منها المذهب الديني الذي يعتنقه والميول السياسية واساليب الترويح المقبول اجتماعياً والعادات والقيم (فلسفي، ١٩٩٤: ٢٦).

مفهوم التفكك الاسري:

من دون شك ان الاصل في الحياة الانسانية هو الانتماء الى الاسرة وتعتبر الاسرة خلية اساسية يتكون منها المجتمع الاكبر ومن ثم فإن التفكك الاسري يمثل الاستثناء من الحياة السليمة، الا ان اضافة متغير الايمان على الحياة الاسرية يمكن في احيان كثيرة ان يؤدي الى احداث خلل في القاعدة التي تقوم عليها الاسرة ويجعل المعيشة ضمن الحياة الاسرية تمثل استثناء وهي ما يطلق عليها الانهيار الاسري.

والتفكك الاسري تخلخل روابط البناء الاسري وضعف التفاعلات الاجتماعية بين افراد الاسرة واضطراب توقعات ادوارهم والشعور بالاغتراب وانعدام الامن والرغبة في التحلل من القيود الاسرية والاتجاه نحو الجماعات الخارجية لضعف التماسك الداخلي ويعود ذلك لأسباب عديدة نتيجة للتغيرات الاجتماعية التي يمر بها المجتمع وما يصاحبها من ظواهر وقضايا ومشكلات، ويرى علماء النفس والتربية ان تعاطي المخدرات هو نتيجة للتنشئة الخاطئة حيث انه سلوك مكتسب شأنه شأن اي سلوك اجتماعي اخر وان التنشئة الاجتماعية السلبية تفرز انماطاً من السلوك المنحرف، وتعاطي المخدرات او الايمان عليها احد انواع هذا السلوك، وان الظروف الاسرية للمراهقين والشباب الذين يتعاطون المخدرات تبين انهم يعانون التفكك الاسري والحرمان الاقتصادي للأسرة والبطالة وانخفاض المستوى التعليمي والمسكن المزدهم (الياسين، ١٩٨١: ٩٦).

الحياة العائلية المفككة:

ان اللبنة الاولى للجانب الاجتماعي والخلقي توضع في رحاب الاسرة فاذا سادت الاسرة روح التفاهم والمودة شعر الابناء بالأمان والاستقرار واخذ عن الوالدين القواعد الخلقية السليمة، اما اذا حصل في الاسرة التفكك والتربية الخاطئة فإنه على الاغلب يقدم افراداً غير مؤهلين للحياة السوية الصالحة بل على العكس

فمن المتوقع أن يقذف الى المجتمع الكثير من المنحرفين والجانحين والمدمنين وهنا يكون الوالدان قدوة سيئة لأبنائهم, حيث تضعف الرقابة الاسرية والتعامل بقسوة مع الابناء وتجاهل حاجاتهم النفسية ومتطلبات نموهم الطبيعي فيكونوا عرضةً لكثير من الانحرافات والسلوكيات الشاذة وادمان وتعاطي المخدرات يكون على رأس تلك الانحرافات (الالوسي وخان, ١٩٨٣ : ٤٧٠).

الازمات والتفكك الاسري:

ان الانحرافات تميل الى الارتفاع في ظروف الازمات والحروب والتي تقذف بالآلاف الاطفال والمراهقين والشباب الى مواجهة مشكلات اسرية واجتماعية خطيرة فيرى كار (Carr) انه بازياد الفوضى والاضطرابات التي تعكر صفو الحياة العائلية اثناء الحروب والازمات تزداد معدلات السلوك المنحرف بين فئات الاطفال والمراهقين, ففي ظروف الازمات والحروب تزداد اعداد الاحداث الذين يعملون خارج نطاق الاسرة بسبب التسرب المبكر من المدارس, كذلك ان تلك الازمات والحروب تجلب العديد من المتغيرات في العلاقات الاسرية وتخلق اضطراباً في تكيف الاسرة, فانفصال الزوجة عن زوجها, والادوار التي تتقمصها الزوجة العاملة ذلك ان المرأة تتقمص دور الزوج في ادارة شؤون العائلة اثناء غياب الزوج فذلك يؤدي الى تتأجج الصراع بين الزوج والزوجة لان المرأة لا تستطيع التخلي عن الادوار التي اكتسبتها بمرور الوقت واصبحت جزءاً من شخصيتها اثناء غياب الزوج الامر الذي انعكس على سوء التكيف

الاسري وأدت الى حدوث حالات هجر وطلاق عديدة كانت ضحيتها الاسرة والابناء, يضاف الى ذلك انتقال الاسر الى مواقع جديدة وظروف الحياة المزدهمة جميعها تساهم في خلق توترات في اجواء الاسرة, ان انفصال الفرد عن روابطه الاسرية وضعف انتمائه لها في ظروف الازمات يدفعه للارتباط والاتصال بالجماعات التي يتعامل معها والخضوع لتلك الجماعات المنحرفة, ولعل اكثر النظريات الاجتماعية صلة بموضوع السلوك المنحرف هي نظرية التفكك الاجتماعي (Social Disorganization) لعالم الاجتماع الفرنسي أميل دور كايم (Emile) Durkheim حيث يشير الى الحالة التي يكون فيها ضعف او

صراع للمعايير الاجتماعية مؤدياً الى التفكك الاسري والسلوك المنحرف الذي يهدد الامن الاجتماعي، وقد وجد دور كايم ان زيادة نسبة الانحرافات السلوكية والادمان على المخدرات تحدث عندما تضعف وتتفكك الروابط الاسرية والاجتماعية، وكل ذلك يحدث عندما يعيش المجتمع حالة تغيير سريع وكذلك حين يواجه ازمات وحروباً والتي تؤدي الى ان تنقوض اسس النظام الاخلاقي فيه (مصطفى، ١٩٩٩: ١٠٥).

ادمان المخدرات: Drugs Addiction

الاستعمال او الاستهلاك المتكرر للعقاقير او المواد المخدرة الذي يؤدي استعمالها الى الاعتماد الجسدي حيث يعتمد الجسم على هذه المواد في اداء وظائفه بصورة مريحة، وفي حالة منع او امتناع الشخص عن تعاطي هذه المواد تظهر عليه اعراض المنع.

الشخص المدمن:

هو الشخص الذي يتعود على تعاطي عقار معين مثل الكحول او المخدرات وفي حالة توقف تعاطيه يشعر بحالة من الاضطراب النفسي والجسمي حتى يتناول جرعة من المادة التي تعود عليها (سويف، ١٩٩٦: ٨٧).

الاسباب المؤدية لإدمان المخدرات:-

لتعاطي المخدرات اسباباً عديدة تختلف من مدمن لآخر، وتختلف من مجتمع لآخر، فضلاً عن اختلافها من وقت لآخر، ولأن اسباب ادمان المخدرات من الموضوعات المعقدة والمتشابكة لذا سيقوم الباحث بعرض الاسباب التي تؤدي للإدمان بشكل تفصيلي:-

١ - التفكك الاسري:

ان تصدع الاسرة والخلل والاضطراب والخلافات الاسرية الشديدة التي تسود العلاقات بين افرادها، وسوء التفاهم الحاصل بين الوالدين وانعكاسه على شخصية الابناء، وجهل الوالدين بأساليب التربية الصحيحة وانهلال الرابطة الاسرية والطلاق الحقيقي بين الزوجين، والطلاق العاطفي يدفع الى ادمان المخدرات

ويخلق نفسية متوترة معقدة ويجعل الابناء في مهب الريح ويكونوا عرضة لإدمان المخدرات حيث ضعف المراقبة والارشاد والتوجيه والتعديل لسلوكياتهم وافكارهم الخاطئة.

٢- توفر المادة المخدرة:

ان توفر المادة المخدرة ووجودها مؤثر قوي على تعاطيها والادمان عليها فلو لا توفره وانتشاره لما ما كانت نسب تعاطيه بنسب كبيرة.

٣- تأثير المادة المخدرة:

ان لكل نوع من انواع المخدرات تأثير ومفعول خاص به وان تشابهات انواعه (مخدرات, منشطات, مثبطات, مهلوسات) وهناك فروقاً تميز كل نوع من النوع من الاخر, ان لتأثير ومفعول المادة المخدرة دور في تكرار التجربة خاصة ان بداية الادمان احيانا تكون بدافع حب الاستطلاع, او الدخول في حالة معينة من النشوة لان غالباً تكرار التعاطي يكون بسبب ما احدثه مفعول المخدر في المرة الاولى من اثر مرغوب (سوف, ١٩٩٦: ٤٣).

٤- الشخصية:

يشير الباحث ان للشخصية تأثيراً في تعاطي المخدرات والادمان عليها, فالشخصية غير المتكاملة او الضعيفة تبدو منها سلوكيات منحرفة تتمثل هذه السلوكيات في تعاطي انواع من المخدرات, ان ضعف تكامل بناء الشخصية للفرد هو من الاسباب المؤدية للإدمان من حيث ان الشخص غير متهيئاً لمواجهة المشكلات الحياتية وايجاد الحلول بصورة طبيعية فيتجه الى الادمان حيث يجد الراحة النفسية ونسيان تلك المشكلات, وقد يكون سبب تعاطي المخدرات أن الفرد واقع تحت ضغوط او ظروف بيئية شديدة او قاسية.

٥- تعاطي الوالدين او احدهما:

ان للأسرة الدور الكبير في بناء وتشكيل شخصية الابناء, والاهمال في ذلك قد يكون من المؤشرات التي يمكن التنبؤ من خلالها بتعاطي المخدرات او الانحراف بشكل عام فتعاطي الوالدين او احدهما المخدرات وضعف الرقابة

الاسرية، وضعف الضبط الاسري، قد تدفع بشكل او اخر الى تعاطي المخدرات واثبتت الدراسات ان وجود شخص في الاسرة يتعاطى المخدرات يرجح انخراط شخص اخر في التعاطي بدافع التقليد للشخص الاكبر او بتشجيع منه او تغاضي عنه، او لتشابه الظروف الداعية الى التعاطي (زهران، ٢٠٠٠: ٧٣).

٦- البطالة:

لقد زادت نسبة البطالة في مجتمعنا ولا يبدو في الافق انها تتجه نحو الانخفاض وهي مشكلة اجتماعية رئيسة للأسرة والمجتمع من حيث اثارها السلبية على الشباب حيث اصبحوا اكثر شعوراً بالملل والغضب من المجتمع والشعور بالوحدة وعدم الاستقرار واعتلال المزاج والقلق والاكتئاب ويفقدون تقدير الذات ويشعرون بالفشل وانهم اقل من غيرهم وهم في حالة اسوأ من حيث الصحة النفسية واكثر احتمالاً للانتحار والادمان على المخدرات.

٧- الاصدقاء:

يرى الباحث ان تأثير الاقران فاعل ومؤثر فعن طريق التفاعل مع الاصدقاء تنتقل الافكار وتتعلم السلوكيات سواء كانت ايجابية او سلبية كالتدخين وتعاطي المخدرات وتشير الدراسات ان بداية تعاطي المخدرات بين الشباب كانت بدعوة من صديق، فعند ضعف انتمائه لأسرته او ضعف الدور الضبطي للأسرة والفشل في تدعيم الاتجاهات التي تمثل لمعايير المجتمع يقوى انتمائه لأقرانه، اي ضعف انتمائه لأسرته تكون بمثابة الاداة لحثه على ارتكاب السلوك المنحرف كالإدمان.

٨- وقت الفراغ:

من العناصر الهامة للشعور بالرضا العام عن الحياة وقت الفراغ وهو يؤثر على العلاقات الاسرية وعلى جوانب الحياة الاجتماعية الاخرى، وان هذه الاوقات ان لم تنقضي فيما ينفع او على الاقل فيما لا يضر فقد تكون عاملاً يؤدي الى الانحراف وتعاطي المخدرات لاسيما ان لم تشغل هذه الاوقات فتدفع الى الضجر والسأم والشعور بالاغتراب مما يدفع الى قضائها باي عمل كان خصوصاً لدى المراهقين والشباب التي تمتاز بالحيوية والنشاط.

٩- الاعلام ووسائل التواصل:

ترتبط وسائل الاعلام بوقت الفراغ فوسائل الاعلام متنفس لوقت الفراغ لذا يجب ان تكون وسيلة الاعلام ايجابية اي لا تدعو الى رذيلة او تهدم الاخلاق بغض النظر عن محتوى المادة الاعلامية وفائدتها فيجب ان لا تكون سلبية تحت بشكل مباشر او غير مباشر الى انحرافات سلوكية كتعلم تهريب المخدرات او الاتجار بها او تعاطيها وما تسببه من نشوة او تدعو الى التجربة والاستكشاف, ان مشكلة ادمان المخدرات لها علاقة مباشرة بعمليات التنشئة الاجتماعية الخاطئة التي يستنقها المراهقين والشباب من وسائل الاعلام والتواصل الاجتماعي, كذلك السفر الى الخارج حيث التأثير بعض الافراد بالثقافات الاخرى والانبهار بالمجتمعات المتقدمة ومجاعة العادات المختلفة وعقدة النقص لها دوراً في تعويض ذلك النقص لدى بعض الافراد.

١٠- ضعف الوازع الديني:

ان ضعف الوازع الديني له تأثير على شخصية الانسان اذ تتكون لديه لامبالاة في قضايا الحلال والحرام, و ضعف الايمان يجعله لا يتوانى عن اي عمل مغل بالدين او القيم السماوية وتعتبر المخدرات اكبر الاشياء حرمةً واكثرها ضرراً على الانسانية ومع هذا تكون هناك دوافع اخرى تشاطر ضعف الوازع الديني للانحراف نحو المخدرات مثل الاعتقاد بعدم تحريمها او وجود عوامل ترتبط وتتفاعل مع هذا العامل.

١١- رسوخ مفاهيم خاطئة:

تؤخذ انواع من المخدرات لأهداف معينة كأغراض صحية وهمية او لتوهم الهروب من الواقع المرير او لزيادة النشاط الجنسي وغيرها من الاسباب الوهمية, لكن غالبية هذه المفاهيم لا تتعدى كونها وهمية وغير صحيحة, او من قبيل الاعلام والدعاية والترويج الزائف الذي لا يستند على اسس علمية ثابتة او حقيقية, ان الانسان بطبيعته يميل الى اشباع غرائزه ولذاته وشهواته سعياً منه لتأمين ما يفرحه ويسعده ولان المخدرات تعتبر واحدة من اقوى الوسائل التي تؤمن للإنسان لذته ونشوته وتشبع ميله الطبيعي فتستأثر باهتمام اللاهثين وراء اللذات

والذين يجهلون الاعراض الخطيرة جداً التي تبيتها لهم هذه المواد المخدرة والانسان العاقل لأيمن ان يورط نفسه بمصائب وويلات كبيرة والآم مستمرة من اجل لذة عابرة (فلسفي، ١٩٩٤ : ٤٥٨).

قال امير المؤمنين علي (عليه السلام) " لا يَقُومُ حَلَاوَةُ اللَّذَّةِ بِمَرَارَةِ الْآفَاتِ "

١٢ - البيئة والبيئة الاجتماعية:

البيئة تعني البيئة الطبيعية فالبيئة التي تنتشر فيها المخدرات او تزرع او تصنع فيها ينتشر فيها تعاطي المخدرات بشكل كبير , اما البيئة الاجتماعية هي موقف المجتمع من المخدرات وتعاطيها فقد يكون المخدر جزء من ثقافة المجتمع وهنا ينتشر التعاطي بشكل كبير بين فئات المجتمع, ويلاحظ الباحث ان المقاهي والكازينوهات انتشرت بشكل كبير واصبحت واقع حال طبيعي من جميع اطراف المجتمع حيث لا رقيب ولا حسيب عليهم فيما يقدمون للزبائن الذين هم الغالبية من المراهقين والشباب.

١٣ - التغيير الاجتماعي:

يرى الباحث ان التغيير الاجتماعي يحمل كثيراً من المعاني فقد يحمل معه مشكلات يتعرض لها الافراد وقد يكون كبيراً او عاماً بأن يشمل المجتمع بكامله وهذا ما حدث بالفعل لمجتمعنا, ويشير الباحث هنا انه نتيجة الحروب المتتالية والاضطرابات والكوارث والاحتلال والهجرة والنزوح وضعف سلطة القانون وقوة ونفوذ المافيات المتحيزة وسيادة الاعراف العشائرية وسطوة بعض شيوخها المارقين والفساد المالي والاداري وانتشار الامراض الوبائية والامراض الاجتماعية كالانحراف والجريمة والسرقه والبطالة والفقر وما شابهها, كل هذه العوامل تؤثر وتدفع وتسهل الافراد نحو تعاطي المخدرات.

١٤ - الفساد وضعف القانون:

ان الفساد هو العامل التمكيني الرئيس للجريمة المنظمة وهناك تفاعل بين الفساد مع اسواق المخدرات والفساد ييسر اسواق المخدرات ويعزز كل منهما الاخر, فالفساد ييسر انتاج المخدرات والاتجار بها, اللذين يغذيانه بدورهما, واموال

المخدرات تفقر البلد فتؤدي الى تضخم الاسعار وتشوه ارقام الصادرات وقيام منافسة غير عادلة وتعميق الخلل في توزيع الدخل والثروة وتقادم الفساد وهذا كله يساعد على اضعاف سيادة القانون مما يوطد بدوره قطاع المخدرات غير المشروعة (مكتب الامم المتحدة المعني بالمخدرات، ٢٠١٧: ٢٠).

السبيل للوقاية من ادمان المخدرات:-

نقصد بالوقاية في مجال المخدرات الجهود الرامية الى منع الوقوع في تعاطي المخدرات ومحاولة تجنب الافراد العوامل المؤدية الى التعاطي، والواقع ان العملية الوقائية تنطلق وتتحدد من جهات رئيسية منها (الاسرة، والمؤسسات التربوية والتعليم والمؤسسات الصحية، ومؤسسات الاعلام، والقوانين والتشريعات)، ان الاسرة والتنشئة الاجتماعية وما يتعلق بها من ضبط اجتماعي وتوفير الحماية والوقاية من الوقوع فريسة الادمان، فالتنشئة الاجتماعية ينظر اليها انها عملية تربوية من خلالها يتم تلقي وتعلم الفرد خلال مراحل النمو المتعددة انماطاً من السلوك والتفكير التي تنسجم وتتوافق مع الثقافة والبيئة التي يعيش فيها الفرد.

ان تعاطي المخدرات هو من دون شك نتيجة التفكك الاسري وتنشئة اجتماعية غير سوية واساليب معاملة خاطئة انعكست بضعف القدرة على مواجهة موقف او ازمة، اي ان التنشئة الاجتماعية لم تعلم الفرد على طرق التعامل مع المواقف والازمات التي سوف تواجهه في حياته المقبلة وترجم هذا الفشل في تعاطي المخدرات والاستمرار فيه، ان التنشئة الاجتماعية والتماسك و الارتباط الاسري الوثيق واسلوب التعامل الذي يتبعه الوالدان في التنشئة يترتب عليه نتائج غاية الاهمية تنعكس على تكوين الاتجاهات التي يدركها الابناء وبالتالي تنعكس على سمات شخصياتهم، كذلك تغرس في نفس الفرد هيبة للقانون وعدم الخروج على القوانين ومخالفتها والخوف من العقاب عند التعدي او تخطيه والذي يقدمه الابوين من خلال علاقة الحب والدفء والعاطفة والحنان الذي يغمران به الطفل فان شعر بالحرمان عند مخالفته نظام الاسرة احترم النظام وطبقه بشكل سليم وهذا يسري ايضا على النظام المجتمعي ويدعم من خلال ملاحظته لاحترام الابوين لتلك الانظمة، ان التنشئة الاجتماعية تبدأ من مرحلة الطفولة حيث يعتمد

على والديه وهنا يضع الوالدين على الطفل قيوداً على تصرفاته ووقت الاكل ووقت الدراسة ووقت اللعب ووقت الخروج والسلوكيات المرغوبة لكل وقت من الاوقات (الدمرداش, ١٩٨٢: ١٠٠).

ويرى الباحث ان الاسرة تعد المدرسة الاولى للطفل فمن خلالها تبنا الشخصية وينطبع السلوك وتغرس ثقافة المجتمع ويكتسب ويتعلم الطفل الصواب والخطأ والاسرة التي تشبع الحاجات الاساسية وتتجاوب عاطفياً مع افرادها تكون عاملاً مهماً في سعادة واستقرار الطفل عكس الاسرة المفككة التي تكون علاقاتها مضطربة وغير مستقرة فهي تكون مرتعاً للانحرافات الاجتماعية والمشكلات والاضطرابات النفسية, ودور الاسرة مهماً وحيوياً في وقاية ابنائها من المخدرات والتوعية للأبناء والتثقيف تشكل عاملاً مهماً في التنشئة الاجتماعية عن طريق التصحيح والتوجيه والارشاد وتصحيح السلوكيات التي يقوم بها الابناء وتوجيههم في اختيار البرامج التلفزيونية ووسائل التواصل الاجتماعي والمواد المقروءة المناسبة اضافة الى ارشادهم في اختيار الاصدقاء, فعن طريق الاباء يتدرب الابناء وينشئوا على احترام العادات والتقاليد والانظمة والقوانين ويتعلموا ايضاً الدور الاسري والقيمة الاجتماعية كما يترسخ في اذهانهم النموذج الاجتماعي للأسرة المبني على التماسك والانضباط بين الافراد بعضهم ببعض وهذا يشعرهم بخطورة تخطي قوانين المجتمع وكذلك التفاعل الاسري والاجتماعي السليم.

وفي مرحلة المراهقة يشعر المراهق بكيانه ومظهره الشخصي وحب المنافسة والنزعة للاستقلال, وهنا يكون المراهق بحاجة لان يصغي اليه والداه ويستمع لآرائه ويؤخذ بها وتكون محل تقدير واحترام, ونظهر له انه رجل فالمراهق بحاجة لأهله واهله بحاجة اليه لذا يجب ان يكون التفاعل ما بين الاثنين سوياً وسليماً وان يكون الوالدين على علم ودراية ومعرفة بخصائص هذه المرحلة سواء للذكور والاناث على حد سواء والتعامل معهم تعاملاً يتسم بالاتزان وعدم الافراط والتفريط, وأشارت اغلب الدراسات ان (٧٥٪) من البالغين المتعاطين للمخدرات بدأوا تعاطي المخدرات في مرحلة المراهقة, وان كثيراً من المجتمعات التي تعاني من الادمان والانحرافات يلاحظ ان الاسرة لم تعد تؤدي الدور والوظيفة المنوطة بها بشكل صحيح, ان طريقة التعامل والتواصل معهم وإدراك طبيعة المشكلات

التي تواجههم والرغبة الحقيقية الصادقة من الاباء واتاحة الفرص للأبناء والعقلانية بالتعامل معهم وتلمس حاجاتهم ومشكلاتهم وتذليل الحواجز والعقبات بين الاباء و الابناء (سويف, ١٩٩٦: ٧٤).

ويؤكد الباحث ان الوقاية وتجنب الوقوع في شرك المخدرات يجب على المراهق او الشاب ان يكون على حذر من صحبة ومجالسة المدمنين عليها ورفاق السوء الذين يرغبونه ويستميلوه ليتعاطى المخدر, وان يحذر وينتبه لنفسه كي لا تتغلب عليها لذة المخدرات وان يتذكر ان هذه اللذة العابرة الزائلة تترك وراءها فضيحة مستمرة ترافقه مدى الحياة وفي هذا الصدد نذكر قول امير المؤمنين علي (عليه السلام) " عَارُ الْفُضِيحَةِ يُكْذَرُ حَلَاوَةُ اللَّذَّةِ ".

السبل لعلاج ادمان المخدرات:-

ان علاج ادمان المخدرات يبدأ بالتقبل الذي يعد مهماً في العلاج وان التقبل له قيمة خاصة من خلال الاعتراف بإنسانية المدمن وفكره ومشاعره ولا يعني التغاضي عن افعاله وسلوكياته غير الملائمة بل التعامل معها وتصحيحها, فتقبل المدمن كإنسان شيء ورفض سلوكه السلبي شيء اخر اي الفصل بين المدمن وبين سلوكه (الادمان) كما تعد العلاقة المهنية مع المدمن من الركائز المهمة في العلاج, كذلك السرية واحترام كرامة المدمن التي تؤدي الى بناء الثقة, وفيما يلي نستعرض خطوات العلاج على النحو الاتي:

١- ان يعرف المدمن بوجود المشكلة:

من الاسس المهمة للعلاج ان يكون المدمن على دراية وعلم بوجود المشكلة, وهي الادمان على المخدرات, اذ ان المدمن يقول اتعاطى المخدرات لكي انسى المشكلات الاسرية او الاخفاق بالعمل او الحياة الاجتماعية ويقول انا قادر على ترك الادمان في اي وقت و ينكر وجود المشكلة

٢- ان يترك المدمن يفكر بوجود المشكلة:

في هذه الحالة يكون المدمن بحالة تفكير بسبب التشكيك فيما كان يعتقد سابقاً وان الوصول الى حالة التشكيك تعني الاعتراف والاقتراب من الحقيقة ويبدأ

يفكر بالأمور ويتأملها من خلال استرجاع الاحداث الماضية.

٣- ان يعترف المدمن بوجود المشكلة:

هنا يكون المدمن توصل الى حقيقة مفادها انه شخص مدمن والتي كان يفتقدها ولا يعترف بها ويعترف بصدق بعيداً عن التزييف بأن لديه مشكلة وهي ادمان المخدرات.

٤- التحرك نحو المشكلة:

يعني وجود استعداد ذاتي من قبل الشخص المدمن بالعمل لحل المشكلة والتحرك نحو المشكلة هو الفعل ويبدأ من داخل المدمن ونعني به التوجه الفكري والنفسي نحو المشكلة بالقدر الذي تستحقه.

٥- التخطيط للعمل:

يكون التحرك هنا نحو المشكلة تحرك سلوكي (فعل) مبنياً على تنظيم وتخطيط بين المعالج والمدمن فكما تم التخطيط لإيصال المدمن الى الاعتراف بإدمانه يكون بحاجة الى تنظيم وتخطيط العمل لحل المشكلة وكل ما يتعلق بها ويكون ذلك من خلال الاتي:-

أ- مرحلة ازالة السموم من جسم المدمن وهي اولى الخطوات التي تستخدم في علاج المخدرات حيث يتم تخليص الجسم من السموم وازالتها بشكل كامل من الدم.

ب- معالجة الاعراض الانسحابية وهي اعراض نفسية وجسدية ترافق عملية تخليص الجسم من المواد المخدرة كاضطرابات النوم والارق والأم البطن والتعرق وارتفاع ضغط الدم وارتفاع درجة حرارة الجسم كما يرافق ذلك هلاوس وميل للانتحار والاكتئاب، وهنا يكون المدمن محجوز في مستشفى او احد مراكز العلاج حتى تتم السيطرة عليه ويكون بعيداً عن اماكن المخدرات.

ج- تأهيل المدمن وهي المرحلة المهمة والمركزية في العلاج المقدم الى المدمن وتستغرق زمناً ما بين اشهر الى عدة سنوات وفقاً لحالة المدمن وتحمله للعلاج وهنا يتم تعليم الفرد المدمن مهارات تساعد على عدم الانتكاس مرة اخرى من

خلال جلسات العلاج النفسي السلوكي المعرفي.

د- تقديم الاستشارات النفسية وذلك من خلال جلسات العلاج النفسي الفردي او الجماعي حيث يعطى للمدمن فرصة للتعبير عن معاناته مع الادمان والتعرف على الضغوط النفسية التي كانت تدفعه للإدمان منذ البداية لكي يستطيع المعالج ان يحل تلك المشكلات من جذورها.

ذ- العلاج الذي يقدم من قبل المجتمع المحيط بالفرد المدمن عن طريق تشجيعه وتوفير كل ما من شأنه مساعدته في تخطي الادمان فالمجتمع يساعد المدمن على العلاج عن طريق ايجاد الحلول الناجعة لمشكلاته الاسرية والاجتماعية المحيطة به حتى لا يعود للإدمان وتقديم الدعم والمساندة النفسية.

ر- منع الانتكاس ويتم ذلك من خلال المتابعة المستمرة للمتعاف من الادمان عبر اجراء تحاليل تؤكد عدم تعاطيه للمواد المخدرة والعودة اليها وان يمارس حياته بشكل طبيعي, وعند الوصول الى هذه المرحلة يكون المدمن تخلص من المشكلة وتم علاجها داخلياً ثم خارجياً ووصل الى نتيجة او جزء من النتيجة المتوقعة والمأمولة وهي الشفاء.

الاسس السوية للعلاقات الاسرية بين الاباء والابناء :-

١- ان تعمل الاسرة بروح الفريق الواحد:

ان الثقة المتبادلة بين افراد الاسرة واتحادهم وتماسكهم منذ تكوين الاسرة يعد عاملاً مهماً كذلك الاعتراف بالأخطاء والتراجع وتغيير وتعديل السلوك الخاطئ يعدّ امراً اساسياً للتعليم منذ الطفولة.

٢- الضبط الاسري بعيداً عن الافراط والتفريط:

ان الضبط الاسري والسيطرة الشديدة تؤدي الى نفور الابناء وردود فعل عكسية تساويها بالقوة وتعاكسها بالاتجاه خاصة مرحلة المراهقة, ولا ندعو الى الحرية المطلقة بقدر ما تكون الحرية محفوفة بالأنظمة والاخلاق والقيم ومعايير المجتمع, وان الباب للولوج الى المراهق هو النقاش والحوار والثقة المتبادلة واستبصار تلك المرحلة وحاجاتها بشكل موضوعي بعيداً عن

التعنت والسلطوية المفرطة والقمع والاقصاء والتهميش، فالضبط يكون عقلاني قائم على الحب والاحترام والتقدير السليم للأمور وعدم اللجوء الى اي صورة من صور العقاب البدني والاهانة عند الوقوع بالأخطاء او التقصير بل العقاب يكون حرمان من الثواب واتباع طرق تعديل السلوك.

ان الاتصال المبني على الحوار الهادئ والصادق بين الاباء والابناء يخلق جواً داعماً مثمراً ويكسب الابناء خبرات التعامل مع المشكلات والمصاعب وكيفية تخطيها والتعلم منها وعدم الوقوع بها مرة اخرى كذلك يعرفوا اهمية توزيع الادوار ومتطلبات كل دور وما يترتب على كل فرد بالأسرة من تلك الادوار وتوافر الشعور بالأمن النفسي والدعم والاسناد الاسري.

التوصيات:

من خلال ما تم عرضه في البحث الحالي عن التفكك الاسري ودوره بإدمان المخدرات خرج الباحث بمجموعة من التوصيات من شأنها ان تحافظ على تماسك الاسرة ووحدةها وتحصنها من التفكك والسلوكيات المنحرفة كإدمان المخدرات وكما يلي:-

- ١- ان يتدارك الاباء والامهات أخطائهم التربوية وان يسارعوا الى احترام شخصية المراهق او الشاب وتوجيهه ميوله وغرائزه توجيهاً صحيحاً.
- ٢- ان ينال المراهق او الشاب في محيط أسرته قسطاً وافراً من الاهتمام والتقدير من قبل ابويه.
- ٣- ان الافراط في المحبة هو كالحرمان منها فله نتائج سلبية فكما ان اهانتة وتحقيره وتجاهل ذاته وعزة نفسه تترك في مجموعها اثراً سيئاً في نفسه كذلك الافراط في المحبة للطفل والتدليل،
- عن الامام ابي جعفر الباقر عليه السلام قال: "شَرُّ الاباء مَنْ دَعَاهُ الْبُرُّ الى الْاَفْرَاطِ".

٤- استغلال الحس الديني فالدين الاسلامي لم يتجاهل في برنامجه التربوي فقد كلفهم بتأدية سلسلة من الفرائض الدينية وينطلق الاسلام في تربية جيل الشباب من خلال ارضاء الرغبات الروحية في تعديل سائر الرغبات

الطبيعية ومنعها من التمرد والانفلات وراء الغرائز والانجراف وراء الرذائل والآثام فالممارسات المنافية للقانون، والاخلاق كالإدمان على المخدرات، والرذيلة المتفشية بين الشباب السبب في ذلك التربية القائمة على ضعف الايمان، والتمرد وان تلك الافعال سوف تؤدي بالنهاية بمرتكبيها ومن يحيط بهم من اسرهم ومجتمعهم نحو التعاسة والشقاء. وقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) صدق الله العلي العظيم سورة طه الآية " ١٢٤ " .

٥- يرى الباحث ان للوقاية من المخدرات يجب القضاء على التنظيمات الارهابية التي تتاجر بالمخدرات وهي تمثل الدخل الرئيس لتلك الشبكات والجريمة المنظمة بل واصبحت تجارة المخدرات ليس حكراً على الجماعات الاجرامية الكبيرة بل جماعات اخرى اقل تنظيماً مما زاد تدفق المخدرات وتعاطيها.

٦- تعديل الميول النفسية وترويض الغرائز من خلال تبصير المراهق والشباب بقدراته وما يمتلكه من عقل يهديه الى الصلاح ويمنعه من التمرد، قال امير المؤمنين علي (عليه السلام) " فِكْرُكَ يَهْدِيكَ إِلَى الرَّشَادِ "، كذلك عامل التربية فهو ذو اهمية كبيرة في حياة اي انسان فيبدأ منذ نعومة اظفاره على التربية السليمة وبهذا السياق قال امير المؤمنين علي (عليه السلام) " مَنْ كُفِّ بِالْأَدَبِ قَلَّتْ مَسَاوِيهِ "، فالتربية عامل مؤثر في كبح جماح الانحرافات والغرائز وتعديل الميول النفسية.

٧- دعوة الشباب والمراهقين على اساس الحب فهو العامل الذي يحفز الناس نساء ورجال وهو قوة محركة للإنسان في جميع مواقف الحياة عن الامام الصادق عليه السلام انه قال " وَهَلْ الدِّينُ إِلَّا الْخُبْ " اي مخاطبة الشباب والمراهقين بلغة ملئها الحب كي تكون مؤثرة فيهم بعيداً عن العنف والقسوة واعتماد اساليب معاملة تربوية سواء في البيت او المدرسة.

٨- ان التربية التي لا تقوم على اساس من الايمان والدين لا تنجح في تقدم الشباب والاسرة والمجتمع فمن دون وازع ديني نكون عاجزين عن كبح غرائز الانسان وتعديل سلوكه وميوله واتجاهاته وانفعالاته وهدايتها لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع.

٩- يجب ان يكون وقت الفراغ مصدر اساسي للشعور بالرضا عن الحياة لأنه يمارس دفعاً داخلياً من خلال استخدام وتنمية المهارات وتوفير اشباع اجتماعي وشعور بالهوية والاسترخاء لان نشاط وقت الفراغ اكثر اهمية للشعور بالرضا والسعادة من خلال اقامة مؤسسات يرتادها المراهقون والشباب لشغل اوقات الفراغ في القراءة او الرياضة او أنشطة دينية او خيرية او رحلات او تأسيس عيادات ارشادية نفسية للمراهقين توفر خدمات لهم من اجل مساعدتهم في ادراك انفسهم وتوفير الدعم الاسري.

١٠- القضاء على البطالة لأنها تؤدي الى تدهور الوضع المالي وتزيد المعاناة وهذا بدوره ينعكس على السعادة والصحة النفسية والجسمية للفرد حيث ان اغلب الناس يبنون صورتهم عن ذاتهم ويصنفهم الناس على اساس العمل الذي يقومون به، فأن اصبح الشاب عاطلاً عن العمل سوف يفقد هذا الجانب عن صورة الذات وربما شعر بالنقص او الوصمة الاجتماعية ويظن عن خطأ او صواب أنه منبوذ، وهنا يتضاءل حجم الدعم والاسناد الاسري والاجتماعي وتتعرض علاقاته الاسرية للتصدع، وهنا تكون المخدرات ملجأً وملاذاً للهروب من الواقع المرير، وكذلك معالجة ظاهرة التسرب من المدارس وانتشار الشباب الاحداث في الشوارع والطرق الذين يمارسون اعمالاً هامشية.

المصادر:

*القران الكريم.

*الالوسي، جمال حسين وخان، أميمة علي (١٩٨٣): علم نفس الطفولة والمراهقة، مطبعة جامعة بغداد.

*الدمرداش، عادل (١٩٨٢): الاذمان مظاهره وعلاجه، مجلة عالم المعرفة، عدد (٥٦) الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

*الزبيدي، كامل علوان والشمرى، جاسم فياض (١٩٩٩): علم نفس التوافق، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل.

*زهران، حامد عبد السلام (٢٠٠٠): الصحة النفسية، الناشر عالم الكتب، القاهرة، مصر.

*سويف، مصطفى (١٩٩٦): المخدرات والمجتمع نظرة تكاملية، مجلة عالم المعرفة، عدد (٢٠٥) الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- * عثمان, ابراهيم عيسى (٢٠٠٥): علم الاجتماع, دار الشروق للتوزيع والنشر, عمان.
- * فلسفي, محمد تقي (١٩٩٤): الشباب بين العقل والعاطفة, مؤسسة الاعلامي للمطبوعات, بيروت, لبنان.
- * كوري, جيرالد (٢٠١١): النظرية والتطبيق في الارشاد والعلاج النفسي, ترجمة سامح وديع الخفش, دار الفكر ناشرون وموزعون, عمان, الاردن.
- * مصطفى, عدنان ياسين (١٩٩٩): السلوك المنحرف في ظروف الازمات, مطبعة اليرموك, بغداد.
- * مكتب الامم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة (٢٠١٧): تقرير المخدرات العالمي.
- * الياسين, جعفر عبد الامير (١٩٨١): أثر التفكك العائلي في جنوح الاحداث, عالم المعرفة, بيروت, لبنان.

تأثير ثورة المعلومات على الاستقرار السياسي في دول مجلس التعاون الخليجي بعد عام ٢٠١١

أ.م.د. حسين قاسم محمد الياسري

مركز دراسات البصرة والخليج العربي

مقدمة

بدأت ثورة المعلومات الأولى مع بداية وجود الإنسان، فكانت اللغة أهم وسيلة للاتصال، ثم الكتابة، والطباعة التي أدت إلى إنتاج الكتب، وبعد ذلك ظهرت وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية، واختراع المذياع والتلفزيون، وكان أهم ثورة في المعلومات هي ظهور الحاسبات الإلكترونية التي كان من نتائجها استخدام الشبكة العنكبوتية العالمية (الإنترنت)، مما أدى إلى التطور الكبير في انتقال المعلومات بشكل سريع ودون قيود، وتغيير في تفكير وتوجهات المجتمعات الإنسانية لاسيما فئة الشباب، من خلال وسائل الاتصال الاجتماعي، وتداول الأخبار بشكل سريع، وكشف حالات الفساد المالي والإداري، والتعذيب، فكان من نتائج ذلك إثارة السخط والغضب من الأنظمة السياسية القائمة الذي تجسد على شكل اعتصامات، وعصيان مدني، وإضرابات، ومظاهرات، ومواجهات مسلحة في بعض الأحيان، نجح بعضها في تغيير أنظمة سياسية، وفرض إصلاحات على غيرها في حين واجهت بعض الأنظمة التحركات الشبابية بعنف، ودخلت دول أخرى في حالة عدم الاستقرار، وتدخل خارجي عسكري أو تخل سياسي في شؤونها الداخلية.

مشكلة البحث:

ما درجة تأثير ثورة المعلومات في التحولات السياسية والديمقراطية في الدول العربية التي شهدت حراكاً شعبياً؟ وهل كان لتلك المعلومات تأثيراً إيجابياً أم سلبياً في التغيير نحو الأفضل؟

فرضية البحث:

أدت ثورة المعلومات والاتصالات واتساعها في المنطقة العربية إلى التأثير على تحريك الجماهير العربية لتغيير الأنظمة السياسية، وستؤدي تلك الثورة المعلوماتية دوراً أكبر في مستقبل المنطقة العربية.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى بيان دور ثورة المعلومات وتأثيراتها على الجماهير العربية في تغيير الأنظمة السياسية وتطبيق الديمقراطية سلباً أو إيجاباً.

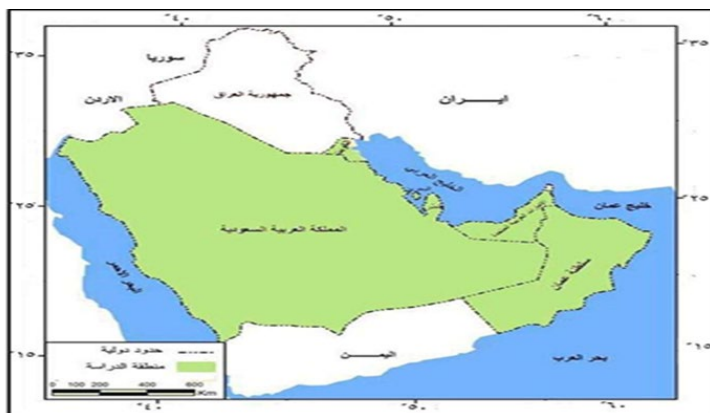
أهمية ومنهج البحث:

تأتي أهمية البحث من خلال ما أحدثته ثورة المعلومات والاتصالات، واتساع نطاقها، واستخدامها في إحداث تغييرات جذرية في تفكير الشباب العربي؛ للتخلص من الأنظمة الدكتاتورية والقمعية، مع كل السلبيات التي رافقت التغييرات السياسية، واعتمد بذلك المنهج الوصفي التحليلي في تحليل واستقراء مستقبل المنطقة العربية.

حدود البحث:

يتحدد البحث مكانياً بدول مجلس التعاون الخليجي، زمانياً بعد عام ٢٠١١، ومكانياً بين دائرتي عرض (١٦ - ٣٢°)، وقوسي طول (٣٥ - ٦٠°) (الامانة العامة لدول مجلس التعاون الخليجي، البيانات الإحصائية، ٢٠١٣)، خريطة (١).

خريطة (١) منطقة الدراسة



المصدر، اعتماداً على، الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، خريطة دول مجلس
التعاون الخليجي ٢٠١٧

أولاً- مفهوم ثورة المعلومات:

تعرف **المعلومات** بأنها البيانات التي تمت معالجتها لتحقيق هدف معين، وزيادة استغلال المعلومات أدى إلى ظهور ما يعرف بثورة **المعلومات** التي هي (تدفق كم هائل من المعلومات، وهي مجموعة تغييرات تحدثها تقنية المعلومات، وأهم هذه التغييرات هي تقنية الاتصالات الجديدة لبث المعلومات، وأجهزة الحاسوب لمعالجتها)، وتقود ثورة المعلومات دلالتها كلية مالم ترتبط بسياق زمني معين؛ لان البشرية لم تشهد ثورة معلومات واحدة وإنما سلسلة طويلة من ثورات المعلومات بدأت بتطور اللغة بوصفها أهم مقومات الاتصال^(١)، وكان اختراع الكتابة أو الثورات تبعها الثورة الثانية التي تمثلت بظهور الطباعة، أما الثورة الثالثة فتم فيها ظهور مصادر المعلومات السمعية والمرئية، في حين أن الثورة الرابعة تميزت بظهور الحاسوب، ومن ثم الثورة الخامسة التي مازلنا نعيش فيها، إذ تم التزاوج والترابط بين تكنولوجيا الحواسيب والمتطورة وتكنولوجيا الاتصالات مختلفة الأنواع^(٢):

وتمثل ثورة المعلومات في ذلك الانفجار المعرفي الضخم وتضاعف الإنتاج الفكري في مختلف المجالات، وظهور الحاجة إلى تحقيق أقصى سيطرة ممكنة على فيض المعلومات المتدفقة، وإتاحته للباحثين والمهتمين وصانعي القرار في أسرع وقت، وبأقل جهد عن طريق استخدام أساليب وبرامج معاصرة في تنظيم المعلومات تعتمد في الدرجة الأولى على الحاسب الإلكتروني، واستخدام تقنية الاتصال لمساندة مؤسسات المعلومات، أما ثورة وسائل الاتصال فهي تتمثل في تكنولوجيا الاتصالات الحديثة التي بدأت بالاتصالات السلكية واللاسلكية، ومن ثم المذيع، وأخيراً الاعتماد على الأقمار الصناعية والألياف البصرية، ولا يزال أفقها غير محدد، في حين أن ثورة الحاسبات الإلكترونية هي التطور غير المتناهي في إنتاج أنظمة المعلومات المختلفة، وفي إدارة نظم المعلومات وشبكتها، والواقع أن تعريف تكنولوجيا المعلومات ينطوي على معنى التزاوج بين تكنولوجيا الحاسبات الإلكترونية وتكنولوجيا الاتصالات، وقد قادت هذه الثورات الثلاث إلى سيادة نظم جديدة للمعلومات، بمعنى أن الفضاء الإلكتروني للمعلومات قد أصبح وسيط المستقبل في علاقات الدول^(٣).

أصبح تقسم المجتمعات البشرية اليوم على أساس المعرفة وليست الثروة، ومن ثم أصبحت المعرفة هي محور التقدم بعكس معايير الثورة الصناعية التي اعتمدت أكثر على الثروة، ولا تعني المعلومات الوفيرة شيئاً ذا قيمة في مجتمع لا يحسن استخلاص ما تحتويه هذه المعلومات من مفاهيم وعلاقات، وقد ساعد هذا التقدم في اختصار الوقت بين أي نقطتين على سطح الأرض، نتيجة استخدام شبكة الاتصالات الإلكترونية، وكذلك نشأة الفضاء المعلوماتي الجديد، وهو فضاء حقيقي وليس تخيلياً له لغة محددة وبروتوكولات خاصة بالمتعاملين في إطاره، ولا يستند إلى واقع جغرافي محدد، مما يطرح تحولات مهمة في مجال تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويبدو من غير المستبعد أن تدخل دول في حروب من أجل السيطرة على المعلومات، كما حاربت في الماضي من أجل السيطرة على المستعمرات^(٤)، والمعلومات في زيادة مستمرة، وإنتاجها لا يحتاج ولا يتطلب الكم الهائل من الإنفاق والطاقة، ولا يتطلب نقل المعلومات وقتاً طويلاً أو تكلفة عالية، وتنتشر المعلومات في المجتمع بسرعة

عالية، وتوجد مصادر عديدة للمعلومات منها: الدوريات، والكتب، وتقارير البحوث، والبيانات، والأوراق المقدمة إلى الندوات والمؤتمرات، والرسائل الجامعية، وبراءات الاختراع، والمعايير الموحدة، والمواصفات القياسية، والميكرو فيلم، والأفلام، والشرائح، والأشرطة، والأقراص، علاوة على الكم الهائل من المعلومات التي تبثها وسائل الاتصال المرئية، والمسموعة، كذلك توفر الأقمار الصناعية كمّاً كبيراً من المعلومات لا يسهل حصره وتتبعه، وأصبح يطلق على المجتمعات المتطورة تكنولوجياً مجتمعات المعلومات، وقد استغل بعض العلماء والمفكرين على المستوى القومي، لاسيما العسكريين هذه الخاصية للمعلومات في استحداث نوع جديد من الحروب توجه ضد البنية الأساسية المعلوماتية للإنسان سلباً أو حرباً، وتعددت أشكال هذه الحرب التي أطلق عليها (حرب المعلومات)، بحيث شملت أنواعاً كثيرة من الحروب، منها الحروب النفسية، والحروب الاقتصادية، وحرب الفضاء، وحرب القراصنة والفيروسات، وهي أهم هذه الأنواع من الحروب، والتي يمكن أن تنتهي أي صراع في المستقبل قبل أن تبدأ أي مواجهة عسكرية بالأسلحة التقليدية^(٥).

أن الحكومات تنمو وتقوي باستخدام أشكال المعرفة والمعلومات المنظمة لجميع أعمال ومهام الدولة، وهي باختصار تمثل أفضل المرشحين للاستفادة من ثورة المعلومات في المجال السياسي والدبلوماسي وصناعة القرار، وتعمل وسائل الاتصال دوراً مهماً في تقدير الموقف السياسي وسرعة اتخاذ القرار وإبلاغه وتلقي الردود بشأنه، ويرى البعض أن المعلوماتية قد أدت إلى تناول العلاقات الدولية بصورة أشمل كما أن الثورة المعلوماتية الإعلامية نتج منها تعدد الألسنة المتحدثة باسم الدولة، وهكذا فاجأت الثورة العلمية العالم بإسقاط الثنائية القطبية، عندما انهار أحد المعسكرين وتفكك الاتحاد السوفيتي نتيجة الخلل الذي كشفته ثورة المعلومات، وبقدر ما استغلت المعلومات لرفاهية الإنسان في تحقيق المستوى الاجتماعي والثقافي طبقاً لما تتطلبه السياسات والاستراتيجيات في الدول، بقدر ما استغلت هذه المعلومات من الدول المتقدمة في نشر ثقافتها وفرض هيمنتها الاجتماعية والحضارية على المجتمعات الأخرى في محاولة لاستقطابها والسيطرة عليها طلباً لمصالحها، لذلك فإن ثورة المعلومات سلاح له حدان، أحدهما ينمو

ويزدهر من خلاله المجتمع باكتساب الخبرة والثقافات والمعرفة من الغير، بشرط اختيار ما يتناسب مع قيم ومبادئ المجتمع، والحد الآخر هو الجانب الضار بالمجتمع، إذا لم توضع الضوابط والأسس لاستيراد هذه الثقافات والحضارات إلى داخل المجتمعات^(٦).

أدى الانتشار الواسع لنتائج ثورة المعلومات والاتصالات إلى تشكّل ظواهر ذات سياسية وأمنية كبيرة لتضيف أعباء جديدة إلى منظومة أمن الدول، مما دعت الحاجة إلى حماية الأمن الإلكتروني المتصل بالمعلوماتية والاتصالات للدولة، بما ينطوي عليه من حاجة إلى مكافحة الجريمة الإلكترونية وردعها جزءاً هاماً من منظومة الأمن الوطني الشامل لأي دولة^(٧)، وأعطت التحولات التي أتت بها العولمة للإعلام والاتصال بعداً أكثر اتساعاً، إذ أثبت الإعلام بتقنياته الهائلة أنه محرك التحولات في السياسة والاقتصاد والفكر والفن والثقافة، بل هو محورها ومحرضها، وأسهمت التطورات المتلاحقة في شبكة الإنترنت في إيجاد شكل جديد من الإعلام تعددت تصنيفاته ومسمياته لدى المهتمين والمختصين الإعلاميين، الذي أطلقوا عليه الإعلام الجديد، والإعلام البديل^(٨)، وظهرت **مواقع التواصل الاجتماعي** وهي: مجموعة من البرامج والأدوات على الأنترنت يستعملها جمهور المستخدمين لتبادل المحتوى والآراء والأفكار والخبرات ووجهات النظر عبر وسيلة إعلام تعمل على تسهيل المحادثات والتفاعلات بين مجموعة من الناس عبر شبكة الأنترنت^(٩)، وتشير هيئة تقنية المعلومات إلى أن هناك خمس أدوات للتواصل الاجتماعي، وهي^(١٠):

١- الشبكات الاجتماعية: وهي المواقع الإلكترونية المستخدمة للاتصال بالغير، وغالباً ما يتم ذلك بشكل غير رسمي، وبلاستناد التام إلى شبكة الإنترنت، وتشمل الأمثلة على تلك الشبكات الفيس بوك وتويتر.

٢- شبكات مشاركة الوسائط: المواقع الإلكترونية التي تسمح لمستخدميها بمشاركة الفيديو والصور مع الآخرين كما تسمح لهم بالتعليق على الوسائط الخاصة بهم، مثل موقع يوتيوب.

٣- المدونات: موقع إلكتروني تدار محتوياته وتعرض فيه المواضيع المضافة إليه أو ما يعرف بالإدخالات بترتيب زمني معكوس، وتسمح لزوار المدونة

بالتعليق عليها.

٤- تطبيقات الويكي: تطبيقات تسمح لمستخدميها بإضافة المحتويات إلى صفحة الإنترنت أو تنقيح تلك المحتويات، ومن أكثر الأمثلة الشائعة على تلك التطبيقات الموسوعة الحرة (الويكيبيديا).

٥- المنتديات: وهي تطبيقات تسمح لمجموعات من المشاركين بالتحاور حول مواضيع محددة والنقاش فيها.

ويمكن تحديد دور ثورة المعلومات على التحول الديمقراطي والسياسي فيما يلي^(١١):

١- ارتفاع إعداد موطني الدولة المهتمين بشئونها أي ما يعرف بالمواطن الناقد والحيوي.

٢- دعم حقوق الإنسان، وأهميتها، وكيفية الحفاظ عليها، والدفاع عنها، والمؤسسات التي تساندها.

٣- الترويج لأفكار العدالة الاجتماعية، وضرورة بناء نظم سياسية جديدة قائمة على التعددية.

٤- وفرت وسيلة هامة في مجال التعبير عن الذات وتبادل الأفكار ووجهات النظر، والكتابة بحرية.

٥- دعم وتقوية التواصل بين المواطنين والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية.

٦- نشر أفكار سياسية عن الديمقراطية، والحرية، نقل تجارب الحياة المختلفة في الدول المتقدمة.

٧- تعزيز وتدعيم دور الأحزاب وقوى المعارضة السياسية.

٨- إنهاء احتكار النظم السياسية الحاكمة للمعلومات، أو على الأقل تقلص من قدرتها على ذلك.

٩- تقديم وعرض الأفكار والآراء الخاصة بالمرشحين السياسيين في الانتخابات كما كشفت وفضحت حجم الممارسات الأمنية والمحلية والسلوكية المعيبة والسلبية سواء للأفراد أو المرشحين ومؤسسات الدولة.

- ١٠- إتاحة الفرصة لكافة الثقافات والتيارات والهويات والعرقيات المختلفة للتعبير عن نفسها بشكل من شأنه أن يعزز من قيمة الاختلاف داخل المجتمع الدولي، ويدفع من قيمة الحوار والسلام
- ١١- المساهمة تطوير وتحسين العمل في البرلمانات والمجالس التشريعية.

استعملت مصطلحات عدة في وصف الممارسات الديمقراطية غير المباشرة وغير التقليدية، فظهر مصطلح الديمقراطية الرقمية التي تعني توظيف أدوات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية في توليد وجمع وتصنيف وتحليل وتداول كل المعلومات والبيانات والمعارف المتعلقة بممارسة قيم الديمقراطية وآلياتها المختلفة، بغض النظر عن الديمقراطية وقالها الفكري ومدى انتشارها وسلامة مقصدها وفعاليتها في تحقيق أهدافها، وهي تعني قيام المواطنين والحكومات معاً باستخدام منجزات ثورة المعلومات والاتصالات كوسيلة فعالة في تفعيل جوهر الديمقراطية، ويتحقق ذلك من خلال ما يأتي^(١٢):

- ١- المساواة بين المشتركين في الاتصال والمشاركين في الخدمة الاتصالية (الاتصال التفاعلي في اتجاهين).
- ٢- القدرة علي التواصل واتفاق جماعي من خلال تبادل الآراء دون تدخل أو تأثير من مصادر وقوي خارجية.
- ٣- صنعت مفاهيم جديدة في الاتصال، يشارك في صنعة الجمهور، والمعلومات أصبحت متوفرة للجميع.
- ٤- تنوع ملكية المواقع الإلكترونية إذ أنها أصبحت شخصية وخاصة بكل فرد وهي تأخذ طابع الشخصية.
- ٥- غياب الاحتكار للإعلام أو تقييد الحريات علي وسائل الإعلام من قبل السلطة الحاكمة.

بالرغم مما أدت به ثورة المعلومات والاتصال من دور مهم في حرية تداول المعلومات وتحسين وتطوير الممارسات الديمقراطية، إلا أنها أفرزت مجموعة من المعوقات أو مآخذ عليها من أبرزها ما يلي^(١٣):

- ١- إن العديد من الحكومات ترى في عملية تدفق المعلومات عبر الحدود غير

الخاضعة للقيود تهديدًا محتملاً لأمنها القومي، فعرض ملفات الفساد قد يضر بسير التحقيقات وتمثل تدخلاً في عمل القضاء، بل إن نشر تلك المعلومات قد يؤدي إلى قيام من له مصلحة خاصة بإنشاء صفحات معارضة لها، وقد تستغل تلك المعلومات من جهات خارجية.

٢- إن الاستفادة الحقيقية من وفرة المعلومات وثورة الاتصالات لا يمكن أن تتوافر إلا بشروط جوهرية أهمها على الإطلاق حرية التعبير والديمقراطية الفعلية، وبالتالي فإن ذريعة الأمن التي تتخذها الحكومات في معظم الدول سبباً لقمع حرية التعبير عبر وسائل الاتصالات المختلفة، تعد ذريعة واهية، إذ أضحى مفهوم الأمن بهذا الشكل مفهوماً ضيقاً للغاية؛ لأنه صيغ خصيصاً من أجل أمن المؤسسات والحكومات.

٤- عدم ملائمة التشريعات في معظم الدول للانفتاح على مستجدات العصر، وغياب سياسات علمية واستراتيجية واضحة المعالم تسير جنباً إلى جنب مع الخطط التنموية.

٥- إن الاحتجاجات التي تحركها شبكة الإنترنت لا تخلف تأثيراً دائماً في العادة إلا إذا نجحت في توليد نشاط سياسي واقعي تقليدي، ولذلك فإن هذه الاحتجاجات تحتاج إلى زعامات، وهو ما يميل الناشطون إلى رفضه لأنهم يعدون أنفسهم حركات شعبية نقية، لذلك فإن أغلبها سرعان ما تتبدد وتختفي.

٧- أن ديمقراطية الإنترنت نوعاً من الفوضى لاته سيؤدي إلي مزيد من تدخل الحكومة من أجل السيطرة علي جماهيرها، إذ يسجل للمواطنين مواقعهم وأفعالهم لتكشف عن أهوائهم السياسية والفكرية، مما يجعلهم أكثر عرضة لهذه الرقابة الإلكترونية.

٨- ثمة مخاطر كبرى عندما تتكون مجموعات عرقية أو طائفية أو غيرها، منغلقة، ولا تتواصل إلا فيما بين بعضها البعض، كما أن بعض القضايا التي قد يتم تناولها يمكن أن يكون لها طابعا نخبويًا.

٩- يمكن أن تستخدم للاطلاع على مواد غير لائقة، ومن الممكن أيضاً أن

تمكّن من السلوك غير المستحسن مثل المضايقة والتشهير، وعرض معلومات مزيفة والتفاعل مع الأفراد الخطرين.

أفرزت ثورة المعلومات والاتصالات الأخيرة لاسيما مع شبكة الإنترنت وما تحتويه من مواقع التواصل الاجتماعي ساحات خصبة للعمل والإصلاح كما أثرت على الفكر الإداري والتنظيمي تأثيراً عميقاً، ولم تعد المبادرات الإصلاحية بحاجة لأن تستأصل شرعيتها عن طريق السلطات الثقافية الحاكمة، فقد تجاوزت حدود الزمان والمكان، وبنت مشاريع وتنظيمات فعالة تدير أعمالها بسرعة وفعالية مع وجود الأعضاء والقادة في أماكن متباعدة ودول شتى، وهذا كان في صالح التنظيمات الافتراضية، بعد أن تشكل ما يعرف بالمجتمع المدني الافتراضي؛ فتنظيم الحراك الاجتماعي والمدني والسياسي في دول مجلس التعاون الخليجي في المدى المنظور، متعلق إلى حد كبير بشبكات التواصل الاجتماعي، وما تحتويه من منظمات المجتمع المدني الافتراضي، لاسيما بعد الإقبال الشبابي الكبير للانخراط في عوالمها المختلفة، انطلاقاً من فكرة أن مشاركة الشباب في قضايا المجتمع من أهم الوسائل المستخدمة للإسهام في النهوض بمكانة المجتمعات في عصرنا الحالي بعد عجز بعض الحكومات عن سد احتياجات أفرادها ومجتمعاتها، وبعد تعقد الظروف الحياتية، وازدياد الاحتياجات الاجتماعية، والدعوة إلى التغيير، ولذلك كان لا بد من وجود جهة أخرى موازية للجهات الحكومية، تقوم بملء المجال العام، أو إكمال الدور الذي تقوم به الجهات الحكومية في تلبية الاحتياجات الاجتماعية^(٤)، إذ أتاحت مواقع التواصل الاجتماعي إمكانية الخوض في مناقشات ومناظرات حول السياسة، والدين، والمجتمع، وغيرها بجرأة وحرية كبيرة، والواقع انه على الرغم من أهمية الدور السياسي الذي تؤديه ثورة المعلومات من دور فهي لا تمثل الأساس في التغيير، فلا بد من أن يصاحبه تغيير في البنية الثقافية العربية حتى يتم التأقلم مع الأوضاع الجديدة.

ثانياً- مؤشرات ثورة المعلومات في دول مجلس التعاون الخليجي:

١ - تطور الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات:

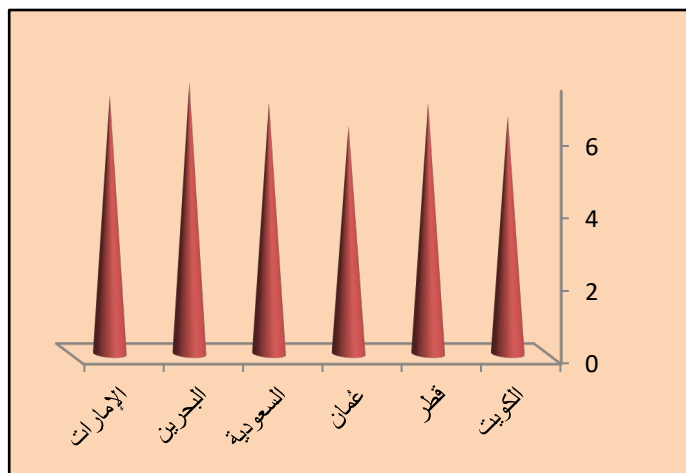
تأتي البحرين في مقدمة دول الخليج وكذلك بالترتيب العربي وبالمرتبة التاسعة والعشرين عالمياً بمؤشر تطور الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، تليها الإمارات ثم السعودية، وقطر، والكويت، وأخيراً عُمان التي تأتي بالمرتبة السادسة عربياً والمرتبة التاسعة والخمسون عالمياً، وهذا يشير إلى تقدم دول الخليج الستة في تطور الاتصالات والتكنولوجيا فيها، ينظر جدول (١)، وشكل (١).

جدول (١)

مؤشر تطور الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات في دول مجلس التعاون الخليجي ٢٠١٦

الدولة	قيمة المؤشر	الترتيب العالمي	الترتيب العربي
الإمارات	٧.١١	٣٨	٢
البحرين	٧.٤٦	٢٩	١
السعودية	٦.٩	٤٥	٣
عُمان	٦.٢٧	٥٩	٦
قطر	٦.٩	٤٦	٤
الكويت	٦.٥٤	٥٣	٥

المصدر، اعتماداً على، وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، التقرير العالمي لتكنولوجيا المعلومات، الأردن ٢٠١٦، ص ٥٤



شكل (١)

مؤشر تطور الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات في دول مجلس التعاون الخليجي ٢٠١٦

المصدر، بيانات جدول (١)

٢ - استخدام وحرية الأنترنت:

تأتي دولة البحرين بالمرتبة الأولى في نسبة عدد مستخدمي الأنترنت الى مجموع سكان الدولة تليها الإمارات وبنسبة تزيد على (٩٠٪) مما يشير إلى تقدمهما في هذا المجال واستخدام ثورة المعلومات الرقمية على نطاق واسع، تليهما كل من قطر، وعُمان، والكويت، في حين تأتي السعودية بنسبة (٦٧.٦٪) مما يدل على أن هناك كثير من السكان محرومون من خدمة الأنترنت، ويعزى ذلك إلى القيود التي تفرضها الدولة، فضلاً عن سعة مساحتها التي لا يمكن أن تغطي كل مواطنيها بشبكات الأنترنت، وفي مجال استخدام وسائل التواصل

الاجتماعي تأتي دولة الإمارات بالمرتبة الأولى في نسبة عدد مستخدمي الفيس بوك إلى مجموع سكانها التي بلغت (٧٦.١٪)، وجاءت عُمان بالمرتبة الأخيرة، وبنسبة (٣٤.٨٪)، في حين أن دولة الكويت تأتي بالمرتبة الأولى في نسبة مستخدمي تويتر التي بلغت (٥٠٪)، وجاءت عمان بالمرتبة الأخيرة، وبنسبة (٤.٣٪)، أما مؤشر حرية الأنترنت في دول مجلس التعاون الخليجي فأن

الإمارات، وقطر، والكويت، وعمان بمراتب متقدمة، إذ يبلغ مؤشرها في حرية استخدام الأنترنت بأكثر من النصف في حين أن السعودية لا يزيد مؤشر الحرية فيها عن الربع ويقترّب من الثلث في البحرين مما يدل على أن هناك قيود تفرض على استخدامه في الدولتين الأخيرتين، ينظر جدول (٢) وشكل (٢).

جدول (٢)

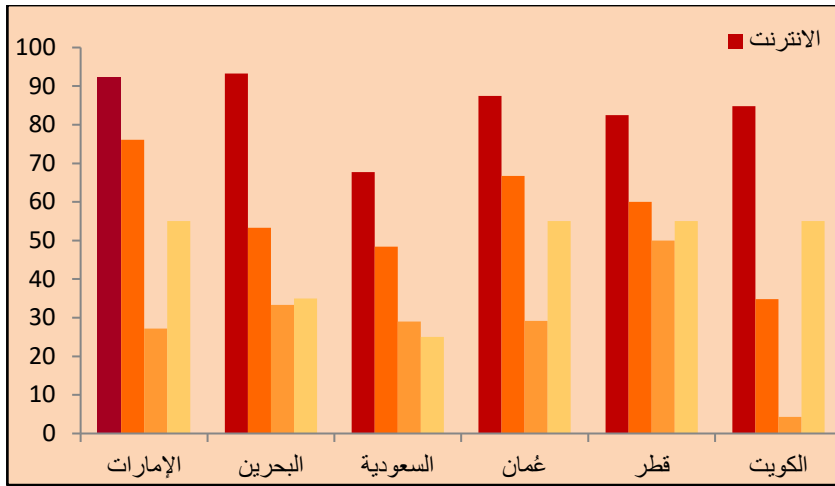
أعداد ونسبة مستخدمي الإنترنت في دول مجلس التعاون الخليجي ٢٠١٧

الدولة	السكان / نسمة	الأنترنت / مستخدم	%	الفييس بك / مستخدم	%	تويتر / مستخدم	%	حرية الأنترنت
الإمارات	٩.٢	٨.٥	٩٢.٤	٧	٧٦.١	٢.٥	٢٧.٢	٥٥
البحرين	١.٥	١.٤	٩٣.٣	٠.٨	٥٣.٣	٠.٥	٣٣.٣	٣٥
السعودية	٣١	٢١	٦٧.٧	١٥	٤٨.٤	٩	٢٩	٢٥
قطر	٢.٤	٢.١	٨٧.٥	١.٦	٦٦.٧	٠.٧	٢٩.٢	٥٥
الكويت	٤	٣.٣	٨٢.٥	٢.٤	٦٠	٢	٥٠	٥٥
عمان	٤.٦	٣.٩	٨٤.٨	١.٦	٣٤.٨	٠.٢	٤.٣	٥٥

المصدر، اعتماداً على، مالك وعيد مصطفى، الأنترنت والحكومات العربية، ترجمة نجم، نورة، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، ٢٠١٧، ص ٦، و ٧٠

شكل (٢)

نسبة مستخدمي الأنترنت من مجموع سكان دول مجلس التعاون ٢٠١٧



المصدر، بيانات جدول (١)

٢- حرية الصحافة والنشر:

تأتي دولة الكويت بالمرتبة (١٠٤) عالمياً، والأولى على دول المجلس في حرية الصحافة، في حين تأتي السعودية، والبحرين بالمراتب (١٦٨، ١٦٤) على التوالي، وفي مراتب متأخرة عن دول المجلس الست، مما يشير إلى قيود على الصحافة، ووصول المعلومات بحرية فيهما، أما عدد الصحف فتأتي الإمارات بالمرتبة الأولى التي يبلغ عدد الصحف فيها (٢٤ صحيفة) في حين تأتي دولة قطر بالمرتبة الأخيرة التي لا يزيد عدد الصحف فيها عن (٨ صحف)، وكذلك الحال في عدد المكتبات التي لا تزيد عن (٧ مكتبة عامة)، ويعزى ذلك إلى قلة عدد سكانها، وفيما يخص القنوات التلفزيونية العاملة العربية والأجنبية تأتي الإمارات بأكثر عدد من المحطات بلغت (٦٢ محطة تلفزيونية)، وعمان بأقل عدد بلغت (٨ محطات تلفزيونية) مما يشير إلى انتشار المعلومات المتنوعة وعبر محطات متعددة في الإمارات وإمكانية وصولها إلى جميع المواطنين والمقيمين، ولكن تأتي هنا حرية ما تطرحه تلك القنوات فهي جميعها تعمل وفق توجيهات وأشراف أنظمة الدول الخليجية، ينظر جدول (٣).

جدول (٣)

مؤشر حرية الصحافة لدول مجلس التعاون ٢٠١٧

الدولة	الترتيب العالمي	عدد الصحف	عدد المكتبات	عدد القنوات التلفزيونية
الإمارات	١١٩	٢٤	٢٥	٦٢
البحرين	١٦٤	-	٨	١٣
السعودية	١٦٨	١٧	٨٥	١٠
عُمان	١٢٦	٢٠	٢٨	٨
قطر	١٢٣	٨	٧	١٧
الكويت	١٠٤	١٨	٢٧	١٧

المصدر، اعتماداً على، ١-المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، إحصاءات الثقافة، العدد ١، فبراير ٢٠١٩، جدول ٤، ١٨، ١٩، ص ٣٠، ٢٤، ٣١

2- <https://weedoo.tech>

وتشقق دول مجلس التعاون الخليجي طريقها نحو مراتب متقدمة في مجال الاقتصاد العالمي وتقنية المعلومات والاتصالات، التي يطلق عليها في الوقت الحالي الثورة الصناعية الرابعة، وتشمل (١٣٩ دولة)، إذ أظهرت تقارير دولية أن السعودية على استعداد لاحتواء الشبكات المتنوعة لتقنية المعلومات مستقبلاً، وفي التقرير السنوي للمنتدى الاقتصادي العالمي يظهر أن السعودية تقدمت تقنياً إلى المركز (٣٣) من بين الدول التي يصنفها المنتدى الاقتصادي العالمي بين عدة دول باسم أعلى المتقدمين في ميدان تقنية المعلومات والاتصالات، مؤكداً أن المملكة تشق طريقها لتكون جزءاً من المراتب المتقدمة من بين (٧ دول) في هذا المجال، وحلول دول خليجية في مراتب متقدمة في مجال الاقتصاد العالمي والتنافسية الدولية يضعها في موازاة الدول التي تعرف بالبريكس التي تشمل:

البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا، التي تصدر دول العالم عادة في كثير من المجالات التقنية، ووضع التقرير العالمي السعودي بين أعلى الدول المتقدمة في ميدان تقنية المعلومات والاتصالات، منها: جنوب أفريقيا، كوريا الجنوبية، تركيا، كندا، فرنسا، ألمانيا، الإمارات، أستراليا، ماليزيا، الصين، كولومبيا، البرازيل، الأرجنتين، إندونيسيا، المكسيك، وعن كفاءة استخدام تقنية المعلومات والاتصالات من جانب الحكومة وتنفيذ أعمالها، وتحسين نوعية خدمات تقنية المعلومات، يشير التقرير إلى أن المملكة جاءت في المركز الثامن عالمياً، فضلاً عن احتلالها المركز التاسع في تشجيع استخدام تقنية المعلومات والاتصالات، كما احتلت المركز الخامس عشر من ناحية اشتراكات النطاق العريض في الإنترنت للحاسوب المحمول، وفي المركز الثامن عشر من جهة مؤشر نوعية الخدمات التي تقدمها الحكومة على الإنترنت، ووفق التقرير العالمي لتكنولوجيا المعلومات ٢٠١٥، جاءت دول الخليج أفضل تصنيفاً من دول البريكس، إذ حلت الإمارات وقطر والبحرين والسعودية وعمان والكويت بالمراتب (٢٣، ٢٧، ٣٠، ٣٥، ٤٢، ٧٢) على التوالي، وبالرغم من مواصلة سويسرا تصدرها دول العالم لمؤشر التنافسية العالمية لعام ٢٠١٥ - ٢٠١٦، للعام الخامس على التوالي، فإن قطر تصدرت الدول العربية، باحتلالها المركز (١٤) عالمياً متقدمة بمركزين مقارنة بالعام الذي قبله، تلتها دولة الإمارات في المركز (١٧) عالمياً مقارنة بالمركز (١٢) العام الذي قبله، في حين تراجع ترتيب السعودية بمركز واحد إلى (٢٥)، محتلة بذلك المركز الثالث عربياً، كما جاءت الكويت في المركز (٣٤) عالمياً، البحرين (٣٩)، وباتت سوق تقنية المعلومات والاتصالات في المملكة العربية السعودية، وهي الكبرى في الشرق الأوسط، مهياة، وربما وصلت نحو (٣٧ مليار دولار) في عام ٢٠١٥، مع زيادة الاستثمار في الحوسبة السحابية والقدرات التنقلية وتحليل البيانات وشبكات التواصل الاجتماعي، بحسب شركة آي دي سي للأبحاث، وبالرغم من رصد التقرير ارتفاع تصنيف المملكة مرتبتين إلى الأعلى خلال العام ٢٠١٦ إلا أن صعودها مرتبة إلى المركز (٢٨) من ناحية درجة الاستعداد لاحتواء الشبكات المتنوعة لتقنية المعلومات، حتماً سيفسح للمملكة الطريق لزيادة الاستعداد الشبكي، والنهوض

بتقنيات المعلومات والاتصالات لكن النقطة الضعيفة هي أن (٦٤٪) فقط من السكان يستخدمون الإنترنت بشكل منتظم، وفقاً للتقرير الذي أظهر أنها احتلت المركز (٢١) من ناحية الاستخدام الفردي لتقنية المعلومات^(١٥).

ثالثاً- تأثير ثورة المعلومات على الاستقرار السياسي في دول مجلس التعاون الخليجي:

يشير مصطلح الاستقرار السياسي قدرة النظام السياسي على حفظ الأمن الداخلي والخارجي للدولة وتوفير البيئة المناسبة التي يستطيع المواطنون العيش فيها بما يضمن حقوقهم وحرياتهم واستقرارهم، ويتحقق الاستقرار السياسي متى استطاع النظام السياسي أن يتكيف مع متطلبات البيئة الداخلية والخارجية له وأن يضمن قواعد استمراريته، فالاستقرار السياسي هو الحالة التي يسود فيها قدرة النظام على أداء وظائفه والتزاماته تجاه الجمهور، وتمتع السلطة الحاكمة بالشرعية وخضوعها للقواعد القانونية^(١٦)، وللاستقرار عدة مؤشرات وهي^(١٧):

-التكامل القومي وغياب النزعات الانفصالية والصراعات العرقية والأثنية أو محدوديتها.

-شرعية النظام السياسي، ويقصد بالشرعية تقبل الشعب للسلطة الحاكمة وخضوعه لها طواعية.

-قوة النظام السياسي وقدرته على حماية المجتمع والدولة ضد أي أخطار خارجية محتملة.

-الاستقرار الحكومي، بمعنى عدم التغيير السريع للوزارة بمثابة مؤشر جيد على استقرار الحكم.

-الاستقرار البرلماني، ما يعزز موقع البرلمان في مواجهة السلطات الأخرى.

-تشجيع المشاركة السياسية للمواطنين وفتح قنوات الاتصال بين الحكام والمحكومين.

- نجاح السياسات الاقتصادية للحكومة وقدرة السلطة على توفير احتياجات الناس وتمكينهم من العيش الكريم.

- قلة النزوح الداخلي والهجرات الخارجية.
- توفر آليات للخلافة السياسية، ويقصد بها وجود آليات لانتقال السلطة والقيادة من شخص إلى آخر بطريقة سلسة وقانونية وشرعية.
- حسن إدارة العلاقات الخارجية
- الاستقرار السلوكي: ونقصد به الثبات الأيديولوجي للنظام الحاكم.

وفي المقابل، هناك عدة مؤشرات لقياس عدم الاستقرار السياسي، مثل: عدد الاغتيالات السياسية داخل الدولة، وعدد الإضرابات العامة، ووجود حرب عصابات، وعدد الأزمات الحكومية داخل البناء السياسي، وعدد عمليات التطهير التي تتم في أجهزة الدولة، وعدد أعمال الشغب داخل نظام الدولة، وعدد الثورات التي نشبت داخل الدولة، وعدد المظاهرات المعادية للحكومة، وعدد القتلى الذين لقوا مصرعهم في العنف المحلي أما مؤشرات الصراع الخارجي والتي تساهم في عدم استقراره فهي: عدد المظاهرات ضد السياسة الخارجية للدولة، وعدد مرات الاحتجاج ضد السياسة الخارجية للدولة، وعدد مرات العقوبات السلبية التي فرضت على الدولة، وعدد الدول التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية معها، وعدد المرات التي تم فيها استدعاء سفراء الدولة أو طرد السفراء الأجانب منها، وعدد المرات التي صدرت فيها تهديدات ضد الدولة، وعدد المرات التي أُلْتَجأ فيها للعمل العسكري كنوع من الحل للمعضلات التي تقابل الدولة خارجياً، وعدد الحروب التي اشتركت فيها الدولة، وعدد المرات التي تم فيها تحريك القوات العسكرية دون أن تصل إلى حد نشوب الحرب، وعدد الاتهامات التي وجهت للدولة، وعدد القتلى في الصراعات الخارجية^(١٨)، ولكي يتحقق الاستقرار السياسي يتوجب وجود مصالحة حقيقية بين مشروع السلطة ومشروع المجتمع، لذلك فإننا نرى أهمية بلورة مشروع وطني متكامل للمصالحة بين السلطة والمجتمع، ووجود الثقة المتبادلة والرضا المتبادل بين السلطة والمجتمع، وتوفير الحريات السياسية والثقافية في كل دولة من دول مجلس التعاون الخليجي.

إن المجتمعات المتجانسة اثنياً غالباً ما تكون أقرب إلى الاستقرار السياسي من تلك التي تعرف التعددية، ويكمن السبب في هشاشة الاستقرار السياسي في

المجتمعات المتعددة إلى طبيعة الأنظمة الحاكمة التي تتعامل مع الأقلية الأتنية من منطق الاستيعاب بالقوة مما ينتج عنه بروز الولاءات غير الوطنية، ويؤدي إلى المطالبة بالفدرالية أو الانفصال أو تغيير النظام. ويظهر عدم الاستقرار السياسي في دول مجلس التعاون الخليجي كونها مجتمعات عقائدية تعددية تمتد بعضها عبر حدودها لتشكّل تداخل عقائدي مع دول الجوار الجغرافي، وهذا التنوع سبب مشاكل في استقرار الأنظمة السياسية لاسيما في الدول التي تتنوع مذهبياً مثل البحرين، والسعودية، والكويت، فضلاً عن الصراعات الداخلية على السلطة من داخل الأسر الحاكمة، ويظهر من المؤشرات السابقة للاستقرار السياسي أن دول مجلس التعاون الخليجي، وأن كانت تتمتع باستقرار سياسي أفضل مما هو عليه في دول العربية والإقليمية المحيطة بها، إلا أن وضعها السياسي يتعرض بين الحين والآخر إلى عدم استقرار لتأثره بحالات عدم الاستقرار في المحيط الإقليمي، فمازالت الصراعات بين الشعوب الخليجية وأنظمتها على المحك، وتعرض شرعية النظام في بعضها إلى عدم القبول الشرعي لاسيما في البحرين، كما أن قدرة تلك الدول على مواجهه الأخطار الخارجية تعتمد على تحالفاتها مع الغرب، ويتم تغيير الحكومة في الكويت بين مدة وأخرى، ولم تصل البرلمانات ومجالس الشورى إلى فعاليتها وتتحكم فيها عدة سلطات، وهناك شرخ في العلاقة بين المواطن والحكومة يتجلى في بروز موجة الاحتجاجات والمظاهرات التي اجتاحت دول مجلس التعاون الخليجي بعد ثورات الربيع العربي عام ٢٠١١، فضلاً عن دور الاغتيالات والإعدامات وسحب الجنسية ليعضف إلى كل ما ذكرناه احد مؤشرات عدم الاستقرار السياسي في بعضها لاسيما البحرين والسعودية. وقد أتاحت ثورة المعلومات وسرعة انتشارها على تزايد استخدام الأنترنت، وظهور شبكات التواصل الاجتماعية (الفيس بوك، وتويتر، واليوتيوب، والوتس آب، والفابير، والتلغرام) من تبادل مقاطع الفيديو والصور ومشاركة الملفات وإجراء المحادثات الفورية، والتواصل والتفاعل المباشر كما إنها شكلت عامل ضغط على الحكومات والمسؤولين، ومن هنا بدأت تتجمع وتتجاوز بعض المجموعات الشبابية داخل هذه الشبكات، تحمل رؤى جديدة في إحداث التغيير والثورة.

وهناك أربع خصائص منحت مواقع وشبكات التواصل الاجتماعية دورها المهم قبل الحراك الجماهيري وخلالها، وهي^(١٩):

١- وضع أطر سياسية محددة وواضحة: ففي السابق كانت المظاهرات والاحتجاجات تبدو في كثير من الأحيان وكأنها بلا هدف أو وجهة واضحة، وتغلب عليها الانقسامات والاختلافات في الرؤى والأهداف وكيفية التحرك وآليته، وكان ذلك يساعد السلطة الحاكمة على اختراقها وإفشالها وتفكيكها لكن الاحتجاجات الأخيرة منذ ٢٠١١ لم تكن كسابقاتها، إذ كانت واضحة المعالم والأهداف والشعارات والمطالب والزمان والمكان.

٢- صناعة الرواية الإعلامية: خرجت الرواية الإعلامية من نطاق السلطة وأصحاب النفوذ، وأتاح الفضاء الافتراضي المجال لمن يملكون الكلمة وأصحاب الرأي، ومن أبعد مدى.

٣- القدرة على تنظيم الاحتجاجات: لجأ منظمو هذه الاحتجاجات إلى استخدام الإنترنت في تبادل الاتصالات والمعلومات والخطط قبل اندلاع الحركات الجماهيرية، على الرغم من أنه لم يكن هو الآخر بعيداً عن ساحة المخاطرة، ولكن اتساع نطاق انتشار الإنترنت وسرعة وصول المعلومة إلى متلقيها كان له تأثيره الواضح فحتى حُجبت المعلومة لاحقاً، أو اعتُقال مطلقاً، فإنه في النهاية لا يمكن التحكم في تأثيرها، هذا فضلاً عن مسألة الحجب والتعتيم وقطع الاتصال أصبحت محرجة للحكومات، والاحتجاجات الجماهيرية اجتاحت كل دول مجلس التعاون الخليجي عدا دولة قطر التي اتهم نظامها بتحريك الجماهير العربية وتمويلها، وكما يأتي^(٢٠):

١ - دولة الإمارات العربية المتحدة:

على الرغم من أن الإمارات لم تشهد أي مظاهرات بحد ذاتها، فقد حدث فيها عدد من التوترات والاضطرابات وتحسباً من الحكومة لأي استجابة شعبية، فقد قامت بعدة إجراءات منها التوقيف والاعتقال، والتضييق على الناشطين السياسيين والمعارضون، ففي ٩ مارس طالب ناشطون وحقوقيون رئيس الدولة بانتخاب كامل أعضاء المجلس الوطني الاتحادي الإماراتي بالاقتراع المباشر، وتعزيز

صلاحيات هذه الهيئة التي لا تملك حالياً سلطات تشريعية أو رقابية، وأكد الموقعون من توجهات فكرية متعددة وعددهم (١٣٣ شخص) في العريضة التي رفعوها للرئيس ونشروها على الإنترنت، تمسكهم بنظام الحكم في الإمارات، إذ أشاروا إلى وجود انسجام كامل بين القيادة والشعب، وأن المشاركة في صنع القرار تعتبر جزءاً من تقاليد وأعراف هذا الوطن، وفي ٧ أبريل ٢٠١١ قال ناشط دعا إلى إجراء إصلاحات ديمقراطية في الإمارات أنه تلقى تهديدات بالقتل ويواجه حملة تشهير على الإنترنت، ولا تسمح دولة الإمارات بإجراء انتخابات مباشرة أو بوجود أحزاب سياسية، ولن يتم اختيار سوى (٢٪) من السكان للتصويت أو المشاركة في انتخابات المجلس الوطني الاتحادي، ويدير أحمد منصور منتدى سياسياً على الإنترنت بعنوان منتدى الحوار الإماراتي وهو محظور.

٢- مملكة البحرين:

دعا ناشطون في حقوق الإنسان إلى يوم غضب في يوم الاثنين ١٤/٢/٢٠١١ الذي يصادف الذكرى العاشرة لإطلاق الميثاق والدستور البحريني، كما دعا ناشطون على الإنترنت عبر موقعي الفيسبوك وتويتر لبدء مظاهرات في نفس اليوم تطالب بالإصلاح في المملكة، ومزيد من الحريات، وتم الإعلان عن أن الاعتصام الرئيسي سيكون قرب دوار اللؤلؤة في محاولة لجعله رمزاً لتحركهم، وتحول ذلك الحراك إلى ثورة شعبية انتشرت في كل مناطق البحرين، وقاد هذه الاحتجاجات شباب مستقلون إلى جانب سبع جمعيات معارضة شيعية وليبرالية وقومية تطالب بالحرية والديمقراطية، ولم تكن بقيادة إحدى الأشخاص إذ أنها كانت شعبية بحته، من الجدير بالذكر أنّ الحكومة البحرينية استعانت بقوّات درع الجزيرة التي من المفترض أن تكون قوّة لفض النزاعات الدولية والهجمات الخارجية على إحدى دول مجلس التعاون، وتخللت الثورة سلسلة من المظاهرات كانت تهدف في البداية في تحقيق قدر أكبر من الحرية السياسية والمساواة بين السكان الشيعة الأغلبية، وتحولت فيما بعد المطالب إلى إنهاء النظام الملكي، لكن تم فض الاعتصامات في دوار اللؤلؤة في ١٧ فبراير ٢٠١١، وأعلن الملك الأحكام العرفية، وحالة الطوارئ لثلاثة أشهر، ومع ذلك فقد استمرت المظاهرات منذ ذلك الحين، بعد رفع حالة الطوارئ في الأول من يونيو، واشترك أحزاب

المعارضة، ومنها جمعية الوفاق الوطني الإسلامية التي نظمت عدة احتجاجات أسبوعية منها مظاهرة في ٩ مارس ٢٠١٢ الذي حضرها أكثر من (٩ ألف متظاهر)، ومظاهرة أخرى في ٣١ من آب ٢٠١٢ حضرها (١٠ ألف متظاهر)، تخللتها اشتباكات وأعمال عنف، ودعا النشطاء البحرينيين للمسيرات الكبرى في ١٤ آب ٢٠١٤ تحت عنوان تمرد البحرين، وقال الكاتب الأميركي توماس فريدمان في مقال بصحيفة نيويورك تايمز أن هناك قوة غير مرئية غذت الاحتجاجات في البحرين، وهي نظام غوغل إيرث الذي أمد المعارضة الشعبية البحرينية بأسباب الاحتجاج، فقد استخدمت المعارضة هذا النظام وفتحت فيه حساباً يمكن لأي بحريني الولوج إليه، لبيان حقيقة وجود مساحات شاسعة غير مستغلة في البحرين، بينما تعاني الدولة في كثير من مناطقها من كثافة سكانية خانقة، وقد أضاف جوجل إيرث رابط خاص يوضح مواقع المساجد التي هدمتها الحكومة البحرينية.

٣- المملكة العربية السعودية:

بدأ الحراك الجماهيري يوم الجمعة ٢٨ يناير من عام ٢٠١١، عندما تظاهر المئات في مدينة جدة احتجاجاً على سوء البنية التحتية التي أدت إلى سيول في المدينة، وحدثت اشتباكات بين المتظاهرين والأمن، ونظمت المظاهرة بعد أن أرسلت رسائل جماعية في هواتف البلاك بيري لدعوة سكان جدة للتظاهر، وفي رسائل أخرى دعت لإضراب عام في مدينة جدة في يوم السبت، وفي يوم ٥ فبراير من عام ٢٠١١ تظاهرت أكثر من (٤٠٠ امرأة) من ذوي المعتقلين السياسيين أمام مقر وزارة الداخلية السعودية في العاصمة الرياض، وفي يوم الخميس ١٧ فبراير من عام ٢٠١١ تظاهر أكثر من (٣٠٠ شخص) في قرية العوامية ذات الأغلبية الشيعية شرق السعودية للمطالبة بالإفراج عن سجناء سياسيين، وحضرت أكثر من عشرين سيارة تابعة لقوات مكافحة الشغب السعودية لتفريق المظاهرة، وفي يوم ٣ مارس نظم مئات السعوديين احتجاجين في المنطقة الشرقية للمطالبة بالإفراج عن رجل الدين الشيعي توفيق العامر الذي اعتقل قبل نحو أسبوع بسبب دعوته إلى قيام ملكية دستورية ورفع التمييز الطائفي وعن سجناء آخرين، وكذلك تظاهرات في القطيف والهفوف، واستمرت الاحتجاجات

المتقطعة حتى نهاية ٢٠١٣ وقد أدت الاحتجاجات إلى إطلاق قرارات من الملك عبد الله بن عبد العزيز يوم الجمعة ١٨ مارس/آذار ٢٠١١، وشملت القرارات إنشاء الهيئة الوطنية لمكافحة الفساد، وإنشاء برنامج مخصص لإعانة العاطلين عن العمل و غيرها من القرارات. لكن السلطات قامت بإعدام نمر النمر الشخصية الشعبية المعارضة في ٢٠١٦، واغتيال جمال خاشقجي عام ٢٠١٨، وغيرها من الشخصيات.

٤- سلطنة عُمان:

بدأ الحراك في مسقط يوم ١٧ يناير ٢٠١١ للمطالبة بتحسين الدخل، وارتفاع أسعار السلع، وتكاليف المعيشة، وانتظرت الحكومة نحو شهر لترد على هذه المسيرة السلمية برفع الحد الأدنى لأجور القوى العاملة الوطنية في القطاع الخاص، ونشرت دعوات للاحتجاج عبر مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت للخروج يوم الجمعة ١٨/٢/٢٠١١ م في مسيرة أطلقوا عليها اسم المسيرة الخضراء، فخرجت عصر اليوم مظاهرة سلمية أمام مجمع الوزارات بالعاصمة العمانية مسقط شارك فيها نحو (٣٠٠ متظاهر) من المواطنين بينهم نساء، وردد المتظاهرون هتافات تطالب بمحاربة الفساد المالي والإداري وغلاء الأسعار، وتحقيق العدالة الاجتماعية، مرددين شعارات من قبيل لا للفساد، وبدا بيد مع السلطان ضد الفساد، والحرية للجميع، والعدالة للجميع، وكلنا شركاء في الوطن، ورفعوا لافتات كتب عليها الشعب يحب السلطان، والشعب يريد الإصلاح، وجامعة واحدة لا تكفي، كما لوحظت لافتة عريضة كتب عليها مجموعة من المطالب بينها زيادة مستحقات الضمان الاجتماعي وإيجاد فرص عمل للعاطلين، وطالب المتظاهرون بإصلاح نظام التعليم المدرسي، وتفعيل دور دائرة حماية المستهلك، وزيادة صلاحيات مجلس الشورى، وتفعيل دور جهاز الرقابة المالية في الدولة، وزيادة الرواتب وغيرها من المطالب الأخرى المتنوعة، وانطلق حراك الجماهيري في مدينة صلاة يوم الجمعة ٢٥ فبراير عام ٢٠١١، وتلتها مظاهرات في جميع مناطق الدولة يوم ٢٧ / ٢ / ٢٠١١، وفي صبح بدأت الاعتصامات والاحتجاجات أثر تلقي شخص واحد مصرعه عندما أطلقت الشرطة الرصاص المطاطي على متظاهرين، وعندها أمر السلطان قابوس بإقالة جميع الوزراء، ولم

يستثني منهم سوى وزيرين فقط، وأجرى تعديلاً وزارياً شمل ستة وزراء، وقام بتعيين بعض المستشارين الجدد على أمل أن يحد ذلك من موجة الاحتجاجات السياسية، وغيرها من الإصلاحات، ومع كل تلك الإصلاحات استمرت الاحتجاجات، وفي يوم ٢٠١١/٣/٥ أعلن السلطان قابوس عن الاستجابة لكافة مطالب المتظاهرين، واستمرت الاعتصامات والاحتجاجات خلال شهري أبريل ومايو.

٥ - دولة قطر:

شهدت قطر خروج بعض المظاهرات والاحتجاجات ضد السلطة الحاكمة لكنها قمعت في وقتها، ولم تشهد بعدها أي حراك يذكر، وكان آخرها في عام ٢٠١٢، وقمعت من قبل السلطات الحاكمة (٢١).

٦ - دولة الكويت:

طالبت المعارضة الكويتية عام ٢٠١١ باستقالة رئيس مجلس الوزراء على خلفية تهم بالفساد وهو ما تم في ٢٨ ديسمبر كما صدر مرسوم أميري بحل البرلمان والدعوى لانتخابات جديدة في ٢ فبراير ٢٠١٢، وفي يوم الجمعة ٢٠١١/٢/١٨ اندلعت اشتباكات في منطقة الجهراء بين الشرطة، ومئات المحتجين ممن لا يحملون جنسية المعروفين باسم البدون رافعين أعلام الكويت، وصور الأمير مطالبين بحل مشكلتهم، والتزم المتظاهرون بالأسلوب السلمي ثم تزايد عددهم تدريجياً حتى زاد عن ألف مما أدى إلى غلق عدد من الشوارع، وتدخلت قوات الأمن وطالبتهم في البداية بإخلاء المكان مؤكدة أن مشكلتهم ستأخذ طريقها للحل. لكن المحتجين رفضوا التحذيرات بفض المظاهرة وألقوا الحجارة على الشرطة مما أدى إلى إصابة (٣٠ شخصاً) بجراح كما شارك عشرات الأشخاص في احتجاج مشابه بالصليبية، وفي ٤ مارس ٢٠١١ وعدت الحكومة الكويتية بمنح الحقوق المدنية والإنسانية للبدون، وفي ٢٨ نوفمبر ٢٠١١ قدم رئيس مجلس الوزراء استقالته وقبلها أمير الدولة.

وتستخدم دول مجلس التعاون الخليجي تقنيات حديثة لحجب مواقع الأنترنت وتقنيها، وقد تستخدم هذه التقنيات في التجسس على المواطنين وقمع حركات

المعارضة، وتستمر في تقييد حرية استخدام الإنترنت ومن بينها ما يأتي^(٢٢):
أ- الإمارات: تم تقييمها علي أنها غير حرة في تقارير الحرية علي الإنترنت، إذ كان مجموع النقاط عام ٢٠١٣ (٦٦)، و٢٠١٤ (٦٧)، و٢٠١٥ (٦٨)، و٢٠١٦ (٦٨)، و٢٠١٧ (٦٩)، وتم إدراجها كدولة عدوة الإنترنت من قبل منظمة مراسلون بلا حدود في عام ٢٠١١، وتفرض الإمارات العربية المتحدة رقابة على الإنترنت باستخدام برامج الحوسبة الآمنة، ويقوم مقدمو خدمات الإنترنت في مؤسسة الإمارات للاتصالات، وشركة دو إلى حظر المواد الإباحية، والمواد الحساسة سياسياً، وجميع المجالات الإسرائيلية، وأي شيء ضد القيم الأخلاقية المتصورة لدولة الإمارات العربية المتحدة، ويتم حظر جميع الخدمات الصوتية عبر الإنترنت أو معظمها، وخضع منتدى الحوار الإماراتي لسلطات رقابة متعددة من قبل السلطات الإماراتية.

ب- البحرين: تم تصنيفها "غير حرة في تقارير الحرية علي الإنترنت، إذ كان مجموع النقاط عام ٢٠١١ (٦٢)، و٢٠١٢ (٧١)، و٢٠١٣ (٧٢)، و٢٠١٤ (٧٤)، و٢٠١٥ (٧٢)، و٢٠١٦ (٧١)، و٢٠١٧ (٧٢)، وتم إدراجها كدولة عدو الإنترنت بواسطة مراسلون بلا حدود في عام ٢٠١٢، و٢٠١٣ بسبب المراقبة النشطة والتطفل علي مقدمي الأخبار، باستخدام مجموعة من الإجراءات القمعية، بما في ذلك إبقاء الإعلام الدولي بعيداً، ومضايقة نشطاء حقوق الإنسان، واعتقال المدونين ونشطاء آخرين على الإنترنت (توفي أحدهم قيد الاحتجاز)، ومقاضاة نشطاء حرية التعبير، وتعطيل الاتصالات بموجب قانون الاتصالات وقانون الصحافة والمطبوعات في البحرين الذي ينظم حجب وإغلاق المواقع، ويطلب هذا القرار من جميع مزودي خدمات الإنترنت شراء وتثبيت حل لبرمجيات حجب موقع الويب الذي تختاره الوزارة، وساعدت هيئة تنظيم الاتصالات وزارة الثقافة والإعلام في تنفيذ القرار المذكور بتنسيق عملية شراء حلول برمجية لحجب المواقع، ويتم تشغيل هذا البرنامج فقط من قبل وزارة الإعلام والثقافة، ولا تتحكم هيئة تنظيم الاتصالات أو مقدمي خدمات الإنترنت بأي شكل من الأشكال في المواقع المحظورة أو غير المحظورة.

ويكون السجن، وسحب الجنسية مصير كل من يطالب بالديمقراطية

والحريات في وسائل التواصل الاجتماعي، وتسعى شركات الاتصالات إلى إحكام سيطرتها وحجب مواقع الأنترنت، وسن تشريعات وقوانين تستهدف مستخدمي الأنترنت، مثل القانون رقم (٦٠) لسنة ٢٠١٤ بشأن جرائم تقنية المعلومات، والذي دخل حيز التنفيذ في سبتمبر ٢٠١٤، متضمناً (٢٤ مادة) تحدد العقوبات الرادعة وقاسية لما تعده الحكومة البحرينية إساءة، وأصدرت وزارة الدولة لشئون الاتصالات في الثالث من أغسطس ٢٠١٣، قائمة احتوت على (٤٠ موقع) للحجب، وعدت تلك المواقع محرصة على الإرهاب الطائفي وذكرت القائمة موقع قناة المنار اللبنانية ومنتدى المجلس الإسلامي العلمائي، وموقع ائتلاف الرابع عشر من فبراير (٢٣).

٣- السعودية: تم تقييمها علي أنها غير حرة في تقارير الحرية علي الأنترنت، إذ كان مجموع النقاط عام ٢٠١١ (٧٠)، و٢٠١٢ (٧١)، و٢٠١٣ (٧٠)، و٢٠١٤ (٧٢)، و٢٠١٥ (٧٣)، و٢٠١٦ (٧٢)، و٢٠١٧ (٧٢)، وتم إدراجها كعدو إنترنت بواسطة منظمة مراسلون بلا حدود في عام ٢٠١١، وتدير المملكة العربية السعودية جميع حركات الأنترنت الدولية من خلال هيئة الاتصالات وتقنية المعلومات، ويتم تنفيذ تصفية المحتوى هناك باستخدام الحوسبة الآمنة، ويتم حظر عدد من المواقع وفقاً لقائمتين تحتفظ بها وحدة خدمات الأنترنت، واحد يحتوي على مواقع غير أخلاقية (معظمها إباحية)، والآخر يعتمد على توجيهات من لجنة أمنية تديرها وزارة الداخلية (بما في ذلك المواقع التي تنتقد الحكومة السعودية)، ويتم تشجيع المواطنين على الإبلاغ بنشاط عن المواقع غير الأخلاقية للحجب باستخدام نموذج الويب المقدم.

٤- عمان: تشارك عمان في تصفية واسعة النطاق لمواقع ويب إباحية، ومحتوى مثلي، ومحتوى ينتقد الإسلام، ومحتوى عن المخدرات غير القانونية، ومواقع مجهولة تستخدم للتحايل على الحظر. لا يوجد دليل على التصفية الفنية للمحتوى السياسي، لكن القوانين واللوائح تقيد حرية التعبير على الأنترنت وتشجع الرقابة الذاتية.

٥- قطر: هي الدولة الثانية الأكثر اتصالاً في المنطقة العربية، لكن مستخدمي الأنترنت يخضعون لرقابة صارمة على الأنترنت، ويتم ترشح المواد

الإباحية، والنقد السياسي لدول الخليج، وموارد الصحة الجنسية، وأدوات الخصوصية، لكن الصحفيين يمارسون الرقابة الذاتية على القضايا الحساسة مثل السياسات الحكومية، والإسلام، والعائلة الحاكمة.

٦- الكويت:

تتحكم وزارة الاتصالات الكويتية بخدمات الإنترنت، مما يجعلهم يحظرون المواقع الإباحية، والمناهضة للدين، والتقاليد، والأمن، ويقوم معهد الكويت للأبحاث العلمية بتشغيل نظام اسم النطاق في الكويت، ولا يتم تسجيل أسماء النطاقات التي تضر بالنظام العام أو المشاعر العامة أو لا تلتزم بقوانين دولة الكويت، وتعد الخدمات الصوتية عبر بروتوكول الإنترنت أمراً قانونياً. وصدرت (٢٨٠ قضية) عام ٢٠١٣ - ٢٠١٤ تخص ملاحقة مغردي تويتر، و(١٦٠ قضية) بسبب سب الذات الأميرية^(٢٤).

رابعاً-مستقبل دول مجلس التعاون الخليجي في ضوء ثورة المعلومات:

إن عدم الاستقرار السياسي في دول الخليج ليس وليد اليوم فقد بدأ بسبب ما تمارسه حكوماتها من أعمال عنف واضطهاد ضد أبناء شعوبها، ونتيجة لسياسات الأنظمة الحاكمة وتعاملها مع هذه المطالب بطائفية تحول هذا الحراك من حراك شعبي يشارك فيه جميع أبناء الشعب، إلى حراك شيعي يخص الشيعة فقط، ويحمل مطالبهم المشروعة، وقد برز هذا الحراك بشكل واضح في البحرين، والسعودية، ومازال الحراك فيهما مستمراً، أما في الكويت فقد حصل الشيعة على بعض مطالبهم، وتم تمثيلهم في البرلمان مع منحهم حقيبة وزارية، وتقف البحرين وربما على حافة الهاوية بحيث أن أي خطوة في اتجاه التغيير سوف تعني نهاية هذه الأنظمة أو تغيير طبيعتها الأساسية، ومن ثم هناك شك في استجابة هذه الأنظمة للتغيير، وتستخدم السعودية وعمان خليطاً من الأدوات الأمنية والمالية والسياسية والإعلامية التي تمكنها من كسب الوقت وبالتالي تفتيت مطالب المحتجين، وما تزال قطر بعيدة عن احتجاج مواطنيها تبعاً لما تملكه من طرق تصرف فيه مواطنيها عن الاحتجاج، أما في الإمارات تظل مطالبهم محصورة في إصلاح بعض مؤسسات الاتحاد لا غير، وعليه فإن الحراك الشيعي في دول

الخليج ما يزال مستمراً ومتجدداً بين الحين والآخر بالرغم من الأساليب المتبعة في القضاء عليه والسعي إلى إنهائه وليس من المتوقع أن تدير دول مجلس التعاون الخليجي تغييراً سياسياً على المدى القريب^(٢٥).

وبسبب النزاع الداخلي بين دول مجلس التعاون، وتأييد قطر لجماعة الإخوان المسلمين تقف في الجهة المعاكسة لكل من الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية نهائياً لصالح القوى المناهضة للجماعة، وجنباً إلى جنب مع التحديات الكبيرة التي تواجهها الجماعة خليجياً، فإن هناك كواثر شبابية ساخطة ومناقسة سلفية وبيئة معادية ستجعل من المستحيل على الإخوان استعادة مستوى نفوذها الاجتماعي والسياسي السابق داخل دول الخليج، وسعت جماعة الإخوان في عدة دول خليجية إلى استخدام موجة إقليمية من التعبئة الشعبية لإنشاء قيود سياسية جديدة على الأسر الحاكمة الخليجية، وانضم أعضاء الجماعة إلى العرائض العامة في الإمارات، والسعودية التي تطالب بإصلاحات سياسية، وفي الكويت؛ فإن الإخوان المسلمين كانوا دائماً ضمن ائتلاف الجمعيات السياسية المحتجة في البداية على استقالة رئيس الوزراء، وفي وقت لاحق على التعديلات الدستورية لزيادة تفويض البرلمان نحو إنشاء نظام ملكي برلماني كامل، وبدأت حملات فرض القيود على الإخوان من الإمارات العربية المتحدة التي اعتقلت قرابة (١٠٠ مواطن) من حزب الإصلاح التابع للإخوان بتهمة تشكيل تنظيم سري يسعى لقلب نظام الحكم، ووضعت السعودية قانون جديد ضد الإرهاب مطلع عام ٢٠١٤ مهّد الطريق لإعلان الحكومة السعودية جماعة الإخوان المسلمين منظمة إرهابية، كما تحركت الإمارات هي الأخرى لمعاقبة الإخوان المسلمين بإدراجها ضمن قائمة المنظمات الإرهابية، وفي البحرين تفوق المرشحون السلفيون على الإخوان في الانتخابات البرلمانية عام ٢٠١٤، ويمتلكون حالياً (٥٠٪) من رئاسات مجالس البلدية، وفي الكويت؛ لا يزال أنصار السلفية يحافظون على التمثيل في البرلمان ويتمتعون بعلاقات ممتازة مع الحكومة الكويتية، في يبدو الأمر غامضاً لجماعة الإخوان المسلمين في الخليج باستثناء الإمارات بمنأى عن حملة واسعة النطاق كتلك التي شهدتها مصر، إلا إنها تواجه مستقبلاً غامضاً^(٢٦).

وعلى عكس ما تروج له بعض التقارير من أن الربيع العربي خلف انقساماً بين دول الخليج لاسيما على مستوى الاستجابة لمطالب التغيير والإصلاح التي رفعها خليجيون مستلهمون من نظرائهم في دول الربيع العربي، فإن التقارب على مستوى الرؤى بعيدة الأمد والمصالح المشتركة مستمر، لكن بقي الاختلاف الوحيد بين دول مجلس التعاون الخليجي والذي أججته تداعيات الربيع العربي يكمن في إدارة شكل التغيير خليجياً وعربياً، متحولاً إلى تنافس بفعل تنامي الثروات النفطية على زعامة الخليج، والعالم العربي، ومن يؤثر أكثر من الآخر إلى أن تحول مع ازمه العلاقات الخليجية الأخيرة إلى أزمة استقطاب ومحاور فقط على الزعامة، وقيادة محاور في العالم العربي، وقد سعت دول مجلس التعاون الخليجي منذ انطلاق الربيع العربي في ٢٠١١ إلى الآن، ومستقبلاً للحد من التظاهر والمسيرات الاحتجاجية التي تستقطب الشباب الخليجين. واستمر الخلل السياسي في دول الخليج في ظل ضعف المشاركة السياسية الشعبية الفعالة ودورها في تحديد الخيارات واتخاذ القرارات العامة في أغلب دول المنطقة، وهو الأمر الذي أدى إلى استمرار الخلل في علاقة السلطة بالمجتمع.

وتواجه دول المجلس تحديات الانتقال من الدولة الريعية إلى الدولة المتعددة الإنتاج، وتنوع مصادر الدخل لكن تلك أنظمة تلك الدول باتت عاجزة عن استيعاب التغييرات المجتمعية العميقة الناجمة عن ظهور أجيال من الشباب المتعلم والمنفتح على العالم بكافة تغييراته واتجاهاته بفعل ثورة المعلومات، ثم أن انتقال القيادة في السعودية إلى جيل الشباب، من دون أن يترافق ذلك مع ثقافة مؤسسية وبغياب المشاركة والمؤسسات التمثيلية، أفضى إلى دخولها في مغامرات منها اغتيال خاشقجي، وحرب اليمن، وحصار قطر، ومع اندلاع احتجاجات الجزائر والسودان عام ٢٠١٨، ولبنان والعراق عام ٢٠١٩، فإن دول المجلس لن تكون بمنأى عن ذلك، وسيتوقف ذلك على درجة المرونة والاستجابة التي ستبديها أنظمتها الحاكمة لحاجات التغيير والإصلاح، وهي ستقف في نهاية المطاف أمام مفترق لا يُبقي لها سوى واحد من طريقين إما الالتحاق بركب الملكيات الدستورية أو مواجهة خطر الانتقال العنيف، مع كل ما قد يجلبه من انهيارات اجتماعية وسياسية، وربما أحداث عنف وتدخلات خارجية، وهذا الوضع سيؤدي إلى خلق

علاقات جديدة ستلقي بظلالها على العلاقات الدولية لهذه الدول مع دول أخرى في المجال الإقليمي والدولي، وقد يؤدي إلى بروز تنظيمات إرهابية ستستفيد هي الأخرى من ثورة المعلومات لفرض أجندتها، وتطويع جزء من الشباب الخليجي، ونشر الرعب والخوف عبر ما تبثه من مقاطع مسجلة على اليوتيوب، وسوف يكون مستقبل النظام السياسي غير واضح المعالم، ونرى أن ثورة المعلومات واتساعها ستجبر الأنظمة الخليجية على السماح بحريات أكثر، كذلك ستؤثر تلك الثورة في الرأي العام وصنع القرار السياسي الخليجي، إذ أن استخدام الإنترنت سيؤدي إلى إيجاد نظام سياسي يتسم باللامركزية والانفتاح الديمقراطي، وسيعمل على تحريك الشباب الخليجي باستمرار وإلى خلق جو يتسم بالحرية والديمقراطية، وإن الطرح السياسي في شبكات التواصل الاجتماعي سيصل إلى مرحلة أكبر من النضج الفكري، وسيؤسس المجتمع المدني إلى خطاب سياسي جديد، ويمكن توقع ثلاث سيناريوهات هي:

-**السيناريو الأول**، تزايد تأثير ثورة المعلومات على التحول السياسي والديمقراطي في المنطقة الخليجية بفعل تطور وسائل الاتصال ونقل المعلومات، وإن وسائل المعلومات تنتشر بسرعة، ولا يمكن حجبها حتى باستخدام اقوى المنظومات الأمنية الإلكترونية طالما أن هناك منظومات أخرى تواجه ذلك الحجب، وسيكون لوسائل التواصل الاجتماعي الدور الأكبر في تحشيد الجماهير نحو التغيير، وسيؤدي ذلك إلى تغيير الأنظمة الحاكمة، ولا يمكن حدوث هذا السيناريو في ظل الوضع الحالي لقوة بعض الأنظمة في السيطرة على الشارع، وتدخل القوى الدولية في الحفاظ على الأنظمة القائمة بزعم حماية شرعيتها التي تستمدّها من قبولها في المنظومة العالمية وليس من شعوبها.

-**السيناريو الثاني**، تراجع تأثير ثورة المعلومات على التحول السياسي والديمقراطي في المنطقة الخليجية، بفعل سيطرة الأنظمة الحاكمة على منظماتها المعلوماتية لاسيما الأنترنت، ومحاولة إيجاد بعض الإصلاحات، لتحجيم دور الشباب في تأجيج الشارع الخليجي، مع استمرار بروز الاحتجاجات هنا وهناك، وفي فترات متقطعة.

-**السيناريو الثالث**، التزامن بين تزايد ثورة المعلومات ومنح المزيد من الإصلاحات،

لكن ستستمر الاحتجاجات وعدم الاستقرار في بعضها، كما أن المنظومات الأمنية التي تضعها الأنظمة الحاكمة على المعلومات لن تصمد كثيراً أمام الغضب الشعبي، وستواجه الحكومات بعض الهزات الأمنية، وهو السيناريو المتوقع.

الاستنتاجات:

يتضح من دراستنا أن ثورة المعلومات أحدثت تغيرات كبيرة في المنطقة العربية ووصل تأثيرها إلى دول مجلس التعاون الخليجي، لكنها ليست العامل الأساس والمباشر في حدوث الحراك الجماهيري، لكنها ساعدت في ظهور مجتمع فرض نفسه من اجل الضغط على الأنظمة القائمة للقيام بإصلاحات حقيقية، كما عملت ثورة المعلومات على صحوه الشعوب الخليجية من كبوتها، ومازالت تلك الشعوب تعمل على التغيير نحو الأفضل مستفيدة من ثورة المعلومات وسرعة انتشارها في العالم، ومحاولة الأنظمة السياسية القائمة السيطرة على تدفق المعلومات، لذلك تقترح الدراسة بما يأتي:

- ١- إجراء المزيد من الدراسات العلمية حول ثورة المعلومات وتأثيرها على توجهات الشباب.
- ٢- الاستجابة لمطالب الجماهير الخليجية في التغيير، والوصول إلى حلول سياسية تصنع الديمقراطية الحقيقية.
- ٣- تفعيل دور وسائل الإعلام المختلفة على أساس المصادقية وذلك لبناء الثقة بين المواطن والحكومة.
- ٤- الاستفادة من ثورة المعلومات في الإصلاح السياسي، والمشاركة الحوارية المباشرة بين الحكومة والشعب.
- ٥- تحصين الشباب الخليجي من الثقافات الدخيلة، والرؤى التي لا تتفق والواقع الخليجي.

الهوامش:

(١) هند علوي، المرصد الوطني لمجتمع المعلومات بالجزائر، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٣٠-٣١.

(٢) إيمان فاضل السمراني وهيثم محمد الزعبي، نظم المعلومات الإدارية. ط ١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٤، ص ١١٨.

(٣) ثامر كامل محمد، العولمة من منظور ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال وآليات حراكها في الوطن العربي، مجلة العلوم السياسية، العدد ٣٧، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠٠٨، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٤) منتديات ستار تايمز ثورة المعلومات / ٢٤/٦/٢٠٠٩ / <http://www.startimes.com/?t=17649861>

(٥) منتديات ستار تايمز ثورة المعلومات، المصدر نفسه، <http://www.startimes.com/?t=17649861>

(٦) منتديات ستار تايمز ثورة المعلومات، المصدر نفسه، <http://www.startimes.com/?t=17649861>

(٧) عادل الطويس، "دور السلطة التشريعية (مجلس الأمة) في الأردن في حماية الأمن السيبراني في المملكة الأردنية الهاشمية". ورقة مقدمة إلى مؤتمر الأيام العربية الأربع للمرصد العربي للأمن السيبراني، بيروت، ٢٠١٥.

(٨) إسماعيل محمود حسن، مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٤٧٨-٤٧٩.

(٩) جيدر حاج بشير، أثر وسائل التواصل الاجتماعي في عملية التحول الديمقراطي في الدول العربية دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خضير، بسكرة الجزائر، ٢٠١٧، ص ٤٩-٥٠.

(١٠) هيئة تقنيات المعلومات، مسودة السياسة الحكومية للمشاركة الإلكترونية واستخدام أدوات التواصل الاجتماعي في القطاع الحكومي، النسخة الثانية، عمان، الأردن، ٢٠١٣، ص ٦-٧.

(١١) جمال علي الدهشان، دور تكنولوجيا المعلومات في دعم التحولات الديمقراطية، الديمقراطية الرقمية أنموذجاً، المجلة الدولية للعلوم التربوية، المؤسسة التربوية لأفاق المستقبل، م ١، العدد ٢، تالين، إستونيا، ٢٠١٨، ص ١٣٨-١٤٤.

(١٢) جمال علي الدهشان، دور تكنولوجيا المعلومات في دعم التحولات الديمقراطية، الديمقراطية الرقمية أنموذجاً، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العلمي الرابع، التربية وبناء الإنسان في ظل التحولات الديمقراطية، كلية التربية، شبيبن الكوم، جامعة المنوفية، مصر، ٢٩-٣٠/٤/٢٠١٤.

<http://geldahshancom.blogspot.com/2014/07/>

(١٣) جمال علي الدهشان، مصدر سابق،

<http://geldahshancom.blogspot.com/2014/07/>

(١٤) عبد القادر شريف درقاوي، "الغيس بوك في الوطن العربي، دراسة علمية لظاهرة المنظمات الافتراضية، مجلة جيل الدراسات السياسية والعلاقات الدولية، العدد ١، مركز جيل البحث العلمي، البليدة، الجزائر، يناير ٢٠١٥، ص ٨٦.

(١٥) الخليج أون لاين، الخليج يزاحم دولاً عظمى في تنافسية تقنية المعلومات <https://alkhaleejonline.net>

(١٦) حميدة دقاشي، دور مبدأ التداول على السلطة في تحقيق الاستقرار السياسي دراسة حالة بلجيكا، رسالة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، الجزائر، ٢٠١٦، ص ٢٣.

(١٧) بهاء الدين مكاي، الاستقرار السياسي: مفهومه وتجلياته ومؤشرات قياسه، ٢٠١٧/٨/٢٨ <http://alsahafasd.com/10089100>

(١٨) بهاء الدين مكاي، المصدر نفسه، <http://alsahafasd.Com/10089100>
(١٩) دلال العكلي، استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي، الثلاثاء ٢٧ كانون الأول ٢٠١٧، <https://annabaa.org/arabic/informatics/13660>

(٢٠) الموسوعة الحرة، الربيع العربي، <http://ar.wikipedia.org/wiki/>
(٢١) حوراء رشيد مهدي الياسري، مستقبل الحراك الشيعي في دول مجلس التعاون الخليجي، ٢٠١٤/١١/٧ <http://fcds.com/polotics/197>

(٢٢) الموسوعة الحرة، الأشراف والرقابة على الأنترنت حسب البلد، <https://ar.wikipedia.org/wiki>

(٢٣) جمال عيد، وآخرون، الإنترنت في العالم العربي، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، القاهرة، ٢٠١٥، ص ١٥.

(٢٤) جمال عيد، وآخرون، المصدر نفسه، ص ٣٧-٣٨

(٢٥) حوراء رشيد مهدي الياسري، مصدر سابق، <http://fcds.Com/polotics/197>

(٢٦) أحمد الشلقامي، مستقبل الإخوان المسلمين في الخليج، المجتمع، ٢٠١٥/ ٢/١٥ <http://mugtama.com/reports/item/14460>

المصادر:

- (١) الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، خريطة دول مجلس التعاون الخليجي ٢٠١٧.
- (٢) بشير، جيدور حاج، أثر وسائل التواصل الاجتماعي في عملية التحول الديمقراطي في الدول العربية دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خضير، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٧.
- (٣) حسن، إسماعيل محمود، مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير، الدار العالمية للنشر

والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢.

(٤) الخليج أون لاين، الخليج يزاحم دولاً عظمى في تنافسية تقنية المعلومات
<https://alkhaleejonline.net>

(٥) درقاوي، "عبد القادر شريف، الفيس بوك في الوطن العربي، دراسة علمية لظاهرة المنظمات الافتراضية، مجلة جيل الدراسات السياسية والعلاقات الدولية، العدد ١، مركز جيل البحث العلمي، البلدة، الجزائر، يناير ٢٠١٥.

(٦) دقاشي، حميدة، دور مبدأ التداول على السلطة في تحقيق الاستقرار السياسي دراسة حالة بلجيكا، رسالة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، الجزائر، ٢٠١٦.

(٧) الدهشان، جمال علي، دور تكنولوجيا المعلومات في دعم التحولات الديمقراطية، الديمقراطية الرقمية أنموذجاً، المجلة الدولية للعلوم التربوية، المؤسسة التربوية لأفاق المستقبل، م١، العدد ٢، تالين، إستونيا، ٢٠١٨.

(٨) الدهشان، جمال علي، دور تكنولوجيا المعلومات في دعم التحولات الديمقراطية، الديمقراطية الرقمية أنموذجاً، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العلمي الرابع، التربية وبناء الإنسان في ظل التحولات الديمقراطية، كلية التربية، شبيبن الكوم، جامعة المنوفية، مصر، ٢٩-٣٠/٤/٢٠١٤.

<http://geldahshancom.blogspot.com/2014/07/>

(٩) السمراني إيمان فاضل، وهيثم محمد الزعبي، نظم المعلومات الإدارية. ط ١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٤.

(١٠) الشلقامي، أحمد، مستقبل الإخوان المسلمين في الخليج، المجتمع، ١٥/٢/٢٠١٥،
<http://mugtama.com/reports/item/14460>

(١١) الطويسسي، "عادل، دور السلطة التشريعية (مجلس الأمة) في الأردن في حماية الأمن السيبراني في المملكة الأردنية الهاشمية". ورقة مقدمة إلى مؤتمر الأيام العربية الأربع للمرصد العربي للأمن السيبراني، بيروت، ٢٠١٥.

(١٢) العكيلي، دلال، استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي، الثلاثاء ٢٧ كانون الأول ٢٠١٧، <https://annabaa.org/arabic/informatics/13660>

(١٣) علوي، هند، المرصد الوطني لمجتمع المعلومات بالجزائر، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٨.

(١٤) عيد، جمال، وآخرون، الإنترنت في العالم العربي، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، القاهرة، ٢٠١٥.

(١٥) محمد، ثامر كامل، العولمة من منظور ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال وآليات حراكها في الوطن العربي، مجلة العلوم السياسية، العدد ٣٧، كلية العلوم السياسية،

جامعة بغداد، ٢٠٠٨.

(١٦) المركز الإحصائي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، إحصاءات الثقافة، العدد ١،

فبراير ٢٠١٩، جدول ٤، ١٨، ١٩ ص ٣٠، ٢٤، ٣١

(١٧) مصطفى، مالك وعيد، الأنترنت والحكومات العربية، ترجمة نجم، نورة، الشبكة العربية

لمعلومات حقوق الإنسان، ٢٠١٧.

(١٨) مكاي، بهاء الدين، الاستقرار السياسي: مفهومه وتجلياته ومؤشرات قياسه، ٢٨/٨/٢٠١٧

<http://alsahafasd.com/10089100>

(١٩) منتديات ستار تايمز ثورة المعلومات، ٢٤/٦/٢٠٠٩،

<http://www.startimes.com/?t=17649861>

(٢٠) الموسوعة الحرة، الأشراف والرقابة على الأنترنت حسب البلد،

<https://ar.wikipedia.org/wiki>

(٢١) الموسوعة الحرة، الربيع العربي، [//ar.Wikipedia.org/wiki](https://ar.wikipedia.org/wiki)

(٢٢) هيئة تقنيات المعلومات، مسودة السياسة الحكومية للمشاركة الإلكترونية واستخدام أدوات

التواصل الاجتماعي في القطاع الحكومي، النسخة الثانية، عمان، الأردن، ٢٠١٣.

وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات الأردنية، التقرير العالمي لتكنولوجيا

المعلومات، الأردن ٢٠١٦.

(٢٣) الياسري، حوراء رشيد مهدي، مستقبل الحراك الشيعي في دول مجلس التعاون الخليجي،

<http://fcds.com/polotics/197>، ٧/١١/٢٠١٤،

24. <https://weedoo.tech/>

Measurement method by finding the global weight of item "A theoretical and practical model"

Ph.D. Assistant Professor Sattar Jabbar Ghanem

College of Arts - University of Mustansiriyah

The problem of research:

After researching the methods of psychological measurement and its stages of development in the psychological and educational sciences, starting with the method used by Bogards, the researcher believes that researchers who preceded him all tried to reach the method that guarantees the highest accuracy in measurement by eliminating the defects in the previous measurement methods As will be mentioned later. therefore, the researcher believes that both Likert and Thurstone method are good methods of measurement, but each of them has its flaws and advantages. Accordingly, the researcher seeks to analyze both methods in an attempt to arrive at the method that he believes is the most appropriate for measurement innovated by the researcher.

Introduction

After four years of continuous work, two halves of a large bridge across the Rhine have met to connect Germany and Switzerland. The engineers working on the bridge were astonished to find that there was a difference of 21 inches in height between the two sides: Various measurements of sea level (North Sea versus Mediterranean) were used. Clerk

Maxwell says: " We owe all the great advances in knowledge to those who endeavour to find out how much there is of anything. And Lord Kelvin says: "One's knowledge of science begins when he can measure what he is speaking about, and express it in numbers. Johannes Clare says "As the ear is made to perceive sound and the eye to perceive colour, so the mind of man has been found to understand not all sorts of things, but quantities. It perceives any given thing more clearly in proportion as that thing is close to bare quantities as to its origin, but the further a thing recedes from quantities, the more darkness and error inheres in it."Johannes Kepler, Opera, (1595) (Eysenck, 1973).

Measurement problems can occur (sometimes with huge consequences) as in the bridge problem, as in psychology we do not disagree but rather our task is much more difficult. Because what we want to measure is an abstract concept and not a physical thing that can be measured with the physical tools of measurement such as height and weight. From here we find that in measurement we convert concepts into quantities, this process is a risky daring. Edward L. Thorndike (1874-1949) wrote in his book, Educational Psychology: "We overcome facts of nature when we observe and experience them. And when we measure them, we make them our servants" (1903, p. 164). Thorndike's focus on measurement and quantification was just as important as experimental psychology, poorly prepared by schools in mathematics and largely self-education in statistics, Thorndike was a guide to psychological and educational measurement and use of the universal language of science which is the language of numbers. o he said: "Whatever exists, exists in an amount (amount) and what exists in an amount (by amount) can be measured " this saying includes knowing the quantity, quality and accuracy in knowing the amount of this quantity (Eysenck, 1973).

Therefore, we find many psychologists build their tools to measure the psychological concept that they want to study and understand. In this case, verifying the validity of the scale construction, and the grades obtained from it accurately represent the quantity of the concept or the psychological characteristic of the sample members, which is not an easy task. This difficulty is not only accurate in measuring psychological structures, but it is also complex. It is relatively easy to determine which sea should be a criterion for calculating height above sea level, but accurately and correctly quantifying a psychological variable is a great challenge.

Although there are different ways to convert the psychological variable into quantitative numbers, but it remains imprecise when reviewing its procedures because it includes different behaviors and perceptions expressed in items that together constitute the psychological scale, therefore different behaviors that express the psychological concept cannot take the same weight in measurement as Likert did, and as Thurston emphasized.

This research will shed light on item weight in psychometrics, It explains why the equal weight of the scale items establishes a serious and unacknowledged threat to the efforts of researchers in psychological and educational sciences, and concludes with a new measurement method presented by the researcher to address the problem of item weight.

Research hypotheses :

- 1- A weight can be given to item in the scale based on its weight among the members of the community.
- 2-The statistical method represented by the factor analysis can be used to find the weight of item.

Research literature

- Thurstone Method (1929)

Since 1929, Thurston presented his theoretical analysis in an attempt to develop a method for measuring attitudes based on the basic ideas of psychophysics. It depends on creating a balance between the severity of the psychological phenomenon (attitude) and the physical units of measurement (the degree on the test). This method aims to choose items to measure attitudes that represent different degrees of attitude in such a way that accurate values can be determined for each of them. Thurston has used this method in measures of attitudes towards a number of subjects. In this case, the scale consists of a number of statements, including equal intervals or distances, describing the attitude from maximum positivity to maximum negativity, this Thurston method is called "Equal Appearing Intervals" (Guffey, et al., 2007; Stevens, 1946).

On the method of preparing scale and estimating weight of each statement, test designer asks a large number of individuals to present some sentences describing their attitudes towards the subject to be measured. Subsequently, these sentences are reviewed and crystallized through literature on the subject to be measured and reformulated in the form of a clear and short sentence. Thus, a large number of statements and phrases are collected, possibly more than a hundred. Thurston believes that it measures the attitude he wants to measure, it represents the extent of approval or acceptance to rejection or aversion. Then each statement is written on a separate card and the statements are presented to a group of expert referees in the field (their number may reach a hundred). Experts are asked independently to place each statement in a category ranging from 1 to 11, so that the most positive expressions are in Category No. (1) and the most negative are in Category No. (11). It is noted that role of experts in this case is not to express

their situation or attitudes towards the subject of measurement or to choose statements that express their attitudes , but rather that their task is only to determine the extent to which these statements express the attitude to be measured without regard to their personal situation (Likert, & Murphy ,1993; Guffey,etal. ,2007).

In the next step, the weight of each statement is obtained by calculating the median of the experts' answers for each statement ,Then the percentiles are determined and the statement are chosen so that their percentiles are graduated in a manner corresponding to gradient from 1 to 11, the statement that occupies the first place is in the first percentile, it is the phrase that expresses the most positive attitudes ,the statement in 11th position that expresses the most negative trends. After this process, the ambiguous or inappropriate statements about which the experts disagreed are excluded, Whereas, the expressions that they have unanimously accepted are accepted according to the test of homogeneity that appeared in the answers of the experts by calculating the Semi-Quartile Range* for each statement, Considering that Semi-Quartile Range is one of the measures of dispersion that is best used in cases where we use the median as a measure of central tendency. statements that get half of the low quadrant range are accepted as an indication of the severity of the homogeneity. After determining statements that are valid for measurement, the respondent's score on the scale is the value of the mean calculated from the sum of the statements he answered. (Likert, & Murphy ,1993; Guffey,etal. ,2007; Edwards & Kenney, 1946)

- **Likert Method (1932)**

Likert, R., devised a method for measuring psychological attitudes in an effort to overcome the difficulty of experts in the field in the Thurston method. Today, this method is considered the most common

method in use to measure the psychological attitudes towards a certain phenomenon due to its ease of application, correction and extracting its results (Stevens, 1946; Edwards & Kenney, 1946)

Thus Likert dispensed with the expert judgment that was one of the conditions of Thurston, as scale consists of a set of positive and negative items that are equal in number, He has collected a large number of statements from a wide range ranging from extremist or moderate approval to moderate or extremist opposition with the exclusion of statements that he thinks are neutral. He tested these statements on a group of individuals asking them to respond to each statement in one of the following categories (I strongly agree, I tend to agree, I am unsure, I tend to oppose, I strongly oppose). And then correct responses to these statements that indicate support by giving the previous categories the following values (5,4,3,2,1) respectively, while the opposing response gives the values contrary to the previous order (Edwards & Kenney, 1946)

The Likert method is described as a model that achieves effectiveness, adequacy and accuracy in measurement (Borg & Call, 1975). It has a number of advantages, such as:

- A. Ease of construction and correction.
- B. Achieve a more consistent scale.
- C. It allows the respondent to indicate the degree or intensity of his acceptance or rejection of the single item.
- D. does not require a large number of experts when used.
- E. Reliability tends to be good, due in part to the large range of responses allowed by the respondent.(Oppenheim, 1973; Stevens, 1946; Edwards & Kenney, 1946).

From this review, we find that the thurston's method is distinguished by the fact that it gives each item its own weight on attitude scale, this is closer to accuracy than in Likert's method, which gives all items the same weight, However, obtaining an adequate number of experts constitutes a hindrance in using this method of measurement, as well as “the use of biased or extremist experts affects the design and construction of the scale,we also find that the respondent on the

Thurston style only answers item that applies to him, while Likert's method is characterized by placing a number of alternatives in front of each item, to which the weight of the item is distributed equally, the respondent is asked to express his attitude towards each item of the scale, and for this reason, each item provides us with information about the respondent. therefore, the researcher will employ the logic on which each method is based. He uses the procedures in Likert's method of measurement, then completes them by giving a special weight for each item, this weight is obtained through the process of factor analysis by making weight of item is value of its loading with the psychological concept after process of rotating of axes. this weight is divided equally among alternatives of item, and as shown in the steps for building social distance scale by researcher.

Scale application and sample

social distance measure consisting of (23) items was chosen, which was previously prepared by the researcher in a previous study, and researcher applied it to a random sample of university students of (413) male and female .

factor analysis

Factor analysis is used to find out whether the elements on the scale have similar patterns of responses. Are these elements “combined” to create a structure? So the basic assumption of factor analysis is that for a set of observed variables there is a set of basic variables called factors (the least number of elements or scale items), which can explain the interrelationships between those items, So the question is: do all these items measure what we call social distance? Factor analysis also answers the following questions: if scale is composed of domains (factors), are these domains valid? if there are no fields (factors) within the scale, then can we find

fields for this scale, or does it represent one basic field? Are these fields compatible with study population or can other fields be derived that are appropriate to the characteristics of the study population ? It is worth noting that factor analysis is a method for modeling observed variables, and their covariance structure, in terms of fewer unobservable latent "factors". Factors are usually seen as general concepts or ideas that may describe an observed phenomenon. variation is one of the most basic concepts in factor analysis, that is, the amount of dispersion of numerical values from the sample mean. We are looking to understand how the various fundamental factors affect the contrast between our elements (and in this research, each of the scale item is considered an element). Each factor will have an impact, but some will explain more variance than others, which means that the factor represents more accurately the elements (items) that make it up. (2) So we focus mainly on variance and covariance rather than the middle. Factor analysis assumes that variance can be divided into two types of variance which are common variance and unique variance(Stevens,1986; Kim,1978a; Cattell,1966).

Factual analysis of the social distance scale paragraphs

The factor summarizes the associations between the various items and these correlations constitute structure or formative qualities of the factor and which give him his psychological meaning. The researcher used the Principal Component Method developed by Hotelling (Cattell,1966; Ferguson & Takane, 1989; Stevens,1986) on sample of (413) male and female from university students , scale items (23) represented a variable that was used in factor analysis process. Table (1) shows the basic statistics for these variables.

Table (1)

Basic statistics for the paragraphs of the social distance scale

items	middle	standard deviation	items	middle	standard deviation
1	5.69	1.99	13	4.04	2.10
2	4.82	1.84	14	3.25	2.29
3	4.65	1.92	15	3.84	2.19
4	3.86	2.22	16	2.02	1.66
5	5.68	2.01	17	3.16	2.08
6	4.03	2.11	18	4.21	2.23
7	4.74	2.29	19	2.52	1.94
8	4.79	2.25	20	2.54	1.99
9	3.11	2.10	21	2.59	2.16
10	5.79	1.93	22	1.92	1.79
11	4.46	2.25	23	1.68	1.59
12	2.06	1.61			

Pearson correlation coefficients were calculated between these variables and Correlation Matrix was formed on which the factor analysis was performed. The analysis process produced (23) factors arranged in descending order according to their contribution to calculated subscriptions. The commonly used rule in the basic components method is that the contribution of factor to sum of the social contributions is not

less than one (Ferguson & Takane, 1989: Kim,1978a) Accordingly, Table (2) indicates five factors that were obtained according to this rule. We also note that Table (2) indicates of loading each factor with (23) variable (item)which means degree of item is linked to factor, the rows in base of the table show (distinct root) eigen value of resulting factors, i.e. contribution of each factor to sum of the contributions, and variance ratio of each factor to total variance of the correlation coefficients matrix, which is called explained variance or percentage of the contribution, the last row in the table shows combined variance.

Table (2) shows that correlational variance of five factors resulting from correlation matrix analysis process represents about (55.681) of total variance,this is the maximum correlational variance extracted from the correlation matrix, and data in Table (2) are not flexible for any psychological interpretation, therefore, the researcher deliberately rotated assignment axes to new positions, as rounded factors would be a description of structural vector characteristics (Ferguson & Takane, 1989),this means obtaining the largest number of high positive loadings and loadings close to zero, and thus we obtain new derived factors and the meaning is assigned to them, i.e. redistributing loading values so that sub-groupings of the factors are clear.

Table (2)
Factors resulting from Social Distance Scale items Correlation Matrix Analysis (Before Rotation)

Items	Factors				
	1	2	3	4	5
1	0.486	-0.301	0.216	0.283	9.892E-02

2	0.257	5.549E-03	-0.424	0.699	9.152E-02
3	0.303	4.874E-02	-0.367	0.732	0.140
4	0.673	-6.071E-02	7.717E-02	0.104	-0.271
5	0.591	-0.274	0.357	8.277E-02	-5.881E-02
6	0.636	1.839E-02	9.984E-02	3.633E-02	-0.210
7	0.686	-0.181	0.158	-6.085E-04	-0.297
8	0.670	-0.235	0.158	0.103	-0.226
9	0.565	0.118	-3.278E-02	-9.232E-02	0.160
10	0.518	-0.232	0.434	1.282E-02	0.206
11	0.637	-0.222	0.243	-2.019E-02	0.187
12	0.576	0.249	-0.340	-0.178	0.265
13	0.480	0.148	-0.186	-9.657E-02	-0.457
14	0.586	0.193	-0.349	-0.215	-0.143
15	0.528	0.216	-0.356	-0.101	-0.224
16	0.500	0.341	-0.332	-0.277	0.201
17	0.615	0.195	-8.636E-02	-0.167	0.386
18	0.628	2.896E-02	0.203	-0.148	0.376
19	0.167	0.499	4.586E-03	-6.048E-02	-0.163
20	-5.890E-02	0.559	0.271	0.281	-1.476E-02

21	-2.233E-02	0.669	0.298	0.166	9.908E-02
22	-1.148E-02	0.700	0.312	8.710E-02	-7.211E-02
23	2.789E-02	0.727	0.301	8.431E-02	-6.340E-02
Contribution of factor	5.751	2.726	1.710	1.491	1.128
Explained variance	25.003	11.854	7.435	6.482	4.906
Clustered variance	25.003	36.858	44.293	50.775	55.681

It is worth noting that the researcher used in process of rotation the Varimax method to maximize normal variance of rotation, which was proposed by Kaiser and rotation of factors to make Varimax criterion of normal varimax the largest possible.

Table (3) indicates factors resulting from recycling process, it is noticed that values of loaded with factors have changed if we compare them with values before rotating of axes, It is noted from the table that the variance ratio of each factor to the total variance remained constant before and after rotation process. Based on Therston criterion, which emphasizes importance of item being loaded in a way that has practical significance in one factor and weak in others (Child, 1979). To judge the value of the factor loadings of the variables (items) of practical significance for all of this, the loadings is close to zero, if it is less than (0.4) (Stevens, 1986; Kim, 1978b), this is used as a criterion on the basis of which the variables (paragraphs) are accepted in the factor.

Table (3)
Factors resulting from rotating of axes (social distancing measure)

Items	Factors				
	1	2	3	4	5
1	0.626	3.642E-02	-0.106	-1.996E-02	0.241
2	4.669E-02	7.392E-02	-2.985E-02	9.290E-02	0.852
3	0.106	0.107	3.827E-02	5.825E-02	0.870
4	0.544	0.111	1.927E-02	0.470	0.130
5	0.734	3.417E-02	-5.752E-02	0.137	2.432E-04
6	0.495	0.170	7.994E-02	0.419	6.466E-02
7	0.624	7.670E-02	-7.117E-02	0.464	5.218E-04
8	0.653	5.330E-02	-9.871E-02	0.377	9.699E-02
9	0.322	0.478	6.205E-02	0.172	5.330E-02
10	0.712	0.164	-1.494E-02	-0.117	-6.959E-02

11	0.671	0.300	-9.669E-02	2.331E-02	4.311E-03
12	8.819E-02	0.728	1.572E-02	0.232	0.135
13	0.137	0.136	4.733E-02	0.682	1.811E-02
14	8.820E-02	0.495	-2.571E-02	0.560	5.073E-02
15	5.174E-02	0.382	2.006E-02	0.588	0.132
16	-1.156E-02	0.715	8.006E-02	0.274	2.419E-02
17	0.293	0.709	7.773E-02	5.608E-02	5.301E-02
18	0.537	0.547	6.629E-02	-5.849E-02	-6.082E-02
19	-7.246E-02	0.170	0.430	0.294	-4.352E-02
20	-2.612E-02	-7.145E-02	0.668	-5.417E-02	0.116
21	-3.849E-02	8.343E-02	0.745	-0.104	2.822E-02
22	-5.345E-02	2.373E-02	0.768	4.873E-02	-6.804E-02
23	-4.222E-02	6.307E-02	0.785	6.818E-02	-5.739E-02
Contribution of factor	3.786	2.712	2.464	2.196	1.648
Explained	16.459	11.793	10.713	9.550	7.167

variance					
Clustered variance	16.459	28.252	38.965	48.514	55.681

The commonly used rule in basic components method is that the contribution of the factor to the total contributions should not be less than (1), and this rule is an arbitrary rule (Ferguson & Takane, 1989) The number of factors resulting from factor analysis model depends on estimates of contributions. Therefore, choosing appropriate solution depends on external criteria that are not related to the model, The significance of factor is considered one of subjective criteria for determining one of factors (Kim,1978b) In small-sized samples, one of factors can be judged to be insignificant, even though it contributes significantly, on the other hand, the least contributing factors in the case of very large samples may be judged to be significant (Stevens,1986),Among other methods in this field: the extent of conformity with results of other studies in the same field, and weight of loadings of factor, and this may be a criterion of judgmental methods in this field if scientific experience is available in the research subject (Kim,1978b) so it has been shown that the factors resulting from recycling process (Table 3) have psychological meanings according to significant loadings of items except for the fifth factor, which the researcher omitted due to its ineffective in measuring, As this factor carries the lowest effectiveness to the total contribution of factor, as it reached (1.648), and it includes only two items, which are clear from their observations that they are not scientifically useful "in measuring social distance.

Factor weight method of measurement invented by the researcher

In the first application stage, on basis of which factor analysis was calculated, the score obtained by subject was calculated on social distance scale using procedures followed in Likert method, but at this stage we will re-correct each questionnaire by giving special weight to each item, this procedure is based on the logic: In fact, the items differ in their ability to represent the concept for which they are intended. Since Likert's method gives all items same weight, so giving each item a weight consistent with its ability to represent the psychological concept is a matter closer to accuracy and objectivity in measurement, this weight is obtained by the researcher through process of factor analysis, by making weight of item a consequence of value of its loading with the psychological concept, this weight is divided by the number of answer alternatives for each item, and the result of this process is multiplied by the previous weight of alternative. Whereas the researcher had placed a seven-scale to evaluate responses on items of social distancing scale, which are: (I desire a lot, I desire a medium degree, I desire a little degree, neutral, I do not desire a little degree, I do not desire a moderate degree, I do not desire completely), through process of factor analysis, the value of loading of the first item with psychological concept was (0.626) (Table 3), and this value represents weight of item in the scale, so this weight is divided by number of alternatives, which is (7), so the result is (0.0894), so this value is multiplied by scale of alternatives degrees (1, 2, 3, 4, 5, 6, 7) respectively, Which was previously determined according to Likert's method, so the result will be (0.089, 0.179, 0.268, 0.358, 0.447, 0.537, 0.626), which are degrees that will be used in correction of item according to alternative indicated by participant . thus, each item will be corrected by giving special weight to it, as is

case on first item, the sum of weights of alternatives indicated by participant represents value of score obtained on the scale. Since researcher has obtained four factors for social distance scale through process of factor analysis, so each participant will receive four scores representing these factors and each factor consisting of sum of significant items in it, In theory, the lowest score that respondent can get on the four factors starting from the first factor is (0.80, 0.52, 0.49, and 0.45) degrees respectively, and it is the lowest difference in social distance and represents complete acceptance of the other, while the highest score that the respondent can get on four factors starting from the first factor is (5.60, 3.67, 3.40, 3.18), which is the highest difference in social distance and represents the total rejection of the other.

Results

It appears from the above procedures that the research hypotheses:

- 1- Weight can be given to item in scale based on its weight among research community members.
- 2- The statistical method of factor analysis can be used to find weight of item.
- 3- These hypotheses were realized and proven.

Recommendations

The researcher recommends using this method in psychological measurement and verifying it on other psychological variables.

References

- Borg, W. & Call, M. (1975). **Educational Research**. 3rd, New York: Longman.

- Cattell, R. B. (1966). **The scree test for the number of factors.** Multivariate Behavioral Research, 1, 245-276.
https://doi.org/10.1207/s15327906mbr0102_10
- Child, D. (1979). **The Essentials of Factor Analysis.** New York: U.S.A.
- Edwards, A. L., & Kenney, K. C. (1946). **A comparison of the Thurstone and Likert techniques of attitude scale construction.** Journal of Applied Psychology,30(1), 72 –83. doi:10.1037/h0062418
- Eysenck, H. J. (1973). **The Measurement of Intelligence** , Medical and Technical Publishing Co. Ltd., Lancaster, England .
- Ferguson, G. & Takane, Y. (1989). **Statistical Analysis in Psychology and education.** New York: McGraw-Hill.
- Guffey, James & Larson, James & Zimmerman, Loren & Shook, Brenda. (2007). **The Development of a Thurstone Scale for Identifying Desirable Police Officer Traits.** J Police Crim Psychol. 22. 1-9. 10.1007/s11896-007-9001-8.
- Kim, J. O. & Mueller, C. W. (1978a). **Introduction to factor analysis: What it is and how to do it.** Beverly Hills, CA: Sage.
- Kim, J. O. & Mueller, C. W. (1978b). **Factor analysis: Statistical methods and practical issues.** Beverly Hills, CA: Sage.
- Likert, R., Roslow, S., & Murphy, G. (1993). **A simple and reliable method of scoring the Thurstone attitude scales.** Personnel Psychology,46(3), 689 –690. doi:10.1111/j.1744-6570.1993.tb00893.x
- Oppenheim, A. (1973). **Questionnaire Design and Attitude Measurement.** London: Heinemann.
- Stevens, J. (1986). **Applied multivariate statistics for the social sciences.** Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.
- Stevens, S. S. (1946). **On the theory of scales of measurement.** Science,103(2684), 677–680.doi:10.1126/science.103.2684.677

Le mythe antique et la vision socio-humaine contemporaine; Jean Giraudoux comme modèle

Prof. Assistant Lamia kathim MOUFTEN

Prof. Assistant Majed Jamil NASIF

Faculté des lettres - Université Al-Mustansiriyah

Faculté des lettres - Université Al-Mustansiriyah

Introduction

*Il y a des
peuples qui rêvent,
mais pour ceux qui ne rêvent pas,
il reste le
théâtre.* (Giraudoux, 1941, p. 189)

Vers le début du XX^e siècle, le théâtre français était en pleine décadence. Les innombrables pièces qui occupaient les scènes étaient inspirées de l'Antiquité. À l'époque des tensions et des soucis de la guerre, l'attente de la guerre doit mobiliser les consciences et les engagements des écrivains pour une actualité dramatique. Le rôle du théâtre consiste à supposer la distance, matériellement entre la scène et la salle, psychologiquement entre le sujet et la vie. Les dramaturges de l'époque rêvent depuis longtemps de reconquérir le public populaire, c'est un fait qui depuis des siècles leur échappe.

Après 1918, le mouvement dramatique se précise, les talents et les innovateurs savent faire de Paris le plus extraordinaire chantier de théâtre. Tous les grands auteurs : Claudel, Anouilh, Giraudoux, Montherlant, Mauriac, Salacrou, Sartre et Camus recherchent les dimensions humaines et existentielles par diverses voies : lyrismes, mythes, symboles, fantaisie, humour. D'ailleurs ces dramaturges du XX^e siècle ont voulu penser et faire penser les grands problèmes qui hantaient le public, on retrouvait ces problèmes sur la scène. Ce sont dramaturges, plutôt ouvriers de la renaissance théâtrale du XX^e siècle.

D'après Antoine Vitez : « le théâtre est un champ de forces très petit, mais où se joue toute l'histoire de la société, et qui, malgré son exigüité, sert de modèle à la vie des gens. » (VIEGNES, 1992, p. 133). Le théâtre se fait alors un miroir de l'expérience humaine. Sur la scène, les dimensions humaines et sociales au XX^e

-1-

siècle sont bien présentées. De même que la perspective politique n'est qu'un angle parmi d'autres.

Le théâtre girauducien se déroule dans un espace justifié par l'engagement de l'écrivain qui peut affirmer sur la scène sa vision socio-humaine la plus large. Selon Giraudoux le théâtre

est l'art suprême dans lequel il peut proposer des thèmes divers : historiques, humains et sociaux qui se font la base de toutes ses œuvres théâtrales. Son théâtre se présente comme un phénomène important des trente premières années du siècle et de la renaissance de la tragédie française aux sujets antiques. Cette période marque la curiosité du public qui cherche à voir ses soucis et ses questions transposées au théâtre. Ainsi, Jean Giraudoux, en 1935, recrée *La guerre de Troie n'aura pas lieu* en s'inspirant de l'Iliade d'Homère. Et en 1937, il montre le tragique familial des Atrides par la recreation d'*Électre*. « Pour Giraudoux, le théâtre est avant tout un lieu d'enchantement. Les sujets antiques ou modernes, les tons humour, ironie, amertume sont d'une grande variété. » (Berton, 1983, p. 81).

La notion du destin est bien incarnée dans *La guerre de Troie n'aura pas lieu*. Le conflit entre la volonté du destin et la responsabilité humaine se rencontrent sur la scène. La même notion du destin se répète dans Électre ; Électre est la fille d'Agamemnon. En grec, son nom signifie la "rayonnante". Elle a 21 ans. Au début de la pièce, elle est complètement seule, son père est mort, sa mère la prive de l'amour maternel, sa sœur Iphigénie a été sacrifiée et son frère Oreste est exilé. Électre et Oreste sont victimes du destin. Leurs parents : Agamemnon, chef des armées grecques pendant la guerre de Troie, et

Clytemnestre qui, à l'absence de son époux, a pris Égisthe pour
amant. Au retour d'Agamemnon, Égisthe

-2-

l'assassine. Pour venger son père, Électre se trouve contre sa
mère. Elle demande à son frère d'exécuter cette vengeance. Elle
garde deux sentiments excessifs ; un amour pour son père et une
haine pour sa mère. Elle montre un grand désir pour la vérité
et la vengeance. Dans cette tragédie, les thèmes que traite
Giraudoux sont : la haine, la vengeance, le meurtre, la famille et
la culpabilité. Ces thèmes sociaux ne sont pas loin de l'esprit
social de tous les âges ainsi qu'ils sont bien liés aux thèmes
humains.

On peut mettre les personnages de *La guerre de Troie
n'aura pas lieu* en deux classes : celle de la paix et celle de la
guerre. Hector, c'est le personnage principal de la pièce, il
exprime les idées de Giraudoux sur la guerre et la paix. C'est un
guerrier, prince troyen et fils du roi Priam. Il est combattant
redoutable et héroïque représentant la gloire et l'honneur de
son pays de Troie. Au début de la pièce, il arrive victorieux du
combat, mais il comprend que la guerre est un mensonge et une
illusion dangereuse.

Notre étude vise à révéler par l'analyse des deux pièces étudiées *La guerre de Troie n'aura pas lieu* et *Électre*, la vision et les idées sociales et humaines contemporaines de Giraudoux. Cette révélation doit être traitée par les questions suivantes: pourquoi Giraudoux s'inspire-t-il de l'Antiquité ? Comment Giraudoux fait-il le lien étroit entre le présent et le passé? Pourquoi choisit-il le genre théâtral pour exposer ses idées sociales et humaines? Dans les deux pièces, comment l'action dramatique présente-t-elle les notions humaines? Comment les personnages girauduciens évoquent-ils les conflits sociaux et humains contemporains? Ces deux pièces fameuses arrivent-elles à incarner les soucis et les problèmes de l'homme et de la vie du XX^e siècle ?

-3-

Le mythe antique et la vision socio-humaine contemporaine

Pacifisme-Bellicisme

Dans les deux pièces mises en étude, en particulier dans *La guerre de Troie n'aura pas lieu*, les deux notions ; le pacifisme et le bellicisme jouent un grand rôle dans l'action dramatique. Deux côtés opposés ; les bellicistes s'efforcent pour prôner les prétextes de la guerre. Les anti-bellicistes, les

pacifistes croient à la possibilité d'établir la paix pour des raisons variées. Ainsi, on voit la provocation d'un conflit entre les deux côtés. Dans *La guerre Troie n'aura pas lieu*, « L'action se déroule à Troie, dans le palais de Priam. Pâris, fils du roi de Troie Priam, a enlevé Hélène, l'épouse du roi grecque, Ménélas, un ambassadeur grec est sur le point d'arriver à Troie pour venir chercher Hélène. Au même moment, Hector, le frère aîné de Pâris, revient victorieux d'une guerre et s'apprête à fêter la paix. Andromaque, son épouse, qui attend un enfant, n'aspire plus elle aussi, qu'à la paix. Elle déclare à Cassandra, la prophétesse, fille de Priam, que la guerre de Troie n'aura pas lieu : on rendra Hélène aux grecs. Mais Cassandra est inquiète : le destin est-là, tapi comme un tigre ; la guerre aura lieu.» (POTLET, 1995, pp. 55-56). Le roi Priam est admiré par la beauté d'Hélène, il refuse de la rendre aux grecs. Mais Hector veut coûte que coûte établir la paix, il redoute la guerre, il pense que cette guerre n'a pas de sens. Ce qu'il cherche, c'est être heureux auprès de son épouse. Ainsi, Andromaque lui apprend que Pâris a enlevé Hélène et que si les troyens ne le rendent pas, c'est la guerre. Hector est prêt à tout pour obtenir la paix en vue de sauver son pays.

D'une part, Demokos, le poète officiel de la famille royale, le belliciste, cherche fortement à provoquer les sentiments nationalistes. D'autre part, il donne tous ses prétextes pour venger l'honneur de son pays. Il exerce des négociations comme des moyens pour chanter la dignité nationale. Il refuse de laisser débarquer Ulysse, l'ambassadeur grec, le plus sage qui comprend Hector et ne souhaite pas la guerre, qui doit présenter la dernière chance de la paix.

"DEMOKOS.-« Ils ne débarqueront pas, notre honneur est en jeu.

Nous serions la risée du monde..." (GIRAUDOUX, 1935, p. 107)

Demokos est chargé de la propagande. Ses moyens qui servent à provoquer la guerre ont la tâche de chatouiller le courage et la motivation des combattants, il cherche à composer le chant de guerre, il propose des fausses nouvelles pour inquiéter les combattants. Il s'affronte par toutes les calomnies à ses adversaires, les pacifistes.

Pour assurer la paix, Hector fait preuve d'une détermination exemplaire. Le guerrier se transforme en négociateur. Avec ténacité, il cherche à railler tous les troyens à sa cause. D'abord, il convoque Pâris pour l'amener à renoncer à Hélène puis il fait venir Hélène elle-même pour la convaincre de retourner en Grèce. Il persuade enfin le roi Priam de fermer

les portes de la guerre. Quant aux grecs, il veut les recevoir dans la paix, et non dans l'excitation et l'agressivité comme les autres troyens, les bellicistes. Il met tout son espoir dans l'entrevue avec Ulysse. Hector soutient la cause pacifiste, il est combattant, dégoûté de la guerre, il se donne tout entier au vrai combat, celui de la paix, c'est un combat pour l'humanité.

"HECTOR:- Tu repartiras ce soir pour la Grèce, Hélène, ou je te tue. " (GIRAUDOUX, 1935, p. 75)

-5-

Le conflit entre les grecs et les troyens, déjà traité dans les récits d'Homère, a servi à Giraudoux d'incarner dans *La guerre de Troie n'aura pas lieu* sa réflexion sur les causes, les mensonges et les horreurs des guerres. De plus, le sujet du conflit, proposé par le mythe antique, permet à Giraudoux d'évoquer dans son théâtre sa vision moderne concernant le conflit qui domine l'époque du XX^e siècle. « L'entretien d'Ulysse et d'Hector évoque clairement les conférences internationales il y a eu 9 pour la seule année 1920 et les efforts des diplomates pour conjurer le conflit. Bien des allusions précises à des événements contemporains peuvent être relevées dans la pièce. La guerre de Troie image typique réinterprétée par Giraudoux renvoie à ces années de crise de la

première moitié du XX^e siècle. Mais la pièce, par sa portée, dénonce aussi bien toutes les guerres.» (FROIS, 1998, pp. 37-38). Créée en 1935, *La guerre de Troie n'aura pas lieu* s'inscrit dans une période complexe et menaçante. À l'époque de l'entre-deux guerres, la paix avait été signée entre la France et l'Allemagne après la guerre de 14-18, mais c'est une lutte sourde qui continuait entre les deux pays. En France, les hommes politiques s'affrontaient. Le clan nationaliste qui cherchait avant tout à affaiblir l'Allemagne s'opposait au clan de la réconciliation qui espérait assurer une paix durable et reconstruire l'Europe. Dans les années 1930, en particulier 1935, la tension internationale monte, la crise économique, le développement des partis fasciste et naziste, l'arrivée d'Hitler au pouvoir, la remilitarisation de l'Allemagne font craindre un nouveau conflit. Les références à cet entre-deux-guerres se révèlent dans *La guerre de Troie n'aura pas lieu* qui évoque : l'attente, l'inquiétude, la menace pesant sur l'époque.

«Ancien combattant de 1914, deux fois blessé, Giraudoux comme beaucoup

-6-

d'hommes de sa génération, est entré écœuré des combats, de la souffrance et de la mort, décide à ce que l'horrible guerre qu'il

avait vécue soit bien la dernière, la "der des ders", comme on disait à cette époque. Ce dégoût de la guerre s'exprime dans la pièce à travers le personnage d'Hector. Ce sentiment n'est pas un rejet abstrait, mais l'expérience de celui qui a vu la bataille et la tuerie. Dans son discours aux morts, il ne recule pas devant l'évocation dramatique des cadavres absents inexistants oubliés sans occupation, sans repos, sans être. Et il prononce une condamnation sans appel de la guerre.» (FROIS, 1998, p. 38).

"HECTOR.- La guerre me semble recette la plus sordide et la plus hypocrite pour égaliser les humains." (GIRAUDOUX, 1935, p. 117)

Alors, on voit qu'Hector, le protagoniste, fait ses efforts possibles pour éviter la guerre. Il s'oppose à toutes les voix de la guerre. Le but essentiel de la pièce de Giraudoux est de démystifier la guerre. Les mots : héroïsme, gloire et honneur sont pour la vision girauducienne des mensonges et des crimes. Au temps de guerre, les valeurs sont faussées et changées de visage. Dans *La guerre de Troie n'aura pas lieu*, Giraudoux dénonce la mauvaise foi des partisans de la guerre, il s'attaque aussi à leurs arguments de la nécessité de la guerre. Par ailleurs, il déclare son soutien pour les pacifistes. Ainsi, Hector s'engage à repousser la menace de la guerre par son désir de la paix. Cette

position se voit clairement lorsqu'Hector supplie son père de fermer les portes de la guerre.

Dans la pièce d'*Électre*, l'image est opposée. L'héroïne, Électre, cherche à tout prix le conflit social par sa quête de la vengeance, ce conflit conduira plus tard à un conflit politique. « Dans le palais d'Argos, ville grecque, vit la famille royale : la reine Clytemnestre, la princesse Électre, sa fille, et Égisthe, cousin du

-7-

roi Agamemnon. Celui-ci a été désigné pour être le régent du royaume depuis la disparition du roi, qui serait mort en glissant sur son épée à son retour de la guerre. En fait, il a été assassiné par Clytemnestre, rongée par la haine, et Égisthe, qui n'est autre que son amant ». (RIGUET, 2014, p. 6) L'action de la pièce se déroule dans un palais qui désigne à la fois une atmosphère familiale et sociale. Cette atmosphère conflictuelle permet à Giraudoux d'incarner sa vision sociale. Électre, par sa grandeur, reste fidèle pour l'amour et la mort de son père dès le début jusqu'à la fin.

"LE JARDINIER.- La voilà, la fenêtre d'Électre.

L'ÉTRANGER.- Pourquoi si haut, presque aux combles ?

LE JARDINIER.- Parce que, de cet étage, on voit le tombeau de son père." (Giraudoux, 2007, p. 10)

De même que le public prévient dès le début le conflit et la chute sociaux de la pièce. Par ce conflit Giraudoux veut montrer sur la scène la comédie bourgeoise moderne. Le personnage du jardinier prédit le malheur social et le sort tragique de la famille royale.

"LE JARDINIER.- On dit alors que le palais rit. Ce qui se passe, c'est qu'en ce moment le palais rit et pleure à la fois." (Giraudoux, 2007, p. 7)

Le public, de sa part, peut prévoir le malheur de l'héroïne lorsque l'étranger, Oreste, décrit la beauté et l'orgueil d'Électre, et la première petite fille précise le malheur de la princesse.

" L'ÉTRANGER.- Je me rappelle surtout deux pieds tout blancs, les plus nus, les plus blancs. Leur pas était toujours égal, sage, mesuré par une chaîne invisible. J'imagine que c'était ceux d'Électre. J'ai dû les embrasser, n'est-ce pas ?

DEUXIÈME PETITE FILLE.- En tout cas, c'est le seul baiser qu'ait reçu Électre." (Giraudoux, 2007, p. 9)

Les personnages des petites filles servent à réciter l'histoire et les relations familiales, comme elles expliquent la peur de Clytemnestre de la vérité ;

"TROISIÈME PETITE FILLE.- Elle a mauvais sommeil parce qu'elle a peur.

PREMIÈRE PETITE FILLE.- De quoi a peur la reine Clytemnestre ?

DEUXIÈME PETITES FILLE.- De tout." (Giraudoux, 2007, pp. 13-14)

Encore sur la scène, on voit la violence sociale qui domine la vie familiale. La pièce traite alors des sujets sociaux incarnés par la famille royale. Par ces sujets, Giraudoux affirme sa volonté de présenter au public une tragédie sociale. Le conflit social engendre la haine, la violence et le crime à la fin. Le mendiant décrit bien ce conflit lorsqu'Égisthe pense à tuer Électre, il lui demande d'épouser le jardinier pour que son meurtre soit plus facile;

"LE MENDIANT à Égisthe.- Bravo! Je vois votre idée. Elle n'est pas mauvaise. C'est assez facile à tuer, une femme de jardinier.

Beaucoup plus facile qu'une princesse en son palais ?" (Giraudoux, 2007, p. 36)

Le complexe d'Électre se voit par sa passion pour son père et sa haine pour sa mère. Comme un signe de devoir et de fidélité, elle doit chercher la vengeance.

"ÉLECTRE.- Je suis la veuve de mon père." (Giraudoux, 2007, p. 41)

À l'égard de Clytemnestre, son dialogue avec sa fille renforce le conflit et l'absence des sentiments maternels.

"ÉLECTRE.- Tu étais une nourrice, pas une mère!

CLYTEMNESTRE.- Ma petite Électre...

ÉLECTRE.- Je ne suis pas ta petite Électre. À frotter ainsi tes deux enfants contre toi, ta maternité se chatouille et s'éveille. Trop tard."

(Giraudoux, 2007, p. 50)

Comme dans *Électre* où la ville d'Argos est menacée par la guerre à cause du conflit de la famille royale, la ville de Troie est aussi menacée par la

-9-

guerre à cause du conflit entre les pacifistes et les bellicistes dès le début de *La guerre de Troie n'aura pas lieu*. Les partisans de la guerre, les bellicistes, menés par Demokos, prétendent les sentiments nationalistes en cherchant à provoquer le conflit. Par contre, les pacifistes cherchent à éviter la guerre, comme le héros Hector qui fait tout pour assurer la paix, il s'efforce à persuader les troyens de fermer enfin les portes de la guerre. Andromaque s'engage avec lui dans la défense de la paix. Les bellicistes et la vieille génération représentée par le roi Priam et le Géomètre composent le clan de la guerre. Tous réunis, ils

s'opposent aux pacifistes. Hector se fait fort d'obliger Hélène à quitter Troie. Bien que Demokos dénonce la restitution d'Hélène comme une lâcheté qui touche l'honneur national, le roi décide de fermer les portes de la guerre. Ainsi, Hector pense au triomphe, le départ d'Hélène obéit certes à Hector, mais le destin et la guerre imposent leur volonté. Hector se sent alors perdre son combat pour la paix.

Femmes-Couples

Le rôle des femmes chez Giraudoux est bien efficace. Andromaque joue un grand rôle qui marque sa responsabilité pour la paix dans laquelle elle a toute confiance, mais Cassandre lui affirme que le destin joue son rôle. Dès la première scène de la pièce, Andromaque exprime son grand souci de la guerre en annonçant le conflit entre la paix et la guerre. Elle s'entretient avec sa belle-sœur, la prophétesse Cassandre.

"ANDROMAQUE.- La guerre de Troie n'aura pas lieu, Cassandre!

CASSANDRE.- Je te tiens un pari, Andromaque.

ANDROMAQUE.- Cet envoyé des Grecs a raison. On va bien le recevoir.

On va bien lui envelopper sa petite Hélène, et on la lui rendra.

CASSANDRE.- On va le recevoir grossièrement. On ne lui rendra pas Hélène. Et la guerre de Troie aura lieu." (GIRAUDOUX, 1935, p.

9)

Dans les scènes suivantes, Andromaque essaie de cacher ses soucis, elle est horrifiée des menaces de la guerre. Mais, elle doit soutenir Hector dans son combat pour la paix. De même qu'elle supporte les humiliations lorsqu'elle accepte les grossièretés d'Oïax, le grec belliqueux, le plus brutal et mauvais qui gifle Hector pour provoquer la guerre. Andromaque prétend que son mari n'est pas giflé par Oïax. Mais, à la fin de la pièce, elle se trouve soumise à la crainte et au pessimisme.

ANDROMAQUE.- Je suis brisée(...). La misère du monde est sur moi ». (GIRAUDOUX, 1935, p. 179)

Comme Hélène est le symbole de la beauté, Andromaque est le symbole de l'amour et de la paix. Elle incarne les soucis de la guerre pour les femmes troyennes, son rôle porte les cris et les voix humains.

"ANDROMAQUE :- Laissez-nous nos maris comme ils sont "
(GIRAUDOUX, 1935, p. 52)

Cassandra est différente des autres jeunes femmes de la pièce. Elle se déclare face à l'idéalisme d'Andromaque et à la frivolité d'Hélène. La prophétesse prévoit le souci du monde :

"CASSANDRE.- Moi je ne vois rien, coloré ou terne. Mais chaque être pèse sur moi par son approche même. À l'angoisse de mes veines, je sens son destin." (GIRAUDOUX, 1935, p. 79)

Signalons que le couple Andromaque-Hector qui représente la voix de la paix se fait le contraire de celui d'Électre et son frère Oreste, ce couple représente la voix de la vengeance et de la guerre au nom de la justice. On trouve alors le

-11-

même rôle efficace des femmes, mais opposé, joué par l'héroïne Électre qui cherche la guerre familiale et puis le conflit politique. Dans *Électre*, l'action dramatique est basée sur la tension familiale, la haine et la violence sont les moteurs essentiels de cette action. Mais Oreste paraît moins dur que sa sœur, son dialogue avec elle exprime clairement la haine familiale et la chute des sentiments dans la famille. Électre prédestine le sort tragique des deux traîtres, Égisthe et sa mère Clytemnestre, par la main de son frère. Oreste explique les sentiments de la révolte d'Électre à l'égard de sa mère :

"ORESTE.- Comment peux-tu ainsi parler de celle qui t'a mise au monde ! Je suis moins dur pour elle, qui l'a été tant pour moi !

ÉLECTRE.- C'est justement ce que je ne peux pas supporter d'elle, qu'elle m'ait mise au monde. C'est là ma honte. Il me semble que par elle je suis entrée dans la vie d'une façon équivoque et que sa

maternité n'est qu'une complicité qui nous lie. J'aime tout ce qui, dans ma naissance revient à mon père." (Giraudoux, 2007, pp. 60-61)

Dans la réplique d'Électre, il n'y a que la haine excessive contre sa mère, cette haine est agressive car elle se mène vers la vengeance.

"ÉLECTRE.- Tout ce qui est de cette naissance du côté de ma mère, je le hais.

ORESTE.- Pourquoi détestes-tu les femmes à ce point ?

ÉLECTRE.- Ce n'est pas que je déteste toutes les femmes, c'est que je déteste ma mère. Et ce n'est pas que je déteste tous les hommes, je déteste Égisthe.

ORESTE. - Mais pourquoi les hais-tu ?

ÉLECTRE.- En fait, j'avais pitié de cette grande reine, qui dominait le monde, et soudain, terrifiée, humble, échappait un enfant comme une aïeule hémiplégique. J'avais pitié de cet Égisthe, cruel, tyran, et dont le destin était de mourir un jour misérablement sous tes coups." (Giraudoux, 2007, p. 61)

Le personnage du mendiant, créé par Giraudoux, se fait croire qu'il est dieu, il joue son rôle à apporter et expliquer les actions de la pièce. Ainsi, il récite au public la légende d'Électre à chercher la vérité et à confirmer la justice. Donc, l'objectif

d'Électre est mutuel : exécuter la vengeance et faire la justice. Le mendiant découvre la vérité comme un prétexte pour la vengeance d'Électre.

"LE MENDIANT.- Électre n'a donc pas poussé Oreste ! Ce qui fait que tout ce qu'elle dit est légitime, tout ce qu'elle entreprend sans conteste. Elle est la vérité sans résidu, la lampe sans mazout, la lumière sans mèche." (Giraudoux, 2007, p. 76)

De plus, le mendiant annonce la violence prévue et l'engagement d'Oreste pour accomplir la tâche de la justice déjà réclamée par sa sœur.

"LE MENDIANT.- C'est le premier repos d'Électre !...C'est le dernier repos d'Oreste!" (Giraudoux, 2007, p. 77)

De sa part, Électre se trouve obligée de dire la vérité à son frère.

"ORESTE.- Notre père, tué ! Qui te l'a dit ?

ÉLECTRE.- Lui-même.

ORESTE.- Il t'a parlé, avant de mourir ?

ÉLECTRE.- Il m'avait parlé mort, le jour même du meurtre, mais cette parole a mis sept ans à m'atteindre." (Giraudoux, 2007, p. 95)

La découverte de la vérité suscite les soucis dans la vie familiale lorsque la reine exprime la peur de son destin tragique, elle se présente dans une situation pitoyable.

"CLYTEMNESTRE.- Aide-moi, Électre !

ÉLECTRE.- T'aider à quoi ? À dire la vérité, ou à mentir ?

CLYTEMNESTRE.- Protège-moi.

**ÉLECTRE. -Voilà la première fois que tu te penches vers ta fille,
mère. Tu dois avoir peur.**

CLYTEMNESTRE.- J'ai peur d'Oreste." (Giraudoux, 2007, p. 101)

On remarque dans la scène suivante qu'Électre incarne sa révolte contre sa condition sociale. Cette révolte prend des dimensions humaines lorsqu'elle insiste

-13-

à rétablir la justice au nom de sa ville, Argos :

**"ÉLECTRE.- C'est ce matin à l'aube, quand on vous donnait Argos
et ses frontières étroites, que je l'ai vue aussi immense et que j'ai
entendu son nom, un nom qui ne se prononce pas, mais qui est à la
fois la tendresse et la justice. (GIRAUDOUX, 1935, p. 133)**

Électre peut donc incarner, par ses mots grandioses, la voix de l'humanité contre l'injustice et la tyrannie, c'est la voix sociale qui se transforme en voix humaine.

**"ELECTRE.- Quand le crime porte atteinte à la dignité humaine,
infeste un peuple, pourrait sa loyauté, il n'est pas pardon."**

(Giraudoux, 2007, pp. 133-1134)

L'héroïne continue à dénoncer l'hypocrisie, elle crie son refus contre les jeux sociaux et politiques. Sa révolte familiale prend aussi des dimensions politiques. Son dialogue avec Égisthe se transforme à une révolte humaine et politique. Giraudoux a voulu donner un aspect politique à sa pièce en vue de lier sa vision socio-humaine avec sa vision politique, il veut alors montrer toutes les images de son époque.

"ÉGISTHE.- Tu parles en jeune fille, non en roi. C'est un immense corps à réagir, à nourrir.

ÉLECTRE.- Je parle en femme. C'est un regard étincelant, à filtrer, à dorer. Mais il n'a qu'un phosphore, la vérité. C'est ce qu'il y a de si beau, quand vous pensez aux vrais peuples du monde, ces énormes prunelles de vérité.

ÉGISTHE.- Il est des vérités qui peuvent tuer un peuple, Électre. ÉLECTRE.- Il est des regards de peuple mort qui est pour toujours étincellent. Plût au Ciel que ce fût d'Argos ! Mais, depuis la mort de mon père, depuis que le bonheur de notre ville est fondé sur l'injustice et le forfait, depuis que chacun, par lâcheté, s'y est fait le complice du meurtre et du mensonge, elle peut chanter, danser et vaincre, le ciel peut éclater sur elle." (Giraudoux, 2007, p. 134)

Électre veut annoncer la vérité tout de suite, elle y est fortement attachée. Cette vérité se présente comme un cri contre l'injustice humaine.

-14-

ÉLECTRE.- C'est aujourd'hui son jour. J'ai déjà trop vu de vérités se filtrer parce qu'elles ont tardé une seconde." (Giraudoux, 2007, p. 135)

Ressort tragique

Selon Giraudoux, « la tragédie suppose d'une horreur en soi, d'une menace imminente, d'une stratosphère surpeuplée.» (GIRAUDOUX, 1941, p. 232). Cette tragédie domine le ressort dramatique des deux pièces. L'aveu de Clytemnestre et la découverte de la vérité à la fin renforcent la haine familiale et préparent le destin tragique pour la famille royale. La reine exprime sa haine pour le roi Agamemnon lorsqu'elle démasque la vérité du passé.

"CLYTMNESTRE.- Le seul homme auquel je n'étais pas, c'était le roi des rois, le père des pères, c'était lui ! Du jour où il est venu m'arracher à ma maison, avec sa barbe bouclée, de cette main dont il relevait toujours le petit doigt, je l'ai haï." (Giraudoux, 2007, p. 140)

Elle continue son aveu fatal, c'est un ressort tragique qui domine la vie familiale.

"CLYTEMNESTRE.- Roi des rois, la seule excuse de ce surnom est qu'il justifie la haine de la haine. Sais-tu ce que j'ai fait, le jour de

son départ, Électre ; son navire encore en vue ? ... Et je me suis glissée vers minuit, dans la salle du trône, toute seule, pour prendre le sceptre à pleines mains ! " (Giraudoux, 2007, p. 141)

La fin de la pièce confirme la tragédie bourgeoise que Giraudoux a voulu présenter sur la scène théâtrale. La vengeance et la mort d'Égisthe et Clytemnestre mènent des troubles politiques à Argos. La ville reçoit donc un sort tragique, elle est victime pour les ambitions des Corinthiens, les ennemis qui profitent de l'absence du chef de l'armée Égisthe, ils attaquent et détruisent la ville. La chute tragique d'Argos est décrite par les Euménides qui symbolisent les déesses de la vengeance. Nous les avons vues au début de la pièce à travers les personnages des petites filles

-15-

grandissant à la fin de la pièce en Euménides, elles soutiennent toujours Électre dans sa vengeance.

"DEUXIÈME EUMÉNIDE.- Te voilà satisfaite, Électre ! La ville meurt !

ÉLECTRE.- Me voilà satisfaite. Depuis une minute, je sais qu'elle renaîtra.

...

J'ai ma conscience, j'ai Oreste, j'ai la justice, j'ai tout.

DEUXIÈME EUMÉNIDE. – Ta conscience ! Tu vas l'écouter, ta conscience, dans les petits matins qui se préparent. Sept ans tu n'as pu dormir à cause d'un crime que d'autres avaient commis.

Désormais, c'est toi la coupable.

ÉLECTRE. – J'ai Oreste. J'ai la justice. J'ai tout." (Giraudoux, 2007, p. 150)

Giraudoux dans ses deux tragédies présente concrètement la force du destin à travers le combat humain d'Hector et le conflit social d'Électre. Dans le combat d'Hector, on voit l'espoir des personnages pacifistes dans leur lutte en face de la fatalité, cet espoir finit par l'échec. Au contraire, dans le combat d'Électre, la fatalité est récupérée par la découverte de la vérité au nom de la justice. Dans les deux combats le tragique s'impose. C'est pourquoi, on voit l'avenir tragique inéluctable. « En donnant à sa pièce ce titre paradoxal et brillant, l'auteur invite à une réflexion sur le destin. Le destin est ce qui s'impose, ce qui est inéluctable. Quels que soient la volonté des hommes et les efforts qu'ils déploient, quels que soient leurs rêves et leurs espoirs, ils ne pourront empêcher la guerre de Troie d'exister. Elle est inscrite depuis le fond des âges dans l'histoire des hommes. Malgré la négation trompeuse continue dans le titre n'aura pas lieu, le destin ne peut pas manquer de s'accomplir nous le savons, parce que qu'elle a déjà eu lieu, la

guerre de Troie aura lieu. Reste à savoir par quelles voies. (FROIS, 1998, p. 44). Même si les pacifistes de *La guerre de Troie n'aura pas lieu* ne peuvent pas arrêter la guerre, ils ne doivent pas être l'instrument de cette guerre. Giraudoux veut montrer donc la responsabilité des hommes. Par contre, il souligne le rôle de

-16-

la bêtise des hommes dans le déclenchement tragique de la guerre. Cette pensée est affirmée par Cassandre :

"Je ne prévois rien. Je tiens seulement compte de deux bêtises, celle des hommes et celle des éléments. " (GIRAUDOUX, 1935, p. 10)

Quant à Andromaque, elle refuse la tragédie de la guerre. Selon elle, cette tragédie ne repose sur aucune justification, elle est fondée sur le mensonge.

"ANDOMAQUE.- La vie de mon fils, et la vie d'Hector vont se jouer sur l'hypocrisie et le simulacre, c'est épouvantable! " (GIRAUDOUX, 1935, p. 132)

Dans *La guerre de Troie n'aura pas lieu*, Giraudoux s'efforçait pour confirmer l'absurdité de la justification de la guerre, il a imaginé le personnage du jeune frère de Pâris, Troïlus, auquel Hélène avait promis de l'embrasser. Il a laissé pour la dernière image de la pièce les portes de la guerre qui

s'ouvrent en découvrant Hélène qui embrasse le jeune. C'est par une dérision lorsqu'on imagine Pâris-Hélène comme un couple sans lendemain. Giraudoux détruit les justifications de la guerre. Il ne laisse pas à la guerre tous ses motifs. Mais la guerre qui menaçait le monde entier en 1935 a eu lieu car les hommes qui prônaient les guerres étaient nombreux et plus puissants. Giraudoux, à sa façon, avait déjà posé ces difficiles questions de la responsabilité et de l'engagement humains. Il s'attaquait également par la dérision au rôle néfaste de l'idéologie des symboles, des grands mots, de la propagande. La pièce parle directement des idéologies d'aujourd'hui, elle présente des personnages qui incarnent l'âge moderne même s'ils ont créés en 1935. Giraudoux a créé alors des héros modernes et renouvelés. Hector et Andromaque incarnent leur espoir par le combat contre la guerre. Hector, encouragé par son épouse, accepte même l'humiliation pour sauver la paix.

-17-

"ANDROMAQUE à Hector.- **Tu as gagné encore ce combat. Aie confiance.**" (GIRAUDOUX, 1935, p. 147)

Hector ne mène pas son combat seul car Andromaque suit toutes les démarches et les obstacles que retrouve son mari. Ce couple continue sa lutte pour la paix malgré les obstacles. À la

fin de la pièce, Hector empêche Andromaque de fermer les oreilles devant l'annonce de la guerre. Cela prouve que tous les deux sont capables de se faire face à la guerre malgré la situation tragique.

Comme Électre, l'héroïne de la justice et de la vérité, Hector est bien le héros de la paix. C'est le vrai combat des héros giralduciens, leurs combats sont justifiables pour des causes humaines. Par-là, Hector et Électre, héros antiques et légendaires, ouvrent la voie à un héroïsme moderne, celui des hommes qui s'engagent par leur grande volonté à imposer l'humanité. Tous les deux, Hector et Électre continuent sans cesse leur chemin héroïque même si la fin est tragique, comme l'affirme Hector lorsqu'il rassure Andromaque ;

"Tu vois qu'il ne faut pas désespérer..." (GIRAUDOUX, 1935, p.

179)

Dans *La guerre de Troie n'aura pas lieu*, les pensées humaines réapparaissent à l'époque du XX^e siècle, elles nous permettent à comprendre combien il faut se méfier des puissants et de leurs mensonges pour les justifications de la guerre.

"HECTOR.- Et vous voulez la guerre ?

ULYSSE.- Je ne la veux pas. Mais je suis moins sûr de ses intentions à elle." (GIRAUDOUX, 1935, p. 169)

Ainsi que la notion du tragique qui domine le XXe siècle se présente en deux dimensions : sociale et humaine, toutes les deux dessinent l'esprit du siècle. Ces

-18-

images modernes reviennent évidemment au tragique antique. L'existence des personnages bien voulue par Giraudoux renforce son intention à montrer sur la scène la dimension sociale et politique, comme c'est le cas dans *Électre* lorsqu'Égisthe exerce un jeu politique. Il est prêt à donner sa vie pour sauver la ville d'Argos. Il s'affronte contre Électre. C'est un conflit entre la vérité absolue et la survie du peuple. Mais ce conflit finit par un acte tragique ; Égisthe et Clytemnestre sont assassinés par Oreste.

Dans cette tragédie, Giraudoux confirme sa vision sociale de l'époque par l'existence et les rôles de ses personnages sur la scène. Dans *Électre* les Théocathoclès sont des personnages incarnant la bourgeoisie moderne. Le président, est un mari faible et ridicule, tandis que sa femme Agathe s'engage pour les revendications féministes. « Les anachronismes : bien que la pièce se déroule dans un cadre antique, elle est jalonnée d'éléments propres à la vie moderne : on y trouve par exemple un cigare, une lampe sans mazout, un

maçon et des revendications sur le droit des femmes. Agathe incarne la femme moderne par excellence. » (RIGUET, 2014, p. 17)

"AGATHE. - Je lui cire ses chaussures. Pourquoi ? ... Je lui brosse ses pellicules. Pourquoi ?...Je lui filtre son café. Pourquoi ?"

(Giraudoux, 2007, p. 109)

C'est la révolte et la revendication modernes incarnées par la liberté féminine. On voit que Giraudoux essaie de relier le passé au présent par les mêmes notions sociales et humaines. On peut aussi trouver dans *Électre* une dimension politique qui incarne le contexte de l'entre-deux-guerres car Giraudoux écrit cette pièce à l'époque de la tension des relations franco-allemandes. La révolte des personnages propose une réflexion politique sur le rôle de chaque individu au sein de la société.

-19-

L'action dramatique d'*Électre* se déroule sur un thème essentiel ; la vérité, c'est l'un des objectifs à chercher pour l'être humain à l'époque moderne où domine l'ambiguïté de l'intrigue qui se base autour des mensonges. Chaque personnage se trouve confronté au mensonge ou tout du moins à la dissimulation: Clytemnestre cache son amour pour Égisthe, elle cache la vérité, le meurtre d'Agamemnon. Oreste, lui-même, se fait d'abord passer pour un étranger, Agathe ment à son mari et

à son amant, et les Euménides sont masquées. Toutes les vérités sont découvertes à la fin. Mais la vérité réclamée par l'héroïne au nom de la justice n'est pas toujours bonne puisqu'elle provoque des ressorts tragiques comme le parricide et le massacre des innocents. Pour cela, cette vérité pourrait même être coupable.

Les notions tragiques des deux pièces, inspirées de l'antiquité, rendent le public suspendu entre le passé et le présent. Giraudoux reprend certains éléments tragiques de ce genre : le choix d'un sujet noble, c'est-à-dire qui traite les grands problèmes moraux, sociaux et politiques. Le conflit entre la justice et l'injustice, la vérité et le mensonge, la paix et la guerre finit tragiquement dans les deux pièces. Ces conflits font renaître des thèmes tragiques : la terreur, la pitié et la fin malheureuse. Les crimes et la haine peuvent susciter la terreur chez les spectateurs et certaines faiblesses comme celles de Clytemnestre appellent à la pitié. L'action tragique de *La guerre de Troie n'aura pas lieu* et d'*Électre* se clôt dans le sang. Néanmoins, Giraudoux trouve la réussite par la renaissance des mythes antiques et leur mariage avec les tragédies modernes.

Conclusion

Les deux pièces étudiées *La guerre de Troie n'aura pas lieu* et *Électre* s'engagent à proposer des idées humaines et sociales. Dans la première, Giraudoux dénonce l'agressivité de la guerre, dans la deuxième, il soutient l'agressivité au nom de la vérité et de la justice humaine. C'est dans le mouvement dramatique des pièces que Giraudoux développe son expérience et sa connaissance du comportement humain. Il donne des réponses amères mais lucides aux problèmes de la guerre et de la société, il mérite donc d'être digne du tempérament d'un visionnaire.

Les événements historiques qui ont suivi *La guerre de Troie n'aura pas lieu* ont mis en évidence la grandeur de la tragédie. Giraudoux avait l'ambition de montrer sur la scène les questions de son époque, ces questions sont éternelles, et les réponses qu'il a apportées dominent encore l'actualité, toutes les deux, questions et réponses, restent valables jusqu'à nos jours. Donc, l'humanisme dans le théâtre girauducien remporte sur les dimensions historiques. La pièce ne parle pas de la guerre elle-même, mais elle révèle la préparation des derniers moments de la paix qui précèdent la déclaration de la guerre. Même si cette pièce est inspirée de la mythologie et de la culture antiques,

elle prend aussi ses sources d'un contexte historique précis : c'est l'époque des années 1930.

Dans *La guerre n'aura pas lieu*, on trouve l'humanité hésitante entre la guerre et la paix, mais elle court d'avance à la guerre. Les efforts humains pour éviter la guerre sont impuissants et le choix, même correct, est inutile devant la

-21-

force absurde du destin. Le héros de cette tragédie, Hector, représente l'humanité toute entière. La guerre est inévitable parce qu'elle s'inscrit dans une sorte de fatalité latente qui se déclenche par un prétexte quelconque ; c'est alors que l'homme entre en tragédie et découvre avec angoisse la précarité de sa condition humaine. Dans *Électre*, c'est pareil, il y a une guerre inévitable. L'acteur principal des deux pièces est le destin. Hector, en criant la paix, se trouve contre la fatalité historique, mais Électre, en suscitant la guerre, se fait le moteur de la fatalité historique. Tous les personnages constituent l'essence de cette humanité poussée par le destin vers la catastrophe.

On remarque que le couple boiteux que Pâris et Hélène forment se voit comme un prétexte et une occasion pour que le destin intervienne. Le même couple aussi boiteux, Clytemnestre et son amant Égisthe, se fait une justification de la guerre sociale

et politique. Hector et Électre ont mené jusqu'au bout le combat de l'humanité pour la paix et la justice, mais, c'est le destin qui a imposé ces amères constations. Le public, de sa part, attend un dénouement sans surprise dont le héros est l'acte tragique de la fatalité.

Les deux faces opposées ; celle de la paix et celle de la guerre sont présentées par la vision contemporaine de Jean Giraudoux proposée au XXe siècle. C'est une époque qui a besoin d'une expression sociale et humaine pour incarner les questions du siècle. Cette vision giralducienne, sociale et humaine, est révélée sur la scène grâce à l'inspiration des mythes antiques.

-22-

Bibliographie

- 1-BERTON Jean-Claude, *Histoire de la littérature et des idées en France au XXe siècle*, Éditions Hatier, Paris, 1983.
- 2-FROIS Étienne, LESOT Adeline, *La guerre de Troie n'aura pas lieu, Giraudoux*, Profil d'une œuvre, Hatier, Paris, 1998.
- 3-GIRAUDOUX Jean, *Électre*, Éditions du groupe, (édition électronique) Ebooks libres et gratuits, 2007.
- 4-GIRAUDOUX Jean, *Littérature*, Éditions Bernard Grasset, Paris, 1941.

- 5-GIRAUDOUX Jean, *La guerre de Troie n'aura pas lieu*, Le Livre de Poche, Texte intégral, Éditions Bernard Grasset, Paris, 1935.
- 6-POTLET Hélène, *25 pièces de théâtre de la littérature française*, Éditions Hatier, Paris, 1995.
- 7-RIGUET Marine, *Électre, Jean Giraudoux*, Éditions Le Petit Littéraire.fr, 2014.
- 8-VIEGNES Michel, *Le Théâtre problématiques essentielles*, Éditions Hatier, Paris, 1992.

Le lieu anthropologique et le non-lieu entre société et littérature : comparaisons textuelles

Dr. Ala Shatnan AL-TEMIMI

Faculté des langues, Université d Kufa

ABREVIATIONS

- Marc Augé, *Non-lieux, introduction à une anthropologie de la surmodernité*, éd. Seuil, (Non-lieux, p.)
- *Désert*, Paris, Gallimard, coll. « Folio », 1980. (D, p.)
- *La Prière de l'absent*, Paris, Seuil, coll. « Points », 1981. (P, p.)
- La tétralogie *L'Éclipse* (*Al-Husūf*) (Éc, p.)
- *Le Puits* (*Al-bi'r*). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibā'a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'alām, 1989, (2e édition, 1991). (Éc, P, p.)
- *L'Oasis* (*Al-wāḥa*). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibā'a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'alām, 1989, (2e édition, 1991). (Éc, O, p.)
- *Les Annales du second déluge* (*Aḥbār al-tūfān al-tānī*). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibā'a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'alām, 1989, (2e édition, 1991). (Éc, An, p.)
- *L'Appel du coucou* (*Nidā' al-waqwāq*). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibā'a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'alām, 1989, (2e édition, 1991). (Éc, Ap, p.)
- La pentalogie de *Villes de sel* (*Mūdūn al-mīlḥ*) (V, p.)
- *Villes de sel, L'Errance* (*Mūdūn al-mīlḥ, al-Tiḥ*), Paris, Actes Sud, coll. « Sindbad », 2013. (V, E, p.)

- *Les Fins (Al-Nihāyāt)*, traduit de l'arabe par Éric Gautier, Damas-Beyrouth Presses de l'ifpo, 2013. (F, p.)

Notes : La traduction de l'arabe vers le français des textes cités dans cette étude est effectuée par nos soins, sauf mention contraire.

Introduction

Pour bien préciser l'origine du rapport entre société et littérature, il est nécessaire de rappeler, pour point de départ, la formule de Bonald bien connue, qui a eu une importance considérable au début du XIX^e siècle : «La littérature est l'expression de la société»¹. Une formule ayant eu une valeur répressive et une fortune singulière ; très vite, elle a été reprise des mains de Bonald par d'autres analystes du problème littéraire et du problème social, qui s'appuyaient notamment sur les premières réflexions de Mme de Staël et de son ouvrage *De la littérature* où elle aussi essayait d'établir une relation précise, scientifique, entre littérature et société. Dès lors, la relation entre la littérature et la société est, bien entendu, une relation étroitement interchangeable, car, la littérature est perçue comme un phénomène social, comme fait de civilisation, pour Pierre Barbéris, «la relation littérature-société peut nous aider à comprendre la littérature »². Un texte littéraire peut servir de référence sociale et historique considérable, Georges Duby affirme : « Moi qui veux être historien des sociétés, j'utilise le

document littéraire comme une source d'informations»³. Pour sa part, Pierre-Louis Rey, en accord avec Georges Duby, constate qu'il n'y a pas de différences qu'extrinsèques entre un livre d'Histoire et un roman, ils se distingueront l'un de l'autre en raison du pacte proposé par l'écrivain au lecteur ou en référence à une réalité peut-être sujette à caution ; il réaffirme qu'«un romancier soucieux de se documenter est plus crédible qu'un historien falsificateur.»⁴

On peut considérer ainsi qu'il y a, dans l'œuvre littéraire, l'expression globale, sinon d'une structure sociale, du moins d'une certaine représentation collective, une image mentale de ce que fut, pour les contemporains, la société d'une époque donnée.

Dans l'époque actuelle, la société moderne où nous vivons, par opposition aux sociétés traditionnelles, primitives et nomades, est caractérisée par un triple excès : excès de temps, excès d'espace et excès d'individualité. Un temps surchargé d'événements, d'actions et de changements ; un espace où l'on passe sans cesse d'une échelle à l'autre, du village à la cité, au grand port, à la grande métropole, voire au planétaire, et dont la circulation et la délocalisation sont les figures familières; en contrepoint de ces phénomènes, une concentration forte sur

l'homme-sujet. Cet excès circonstanciel et spatial, cette individualisation des références, définissent ce qu'on désigne très récemment par le terme « *surmodernité* ».

Dans son ouvrage *Non-lieux, introduction à une anthropologie de la surmodernité*, Marc Augé définit la «surmodernité» en l'opposant à la modernité par trois caractéristiques : la «surabondance événementielle», la «surabondance spatiale», l'«individualisation des références».

Reposant sur les notions de Marc Augé, telles que le lieu anthropologique et le *non-lieu*, ce projet d'étude a pour objectif d'aborder la question de la «surmodernité» en tant que productrice de *non-lieux*, sa relation avec la société et ses effets sur la création littéraire et surtout sur le roman.

Le présent travail tend ainsi à répondre à plusieurs questions, parmi lesquelles :

Qu'entend-on par le lieu anthropologique et le *non-lieu* ? Quelle relation lie le lieu anthropologique et le *non-lieu* aux dimensions identitaires, relationnelles et historiques dans la société ainsi que dans la littérature ?

En tant qu'approche comparatiste, l'étude tend à faire des comparaisons entre des textes romanesques choisis. Elle porte sur des romans français, francophones et arabes. Nous essayons

d'y poursuivre les représentations de la «surmodernité» et ses retombés sur la société.

1. L'anthropologie, la littérature et l'Histoire

La relation entre la littérature et la société est axée sur l'homme, le lien commun entre ce qui est littéraire et ce qui est social. Pour envisager l'univers de l'homme, il est impératif de recourir à l'anthropologie liée d'une manière ou d'une autre à l'étude de l'Histoire qui, à son tour, traite de l'homme et des peuples. La relation entre littérature, société, anthropologie et Histoire est donc étroitement liée à l'homme.

L'anthropologie est l'étude de l'homme et des groupes humains. Philosophiquement, l'anthropologie est la théorie qui met l'homme au centre de ses préoccupations.⁵ Le terme "anthropologie" est composé de deux termes dérivés du grec, *anthropos* (qui signifie l'homme) et *logos* (qui signifie, ici, science)⁶

On distingue l'*anthropologie physique*, la discipline qui élabore les données de l'ethnographie et de l'ethnologie pour contribuer à une connaissance générale de l'homme en tant qu'être biologique, de l'*anthropologie sociale et culturelle* qui étudie la vie des hommes en société à travers leur langue, leurs coutumes,

leurs pratiques, leurs croyances, leurs mythes et leurs institutions.

D'après Kant et les philosophes allemands, l'anthropologie est un nom donné à toutes les sciences qui se rapportent à un point de vue quelconque de la nature humaine, à l'âme comme au corps, à l'individu comme à l'espèce, aux faits historiques et aux phénomènes de conscience, aux règles absolues de la morale comme aux intérêts les plus matériels et les plus variables.⁷

L'Histoire, de sa part, est un récit des faits, des événements relatifs aux peuples en particulier et à l'humanité en général.⁸

Dans son ouvrage *Non-lieux, introduction à une anthropologie de la surmodernité*, Marc Augé tente de bien distinguer entre l'anthropologie et l'Histoire. Pour lui, l'anthropologie a toujours été une anthropologie d'ici et du maintenant. L'ethnologue en exercice est celui qui se trouve quelque part (son ici du moment) et qui décrit ce qu'il observe ou ce qu'il entend dans ce moment même. (...) le fait reste que toute ethnologie suppose un témoin direct d'une actualité présente, tandis que l'historien est celui «qui exploite un document».⁹ Tout ce qui éloigne de l'observation directe du terrain éloigne aussi de l'anthropologie, et les historiens qui ont des intérêts anthropologiques ne font pas de l'anthropologie.¹⁰ Ainsi, l'expression «anthropologie historique» est au moins ambiguë.

Celle d'«histoire anthropologique» paraît plus adéquate.¹¹ L'anthropologue qui a et qui doit avoir des intérêts historiques n'est pas pour autant *stricto sensu* un historien. Cette remarque ne vise qu'à préciser les démarches et les objets : il est bien évident que les travaux d'historiens comme Ginzburg, Le Goff ou Leroy-Ladurie sont du plus haut intérêt pour les anthropologues, mais ce sont des travaux d'historiens : ils concernent le passé et passent par l'étude de documents.¹² D'autre part, ce qui lie l'anthropologie à la littérature plus qu'à l'Histoire, c'est que la littérature, elle aussi, s'intéresse au destin des individus.

Ainsi, la relation étroite de l'anthropologie avec la société ne s'établit pas simplement parce que la représentation de l'individu est une construction sociale qui intéresse l'anthropologie, mais aussi parce que toute représentation de l'individu est nécessairement une représentation du lien social qui lui est consubstantiel ; le social commence, d'après Marc Augé, avec l'individu ; l'individu relève du regard ethnologique.¹³ Partant de ce point de vue d'Augé, nous pouvons ajouter que pour la littérature, le social commence aussi avec l'individu et l'individu relève du regard littéraire. Même si la littérature se définit en tant qu' «ensemble des œuvres écrites auxquelles on reconnaît une finalité

esthétique»¹⁴, la littérature et l'anthropologie regardent l'individu en tant que point de départ pour représenter la société et l'humanité tandis que l'Histoire s'intéresse à examiner- à l'exception des grandes figures historiques, des dirigeants politiques, des rois, etc. - les nations, les peuples et l'humanité toute entière laissant le destin de l'individu aux autres sciences dont l'anthropologie. Mais, en insistant sur l'individu, Augé affirme qu'il ne faut pas séparer l'étude de l'identité individuelle de l'identité collective : «Les représentations de l'altérité intime, dans les systèmes qu'étudie l'ethnologie, en situent la nécessité au cœur même de l'individualité, interdisant du même coup de dissocier la question de l'identité collective de celle de l'identité individuelle.»¹⁵

De même en littérature, un examen du destin individuel conduit nécessairement à une compréhension de l'état d'une société, car la littérature se définit, d'autre part, comme «l'ensemble des productions littéraires d'une nation, d'un pays, d'une époque»¹⁶ et la littérature reste, pour ne pas oublier la formule de Bonald, l'expression de la société.

2. Le lieu et le lieu anthropologique

Pour mieux comprendre le sens du lieu anthropologique, il convient de connaître, tout d'abord la

définition du lieu lui-même. Le lieu est l'espace qu'un corps occupe. Tout corps occupe un lieu, remplit un lieu, est dans un lieu.¹⁷ Louis Marin emprunte à Furetière une définition aristotélicienne du lieu lorsqu'il le qualifie de «Surface première et immobile d'un corps qui en environne un autre ou, pour parler plus clairement, l'espace dans lequel un corps est placé » et cite l'exemple qu'il donne: «Chaque corps occupe son lieu.»¹⁸ Michel de Certeau, pour sa part, voit dans le lieu, quel qu'il soit, l'ordre «selon lequel des éléments sont distribués dans des rapports de coexistence»¹⁹

Mais si Certeau exclut la théorie qui affirme que deux choses occupent la même « place » et s'il admet que chaque élément d'un lieu doit être à proximité des autres, dans un « endroit » propre, il définit cependant le « lieu » comme une « configuration instantanée de positions »²⁰, ce qui revient à dire que dans un même lieu, peuvent coexister des éléments distincts et singuliers, certes, mais auxquels on ne s'interdit pas de penser aux relations ni à l'identité partagée que leur confère l'occupation du lieu commun. À cette définition du lieu commun et de la coexistence entre des éléments distincts et singuliers dans le lieu en question, Marc Augé y ajoute le critère du temps ou de l'histoire, affirmant alors que «toutes les relations inscrites dans l'espace s'inscrivent aussi dans la durée,

et les formes spatiales simples ne se concrétisent que dans et par le temps.»²¹ Augé voit, ainsi, qu'à partir des formes spatiales simples, se croisent et se combinent thématique individuelle et thématique collective.²²

De cette notion du lieu commun, Marc Augé développe sa vision du lieu social, en partant du groupe archaïque des êtres humains. Le lieu commun pour lui, est précisément le lieu qu'occupent les indigènes qui y vivent et y travaillent, qui le défendent, et qui lui tracent les points forts afin d'en marquer des limites. Ils en surveillent ses frontières mais y font aussi des repères, et lui impriment une empreinte particulière qui provient de puissances chthoniennes ou célestes, des ancêtres ou des esprits qui en peuplent et en animent la géographie intime.

Partant de la notion du lieu commun ou du lieu social constitué d'un ou de plusieurs individus dans un cadre spatio-temporel – relationnel, Marc Augé en arrive à la notion du «lieu anthropologique». Il y voit une «construction concrète et symbolique de l'espace». Ces lieux, pour lui sont dotés au moins de trois caractères communs. Ils se veulent (on les veut) «identitaires», «relationnels» et «historiques»²³ : identitaires — c'est-à-dire susceptibles de permettre l'identification de celui qui y naît, y vit ou y meurt —, relationnels — car le lieu contient en lui les relations d'une coexistence qui jouent entre les éléments

qui le composent —, historiques enfin dans la mesure où il contient des repères temporels pour ceux qui y vivent.

La localisation dans le temps et l'espace des individus avec des caractères identitaires et relationnels constituent les normes de base d'un «lieu anthropologique» d'après Augé. Il nous reste à savoir ce que Marc Augé entend par le *non-lieu* et quelle est la différence entre celui dernier et le «lieu anthropologique» et quelles sont les conditions constitutantes du «non-lieu»?

3. Le non-lieu et la surmodernité

Nous avons mentionné que Marc Augé a fondé sa notion du «lieu anthropologique» sur les trois caractères communs, «identitaires», «relationnels» et «historiques», alors qu'il définit la notion du *non-lieu* comme une négation de la notion du «lieu anthropologique»: «Si un lieu peut se définir comme identitaire, relationnel et historique, un espace qui ne peut se définir ni comme identitaire, ni comme relationnel, ni comme historique définira un non-lieu.»²⁴

Augé met en relief alors la dimension relationnelle des individus coexistant dans le lieu anthropologique en allant plus loin lorsqu'il dit que: «nous incluons dans la notion de lieu anthropologique la possibilité des parcours qui s'y effectuent, des discours qui s'y tiennent, et du langage qui le caractérise.»²⁵

Ainsi, pour Augé, un lieu, dans son sens anthropologique, ne peut se définir comme un lieu que lorsqu'il est associé à des symboles et des significations qui y sont introduits, à travers des parcours, des relations, des actions et des conversations, et à travers les possibilités qui s'y présentent. Dès que des individus se rapprochent et se mettent à vivre côte à côte, ils font du social et aménagent des lieux communs pour y mener leur existence. Chaque lieu n'ayant pas d'identité fixe et dans lequel les relations ne se tissent pas, ne durent surtout pas dans le temps, et n'ayant pas de caractéristiques historiques, il est considéré obligatoirement comme un lieu qui rentre dans la catégorie des : «non-lieux» produits par la «surmodernité» qui lui procure alors une dimension dont la provenance appartient à notre époque moderne.

La «surmodernité» a imposé aux consciences individuelles de nouvelles expériences d'isolement directement liées à l'émergence et à la propagation de ces *non-lieux*. Mais le *non-lieu* n'est d'ailleurs pas le synonyme de l'utopie, car le *non-lieu* existe, mais il n'abrite aucune société organique.²⁶ Il est proche, cependant, de ce que Michel Foucault appelle l'*hétérotopie*.²⁷

La surmodernité qu'Augé essaie de définir est celle qui est étroitement adjointe à notre monde d'aujourd'hui, cette modernité excessive qui a produit de nouveaux espaces, espaces

de transit et espaces temporaires qui ne disposent pas de leur propre identité attrayante et dont le nombre augmente au fur et à mesure que la société se modernise et progresse. Le concept de la surmodernité, selon lui, caractérise mieux certains aspects du monde contemporain que le concept de postmodernité. Son concept lui permet d'ailleurs de regrouper trois transformations majeures auxquelles sont soumis nos contemporains : la surabondance événementielle, la surabondance spatiale et l'individualisation des références qui trouvent naturellement leur expression complète dans les *non-lieux*²⁸ comme les aéroports, les autoroutes, les gares, les centres commerciaux. Le *non-lieu* est donc celui dans lequel se déplacent plus fréquemment les touristes, les utilisateurs des infrastructures modernes du transport, les clients des grandes surfaces, et encore les utilisateurs des distributeurs de billets par cartes de crédit.

Ces espaces du transit, temporaires ou plutôt ces *non-lieux* dépourvus d'identité, sont associés à un mouvement d'histoire qui s'accélère en parallèle avec le cours des événements qui se déroulent à une grande vitesse si terrible dans le monde entier. Ces espaces inscrivent en effet dans l'histoire une accélération que l'homme ne parvient plus à freiner, ne permettant plus à

personne de la contenir, car ils tournent sans cesse dans le tourbillon des *non-lieux*.

Mais, Bernard Debarbieux voit que le *non-lieu*, chez Marc Augé, est caractérisé de façon positive cette fois ; il est présenté pour lui comme le produit de la surmodernité, de cette surmodernité qui «impose aux consciences individuelles des expériences et des épreuves très nouvelles de solitude».²⁹ Alors que les «lieux anthropologiques créent du social organique, les *non-lieux* créent de la contractualité solitaire», en ôtant à celui qui y pénètre «ses déterminations habituelles». Ce dernier n'est plus alors «que ce qu'il fait ou ce qu'il vit comme passager, client, conducteur»³⁰. Il est enfermé de gré ou de force dans un espace caractérisé par la vitesse mais aussi par le transit temporaire.

Ainsi et pour conclure, nous pouvons dire que la surmodernité engendre un *non-lieu* dont l'espace ne crée «ni identité singulière, ni relation, mais solitude et similitude»³¹. Mais nous pouvons dire, en revanche, que c'est l'identité des individus qui fait le « lieu anthropologique », à travers des critères authentiques tels que les connivences du langage, les repères du paysage, les règles non formulées du savoir-vivre. C'est le *non-lieu* en l'occurrence qui crée l'identité partagée entre les

passagers ou la clientèle, car l'espace du *non-lieu* délivre celui qui y pénètre de son identité et ses particularités.

4. Les lieux et la littérature

4 .1. Le lieu commun, primitif et le lieu anthropologique

Avant de définir le lieu anthropologique, Marc Augé a entrepris d'étudier les anciennes sociétés indigènes, qu'il appelait (les sociétés archaïques ou arriérées)³², et s'est inspiré des études d'autres chercheurs notamment Marcel Mauss et Claude Lévi-Strauss. Ensuite, il a commencé à les comparer avec les sociétés modernes en leur totalité ainsi qu'en leur individualité.

En effet, Marcel Mauss, précise, avant même Claude Lévi-Strauss et Marc Augé, que l'homme étudié par les sociologues n'est pas l'homme divisé, contrôlé et maîtrisé de l'élite moderne, mais l'homme ordinaire ou archaïque qui se laisse définir comme une totalité :« L'homme moyen de nos jours- ceci est surtout vrai pour les femmes-, et presque tous les hommes des sociétés archaïques ou arriérées, est un total; il est affecté dans tout son être par la moindre de ses perceptions ou par le moindre choc mental. L'étude de cette "totalité " est capitale, par conséquent, pour tout ce qui ne concerne pas l'élite de nos sociétés modernes»³³ Quant à l'individualité à laquelle Mauss

pense, c'est une individualité représentative de la culture, une individualité-type. De sa part, Claude Lévi-Strauss a confirmé, dans l'analyse qu'il fait du phénomène social total, l'observation de l'ensemble des aspects discontinus sous l'un quelconque de ces mêmes aspects (familial, technique, économique) mais aussi de la vision qu'en a, ou peut en avoir, tout indigène qui le vit. Il est donc impératif d'étudier à la fois l'ensemble d'une société, d'un groupe humain ainsi que l'individu qui évolue en leur sein. Pour Lévi-Strauss, «L'expérience du fait social total est doublement concrète (et doublement complète) : expérience d'une société précisément localisée dans le temps et l'espace, mais aussi d'un individu quelconque de cette société.»³⁴

Nous pouvons conclure que les anthropologues sont intéressés à étudier les sociétés archaïques, primitives et indigènes en tant que sociétés-types pour étudier le lieu commun, le lieu social, le lieu intime ou ce que Marc Augé a appelé le «lieu anthropologique», le lieu où les trois caractères s'expriment: les caractères «identitaires», «relationnels» et «historiques», comme nous l'avons abordé précédemment.

Pour étudier ce phénomène et pour lui donner des modèles littéraires, nous traiterons de textes extraits de romans offrant une description des sociétés archaïques, primitives, rurales ou nomades, et nous verrons comment la nature sociale fonctionne

entre les indigènes- ou autochtones-, et comment le lieu primitif diffère du lieu urbain.

4.2. Textes littéraires à comparer

Pour bien préciser la thématique du lieu anthropologique ainsi que le *non-lieu* au niveau littéraire, nous avons opté pour choisir des textes romanesques opposant le lieu anthropologique et *le non-lieu*, la communauté nomade et la communauté sédentaire, l'espace désertique et l'espace urbain, la ville et la nature.

Notre approche comparatiste repose sur la lecture des textes tirés des œuvres romanesques appartenant à quatre littératures mondiales traitant de l'opposition civilisation / nomadisme tout en révélant la misère de l'Homme primitif face à tant de tentatives de l'Homme civilisé de l'arracher à son milieu, la plupart des textes traités sont donc extraits du *Désert* (1980) du Français, J.M.G. Le Clézio, *La Prière de l'absent* (1981) du Français d'origine marocaine Tahar Ben Jelloun, la tétralogie d'*Al-Husūf (L'Éclipse)* (1989) du Libyen Ibrahim al-Koni, et *Al-Tih (L'Errance)* de la pentalogie *Mūdūn al- mīlh, (Villes de sel)* (1984-1989) du Saoudien Abdul Rahman Mounif, et d'un corpus secondaire des mêmes auteurs, ou d'autres, qui nous paraît assez représentatif pour notre recherche. Les œuvres

choisies, qui superposent l'Histoire à la fiction, s'articulent sur une vision dénonciatrice de la modernité et de l'espace urbain et sur une vision idéaliste du nomadisme et de l'espace primitif.

4.3. Territoires primitifs et lieu anthropologique

La question qui se pose en tout premier lieu, dans une communauté nomade divisée en tribus peut être la suivante : y existe-t-il des catégories sociales comme dans les cas analysés par les anthropologues ou les ethnologues tels que Marcel Mauss, Claude Levi -Strauss ou encore Marc Augé ? Ou pouvons-nous trouver dans des groupes sociaux à l'instar des tribus nomades, un véritable lieu anthropologique où les caractères «identitaires», «relationnels» et «historiques» prennent réellement place ?

Les tribus nomades en tant que groupes d'êtres humains rentrent naturellement dans le cadre des catégories sociales susceptibles d'être étudiées par l'anthropologie ou l'ethnologie, mais les lieux y compris le lieu anthropologique nécessitent la présence d'un endroit ou d'un espace fixe dans lesquels vivent et coexistent les indigènes. Nous constatons cependant que les nomades n'ont pas d'espace fixe dans lequel ils mènent leur existence. Ils sont en mouvement permanent. Comment

peuvent-ils alors garder leur héritage culturel, leur civilisation, leur caractère spatio-temporel et leur sociabilité ?

En effet, « nomadisme » et « sédentarisme » forment deux termes qui constituent un duo de mots à la fois indissociable et contradictoire, l'un étant lié de par ses différences avec l'autre, mais aussi l'un se distingue de l'autre de par ses différences avec l'autre. Le nomade est souvent associé à l'image d'un homme «déraciné» ou d'un être «sans-racine», s'agissant d'un homme dépourvu d'espace fixe, étant constamment en mouvement, il se déplace dans un espace ouvert et illimité. Il appartient à une communauté pastorale, contrainte de se déplacer en permanence de par l'effet climatique dont résultent notamment l'aridité naturelle du relief désertique, la migration d'un endroit à un autre à la recherche d'eau ou pour échapper au manque de nourriture, à la famine et à la sécheresse. Mais cette manière de vivre, et ce déplacement perpétuel ont contribué à créer pour les nomades un certain héritage spécifique, voire des coutumes et une civilisation très enracinés dans l'Histoire. L'âge d'un tel phénomène de civilisation primitive est peut-être plus ancré dans l'Histoire que celui de nombreuses civilisations citadines nées et vouées à l'extinction au fil de l'Histoire. Il s'agit pour les nomades d'une civilisation spécifique attachée à la survie. Dans son livre *al-kātib w'al-mānfā* (*L'Ecrivain et*

l'exil), Abdul Rahman Mounif décrit les tribus des nomades en les qualifiant ainsi :

Le mouvement de la migration réalisé par les anciennes tribus dépassait la transition, car ces tribus emportaient avec elles leur civilisation et préservaient leur langue et leurs traditions, tant qu'elles étaient puissantes et capables d'affronter l'autre.,³⁵

Habituées depuis des milliers d'années à ce genre de vie, il est tout à fait naturel aux tribus nomades de résister à toute tentative menée de force ou de gré en vue de leur offrir la stabilité et la sédentarité, actions signifiant pour elles à une sorte d'esclavage, pour eux qui se heurtent tôt ou tard à un refus de leur part. Le narrateur dans *Wāw al-suḡrā (L'Oasis cachée)* d'Ibrahim al-Koni explique dans ce passage significatif et met en lumière une des raisons du déplacement continu des nomades :

Pourquoi se déplacent les tribus ? Pourquoi traversent-elles un lieu vers un autre lieu plus lointain ? Partent-elles par crainte de l'ancienne prophétie qui dit que demeurer dans un lieu quarante jours, c'est devenir esclave de ce lieu ? Ou voyagent-elles car la Loi dit que mourir sur le dos d'un méhari est le destin réservé aux seuls peuples nobles ?³⁶

C'est une question de coutumes et de tradition qui s'installent chez les tribus depuis leur existence et qui évoluent dans un sens

d'une stabilité et de préservation permanente de ces mêmes coutumes et tradition. C'est aussi une sorte de fierté et de noblesse ressenties par tout un peuple qui vit constamment en mouvement perpétuel, pour devenir pour ainsi dire un mode de vie, une culture et une civilisation ancrées et profondément enracinées dans son code tribal et dans ses traditions ancestrales. Ce mode de vie spécifique ne permet pas à ce peuple d'avoir la notion d'une évolution telle qu'elle est conçue par les citadins qui mènent une vie sédentaire mais évolutive propre à eux.

Le sédentarisme suggère d'ailleurs l'idée d'une véritable stabilité liée à un lieu bien déterminé dont les limites sont géographiquement localisées dans un espace fixe, qui appartiennent à des individus voués à y vivre et pour lequel ils proclament leur appartenance, comme le définit Marc Augé. Alors que le nomade est constamment « en chemin », le sédentaire est un homme qui « habite », installé en lieu dit anthropologique rassurant et protecteur, rempli d'habitudes, de coutumes, de conventions et de lois. Quel est donc le lieu anthropologique réservé au nomade ? Pour le nomade, le lieu anthropologique est varié mais identitaire : commençant par une tente, un campement, un puits, un pâturage et se terminant par

le désert lui-même si spacieux soit-il ; le désert tout entier est considéré comme le lieu anthropologique par excellence du nomade, un «lieu mobile». D'après Alina Gageatu-Ionicescu, le rapport entre la civilisation et le désert est marqué par la connaissance directe du désert en tant que lieu vital réservé spécifiquement et exclusivement aux nomades, et même si le désert est considéré comme une «patrie mobile» et un lieu de solitude, il demeure pour eux comme un lieu de rencontre entre les membres de leur collectivité à travers les campements et les aires d'arrêt des caravanes. D'autre part, «les principes de la civilisation nomade sont modelés sur et avec le désert. Dans la poésie préislamique, le désert constitue, en effet, une forme et une substance pour donner une écriture dans laquelle s'insinue le parcours spatial avec les arrêts et les campements qu'il comporte». ³⁷

4.4. Frontières à défendre

Selon Marc Augé, il y a en outre d'autres conditions qui vont dans le sens de déterminer un lieu anthropologique détaillant ses racines: Les origines du groupe sont souvent diverses, mais c'est l'identité du lieu qui le fonde, le rassemble et l'unit, et ce que le groupe doit défendre contre les menaces externes et internes pour que le langage de l'identité garde un

sens.»³⁸ Si nous prétendons que le désert est considéré comme un lieu anthropologique réservé aux nomades, et que c'est ce même lieu qui les rassemble et les unit, il leur appartient alors de le défendre contre les menaces externes et internes, comme le suggère Augé. Trouvons –nous ces conditions répondues dans nos textes ?

Les quatre textes sur lesquels nous nous appuyons pour exposer notre analyse se basent, en effet, dans une large mesure, sur des faits réellement vécus et incluent des personnages ayant véritablement existé. Le Clézio et Ben Jelloun évoquent tous deux la question de la colonisation occidentale du Maroc et son influence néfaste sur la société marocaine, notamment sur les nomades, et plus particulièrement leur résistance face au colonisateur. Les deux romans, *Désert* et *La Prière de l'absent*, relatent deux récits indépendants présentés alternativement, le premier étant historique alors que l'autre est composé de faits bien que fictifs, sont cependant proches de la réalité. Le récit historique raconte la lutte que Cheikh Ma el Aïnine³⁹, le chef de la résistance, a menée contre les troupes coloniales dans le désert du Sahara au début du XXe, alors que l'autre récit relate la vie d'un personnage fictif (Lalla) qui menait une vie

tourmentée à la recherche d'un idéal dans l'époque post-coloniale.

Dans *La Prière de l'absent*, Ben Jelloun adopte, lui aussi, une forme technique, relativement similaire à celle mise en scène par Le Clézio, s'agissant d'un récit historique qui relate l'histoire du même héros historique, Cheikh Ma-Al-Ainayn⁴⁰ et les tribus touaregs dans leur résistance contre la colonisation. Le récit historique se sert d'un arrière-plan emprunté d'un récit fictif principal de trois personnages errants qui, eux aussi, vivent à l'époque post-coloniale dans une situation sociale très difficile.

Le personnage central, Yamna, accompagnée de deux individus vagabonds, se chargent d'amener un nouveau-né⁴¹ à travers le Maroc vers le désert pour atteindre la tombe de Cheikh Ma-Al-Ainayn, située à Smara en plein désert. Tout au long de ce voyage initiatique, Yamna se donne pour mission de relater à l'enfant l'histoire légendaire de Cheikh Ma-Al-Ainayn.

L'Histoire joue également un rôle capital dans la tétralogie d'Ibrahim al-Koni *Al-Husūf (L'Éclipse)*. La fiction s'allie ainsi, là aussi, à l'Histoire pour parvenir à une approche qui met en relief l'Histoire de l'occupation ottomane avant de relater les événements de la campagne italienne et de l'intervention

française menée enfin dans le désert libyen. Une série répétitive de déplacements et d'exodes oblige les tribus nomades à se trouver contraintes de gré ou de force à une résistance inévitable contre les colonisateurs et face à une sédentarisation forcée.

La pentalogie d'Abdul Rahman Mounif *Mudun al milh* (*Villes de sel*) se distingue, quant à elle, par l'omniprésence de l'Histoire. Elle relate symboliquement l'histoire de la fondation de l'Arabie Saoudite qui a coïncidé avec la découverte du pétrole par les Américains, découverte qui marque le début d'une grande mutation dans le désert de l'Arabie. Même si le héros chez Mounif est représenté par un ensemble d'acteurs, la majorité des Bédouins qui ont subi les conséquences de cette profonde transformation, le personnage de Mut'ib al-Hadhal se montre comme le héros principal qui guide la rébellion contre les compagnies pétrolières américaines et les autorités locales qui se reliait à eux en fin de compte.

Nous pouvons affirmer, par conséquent, que la dimension historique joue un rôle primordial dans les textes comparés et que les nomades défendent courageusement leur désert, considéré, en effet, comme leur lieu anthropologique.

Dans les deux romans *Désert* et *La Prière de l'absent*, Le Clézio et Ben Jelloun évoquent le processus de cette confrontation

militaire entre colonisateurs et les tribus du Sahara qui n'ont de choix que de défendre leur désert, leur culture et leur héritage. D'après Bruno Doucy, «la pénétration des troupes françaises sur le sol marocain oblige les tribus nomades à se rebeller et à accepter une lutte inégale.»⁴² Les nomades avec leur chef Cheikh Ma el Aïnine n'ont alors d'autre solution que de résister même si le combat est inéquitable.

Alors, Aujourd'hui, 21 juin 1910, la troupe des tirailleurs noirs est en route, avec les trois officiers français et l'observateur civil en tête. Elle a obliqué vers le sud, pour rencontrer l'autre troupe qui est partie de Zettat. Les mâchoires de la tenaille se referment, pour pincer le vieux Cheikh et ses loqueteux. [D, 383]

Contrairement à l'image sombre du Cheïkh Ma-al-Aynayn et au massacre subi par les résistants exposés dans *Désert* de Le Clézio, Ben Jelloun entame l'histoire de Cheïkh Ma-al- Aynayn dans *La Prière de l'absent* par la nécessité aux résistants de parvenir à la victoire finale contre les envahisseurs. Ici le Cheïkh Ma-al- Aynayn, chef de la résistance nomade réunit à la cité de Smara les principaux chefs des tribus sahariennes pour préparer une offensive militaire :

Notre pays est menacé. Les armées françaises et espagnoles se préparent à occuper le Sahara. Si l'envahisseur réussit à

occuper le sud de Maroc, s'il arrive à couper le pays en deux, ce sera une catastrophe pour l'avenir de nos enfants et petits-enfants. (...). Nous, nous avons peu d'armes et peu de moyens, mais nous avons quelque chose de précieux en plus, la foi et la volonté des hommes. Résister ou mourir. Nous résistons, les envahisseurs connaissent notre détermination.

[P, 165-166]

À l'instar de Le Clézio et de Ben Jelloun, Ibrahim al-Koni développe lui aussi un aspect important de la lutte menée par les nomades contre l'invasion étrangère dans le désert libyen. Le héros chez al-Koni est un personnage fictif, concrétisé par Cheikh Goma qui conduit la résistance saharienne contre la colonisation italienne et française ensuite. Cheikh Goma encourage ici les nomades à défendre leur désert :

La défense du désert est un devoir pour nous tous, et quand les bruits des tirs du fusil prévalent, les livres doivent être rangés et les feuilles refermées pour être mis du côté. [*Éc*, P, 38]

Dans *Mūdūn al- milh (Villes de sel)*, Abdul Rahman Mounif suit la même thématique adoptée dans *Désert*, *La Prière de l'absent* et *L'Éclipse*, quant à la résistance contre les envahisseurs du désert. *Villes de sel* se révèle comme un grand roman de résistance au niveau de l'environnement désertique.

Dans *Villes de sel*, il n'y a ni armée coloniale ni résistants désertiques armés et bien organisés contrairement aux autres romans étudiés; mais nous constatons cependant le déroulement d'une véritable confrontation entre des compagnies pétrolières américaines et un peuple de Bédouins qui manifeste résolument son refus catégorique de se soumettre à la volonté de l'intervention étrangère. Le roman nous présente tout un peuple qui voit dans les sociétés pétrolières étrangères une puissance quasi-dominatrice et tout à fait colonialiste non moins importante que les forces armées du colonialisme. Le chef principal du mouvement de la résistance est un personnage fictif : Mut'ib al-Hadhal. Il se montre inquiet et sceptique face aux Américains dont la présence semble être favorisée et soutenue par le pouvoir local représenté par l'Emir de la région. Mut'ib al-Hadhal doit donc non seulement mener la résistance contre les Américains, mais contre le pouvoir et contre les traîtres qui les aident et facilitent leur prépondérance sur son propre environnement. L'Emir considère les Américains comme des frères qui viennent aider les Hommes du désert et les sauver de la pauvreté et de la misère :

- Sous nos pieds, il y a une mer de pétrole, une vraie mer d'or. Nos frères sont là pour l'exploiter.

C'est alors que Mut'ib al-Hadhal s'adresse à l'Emir :

- En réalité, Excellence, avant que ces diables n'arrivent, tout allait très bien pour nous, railla Mut'ib. Mais depuis qu'ils sont là, la vie pue la pisse de chameau, et c'est de pire en pire.

Agacé, l'Emir se montre outré face aux propos de Mut'ib, il le menace et lui ordonne de ne pas provoquer des problèmes avec les Américains. [*V, E, 96-97*]

Ainsi, l'intuition que Mut'ib al-Hadhal ressent n'est pas illusoire car les Américains ne tardent pas à envahir l'oasis de Wadi al-Ouyoun, et les tracteurs se déchaînent alors contre les vergers comme des «chacals affamés» (*V, E, 115*), détruisant et mettant à sac tout ce qui reste de l'oasis de Wadi al-Ouyoun au milieu des cris de Mut'ib al-Hadhal, qui se lamente impuissant : «Quel désastre ! Quel désastre !, Wadi al-Ouyoun ! » :

Ainsi commença le massacre de Wadi al-Ouyoun, et ainsi se poursuivit-il jusqu'à ce que tout eût disparu. Mut'ib al-Hadhal, qui en vit le début, n'en vit pas la fin. Les oasiens avaient accouru au bruit des machines infernales et contemplaient le carnage. Lorsque, remis de la stupeur du choc initial, ils se retournèrent et regardèrent Ibn al-Hadhal, ils dirent que la scène était d'une infinie tristesse. C'était la première fois qu'ils voyaient un homme de la trempe de Mut'ib pleurer. Ses larmes tombaient dru, mais en silence. Un parfait silence. [*V, E, 115*]

Ce massacre perpétré avec insouciance et mépris contre l'environnement de l'oasis de Wadi al-Ouyoun qui écrase tout, rappelle les massacres commis par le capitaine italien Bordillo, chez al-Koni dans *L'Eclipse*, qui n'hésite pas à tout détruire lui aussi, arrachant avec cynisme les plantes et tuant sans aucune pitié les animaux comme les nomades, et rappelle aussi les événements catastrophiques survenus à l'oasis d'Adrār quand la compagnie grecque y vient pour investir dans la terre de l'oasis d'une manière identique à la compagnie américaine :

(...) Les habitants se sont réveillés au bruit du rugissement des véhicules de la compagnie grecque ; ils regardaient les convois de camions descendre lentement des montagnes sauvages du Nord, au-dessus desquelles se sont élevés les machines, les grues et les foreuses qui rentraient dans l'oasis tout en soulevant une tempête de poussière (...). Les machines sauvages commençaient alors à dévorer la surface et percer le sol jusqu'à créer un mouvement qui commençait à s'animer. [*Éc, An*, 30-31]

Notons que Marc Augé insiste quant à lui sur l'identité et l'appartenance à un lieu, soit l'identité d'un lieu, l'identité d'un individu ou l'identité d'une collectivité. La relation entre ces éléments constitue l'identité du lieu ainsi que de l'individu. Les collectivités (ou ceux qui les dirigent), comme les individus qui s'y rattachent, ont besoin simultanément de penser l'identité

et la relation, et, pour ce faire, de symboliser les constituants de l'identité partagée (par l'ensemble d'un groupe), de l'identité particulière (de tel groupe ou de tel individu par rapport aux autres) et de l'identité singulière (de l'individu ou du groupe d'individus en tant qu'ils ne sont semblables à aucun autre). Le traitement de l'espace est l'un des moyens de cette entreprise.⁴³ Si nous contemplons la relation existant entre les personnages de Mut'ib al-Hadhal, l'Emir, les Américains, les autres nomades et le lieu de l'oasis de Wadi al-Ouyoun qui se trouve en plein désert et où les Américains y découvrent du pétrole et décident de la détruire, nous constatons alors que l'oasis de Wadi al-Ouyoun forme un lieu authentiquement anthropologique pour Mut'ib al-Hadhal et les autres nomades, tandis qu'elle ne constitue qu'un simple *non-lieu* pour les Américains ainsi que pour l'Emir, car les Américains sont des intrus et allochtones futurs de ce lieu et ne connaissent ni l'oasis ni ses habitants, les nomades. L'Emir, pour sa part, même s'il appartient aux autochtones de par sa naissance et connaît toute la région dans laquelle il a vécu bien des années, cette Oasis ne se transforme pour lui qu'un lieu de passage qui sert à lui apporter de la richesse matérielle parce qu'il représente le gouvernement d'une part et qu'il est chargé de faciliter le travail des compagnies pétrolières américaines d'autre part ; ce qui veut

dire qu'il n'existe pour lui la moindre sociabilité ou intimité qui puissent le lier à ce lieu. C'est la raison pour laquelle, il nous semble que seuls les personnages de Mut'ib al-Hadhal et les autres nomades qui le suivent ressentent l'importance de leur oasis et sa dimension identitaire quand ils se trouvent face à la destruction de ce lieu, l'oasis de Wadi al-Ouyoun étant pour eux un véritable lieu anthropologique alors qu'elle n'est autre qu'un *non-lieu* pour les Américains, mais aussi pour l'Emir.

Il est de même pour la compagnie grecque dont l'entrée dans le désert annonce le commencement d'un changement spatio-social qui allait survenir dans le désert, et symbolise alors chez al-Koni, l'envahisseur qui frappe le désert.

Ce site identitaire situé en plein désert représente en effet pour Cheikh Goma et pour les habitants de l'oasis, un véritable lieu anthropologique tandis qu'il n'est autre qu'un *non-lieu* pour les Grecs.

On peut résumer, à travers le schéma ci-dessous, la relation tissée entre les personnages (individu ou collectivité) et les lieux (lieu anthropologique ou *non-lieu*), selon la définition de Marc Augé :

L'invasion de l'oasis de Wadi al-Ouyoun

Lieu 	L'oasis de Wadi al-Ouyoun
Personnages 	
Mut'ib al-Hadhal	Lieu anthropologique
Les nomades	Lieu anthropologique
Les Américains	<i>Non-lieu</i>
L'Amir	<i>Non-lieu</i>

L'invasion de l'oasis d'Adrār

Lieu 	L'oasis d'Adrār
Personnages 	
Cheikh Goma	Lieu anthropologique
Les habitants de l'oasis d'Arār	Lieu anthropologique
Les Grecs	<i>Non-lieu</i>

Après avoir passer en revue les différents aspects de la notion relative au lieu primitif et au lieu anthropologique dans nos romans examinés, on peut se permettre de dire que le lieu primitif dans les romans étudiés représente un lieu effectivement anthropologique, et bien défendu, même si la relation entre ce lieu et les individus qui y vivent demeure relativement instable : une relation de mouvement et de déplacement permanents, car le lieu primitif ici est bien le

désert, alors que les individus qui y vivent représentent la communauté nomade. Et cette communauté dépend par nature du mouvement et de la mobilité qui se déroulent en permanence. La relation entre les individus et le lieu en question se présente et demeure cependant comme une relation interactive dans laquelle se créent des rapports sociaux, intimes, linguistiques et historiques. On peut dire donc que le désert est un lieu effectivement anthropologique pour les nomades car les trois conditions «identitaire», «relationnelle» et «historique» définies par l'anthropologue Marc Augé, sont bel et bien remplies.

4.5. Le *non-lieu*

Nous avons mentionné plus tôt que le *non-lieu* est le produit de la surmodernité qui est, de sa part, un complément à la modernité.

Nous tenons à noter ici que Marc Augé, dans son analyse de la modernité et de la surmodernité, a fait référence à l'Histoire et à la littérature en citant plusieurs textes littéraires, bien connus et de différentes époques, pour retracer historiquement les traits de la modernité, tels que l'*Ulysse* de Joyce, *A la Recherche du temps perdu* de Proust, *Histoire* de Claude Simon. Il y a remarqué une évocation permanente du passé par le présent,

dans le but de mettre en évidence ce qui est nouveau par rapport à l'ancien. Il a conclu que la modernité dans l'art est un processus d'évocation du passé à travers le présent, en d'autres termes, la contiguïté du passé avec le présent, et il en a donné des exemples. Tout en évoquant l'analyse faite par Jean Starobinski, il dit que la « présence du passé au présent qui le déborde et le revendique : c'est dans cette conciliation que Jean Starobinski voit l'essence de la modernité. »⁴⁴

Les citations de tous ordres, insérées dans les textes littéraires, qui proviennent de tous les temps de l'existence, de l'imaginaire et du passé historique, et qui prolifèrent dans un apparent désordre, contribuent d'une manière ou d'une autre à provoquer le sentiment du contraste qu'on remarque entre l'ancien et le nouveau.

Afin de montrer plus d'influence du passé sur le présent en vue d'atteindre ce contraste qui produit la modernité, Augé évoque l'article de Starobinski qui s'ouvre significativement à son tour sur une citation de Baudelaire et du premier poème des *Tableaux parisiens* où le spectacle de la modernité réunit dans une même envolée :

Je verrai l'atelier qui chante et qui bavarde ;
Les tuyaux, les clochers, ces mâts de la Cité,

Et les grands ciels qui font rêver d'éternité.⁴⁵

Dans ces vers, les lieux et les rythmes anciens sont significatifs indiquant que la modernité ne les efface pas mais les met à l'arrière-plan.⁴⁶ Ils sont comme des indicateurs du temps qui passe et qui survit. La modernité en art préserve toutes les temporalités du lieu, telles qu'elles se fixent dans l'espace et la parole. Dans ces trois vers, non seulement le passé et le présent coexistent, mais on voit les trois temps exister, «l'atelier» indicatif du présent, «les clochers, ces mâts de la Cité» indicatifs du passé, «éternité» indicatif d'un futur figuratif.

Derrière la ronde des heures et les points forts du paysage, on trouve en effet des mots et des langages : mots spécialisés de la liturgie, de «l'antique rituel », en contraste avec ceux de l'atelier « qui chante et qui bavarde »; mots aussi de tous ceux qui, parlant le même langage, reconnaissent qu'ils appartiennent au même monde. Au même monde, mais le temps est différent. Mais, malgré la différence des époques, cette modernité à l'époque de Baudelaire conserve encore son identité, sa sociabilité, son intimité, et son historicité. Ce sont cette intimité du lieu et ce mélange de paysages historiques et contemporains qui poussent Baudelaire à rêver d'éternité. Dans le paysage baudelairien, le passé et le présent coexistent dans une

harmonie entre l'ancien et le nouveau sans aucune opposition ni spatiale ni individuelle.

On voit bien, dès lors, ce qui distingue la surmodernité de la modernité telle que la définit Starobinski à travers Baudelaire. La surmodernité n'est pas le tout de la contemporanéité. Dans la modernité du paysage baudelairien, au contraire, tout se mêle, tout se tient : les clochers et les tuyaux sont les « maîtres de la Cité ». Ce que contemple le spectateur de la modernité, c'est l'imbrication de l'ancien et du nouveau. La surmodernité, elle, fait de l'ancien (de l'Histoire) un spectacle spécifique - comme de tous les exotismes et de tous les particularismes locaux.⁴⁷ :

Si nous retournons à la définition de Marc Augé : « si le lieu anthropologique peut se définir comme identitaire, relationnel et historique, un espace qui ne peut se définir ni comme identitaire, ni comme relationnel, ni comme historique définira un non-lieu⁴⁸ », nous trouvons que la modernité aux époques précédentes garde son authenticité anthropologique. Mais, aujourd'hui, nous sommes devant une modernité d'un autre type, une modernité excessive qui dépasse tout indicateur historique, culturel et social ; c'est la modernité que Marc Augé a proposé d'appeler la surmodernité qui est à l'origine productrice de *non-lieux*, c'est-à-dire d'espaces qui ne sont pas

eux-mêmes des lieux anthropologiques et qui, contrairement à la modernité baudelairienne, n'intègrent pas les lieux anciens: ceux-ci, répertoriés, classés et promus «lieux de mémoire », y occupent une place circonscrite et spécifique.⁴⁹ Ces *non-lieux* se propagent partout dans notre monde actuel où se multiplient, en des modalités luxueuses ou inhumaines, les points de transit et les occupations provisoires (les chaînes d'hôtels et les squats, les clubs de vacances, les camps de réfugiés, les bidonvilles promis à la casse ou à la pérennité pourrissante), où se développe un réseau serré de moyens de transport.

Si nous examinons nos textes romanesques choisis, nous les trouvons peuplés des images de ces *non-lieux*.

Chez Le Clézio, dans *Désert*, nous trouvons souvent ce contraste entre le passé et le présent, le passé des lieux anthropologiques et le présent des *non-lieux*. Son personnage Lalla, d'origine nomade et qui est immigré en France n'oublie pas son passé heureux et le compare toujours avec son présent en pleine modernité.

À son époque de Lalla, tous ont oublié leurs ancêtres. Elle seule semble préserver, entretenir la mémoire des nomades- son peuple-, de sa tradition et de son pays natal, le désert. Elle ne peut résister à l'appel du désert, le lieu où elle ressent plus de

bonheur qu'ailleurs. C'est d'ailleurs pour ce lieu et par respect pour son peuple qu'elle décide finalement de quitter la France pour retrouver ses racines, et, en donnant naissance à une petite fille, de tenter de perpétuer son peuple et ses traditions. En France, en pleine modernité et ses *non-lieux*, elle ne supporte pas la ville qui est un lieu vide, où les chemins ne mènent nulle part, elle a soif de liberté, de désert. En retournant dans le désert elle redécouvre de façon instinctive la sagesse de ses ancêtres, les nomades.

Mais son évasion de la France ne signifie-t-elle pas l'évasion de la modernité, de la grande ville, l'évasion de *non-lieu* vers le lieu familier, le lieu anthropologique, qu'est le désert, pour Lalla, le pays natal?

Mais, que signifie la ville pour elle, et pour les personnages de nos romans choisis? La ville est-elle un groupe de *non-lieux*, ou un grand *non-lieu*? Comment les villes paraissent-elles aux yeux des passagers, des voyageurs ou des exilés?

4.6. La grande ville et le non-lieu

Avant d'aborder la thématique de la ville et ses impacts sur ses habitants ou sur les passagers, les voyageurs ou les exilés, dans nos textes comparés, il est nécessaire de rappeler que la ville de notre époque en pleine surmodernité n'est pas au

même niveau que la ville ancienne, même si une sorte de modernité ou de développement relatif existe dans chaque époque.

Il convient de faire aussi la distinction entre la notion de la surmodernité et la modernité évoquée par Marc Augé, telle qu'elle est définie par Starobinski quand il se réfère à Baudelaire, pour se joindre à sa vision et affirmer que la modernité traditionnelle dessinée dans le paysage baudelairien, reflète une image où tout se mêle, tout se tient : le passé et le présent, l'ancien et le nouveau, tandis que la surmodernité fait du facteur ancien (de l'histoire) un spectacle spécifique adaptée à elle et uniquement à elle. C'est cette perception qui s'applique le mieux en effet à la ville vécue à notre époque, celle de la surmodernité, l'époque où les *non-lieux* caractérisent leur espace pratiquement indéfini. Dans la ville moderne, il y a toujours une place spécifique pour tout ce qui est historique, culturel ou touristique (en vitrine, sur les affiches, à droite de l'appareil, à gauche de l'autoroute). ⁵⁰ Augé a profondément contemplé cela :

Depuis Malraux, nos villes se transforment en musées
(monuments ravalés, exposés, illuminés, secteurs réservés et

rues piétonnières), cependant que déviations, autoroutes, trains à grande vitesse et voies rapides nous en détournent.⁵¹

Nous pourrions dire donc qu'il y a une opposition entre l'espace symbolisé d'un lieu et l'espace non symbolisé d'un *non-lieu*, ce qui produit nécessairement une définition négative réservée aux *non-lieux*.

En faisant une lecture profonde dans nos textes romanesques étudiés, nous remarquons aisément qu'ils nous offrent plusieurs exemples de *non-lieux* tels qu'ils sont perçus par Marc Augé, comme les autotroutes, les gares, les lieux de transit et les supermarchés.

Chez Le Clézio, dans *Désert*, nous observons que le *non-lieu* le plus conforme à la définition donnée par Marc Augé, est situé dans la gare de Marseille que Lalla fréquente au cours de son séjour imposé parce qu'elle est contrainte de la fréquenter, par manque d'avoir un lieu où se loger. Le narrateur attribue ainsi à la gare une véritable représentation d'un *non-lieu* : « La gare, c'est aussi un des endroits où l'on peut voir sans être vu, parce qu'il y a trop d'agitation et de hâte pour qu'on fasse attention à qui que ce soit. Il y a des gens de toutes sortes dans la gare (...) » (*D*, 272). La description de la gare présente ainsi des énumérations et des juxtapositions d'êtres divers dans leurs

comportements, leur apparence ou leurs origines ethniques. Cette technique d'énumérations et de juxtapositions a pour but de permettre au lecteur de se rendre compte lui-même de l'importance du *non-lieu* par une présentation exemplaire de ses caractéristiques : notamment la foule diverse et bigarrée présente constamment, jour et nuit dans la gare, lieu destiné par nature au croisement hâtif de personnes de tous horizons, qui ne se connaissent cependant pas. Ainsi et comme le dit Marc Augé, «c'est le *non-lieu* qui crée l'identité partagée des passagers et de la clientèle»⁵², le *non-lieu* ici n'est autre que la gare. La description insiste sur le caractère chaotique des mouvements : certains sont perdus, « qui cherchent avec angoisse le quai », d'autres « clopinent », d'autres encore errent, et se cognent « les uns aux autres.» (D, 272-273). Les immigrants qui arrivent à Marseille sont dépourvus d'identité homogène ; ils sont plutôt chargés d'une seule similitude qui se trouve confrontée de façon visuelle à celle de la ville moderne, ce qui aboutit à créer un enchevêtrement dans les identités, à une rupture nette avec les autres identités, et ne transforme non seulement la gare en un *non-lieu*, sans identité mais en un lieu sans aucun état d'âme, et de contacts relationnels. Rappelons la définition d'Augé : l'espace du *non-lieu* délivre celui qui y pénètre de ses déterminations habituelles. «Il n'est plus que ce

qu'il fait ou ce qu'il vit comme passager.»⁵³. À travers ce *non-lieu*, Lalla regarde ceux qui se déplacent en vitesse et partent vers d'autres villes avec pitié : «Elle regarde ceux qui s'en vont vers d'autres villes, vers la faim, le froid, le malheur, ceux qui vont être humiliés, qui vont vivre dans la solitude. » [D, 273]

Cette description semble nous dire que la gare n'est qu'un lieu de transit caractérisé par une sorte d'errance géographique et elle souligne par là aussi la portée du déracinement des hommes privés de foyer. Ces hommes qui éprouvent l'anonymat et l'humiliation sont également privés de tout ce qui compose une véritable identité. Lalla ne se sent pas différente d'eux ; ils sont tous condamnés à la condition même qu'impose la grande ville : la « solitude » qui est un des composants des *non-lieux*.

Dans *La Prière de l'absent* de Ben Jelloun, les lieux communément habituels situés dans les grandes villes marocaines donnent aussi d'autres exemples significatifs d'un *non-lieu* annoncé. Dans ce roman, le narrateur décrit la gare routière de la ville de Meknès dans laquelle Yamna et ses compagnons trainent comme dans « une cour de miracles », à l'instar de tous les lieux du départ et d'arrivée, comme en conséquence le cas de la gare décrite par Le Clézio. La gare routière présentée par Ben Jelloun, ne manque pas de constituer

« aussi un lieu d'énigme, du jeu, du rire et de violence. » (P, 99), où se réunissent les vagabonds, les mendiants les voleurs et tous ceux que la grande ville marginalise et rejette impitoyablement. Dans la gare routière de Rabat, les mendiants, les vagabonds et les badauds «étaient plus nombreux qu'à Meknès et les adolescents à la recherche de n'importe quel travail pullulaient. Le car fut pris d'assaut par nombre de mains et de bras nus. On vendait la ville, ses remparts, ses enfants et même une partie du ciel. Les mots fusaient de tous côtés dans un vacarme de plus en plus amplifié.» (P, 100).

Dans la gare, quelle que soit la description et la présentation physiques données, à Marseille dans *Désert*, ou à Meknès ou à Rabat, dans *La Prière de l'absent*, les passagers ne se connaissent pas et «passent comme des fantômes, en traînant leurs bagages.» (D, 273) derrière eux. Nous constatons ainsi que cette description s'accorde en effet parfaitement avec les critères de tous les *non-lieux*, critères dont les caractéristiques sont détaillées par Marc Augé qui révèle les expériences vécues d'une solitude et d'un anonymat déterminants, auxquelles est confronté constamment chaque passager, voyageur ou même chaque citadin.

Chez al-Koni et Mounif, il nous suffit de lire la description donnée aux oasis, aux cités, et aux villes implantées dans le désert tels qu'ils sont présentés par les deux romanciers pour constater que chacun de ces espaces géographiques peut être considéré, en y appliquant la règle définie par Marc Augé, comme des *non-lieux* ; ces lieux n'étant en réalité pour les nomades que des lieux de passage où les caravanes font halte pour se reposer et se ravitailler avant de reprendre la route vers d'autres lieux, «À Wadi al-Ouyoun, Oujra, Al-Rahba, Al-Hadra, et autres villages, oasis ou douars, c'était par les pistes qu'arrivaient les caravanes et les nouvelles. Les gens les connaissaient, les surveillaient, attendaient que s'y profilent les voyageurs.» (V, E, 199). Ces lieux pour les nomades peuvent être synonymes d'espaces comparables aux gares, aux supermarchés ou aux hôtels, situés dans de grandes, moyennes ou mêmes de petites villes, où les gens demeurent ou passent provisoirement, comme dans des lieux publics placés dans ces villes où des gens attendent souvent d'autres passagers avec qui ils entretiennent des relations commerciales, «À Rawda, les puits avaient été creusés légèrement sur la hauteur, et c'était là que les caravanes faisaient halte et que les oasiens les attendaient.» (V, E, 199).

Al-Koni nous invite lui aussi, dans une optique quasiment identique, à connaître des lieux familiers comme les oasis d'Adrār, Owaynat, Ghât ou des villes comme Fezzan, Sebha qui sont présentées devant les nomades passagers ou exilés comme des *non-lieux* où ces derniers ne connaissent personne et où personne ne les connaît d'ailleurs non plus.

Il en est de même pour le cas des lieux présentés par Mounif, des grands lieux, décrits par al-Koni, s'annoncent comme des carrefours où se rencontrent plusieurs pistes désertiques. C'est dans un de ces carrefours que le narrateur décrit l'arrivée de deux Nomades, Amūd et Mānṣūr Bārġūġ dans la ville de Sebha pour la première fois, Dès l'arrivée des deux voyageurs dans la ville de Sebha, cette dernière se présente à eux d'une façon qui suggère l'absence de toute identité bien définie, ou plutôt comme une image conforme à un véritable *non-lieu* qui les fascine tout d'abord par sa brillance artificielle, mais qui ne tarde pas à les engloutir dans ses méandres illusoires où ils se sentent aliénés, angoissés, confus, attirés spontanément par un retour au désert, leur lieu primaire, confrontés ainsi à une expérience plus ou moins similaire à celle de Lalla à Marseille.

En abordant les personnages de nos romans, nous remarquons que leur expérience dans la ville est concrétisée par la solitude,

parce qu'ils se trouvent dans un état de passagers, d'exilés ou de voyageurs sans identité précise, raison pour laquelle ils regardent la ville et ses sites de transit, ses rues, ses marchés comme des lieux totalement étrangers à eux, par conséquent des *non-lieux*, ce qui coïncide avec la formule dictée par Marc Augé, «L'espace du voyageur serait ainsi l'archétype du *non-lien*»⁵⁴. En effet, le mouvement ininterrompus des personnages qui font leur *va-et-vient* sans cesse, s'ajoute à l'expérience particulière d'une forme sévère de solitude et, au sens littéral, d'une «prise de position»⁵⁵, - l'expérience de celui qui, devant le paysage qu'il se doit de contempler et qu'il ne peut pas contempler, «prend la pose » et tire de la conscience de cette attitude un plaisir rare et parfois mélancolique. C'est dans cette optique que nous constatons, comme nous le fait remarquer Augé, qu'il n'existe pas parmi les « voyageurs » solitaires du siècle passé, les voyageurs professionnels ou les savants, mais les voyageurs d'humeur, de prétexte ou d'occasion, que nous soyons à même de retrouver l'évocation prophétique d'espaces où ni l'identité, ni la relation, ni l'histoire ne font véritablement sens, où la solitude s'éprouve comme dépassement ou évidemment de l'individualité, où seul le mouvement des images laisse entrapercevoir par instants à celui qui les regarde fuir l'hypothèse d'un passé et la possibilité d'un avenir. En plus de

l'expérience poétique et rêveuse de Baudelaire, Augé ajoute l'expérience pratique de Chateaubriand, qui ne cesse de voyager effectivement, et qui sait voir, mais il voit surtout la mort des civilisations, la destruction ou l'affadissement des paysages.⁵⁶ Nous pouvons pour notre part, ajouter l'expérience du personnage d'Octave, le héros d'Alfred de Musset, décrivant la ville de Paris en train de s'urbaniser au XIXe siècle, et son sentiment de se trouver perdu dans cette grande ville:

Alors je rentrais dans la ville ; je me perdais dans
les rues obscures ; je regardais les lumières de
toutes ces croisées, tous ces nids mystérieux des
familles, les voitures passant, les hommes se
heurtant. Oh ! Quelle solitude ! Quelle triste fumée
sur ces toits ! Quelle douleur dans ces rues
tortueuses où tout piétine, travaille et sue, où des
milliers d'inconnus vont se touchant le coude.⁵⁷

Plusieurs expériences semblables se manifestent dans nos textes comparés. Dans *Désert*, Le Clézio ne présente non seulement Lalla, mais aussi toutes les personnes qui errent comme elle dans la ville, plongées dans ce grand *non-lieu*. Nous constatons alors que toutes ces personnes n'ont de choix que de se noyer dans ce «flot d'hommes et de femmes qui coulent dans les avenues, en faisant un grand bruit de moteurs et de chaussures.» (*D*, 283). Le Clézio, décrit le parcours de Lalla dans Marseille,

en nous offrant l'élément essentiel de la clé d'un *non-lieu* annoncé : «ce sont les journées de Lalla, ici, dans la grande ville de Marseille, le long de toutes ces rues, avec tous ces hommes et toutes ces femmes qu'elle ne pourra jamais connaître.» (*D*, 274). Le tumulte hétérogène de gens venant de tous horizons, de toutes nationalités et de toutes ethnies, fait de Marseille, aux yeux de Lalla, non seulement un *non-lieu*, mais aussi un espace qui sème l'horreur et surtout la peur et le manque d'homogénéité que cette ville présente va renforcer ses sentiments de refus, voire de dégoût, que tant d'autres personnes aussi bien qu'elle ressentent et qui caractérisent l'effet exercé par l'espace d'un véritable *non-lieu*. La multitude étrange et hétérogène de personnes concentrées dans ce *non-lieu* dans Marseille, détaillée dans *Désert*, rappelle la ville de Sebha dans *L'Eclipse* où des personnages nomades décrits par al-Koni, comme Amūd et Mānṣūr, souffrent de mêmes symptômes d'aliénation, dont souffre Lalla. La ville de Sebha se transforme elle aussi dans ce roman, en un grand *non-lieu* réunissant des émigrants venants de tous horizons cherchant du travail, mais souffrant des effets résultants d'un *non-lieu* imposé par la force des choses à eux. En aucun cas, la modernité et la civilisation occidentale, représentée, dans *Désert* de Le Clézio, par la grande ville de Marseille, ne répond à une partie des aspirations

et des attentes de Lalla. Pour Raymond MbassiAtéba, «la civilisation technologique prive l'homme de ses valeurs fondamentales. Elle ruine sa sensibilité et sa sensorialité.»⁵⁸

Chez Ben Jelloun, au Maroc, l'image présentée de la ville et des sociétés locales ne semble pas trop différente de celle vue dans la ville occidentale à l'époque moderne. La modernité qui envahit l'esprit des habitants, résultant de l'entrée en scène des nouvelles valeurs importées de l'Occident après l'indépendance et les contacts entrepris avec le continent européen font du Maroc un pays en perte de son âme authentique. Dans son livre, *Tahar Ben Jelloun, l'écrivain des villes*, Nadia Kamal-Trense nous en dit d'avantage sur ce phénomène: «Au Maroc, les valeurs dominantes se situent exactement entre ces deux pôles, tradition et modernité. Cela fait du Maroc un pays tendu jusqu'au déchirement, le tissu social laisse apparaître des béances dues à cette tension; elle accroît l'ambiguïté des comportements des pratiquants de l'espace urbain.»⁵⁹. Il convient d'indiquer qu'à la manière de Le Clézio qui s'applique à décrire les détails environnementaux néfastes de la Cité, dans Marseille et Paris, en tant que *non-lieux*, les trois espaces urbains par lesquels Lalla passe au cours de son émigration, venant du désert en direction de l'Europe et vice-versa, Ben

Jelloun semble utiliser la même stratégie dans son analyse minutieuse de l'espace nuisible de la société moderne, matérialisée cette fois par les villes de Fès, Meknès, Rabat et Agadir, les quatre grandes villes dans lesquelles Yamna et ses compagnons vagabondent en poursuivant leur route en direction du désert.

Les premiers romans d'Abdul Rahman Mounif laissent déjà entrevoir une certaine critique assez virulente contre la ville moderne, son environnement et sa société décomposée, en tant qu'espace dans lequel se développent la corruption, les facteurs d'avilissement, et de dénaturations physiques et mentales de l'être humain. Mais l'opposition entre ville et village, ou plutôt entre *non-lieu* et lieu anthropologique ne s'est manifestée concrètement chez lui que dans son roman, *Al-ašğār wa iğtiāl marzūk* (*Les arbres et l'assassinat de Marzouk*) (1973). Comme le personnage de Le Clézio, Adam Polo, dans *Procès verbal*, qui vit et supporte mal l'espace citadin car il lui donne un vertige permanent issu des contradictions d'un grand *non-lieu*, le personnage de Mounif, Ilyās mène une vie de déchirement personnel entre la ville et le village d'al-Tiba. Dans la ville où il cherche du travail, il vit une profonde confusion : l'espace rêvé (al-Tiba d'autre fois, en tant que lieu intime, lieu

anthropologique) : la forêt, les sources d'eau, les oiseaux sillonnant et le ciel bleu, s'opposent à l'espace de (la ville, en tant que *non-lieu*, avec ses bâtiments, ses rues, ses voitures, ses usines, ses bruits incessants...).⁶⁰ Le héros s'exprime avec angoisse :

Les grandes villes protègent l'homme... mais elles s'obstinent à le ronger de l'intérieur jusqu'à ce qu'il meure. (...) La vie dans la grande ville est une prison sans fin.⁶¹

Mais le duel qui se révèle chez Mounif sous forme d'un rejet de la ville par rapport au village, le lieu primitif ou le lieu anthropologique par rapport aux lieux urbains et aux *non-lieux*, voit déjà le jour bien avant la sortie de *Villes de sel*, pour se manifester de façon beaucoup plus précise dans son roman, *Les Fins* où la grande ville est présentée comme une véritable antithèse du village désertique al-Tiba, et où l'opposition *non-lieu* et lieu anthropologique s'avère plus nuancée.

Pour conclure enfin, si nous avons qualifié, au cours de l'étude de nos textes romanesques, les grandes villes de *non-lieux*, c'est parce que ces villes telles qu'elles sont présentées, sont exemptes des dimensions bien définies, ce qui est mises en conditions par Marc Augé, pour constituer un lieu «anthropologique» ou «intime». Pour les personnages étudiés,

ces lieux manquent en effet d'une vraisemblable empreinte identitaire, de moindre facteur relationnel et d'aspects issus de l'historique.

En nous basant sur la définition donnée par Marc Augé selon laquelle «un lieu qui ne peut se définir ni comme identitaire, ni comme relationnel, ni comme historique, se définira nécessairement comme un *non-lieu*», nous nous rendons compte aisément alors que la ville présentée dans nos romans ne peut que rentrer dans le cadre d'un véritable *non-lieu*.

Conclusion

La relation entre la littérature et la société est une relation ancienne. Elle est généralement de dépendance réciproque et d'influences mutuelles, ce qui détermine par conséquent la relation de l'écrivain avec sa société. La littérature est un phénomène social, la plupart de son matériel littéraire étant liée dans sa forme initiale, principalement à la vie et à la société. Le principe général de l'origine des genres littéraires et de leur évolution ou de leur extinction est basé essentiellement sur le développement des sociétés car chaque étape du développement social, a ses valeurs esthétiques qui apportent leurs reflets dans tous types littéraires, selon la capacité et la créativité de l'homme créateur dans ce système social.

La relation qui réunit la littérature, la sociologie, l'Histoire et l'anthropologie est axée sur l'Homme. Mais si l'Histoire s'intéresse *a priori* aux peuples et aux nations, l'anthropologie et la littérature font partie des disciplines qui naissent avec l'observation de l'Homme pour se répandre et atteindre le groupe ou la communauté concernés. L'anthropologie suppose

l'existence d'une observation directe d'une actualité présente tandis que l'Histoire dépend des documents. Quant à la littérature, elle s'intéresse aux individus et aux faits sociaux, bien qu'elle puisse puiser dans l'Histoire.

Une définition générale du lieu pourrait être la suivante : le lieu est l'espace occupé par un ou plusieurs individus ou objets. Marc Augé a divisé le lieu en deux types : le lieu anthropologique et le *non-lieu*. Quant au lieu anthropologique, il s'agit d'un lieu commun dans lequel vivent des individus qui le défendent et qui en surveillant les frontières. Mais ce lieu ne pourrait être anthropologique que s'il est doté au moins de trois critères communs : identitaires, relationnels et historiques.

Le *non-lieu* est un lieu qui se trouve en état de relation négative par rapport au lieu anthropologique, ce qui veut dire qu'il représente un espace dont la définition ne comporte les moindres critères identitaires, relationnels, ou historiques. Tout lieu n'ayant pas d'identité fixe, dans lequel les relations ne se tissent pas et ne durent pas, n'ayant pas de caractéristiques historiques non plus, peut rentrer dans le cadre de l'un de ces «non-lieux».

Le non-lieu ne constitue d'ailleurs pas une *utopie* : il existe mais il n'abrite aucune société organique, il est plutôt *hétérotopie*.

Le *non-lieu* est produit par la «surmodernité» qui est un phénomène lié spécifiquement à notre monde contemporain. La «surmodernité» est caractérisée en effet par trois transformations : la surabondance événementielle, la surabondance spatiale et l'individualisation des références. Elle produit de nouveaux espaces : espaces de transit et espaces temporaires dits des *non-lieux* qui ne disposent pas de repères identitaires. Ces espaces créent de la contractualité solitaire en ôtant à l'individu qui s'y trouve ses déterminations habituelles;

ce dernier n'est plus alors que ce qu'il fait ou ce qu'il vit comme un simple passager.

À travers une approche comparatiste basée sur des textes littéraires divers, nous avons essayé d'y appliquer les notions du lieu anthropologique, le *non-lieu* et la surmodernité. Cette approche tente de révéler les oppositions existantes entre le monde moderne et le monde primitif, entre la ville et la nature. Étant donné que les anthropologues et les ethnologues ont travaillé sur les groupes sociaux archaïques en tant que catégories-types pour étudier la société, nous avons trouvé nécessaire de mettre en pratique des textes romanesques traitant de la thématique de la modernité et de la primitivité. Il s'avère que même si le mode de vie du nomadisme est basé sur le déplacement, ce type de communauté parvient néanmoins à préserver son identité, sa tradition et sa culture, et nous constatons alors que les nomades ou les paysans sont solidement attachés à leur milieu, considéré comme un lieu anthropologique de par ses caractères anthropologiques, l'«identitaire», le «relationnel» et l'«historique». Le Lieu anthropologique réservé aux nomades est naturel, primitif et varié mais identitaire, c'est un «lieu mobile» : il s'étend au désert tout entier.

Par contre, les habitants des villes souffrent d'une crise d'un *non-lieu* dépourvu des repères identitaires. Les textes romanesques analysés se basent sur des faits réels et fictionnels et incluent des personnages historiques. Les quatre textes comparés semblent mettre en évidence une résistance contre le phénomène du *non-lieu* et une défense acharnée pour le désert de la part de ses habitants.

Avant d'entrer dans le monde des *non-lieux* et d'analyser l'influence de ces espaces sur les personnages dans nos textes, il nous a fallu donner une définition de la relation entre ces *non-lieux* et la surmodernité, de même que la relation entre cette

dernière et la modernité. La modernité traditionnelle, si l'on ose dire, celle qui existe dans toutes les époques, ne place pas de frontières entre le passé et le présent, entre l'ancien et le nouveau; elle a le privilège de pouvoir créer une coexistence entre la dimension spatio-temporelle et la dimension sociale, tout en préservant l'identité du lieu ainsi que de l'individu. Bref, elle préserve son authenticité anthropologique. La surmodernité consiste, cependant, en un phénomène spécifique, lié notamment à notre époque moderne. Elle revoie l'Histoire à l'archive et ne conserve aucune valeur ni aux relations individuelles, ni aux dimensions spatio-temporelles.

Les *non-lieux* qui en résultent portent les mêmes caractéristiques. Raison pour laquelle, les personnages de nos textes comparés souffrent de la perte de l'identité et de l'aliénation lorsqu'ils passent par une expérience dans l'un de ces lieux. Les *non-lieux* dans les grandes villes, comme les autoroutes, les gares et les points de transit, se transforment en espaces de solitude et de grand anonymat. La ville, elle-même, se transforme en un grand *non-lieu*, qui s'applique en particulier aux personnages tels que les passagers, les voyageurs, les exilés et même aux poètes ou aux rêveurs.

Nous pouvons dire en fin de compte que si l'anthropologie a réussi à mettre l'accent sur les problèmes de la société moderne, et si la littérature a réussi à les révéler, les critiquer et répondre à leurs échos dans de nombreux moyens d'écriture, il est temps pour la société elle-même de trouver les solutions à ses problèmes dont le phénomène lié à la surmodernité.

Notes

¹ Cité dans : Soreil Arsène, «La littérature expression de la Société», In: *Revue belge de philologie et d'histoire*, tome 10, fasc. 1-2, 1931. pp. 162-168.

²Cf. Pierre Barbéris et Georges Duby, « Littérature et société » dans *Écrire... Pour quoi ? Pour qui ?*, Grenoble, Presses universitaires de Grenoble, 1975, pp. 35-65.

³Ibid

⁴Pierre-Louis Rey, *Le Roman*, Hachette, Paris, 1992, p. 11.

⁵ Larousse en ligne :

(<https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/anthropologie/3893?q=anthropologie#3888>) consulté le 02.04.2020

⁶Nicholson , C , *Anthropology and Education* , Columbus, Ohio, 1968, p.1

⁷ Le Littré, L'anthropologie

⁸ Le Littré, L'Histoire

⁹Marc Augé, *Non-lieux, introduction à une anthropologie de la surmodernité*, p. 16

¹⁰*Ibid*, p .17

¹¹ *Ibid*, p .23

¹² *Ibid*, p .23

¹³ *Ibid*, p.31

¹⁴ Larousse en ligne : Littérature

¹⁵ *Non-lieux*, p.30

¹⁶ Le Littré, La Littérature

¹⁷ Le Littré, Le lieu

¹⁸ Louis Marin, « Le lieu du pouvoir à Versailles », in *La Production des lieux exemplaires*, Les Dossiers des séminaires TTS, 1991, p. 89.

¹⁹ Michel de Certeau, *L'Invention du quotidien. 1. Arts de faire* (édition de 1990, Gallimard, « Folio-Essais », p. 173

²⁰ *Ibid*, p. 173

²¹ *Non-lieux*, p.76

²² *Ibid*, p.80

²³ *Ibid*, p. 69

²⁴ *Ibid*, p.100

²⁵ *Ibid*, p.104

²⁶ *Ibid*, p.140

²⁷ Michel Foucault, *Le Corps utopique, Les Hétérotopies*, Nouvelles Editions Lignes, Paris, 2009 , p. 21

²⁸ Augé, p.136

²⁹ Bernard Debarbieux, « Non lieux », *op. cit.*, p. 90

³⁰ *Ibid*

³¹ *Non-lieux*, p.130

³² *Ibid*, p.31

³³ Marcel Mauss, *Sociologie et anthropologie*, PUF, 1966, p. 306

³⁴ cité par Marc Augé, *Non-lieux*, p.32

³⁵ Abdul Rahman Mounif, *al-kātib w'al-mānfā (L'Ecrivain et l'exil)*, al-mūassāsāt al-'arabīat lil -dirāsāt w'al-nāšr, Beyrouth, 1994, p. 86.

³⁶ Ibrahim al-Koni *Wāw al-suġrā (L'Oasis cachée)*, *op.cit.*, p.19.

³⁷ *Lectures de sable, Les récits de Tahar Ben Jelloun*, Thèse de doctorat d'Alina Gagea tu-Ioniques, sous la direction de Mme Lelia Trocan et M. Marc Gontard, Université européenne de Bretagne, 2009, p. 25.

³⁸ *Non-lieux*, p.60

³⁹ Ma el Aïnine ou Ma El Aïnin, Ma al-'Aynayn, Mel-Aynin et autres translittérations (Mohamad Mustafa Ould Sheikh Mohamad Fadel), est un cheikh saharien qui a vécu de la fin du XIXe siècle au début du XXe siècle et qui s'est opposé aux colonisateurs occidentaux en lançant un appel pour inviter la population locale à déclencher la guerre sainte. Il est le fondateur de la ville de Smara. Il a été soupçonné d'être à l'origine de l'assassinat du commissaire français de Mauritanie, Xavier Coppolani, en 1905. Il meurt le 23 octobre 1910 à Tiznit, comme dans le roman de Le Clézio. (Cf. Nicolas Nadège, *Désert*, J. M. G. Le Clézio, Fiche de lecture, Le Petit Litteraire.fr, 2013, p.2).

⁴⁰ Nous tenons à noter que Ben Jelloun utilise l'orthographe (Ma-Al-Ainayn) tandis que Le Clézio l'écrit ainsi (Ma el Aïnine); et pour respecter le choix de chaque auteur, nous utiliserons la transcription de ce nom utilisée dans chaque roman quand nous analysons leurs textes.

⁴¹ Un enfant est né mystérieusement d'un arbre devant les yeux de Yamna et ses compagnons dans le cimetière de Fès. Autour duquel s'articule le secret de la quête du désert.

⁴² Bruno Doucey, *Désert, Le Clézio*, Hatier, coll. « Profil d'une œuvre », 1994.. p. 60.

⁴³ *Non-lieux*, p.67

⁴⁴ *Ibid*, 98

⁴⁵ Baudelaire, *Tableaux parisiens*, cité par, Marc Augé, *op.cit.* , p. 99

⁴⁶ *Non-lieux, op.cit.* , p. 99

⁴⁷ *Ibid*, p.138

⁴⁸ *Ibid*, p.100

⁴⁹ *Ibid*.

⁵⁰ *Ibid*, p.138

⁵¹ *Ibid*, p.94

⁵² *Ibid*, p.127

⁵³ *Ibid*, p.12^a

⁵⁴ *Ibid*, p.110

⁵⁵ *Ibid*.

⁵⁶ *Ibid* 111

⁵⁷ En effet, le personnage d'Octave dans le roman de Musset *La Confession d'un enfant du siècle* est le témoignage d'une mélancolie profonde qui frappe tout une génération après la chute de l'Empire et la montée de l'urbanisation moderne. Il traduit le dégoût du monde civilisé et ce qu'on appellera par la suite le mal du siècle. (Cf. Alfred de Musset, *La confession d'un enfant du siècle*, Charpentier, Librairie –Editeur, 1840, Paris, pp. 58-59).

⁵⁸ Raymond MbassiAtéba, *Identité et fluidité dans l'œuvre de Jean-Marie Gustave Le Clézio, une poétique dans la mondialité*, L'Harmattan, Paris, 2008, p.136.

⁵⁹ Nadia Kamal-Trense, *Tahar Ben Jelloun, l'écrivain des villes*, L'Harmattan, 1998, p.111.

⁶⁰ Raouf Essassi, *Écriture et structuration romanesque dans l'œuvre de 'Abd al-Raḥmān Munīf*, Thèse, Université Sorbonne Nouvelle, Paris III, 1993, pp. 176-177.

⁶¹ Abdul Rahman Mounif, *Al-ašḡār wa iḡtiāl marzūk (Les arbres et l'assassinat de Marzouk)* (1973), p. 95 (citations citées et traduites par Raouf Essassi, *Écriture et structuration romanesque dans l'œuvre de 'Abd al-Raḥmān Munīf*, op. cit., p.179).

BIBLIOGRAPHIE

AUGÉ, Marc, *Non-lieux, introduction à une anthropologie de la surmodernité*, La Librairie du XXe siècle, Seuil, Paris, 1992.

AUGÉ, Marc, *Pour une anthropologie des mondes contemporains*, Editions Flammarion, Paris, 2010

ARSENE, Soreil, «La littérature expression de la Société», In: *Revue belge de philologie et d'histoire*, tome 101 fasc. 1-2, 1931. pp. 162-168.

BARBERIS, Pierre, DUBY, Georges, «Littérature et société » dans *Écrire... Pour quoi ? Pour qui ?*, Grenoble, Presses universitaires de Grenoble, 1975

BAUDELAIRE, *Tableaux parisiens*, cité par, Marc Augé, (*Non-lieux, introduction à une anthropologie de la surmodernité*, Paris, La Librairie du XXe siècle, Seuil, 1992.)

DEBARBIEUX, Bernard, «Non lieux». In: *Espace géographique*, tome 22, n°1, 1993

DE CERTEAU, Michel, *L'Invention du quotidien. 1. Arts de faire* Gallimard, « Folio-Essais», édition de 1990

DE MUSSET, Alfred, *La confession d'un enfant du siècle*, Charpentier, Librairie –Editeur, 1840, Paris

DOUCEY, Bruno, *Désert, Le Clézio*, Hatier, coll. « Profil d'une œuvre », 1994.

ESSASSI, Raouf, *Écriture et structuration romanesque dans l'œuvre de 'Abd al-Raḥmān Munīf*, Thèse, Université Sorbonne Nouvelle, Paris III, 1993, pp. 176-177.

FOUCAULT, Michel, *Le Corps utopique, Les Hétérotopies*, Nouvelles Editions Lignes, Paris, 2009

GAGEATU-IONIQUES, Alina, *Lectures de sable, Les récits de Tahar Ben Jelloun*, Thèse de doctorat, sous la direction de Mme Lelia Trocan et M. Marc Gontard, Université européenne de Bretagne, 2009

KAMAL-TRENSE, Nadia *Tahar Ben Jelloun, l'écrivain des villes*, L'Harmattan, 1998

MARIN, Louis, «Le lieu du pouvoir à Versailles », in *La Production des lieux exemplaires*, Les Dossiers des séminaires TTS, 1991

MAUSS, Marcel, *Sociologie et anthropologie*, PUF, 1966

MBASSI ATEBA , Raymond, *Identité et fluidité dans l'œuvre de Jean-Marie Gustave Le Clézio, une poétique dans la mondialité*, L'Harmattan, Paris, 2008

MOUNIF, Abdul Rahman, *al-kātib w'al-mānfā (L'Ecrivain et l'exil)*, al-mūassāsāt al-'arabiāt lil -dirāsāt w'al-nāšr, Beyrouth, 1994

NADEGE, Nicolas, *Désert*, J. M. G. Le Clézio, Fiche de lecture, Le Petit Litteraire.fr, 2013

NICHOLSON, Clara K, *Anthropology and Education* , Columbus, Ohio, 1968

REY, Pierre-Louis, *Le Roman*, Hachette, Paris, 1992

Textes romanesques

LE CLÉZIO, J.M.G., *Désert*, Paris, Gallimard, coll. « Folio », 1980.

LE CLÉZIO, J.M.G., *Le Procès-verbal* (roman), Paris, Gallimard, 1963.

BEN JELLOUN, Tahar, *La Prière de l'absent*, Paris, Seuil, coll. « Points», 1981.

AL-KONI, Ibrahim, la tétralogie d'*Al-Husūf (L'Éclipse)* :

Al-bi'r (Le Puits). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibāa a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'ālām, 1989, (2e édition, 1991).

Al-wāḥa (L'Oasis). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibā a'a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'alām, 1989, (2e édition, 1991).

Aḥbār al-tūfān al-tānī (Les Annales du second déluge). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibā a'a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'alām, 1989, (2e édition, 1991).

Nidā' al-waqwāq (L'Appel du coucou). Coédition. Beyrouth : Dār al-tanwīr li al-ṭibā a'a wa al-našr et Limassol (Chypre) : Tāssīlī li al-našr wa al-i'alām, 1989, (2e édition, 1991).

AL-KONI, Ibrahim, *Wāw al-suġrā (L'Oasis cachée)*, *op.cit.*,

MOUNIF Abdul Rahman, *Villes de sel, L'Errance (Mūdūn al- mīlh, al-Tīh)*, Paris, Actes Sud, coll. «Sindbad», 2013.

MOUNIF Abdul Rahman, *Les Fins (Al-Nihāyāt)*, traduit de l'arabe par Éric Gautier, Damas-Beyrouth Presses de l'ifpo, 2013.

MOUNIF, Abdul Rahman *Al-ašġār wa iġtiāl marzūk (Les arbres et l'assassinat de Marzouk)* (1973)

Sitographie et dictionnaires

Dictionnaire et Encyclopédie Larousse, [en ligne], URL : <http://www.larousse.fr>

Le Site officiel de Ben Jelloun, URL: www.taharbenjelloun.org

LITTRE, Emile, *Dictionnaire de la langue française*, Librairie Hachette, Paris, 1889.